www.bustaneketab.com

بوستان كتاب

علوم القرآن عند المفسرين

المجلد الثالث

مركز الثقافة والمعارف القرآنية

بسم الله الرحمن الرحيم

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

علوم القرآن عند المفسرين

موضوع:

علوم قرآن: ۲۲ (قرآن: ۵۴)

گروه مخاطب:

- تخصصی (پژوهشگران و اساتید حوزه و دانشگاه)

۳۲۱

۲۸۲۱

آثار مرکز فرهنگ و معارف قرآن/۱۰

کتابخانه مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

شماره ثبت: ۳۳۷۶۸

تاریخ ثبت :

مكتب الإعلام الإسلامي في الحوزة العلمية. مركز الثقافة والمعارف القرآنية.

علوم القرآن عند المفسرين / مركز الثقافة والمعارف القرآنية التابعة لمكتب الإعلام الإسلامي. ـ قم: مؤسسة بوستان كتاب (مركز الطباعة والنشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي)، ۱۳۷۴.

۳ ج. ـ (مؤسسه بوستان کتاب؛ ۳۲۱. کتاب‌های مرکز فرهنگ و معارف قرآن؛ ۱۰) (علوم قرآن؛ ۲۲. قرآن؛ ۵٤)

۵۰۰۰۰ ریال: (ج. ۳) 4 - 176 - 548 - 964 - ISBN 978 ـ (دوره) 1 - 177 - 548 - 964 - ISBN 978

فهرست نویسی براساس اطلاعات فیپا.

ص. ع. به انگلیسی: Markaz-u th-Thighāfa(h)t-i va l-Ma'ārif-i l-Ghur'āniyyah.

'Ulūm-u l-Ghur'ān 'ind al-Mufassirīn [Qur'ānic Sciences and Exegetists]

کتابنامه به صورت زیرنویس.

چاپ دوم: ۱۳۸۶.

۱. قرآن ـ علوم قرآنی. الف. دفتر تبلیغات اسلامی حوزهٔ علمیهٔ قم. مرکز فرهنگ و معارف قرآن. ب. دفتر تبلیغات اسلامی حوزهٔ علمیهٔ قم. مؤسسه بوستان کتاب. ج. عنوان.

BP ۶۹/ ۷ م ۷ ع ۷ ۲۹۷/۱۵

۱۳۸۶

علوم القرآن عند المفسرين

الجزء الثالث

مركز الثقافة و المعارف القرآنيّة

بوستان کتاب
۱۳۸۶

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

علوم القرآن عند المفسرين /ج ٣

● تأليف: مركز الثقافة والمعارف القرآنية

● الناشر: مؤسسة بوستان كتاب (مركز الطباعة والنشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي)

● المطبعة: مطبعة مؤسسة بوستان كتاب ● الطبعة: الثانية / ١٤٢٨ ق، ١٣٨٦ ش

● الكمية: ١٠٠٠ ● السعر: ٥٠٠٠ تومان ● السعر الدورة: ١٧٠٠٠ تومان

جميع الحقوق © محفوظة

printed in the Islamic Republic of Iran

✔ العنوان: قم، شارع شهداء (صفائيه)، ص ب ٩١٧، الهاتف: ٧ـ ٧٧٤٢١٥٥، الفاكس: ٧٧٤٢١٥٤، الهاتف: ٧٧٤٣٤٢٦

✔ المعرض المركزي (١): قم، شارع شهداء (بتعاون أكثر من ١٧٠ ناشر يعرض اثني عشر ألف عنواناً من الكتب)

✔ المعرض الفرعي (٢): طهران، شارع فلسطين الجنوبي، الزقاق الثاني (بشن)، الهاتف: ٦٦٤٦٠٧٣٥

✔ المعرض الفرعي (٣): مشهد المقدّسة، تقاطع خسروي، مجمّع ياس، الهاتف: ٢٢٣٣٦٧٢

✔ المعرض الفرعي (٤): أصفهان، تقاطع كرماني، گلستان كتاب، الهاتف: ٢٢٢٠٣٧٠

✔ المعرض الفرعي (٥): أصفهان، ساحة انقلاب، قرب سينا ساحل، الهاتف: ٢٢٢١٧١٢

✔ وكالات بيع كتب المؤسّسة في البلد وخارجه (المنضمّ إلى ورقة الاستطلاع للآثار في نهاية الكتاب)

البريد الالكتروني: E-mail:bustan@bustaneketab.com

استلام الرسالة (SMS) بالحروف اللاتينية: ١٠٠٠٢١٥٥

الآثار الحديثة في المؤسّسة والتعرّف إليها في «وب سايت»:

http://www.bustaneketab.com

مع جزيل الشكر والتقدير لجميع الزملاء الذين ساهموا في استخراج هذا العمل منهم:

● أعضاء لجنة دراسة الإصدارات ● أمين لجنة الكتاب: جواد آهنگر ● الملخص الإنجليزي: عبدالمجيد مطوريان ● الملخص العربي: سهيله خاتمي ● فيپا: مصطفى محفوظي ● الإشراف والمراقبة: عبدالهادى اشرفى ● تصميم الغلاف: حسن محمودى ● الإعداد: حسين محمدى ● طلبات الطبع: علي عليزاده و امير حسين مقدم‌منش ● شؤون الطباعة: سيد رضا محمدى وبقية الزملاء في قسم الليتوغرافيا، الطباعة والتجليد.

● الرئيس المؤسسة

سيد محمد كاظم الشمس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله الذى خلق الانسان وعلّمه البيان ، وسلك به سبل الهدى بعلم الدليل ومنة البرهان ، واحتجّ على عباده برسله واوصيائهم ليخرجوهم من ظلمات الكفر والضلالة الى نور الهداية والإيمان ، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمّد ﷺ الذى نوّر الله به صدور أنبيائه واصفيائه بلوامع العرفان وعلى اخيه ووصيّه ووارث علمه وآيته العظمى اميرالمؤمنين على بن ابى طالب عليه السلام ، وعلى أولادهما الأطهرين وذريتهما الأكرمين ، لا سيما مؤسس الجمهورية الاسلامية وقائد الثورة الكبير الامام الخمينى (قدس سره الشريف) وخلفه آية الله السيد الخامنئي ولى أمر المسلمين وقائد ثورتنا الاسلامية أدام الله ظلّه .

أما بعد ، إن الإهتمام والعناية الخاصة ، التى أبداها المسلمون منذ بداية نزول آيات القرآن الكريم ، بتعلّمهم وتعليمهم وحفظهم وقراءتهم للقرآن الكريم ، قد أسفر عن إعطاء أهمية من الدرجة الاولىٰ للقرآن الكريم ، وتفسيره وكل ما يتعلق به ، وكان للاشتغال بهذه العلوم مكانة مقدسة لا توصف ومغفرة عظيمة للمجتمع لا توازى .

ومع اتساع نفوذالاسلام فى العالم منذ القرن الثانى بدأت أُسس التأليف ودُوّنت الكتب فى مجال التفسير والكتب التى تختص بموضوع معين من مسائل العلوم القرآنية نظير : القراءات ، إعراب القرآن، أسباب النزول وغيرها وفى القرن الثامن وأواخر القرن التاسع دُوّنت المؤلفات التى تتضمن مجموعة من المباحث المهمة لعلوم القرآن الكريم نظير (البرهان فى علوم القرآن) لعبد الله الزركشي و(الإتقان فى علوم القرآن) لجلال الدين السيوطي . ومن بعده صُنّفت كتب عديدة فى علوم القرآن باللغة العربية وغيرها ، ونحن فى غنى عن ذكر نماذج أُخرى لئلا يجرّنا ذلك الى تفاصيل أُخرى . وأيضا لقد قدّم الكثير من المفسرين المتقدمين والمتأخرين مباحث من علوم القرآن فى مقدمات تفاسيرهم أو فى متنها بصيغة الاستدلال والمطلوب رجحانه ،

والبعض منهم بحثها بشكل اجمالي ومختصر، والبعض تعرّض الى بحث المطالب بالتفصيل. وعلى أي حال؛ فإن مجيء هذه المباحث كان بشكل مندمج في التفاسير وغير مستقل، وعليه فقد تعرّضت وكذلك تتعرض الى غفلة المحققين. وصعوبة التتبع والتحقيق في بطون هذه الكتب التفسيرية المتفرقة والعديدة من جهة وأهمية وقدسية مباحث علوم القرآن بين سائر العلوم الاسلامية من جهة اخرى وعدم الاكتفاء بالكتب الخاصة بعلوم القرآن لأجل البحث والتحقيق الكامل من قبل الباحثين من جهة ثالثة، كان من الضروري الإقدام على تنسيق وتوحيد هذه المجاميع القيّمة والنفيسة، ومع ان هذا العمل لم يكن ميسوراً كي يتسع ويشمل جميع مؤلفات وكتب العلوم القرآنية إلاّ أنه في هذا المشروع يبدو ممكناً فيما يخص مقدمة الكتب التفسيرية، في خلق الدافع البدائي لجمع وتنظيم هذه المباحث، وقد أقدم مركز الثقافة والمعارف القرآنية على ملء هذه الفجوة، فانطلقت خطوة ـ مع قصرها ـ لتهيئة موطىء قدم في مجال التحقيق في العلوم القرآنية.

والجدير بالذكر، أنه منذ بداية هذا المشروع كان من المقرر أن نجعل في نهاية كل مبحث خلاصة للتحقيق المعدّ، ونتتخب الرأي الأفضل، ومن خلال العمل توصّلنا الى أنه من الأفضل أن تناط المهمة هذه الى المحققين المستفيدين من هذه المجموعة، ولذا اكتفينا بنقل أقوال المفسرين المذكورة في مقدمات تفاسيرهم ـ عدا تفسير الميزان، فقد تمّ استخراج بحوث العلوم القرآنية الموجودة في متن التفسير والاستفادة منها، للمكانة المتميزة التي حظي بها تفسير الميزان في العالم الاسلامي، ولوجازة مقدمته ـ ومن البديهي أن تقع مسؤولية صحة المواضيع الواردة على عاتق المؤلفين الأفاضل وبذلك فقد برئت ذمتنا.

فها هو ذا الجزء الثالث من كتاب علوم القرآن عند المفسّرين بعد الفراغ من الجزء الثاني منه، وفيه أبحاث المحكم والمتشابه، والتفسير والمفسّرون، فقد تمّ بعون الله تعالى.

شكر وتقدير:

بدأ التحقيق والإعداد لهذا المشروع في النصف من محرم الحرام عام ١٤١٤ هـ، من قبل حجة الاسلام الشيخ علي رضا إيماني ثم قام مشكوراً السيد محمد الفاطمي الأبهري بتحقيقه وإعداده فبسعيه تم بعون الله تعالى هذا المشروع و نتقدم بالشكر الى الفاضل المكرم مسلم النجفي على مساعدته في هذا المشروع، كما ونشكر السيد الحسيني واسرة الكمبيوتر على جهودهم في انضاج هذا الكتاب.

مسوول مركز الثقافة والمعارف القرآنية

مكتب الاعلام الاسلامي للحوزة العلميه في قم المقدسة

عبدالرّضا ايزد پناه

المحكم والمتشابه

- ☐ بيان في المحكم والمتشابه .
- ☐ إنَّ للقرآن ظهراً وبطناً .
- ☐ حكمة وجود المتشابه
- ☐ عالمون بتأويل المتشابه
- ☐ مصاديق المحكم والمتشابه

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بيان في المحكم والمتشابه

قال العياشي (ره) :

« ١ ـ عن أبي محمّد الهمداني عن رجل عن أبي عبدالله عليه السلام قال : سألته الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه ؟ قال : « الناسخ الثابت ، والمنسوخ ما مضى ، والمحكم ما يعمل به ، والمتشابه الذي يشبه بعضه بعضاً »[1].

٢ ـ عن أبي بصير قال : سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول : « إن القرآن فيه محكم ومتشابه ، فأما المحكم فنؤمن به ونعمل به وندين به ، وأما المتشابه فنؤمن به ولا نعمل به »[2].

٣ ـ عن إبراهيم بن عمر قال : قال أبو عبدالله عليه السلام : « إن في القرآن ما مضى وما يحدث وما هو كائن ، كانت فيه أسماء الرجال فألقيت ، وإنما الاسم الواحد منه في وجوه لا يحصى[3]، يعرف ذلك الوصاة »[4]. ».

قال الطوسي (ره) : « وجميع أقسام القرآن لا تخلو من ستة : محكم ، ومتشابه وناسخ ومنسوخ وخاص وعام .

فالمحكم : ما انبأ لفظه عن معناه من غير اعتبار امر ينضم اليه سواء كان اللفظ لغوياً أو

---

١ . البحار ج ١٩ ص ٢٥ و ٣٠ و٩٣ ـ ٩٤ . البرهان ج ١ ص ٢٠ ـ ٢١ . الصافي ج ١ ص ١٤ و ١٧ . الوسائل ج ٣ كتاب القضاء باب ١٣ .

٢ . البحار ج ١٩ ص ٩٤ البرهان ج ١ ص ٢٥ . الصافي ج ١ ص ١٧ ـ ١٨ .

٣ . والصحيح : لا تحصى .

٤ . العياشي ج ١ ص ٢٢ ـ ٢٤ .

عرفيا . ولا يحتاج الى ضروب التأويل . وذلك نحو قوله : ﴿ لا يكلف اللّٰه نفساً إلا وسعها﴾ [١] ، وقوله: ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم اللّٰه ﴾[٢] ، وقوله : ﴿ قل هو اللّٰه أحد﴾[٣] ، وقوله : ﴿ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوءاً احد ﴾ [٤]، وقوله : ﴿ وما ربك بظلام للعبيد﴾[٥] ، وقوله : ﴿ ما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ﴾ [٦]، ونظائر ذلك .

والمتشابه : ماكان المراد به لا يعرف بظاهره بل يحتاج الى دليل ، وذلك ما كان محتملا لامور كثيرة أو امرين ولا يجوز ان يكون الجميع مراداً فانه من باب المتشابه . وانما سمي متشابها لاشتباه المراد منه بما ليس بمراد ، وذلك نحو قوله : ﴿ يا حسرتىٰ على ما فرّطت في جنب اللّٰه﴾[٧]، وقوله: ﴿والسماوات مطويات بيمينه﴾ [٨]، وقوله: ﴿تجري باعيننا﴾[٩] ، وقوله : ﴿يضل من يشاء﴾ [١٠]، وقوله : ﴿ فاصمهم وأعمى أبصارهم﴾ [١١]، ﴿وطبع على قلوبهم ﴾ [١٢] ونظائر ذلك من الآي التي المراد منها غير ظاهرها .

فان قيل : كيف تقولون ، ان القرآن فيه محكم ومتشابه ، وقد وصفه اللّٰه تعالى بأنه اجمع محكم ؟ ووصفه في مواضع أخر بأنه متشابه ، وذكر في موضع آخر أن بعضه محكم ، وبعضه متشابه ـ كما زعمتم ـ وذلك نحو قوله : ﴿ الر . كتاب أُحكمت آياته﴾[١٣]، وقال في موضع آخر : ﴿ اللّٰه نزل احسن الحديث كتاباً متشابهاً ﴾ [١٤]، وقال في موضع آخر : ﴿ وهو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب وأخر متشابهات ﴾ [١٥] ، وهل هذا إلا ظاهر التناقض ؟ .

قلنا : لا تناقض في ذلك ، لأن وصفه بأنه محكم كله ، المراد به : انه بحيث لا يتطرق

---

١ . سورة البقرة : الآية ٢٨٦ .
٢ . سورة الانعام : الآية ١٥١ .
٣ . سورة التوحيد : الآية ١ .
٤ . سورة التوحيد : الآية ٣ و ٤ .
٥ . سورة حم السجدة : الآية ٤٦ .
٦ . سورة الذاريات : الآية ٥٦ .
٧ . سورة الزمر : الآية ٥٦ .
٨ . سورة الزمر : الآية ٦٧ .
٩ . سورة القمر : الآية ١٤ .
١٠ . سورة الرعد : الآية ٢٩ .
١١ . سورة التوبة : الآية ٨٧ .
١٢ . سورة محمد : الآية ٢٣ .
١٣ . سورة هود : الآية ١ .
١٤ . سورة الزمر : الآية ٢٣ .
١٥ . سورة آل عمران : الآية ٧ .

عليه الفساد والتناقض والاختلاف والتباين والتعارض، بل لا شيء منه إلا وهو في غاية الاحكام ـ إما بظاهره أو بدليله ـ على وجه لا مجال للطاعنين عليه . ووصفه بانه متشابه: أنه يشبه بعضه بعضاً في باب الأحكام الذي أشرنا اليه، وأنه لا خلل فيه ولا تباين ولا تضاد ولا تناقض . ووصفه بان بعضه محكم، وبعضه متشابه : ما اشرنا اليه، من ان بعضه ما يفهم المراد بظاهره فيسمى محكماً ومنه ما يشتبه المراد منه بغيره وان كان على المراد والحق منه دليل، فلا تناقض في ذلك بحال » [١] .

قال الراغب في فصول لابد من بيانها في مبتدأ الكتاب :

فصل : في بيان ما وقع فيه الاشتباه من الكلام [٢] المفرد والمركب .

الكلام ضربان : مفرد ومركب :

فالمفرد : المسمى بالاسم والفعل والحرف، وذلك بالوضع الاصطلاحي سمي بذلك، فأما بالوضع الأول [٣]، فكله يسمى اسماً .

وبحق [٤] صار ثلاثة أقسام :

ـ فإن الكلام إما أن يكون مخبراً عنه، وهو الملقب بالاسم .

ـ وإما خبراً، وهو الملقب بالفعل .

ـ وإما رابطاً بينهما، وهو الملقب بالحرف .

والقسمة لا تقتضي [٥] غير ذلك .

وما كان من الخبر نحو « فاعل » و « مفعل » :

والبصريون يسمونه اسماً اعتباراً بأحكام لفظية [٦]، لأنه يدخله ما يدخل الأسماء

---

١ . التبيان ج ١ ص ٩ ـ ١١ .
٢ . في نسخة : الكلا .

٣ . يريد بالوضع الأول ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وعلّم آدم الأسماء كلها ﴾، ولذلك قال الراغب في مفرداته : « وعلم آدم الأسماء » : أي : الألفاظ والمعاني مفرداتها ومركباتها . وبيان ذلك : أن « الاسم » يستعمل على ضربين : أحدهما : بحسب الوضع الاصطلاحي، وذلك هو في المخبر عنه نحو « رجل » و « فرس » والثاني: بحسب الوضع الأولي، ويقال ذلك للأنواع الثلاثة : المخبر عنه، والخبر، والرابط بينهما المسمى بالحرف، وهذا هو المراد بالآية، لأن آدم عليه السلام كما علم « الاسم » علم الفعل والحرف » ..

٤ . في نسخة : وبحق أن وفي نسخة آخر : ويحق أن .

٥ . في نسخة : يقتضي وانظر « أقسام الكلام » في « الصاحبي » لابن فارس : ٨٢ـ٨٦ .

٦ . في نسخة : لفظه .

من التنوين والجر ، [وحروفه والالف] [١] واللام ويخبر عنه .

والكوفيون يسمونه «الفعل الدائم» . أما « الفعل » : فاعتباراً بالمعنى ، وهو أن « قائماً » فيه معنى « يقوم » وأما « الدائم » : فلأنه يصلح للأزمنة الثلاثة ، وإن كان الحال أولى به في أكثر المواضع .

والأصل في الألفاظ : أن تكون مختلفة بحسب اختلاف المعاني ، لكن ذلك لم يكن في الإمكان إذ [٢] كانت المعاني بلا نهاية ، والألفاظ مع اختلاف تراكيبها [٣] ذات نهاية ، وغير المتناهي لا يحويه المتناهي . فلم يكن بد من وقوع اشتراك في الألفاظ .

ويجب أن يعلم أن للفظ مع المعنى خمسة أحوال :

الأول : أن يتفقا في اللفظ والمعنى ، فيسمى : « اللفظ المتواطيء » ، نحو « الإنسان » إذا استعمل في « زيد » و « عمرو » .

الثاني [٤] : أن يختلفا في اللفظ والمعنى، ويسمى : « المتباين » ، نحو « رجل » و« فرس » .

الثالث : ان يتفقا في المعنى [من] دون اللفظ ، ويسمى : « المترادف » : نحو «الحسام» و « الصمصام » .

الرابع : أن يتفقا في اللفظ ويختلفا في المعنى ، ويسمى : « المشترك » و [المتفق]، نحو « العين » المستعملة في « الجارحة » و « منبع الماء » و « الديدبان » [٥] وغير ذلك .

والخامس : أن يتفقا في بعض [اللفظ] وبعض المعنى ويسمى « المشتق » ، نحو « ضارب » و « ضرب » .

والذي يقع فيه الاشتباه من هذه الخمسة :

---

١ . في نسخة : وحروف الألف.
٢ . في نسخة : إذا.
٣ . في نسخة : تركيبها.
٤ . في نسخة : والثاني.
٥ . قال صاحب لسان العرب: « والديدبان : الطليعة . وهو الشيفة . قال أبو منصور : أصله ديدبان ، فغيّروا الحركة . وقالوا: ديدبان لما أعرب »، وقد علق على ذلك محقق لسان العرب قائلا : « قوله : أصله : ديدبان فغيّروا الحركة الخ .. هكذا في نسخة الأصل والتهذيب ـ بأيدينا ـ وفي « التكملة » : قال الأزهري : الديدبان : الطليعة ـ فارسي معرب ـ وأصله : ديدبان ، فلما أعرب غيّرت الحركة ، وجعلت الذال دالا » . وقد ذكره السيوطي أيضا في كتابه « المزهر » ضمن الألفاظ المشتركة التي تدل عليها كلمة « عين » .

- « الألفاظ المشتركة » و « الألفاظ المتواطئة » ، هل هي عامة أو خاصة ؟

- و « المشتقة » مم اشتقت ؟ ، كقولهم : « النبي » و « البرية » ، منهم من قال : « أنبأ » و « برأ » ، فترك [١] الهمز . ومنهم من قال : « من النبوة » [٢] - وهي الربوة - ومن « البرى » [٣] ، وهو : التراب .

فصل في أوصاف اللفظ المشترك :

اللفظ إنما يحصل فيه التشارك بأن يستوي اللفظان في ترتيب الحروف وعددها وحركاتها ويختلفا في المعنى نحو : « عين » [٤] و « كلب » [٥] .

فأما إذا اختلف ترتيب الحروف نحو « حلم » و « حمل » ، أو العدد نحو « الغناء » [٦] و « الغنّاء » [٧] و « قدّر » و « قدر » ، أو الحركة نحو « قَدِمَ » و « قَدَّمَ » ، أو لم يختلفا في المعنى نحو « الإنسان » إذا استعمل في « زيد » و « عمرو » ، فليس شيء من ذلك [٨] من الأسماء المشتركة ، فإن الذي اختلف في العدد ربما كان من المشترك نحو « ضارب » و

---

١ . في نسخة : فتركت ، وقد قال الراغب في المفردات : « النبي - بغير همز - فقد قال النحويون : أصله الهمز فترك همزه واستدلوا بقولهم : « مسيلمة نبي سوء » . وقال ايضا : والبرية : الخلق ، قيل : أصله الهمز فترك » .

٢ . وقال الراغب في المفردات : وقال بعض العلماء هو من النبوة ، أي : الرفعة ، وسمي نبيا لرفعة محله عن سائر الناس المدلول عليه بقوله : « ورفعناه مكاناً علياً » .

٣ . قال الراغب في المفردات : وقيل : ذلك من « بريت العود » وسميت برية لكونها مبرية عن البرى أي : التراب بدلالة قوله تعالى : ﴿ خلقكم من تراب ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿أولئك هم خير البرية﴾ وقال : « شر البرية » .

٤ . قال الراغب في مفرداته : العين الجارحة ... ويستعار العين لمعان هي موجودة في الجارحة ، بنظرات مختلفة ، واستعير للثقب في المزادة تشبيها بها في الهيئة وفي سيلان الماء منها ، فاشتق منها « سقاء عين » و « معين » إذا سال منها الماء .. وقيل للمتجسس : عين ، تشبيها بها في نظرها ... وقيل للذهب : عين ، تشبيها بها في كونها أفضل الجواهر ، كما أن هذه الجارحة أفضل الجوارح ، ومنه قيل : أعيان القوم - لأفاضلهم - وأعيان الأخوة - لبني أب وأم - قال بعضهم : العين - إذا استعمل في معنى ذات الشيء - فيقال : كل ما له عين ، فكاستعمال « الرقبة » في المماليك ... ، ويقال لمنبع الماء : عين ، تشبيها بها لما فيها من الماء .. » وانظر « المزهر » للسيوطي : ج ١ ص ٣٧٢ - ٣٧٥ .

٥ . قال الراغب في مفرداته : الكلب : الحيوان النباح ... والكلب : المسمار في قائم السيف .. والكلب : نجم في السماء مشبه بالكلب لكونه تابعا لنجم يقال له : الراعي » .

٦ . في نسخة : « لقنا » و « القنا » وهو تصحيف ، لأن المراد : اختلاف عدد الحروف ، والعدد في الكلمتين لا يختلف إلا بتشديد أحد الحروف ، ومن ثم رجحنا أن تكون الثانية مشددة .

٧ . في نسخة : « لقنا » و « القنا » وهو تصحيف ، لأن المراد : اختلاف عدد الحروف ، والعدد في الكلمتين لا يختلف إلا بتشديد أحد الحروف ، ومن ثم رجحنا أن تكون الثانية مشددة .

٨ . في نسخة : في .

«ضرب» ، وربما كان من المتباينة نحو « القنا » و « القنابل » [١]، وربما كانت الكلمة صورتها صورة المشترك في اللفظ وتكون [٢] من المشتقة لاختلاف تقديرها [٣] نحو « المختار » إذا كان فاعلاً فإن تقديره : « مُفْتَعِلٌ » ، وإذا كان مفعولاً فإن تقديره : « مُفْتَعَلٌ » ، وكذا فلان محل ، وأمر منحل فيه . و « الفُلْك » إذا كان واحداً كـ « قُفْل » ، وإذا كان جمعاً فإنه كـ « وُثْن » [٤]، وناقة « هجان » وامرأة « ضناك » [٥] فإنها كـ « حمار » ، [٦] ونوق « هجان » كقوم « كرام » ، وعلى ذلك : هم « يغزون » نحو :« يَخْرِجُون » . وهن « يغزون » نحو « يخرجن » وأنت « تعصين » نحو « تشتمين » وأنتن « تعصين » نحو « تَشْتُمْنَ » ، ونحو «دَبْر» مصدر « دبر » وجمع « الدابر » ، نحو «ركب » .

وكثيراً مايلتقي فرعان [بوضعنا] للفظين متفقين في الصيغة و هما مختلفان في المعنى ، نحو « المصباح » لما يشرب منه الصبوح ، ولما يشتق من « صبحت » [٧] أي : اسرجت ، وأشتكي لاظهار الشكوى ، ولاتخاذ شكوة [٨] اللبن .

---

١ . قال صاحب اللسان : القَنْبَلةُ والقَنْبَل : طائفة من الناس ومن الخيل ، قيل : هم ما بين الثلاثين إلى الأربعين ونحوه . وقيل: هم جماعة الناس. قنبلة من الخيل، وقنبلة من الناس : طائفة منهم ، والجمع : القنابل ... ورجل قنبل وقنابل : غليظ شديد . والقنابل : العظيم الرأس .... والقنابل : حمار معروف ... » .

٢ . في نسخة : ويكون .   ٣ . في نسخة : تقديرهما .

٤ . في نسخة : ك « وثن »، وفي نسخة : ك « برتن » وهو تصحيف .و «وُثن» : جمع « وثن » مثل « أُسد » جمع «أسد». وقد جاء في مفردات الراغب : « الفلك » : السفينة ويستعمل ذلك للواحد والجمع ، وتقديرا هما مختلفان ، فإن «الفلك » إن كان واحداً كبناء « قفل » وإن كان جمعاً فكبناء « حُمر » ، و « حمر » كبناء « وثن » .

٥ . في نسخة : ضنال . وهو تصحيف واضح . والضِّنَاك : الضخمة .

٦ . يريد بذلك أن بناء « هجان » و«ضناك » ك « حمار» أي : وزان « فعال » . واختار « حمار » لأنه مفرد ولم يقل «فعال ». لأنه يكون مفرداً وجمعاً كما قال بعد ذلك : « نوق هجان » كقوم كرام . يريد بذلك : أن وزان « هجان » ـ إذا كانت جمعاً ـ بمعنى « كرام » التي هي وزان « فعال » للجمع ، والهجان من الابل : البيضاء الخالصة اللون والعتق . ويستوي فيه المذكر والمؤنث والجمع ، يقال : بعير هجان ، وناقة هجان ، ونوق هجان .

٧ . في نسخة : أسرحت وهو تصحيف ، وقد قال الراغب في مفرداته : « .. والمصباح : مايسق منه ، ومن الإبل : مايبرك فلاينهض حتى يصبح ، ومايجعل فيه المصباح ، قال : «مثل نوره كمشكاة فيهامصباح المصباح في زجاجة ». ويقال للسراج: مصباح والصباح نفس السراج ، والمصابيح : أعلام الكواكب ..» .

٨ . قال الراغب في مفرداته : الشكو . الشكاية ، والشكاة ، والشكوى : إظهار البث .. وأصل الشكو : فتح الشكوة وإظهار مافيه ،وهي سقاء صغير يجعل فيه الماء ،وكأنه في الأصل استعارة كقولهم : بثثت له مافي وعائي ، ونفضت مافي جرابي إذا أظهرت مافي قلبك » .

فصل: الاشتراك في اللفظ [يقع] لأحد وجوه:

- إما أن يكون في لغتين نحو « الصَّقر » للبن إذا بلغ غاية الحموضة في لغة أكثر العرب[١]، و« الصَّقر » للدبس في لغة أكثر أهل المدينة[٢].

- و إما أن يكون أحدهما منقولاً عن الآخر أو مستعاراً. والفرق بينهما: أن المنقول: هو الذي ينقله أهل صناعة ماعن المعنى المصطلح عليه أولاً إلى معنى آخر قد تفردوا بمعرفته فيبقى من بعد مشتركاً بين المعنيين، وعلى[٣] ذلك الألفاظ الشرعية نحو الصلاة والزكاة، والألفاظ[٤] التي يستعملها الفقهاء والمتكلمون والنحويون.

وأما المستعار: فالاسم الموضوع لمعنى فتستعيره لمعنى آخر، له اسم وضعي غيره، فتستعمله فيه لمواصلة توجد بين المعنيين، كتسمية الشجاع بالأسد، والبليد بالحمار.

والفرق بين حكم المنقول والمستعار: أن المنقول شرطه أن يتبع فيه أهل تلك الصناعة، والمستعار لكل أحد[٥] أن يستعيره[٦] فيستعمله إذا قصد معنى صحيحاً ويكون[٧] متضمناً لمعنى التشبيه، نحو أن تقول[٨]: ركبت « برقاً » فتعني[٩] به « فرساً » كالبرق سرعة. ورأيت بحراً، أي: سخياً كالبحر.

وأما المشتق: فشرطه أن يشارك المشتق منه في حروفه الأصلية ويوجد فيه بعض[١٠] معناه، ويخالفه إما في الحركات نحو « ضرب » و « ضرب »، أو في الزوائد من الحروف نحو « ضَرَبَ » و « ضارب » و « استضرب »، أو في التقدير نحو « المختار » إذا كان فاعلاً أو مفعولاً وسائر ما تقدم.

فقدبان بهذه الجملة أنواع مفردات الألفاظ ومايقع فيه الاشتباه. وأماالمركب من

---

١. قال صاحب اللسان: « والصقر »: اللبن الشديد الحموضة ... قال الاصمعي: إذا بلغ اللبن من الحمض ماليس فوقه شيء، فهو « الصَّقر » وقال شمر: الصَّقر: الحامض الذي ضربته الشمس فحمض ».

٢. قال في اللسان: « والصقْر » و« الصَّقَر »: ماتحلب من العنب والزبيب والتمر من غير أن يعصر، وخص بعضهم من أهل المدينة به: دبس التمر. وقيل: هو مايسيل من الرطب إذا يبس. والصُّقْر: الدبس ـ عند أهل المدينة ».

٣. في نسخة: على.

٤. في نسخة: أو الألفاظ

٥. في نسخة: واحد.

٦. في نسخة: يستعين. ولعله تصحيف « يستعيره »

٧. في نسخة: فيكون.

٨. في نسخة: يقول.

٩. في نسخة: فيعني.

١٠. في نسخة: ببعض.

اللفظ : فماركب من هذه الثلاثة . والتركيب على ضربين :

تركيب تحصل به جملة مفيدة ، وذلك : إمّا من [١] اسمين ، أو من [٢] اسم وفعل ، أو تقدير ذلك .

وتركيب لا يحصل به ذلك ، ويكون إما من اسمين يجعلان [اسماً] واحداً ، نحو خمسة عشر وبعلبّك . أو اسم مضاف إلى اسم نحو عبدالملك . أو اسم وفعل ،نحو :تأبّط شراً ، أوإسم وحرف [٣] نحو سيبيويه [٤] ، أو فعل وحرف نحو « هلم » ، أو حرفين نحو «إنما» ، أو من جمل من الكلام ، وذلك لا يكون إلا بحذف بعضها ، نحو « بسملة » و «حَيْعَلَة » و « حَوْقَلَة » في قولهم : بسم اللّٰه ، وحيّ على الصّلاة ، ولا حول ولاقوة إلا باللّٰه . وجميع ما تقع فيه الشبهة [٥] من الكلام المركب لايخلو :

ـ إما أن يكون لشيء يرجع إلى مفردات الكلام ،وذلك على التفصيل المتقدم .

واما لشيء لايرجع إلى ذلك ، وذلك لايخلو : إما أن يكون من جهة المعنى أو من جهة اللفظ .

فأما [ماكان] من جهة المعنى : فلا سبيل إلى إزالته بتغيير [٦] العبارات . وذاك أن المعاني ضربان : جلي وغامض :

فالجلي : مايمكن إدراكه بأدنى تأمل ، كقوله تعالى : ﴿ **واعبدوا اللّٰه ولاتشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً** ﴾ [٧]، وقوله تعالى : ﴿**قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا** ﴾ [٨]، ﴿**ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون**﴾[٩] . وأما الغامض : فعلى ثلاثة أضرب :

الأول : أن يكون المعنى في نفسه خفياً ، نحو الكلام في صفات الباري ـ سبحانه ـ ونفي التشبيه عنه .

---

١ . في نسخة : في .
٢ . في نسخة : في .
٣ . في نسخة : وصوت و لعل هذه أصوب من « حرف » ، لان الكلمة فارسية كما ترى .
٤ . جاء في لسان العرب : « والسيب : التفاح ـ فارسي ـ قال أبو العلاء : وبه سمي « سيبويه » ، « سيب » تفاح ،و« ويه » : رائحته . فكأنه رائحة تفاح .
٥ . في نسخة : الشبه .
٦ . في نسخة : بتعيين . وهو تصحيف .
٧ . سورة النساء : الآية ٣٦ .
٨ . سورة الأنعام : الآية ١٥١ .
٩ . سورة الأنعام : الآية ١٥٣ .

والثاني : أن يكون الكلام أصلاً يشتمل [١] على فروع (تتشعب منه)[٢] ، كالآيات الدالة على الأحكام .

الثالث: أن يكون مثلاً وإيماءً [٣] ، كقولهم : « الصيف » [٤] ضيعت اللبن » ، وذلك لأن ظاهره ينبيء عن شيء ، .المقصود غيره . وذلك في القرآن كقصة موسى مع الخضر في كسر [٥] السفينة ، وقتل النفس [الزكية بغير نفس] [٦] ، وإقامة جدار من غير نفع ظاهر [٧] ، وكقصة الخصمين إذ دخلوا على داود ففزع منهم [٨] . وكقوله : ﴿ وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ﴾[٩] .

واللفظ أيضاً ضربان :

لفظ جلي : وهو أن تقع كيفيات اللفظ وكمياته على حسب ما يجب ، وكما يجب . نحو قوله تعالى : ﴿ الحمدلله رب العالمين ﴾ [١٠] .

ولفظ غامض : وذلك من ثلاثة أوجه :

ـ إما من جهة الكيفية : وذلك بتقديم ما يقدر تأخيره . أو تأخير ما يقدر تقديمه نحو قول الشاعر :

وما مثله في الناس إلا مملكا ... أبو أمه حي أبوه يقاربه [١١] .

---

١ . في نسخة : تشتمل .
٢ . في نسخة : يشعب منها .
٣ . في نسخة : دائماً وهو تصحيف .
٤ . في نسخة : في الصيف .وسيأتي شرح هذا المثل فيما بعد
٥ . يريد : خرق السفينة ، وذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿حتى إذا ركبا في السفينة خرقها﴾ ، سورة الكهف : الآية ٧١ .
٦ . زيادة من نسخة. والاشارة بذلك إلى قوله تعالى: ﴿ ... حتى إذا لقيا غلاماً فقتله ، قال : أقتلت نفساً زكية بغير نفس ﴾ سورة الكهف : الآية ٧٤ .
٧ . إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه ﴾ ، سورة الكهف : الآية : ٧٧ .
٨ . إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب . إذ دخلوا على داود ففزع منهم﴾ سورة ص : الآية ٢١ ـ ٢٢ .
٩ . سورة النمل : الآية ٨٢ .
١٠ . سورة الحمد : الآية ٢ .
١١ . البيت للفرزدق كما في ديوانه ص ١٠٨ ، وهو ـ عند الشنتمري ـ مما أنشده الأخفش كما جاء في حاشية كتاب سيبويه: ج ١ ص ١٤ ، وقد قال الشنتمري في معناه : أراد وما مثله في الناس يقاربه إلا مملكاً أبو أم هذا المملك ـ أبو أم هذا الممدوح ـ وأراد بالمملك : الخليفة هشام بن عبدالملك ، وخاله الذي أبوه أبو أمه ابراهيم بن هشام المخزومي . وتلخيص معنى البيت : ما مثل هذا الممدوح في الناس إلا الخليفة الذي هو ابن أخته . وهذا المعنى مع سخفه ⇐

وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ ولو لا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا ﴾ (١).

وإما من جهة الكمية: وذلك إما من جهة البسط في الكلام. أو من جهة الحذف والإيجاز. فما كان من جهة البسط، فكقوله تعالى: ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق﴾ (٢) الآية ـ وكقوله: ﴿ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من

⇐ أمثل مما عبر به عنه من لفظه، لأنه فرق بين النعت والمنعوت في قوله «حي.. يقاربه» بخبر المبتدأ وهو قوله «أبوه»، وفرق بين المبتدأ الذي هو «أبو أمه» وبين خبره بقوله «حي» فأحال اللفظ حتى عمي المعنى السخيف، فازداد قبحاً إلى سخفه».

١. سورة الفتح: الآية ٢٥. يقول الطبري ج ٢٨ ص ١٠٢: «.. معنى الكلام: ولو لا أن تطأوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموهم، فتصيبكم منهم معرة بغير علم، لأذن الله لكم أيها المؤمنون في دخول مكة، ولكنه حال بينكم وبين ذلك (ليدخل الله في رحمته من يشاء) يقول: ليدخل الله في الإسلام من أهل مكة من يشاء، قبل أن تدخلوها. وحذف جواب «لو لا» استغناء بدلالة الكلام عليه، وقوله (لو تزيلوا): يقول: لو تميز الذين في مشركي مكة من الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات، الذين لم تعلموهم منهم، ففارقوهم وخرجوا من بين أظهرهم (لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً) يقول: لقتلنا من بقي فيها بالسيف، أو لأهلكناهم ببعض ما يؤلمهم من عذابنا العاجل). وواضح في أول الكلام تقديم «تطأوهم» في التقدير على حين هي مؤخرة في التلاوة».
ويقول مكي بن أبي طالب في كتابه «مشكل إعراب القرآن» ج ٢ ص ٦٧٨ ـ «ان تطأوهم»: أن: في موضع رفع على البدل من «رجال» أو «نساء»، أو في موضع نصب على البدل من الهاء والميم في تعلموهم التقدير ـ على القول الأول: ـ ولو لا وطؤكم رجالاً مؤمنين لم تعلموهم وفتصيبكم «منهم معرة».
ـ وعلى القول الثاني ـ: ولولا رجال مؤمنون لم تعلموا وطأهم فتصيبكم».
وقد أشار الراغب إلى هذه الآية وإلى غيرها في المفردات حين قال: «وضرب لنظم الكلام نحو «أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً» تقديره: «الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً، وقوله: «ولو لا رجال مؤمنون» إلى قوله. «لو تزيلوا».

٢. سورة البقرة: الآية ١٧١ ومراده ببسط الكلام اجتماع الكاف مع «مثل» في قوله «كمثل». وقد وضح ذلك في كتابه المفردات حيث قال:« وضرب لبسط الكلام، نحو «ليس كمثله شيء» لأنه لو قيل: ليس مثله شيء كان أوضح للسامع.
وقد جاء في تفسير آية البقرة ثلاثة أقوال لخصها ابن الجوزي في تفسيره، زاد المسير: ج ١ ص ١٧٤: «احدها: ان معناها: ومثل الذين كفروا كمثل البهائم التي ينعق بها الراعي ـ وهذا قول الفراء وثعلب ـ قالا جميعاً: أضاف المثل إلى الذين كفروا ثم شبههم بالراعي، ولم يقل: كالغنم، والمعنى: ومثل الذين كفروا كمثل البهائم التي لا تفقه ما يقول الراعي اكثر من الصوت. فلو قال لها الراعي: ارعى، أو اشربي. لم تدر ما يقول لها. فكذلك الذين كفروا فيما يأتيهم من القرآن، وإنذار الرسول. فأضيف التشبيه إلى الراعي، والمعنى في المرعي، وهو ظاهر في كلام العرب، يقولون: فلان يخافك كخوف الأسد، والمعنى: كخوفه الأسد [لأن الأسد هو المعروف بأنه المخوف]. ⇐

شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ﴾ (١).

وما كان من جهة الإيجاز والحذف: فكقوله: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ (٢).

-وإما من جهة الإضافة: وذلك بحسب اعتبار حال المخاطب. نحو قولك: « افعل » في الطلب والشفاعة والأمر.

فصل في الآفات المانعة من فهم المخاطب مراد المخاطب.

الآفات المانعة من ذلك ثلاثة:

الأولى: راجعة إلى الخطاب: إما من جهة اللفظ، أو من جهة المعنى، وقد تقدم ذلك.

والثانية: راجعة إلى المخاطب، وذلك لضعف تصوره (٣) لما قصد الإنباء عنه،

←والثاني: ان معناها: ومثل الذين كفروا، ومثلنا في وعظهم، كمثل الناعق والمنعوق به، فحذف « ومثلنا » اختصاراً، إذ كان في الكلام ما يدل عليه - وهذا قول ابن قتيبة والزجاج.

الثالث: ومثل الذين كفروا في دعائهم آلهتهم التي يعبدون، كمثل الذي ينعق - هذا قول ابن زيد - والذي ينعق هو الراعي، يقال: نعق بالغنم، ينعق نعقاً ونعيقاً ونعاقاً ونعقاناً.

قال ابن الأنباري: والفاشي في كلام العرب أنه لا يقال: « نعق » إلا في الصياح بالغنم وحدها فالغنم تسمع الصوت ولا تعقل المعنى ».

١. سورة الروم: الآية ٢٨، وهي أيضاً كسابقتها في دلالتها على مراد المؤلف ببسط الكلام وقد قال فيها ابن الجوزي ج ٦ ص ٢٩٨ - ٢٩٩: « سبب نزولها أن أهل الجاهلية كانوا يلبون فيقولون: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك فنزلت هذه الآية - قال سعيد بن جبير ومقاتل - ومعنى الآية: بين لكم أيها المشركون شبهاً، وذلك الشبه من أنفسكم، ثم بينه فقال: هل لكم مما ملكت أيمانكم - أي من عبيدكم - من شركاء فيما رزقناكم - من المال والأهل والعبيد، أي هل يشارككم عبيدكم في أموالكم - فأنتم فيه سواء - أي انتم وشركاؤكم من عبيدكم سواء - تخافونهم كخيفتكم أنفسكم - أي كما تخافون أمثالكم من الأحرار وأقرباءكم كالآباء والأبناء؟ قال ابن عباس: تخافونهم ان يرثوكم كما يرث بعضكم بعضاً؟ وقال غيره: تخافونهم أن يقاسموكم أموالكم كما يفعل الشركاء؟.

والمعنى: هل يرضى أحدكم أن يكون عبده شريكه في ماله وأهله حتى يساويه في التصرف في ذلك، فهو يخاف أن ينفرد في ماله بأمر يتصرف فيه كما يخاف غيره من الشركاء الأحرار؟ فإذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم، فلم عدلتم بي من خلقي من هو مملوك لي؟.

٢. سورة البقرة: الآية ١٧٩. وقد بين الطبري ما تنطوي عليه من الحذف المقدر حين قال: قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾: ولكم يا أولي العقول، فيما فرضت عليكم وأوجبت لبعضكم على بعض، من القصاص في النفوس والجراح والشجاج، ما منع به بعضكم من قتل بعض، وقدع [كف] بعضكم عن بعض، فحييتم بذلك، فكان لكم في حكمي بينكم بذلك حياة. - الطبري: ج ٣ ص ٣٨١.

٣. في نسخة: ما.

أو قصور عبارته عن تصوير ما قصد الإنباء عنه. وخطاب الله ـ عز وجل ـ منزه عنها.

والثالثة: راجعة إلى المخاطب، وذلك: إما لبلادة فهمه عن تصور أمثال ذلك من المخاطبة. وإما لشغل خاطره بغيره، وذلك وإن كان موجوداً في بعض المخاطبين بالقرآن، فغير جائز أن يشمل كافة المخاطبين، إذ من المستبعد أن يكون الناس قاطبة لا يفهمونه.

فصل في عامة ما يوقع الاختلاف ويكثر الشبه.

وذلك ثلاثة [أشياء]، حق العالم أن يعنى بتهذيبها، وسد الثلم المنبثقة عنها:

أحدها: [وقوع الشبه من الألفاظ المشتركة. وقد تقدم].

[والثاني: اختلاف النَّظَرَيْن] من جهة الناظرين. وذلك كنظر فرقتي أهل الجبر والقدر، [حيث اعتبره أهل الجبر] السبب الأول، فقالوا: الأفعال كلها من جهة الباري ـ سبحانه وتعالى ـ إذ لولاه لم يوجد شيء منها. وقال أهل القدر: إن الممكنات من جهتنا، حيث اعتبروه السبب الأخير، وهو المباشر للفعل دون السبب الأول.

والثالث: اختلاف نظر الناظرين من اللفظ إلى المعنى، أو من المعنى إلى اللفظ. وذلك كنظر الخطابي [1] إلى اللفظ في إثبات ذوات الأشياء. ونظر الحكماء من ذوات الأشياء إلى الألفاظ.

---

١. الخطابي: هو حمد بن إبراهيم بن خطاب المتوفى سنة ٣٨٨ هـ وصاحب كتاب «بيان اعجاز القرآن»، وقد نقل رأيه في الإيمان بالصفات ابن تيمية في «رسالة الفتوى الحموية الكبرى» صفحة ٤٦ وأشار ابن تيمية إلى مصدره في النقل وهو رسالة الخطابي المشهورة في «الغنية عن الكلام وأهله». وقد قال الخطابي في هذه الرسالة: «فأما ما سألت عنه من الصفات وما جاء منها في الكتاب والسنة، فإن مذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظواهرها، ونفي الكيفية والتشبيه عنها. وقد نفاها قوم فأبطلوا ما أثبته الله، وحققها قوم من المثبتين فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف. وإنما القصد في سلوك الطريق المستقيمة بين الأمرين. ودين الله تعالى بين الغالي فيه والمقصر عنه. والأصل في هذا الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات ويحتذى في ذلك حذوه ومثاله، فإذا كان معلوماً أن إثبات ذات الباري سبحانه إنما هو إثبات وجودلا إثبات كيفية. فكذلك إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف، فإذا قلنا: يد وسمع وبصر، وما أشبهها، فإنما هي صفات أثبتها الله لنفسه، ولسنا نقول: إن معنى «اليد»: القوة، والنعمة، ولا معنى السمع والبصر: العلم، ولا نقول إنها جوارح، ولا نشبهها بالأيدي والأسماع والأبصار التي هي جوارح وأدوات للفعل، ونقول: إن القول إنما وجب بإثبات الصفات لأن التوقف ورد بها ووجب نفي التشبيه عنها، لأن الله ليس كمثله شيء. وعلى هذا جرى قول السلف في أحاديث الصفات».

وذلك نحو الكلام في صفات الباري ـ عز وجل ـ فإن الناظر [من اللفظ] وقع عليه الشبهة العظيمة في نحو قوله تعالى: ﴿بل يداه مبسوطتان﴾ [١]، وقوله: ﴿تجري بأعيننا﴾ [٢]، وما يجري مجراه.

وأهل الحقائق لما تبيّنوا [٣] ـ بالبراهين ـ ان الله تعالى واحد منزه عن التكثر ـ فكيف عن الجوارح ـ بنوا الألفاظ على ذلك، وحملوها على مجاز اللغة ومشاع [٤] الألفاظ فصينوا عما وقعت فيه [٥] الفرقة الأولى [٦] [٧].

قال الراغب في كيفية بيان القرآن:

اعترض [بعض] الناس فقال: كيف وصف القرآن بالبيان. فقال تعالى: ﴿ هذا بيان للناس ﴾ [٨]، ﴿ يبيّن الله لكم أن تضلوا ﴾ [٩]، وقال: ﴿ بلسان عربي مبين ﴾ [١٠]، وقال: ﴿ ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ﴾ [١١]، وقد علم ما فيه من الإشكال والمتشابه، وما يجري مجرى الرموز، نحو قوله تعالى: ﴿ وما أنزل على الملكين ببابل هاروت

---

١. سورة المائدة: الآية ٦٤. ويقصد بالشبهة العظيمة شبهة التشبيه. غير أن الخطابي الذي اعتبره الراغب ناظراً من اللفظ إلى المعنى قد صرح تصريحاً قاطعاً بنفي ذلك كله حينما قال: «ولا نقول إنها جوارح ولا نشبهها بالأيدي والأسماع والأبصار التي هي جوارح وأدوات للفعل...» ومما يوضح رأي الخطابي ما ذكره ابن تيمية في «الرسالة المدنية في تحقيق المجاز والحقيقة في صفات الله تعالى» صفحة: ٨ ـ ١٣ فانظره هناك.

٢. سورة القمر: الآية ١٤.
٣. في نسخة: بينوا.

٤. في نسخة: مساغ.
٥. في نسخة: عليه.

٦. يقصد بـ «الفرقة الأولى»: الناظرين من اللفظ إلى المعنى، وهم الخطابي ومن قال بقوله في الإيمان بآيات الصفات. والذي لابد من بيانه هنا: أن كلام الخطابي في غاية الوضوح ولا يتأتى منه أي إشكال لأنه يقوم على إثبات الصفة ونفي التشبيه والتكييف. أما اللجوء إلى المجاز في هذا فابن تيمية يرى أنه لا يصار اليه ـ وإن كان لا يسميه مجازاً ـ إلا بقرينة دالة عليه في سياق الكلام. وهو ينكر فكرة تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز، كما ينكر أن الأصل في الكلام حمله على الحقيقة فإذا تعذر ذلك حمل على المجاز. وعنده أن ما يسمى بالمجاز إذا دلت عليه قرينة في سياق الكلام فهو حقيقة، وما يسمى بالحقيقة لابد أيضاً من قرينة تدل عليه في سياق الكلام. وعلى هذا فلا حاجة لهذا التقسيم إلى حقيقة ومجاز، ولا حاجة إلى اعتبار الحقيقة هي الأصل فإذا تعذرت حمل الكلام على المجاز. فالقرينة في سياق الكلام هي التي تحدد المعنى المراد، وفي كلا الحالين يكون المعنى حقيقة. وبالنسبة لآيات الصفات عنده فالقرائن تدل على أن المراد بها ما يسمى بالحقيقة ـ في اصطلاح القائلين بالحقيقة والمجاز.

٧. جامع التفاسير ج ١ ص ٢٨ ـ ٤١.
٨. سورة آل عمران: الآية ١٣٨.

٩. سورة النساء: الآية ١٧٦.
١٠. سورة الشعراء: الآية ١٩٥.

١١. سورة النور: الآية ٣٤.

وماروت﴾[١]، وقوله: ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون﴾[٢]، وقد وصفه تعالى بالمتشابه، وبأنه لا يعلم تأويله إلا هو ؟.

فالجواب: ان البيان المشروط فيه، إنما هو بالإضافة إلى أعيان [أرباب] أهل الكتاب، لا إلى كل من يسمعه[٣] ممن دبّ ودرج، فقد علمنا أن ذلك ليس ببيان لمن ليس من أهل العربية، ثم أحوال أهل العربية مختلفة في معرفته. ولو كان البيان لا يكون بياناً حتى يعرفه العامة لأدى إلى ان يكون [البيان] في الكلام[٤] السوقي والعامي، أو إلى ان لا يكون بياناً[٥] بوجه، إذ كل كلام بالإضافة إلى قوم بيان، وبالإضافة إلى آخرين ليس ببيان.

وقد علم ان قوله تعالى: ﴿ فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم﴾[٦]، وقوله: ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ﴾[٧] من أشرف كلام، ولاحظ في معرفته لمن [لم] يتوفر نصيبه من البلاغة. وكذلك قول الشاعر[٨]: فاقْطَعْ لُبَانَة مَنْ تَعرَّضَ وَصْلَهُ.

وقول الآخر[٩]:

وما المرء مادامت حشاشة نفسه بمدرك أطراف الخطوب ولا آلي

من أفصح كلام ولا يعرفه جميع الأنام.

ثم إن القرآن وإن كان في الحقيقة هداية للبرية فإنهم لن يتساووا في معرفته، وإنما يحيطون[١٠] به بحسب درجاتهم واختلاف أحوالهم.

فالبلغاء تعرف من فصاحته، والفقهاء من أحكامه، والمتكلمون من براهينه العقلية، وأهل الآثار من قصصه ما يجهله غير المختص بفنه، وقد علم أن الانسان بقدر ما

---

١. سورة البقرة: الآية ١٠٢.
٢. سورة الأنبياء: الآية ٩٦.
٣. في نسخة: يستمعه.
٤. في نسخة: كلام.
٥. في نسخة: بيان.
٦. سورة الأنفال: الآية ٥٧.
٧. سورة الأنفال: الآية ٥٨.
٨. البيت للبيد من معلقته وشطره الثاني: «ولَشَرُّ وَاصِلِ خُلَّةٍ صَرَّامُها» الديوان: ١٦٧ ـ دار صادر.
٩. البيت لامريء القيس وقد جاء قبله:

ولكنما أسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

ـ الديوان ص ١٤٥ ـ دار صادر.
١٠. في نسخة: يخطئون. وهو تصحيف.

يكتسب من قوته في العلم تتزايد معرفته بغوامض معانيه. وعلى ذلك أخبار النبي ﷺ، ولهذا [١] قال ﷺ: «نصر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها كما سمعها حتى يؤديها إلى من لم يسمعها، فرب مبلّغ أوعى من سامع» [٢] [٣].

قال الراغب في الوجوه التي بها يعبّر عن المعنى (وبها يبين):

لما كان المعنى (الواحد) يقرب من الأفهام بعبارات مختلفة لأغراض متفاوتة، وجب أن يبين الوجوه التي منها تختلف [٤] العبارات عن المعنى الواحد.

فالمعنى الواحد قد يدل عليه بأشياء كثيرة:

اما باسمه نحو «إنسان»، أو بنسبه [٥] نحو «آدمي» و «ولد حواء».

أو بإحدى [٦] خصائصه اللازمة له: نحو «المنتصب القامة» أو «الماشي برجليه» أو «العريض الأظفار»، وإما بفصله [٧] اللازم، كقوله: «الناطق» «المائت» [٨].

وكما يبيّن الشيء بأوصاف كثيرة، كذلك قد يبيّن بأسماء كثيرة متضمنة لأوصاف مختلفة، كقولهم [٩] في الجرم العلوي: «السماء» لما اعتبر ارتفاعها بالاضافة إلى الأرض، و «الجرباء»: لما [اعتبروا نجومها] [١٠] وأنها كجرب في الجلد، و «الخلقاء» و «الملساء» لما اعتبروا حالها عند فقدان نجومها (بالنهار)، و «الرقعاء» [١١] لما اعتبروا ظهور شبه الرقاع [١٢] تشبيهاً بالثوب المرقوع - لظهور نجومها ظهور الرقاع في المرقع،

---

١. في نسخة: ولذلك.

٢. الحديث في مسند أحمد - ج ١ ص ٤٣٧، ولفظه: «نصر الله امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه فرب مبلغ أحفظ له من سامع. وفي سنن أبي داود برقم (٣٦٦٠) ولفظه: «نصر الله امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه». وفي سنن ابن ماجه برقم «٣٠٥٦» ولفظه: «نصر الله امرءاً سمع مقالتي فبلغها فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه». وانظره أيضاً في جامع الأصول: ج ٨ ص ١٨.

٣. جامع التفاسير ج ١ ص ٤٥-٤٦.

٤. في نسخة: يختلف.

٥. في نسخة: نسبه.

٦. في نسخة: بأحد.

٧. في نسخة: بفضله وهو تصحيف.

٨. في نسخة: المائية.

٩. في نسخة: كقولك.

١٠. في نسخة: اعتبر بنجومها.

١١. في نسخة: الرقيع.

١٢. زيادة من نسخة. وقد جاء بعدها كلمة «في المرقع» والكلام من «تشبيهاً» إلى «ظهور الرقاع».

و «الخضراء» لما اعتبروا [١] لونها.

وعلى ذلك قولهم [في المرأة] : « الزوج » لما اعتبرت بازدواجها بالرجل ، و « الطعينة » لما اعتبر طعنها معه ، و « القعيدة » لما اعتبرت بقعودها في البيت أو بكونها مطية له كالقعود من الجمال ، والقعدة من الأفراس ، ألا ترى أنها سميت « مطية » في قول الشاعر :

مطيات السرور فويق عشر ... إلى عشرين ثم قف المطايا [٢]

و « حليلة » [٣] إذا اعتبر حلولهامعه ، أو حل الإزار له .

وذلك يفعل لأحد أمرين :

إما لأن الشيء [في نفسه] لا يمكن إبرازه إلا بالعبارات الدالة على أوصافه كمعرفة الله ـ عزوجل ـ لما صعبت [٤] لم يكن لنا سبيل [إليها] إلا بصفاته ، وكأن الله تعالى جعل لنا أن نصفه بهذه الأوصاف لتكون لنا ذريعة إلى معرفته ، إذ لا سبيل لنا إليها إلا استدلالاً بأوصافه وأفعاله . ولذلك قال [موسى] ﷺ لما سأله فرعون : ﴿ ومارَبُّ العالمين﴾[٥]؟ ﴿ رب السموات والأرض ومابينهما ﴾ . ولما [٦] قال له : ﴿ فمن ربكما ياموسى﴾[٧] قال: ﴿ ربّنا الذي أعطىٰ كل شيء خلقه ثم هدىٰ ﴾ [٨] فلم يجبه عن الماهية، لما كان الباري تعالى منزهاً عنها، وأحاله [٩] على صفاته الكثيرة .

ـ وإما لأن الشيء له تركيبات وأحوال ، فيجعل له بحسب كل واحد منها اسم ـ كما

---

١. في نسخة : اعتبر .

٢. البيت ورد في أمالي الزجاجي منسوباً لمحمد بن عبدالله بن طاهر بلفظ :

مطيات السرور بنات عشر ... إلى عشرين ثم قف المطايا.

وقد جاء بعده :

فإن جاوزتهن فسر قليلاً ... بنات الأربعين من الرذايا

إلى ان قال :

مقاساة النساء مع الليالي ... إذا أولدتهن من البلايا

٣. في نسخة : حليه .وهو تصحيف ، امالي الزجاجي ص ٩٦ بتحقيق عبدالسلام هارون .

٤. في نسخة : صعب .

٥. سورة الشعراء : الآية ٢٣ ، ٢٤ .

٦. في نسخة : كما ، وهو خطأ من الناسخ .

٧. سورة طه : الآية ٤٩ .

٨. سورة طه : الآية ٥٠ .

٩. في نسخة : إلى .

تقدم في أسماء السماء ـ وبحسب ذلك قال النبي ﷺ : « سميت محمداً، وأحمد، وخاتماً، وحاشراً وعاقباً وماحياً »[١]، لأنه محمود، وحاما، وخاتم الأنبياء، وحاشر، لأنه بعث مع الساعة «نذيراً لكم بين يدي عذاب شديد »[٢]، وعاقب لأنه عقب الأنبياء، وماحي[٣] لأنه محى به سيئات من اتبعه.

فصل في الحقيقة والمجاز.

الحقيقة مشتقة من الحق، والحق يستعمل على وجهين: [٤].

أحدهما: في الموجود الذي وجوده بحسب مقتضى الحكمة، نحو قولنا: الموت حق، والبعث حق، والحساب حق.

والثاني: للاعتقاد المطابق لوجود الشيء في نفسه، أو في القول المطابق لمعنى الشيء الذي هو عليه، نحو أن يقال: ان اعتقاد فلان في البعث حق. وقوله في الثواب والعقاب حق، ويضاد « الحق »: الباطل. وإذا فهم الحق فهم الباطل، لأن العلم

---

١. الحديث في فتح الباري: ج ٦ ص ٥٥٤ برقم ٣٥٣٢بلفظ .. « قال رسول الله ﷺ: لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأناالماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأن العاقب ». وقد تكرر أيضاً في: ج ٧ ص ٦٤٠ برقم ٤٨٩٦. كماورد أيضاً في تحفة الأحوذي: ج ٨ ص ١٢٩ برقم ٢٩٩٦. وورد أيضاً في موطأ مالك انظر: شرح الزرقاني على الموطأ: ج ٤ ص ٤٣٢ ورقه ١٩٥٥، وكل هذه الروايات متفقة على الأسماء الخمسة التي ذكرهاالبخاري، وليس فيها الزيادة التي ذكرها الراغب وهي « خاتم ».

٢. اقتباس من قوله تعالى: ﴿إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾ سورة سبأ: الآية: ٤٦.

٣. في نسخة: ماح.

٤. قال الراغب في مفرداته: أصل الحق: المطابقة والموافقة، كمطابقة رجل الباب في حقه لدورانه على استقامة. والحق يقال على أوجه: الأول: يقال لموجد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة، ولهذا قيل في الله تعالى هو الحق، قال الله تعالى: ﴿ ثم ردوا الى الله مولاهم الحق ﴾، وقيل بعيد ذلك: ﴿فذلكم الله ربكم الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنّى تصرفون﴾. والثاني: يقال للموجد بحسب مقتضى الحكمة، ولهذا يقال: فعل الله تعالى كله حق، وقال تعالى: ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ما خلق الله ذلك إلا بالحق﴾. وقال في القيامة: ﴿ ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه الحق ﴾، ﴿ ويكتمون الحق ﴾. وقوله عزوجل: ﴿الحق من ربك ﴾، ﴿وإنه للحق من ربك ﴾. والثالث: في الاعتقاد للشيء المطابق لما عليه لذلك الشيء في نفسه، كقولنا: اعتقاد فلان في البعث والثواب والعقاب والجنة والنار حق. قال الله تعالى: ﴿ فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق ﴾.

والرابع: للفعل والقول الواقع بحسب مايجب، وفي الوقت الذي يجب، كقولنا: فعلك حق، وقولك حق. قال الله تعالى: ﴿ كذلك حقت كلمة ربك ﴾، ﴿حق القول مني لأملأن جهنم﴾.

بالمتضادين واحد.

وأما الحقيقة: فإنها تستعمل في المعنى تارة، وفي اللفظ تارة: فأما استعمالها [١] في المعنى [٢]: فعبارة عن ما ينبيء عن الحق ويدل عليه. ولذلك قال لحارثة لما قال أصبحت مؤمنا حقا، قال: «لكل حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك ؟» أي: ما الذي ينبيء عن ذلك ؟ [٣]». ويستعمل في العمل والاعتقاد والخبر، فيقال: هذا فعل وخبر وقول لها [٤] حقيقة. ويستعمل في ضدها: المجاز، والتسمح، والتوسع، فيقال: هذا فعل واعتقاد وخبر فيها [٥] تجوز وتسمح وتوسع. ولا فرق [بين] أن يكون مثل هذا الخبر بلفظ مجاز أو لفظ حقيقة في أنه يقال: هو حقيقة إذا كان مطابقا لما عليه الشيء في نفسه.

وإذا استعملت في اللفظ فالمراد به: اللفظ المستعمل فيما وضع له في أصل اللغة من غير نقل ولا زيادة ولا نقصان. والمجاز على العكس من ذلك [٦]، وكلاهما ضربان: أحدهما في مفردات الألفاظ والثاني في الجمل. فالمجاز في المفردات: إما أن يكون بنقل، نحو فلان عظيم الحافر ويراد به القدم.

أو بزيادة، نحو انظور في« انظر » وأرأيت لو كان على أبيك دين «فقضيتيه» [٧] أي:

---

١. في نسخة: استعماله. ٢. في نسخة: المعنى تارة.

٣. جاء في مجمع الزوائد ج ١ ص ٥٧: عن الحارث بن مالك الأنصاري: أنه مر بالنبي ﷺ فقال له: كيف أصبحت ؟ قال: أصبحت مؤمنا حقا. قال: انظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة. فما حقيقة إيمانك ؟. قال عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري وكأني أنظر عرش ربي بارزا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر الى أهل النار يتضاغون فيها. قال: يا حارثة: عرفت الأمر فالزم ـ رواه الطبراني في الكبير، وفيه ابن لهيعة، وفيه من يحتاج الى الكشف عنه. وعن أنس: أن النبي ﷺ ـ لقي رجلا يقال له حارثة في بعض سكك المدينة، فقال: كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال: أصبحت مؤمنا حقا، قال: إن لكل إيمان حقيقة. فما حقيقة إيمانك؟، قال: عزفت نفسي عن الدنيا فأظمأت نهاري وأسهرت ليلي وكأني بعرش ربي بارزا، وكأني بأهل الجنة في الجنة يتنعمون فيها، وكأني بأهل النار يعذبون. فقال النبي ﷺ أصبت فالزم. مؤمن نور الله قلبه ـ رواه البزار ـ وفيه يوسف بن عطية لا يحتج به.

٤. في نسخة: له. ٥. في نسخة: فيه.

٦. قال الراغب في مفرداته: « والحقيقة تستعمل تارة في الشيء الذي له ثبات ووجود، كقوله ﷺ لحارثة: « لكل حق حقيقة. فما حقيقة إيمانك ؟ ». أي: ما الذي ينبيء عن كون ما تدعيه حقا ؟ وفلان يحمي حقيقته. أي: ما يحق عليه أن يحمي. وتارة تستعمل في الاعتقاد كما تقدم، وتارة في العمل وفي القول. فيقال: فلان لفعله حقيقة. إذا لم يكن مرائيا فيه. ولقوله حقيقة إذا لم يكن فيه مترخصا ومستزيدا. ويستعمل في ضده: المتجوز، والمتوسع، والمتفسح. وقيل: الدنيا باطل، والآخرة حقيقة تنبيها على زوال هذه وبقاء تلك » وأما في تعارف الفقهاء والمتكلمين، فهي: « اللفظ المستعمل فيما وضع له في أصل اللغة ».

٧. في نسخة: فقضيته. وهو تصحيف.

قضيته.

أو بنقصان [١]، نحو : درس المنا بمتالع فأبان [٢]، أي : المنازل .

وربما يكون اللفظ الواحد من وجه حقيقة ، ومن وجه مجازا ، نحو قولهم : فلان عظيم الاقدام، فمن حيث استعمل القدم حقيقة ، ومن حيث أتى بلفظ الجمع مجاز [٣] .

وأما المجاز في الجمل : فمن حيث [هي] جملة لا يكون إلا بحذف أو زيادة :

أما الحذف : فما كان المحذوف منه شيئا مستغنى عنه لدلالة عليه ، فذلك [٤] من الإيجاز، نحو حذف المخبر [عنه] تارة، والخبر تارة، والمضاف تارة ، والمضاف إليه تارة ، والمفعول تارة ، والفاعل تارة ، وأمثلتها مشهورة يستغنى عن ذكرها .

وأما الزيادة : فلا شبهة أن كل زيادة تقتضي [٥] زيادة معنى ، أو بسط مختصر ، أو شرح مبهم ، فإنها [٦] مستحسنة [٧] متى حصل فيها شرائط البلاغة ، نحو ذكر « جبريل » و « ميكائيل » بعد [٨] ذكر « الملائكة » . وذكر « النخل » و « الرمان » بعد ذكر « الفاكهة » وكذلك [٩] ما كان من نحو زيادة اللام في « شكرته وشكرت له » .

وأما المستنكر - [المستكره] عند أكثر محصلين -: فكل زيادة ادعي فيها أن وجودها وعدمها سواء ، كما زعم بعضهم أن ذلك كـ«الطاف» «الكاف» في قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ [١٠] و « الوجه » في قوله : ﴿ فأينما تُوَلُّوا فثم وجه الله ﴾ [١١] [أي: الله]، وقوله تعالى :

---

١ . في نسخة : نقصان .

٢ . هذا شطر بيت منسوب للبيد كما في « تاج العروس » و « لسان العرب » والمحيط وشطره الثاني : « فتقادمت بالحبس فالسوبان » . و « متالع » و « أبان » : جبلان . وقال في اللسان : إنما أراد « المنازل » فحذف . وكذلك قول الأخطل : أمست مناها بأرض ما يبلغها بصاحب الهم إلا الجسرة الأجد .
أراد : أمست منازلها . فحذف .. » .

٣ . في نسخة : مجازا .

٤ . في نسخة : فكذلك .

٥ . في نسخة : يقتضي .

٦ . في نسخة : فإنه .

٧ . في نسخة : مستحسن .

٨ . في نسخة : ثم .

٩ . في نسخة : ولذلك .

١٠ . سورة الشورى : الآية ١١ . وقد قال فيها الراغب في مفرداته : «.. وأما الجمع بين «الكاف » و « المثل » . فقد قيل : ذلك لتأكيد النفي تنبيهاً على أنه لا يصح استعمال « المثل » ولا « الكاف » فنفى بـ« ليس » الأمرين جميعاً . وقيل : المثل - ههنا : هو بمعنى الصفة . ومعناه : ليس كصفته صفة . تنبيهاً على أنه وإن وصف بكثير مما يوصف به البشر فليس تلك الصفات له على حسب ما يستعمل في البشر » .

١١ . سورة البقرة : الآية ١١٥ .

﴿ بسم الله ﴾ أي: بالله، وقوله تعالى: ﴿ما منعك ألا تسجد ﴾ (١) أي: أن تسجد. وكل ذلك يجيء الكلام عليه في مواضعه، في أنها ليست بزائدة وأن لها معاني صحيحة.

وبعض الناس تحرّوا في آيات ذكرها الله تعالى ـ على سبيل المثل ـ تطلّب الحقائق ورأوا أن ذلك المعنى إذا لم يكن له وجود على [سبيل] الحقيقة كان كذباً، وذلك في نحو قوله تعالى: ﴿ خصمان بغى بعضنا على بعض﴾ (٢)، وقول إبراهيم ﷺ: ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ (٣)، حتى ان بعضاً(٤) حمل قول النبي ﷺ: «إن إبراهيم لم يكذب إلا ثلاث كذبات كلها يماحك بها عن دينه. قال: إني سقيم، وهذه أختي، وبل فعله كبيرهم» على الحقيقة، وخفي عليه أن المذكور على وجه المثل إذا تحري به معنى صحيح لم يكن كذباً (٥)، [نحو قولنا ـ لمن نحثه على عمل ـ: أطرّي فإنك فاعله(٦)]، [كما يقال] ـ لمن نعاتبه في تضييع أمر وقع منه ـ: الصيف ضيعت اللبن(٧).

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٢.
٢. سورة ص: الآية ٢٢.
٣. سورة الأنبياء: الآية ٦٣.
٤. في نسخة: بعضنا.
٥. قال ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: «فقال إني سقيم»: إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم لانه قد كان أزف خروجهم إلى عيد لهم فأحب ان يختلي بآلهتهم ليكسرها، فقال لهم كلاماً هو حق في نفس الأمر فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه .. فأما حديث «لم يكذب إبراهيم ﷺ غير ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله تعالى، قوله: «إني سقيم» وقوله «بل فعله كبيرهم هذا» وقوله في سارة: «هي أختي» فهو حديث مخرج في الصحاح والسنن من طرق، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله، حاشا وكلا وإنما اطلق الكذب على هذا تجوزاً، وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي ديني».
٦. وفي نسخة: فاعلة، وقد جاء في كتاب «فرائد اللآل في مجمع الأمثال» للشيخ إبراهيم بن السيد علي الأحدب الطرابلسي ـ ج ١ ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥ ما يلي:

يـاذي أطـري ان تكـوني فـاعلة إنك أنت يـا فـتاة نـاعله

الإطرار: أن تركب طرر الطريق وهي نواحيه. وقيل معناه: أدلي. وقيل: اركب الأمر الشديد فإنك قوي عليه. وأصله أن رجلا قال لراعية كانت له ترعى في السهولة وتدع الحزونة: أطري. أي: خذي طرر الوادي. وهي نواحيه. فإن عليك نعلين، كأنه عنى بهما غلظ جلد قدميها. وقيل «أطري»: خذي أطرار الإبل، أي: نواحيها، يريد: حوطيها من أقاصيها واحفظيها ـ يضرب لمن يؤمر بارتكاب الأمر الشديد لاقتداره عليه، ويخاطب به المفرد والمثنى والجمع مذكراً كان أو مؤنثاً. ويروى: أظري فإنك ناعلة ـ بالظاء المعجمة ـ أي: اركبي الظرر، وهو الحجر المحدد ـ والجمع: ظران، وظران ـ ويصعب المشي عليها».
٧. وقد جاء في كتاب «الأمثال» الآنف الذكر ـ ج ٢ ص ٥٤: يا هذه في الصيف ضيعت اللبن، أي: رمت ما قد فات نيلاً من زمن. ويروى: الصيف ضيعت اللبن ـ وهو بكسر التاء ـ حيث خوطبت به امرأة أولاً وهي دختنوس بنت لقيط بن زرارة كانت تحت عمرو بن عدس، وكان شيخاً كبيراً ففركته. فطلقها فتزوجها فتى جميل ←

وانكر بعضهم قول المفسرين: إن هذا كذا مضمر. وقال: الإضمار إنما يستعمل فيمن له قلب وخاطر والله تعالى منزه عن ذلك، وليس يراد بالإضمار هذا المعنى، وإنما يعني أن بنية الكلام تؤدي معنى ذلك من غير نطق به، نحو قولهم: «أحشفاً وسوء كيلة»[1] فإن هذا الكلام يقتضي أتجمع علي، [وبه] مضمون الكلمة وذلك معلوم للسامع.

فصل في العموم والخصوص من جهة المعنى

وذلك ثلاثة أضرب:

عام مطلق: وهو الجنس، نحو قولنا [الحيوان، أو الحبوب. وخاص مطلق مثل]: زيد وعمرو، وهذا الرجل.

وعام من وجه خاص من وجه [2]، كالإنسان، فإنه بالإضافة إلى الحيوان خاص وبالإضافة إلى زيد وعمرو عام.

والعام: إذا حمل على الخاص صدق القول، نحو [قولنا]: زيد إنسان وحيوان. والإنسان [حيوان].

والخاص: إذا حمل على العام كذب، نحو الحيوان: إنسان. والإنسان: زيد، إلا إذا قيد

⇐ الوجه، وأجدبت، فبعثت إلى عمرو تطلب منه حلوبة. فقال المثل. فلما رجع الرسول وأخبرها بذلك ضربت يدها على منكب زوجها وقالت:

«هذا ومذقه خير» - تعني أن هذا الزوج مع عدم اللبن خير من عمرو - فذهبت كلتاهما مثلاً يضرب الأول لمن يطلب شيئاً قد فوته على نفسه. والثاني: يضرب لمن قنع باليسير إذا لم يجد الخطير. وإنما خص الصيف، لأن سؤالها الطلاق كان فيه، أو أن الرجل إذا لم يطرق ما شيته في الصيف كان مضيعاً لألبانها عند الحاجة.

وقيل: طلق الأسود بن هرمز امرأته العنود الشنيئة رغبة عنها إلى امرأة من قومه ذات جمال ومال، ثم جرى بينهما ما أدى إلى المفارقة فتبعت نفسه العنود فراسلها فأجابته بقولها:

أتركتني حتى إذا ... علقت أبيض كالشطن
أنشأت تطلب وصلنا ... في الصيف ضيعت اللبن

وعلى هذه الرواية تكون التاء مفتوحة لأنه خطاب لمذكر.

١. وجاء أيضاً في كتاب الأمثال الآنف الذكر ج ١ ص ١٧١:

أحشفاً وسوء كيلة نرى ... تجمع يا زيد علينا المنكرا

الكيلة: فعله من الكيل - وهي تدل على الهيئة والحالة، نحو الجلسة والركبة.

والحشف: أردأ التمر. أي: أتجمع حشفاً وسوء كيل - يضرب لمن يجمع بين خصلتين مكروهتين. قيل: المثل لعمرو بن معدي كرب.

٢. في نسخة: نحو.

لفظاً أو تقديراً ، فيقال : هذا الإنسان زيد [أو الإنسان زيد] ، ويجعل الألف واللام للعهد لا للجنس ، أو يراد أن معنى الإنسانية كملاً[١] موجود في زيد .

وإذا[٢] ثبت ذلك فالمفسر إذا فسر العام بالخاص فقصده أن يبين تخصيصه [بالذكر] ويذكر مثاله ، [لا أنه يريد][٣] أنه هو هو لا غير .

وكثير ممن لم يتدرب بالقوانين البرهانية إذا رأى عاماً مستعملاً في خاصين قدر أن ذلك جارٍ مجرى الأسماء المشتركة فيجعله من بابها . [وعلى ذلك كثير][٤] ممن صنفوا في نظائر القرآن ، فقالوا : الإثم : ارتكاب الذنب . والإثم : الكذب ، احتجاجاً بقوله : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً ﴾[٥] والاثم ، عام في المقال والفعال . وإنما خص في هذا الموضع ؛ لأن السماع ليس إلا في المقال .

وعلى ذلك قال اللحياني [في] « الخوف » : القتال ، لقوله تعالى : ﴿فإذا ذهب الخوف سلقوكم ﴾[٦] ، والقتل ، لقوله :﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به﴾[٧] ، والعلم، لقوله:﴿فمن خاف من موصٍ جنفاً أوإثماً﴾[٨] أي : علم[٩] . وذلك من ظهور سوء التصور بحيث لا يحتاج إلى تبيين[١٠] .

وأما الخاص : فتفسيره بالعام جائز إذا قصد تبيين جنسه ، نحو : الحرباء دويبة . والحرباء حيوان .

فصل في تبيين الوجوه التي يجعل لأجلها الاسم فاعلاً في اللفظ ، وهو فصل تكثر الشبه لأجله ، ويتعلق به الفريقان المنسوبان إلى الجبر والقدر :

---

١ . في نسخة : كله .

٢ . في نسخة : فإذا .

٣ . في نسخة : لأنه لم يرد .

٤ . في نسخة : وعلى ذلك رأيت كثيراً .

٥ . سورة الواقعة : الآية ٢٥ .

٦ . سورة الأحزاب : الآية ١٩ .

٧ . سورة النساء : الآية ٨٣ .

٨ . سورة البقرة : الآية ١٨٢ .

٩ . قال في اللسان .... والخوف : القتل . والخوف : القتال . وبه فسر اللحياني قوله تعالى : ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ﴾ وبذلك فسر قوله أيضاً : ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ﴾ . والخوف : العلم ، وبه فسر اللحياني قوله تعالى: ﴿ فمن خاف من موصٍ جنفاً أو إثماً ﴾ « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً » .

١٠ . في نسخة : تبين .

كل فعل من أفعال غير اللّه تعالى نحو : النجارة [١] ، والكتابة ، يحتاج في حصوله إلى أشياء : إلى فاعل يصدر عنه الفعل كالنجار ، وإلى عنصر يعمل فيه كالخشب ، وإلى عمل كالنجر . وإلى مكان وزمان يعمل فيهما . وإلى آلة يعمل بها كالمنجر والمنحت . وإلى مثال يعمل عليه ويحتذى نحوه . وإلى غرض يعمل لأجله ما يعمل . ثم الفاعل قد يحتاج إلى من يسدده ويرشده . والغرض قد يكون على نحوين : قريب وبعيد .

فالقريب : اتخاذ النجار الباب ليحصل به نفعاً . والبعيد : ليحصن [به] البيت . وكل ذلك قد ينسب إليه الفعل ، فيقال [٢] : أعطاني زيد ، إذا باشر العطاء . وأعطاني اللّه ، لما كان هو الميسر له ، وربما جمع بين السبب القريب والبعيد ، فيقال : أعطاني اللّه وزيد . قال الشاعر :

حــبانا بــه [٣] جــدّنا والإلــه   وضــرب لنــا جــذم صــائب

فنسب إلى المسبب الأول ، وهو اللّه تعالى ، وإلى السبب الأخير وهو الضرب ، وإلى المتوسط وهو الجدّ . وقال تعالى : ﴿ **اللّه يتوفى الأنفس حين موتها** ﴾ [٤]، وقال : ﴿ **قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم** ﴾ [٥] فأسند الفعل في الأول إلى الآمر به . و [في] الثاني إلى المباشر له .

وقال الشاعر في صفة درع : وألبسنيه الهالكي [٦] .

وقال آخر : كساهم محرق .

[فنسب في الأول إلى عاملها وفي الثاني إلى مستعملها] [٧] .

وقال في صفة نبال : نبال كستها ريشها مضرحية [٨] .

فنسب كسوتها إلى الطير التي اتخذ منها ريشها .

---

١ . في نسخة : التجارة . ولكن سياق الكلام يدل على أن المراد بها : « النجارة » .
٢ . في نسخة : فتقول .
٣ . ساقطة من نسخة . وقد أورد البيت في الذريعة إلى مكارم الشريعة وجاء شطره الثاني : وضرب لنا أجزم صارم .
٤ . سورة الزمر : الآية ٤٢ .
٥ . سورة السجدة : الآية ١١ .
٦ . في نسخة : إليها وهو تصحيف ـ وقد قال الراغب في مفرداته : « والهالكي كان حداداً من قبيلة هالك فسمي كل حداد هالكياً » .
٧ . لم أجد هذا البيت ولا الذي قبله .
٨ . جاء في لسان العرب : المضرحي من الصقور : ما طال جناحاه وهو كريم .

وقيل: « يداك أوكتا وفوك نفخ »[١]. فنسبه إلى الآلة المتصلة. ويقال سيف قاطع، فنسب إلى الآلة المنفصلة. وقيل: ضرب فيصل، وفاصل، وطعن جائف، فنسب إلى الحدث، وقيل: سر كاتم وعيشة راضية فنسب إلى المفعول. وقال: « حرماً آمناً » فنسبه إلى المكان. وقيل: يوم صائم، وليل ساهر. قال: وما ليل المطي بنائم[٢].

فنسبه إلى الزمان.

فلما كانت أفعالنا على ذلك صح في الفعل الواحد أن ينسب[٣] لأحد الأسباب مرة، وينفى عنه مرة، بنظرين مختلفين. على ذلك قول الشاعر:

أعطيت من لم تعطه ولو انقضى حسن اللقا حرمت من لم تحرم

فأثبت له الفعل [مرة] ونفاه عنه معاً بنظرين مختلفين.

ويقال: هذا الخشب قطعته [أنت] لم يقطعه السكين، بمعنى [أنه جعل][٤] تأثيره لك لا للسكين. ويقال: قطعه السكين لم تقطعه.

وبتصور هذا الفصل تزول الشبهة فيما يرى من الأفعال منسوباً إلى الله تعالى، منفياً عن العبد، ومنسوباً إلى العبد تارة منفياً عن الله تعالى، نحو قوله تعالى: ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾[٧].

---

١. ذكره البكري في « فصل المقال في شرح كتاب الأمثال » صفحة: ٤٥٨/ تحت عنوان « باب الشماتة بالجاني على نفسه الحين »: قال ابو عبيد: ويقال في مثله: « يداك أو كتاوفوك نفخ » وذكر أصله عن المفضل. وقال صاحب كتاب العين خلاف ما ذكر، قال: كان من شأن هذا المثل أن شاباً انتهى إلى جوار يستقين بالقرب. فكان يلاعبهن ويأخذ بعض القرب فينفخ فيه ثم يوكئه، فاطلع عليه أخ لجارية منهن فقتله غيرة. فجاء أخو المقتول فوجده قتيلاً، فأخبر بما كان يصنع من ملاعبة الجواري، فقال: يداك أوكتا وفوك نفخ وعزّى نفسه ورجع ».

٢. البيت لجرير وهو في كتاب سيبويه: ج ١ ص ٨٠، ونصه:

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ونمت وما ليل المطي بنائم.

وهو في النقائض ص ٧٥٣، والمقتضب: ج ٣ ص ١٠٥، ج ٤ ص ٣٣٣ والمحتسب لابن جني ج ٢ ص ١٨٤، وأمالي ابن الشجري: ج ١ ص ٣٦، ٣٠١ والإنصاف لابن الأنباري ص ٢٤٣، وخزانة الأدب: ج ١ ص ٢٢٣، وديوان جرير ص ٥٥٣.

٣. في نسخة: يثبت.

٤. في نسخة: أنا. وهو تحريف. والصواب ما أثبتناه.

٥. سورة الأنفال: الآية ١٧.

٦. سورة الأنفال: الآية ١٧.

٧. سورة النساء: الآية ٧٩.

وبيان ذلك: ان [الأفعال التي نباشرها] [١] تعتبر على وجهين: [احدهما] بالإضافة إلى مباشره، فيقال: فعل فلان كذا، ولم يفعل كذا. والثاني: في الاعتبار بميسّره والمقدر له والموفق لسبيله، وانه لو لا سوابق نعمه لما وجد ذلك، بل ما وجد [شيء من] [٢] أفعالنا وذواتنا، وأنه تعالى السبب الأول الذي يصح ارتفاع ما سواه، ولا يصح ارتفاعه ـ تعالى علواً كبيراً[٣].

فإذاً: النظر إلى أفعالنا وإلى من يسّرها لنا نظر أن:

ـ نظر من أفعالنا إلى فعل الباري، فيتوصل بها إلى معرفته.

ـ ونظر من إنعامه علينا بقوانا وتسهيل سبيلنا إلى إيجاد أفعالنا.

وهذا الثاني لا سبيل إلى تصوره لمن لم يتقوّ [٤] في الأول، ولم يجعله ذريعة للوصول[٥] إلى هذا.

وبهذا السبيل دعا الناس إلى الإيمان فقال: ﴿ آمنوا بالله ﴾ [٦]، ﴿ وأما من آمن وعمل صالحاً ﴾ [٧]، ﴿ وأن ليس للانسان إلا ما سعى ﴾ [٨].

فلما نبههم [٩] عرفهم أن ذلك كله بتوفيقه، فقال: ﴿ قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله

---

١. في نسخة: الفعل الذي نباشره. ٢. في نسخة: في.

٣. ذكر المؤلف في كتابه «الذريعة إلى مكارم الشريعة» ص ٢٢٤ وما قبلها ما جاء في هذا الفصل، وزاد عليه بعض الأمثلة بعد قوله: «ويقال: قطعه السكين لم تقطعه» فقال:

«وفلان هداه الله وهداه الرسول وهداه القرآن وهداه فهمه، فنسب إلى كل ذلك. وقال «أضله الله» لما كان تعالى هو السبب الأول في وجوده ووجود الآلة، وإن لم يكن تعالى هو الداعي إلى الضلال. وأضلته نفسه لما تركت الاحتراز. وهذا فصل من تأمله لم يعتمد في تثبيت المعاني على مثلها من الألفاظ فينظر من اللفظ إلى المعنى، بل ينظر في مثل هذا من المعنى إلى اللفظ. واعلم أنه من أجل هذا الذي قدمناه قال قوم من المخلصين: لا شيء من الأفعال فاعله واحد في الحقيقة إلا الله عزوجل، فإن فعله ـ عز وجل ـ يستغني عن الزمان والمكان والمادة ومثال يحتذيه. ومن عداه من الفاعلين لا بد له من كل ذلك أو بعضه، ولهذا لا يصح أن ينسب الإبداع إلى غيره تعالى لا حقيقة ولا مجازاً. ويصح أن ينسب فعل الله تعالى إلى كلما تقدم ذكره».

٤. في نسخة: يوفق. ٥. في نسخة: إلى الوصول.

٦. سورة الحديد: الآية ٧. ٧. سورة الكهف: الآية ٨٨.

٨. سورة النجم: الآية ٣٩. ٩. في نسخة: نبأهم.

يمن عليكم أن هداكم ﴾ [١]، وقال تعالى: **﴿ ومن لم يجعل اللّٰه له نوراً فما له من نور﴾**[٢].

فلما علم تعالى أن قد صار لهم قوة يمكنهم أن ينظروا من آلاته [٣] إلى أفعالهم، قال تعالى: **﴿ فلم تقتلوهم ولكن اللّٰه قتلهم ﴾** [٤]، [وقال]: **﴿وما رميت إذ رميت ولكن اللّٰه رمى ﴾** [٥] فأضاف أفعالهم إلى نفسه عند تناهي معارفهم بخلاف ما فعل في الأول.

فإذا تقررت [٦] هذه الجملة علم انه لا فاعل في الحقيقة منفرداً غير اللّٰه تعالى، إذ كل فاعل يحتاج إلى معاون على ما تقدم البيان فيها، والله تعالى: كل أفعاله [٧] إبداع لا في مادة ولا من شيء ولا على مثال ولا في زمان ولا في مكان، ولا بآلة ولا بمرشد ومعين. فهو الفاعل الحقيقي وما سواه فاعل على ضرب من التوسع. وبهذا النظر ورد الشرع وأجمع الصدر الأول من المؤمنين [على] ان الأفعال كلها بمشيئة اللّٰه وإرادته، ومن جهته. وأطلقوا على «اللّٰه» لفظ «الشيء» كما يطلق على غيره، بنظرين مختلفين: فإن بعض الناس قد ذكر أن «الشيء» في الأصل مصدر «شاء» فإذا استعمل فيه تعالى فبمعنى «الشائي»، وإذا استعمل في غيره فبمعنى «المنشاء» [٨] وذلك في اللغة مستمر، لأن المصدر يطلق على الفاعل والمفعول جميعاً. قال: وتصور هذه الحقيقة من لفظة «الشيء» مما ينبهنا أن هذه اللغة من جهة اللّٰه تعالى.

فصل في بيان الألفاظ التي تجيء متنافية [في الظاهر].

كثيراً ما يجيء ألفاظ [٩] في الظاهر كالمتنافي عند من لم يتدرب بالبراهين العقلية والعلوم الحقيقة، وربما يغالط الملحد [بألفاظ القرآن] [١٠] العجزة فيشككهم، مثل أن يقول: قد ثبت [في بداهة] [١١] العقول أن النفي والاثبات في الخبر الواحد إذا اجتمعا لابد

---

١. سورة الحجرات: الآية ١٧.
٢. سورة النور: الآية ٤٠.
٣. في نسخة: الآية.
٤. سورة الأنفال: الآية ١٧.
٥. سورة الأنفال: الآية ١٧.
٦. في نسخة: تفردت. وهو تصحيف.
٧. في نسخة: فأفعاله.
٨. في نسخة: «المشي».
٩. في نسخة: الألفاظ.
١٠. في نسخة: بألفاظ من القرآن في نحو ذلك.
١١. في نسخة: من بداية.

من صدق أحدهما وكذب الآخر، نحو أن يقال: زيد خارج، زيد ليس بخارج.

وقد رأينا في القرآن أخباراً متنافية، فلابد من أن يكون أحدهما صدقاً، والآخر كذباً، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾[١] مع قوله: ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾[٢]، وقوله إخباراً عن الكفار أنهم يقولون: ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾[٣] مع قوله تعالى: ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿هذا يوم لا ينطقون﴾[٥] مع قوله تعالى: ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ﴾[٧] مع قوله تعالى: ﴿ ورأى المجرمون النار﴾[٨]، وقوله تعالى: ﴿ دعوا هنالك ثبوراً ﴾[٩] وقوله[١٠]: ﴿ سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴾[١١]، وقوله تعالى: ﴿ فو ربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾[١٢] مع قوله تعالى: ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾[١٣]، وقوله تعالى: ﴿ وإن منكم إلا واردها﴾[١٤] مع قوله تعالى: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾[١٥].

وقبل الجواب عن ذلك يجب ان نقدم[١٦] مقدمة تزول الشبهة بها عن ذلك وعن أمثاله[١٧]، ويكتفى بتصورها عن آحاد هذه [الأسئلة][١٨] ونظائرها، وهو أن الخبرين اللذين أحدهما نفي والآخر إثبات إنما يتناقضان إذا استويا في الخبر والمخبر عنه، وفي المتعلق بهما، وفي الزمان والمكان، وفي الحقيقة والمجاز.

فأما[١٩] إذا اختلفا في واحد من ذلك فليسا بمتناقضين، نحو أن يقال: زيد مالك. زيد

١. سورة الصافات: الآية ٢٧.
٢. سورة المؤمنون: الآية ١٠١.
٣. سورة الأنعام: الآية ٢٣.
٤. سورة النساء: الآية ٤٢.
٥. سورة المرسلات: الآية ٣٥.
٦. سورة الصافات: الآية ٢٧.
٧. سورة الاسراء: الآية ٩٧.
٨. سورة الكهف: الآية ٥٣.
٩. سورة الفرقان: الآية ١٣.
١٠. في نسخة: مع قوله.
١١. سورة الفرقان: الآية ١٢.
١٢. سورة الحجر: الآية ٩٢ـ٩٣.
١٣. سورة الرحمن: الآية ٣٩.
١٤. سورة مريم: الآية ٧١.
١٥. سورة الأنبياء: الآية ١٠١.
١٦. في نسخة: يقدم.
١٧. في نسخة: وأمثالها.
١٨. في نسخة: الأسؤله. وهو خطأ ناسخ.
١٩. في نسخة: أما.

ليس بمالك. وتريد بأحد الزيدين غير الآخر، أو تريد بأحد المالكين المبني [من] الملك، وبالآخر المبني من الملك الذي هو [الشد][١] أو تريد بأحدهما: المالك في الحال وبالآخر[٢] أنه ممن يصح ملكه كالعبد. أو تعني بأحدهما بأصبهان والآخر ببغداد، أو تعني بأحدهما في زمان [وبالآخر في زمان] آخر غير الزمان الأول. فكل هذا لا تناقض [فيه[٣]]، فإن المراد بأحد الخبرين غير المراد بالآخر[٤].

وعلى ذلك كل ما يوصف بوصفين متضادين على نظرين[٥] مختلفين، نحو من يقول في «الرحى» و«البكرة الدائرة على مركزها»: إنها سائرة أو منتقلة لاعتبار بعض أجزائها ببعض. ويقول آخر: إنها غير سائرة أو غير منتقلة اعتباراً[٦] لجملة[٧] أجزائها وأنها لا تتبدل[٨] عن المركز. فإن ذلك لاتضاد بينهما.

وكذلك إذا قيل: فلان لين العود ـ ويراد به السخاء ـ وقول آخر[٩]: ليس بلين العود ـ ويراد به في الشجاعة ـ.

وعلى ذلك ما يختلف به الحال في الإضافة إلى حالين أو إلى نفسين، نحو أن يقال: المال صالح ـ اعتباراً بحال ما أو بذات ما، ويقول الآخر: إن المال ليس بصالح ـ اعتباراً بحال أخرى أو بذات أخرى.

وعلى ذلك الحكم في كل ما له مبدأ وغاية، مثل: «الايمان، والشرك، والتوكل» وذاك: أن «الايمان» لما كان مبدؤه: إظهار الشهادتين ـ كما قال ﷺ في الجارية التي أشارت إلى السماء: «إنها مؤمنة»[١٠]. وكان غايته ما قال تعالى: ﴿ إنما المؤمنون الذين

---

١. في نسخة قد قال الراغب في مفرداته: «... وملكت العجين شددت عجنه، وحائط ليس له ملاك، أي: تماسك».

٢. في نسخة: والاخر.

٣. في نسخة: بينهما.

٤. من الكتب النافعة في هذا والتي فيها توجيه لأكثر الآيات التي استشهد بها المؤلف كتاب «دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب» للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي.

٥. في نسخة: نظيرين.

٦. في نسخة: اعتبار.

٧. في نسخة: بجملة.

٨. في نسخة: تبدل.

٩. في نسخة: قول مع قول آخر.

١٠. الحديث أخرجه ابو داود في «الإيمان والنذور» باب «الرقبة المؤمنة» ورقمه ٣٢٨٤ ونصه: «عن أبي هريرة قال: إن رجلاً أتى النبي ﷺ بجارية سوداء، فقال: يا رسول الله: إن علي رقبة مؤمنة، فقال لها رسول الله: (أين الله؟) فأشارت إلى السماء بإصبعها. فقال لها: (فمن أنا؟) فأشارت إلى النبي ﷺ وإلى السماء تعني: أنت رسول الله. قال: (اعتقها فإنها مؤمنة)» وانظره في جامع الأصول: ج ١ ص ٢٣١.

إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ [١] الآية ـ صح أن يقال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن» [٢] وأن يقال: «يزني الزاني وهو مؤمن».

وعلى ذلك كل ما هو مركب من شيئين، أو كان له مبدأ وغاية ـ كما تقدم ـ صدق فيه أربعة أخبار بأربع نظرات، نحو أن يقال: السكنجبين حلو، السكنجبين حامض [السكنجبين حلو حامض] السكنجبين لا حلو ولا حامض.

ومتى تصورت هذه المقدمة سهل الجواب عن هذه الآيات، إذ كل ذلك راجع إلى أحد الأسباب المذكورة [٣] من المخالفات» [٤].

قال الراغب في جواز إرادة المعنيين المختلفين بعبارة واحدة:

العبارة الموضوعة لمعنيين على سبيل الاشتراك حقيقة فيهما أو مجازاً في أحدهما، متى تنافى معنياها [٥] في المراد لم يصح أن يرادا معاً بعبارة واحدة، نحو أن يقال: صل صلاة واحدة، على سبيل الوجوب والندب.

وإذا [٦] لم يتنافيا [٧] صح ذلك، نحو: اللمس ـ المراد به المسيس ـ والمس. وإلى ذلك ذهب الشافعي رحمه الله ـ وهو مقتضى مذهب سيبويه، لأنه قال في قولهم: «الويل له»: إنه دعاء [٨] عليه وإخبار عن حاله، فجعله للأمرين في حالة واحدة، إلى غير ذلك مما دل كلامه [٩] عليه.

---

١. سورة الأنفال: الآية ٢.

٢. الحديث أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن تحت رقم ٣٩٣٦ ... عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن. ولا ينتهب نهبة، يرفع الناس إليه أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن». وللحديث روايات عند البخاري: ج ٥ ص ٨٦ في المظالم، وعند مسلم رقم ٥٧ في الايمان وعند أبي داود رقم ٤٦٨٩ وعند الترمذي رقم ٢٦٢٧ في الايمان وعند النسائي: ج ٨ ص ٦٤ في السارق.

٣. في نسخة: المذكورات.

٤. جامع التفاسير ج ١ ص ٥٢ ـ ٧١.

٥. في نسخة: معناهما. وفي نسخة أخرى: معنياهما. ولعل الصواب ما اثبتناه.

٦. في نسخة: ولتي.

٧. في نسخة: تتنافيا.

٨. في نسخة: عاء. وهو تصحيف.

٩. في نسخة: من كلامه.

والدلالة على جواز ذلك، قولهم: «افعلوا»[١] - في مخاطبة الرجال والنساء - وقولهم: «الرجال والنساء فعلوا» وهذه العبارة للمذكر حقيقة، وللمؤنث مجاز.

وقوله تعالى: ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ﴾[٢]، وعناه والمؤمنين، فهو حقيقة فيه ومجاز فيهم.

وقال الشاعر:

ثقال الجفان والحلوم رحاهم
رحى الماء يكتالون كيلاً عذمذما[٣]

فوصف «الجفان» بالثقل حقيقة، ووصف «الحلوم» به مجاز، وقد نظمها بلفظ واحد.

وقال آخر:

وماءِ آجنِ الجمات قفر[٤]

فذكر الماء [وأراده به][٥] ومكانه، فقد يسمى مكان الماء ماء، والدلالة على [أنه أرادهما][٦]: أنه قد [وصفه][٧] «بآجن الجمات» وذلك من صفة الماء، و«بقفر»[٨] وهو من صفة المكان.

وقال ابن هرمة:

---

١. في نسخة: فعلوا كذا.
٢. سورة الطلاق: الآية ١.
٣. في نسخة: مذمذماً. وفي اللسان: وموت عذمذم: لا يبقي شيئاً.
٤. البيت لربيعة بن مقروم كما جاء في شرح اختيارات المفضل ج ٢ ص: ٨٥١ - ٨٥٨ للخطيب التبريزي، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، وقد جاء قبل هذا البيت:

ألا صرمت مودتك الرواع — وجَدَّ البين منها والوداع
ضرير قد هنأناه فأمسى — عليه في معيشته اتساع
وماءِ آجنِ الجمات قفر — تعقم في جوانبه السباع

والآجن: المتغير. والجمات: جمع «جمة» وهو: ما كثر من الماء. والقفر: الخالي. والتعقم: التشديد والخبث، أي: لا يطور به أحد ... وقال المرزوقي: «تعقم»: أي: تتخذ السباع في جوانبه عقماً لأمنها فيه. والاعتقام في الحفر: المضي سفلاً.
٥. في نسخة: وأراد به.
٦. في نسخة: إرادتها.
٧. في نسخة: وصف.
٨. في نسخة: ويقفر.

الحـوت يسبح فـي السـما ءكسـبحه فـي المـاء [١]

وهو بكلٍ سبح . والحوت [٢] السابح في السماء غير السابح في الماء .

قالوا : القمران ، للشمس والقمر ، وذلك في الشمس مجاز لا محالة .

فإن قيل : إن ذلك لايصح من حيث إن المتكلم به يكون مريداً استعمال اللفظ فيما وضع له ، والعدول به عن الموضوع له في حالة واحدة ، وذانك [٣] أمران متنافيان في المراد ، وهذه عمدة من منع جواز ذلك ، قيل : إن ذلك إنما يتنافى [٤] إذا وضع لفظٌ فاستعمل في معنى واحد على أنه منقول اليه عن غيره ، ومستعمل في موضعه . [أما إذا استعمل في أحد معنييه] لا على النقل بل على الوضع له، وفي الآخر على النقل إليه صح إرادتهما معاً .

ثم ليس من شرط المتكلم أن يخطر بباله كيفية وضع اللفظ من حقيقة ومجاز . وأيضاً : فما من لفظ مستعمل في شيئين : حقيقة فيهما أو مجازاً في أحدهما، إلاّ ويجمعهما معنى عام لهما على طريقة من يراعي مناسبة الألفاظ ، نحو أن يقال : اتق [٥] الأسد والحمار ، ويعني بـ«الأسد» : الحيوان الجريء . وبـ« الحمار » : الحيوان البليد ، وذلك متناول للبهيمة والإنسان معاً ، فصح أن يراد [٦] كما يقال [٧] : الحيوان الجريء والحيوان البليد .

ومما يحمل من القرآن على ذلك قوله تعالى : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ﴾ [٨]، وذلك [عام] في الانسان وغيره ، وقد علم ان الإنسان يسبّح بلسانه وفعاله . والجمادات ليست تسبح كذلك ، وقد قرنهما بلفظ واحد ، وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ [٩] قيل : عنى بذلك الغنىٰ بالكفاية والغنىٰ بالقناعة معاً ، وأمثال

---

١. لم يوجد البيت في ديوان ابن هرمة المطبوع . وقصده بالحوت السابح في السماء : النجم الذي يسمى الحوت .
٢. في نسخة : عن معنى الحوت.
٣. في نسخة : وذلك .
٤. في نسخة : ينافي.
٥. في نسخة : الحيوان في.
٦. في نسخة : يراد .
٧. في نسخة : لو قال .
٨. سورة الاسراء : الآية ٤٤.
٩. سورة الضحى : الآية ٨.

ذلك في القرآن أكثر من أن تحصى ههنا.

ولمثل هذه المعاني المجتمعة فيه، قال تعالى: ﴿ ولو أنَّمَا في الأرض من شجرة أقلام، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات اللّه ﴾ [١] وعلى ذلك روي في الخبر «لكل [حرف] ظهر وبطن، ولكل حرف حد ومطلع» تنبيهاً على كثرة معانيه المجتمعة تحت اللفظة بعد اللفظة [٢].

قال الراغب في بيان انطواءِ كلام اللّه تعالى على الحِكَم كُلِّها عِلْمِيِّها وعَمَلِيِّها:

كتاب اللّه تعالى منطو على كل ذلك بدلالة قوله تعالى: ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ [٣]، وقوله: ﴿ ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء ﴾ [٤]، وقوله: ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ [٥]، وقوله تعالى: ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ﴾ [٦] لكن ليس يظهر ذلك إلا للراسخين في العلم.

ولكونه منطوياً على الحكم كلها قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ [٧]: إنه عنى به تفسير القرآن. ثم منازل العلماء تتفاوت في تفهمه، ولذلك قال تعالى: ﴿ ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ [٨].

وأعظم ما يقصر تفهم الأكثرين عن إدراك حقائقه شيئان:

أحدهما: راجع إلى اللفظ. والآخر: راجع إلى المعنى.

فالراجع إلى اللفظ شيئان:

---

١. سورة لقمان: الآية ٢٧.
٢. جامع التفاسير ج ١ ص ٩٨ ـ ١٠١.
٣. سورة يس: الآية ١٢. والظاهر أن الامام المبين لا يراد به ـ هنا ـ: القرآن، كما يفهم من كلام الراغب وسياق الآية في سورة يس: ﴿ إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ والإمام المبين: إما هو صحائف الأعمال، وإما اللوح المحفوظ، كما ذهب إليه الراغب نفسه في مفرداته حيث قال: وقوله تعالى: ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾: فقد قيل: إشارة إلى اللوح المحفوظ.
٤. سورة يوسف: الآية ١١١.
٥. سورة الأنعام: الآية ٣٨.
٦. سورة النحل: الآية ٨٩.
٧. سورة البقرة: الآية ٢٦٩.
٨. سورة النساء: الآية ٨٣.

أحدهما: ما اختص به اللغة العربية من الإيجاز والحذف، والاستعارات والإشارات اللطيفة، واللمحات الغامضة مما ليس في سوى هذه اللغة.

والآخر: ما[١] يوجد في القرآن خاصة من الإيجازات والحذف مما ليس في غيره من الكلام، ولما فيه من اللفظ [اليسير] المنطوي على المعنى الكثير، قال ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم»[٢]. فمن مثال الإيجاز قوله تعالى في وصف ارتفاع الأسباب المكروهة عن أوليائه: ﴿ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[٣] فنفى بذلك كل تنغيص[٤] إذا كان جميعه في حصول مكروه وفوت محبوب. وقد نفاهما بذلك. وقال في فاكهة أهل الجنة: ﴿ لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾[٥] فنفى بذلك جميع الآفات العارضة لمطاعم الدنيا. وقال في صفة خمرهم: ﴿ لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ﴾[٦]، فنفى بذلك كل مكروه يعرض فيها.

وأخبر بكلٍّ من أمر فرعون وآله بألفاظ يسيرة، وذلك في قوله: ﴿ كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين ﴾[٧] فذكر فيه ما قيل: إنه تنطوي عليه[٨] أوراق وجلود من السفر.

ومن عجيب ما فيه أن كل ما علم [بالسامع استغناء عنه من الألفاظ][٩] ترك ذكره وتخطى إلى ما بعده، نحو قوله تعالى: ﴿ أن اضرب بعصاك البحر فانفلق ﴾[١٠] فترك ما كان من موسى، ثم ترك ما كان منه ومن أصحابه في دخولهم البحر، وتخطى[١١] إلى ذكر ما صنع بهم.

---

١. في نسخة: مما.
٢. هذه رواية مسلم: شرح النووي: ج ٥ ص ٦ كما ذكر روايات أخرى بلفظ «أعطيت» و «بعثت»: ج ٥ ص ٥ وكذلك رواه البخاري: ج ٦ ص ٩٠ في الجهاد. وفي التعبير. والترمذي في السير برقم ١٥٥٣، والنسائي في الجهاد: ج ٦ ص ٣ و ٤.
٣. سورة يونس: الآية ٦٢.
٤. في نسخة: تنقيص.
٥. سورة الواقعة: الآية ٣٣.
٦. سورة الصافات: الآية ٤٧.
٧. سورة الدخان: الآية ٢٥ ـ ٢٧.
٨. في نسخة: عليه من.
٩. في نسخة: السامع واستغنى عنه من ألفاظ.
١٠. سورة الشعراء: الآية ٦٣.
١١. في نسخة: يخطي.

وأما الراجع إلى المعنى: فذكره تعالى - أصولاً منطوية على فروع، بعضها بيّنه النبي ﷺ وبعضها فوّض استنباطه إلى الراسخين في العلم تشريفاً لهم وتعظيماً لمحلهم، لكي يقرّب (١) منزلةعلماء هذه الأمة [من] منزلةالأنبياء في استنباطهم بعض الأحكام، ولاختصاص هذه الأمة بهذه المنزلة الشريفة قال ﷺ: «كادت أمتي تكون أنبياء» (٢)، وعلى ذلك قال تعالى: ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ (٣) - الآية - وقال: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ (٤) فجعلهم في ذلك بمنزلة الأنبياء.

فصل في انطواء القرآن على البراهين والأدلة:

ما من برهان ودلالة (٥) وتقسيم وتحديد [ينبيء عن] (٦) كليات المعلومات العقلية والسمعية، إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به، لكن أورده تعالى على عادة العرب - دون دقائق طرق الحكماء والمتكلمين - لأمرين:

أحدهما: بسبب ما قال (٧): ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾(٨).

والثاني: أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجلي (٩) من الكلام.فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم ينحط (١٠) إلى الأغمض الذي لا يعرفه [إلا] الأقلون ما لم يكن ملغزاً. فأخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجلى صورة تشتمل على أدق دقيق، لتفهم العامة من جليها (١١) ما يقنعهم ويلزمهم الحجة. وتفهم(١٢) الخواص من أثنائها ما يوفي على ما أدركه فهم

---

١. في نسخة: تقرب.

٢. هذه الجملة جزء من حديث طويل أخرجه أحمد في مسنده ج ١ ص ٢٩٦ وقد جاء قبلها: «... فإذا أراد الله عزوجل أن يصدع بين خلقه نادى مناد: أين أحمد وأمته؟ فنحن الآخرون الأولون. فنحن آخر الأمم وأول من يحاسب فتفرج لنا الأمم عن طريقنا فنمضي غراً محجلين من أثر الطهور. وتقول الأمم: «كادت هذه الأمة أن تكون أنبياء كلها».

٣. سورة البقرة: الآية ١٤٣.

٤. سورة آل عمران: الآية ١١٠.

٥. في نسخة: ولا دلالة.

٦. في نسخة: مبني على.

٧. في نسخة: قاله.

٨. سورة إبراهيم: الآية ٤.

٩. في نسخة: الجليل.

١٠. في نسخة: تنحط.

١١. في نسخة: جليلها.

١٢. في نسخة: ويفهم.

الحكماء. وعلى هذا النحو [قال عليه الصلاة والسلام] : «إن لكل آية ظهراً وبطناً. ولكل حرف حداً ومطلعاً»[١] لا على ما ذهب إليه الباطنية.

ومن هذا الوجه كل من كان حظه في العلوم أوفر كان نصيبه من علم القرآن أكثر. ولذلك إذا ذكر [تعالى] حجة على ربوبيته ووحدانيته أتبعها مرة بإضافتها[٢] إلى أولي العقل، ومرة إلى أولي العلم، ومرة إلى السامعين، ومرة إلى المفكرين، ومرة إلى المتذكرين تنبيهاً [على] أن بكل قوة من هذه القوى يمكن إدراك حقيقة منها. وذلك نحو قوله: ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ [٣] وغيرها من الآيات [٤].

قال ابن تيمية : «في قوله: ﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم ﴾[٥] دليل على أن العلم يدل على الايمان، ليس أن أهل العلم ارتفعوا عن درجة الايمان كما تتوهمه طائفة من المتكلمة، بل معهم العلم والإيمان كما قال تعالى: ﴿ لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ [٦]، وقال تعالى: ﴿وقال الذين اوتوا العلم والايمان ﴾ [٧].

وعلى هذا فقوله: ﴿ والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾ [٨] نظير هذه الآية، فانه أخبر هنا: أن الذين أوتوا العلم يعلمون أنه الحق من ربهم، وأخبر هناك: أنهم يقولون في المتشابه: ﴿ آمنا به كلٌ من عند ربنا ﴾ وكلا الموضعين موضع شبهة لغيرهم، وأن الكلام هناك في المتشابه، وهنا فيما يلقي الشيطان مما ينسخه اللّه ثم يحكم الله آياته، وجعل المحكم هنا ضد الذي نسخه اللّه مما ألقى الشيطان، ولهذا قال طائفة من

---

١. أخرجه الفريابي من رواية الحسن مرسلاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لكل آية ظهر وبطن. ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع ». وأخرج الديلمي من رواية عبدالرحمن بن عوف مرفوعاً: « القرآن تحت العرش له ظهر وبطن يحاج العباد » ـ الاتقان للسيوطي: ج ٤ ص ١٩٦.

٢. في نسخة: بإضافته.

٣. سورة الرعد: الآية ٤، وسورة النحل: الآية ١٢، ٦٧.

٤. جامع التفاسير ج ١ ص ٧٢ ـ ٧٦.

٥. سورة الحج: الآية ٥٤.

٦. سورة النساء: الآية ١٦٢.

٧. سورة الروم: الآية ٥٦.

٨. سورة آل عمران: الآية ٧.

المفسرين المتقدمين [١]: المحكم هو الناسخ، والمتشابه المنسوخ. أرادوا ـ والله أعلم ـ قوله: ﴿ فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته ﴾[٢]، والنسخ هنا رفع ما ألقاه الشيطان لا رفع ما شرعه الله، وقد أشرت إلى وجه ذلك فيما بعد، وهو: أن الله جعل المحكم مقابل المتشابه تارة، ومقابل المنسوخ أخرى، والمنسوخ يدخل فيه في اصطلاح السلف كل ظاهر ترك ظاهره لمعارض راجح، كتخصيص العام، وتقييد المطلق. فان هذا متشابه؛ لأنه يحتمل معنيين، ويدخل فيه المجمل، فإنه متشابه، وإحكامه: رفع ما يتوهم فيه من المعنى الذي ليس بمراده، وكذلك ما رفع حكمه، فان في ذلك جميعه نسخاً لما يلقيه الشيطان في معاني القرآن، ولهذا كانوا يقولون: هل عرفت الناسخ من المنسوخ؟ فاذا عرفت الناسخ عرفت المحكم.

وعلى هذا فيصح أن يقال: المحكم والمنسوخ، كما يقال: المحكم والمتشابه. وقوله بعد ذلك: ﴿ ثم يحكم الله آياته ﴾ جعل الآيات محكمة، محكمها ومتشابهها، كما قال: ﴿ الر. كتاب أحكمت آياته ثم فصلت ﴾[٣]، وقال: ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾[٤] على أحد القولين. وهنالك جعل الآيات قسمين: محكماً ومتشابها، كما قال: ﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾[٥] وهذه المتشابهات مما أنزله الرحمن لا مما ألقاه الشيطان ونسخه الله. فصار المحكم في القرآن تارة يقابل بالمتشابه، والجميع من آيات الله، وتارة يقابل بما نسخه الله مما ألقاه الشيطان، ومن الناس من يجعله مقابلا لما نسخه الله مطلقا، حتى يقول هذه الآية محكمة ليست منسوخة، ويجعل المنسوخ ليس محكما وإن كان الله أنزله أولا اتباعا للظاهر من قوله: ﴿فينسخ الله﴾ و ﴿ يحكم الله آياته ﴾، فهذه ثلاثة معان تقابل المحكم ينبغي التفطن لها.

---

١. أخرج ابن أبي حاتم من طريق علي بن طلحة عن ابن عباس قال: المحكمات: ناسخه، وحلاله وحرامه، وفرائضه وما يؤمن به ويعمل به، والمتشابهات: منسوخه ومقدمه ومؤخره وأقسامه وما يؤمن به ولا يعمل به. انظر الإتقان للسيوطي ج ٢ ص ٢، ٢٠ ـ ٢٧.

٢. سورة الحج: الآية ٥٢.

٣. سورة هود: الآية ١.

٤. سورة يونس: الآية ١.

٥. سورة آل عمران: الآية ٧. والإشارة هنالك إلى هذه السورة.

انواع الاحكام والنسخ :

وجماع ذلك أن الاحكام تارة يكون في التنزيل ، فيكون في مقابلته ما يلقيه الشيطان، فالمحكم المنزل من عند الله ، أحكمه الله أي فصله من الاشتباه بغيره وفصل منه ماليس منه ، فان الإحكام هو الفصل والتمييز والفرق والتحديد الذي به يتحقق الشيء ويحصل إتقانه ، ولهذا دخل فيه معنى المنع كما دخل في الحد بالمنع جزء معناه لا جميع معناه .

وتارة يكون في إبقاء التنزيل عند من قابله بالنسخ الذي هو رفع ما شرع ، وهو اصطلاحي ، أو يقال ـ وهو أشبه بقول السلف ـ : كانوا يسمون كل رفع نسخاً ، سواء كان رفع حكم أو رفع دلالة ظاهرة . وإلقاء الشيطان في أمنيته قد يكون في نفس لفظ المبلغ ، وقد يكون في مسمع المبلغ ، وقد يكون في فهمه، كما قال : ﴿ **أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها** ﴾ [١] الآية . ومعلوم أن من سمع النص الذي قد رفع حكمه أو دلالة له ، فانه يلقى الشيطان في تلك التلاوة اتباع ذلك المنسوخ فيحكم اللّه آياته بالناسخ الذي به رفع الحكم وبان المراد . وعلى هذا التقدير فيصح أن يقال : المتشابه المنسوخ بهذا الاعتبار . والله أعلم .

وتارة يكون الإحكام في التأويل والمعنى ، وهو تمييز الحقيقة المقصودة من غيرها حتى لا تشتبه بغيرها . وفي مقابلة المحكمات الآيات المتشابهات التي تشبه هذا وتشبه هذا . فتكون محتملة للمعنيين .

قال أحمد بن حنبل : المحكم الذي ليس فيه اختلاف ، والمتشابه الذي يكون في موضع كذا وفي موضع كذا [٢] ، ولم يقل في المتشابه : لا يعلم تفسيره ومعناه إلا اللّه ، وإنما قال : ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله** ﴾ [٣] وهذا هو فصل الخطاب بين المتنازعين في هذا الموضع . فإن اللّه أخبر أنه لا يعلم تأويله إلاّ هو والوقف هنا على ما دل عليه أدلة كثيرة ،

---

١ . سورة الرعد : الآية ١٧ .
٢ . هذه زيادة من مجموع الرياض .
٣ . سورة آل عمران : الآية ٧ .

وعليه أصحاب رسول الله ﷺ وجمهور التابعين وجماهير الأمة، ولكن لم ينف علمهم بمعناه وتفسيره، بل قال: ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ﴾[1] وهذا يعم الآيات المحكمات والآيات المتشابهات، وما لا يعقل له معنى لا يتدبر، وقال: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ﴾[2] ولم يستثن شيئاً منه نهى عن تدبره. والله ورسوله إنما ذم من اتبع المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، فأما من تدبر المحكم والمتشابه كما أمره الله وطلب فهمه ومعرفة معناه فلم يذمه الله، بل أمر بذلك ومدح عليه.

يبين ذلك أن التأويل قد روى أن من اليهود ـ الذين كانوا بالمدينة على عهد النبي ﷺ كحيي بن أخطب وغيره ـ من طلب من حروف الهجاء التي في أوائل السور تأويل بقاء هذه الأمة، كما سلك ذلك طائفة من المتأخرين موافقة للصابئة المنجمين، وزعموا أنه ستمائة وثلاثة وتسعون عاما، لأن ذلك هو عدد ما للحروف في حساب الجمل بعد إسقاط المكرر، وهذا من نوع تأويل الحوادث التي أخبر بها القرآن في اليوم الآخر.

وروي أن من النصارى الذين وفدوا على النبي ﷺ في وفد نجران من تأويل إنا ونحن على أن الآلهة ثلاثة لأن هذا ضمير جمع. وهذا تأويل في الإيمان بالله، فأولئك تأولوا في اليوم الآخر وهؤلاء تأولوا في الله [3]، ومعلوم أن إنا ونحن من المتشابه، فانه يراد بها الواحد الذي معه غيره من جنسه، ويراد بها الواحد المعظم نفسه الذي يقوم مقام من معه غيره لتنوع أسمائه التي كل اسم منها يقوم مقام مسمى، فصار هذا متشابها؛ لأن اللفظ واحد

---

١. سورة ص: الآية ٢٩. ٢. سورة النساء: الآية ٨٢.

٣. ذكر الطبري: أن آية آل عمران: «وما يعلم تأويله إلا الله» نزلت في جماعة من اليهود كياسر بن أخطب وحيي بن أخطب أرادوا أن يعرفوا الفترة التي يمكنها الإسلام على وجه الأرض من معرفتهم تأويل حروف المعجم التي بدئت بعض سور القرآن بها طبقاً لنظامهم في حساب الحروف. فاكذب الله مقالتهم بقوله (وما يعلم تأويله إلا الله). روى ذلك عن جابر بن رئاب. ومال الطبري إلى هذا الرأي.

وذكر الطبري سببا آخر لنزول الآية. فقيل: إنها نزلت في وفد نجران حينما ناظروا الرسول في أمر المسيح ودعاهم الرسول إلى المباهلة. وأرادوا أن يتأولوا قوله تعالى: (إنا ... ونحن) على أن الآلهة ثلاثة لأن هذا ضمير للجمع وليس للمفرد. فاكذب الله مقالتهم أيضاً بقوله: (وما يعلم تأويله إلا الله) وعامة هذه السورة (آل عمران) في أمر المسيح وأهل الكتاب مما يجعلنا نميل الى الرأي الثاني في سبب النزول.

أنظر الطبري ج ٦ص ١٨٠ ـ ٢٠٩.، ج ٣ص ١٨٠.

والمعنى متنوع .

والأسماء المشتركة في اللفظ هي من المتشابه ، وبعض المتواطيء أيضاً من المتشابه، ويسميها أهل التفسير : الوجوه والنظائر ، وصنفوا كتب الوجوه والنظائر ؛ فالوجوه في الأسماء المشتركة ، والنظائر في الأسماء المتواطئة . وقد ظن بعض أصحابنا المصنفين في ذلك : أن الوجوه والنظائر جميعاً من الأسماء المشتركة فهي نظائر باعتبار اللفظ ووجوه باعتبار المعنى ، وليس الأمر على ما قاله ، بل كلامهم صريح فيما قلناه لمن تأمله.

والذين في قلوبهم زيغ يدعون المحكم الذي لا اشتباه فيه ، مثل: ﴿وإلٰهكم إلٰه واحد﴾[1]، ﴿ إنّني أنا اللّه لا إله إلاّ أنا فاعبدني ﴾[2]، ﴿ ما اتّخذ اللّه من ولد وما كان معه من إله﴾[3]، ﴿ ولم يتّخذ ولداً ولم يكن له شريك ﴾[4]، ﴿لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾[5] . ويتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة ليفتنوا به الناس إذا وضعوه على غير مواضعه ، وابتغاء تأويله ، وهو الحقيقة التي أخبر عنها . وذلك أن الكلام نوعان : إنشاء فيه الأمر ، وإخبار ، فتأويل الأمر هو نفس الفعل المأمور به، كما قال من السلف : إن السنة هي تأويل الأمر. قالت عائشة رضي الله عنها :كان الرسول ﷺ يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لي» يتأوّل القرآن ، تعني قوله: ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا ﴾[6]، وأما الإخبار ، فتأويله عين الأمر المخبر به إذا وقع ، ليس تأويله فهم معناه (وقد جاء اسم التأويل في القرآن في غير موضع) وهذا معناه : قال اللّه تعالى : ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصّلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون : هل ينظرون الا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾[7] فقد أخبر أنه فصل الكتاب ، وتفصيله بيانه وتمييزه بحيث لا يشتبه . ثم قال: ﴿ هل ينظرون ﴾ أي ينتظرون ﴿ الا تأويله

١ . سورة البقرة : الآية ١٦٣ .
٢ . سورة طه : الآية ١٤ .
٣ . سورة المؤمنون : الآية ٩١ .
٤ . سورة الاسراء : الآية ١١١ .
٥ . سورة التوحيد : الآية ٣ـ ٥ .
٦ . سورة النصر : الآية ٣ ـ ٦ ورد الحديث برواية عائشة عن الرسول ﷺ في البخاري ج ١ ص ١٥٨ (كتاب الصلاة . باب التسبيح والدعاء في السجود) ، مسلم ج ٢ ص ٥٠ .
٧ . سورة الأعراف . الآية ٥٢ و ٥٣ .

يوم يأتي ﴾ الى آخر الآية . وانما ذلك مجيء ما أخبر به القرآن بوقوعه من القيامة وأشراطها، كالدابة ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها، ومجيء ربك والملك صفاً صفا، وما في الآخرة من الصحف والموازين، والجنة والنار وأنواع النعيم والعذاب وغير ذلك، فحينئذ يقولون: ﴿ قد جاءت رُسُلُ رَبِّنا بالحق ، فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ﴾[١].

وهذا القدر الذي أخبر به القرآن من هذه الأمور لا يعلم وقته وقدره وصفته الا الله، فان الله يقول: ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾[٢]، ويقول: « أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر[٣] » وقال ابن عباس: ليس في الدنيا مما في الجنة الا الأسماء، فان الله قد أخبر أن في الجنة خمراً ولبناً وماء وحريراً وذهباً وفضة وغير ذلك، ونحن نعلم قطعاً أن تلك الحقيقة ليست مماثلة لهذه، بل بينهما تباين عظيم مع التشابه، كما في قوله: ﴿ وأتوا به متشابها ﴾[٤]، على أحد القولين: أن يشبه ما في الدنيا وليس مثله . فأشبه اسم تلك الحقائق أسماء هذه الحقائق، كما أشبهت الحقائق الحقائق من بعض الوجوه . فنحن نعلمها إذا خوطبنا بتلك الأسماء من جهة القدر المشترك بينهما، ولكن لتلك الحقائق خاصية لا ندركها في الدنيا ولا سبيل إلى إدراكنا لها لعدم إدراك عينها أو نظيرها من كل وجه . وتلك الحقائق ـ على ما هي عليه ـ هي تأويل ما أخبر الله به . وهذا فيه رد على اليهود والنصارى والصابئين من المتفلسفة وغيرهم . فانهم ينكرون ان يكون في الجنة اكل وشرب ولباس ونكاح، ويمنعون وجود ما اخبر به القرآن . ومن دخل في الاسلام ونافق المؤمنين فأول ذلك على أن هذه أمثال مضروبة لتفهيم النعيم الروحاني، إن كان من المتفلسفة الصابئة المنكرة لحشر الأجساد[٥]، وإن كان من منافقة

---

١ . سورة الاعراف: الآية ٥٣ . ٢ . سورة السجدة . الآية ١٧ .

٣ . الحديث ورد في البخاري (كتاب التوحيد، بدأ الخلق)، مسلم (كتاب الايمان)، الترمذي (كتاب الجنة)، ابن حنبل ج ٣ ص ٣٦٣، ٣٨٠ . ٤ . سورة البقرة: الآية ٢٥ .

٥ . يريد ابن تيمية أن يلفت نظرنا الى موقف الفلاسفة وخاصة ابن سينا من قضية البعث وتأويلهم لآياتها بما يفيد صرفها عن ظاهرها . ودعواهم أن البعث روحاني فقط وليس جسماني . أنظر في ذلك: الاشارات لابن سينا النمط الرابع)، رسالة اضحوية في أمر المعاد، وانظر تكفير الغزالي لهم في تهافت الفلاسفة، ورد ابن تيمية على ابن سينا في العقل والنقل، الجزء الرابع مخطوط رقم ٨٢ عقائد تيمور بدار الكتب المصرية .

الملّتين المقرين بحشر الأجساد ، تأول ذلك على تفهيم النعيم الذي في الجنة من الروحاني والسماع الطيب والروائح العطرة . كل ضال يحرف الكلم عن مواضعه إلى ما اعتقد ثبوته ، وكان في هذا أيضاً متبعاً للمتشابه ، إذ الأسماء تشبه الأسماء ، والمسميات تشبه المسميات ولكن تخالفها أكثر مما تشابهها . فهؤلاء يتبعون هذا المتشابه ابتغاء الفتنة بما يوردونه من الشبهات على امتناع أن تكون في الجنة هذه الحقائق ، وابتغاء تأويله ليردوه إلى المعهود الذي يعلمونه في الدنيا . قال الله تعالى : ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ فان تلك الحقائق قال الله فيها: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ لا ملك مقرب ولا نبي مرسل .

وقوله : ﴿ وما يعلم تأويله ﴾ ، إما أن يكون الضمير عائداً على الكتاب أو على المتشابه ، فان كان عائداً على الكتاب كقوله : منه ومنه ، ﴿ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴾ فهذا يصح ، فان جميع آيات الكتاب المحكمة والمتشابهة التي فيها إخبار عن الغيب الذي أمرنا أن نؤمن به لا يعلم حقيقة ذلك الغيب ومتى يقع إلا الله. وقد يستدل لهذا: أن الله جعل التأويل للكتاب كله ـ مع إخباره أنه مفصل ـ بقوله : ﴿ وقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون . هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله ﴾ [١]، فجعل التأويل الجائي للكتاب المفصّل .

وقد بينا أن ذلك التأويل لا يعلمه وقتاً وقدراً ونوعاً وحقيقة إلا الله ، وإنما نعلم نحن بعض صفاته بمبلغ علمنا لعدم (وجود) نظيره عندنا ، وكذلك قوله : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ﴾ [٢].

وإذا كان التأويل للكتاب كله ـ والمراد به ذلك ـ ارتفعت الشبهة ، وصار هذا بمنزلة قوله: ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها . قل إنما علمها عند ربي لايجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت في السموات والأرض ﴾ الى قوله : ﴿ إنما علمها عند الله﴾ [٣].

١. سورة الأعراف . الآية ٥٢ ـ ٥٣.
٢. سورة يونس . الآية ٣٩.
٣. سورة الأعراف : الآية ١٨٧.

وكذلك قوله: ﴿ يسألك الناس عن الساعة ، قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً ﴾ [١]، فأخبر أنه ليس علمها إلا عند الله ، وإنما هو علم وقتها المعين وحقيقتها ، وإلا فنحن قد علمنا من صفاتها ما أخبرنا به . فعلم تأويله كعلم الساعة ، والساعة من تأويله . وهذا واضح بين . ولا ينافى كون علم الساعة عند الله أن نعلم من صفاتها وأحوالها ما علمناه ، وأن نفس النصوص المبينة لأحوالها فهذا هذا .

وإن كان الضمير عائداً إلى ما تشابه ، كما يقوله كثير من الناس ، فلان المخبر به من الوعد والوعيد متشابه بخلاف الأمر والنهى ، ولهذا في الآثار «العمل بمحكمه والإيمان بمتشابهه » [٢] لأن المقصود في الخبر الإيمان ، وذلك لأن المخبر به من الوعد والوعيد فيه من التشابه ما ذكرناه ، بخلاف الأمر والنهى فانه متميز غير مشتبه بغيره ، فانه أمور نفعلها قد علمناها بالوقوع ، وأمور نتركها لابد أن نتصورها» [٣] .

قال ابن تيمية : في المتشابهات قولان :

« وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن في قوله تعالى :

﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ، وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾[٤].

في المتشابهات قولان :

« أحدهما » : انها آيات بعينها تتشابه على كل الناس .

و« الثاني» ـ وهو الصحيح ـ أن التشابه أمر نسبي ، فقد يتشابه عند هذا مالايتشابه عند غيره ، ولكن ثم آيات محكمات لاتشابه فيها على أحد ، وتلك المتشابهات إذا عرف معناها صارت غير متشابهة ، بل القول كله محكم ، كما قال : ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ . ثُمَّ

---

١ . سورة الأحزاب : الآية ٦٣ .

٢ . أخرج الحاكم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : ... (أنزل القرآن على سبعة أحرف زاجر وآمر ، وحلال وحرام ، ومحكم ومتشابه ... واعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه وقولوا آمنا كل من عند ربنا) وفي الطبري . كان رسولهم في العلم أن عملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه .

انظر : الاتقان ج ٢ ص ٤ ، تفسير الطبري ج ٦ ص ٣٩ـ١٠٨ .

٣ . دقائق التفسير ج ١ ص ٩٤ـ١٠٣ .

٤ . سورة آل عمران : الآية ٧ .

﴿فُصِّلَتْ﴾ [١].

وهذا كقوله : « الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس » [٢] وكذلك قولهم : ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ [٣].

وقد صنف أحمد كتابا في « الرد على الزنادقة والجهمية » فيماشكت فيه من متشابه القرآن ، وتأولوه على غير تأويله ، وفسر تلك الآيات كلها وذمهم على أنهم تأولوا ذلك المتشابه على غير تأويله ، وعامتهاآيات معروفة قد تكلم العلماء في تفسيرها ، مثل الآيات التي سأل عنها نافع بن الأزرق : ابن عباس قال الحسن البصري : ماأنزل اللّه آية إلا وهو يحب أن يعلم فيم أنزلت ، وماذا عنى بها .

ومن قال من السلف : إن المتشابه لايعلم تأويله إلا اللّه فقد أصاب أيضا ، ومراده بالتأويل مااستأثر الله بعلمه ، مثل وقت الساعة ، ومجيء أشراطها ، ومثل كيفية نفسه ، وماأعده في الجنة لأوليائه .

« أسباب نزول آية المتشابهات » .

وكان من أسباب نزول الآية احتجاج النصارى بما تشابه عليهم ، كقوله : (إنا) و(نحن). وهذا يعرف العلماء أن المراد به الواحد المعظم الذي له أعوان، لم يرد به أن الآلهة ثلاثة، فتأويل هذا الذي هو تفسيره يعلمه الراسخون ، ويفرقون بين ماقيل فيه : (إياي)

---

١. سورة هود: الآية ١.

٢. الحديث أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ٣٩ باب فضل من استبرأ لدينه : حدثنا زكريا عن عامر . قال سمعت النعمان بن بشير يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول وذكره . وفيه زيادة [فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه الأوان لكل ملك حمى ألا إنَّ حمى اللّه في أرضه محارمه . ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » وأخرجه مسلم في المساقاة ٢٩ باب أخذ الحلال ، وترك الشبهات ١٠٧ (١٥٩٩ بسنده عن النعمان بن بشير وذكره).
وأخرجه الترمذي في كتاب البيوع (١) باب ماجاء في ترك الشبهات ١٢٠٥ بسنده عن النعمان بن بشير وفيه زيادة [ألا وإن لكل ملك حمى . ألا وإن حمى الله محارمه » .
وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وقد رواه غير واحد عن الشعبي عن النعمان بن بشير . وأخرجه ابن ماجه في الفتن ١٤ والدارمي في البيوع ١ وأحمدبن حنبل في المسند ج ٤ ص ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ (حلبي).

٣. سورة البقرة : الآية ٧٠.

وما قيل فيه (إنا) لدخول الملائكة فيما يرسلهم فيه: إذ كانوا رسله، وأما كونه هو المعبود الإله فهو له وحده، ولهذا لايقول: فإيانا فاعبدوا، ولاإيانا فارهبوا. بل متى جاء الأمر بالعبادة والتقوى والخشية والتوكل ذكرنفسه وحده باسمه الخاص، وإذا ذكر الأفعال التي يرسل فيها الملائكة قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [١]، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ [٢]، ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَبَإِ مُوسَى وفِرْعَوْنَ بَالحَقِّ﴾ [٣] ونحو ذلك. مع أن تأويل هذا ـ وهو حقيقة مادل عليه من الملائكة وصفاتهم وكيفية إرسال الرب لهم ـ لايعلمه إلا الله، كما قد بسط في غير هذا الموضع. و«المقصود هنا» أن الواجب أن يجعل ما قاله الله ورسوله هو الأصل، ويتدبر معناه ويعقل، ويعرف برهانه و دليله، أما العقلي وإما الخبري السمعي، ويعرف دلالة القرآن على هذا وهذا، وتجعل أقوال الناس التي قد توافقه وتخالفه متشابهة مجملة، فيقال لأصحاب هذه الألفاظ: يحتمل كذا وكذا، ويحتمل كذا وكذا، فإن أرادوا بها مايوافق خبرالرسول قبل، وإن أرادوا بها ما يخالفه رد.

وهذا مثل لفظ «المركب» و«الجسم» و«المتحيز» و«الجوهر» و«الجهة» و«العرض» ونحو ذلك، ولفظ «الحيز» ونحو ذلك. فإن هذه الألفاظ، لاتوجد في الكتاب والسنة بالمعنى الذي يجيده أهل هذا الاصطلاح، بل ولافي اللغة أيضاً، بل هم يختصون بالتعبير بها على معان لم يعبر غيرهم عن تلك المعاني بهذه الألفاظ، فيفسر تلك المعاني

---

١. سورة الفتح: الآية ١.

روى محمدبن اسحاق عن الزهري، عن عروة عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها الى آخرها.

وفي الصحيحين عن زيد بن أسلم عن أبيه: أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً فسأل عمر عن شيء فلم يجبه رسول الله ﷺ ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه. فقال عمربن الخطاب: ثكلت أم عمر نزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات كل ذلك لم يجبك. فقال عمر: فحركت بعيري ثم تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل في قرآنا لما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بي فقلت لقد خشيت أن ينزل في قرآنا فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه. فقال: لقد أنزلت علي الليلة سورة لهي أحب الي مما طلعت عليه الشمس ـ ثم قرأ ـ ﴿إنافتحنا لك فتحا مبيناً﴾ لفظ البخاري. قال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح. وفي صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال: لما نزلت ﴿إنافتحنا لك فتحاً مبينا﴾ مرجعه من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد نحر الهدي بالحديبية فقال: «لقد أنزلت عليّ سورة هي أحب إلي من الدنيا جميعا».

٢. سورة القيامة: الآية ١٨. ٣. سورة القصص: الآية ٣.

بعبارات أخرى ، ويبطل مادل عليه القرآن ، بالأدلة العقلية والسمعية ، وإذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل ، وعرف وجه الكلام على أدلتهم ، فإنها ملفقة من مقدمات مشتركة ، يأخذون اللفظ المشترك في إحدى المقدمتين بمعنى ،وفي المقدمة الأخرى بمعنى آخر ، فهو في صورة اللفظ دليل ، وفي المعني ليس بدليل كمن يقول : سهيل بعيد من الثريا ، لايجوز أن يقترن بها ولا يتزوجها والذي قال : أيها المنكح الثريا سهيلا .

أراد امرأة اسمها الثريا ورجلا اسمه سهيل : ثم قال :

عمرك الله كيف يلتقيان

هي شامية إذا مااستقلت وسهيل إذا استقل يمان

وهذا لفظ مشترك ، فجعل تعجّبه ، و إنكاره من الظاهر من جهة اللفظ المشترك ، وقد بسط الكلام على أدلتهم المفصلة في غير موضع»[١] .

قال الجنابذي: « والمحكم في القرآن : هو الذي يكون محكم التعلق بحيث لايزول عمن تعلق به و لايخرج من تعلقه احد ، والمتشابه هو الذي يكون متشابه المتعلق، بمعنى أنّ متعلقه يشبه متعلق الآية الأخرى او يشتبه ويلتبس على الناظرفيه والجاهل لمتعلقه ؛ لإعتبار خصوصية من خصوصيات الأفراد أو الأحوال في تعلقه ، فلا يكون عام التعلق ولا محكم التعلق بحيث لايزول عمن تعلق به ، فان قوله : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه ﴾ ليس لكل مكلف وليس لمن تعلق به في كل الأحوال ، بل اذا كان الإنسان في جهنام النفس ولايمكنه العفو عمن ظلمه ، اما من يمكنه العفو عن المسيىء ومن خرج من جهنام النفس وصار بحال يمكنه العفو عمن ظلمه فليس له هذا الحكم، وهذا معنى ما ورد أن المحكم مايعمل به والمتشابه مااشتبه على جاهله ، ومعنى ماورد ان المحكم مايعمل به والمتشابه الذي يشبه بعضه بعضاً ، ومعنى ماورد فأما المحكم فنؤمن به ونعمل به ، وندين به ، واما المتشابه فنؤمن به ولانعمل به ، يعني أنا قد ارتفعنا عن مقام المتشابه وطرو الحالات ، فما تعلق بنا لايزول فكان محكماً وماتشابه لايتعلق بنا فنؤمن به ولانعمل به ، وللمحكم والمتشابه معني آخر ؛ وهو الذي أحكمت دلالته بحيث لا يتطرق الإحتمال

---

١. تفسير الكبير (ابن تيمية) ج ١ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٥.

والإشتباه اليه، والذي اشتبهت دلالته على مقصوده بدلالته على غير مقصوده، واشير الى كل في الاخبار»[(١)].

قال النهاوندي في انّ آيات الكتاب العزيز بين محكم ومتشابه وفي تعريف كل منهما :

« لاريب في ان آيات الكتاب العزيز قسمان محكم ومتشابه، كما قال اللّه تعالى: ﴿ **آيات محكمات هن ام الكتاب وآخر متشابهات** ﴾ واختلفت في تعريفهما الروايات وكلمات العلماء.

والحق أنّ المراد بالمحكم هو الكلام الواضح الدلالة بحيث لا يكون للعرف ـ ولو بملاحظة القرائن المكتنفة به ـ تحير في استفادة المراد منه، ولايحتاج في تعيين المقصود منه الى الرجوع الى العالم اوالى القرائن المنفصلة والادلة العقلية والنقلية الخارجية. والمراد بالمتشابه : هو الكلام المجمل أو المبهم الذي يشتبه المراد منه على العرف بحيث لايكون له بالوضع أو بالقرائن المتصلة حقيقة أو حكما، ظهور في المراد منه، بل لابد في الاستفادة منه من الرجوع الى العالم الخبير بمراد المتكلم، او الى الاجتهاد في تحصيل القرائن المنفصلة عن الكلام من حكم العقل المستقل او سائر كلمات المتكلم، ولعله الى ما ذكرنا يرجع ماعن العياشي رحمه اللّه عن الصادق ﷺ انه سئل عن المحكم والمتشابه، فقال : «المحكم مايعمل به والمتشابه مااشتبه على جاهله»، فان الظاهر ان المراد من قوله مايعمل به ؛ هو الكلام الذي لايتوقف العرف في فهم المراد منه والعمل به، وهو جميع آيات الأحكام كماروي عن ابن عباس قال : «المحكمات : ناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وفرايضه ومايؤمن به ويعمل به، والمتشابهات : منسوخه ومقدمه ومؤخره وامثاله واقسامه ومايؤمن به ولايعمل به».

وعن مجاهد قال : المحكمات : ما فيه الحلال والحرام، وماسوى ذلك منه متشابه يصدق بعضه بعضاً.

وعن الربيع قال : « المحكمات : هي اوامره وزواجره الى غير ذلك من التعريفات؛ فان جميعها بيان لموارد التنصيص، والظهور وهي جميع الأحكام دون غيرها، فان في غير

---

١. بيان السعادة ج ١ ص ١٤.

آيات الأحكام كثيرا مايكون الاجمال والاهمال»[١].

قال الطباطبائي (ره) في كلام تفصيلي في المحكم والمتشابه:

هذا الذي أوردناه من الكلام في معنى المحكم والمتشابه والتأويل ـ فيما مر ـ هو الذي يتحصل من تدبر كلامه سبحانه، ويستفاد من المأثور عن أئمة أهل البيت عليهم السلام [و]سيجيء في البحث الروائي.

لكن القوم اختلفوا في المقام، وقد شاع الخلاف واشتد الانحراف بينهم، وينسحب ذيل النزاع والمشاجرة الى الصدر الأول من مفسري الصحابة والتابعين، وقلما يوجد في مانقل الينا من كلامهم مايقرب مما مر من البيان، فضلاً عن أن ينطبق عليه تمام الانطباق.

والسبب العمدة في ذلك الخلط بين البحث عن المحكم والمتشابه وبين البحث عن معنى التأويل، فأوجب ذلك اختلالاً عجيبا في عقد المسألة وكيفية البحث والنتيجة المأخوذة منه، ونحن نورد تفصيل القول في كل واحد من أطراف هذه الأبحاث وما قيل فيها، وماهو المختار من الحق، مع تمييز مورد البحث بما تيسر في ضمن فصول:

١ ـ المحكم والمتشابه:

الإحكام والتشابه من الألفاظ المبينة المفاهيم في اللغة، وقد وصف بهما الكتاب كما في قوله تعالى: ﴿**كتاب أحكمت آياته**﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿**كتاباً متشابهاً مثاني**﴾[٣]، ولم يتصف بهما الا جملة الكتاب من جهة إتقانه في نظمه وبيانه، ومن جهة تشابه نظمه وبيانه في البلوغ الى غاية الإتقان والإحكام.

لكن قوله تعالى: ﴿**هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب وأخر متشابهات**﴾[٤] الآية، لما اشتمل على تقسيم نفس آيات الكتاب الى المحكمات والمتشابهات علمنا أن المراد بالإحكام والتشابه هاهنا غير ما يتصف به تمام الكتاب، وكان من الحري البحث عن معناهما وتشخيص مصداقهما من الآيات، وفيه أقوال ربما تجاوزت العشرة:

---

١. نفحات الرحمن ج ١ ص ١٩.
٢. سورة هود: الآية ١.
٣. سورة الزمر: الآية ٢٣.
٤. سورة آل عمران: الآية ٧.

أحدها: أن المحكمات: هو قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لاتشركوا به شيئاً** ﴾[١] الى آخر الآيات الثلاث والمتشابهات: هي التي تشابهت على اليهود، وهي الحروف المقطعة النازلة في أوائل عدة من السور القرآنية مثل ألم وألر وحم، وذلك أن اليهود أولوها على حساب الجمل، فطلبوا أن يستخرجوا منها مدة بقاء هذه الامة وعمرها فاشتبه عليهم الامر. نسب الى ابن عباس من الصحابة.

وفيه: أنه قول من غير دليل ولو سلم فلا دليل على انحصارهما فيهما، على ان لازمه وجود قسم ثالث ليس بمحكم ولامتشابه، مع أن ظاهر الآية يدفعه.

لكن الحق أن النسبة في غير محلها، والذي نقل عن ابن عباس: أنه قال: إن الآيات الثلاث من المحكمات لا أن المحكمات هي الآيات الثلاث.

ففي الدر المنثور أخرج سعيدبن منصور وابن أبي حاتم والحاكم وصححه، وابن مردويه عن عبدالله بن قيس سمعت ابن عباس يقول: في قوله: ﴿ **منه آيات محكمات** ﴾، قال: الثلاث آيات من آخر سورة الأنعام محكمات: ﴿ **قل تعالوا** ﴾، والآيتان بعدها.

ويؤيد ذلك مارواه عنه ايضاً في قوله: ﴿ **آيات محكمات** ﴾، قال: من هاهنا: ﴿ **قل تعالوا** ﴾ الى أخر ثلاث آخر، ومن هاهنا: ﴿ **وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه** ﴾[٢] الى آخر ثلاث آيات. فالروايتان تشهدان أنه إنما ذكر هذه الآيات مثالاً لسائر المحكمات، أنه قصرها فيها.

وثانيها: عكس الأول، وهو أن المحكمات: هي الحروف المقطعة في فواتح السور، والمتشابهات غيرها.نقل ذلك عن أبي فاختة حيث ذكر في قوله تعالى: هن ام الكتاب: أنهن فواتح السور منهايستخرج القرآن: ألم ذلك الكتاب، منها استخرجت البقرة، و ﴿ **ألم الله لاإله إلا هو الحي القيوم** ﴾[٣]، منها استخرجت آل عمران.

وعن سعيدبن جبير مثله في معنى قوله: ﴿ **هن ام الكتاب** ﴾[٤]، قال: أصل الكتاب؛ لأنهن مكتوبات في جميع الكتب، انتهى. ويدل ذلك على: أنهما يذهبان في معنى فواتح

---

١. سورة الانعام: الآية ١٥٢.
٢. سورة الاسراء: الآية ٢٣.
٣. سورة ال عمران: الآية ٢.
٤. سورة البقرة: الآية ٧.

السور الى أن المراد بها ؛ ألفاظ الحروف ، بعناية أن الكتاب الذي نزل عليكم هو هذه الحروف المقطعة التي تتألف منها الكلمات والجمل ، كماهو أحد المذاهب في معنى فواتح السور.

وفيه : مضافاً الى أنه مبني على ما لا دليل عليه أصلا ، أعني تفسير الحروف المقطعة في فواتح السور بما عرفت أنه لاينطبق على نفس الآية ، فإن جميع القرآن غير فواتح السور يصير حينئذ من المتشابه ،وقد ذم الله سبحانه اتباع المتشابه ، وعده من زيغ القلب ، مع أنه تعالى مدح اتباع القرآن بل عده من أوجب الواجبات ، كقوله تعالى : ﴿واتبعوا النور الذي انزل معه﴾[1] ، وغيره من الآيات

وثالثها : أن المتشابه : هو مايسمى مجملاً ، والمحكم هو المبين .

وفيه : أن مابين من أوصاف المحكم والمتشابه في الآية لاينطبق على المجمل والمبين . بيان ذلك : أن إجمال اللفظ هو كونه بحيث يختلط ويندمج بعض جهات معناه ببعض فلا تنفصل الجهة المرادة عن غيرها ، ويوجب ذلك تحير المخاطب أوالسامع في تشخيص المراد ، وقد جرى دأب أهل اللسان في ظرف التفاهم أن لايتبعوا ماهذا شأنه من الألفاظ ، بل يستريحون إلى لفظ آخر مبين يبين هذا المجمل فيصير بذلك مبيناً فيتبع ، فهذا حال المجمل مع مبينه ، فلوكان المحكم والمتشابه هما المجمل والمبين بعينهما كان المتبع هو المتشابه إذا رد إلى المحكم دون نفس المحكم ،وكان هذا الاتباع مما لا تجوزه قريحة التكلم والتفاهم ، فلم يقدم على مثله أهل اللسان سواء في ذلك أهل الزيغ منهم والراسخون في العلم ، ولم يكن اتباع المتشابه أمراً يلحقه الذم ويوجب زيغ القلب .

رابعها : أن المتشابهات هي الآيات المنسوخة لأنها يؤمن بها ولايعمل بها ، والمحكمات : هي الآيات الناسخة لأنها يؤمن بها ويعمل بها ، ونسب إلى ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة ،ولذلك كان ابن عباس يحسب أنه يعلم تأويل القرآن .

وفيه : أنه على تقدير صحته لادليل فيه على انحصار المتشابهات في الآيات المنسوخة ؛ فإن الذي ذكره تعالى من خواص اتباع المتشابه من ابتغاء الفتنة وابتغاء التأويل جار في

---

١ . سورة الإعراف : الآية ١٥٧ .

كثير من الآيات غير المنسوخة ، كآيات الصفات والأفعال ، على أن لازم هذا القول وجود الواسطة بين المحكم والمتشابه .

وفيما نقل عن ابن عباس : مايدل على أن مذهبه في المحكم والمتشابه أعم مما ينطبق على الناسخ والمنسوخ ، وأنه إنما ذكرهما من باب المثال .

ففي الدر المنثور : أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس قال : المحكمات : ناسخه وحلاله و حرامه وحدوده وفرائضه و مايؤمن به ، والمتشابهات: منسوخه ومقدمه ومؤخره وأمثاله وأقسامه ومايؤمن به ولا يعمل به ، انتهى .

خامسها : أن المحكمات : ما كان دليله واضحاً لائحاً كدلائل الوحدانية والقدرة والحكمة ، والمتشابهات : مايحتاج في معرفته إلى تأمل وتدبر .

وفيه : أنه إن كان المراد من كون الدليل واضحاً لائحاً أو محتاجاً إلى التأمل والتدبر كون مضمون الآية ذا دليل عقلي قريب من البداهة أوبديهي وعدم كونه كذلك ، كان لازمه كون آيات الأحكام والفرائض ونحوها من المتشابه لفقدانها الدليل العقلي اللائح الواضح ، وحينئذ يكون اتباعها مذموماً مع انها واجبة الاتباع ، وإن كان المراد به كونه ذا دليل واضح لائح من نفس الكتاب وعدم كونه كذلك، فجميع الآيات من هذه الجهة على وتيرة واحدة ، وكيف لا ؟ وهو كتاب متشابه مثاني ، ونور ، ومبين ، ولازمه كون الجميع محكماً وارتفاع المتشابه المقابل له من الكتاب ؛ وهو خلف الفرض وخلاف النص .

سادسها : أن المحكم : كل ما أمكن تحصيل العلم به بدليل جلي أو خفي ، والمتشابه: مالا سبيل إلى العلم به كوقت قيام الساعة ونحوه .

وفيه : أن الإحكام والتشابه وصفان لآية الكتاب من حيث أنها آية أي دالة على معرفة من المعارف الألهية ، والذي تدل عليه آية من آيات الكتاب ليس بعادم للسبيل ، ولا ممتنع الفهم إما بنفسه أو بضميمة غيره ، وكيف يمكن أن يكون هناك أمر مراد من لفظ لآية ولا يمكن نيله من جهة اللفظ ؟.

مع أنه وَصَفَ كتابه بأنه هدى ، وأنه نور ، وأنه مبين ، وأنه في معرض فهم الكافرين فضلاً عن المؤمنين ، حيث قال : ﴿ تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً

لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً فأعْرَضَ أكثرهم فهم لايسمعون ﴾[1]، وقال: **﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾**[2]، فما تعرضت له آية من آيات الكتاب ليس بممتنع الفهم، ولا الوقوف عليه مستحيل، وما لا سبيل إلى الوقوف عليه كوقت قيام الساعة وسائر ما في الغيب المكنون لم تتعرض لبيانه آية من الآيات بلفظها حتى تسمى متشابهاً.

على أن في هذا القول خلطاً بين معنى المتشابه وتأويل الآية كما مر.

سابعها: أن المحكمات: آيات الأحكام، والمتشابهات غيرها مما يصرف بعضها بعضاً، نسب هذا القول إلى مجاهد وغيره.

وفيه: أن المراد بالصرف الذي ذكره إن كان مطلق ما يعين على تشخيص المراد باللفظ حتى يشمل مثل التخصيص بالمخصص، والتقييد بالمقيد وسائر القرائن المقامية، كانت آيات الأحكام أيضاً كغيرها متشابهات، وإن كان خصوص ما لا إبهام في دلالته على المراد ولا كثرة في محتملاته حتى يتعين المراد به بنفسه، ويتعين المراد بغيره بواسطته، كان لازم كون ما سوى آيات الأحكام متشابهة أن لا يحصل العلم بشيء من معارف القرآن غير الأحكام؛ لأن المفروض عدم وجود آية محكمة فيها ترجع إليها المتشابهات منها، وتتبين بذلك معانيها.

ثامنها: أن المحكم من الآيات: ما لا يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً، والمتشابه: ما احتمل من التأويل أوجهاً كثيرة، ونسب إلى الشافعي، وكأن المراد به أن المحكم ما لاظهور له إلا في معنى واحد كالنص والظاهر القوي في ظهوره، والمتشابه خلافه.

وفيه: أنه لا يزيد على تبديل اللفظ باللفظ شيئاً، فقد بدل لفظ المحكم بما ليس له إلا معنى واحد، والمتشابه بما يحتمل معاني كثيرة، على أنه أخذ التأويل بمعنى التفسير، أي المعنى المراد باللفظ وقد عرفت أنه خطأ، ولو كان التأويل هو التفسير بعينه لم يكن لاختصاص علمه بالله، أو بالله وبالراسخين في العلم وجه فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً، والمؤمن والكافر والراسخون في العلم وأهل الزيغ في ذلك سواء.

١. سورة حم: الآية ٤.
٢. سورة النساء: الآية ٨٢.

تاسعها : أن المحكم : ما احكم وفصل فيه خبر الأنبياء مع اممهم ، والمتشابه : ما اشتبهت ألفاظه من قصصهم بالتكرير في سور متعددة ، ولازم هذا القول اختصاص التقسيم بآيات القصص .

وفيه : أنه لا دليل على هذا التخصيص أصلاً ، على أن الذي ذكره تعالى من خواص المحكم والمتشابه ؛ وهو ابتغاء الفتنة وابتغاء التأويل في اتباع المتشابه دون المحكم لا ينطبق عليه ، فإن هذه الخاصة توجد في غير آيات القصص كما توجد فيها ، وتوجد في القصة الواحدة كقصة جعل الخلافة في الأرض كما توجد في القصص المتكررة .

عاشرها : أن المتشابه : ما يحتاج إلى بيان ، والمحكم خلافه ، وهذا الوجه منسوب إلى الإمام أحمد .

وفيه : أن آيات الأحكام محتاجة إلى بيان النبي ﷺ مع أنها من المحكمات قطعاً لما تقدم بيانه مراراً ، وكذا الآيات المنسوخة من المتشابه ـ كما تقدم ـ مع عدم احتياجها إلى بيان لكونها نظائر لسائر آيات الأحكام .

الحادي عشر : أن المحكم ما يؤمن به ويعمل به، والمتشابه: ما يؤمن به ولا يعمل به ، ونسب إلى ابن تيمية ، ولعل المراد به : أن الأخبار متشابهات ، والإنشاءات محكمات كما استظهره بعضهم ، وإلا لم يكن قولاً برأسه لصحة انطباقه على عدة من الأقوال المتقدمة .

وفيه : أن لازمه كون غير آيات الأحكام متشابهات ، ولازمه أن لا يمكن حصول العلم بشيء من المعارف الإلهية في غير الأحكام ، إذ لا يتحقق فيها عمل مع عدم وجود محكم فيها يرجع إليه ما تشابه منها ، ومن جهة اخرى : الآيات المنسوخة إنشاءات وليست بمحكمات قطعاً .

والظاهر أن مراده : من الايمان والعمل بالمحكم ، والايمان من غير عمل بالمتشابه ، ما يدل عليه لفظ الآية : **﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ، ..... والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾**[1] ، إلا أن الأمرين ـ أعني الايمان والعمل معاً في المحكم ، والإيمان فقط في المتشابه ـ لما كانا وظيفتين لكل من آمن بالكتاب كان عليه أن

---

١ ـ سورة آل عمران : الآية ٧.

يشخص المحكم والمتشابه قبلاً حتى يؤدي وظيفته، وعليهذا فلا يكفي معرفة المحكم والمتشابه بهما في تشخيص مصداقهما وهو ظاهر.

الثاني عشر: أن المتشابهات: هي آيات الصفات خاصة أعم من صفات اللّه سبحانه كالعليم والقدير والحكيم والخبير، وصفات أنبيائه كقوله تعالى في عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾[1]، وما يشبه ذلك، نسب إلى ابن تيمية.

وفيه: أنه مع تسليم كون آيات الصفات من المتشابهات لا دليل على انحصارها فيها.

والذي يظهر من بعض كلامه المنقول على طوله: أنه يأخذ المحكم والمتشابه بمعناهما اللغوي وهو ما احكمت دلالته وما تشابهت احتمالاته، والمعنيان نسبيان، فربما اشتبهت دلالة آية على قوم كالعامة وعلمها آخرون بالبحث وهم العلماء، وهذا المعنى في آيات الصفات أظهر؛ فإنها بحيث تشتبه مراداتها لغالب الناس لكون أفهامهم قاصرة عن الارتقاء إلى ما وراء الحس، فيحسبون ما أثبته اللّه تعالى لنفسه من العلم والقدرة والسمع والبصر والرضا والغضب واليد والعين وغير ذلك اموراً جسمانية أو معاني ليست بالحق، وتقوم بذلك الفتن، وتظهر البدع، وتنشأ المذاهب، فهذا معنى المحكم والمتشابه، وكلاهما مما يمكن أن يحصل به العلم، والذي لا يمكن نيله والعلم به هو تأويل المتشابهات بمعنى حقيقة المعاني التي تدل عليها أمثال آيات الصفات، فهب أنا علمنا معنى قوله: «إن اللّه على كل شيء قدير، وإن اللّه بكل شيء عليم، ونحو ذلك، لكنا لا ندري حقيقة علمه وقدرته وسائر صفاته وكيفية أفعاله الخاصة به، فهذا هو تأويل المتشابهات التي لا يعلمها إلا اللّه تعالى، انتهى ملخصاً، وسيأتي ما يتعلق بكلامه من البحث عندما نتكلم في التأويل إنشاء اللّه.

الثالث عشر: أن المحكم ما للعقل إليه سبيل والمتشابه بخلافه.

وفيه: أنه قول من غير دليل، والآيات القرآنية وإن انقسمت إلى ما للعقل إليه سبيل وما ليس للعقل إليه سبيل، لكن ذلك لا يوجب كون المراد بالمحكم والمتشابه في هذه الآية استيفاء هذا التقسيم، وشيء مما ذكر فيها من نعوت المحكم والمتشابه لا ينطبق عليه

١. سورة النساء: الآية ١٧١.

انطباقاً صحيحاً ، على أنه منقوض بآيات الأحكام فإنها محكمة ولا سبيل للعقل إليها .

الرابع عشر : أن المحكم ما اريد به ظاهره والمتشابه ما اريد به خلاف ظاهره ، وهذا قول شائع عند المتأخرين من أرباب البحث ، وعليه يبتني اصطلاحهم في التأويل : أنه المعنى المخالف لظاهر الكلام ، وكأنه أيضاً مراد من قال : إن المحكم ما تأويله تنزيله ، والمتشابه ما لا يدرك إلا بالتأويل .

وفيه : أنه اصطلاح محض لا ينطبق عليه ما في الآية من وصف المحكم والمتشابه فإن المتشابه إنما هو متشابه من حيث تشابه مراده ومدلوله ، وليس المراد بالتأويل المعنى المراد من المتشابه حتى يكون المتشابه متميزاً عن المحكم بأن له تأويلاً ، بل المراد بالتأويل في الآية أمر يعم جميع الآيات القرآنية من محكمها ومتشابهها كما مر بيانه . على أنه ليس في القرآن آية اريد فيها ما يخالف ظاهرها ، وما يوهم ذلك من الآيات إنما اريد بها معان تعطيها لها آيات اخر محكمة ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، ومن المعلوم أن المعنى الذي تعطيه القرائن ـ متصلة أو منفصلة ـ للفظ ليس بخارج عن ظهوره وبالخصوص في كلام نص متكلمه على أن ديدنه أن يتكلم بما يتصل بعضه ببعض ، ويشهد بعضه على بعض ويرتفع كل اختلاف وتناف متراثي بالتدبر فيه ، قال تعالى : ﴿ **أفلا يتدبّرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾[1] .

الخامس عشر: ما عن الأصم: أن المحكم ما اجمع على تأويله والمتشابه ما اختلف فيه ، وكأن المراد بالإجماع والاختلاف كون مدلول الآية بحيث تختلف فيه الأنظار أو لاتختلف .

وفيه : أن ذلك مستلزم لكون جميع الكتاب متشابهاً وينافيه التقسيم الذي في الآية إذ ما من آية من آي الكتاب إلا وفيها اختلاف ما : إما لفظاً أو معنى أو في كونها ذات ظهور أو غيرها ، حتى ذهب بعضهم الى أن القرآن كله متشابه مستدلاً بقوله تعالى : ﴿ **كتاباً متشابهاً** ﴾[2]، غفلة عن أن هذا الاستدلال منه يبتنى على كون ما استدل به آية محكمة وهو يناقض قوله ، وذهب آخرون إلى أن ظاهر الكتاب ليس بحجة أي أنه لا ظاهر له .

---

١ ـ سورة النساء : الآية ٨٢.

٢ ـ سورة الزمر : الآية ٢٣ .

السادس عشر: أن المتشابه ما أشكل تفسيره لمشابهته غيره سواء كان الإشكال من جهة اللفظ أو من جهة المعنى، ذكره الراغب.

قال في مفردات القرآن: والمتشابه من القرآن ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره، إما من حيث اللفظ، أو من حيث المعنى، فقال الفقهاء: المتشابه ما لا ينبيء ظاهره عن مراده، وحقيقة ذلك: أن الآيات عند اعتبار بعضها ببعض ثلاثة أضرب: محكم على الإطلاق، ومتشابه على الإطلاق، ومحكم من وجه متشابه من وجه.

فالمتشابه في الجملة ثلاثة أضرب: متشابه من جهة اللفظ فقط، ومتشابه من جهة المعنى فقط، ومتشابه من جهتهما. والمتشابه من جهة اللفظ ضربان: أحدهما يرجع إلى الألفاظ المفردة، وذلك إما من جهة غرابته نحو الأب ويزفون، وإما من جهة مشاركة في اللفظ كاليد والعين، والثاني يرجع إلى جملة الكلام المركب، وذلك ثلاثة أضرب: ضرب لاختصار الكلام نحو: ﴿ وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾[1]، وضرب لبسط الكلام نحو: ﴿ليس كمثله شيء﴾[2] لأنه لو قيل ليس مثله شيء كان أظهر للسامع، وضرب لنظم الكلام نحو: ﴿ أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً ﴾[3] تقديره الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً، وقوله: ﴿ولولا رجال مؤمنون﴾ الى قوله: ﴿ لو تزيلوا ﴾[4].

والمتشابه من جهة المعنى أوصاف الله تعالى وأوصاف يوم القيامة، فإن تلك الصفات لا تتصور لنا، إذ كان لا يحصل في نفوسنا صورة ما لم نحسه، أو لم يكن من جنس ما لم نحسه.

والمتشابه من جهة المعنى واللفظ جميعاً خمسة أضرب: الأول: من جهة الكمية كالعموم والخصوص نحو: ﴿ اقتلوا المشركين ﴾، والثاني: من جهة الكيفية كالوجوب والندب نحو: ﴿ فانكحوا ما طاب لكم ﴾، والثالث: من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ نحو: ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾، والرابع: من جهة المكان أو الامور التي نزلت فيها نحو:

١. سورة النساء: الآية ٣.
٢. سورة الشورى: الآية ١١.
٣. سورة الكهف: الآية ١.
٤. سورة الفتح: الآية ٢٥.

﴿ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ﴾ ، وقوله : ﴿ انما النسيء زيادة في الكفر ﴾ ، فإن من لا يعرف عادتهم في الجاهلية يتعذر عليه معرفة تفسير هذه الآية ، والخامس : من جهة الشروط التي بها يصح الفعل أو يفسد ، كشروط الصلاة والنكاح .

وهذه الجملة إذا تصورت علم : أن كل ما ذكره المفسرون في تفسير المتشابه لا يخرج عن هذه التقاسيم نحو قول من قال : المتشابه ألم ، وقول قتادة : المحكم الناسخ والمتشابه المنسوخ ، وقول الأصم : المحكم ما اجمع على تأويله والمتشابه ما اختلف فيه .

ثم جميع المتشابه على ثلاثة أضرب : ضرب لا سبيل للوقوف عليه كوقت الساعة وخروج دابة الأرض وكيفية الدابة ونحو ذلك . وضرب للإنسان سبيل إلى معرفته كالألفاظ الغريبة والأحكام الغلقة . وضرب متردد بين الأمرين ، يجوز أن يختص بمعرفة حقيقته بعض الراسخين في العلم ويخفى على من دونهم ، وهو الضرب المشار اليه بقوله ﷺ في علي عليه السلام : (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) ، وقوله لابن عباس مثل ذلك ، انتهى كلامه . وهو أعم الأقوال في معنى المتشابه جمع فيه بين عدة من الأقوال المتقدمة .

وفيه : أولا : أن تعميمه المتشابه لموارد الشبهات اللفظية كغرابة اللفظ وإغلاق التركيب والعموم والخصوص ونحوها لا يساعد عليه ظاهر الآية ، فإن الآية جعلت المحكمات مرجعاً ترجع إليه المتشابهات ، ومن المعلوم أن غرابة اللفظ وأمثالها لا تنحل عقدتها من جهة دلالة المحكمات ، بل لها مرجع آخر ترجع اليه وتتضح به .

وأيضاً : الآية تصف المتشابهات بأنها من شأنها أن تتبع لابتغاء الفتنة ، ومن المعلوم : أن اتباع العام من غير رجوع إلى مخصصه ، والمطلق من غير رجوع الى مقيده وأخذ اللفظ الغريب مع الإعراض عما يفسره في اللغة، مخالف لطريقة أهل اللسان لا تجوزه قريحتهم ، فلا يكون بالطبع موجباً لإثارة الفتنة لعدم مساعدة اللسان عليه .

وثانياً : أن تقسيمه المتشابه بما يمكن فهمه لعامة الناس وما لا يمكن فهمه لأحد وما يمكن فهمه لبعض دون بعض ظاهر في أنه يرى اختصاص التأويل بالمتشابه ، وقد عرفت خلافه .

هذا هو المعروف من اقوالهم في معنى المحكم والمتشابه وتمييز مواردها، وقد عرفت ما فيها، وعرفت أيضاً أن الذي يظهر من الآية على ظهورها وسطوع نورها خلاف ذلك كله، وأن الذي تعطيه الآية في معنى المتشابه: أن تكون الآية مع حفظ كونها آية دالة على معنى مريب مردد لا من جهة اللفظ بحيث تعالجه الطرق المألوفة عند أهل اللسان، كإرجاع العام والمطلق إلى المخصص والمقيد ونحو ذلك، بل من جهة كون معناها غير ملائم لمعنى آية اخرى محكمة ـ لا ريب فيه ـ تُبين حال المتشابهة.

ومن المعلوم أن معنى آية من الآيات لا يكون على هذا الوصف إلا مع كون ما يتبع من المعنى مألوفاً مأنوساً عند الأفهام العامية، تسرع الأذهان الساذجة إلى تصديقه، أو يكون ما يرام من تأويل الآية أقرب إلى قبول هذه الأفهام الضعيفة الإدراك والتعقل.

وأنت إذا تتبعت البدع والأهواء والمذاهب الفاسدة التي انحرفت فيها الفرق الإسلامية عن الحق القويم بعد زمن النبي ﷺ، سواء كان في المعارف أو في الأحكام، وجدت أكثر مواردها من اتباع المتشابه، والتأويل في الآيات بما لا يرتضيه الله سبحانه.

ففرقة تتمسك من القرآن بآيات للتجسيم، واخرى للجبر، واخرى للتفويض واخرى لعثرة الأنبياء، واخرى للتنزيه المحض بنفي الصفات، واخرى للتشبيه الخالص وزيادة الصفات، إلى غير ذلك، كل ذلك للأخذ بالمتشابه من غير إرجاعه إلى المحكم الحاكم فيه.

وطائفة ذكرت: أن الأحكام الدينية إنما شرعت لتكون طريقاً إلى الوصول، فلو كان هناك طريق أقرب منها كان سلوكه متعيناً لمن ركبه، فإنما المطلوب هو الوصول بأي طريق اتفق وتيسر، واخرى قالت: إن التكليف إنما هو لبلوغ الكمال، ولا معنى لبقائه بعد الكمال بتحقق الوصول فلا تكليف لكامل.

وقد كانت الأحكام والفرائض والحدود وسائر السياسات الإسلامية قائمة ومقامة في عهد رسول الله ﷺ لا يشذ منها شاذ، ثم لم تزل بعد ارتحاله ﷺ تنقص وتسقط حكماً فحكماً، يوماً فيوماً بيد الحكومات الإسلامية، ولم يبطل حكم أو حد إلا واعتذر المبطلون: أن الدين إنما شرع لصلاح الدنيا وإصلاح الناس، وما أحدثوه أصلح لحال الناس اليوم، حتى آل الأمر الى ما يقال: إن الفرض الوحيد من شرايع الدين اصلاح الدنيا باجرائها،

والدنيا اليوم لا تقبل السياسة الدينية ولا تهضمها بل تستدعي وضع قوانين ترتضيها مدنية اليوم وإجرائها ، وإلى ما يقال : إن التلبس بالأعمال الدينية لتطهير القلوب وهدايتها إلى الفكرة والارادة الصالحتين، والقلوب المتدربة بالتربية الاجتماعية ، والنفوس الموقوفة على خدمة الخلق في غنى عن التطهر بامثال الوضوء والغسل والصلاة والصوم .

إذا تأملت في هذه وأمثالها ـ وهي لا تحصى كثرة ـ وتدبرت في قوله تعالى :﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴾ (١) الآية ، لم تشك في صحة ما ذكرناه ، وقضيت بأن هذه الفتن والمحن التي غادرت الإسلام والمسلمين لم تستقر قرارها إلا من طريق اتباع المتشابه ، وابتغاء تأويل القرآن .

وهذا ـ والله أعلم ـ هو السبب في تشديد القرآن الكريم في هذا الباب ، وإصراره البالغ على النهي عن اتباع المتشابه وابتغاء الفتنة والتأويل والالحاد في آيات الله والقول فيها بغير علم واتباع خطوات الشيطان ، فإن من دأب القرآن أنه يبالغ في التشديد في موارد سينثلم من جهتها ركن من أركان الدين فتنهدم به بنيته ؛ كالتشديد الواقع في تولي الكفار ، ومودة ذوي القربى، وقرار أزواج النبي، ومعاملة الربا، واتحاد الكلمة في الدين وغير ذلك .

ولا يغسل رين الزيغ من القلوب ولا يسد طريق ابتغاء الفتنة اللّذين منشأهما الركون الى الدنيا والاخلاد الى الأرض واتباع الهوى إلا ذكر يوم الحساب ، كما قال تعالى : ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ (٢) . ولذلك ترى الراسخين في العلم المتأبين تأويل القرآن بما لا يرتضيه ربهم يشيرون الى ذلك في خاتمة مقالهم حيث يقولون : ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد .

٢ ـ ما معنى كون المحكمات ام الكتاب ؟.

ذكر جماعة : إن كون الآيات المحكمة ام الكتاب كونها أصلاً في الكتاب عليه تبتنى قواعد الدين واركانها فيؤمن بها ويعمل بها، وليس الدين إلا مجموعاً من الاعتقاد والعمل ، وأما الآيات المتشابهة فهي لتزلزل مرادها وتشابه مدلولها لا يعمل بها بل إنما يؤمن بها

---

١ . سورة آل عمران : الآية ٧.
٢ . سورة ص : الآية ٢٦.

إيماناً.

وأنت بالتأمل فيما تقدم من الأقوال تعلم: أن هذا لازم بعض الأقوال المتقدمة، وهي التي ترى أن المتشابه إنما صار متشابهاً لاشتماله على تأويل يتعذر الوصول إليه وفهمه، أو أن المتشابه يمكن حصول العلم به ورفع تشابهه في الجملة، أو بالجملة بالرجوع إلى عقل أو لغة أو طريقة عقلائية يستراح اليها في رفع الشبهات اللفظية.

وقال آخرون: إن معنى امومة المحكمات رجوع المتشابهات إليها، وكلامهم مختلف في تفسير هذا الرجوع، فظاهر بعضهم: أن المراد بالرجوع هو قصر المتشابهات على الإيمان والاتباع العملي في مواردها للمحكم، كالآية المنسوخة يؤمن بها ويرجع في موردها إلى العمل بالناسخة، وهذا القول لا يغاير القول الأول كثير مغايرة، وظاهر بعض آخر أن معناها كون المحكمات مبينة للمتشابهات، رافعة لتشابهها.

والحق هو المعنى الثالث، فإن معنى الامومة الذي يدل عليه قوله: هن ام الكتاب ـ الآية ـ يتضمن عناية زائدة، وهو أخص من معنى الأصل الذي فسرت به الام في القول الأول، فإن في هذه اللفظة، أعني لفظة الام عناية بالرجوع الذي فيه انتشاء واشتقاق وتبعض، فلا تخلو اللفظة عن الدلالة على كون المتشابهات ذات مداليل ترجع وتتفرع على المحكمات، ولازمه كون المحكمات مبينة للمتشابهات.

على أن المتشابه إنما كان متشابهاً لتشابه مراده لا لكونه ذا تأويل، فإن التأويل كما مر يوجد للمحكم كما يوجد للمتشابه، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، فللمتشابه مفسر وليس الا المحكم، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ **إلى ربها ناظرة** ﴾[1]، فإنه آية متشابهة، وبإرجاعها إلى قوله تعالى: ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾[3]، يتبين: أن المراد بها نظرة ورؤية من غير سنخ رؤية البصر الحسي، وقد قال تعالى: ﴿ **ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى ـ إلى أن قال: ـ لقد رأى من آيات ربه الكبرى** ﴾[4]، فأثبت للقلب رؤية تخصه، وليس هو الفكر فإن الفكر إنما يتعلق بالتصديق، والمركب

---

١. سورة القيامة: الآية ٢٣.
٢. سورة الشورى: الآية ١١.
٣. سورة الانعام: الآية ١٠٣.
٤. سورة النجم: الآية ١١ـ١٨.

الذهني والرؤية إنما تتعلق بالمفرد العيني، فيتبين بذلك أنه توجه من القلب ليست بالحسية المادية ولا بالعقلية الذهنية، والأمر على هذه الوتيرة في سائر المتشابهات.

...ـ ما معنى التأويل[١]؟...

وقد ظهر من جميع ما تقدم من الأبحاث على طولها امور:

الأول: أن الآيات القرآنية تنقسم الى قسمين: محكم ومتشابه، وذلك من جهة اشتمال الآية وحدها على مدلول متشابه وعدم اشتمالها [عليه].

الثاني: أن لجميع القرآن محكمه ومتشابهه تأويلاً. وأن التأويل ليس من قبيل المفاهيم اللفظية بل من الامور الخارجية، نسبته الى المعارف والمقاصد المبينة نسبة الممثل الى المثال، وأن جميع المعارف القرآنية أمثال مضروبة للتأويل الذي عند الله.

الثالث: أن التأويل يمكن أن يعلمه المطهرون وهم الراسخون في العلم.

الرابع: أن البيانات القرآنية أمثال مضروبة لمعارفها ومقاصدها، وهذا المعنى غير ما ذكرناه في الأمر الثاني من كون معارفه أمثالاً، وقد أوضحناه فيما مر.

الخامس: أن من الواجب أن يشتمل القرآن على المتشابهات، كما أن من الواجب أن يشتمل على المحكمات.

السادس: أن المحكمات ام الكتاب اليها ترجع المتشابهات رجوع بيان.

السابع: أن الإحكام والتشابه وصفان يقبلان الإضافة والاختلاف بالجهات، بمعنى أن آية ما يمكن أن تكون محكمة من جهة، متشابهة من جهة أخرى فتكون محكمة بالإضافة الى آية ومتشابهة بالاضافة الى اخرى. ولا مصداق للمتشابه على الإطلاق في القرآن، ولا مانع من وجود محكم على الاطلاق.

الثامن: أن من الواجب أن يفسر بعض القرآن بعضاً.

التاسع: أن للقرآن مراتب مختلفة من المعنى، مترتبة طولاً من غير أن يكون الجميع في عرض واحد فيلزم استعمال اللفظ في أكثر من معنى واحد، أو مثل عموم المجاز، ولا هي من قبيل اللوازم المتعددة لملزوم واحد، بل هي معان مطابقية يدل على كل واحد منها

---

١. انظر «ما معنى التأويل» في ص ١٩٦ من الكتاب الحاضر.

اللفظ بالمطابقة بحسب مراتب الأفهام .

ولتوضيح ذلك نقول : قال الله تبارك وتعالى : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾[١] فأنبأ أن للتقوى الذي هو الانتهاء عما نهى الله عنه والايتمار بما أمر الله به مرتبة هي حق التقوى، ويعلم بذلك أن هناك من التقوى ما هو دون هذه المرتبة الحقة ، فللتقوى الذي هو بوجه العمل الصالح مراتب ودرجات بعضها فوق بعض .

وقال أيضاً : ﴿ أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأويه جهنم وبئس المصير هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون ﴾[٢] ، فبين أن العمل مطلقاً سواء كان صالحاً أو طالحاً درجات ومراتب ، والدليل على أن المراد بها درجات العمل قوله : ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾. ونظير الآية قوله تعالى : ﴿ ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ﴾[٣]، وقوله تعالى : ﴿ ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون ﴾[٤]. والآيات في هذا المعنى كثيرة ، وفيها ما يدل على أن درجات الجنة ودركات النار بحسب مراتب الأعمال ودرجاتها .

ومن المعلوم أن العمل من أي نوع كان هو من رشحات العلم يترشح من اعتقاد قلبي يناسبه ، وقد استدل تعالى على كفر اليهود وعلى فساد ضمير المشركين وعلى نفاق المنافقين من المسلمين وعلى إيمان عدة من الأنبياء والمؤمنين ، بأعمالهم وأفعالهم في آيات كثيرة جداً يطول ذكرها ، فالعمل كيف كان يلازم ما يناسبه من العلم ويدل عليه .

وبالعكس يستلزم كل نوع من العمل ما يناسبه من العلم ويحصله ويركزه في النفس، كما قال تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله مع المحسنين ﴾[٥]، وقال تعالى : ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾[٦] ، وقال أيضاً : ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأىٰ أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾[٧] ، وقال : ﴿ فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم الى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾[٨] ، والآيات في هذا المعنى

---

١. سورة آل عمران : الآية ١٠٢.
٢. سورة آل عمران : الآية ١٦٢ و ١٦٣.
٣. سورة الاحقاف : الآية ١٩.
٤. سورة الانعام : الآية ١٣٢.
٥. سورة العنكبوت : الآية ٦٩.
٦. سورة الحجر : الآية ٩٩.
٧. سورة الروم : الآية ١٠.
٨. سورة براءة : الآية ٧٧.

أيضاً كثيرة يدل الجميع على أن العمل صالحاً كان أو طالحاً يولّد من أقسام المعارف والجهالات (وهي العلوم المخالفة للحق) ما يناسبه.

وقال تعالى ـ وهو كالكلمة الجامعة في العمل الصالح والعلم النافع ـ: ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾ (١)، فبين أن شأن الكلم الطيب فهو الاعتقاد الحق أن يصعد الى الله تعالى ويقرب صاحبه منه، وشأن العمل الصالح أن يرفع هذا العلم والاعتقاد. ومن المعلوم أن ارتفاع العلم في صعوده إنما هو بخلوصه من الشك والريب وكمال توجه النفس إليه وعدم تقسم القلب فيه وفي غيره (وهو مطلق الشرك)، فكلما كمل خلوصه من الشك والخطوات اشتد صعوده وارتفاعه.

ولفظ الآية لا يخلو عن دلالة على ذلك، فإنها عبرت في الكلم الطيب بالصعود ووصف العمل بالرفع، والصعود يقابل النزول كما أن الرفع يقابل الوضع، وهما أعني الصعود والارتفاع وصفان يتصف بهما المتحرك من السفل الى العلو بنسبته الى الجانبين؛ فهو صاعد بالنظر الى قصده العلو واقترابه منه، ومرتفع من جهة انفصاله من السفل وابتعاده منه، فالعمل يبعد الانسان ويفصله من الدنيا والإخلاد الى الأرض بصرف نفسه عن التعلق بزخارفها الشاغلة والتشتت والتفرق بهذه المعلومات الفانية غير الباقية، وكلما زادالرفع والارتفاع زاد صعود الكلم الطيب، وخلصت المعرفة عن شوائب الأوهام وقذارات الشكوك، ومن المعلوم أيضاً كما مر: أن العمل الصالح ذو مراتب ودرجات، فلكل درجة من العمل الصالح رفع الكلم الطيب وتوليد العلوم والمعارف الحقة الالهية على ما يناسب حالها. والكلام في العمل الطالح ووضعه الإنسان نظير الكلام في العمل الصالح ورفعه، وقد مر بعض الكلام في ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ (٢).

فظهر أن للناس بحسب مراتب قربهم وبعدهم منه تعالى مراتب مختلفة من العمل والعلم، ولازمه أن يكون ما يتلقاه أهل واحدة من المراتب والدرجات غير ما يتلقاه أهل المرتبة والدرجة الاخرى التي فوق هذه أو تحتها، فقد تبين أن للقرآن معاني مختلفة

---

١. سورة فاطر: الآية ١٠.

٢. سورة الحمد: الآية ٦.

مترتبة.

وقد ذكر الله سبحانه أصنافاً من عباده، وخص كل صنف بنوع من العلم والمعرفة لا يوجد في الصنف الآخر، كالمخلصين وخص بهم العلم بأوصاف ربهم حق العلم، قال تعالى: ﴿ سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين ﴾ (١)، وخص بهم أشياء أخر من المعرفة والعلم سيجيء بيانها إنشاء الله تعالى، وكالموقنين وخص بهم مشاهدة ملكوت السموات والأرض، قال تعالى: ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ (٢)، وكالمنيبين وخص بهم التذكر، قال تعالى: ﴿ وما يتذكر إلا من ينيب ﴾ (٣)، وكالعالمين وخص بهم عقل أمثال القرآن، قال تعالى: ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ (٤)، وكأنهم اولوا الألباب والمتدبرون، لقوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ (٥)، ولقوله تعالى: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ (٦)، فإن مؤدى الآيات الثلاث يرجع الى معنى واحد وهو العلم بمتشابه القرآن ورده الى محكمه، وكالمطهرين خصهم الله بعلم تأويل الكتاب، قال تعالى: ﴿ إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون﴾ (٧)، وكالأولياء وهم أهل الوله والمحبة لله وخص بهم أنهم لا يلتفتون إلى شيء إلا الله سبحانه ولذلك لا يخافون شيئاً ولا يحزنون لشيء، قال تعالى: ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (٨)، وكالمقربين والمجتبين والصديقين والصالحين والمؤمنين ولكل منهم خواص من العلم والإدراك يختصون بها، سنبحث عنها في المحال المناسبة لها.

ونظير هذه المقامات الحسنة مقامات سوء في مقابلها، ولها خواص رديئة في باب العلم والمعرفة، ولها أصحاب، كالكافرين والمنافقين والفاسقين والظالمين وغيرهم، ولهم انصباء من سوء الفهم ورداءة الإدراك لآيات الله ومعارفه الحقة، طوينا ذكرها إيثاراً للاختصار، وسنتعرض لها في خلال أبحاث هذا الكتاب إنشاء الله.

---

١. سورة الصافات: الآية ١٥٩ و ١٦٠.
٢. سورة الانعام: الآية ٧٥.
٣. سورة المؤمن: الآية ١٣.
٤. سورة العنكبوت: الآية ٤٣.
٥. سورة محمد ﷺ: الآية ٢٤.
٦. سورة النساء: الآية ٨٢.
٧. سورة الواقعة: الآية ٧٧ ـ ٧٩.
٨. سورة يونس: الآية ٦٢.

العاشر : أن للقرآن اتساعاً من حيث انطباقه على المصاديق وبيان حالها ، فالآية منه لاتختص بمورد نزولها بل تجري في كل مورد يتحد مع مورد النزول ملاكاً كالأمثال التي لاتختص بمواردها الأول ، بل تتعداها الى ما يناسبها ، وهذا المعنى هو المسمى بجري القرآن ، وقد مر بعض الكلام فيه في أوائل الكتاب .

بحث روائي :

في تفسير العياشي: سئل أبو عبدالله عليه السلام عن المحكم والمتشابه قال : « المحكم ما يعمل به والمتشابه ما اشتبه على جاهله » .

اقول : فيه تلويح الى أن المتشابه مما يمكن العلم به .

وفيه أيضاً عنه عليه السلام : « إن القرآن محكم ومتشابه ، فأما المحكم فتؤمن به وتعمل به وتدين ، وأما المتشابه فتؤمن به ولا تعمل به ، وهو قول الله عز وجل : ﴿ **وأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا** ﴾ [1] والراسخون في العلم هم آل محمد » .

اقول : وسيجيء كلام في معنى قوله عليه السلام : « والراسخون في العلم هم آل محمد » .

وفيه أيضاً عن مسعدة بن صدقة قال : سألت أبا عبدالله عليه السلام عن الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه ، قال : « الناسخ الثابت المعمول به ، والمنسوخ ما قد كان يعمل به ثم جاء ما نسخه ، والمتشابه ما اشتبه على جاهله » . قال : وفي رواية : « الناسخ الثابت ، والمنسوخ ما مضى ، والمحكم ما يعمل به ، والمتشابه ما يشبه بعضه بعضاً » .

وفي الكافي عن الباقر عليه السلام في حديث قال : « فالمنسوخات من المتشابهات » .

وفي العيون عن الرضا عليه السلام : « من رد متشابه القرآن إلى محكمه هدي إلى صراط مستقيم » . ثم قال : « إن في أخبارنا متشابهاً كمتشابه القرآن ، فردوا متشابهها إلى محكمها ، ولا تتبعوا متشابهها فتضلوا » .

أقول : الأخبار كما ترى متقاربة في تفسير المتشابه ، وهي تؤيد ما ذكرناه في البيان السابق:أن التشابه يقبل الارتفاع ، وأنه إنما يرتفع بتفسير المحكم له . وأما كون

---

١ . سورة آل عمران : الآية ٧ .

المنسوخات من المتشابهات فهو كذلك ـ كما تقدم ـ ووجه تشابهها ما يظهر منها من استمرار الحكم وبقائه، ويفسره الناسخ ببيان أن استمراره مقطوع. وأما ما ذكره عليه السلام في خبر العيون: «أن في أخبارنا متشابهاً كمتشابه القرآن ومحكماً كمحكم القرآن»، فقد وردت في هذا المعنى عنهم عليهم السلام روايات مستفيضة، والاعتبار يساعده، فإن الأخبار لا تشتمل إلا على ما اشتمل عليه القرآن الشريف، ولا تبين إلا ما تعرض له، وقد عرفت فيما مر: أن التشابه من أوصاف المعنى الذي يدل عليه اللفظ وهو كونه بحيث يقبل الانطباق على المقصود وعلى غيره، لا من أوصاف اللفظ من حيث دلالته على المعنى نظير الغرابة والاجمال، ولا من أوصاف الأعم من اللفظ والمعنى.

وبعبارة اخرى: إنما عرض التشابه لما عرض عليه من الآيات لكون بياناتها جارية مجرى الأمثال بالنسبة إلى المعارف الحقة الالهية، وهذا المعنى بعينه موجود في الأخبار ففيها متشابه ومحكم كما في القرآن، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «إنا معاشر الأنبياء نكلم الناس على قدر عقولهم»[1].

قال المدرسي في القرآن الحكيم بين المحكم والمتشابه:

«لأن القرآن المجيد خطاب مباشر من الله خالق كل إنسان وإلى كل إنسان، فلابد أن يكون مفهوماً لهم جميعاً بقدر ما يكون مهيمناً عليهم، يكون مفهوماً لانه خطاب ويكون مهيمناً لأنه من الله.

ولأن الناس درجات في العلم والايمان، فلابد ان تكون آيات القرآن درجات فتنشأ المشكلة، حيث تكون الدرجة العالية غير مفهومة لمن هم في الدرجات الدنيا.

وهنا يتدخل القرآن ذاته لحل هذه المشكلة بأن يوقف هؤلاء الناس عند حدهم ويأمرهم بترك الآية غير المفهومة لهم. تركها لمن يفهمونها ممن تتناسب درجاتهم معها بينما يكون عليهم ان يستوحوا من تلك الآيات التي تنالها افكارهم وتتفق مع مستوى نضجهم، والقرآن الحكيم يسمي الآية المفهومة بـ(المحكم) بينما يدعو الآية التي هي أعلى من مستوى فهم القارىء بـ(المتشابه) ويأمر الناس باتباع المحكم وترك المتشابه.

---

١. الميزان ج ٣ ص ٣١ ـ ٦٤.

ومن هنا نعرف أن ليس الناس سواءً في المحكم والمتشابه . إذ ان المحكم الذي يبدو واضحاً عند فردٍ ـ لانه في مستوى فهمه ـ يكون متشابهاً عند فردٍ آخر ، لأنه أعلى من مستواه .

من هنا جاء في الحديث في تفسير المتشابه بأنه: «ما أشبه على جاهله» وعليه يجب على من لم يؤت فهم آية عليه أمران :

١ ـ أن يقف عند الآية : ولا يصيبه الغرور فيزعم انه قادر على فهم الآية، فيفسرها برأية فيضل ويضل الآخرين .

٢ ـ ان يلتمس من هو اعلى درجة منه لعله يتعلم منه مغنى الآية . ولو لم يفهم ـ حتى مع التعليم ـ فعليه ان يدع علمه إلى أهله .

هذه الحقائق هي التي تذكر بها الآية الكريمة التي تقول :

﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات ـ هن أم الكتاب ـ واخر متشابهات ـ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴾ [١] .

وجاء في الحديث : عن الامام الصادق ﷺ : « أن القرآن فيه محكم ومتشابه ، فأما المحكم فنؤمن به ونعمل به وندين به ، وأما المتشابه فنؤمن به ولا نعمل به » [٢][٣] .

---

١ . سورة آل عمران : الآية ٧ .

٢ . تفسير الصافي ج ٢ ص ١٨ .

٣ . من هدى القرآن ج ١ ص ٤٥ ـ ٤٦ .

إنّ للقرآن ظهراً وبطناً

قال هود بن محكم :

«ذكروا عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « ما في القرآن آية الاّ ولها ظهر وبطن، وما فيه حرف الا وهو حدّ ، ولكل حدٍّ مطّلع » [1].

ذكروا عن ابن مسعود انه قال : « ما في القرآن آية الاّ ولها بطن » قيل : وماحدّ ومطلع ؟ قال : « ليس منه حد الاّ سيطلع عليه قوم يعملون به » [2].

قال العياشي (ره): « ١ ـ عن جابر قال : قال أبو عبدالله عليه السلام : « جابر إن للقرآن بطناً وللبطن ظهراً ، ثم قال : ياجابر وليس شيء أبعد من عقول الرجال منه ، إن الآية لتنزل أولها في شيء وأوسطها في شيء وآخرها في شيء ، وهو كلام متّصل يتصرّف على وجوه » [3].

٢ ـ عن حمران بن أعين عن أبي جعفر عليه السلام قال : « ظهر القرآن الذين نزل فيهم وبطنه

---

١. فقد رواه الطبري في تفسيره بإسنادين في المقدمة ج ١ ص ٢٢ ثم شرحه بتفصيل بعد ذلك في ج ١ ص ٧٢. وانظر تخريج الحديث للمحدّث الشيخ أحمد محمدشاكر في تفسير الطبرى ج ١ ص ٢٢ تعليق : ٣.

وخلاصة معنى الحديث ـ والله أعلم ـ أن لكل حرف حداً حدّه الله في معناه وحكمه يجب على الإنسان أن يقف عنده ولا يتجاوزه. وأن لكل حد مطلعاً ، أي قدراً من جزاء ، خيراً يكون أو شراً ـ سيطلع عليه المرء ويلاقيه يوم القيامة . وللحديث شرح آخر . انظر الألوسي ، روح المعاني ج ١ ص ٧.

٢. تفسير كتاب الله العزيز ج ١ ص ٧٠.

٣. البحار ج ١٩ ص ٣٠ و ٩٣ ـ ٩٤ و ٢٥ . البرهان ج ١ ص ٢٠ ـ ٢١ . الصافي ج ١ ص ١٤ و١٧ . الوسائل ج ٣ كتاب القضاء باب ١٣ .

الذين عملوا بمثل أعمالهم »[١].

٣ـ عن الفضيل بن يسار قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الرواية « ما في القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن، ومافيه حرف إلا وله حدّ ولكل حدّ مطلع »[٢] مايعني بقوله لها ظهر وبطن؟ قال: ظهره وبطنه تأويله، منه ما مضى ومنه مالم يكن بعد، يجري كما يجري الشمس والقمر، كلما جاء منه شيء وقع، قال الله تعالى: ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ﴾[٣]، [نحن نعلمه][٤].

٤ـ عن جابر قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن شيء في تفسير القرآن فأجابني، ثم سألته ثانية فأجابني بجواب آخر، فقلت: جعلت فداك كنت أجبت في هذه المسألة بجواب غير هذا قبل اليوم، فقال عليه السلام لي: « يا جابر إن للقرآن بطناً، وللبطن ظهراً، ياجابر وليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن، إن الآية لتكون أولها في شيء وآخرها[٥] في شيء، وهو كلام متّصل يتصرّف على وجوه »[٦][٧].

قال الطوسي (ره):

«فاما ماروي عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال: « ما نزل من القرآن من آية إلا ولها ظهر وبطن» وقد رواه ايضاً اصحابنا عن الائمة عليهم السلام، فانه يحتمل ذلك وجوهاً:

احدها ـ ما روي في أخبارنا عن الصادقين عليهما السلام وحكي ذلك عن ابي عبيدة: أن المراد بذلك القصص باخبار هلاك الاولين وباطنها عظة للآخرين.

والثاني ـ ماحكي عن ابن مسعود انه قال: مامن آية إلا وقد عمل بها قوم ولها قوم

---

١. البحار ج ١٩ ص ٣٠ و ٩٣ـ ٩٤ و ٢٥. البرهان ج ١ ص ٢٠ ـ ٢١. الصافي ج ١ ص ١٤ و ١٧.

٢. قال الفيض (ره) المطلع بتشديد الطاء وفتح اللام مكان الاطلاع من موضع عال ويجوز أن يكون بوزن مصعد بفتح الميم ومعناه: أي مصعد يصعد إليه من معرفة علمه ومحصل معناه قريب من معنى التأويل والبطن، كما أن معنى الحد قريب من معنى التنزيل والظهر «انتهى»

٣. سورة آل عمران: الآية ٧.

٤. البحار ج ١٩ ص ٩٤. البرهان ج ١ ص ٢٠. الصافي ج ١ ص ١٧ ـ ١٨.

٥. وفي نسخة البرهان « وأوسطها وآخرها ». البحار ج ١٩ ص ٩٤ و ٢٥. البرهان ج ١ ص ٢٠. الصافي ج ١ ص١٧ ـ ١٨.

٦. البحار ج ١٩ ص ٩٤ و ٢٥. البرهان ج ١ ص ٢٠. الصافي ج ١ ص ١٧ ـ ١٨.

٧. العياشي ج ١ ص ٢٢ ـ ٢٣.

يعملون بها.

والثالث ـ معناها أن ظاهرها لفظها وباطنها تأويلها، ذكره الطبري واختاره البلخي

والرابع ـ ماقاله الحسن البصري: انك اذا فتشت عن باطنها وقسته على ظاهرها وقفت على معناها»[1].

قال ابن تيمية في جواب، هل صح عن النبي ﷺ أنّه قال: «للقرآن باطن»: «أما الحديث المذكور فمن الأحاديث المختلفة التي لم يروها أحد من أهل العلم، ولايوجد في شيء من كتب الحديث، ولكن يروى عن الحسن البصري[2] موقوفا أو مرسلاً أن لكل آية ظهراً وبطنا وحدا ومطلعا، وقد شاع في كلام كثير من الناس: علم الظاهر وعلم الباطن وأهل الظاهر وأهل الباطن، ودخل في هذه العبارات حق وباطل.

وقد بسط هذا في غير هذا الموضع، لكن نذكر هنا جملا من ذلك فنقول:

المراد بعلم الباطن:

قول الرجل: «الباطن» إما أن يريد علم الأمور الباطنة مثل: العلم بما في القلوب من المعارف والأحوال، والعلم بالغيوب التي أخبرت بها الرسل وإما أن يريد به العلم الباطن، أي الذي يبطن عن فهم أكثر الناس، أوعن فهم من وقف مع الظاهر ونحوذلك.

فأما الأول فلاريب أن العلم منه مايتعلق بالظاهر كأعمال الجوارح، ومنه مايتعلق بالباطن كأعمال القلوب ومنه ماهو علم بالشهادة، وهوما يشهده الناس بحواسهم. ومنه مايتعلق بالغيب وهو ماغاب عن إحساسهم.

وأصل الإيمان هو الإيمان بالغيب[3]، كما قال تعالى: ﴿ **الٓمٓ، ذلك الكتاب لاريب فيه**

---

١. التبيان ج ١ ص ٩.

٢. هو الحسن بن يسار البصري، أبوسعيد: تابعي، وتوفي عام ١١٠ هـ. راجع تهذيب التهذيب، ووفيات الأعيان، وميزان الإعتدال ج ١ ص ٢٥٤ وحلية الأولياء ج ٢ ص ١٣١.

٣. الإيمان بالغيب: هو العتبة التي يجتازها الإنسان فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لايدرك إلا ما تدركه الحواس الى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس. أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس. وهي نقله بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود، وفي إحساسه بالكون، وماوراء الكون من قوة وتدبير. كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض. فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير ⇐

هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ﴾ (١) والغيب الذي

يؤمن به ماأخبرت به الرسل من الأمور العامة، ويدخل في ذلك الإيمان بالله وأسمائه وصفاته وملائكته، والجنة والنار فالإيمان بالله وبرسله وباليوم الآخر يتضمن الإيمان بالغيب، فإن وصف الرسالة هو من الغيب، وتفصيل ذلك هو الإيمان بالله وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر، كما ذكرالله تعالى ذلك في قوله: ﴿ ولكن البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ (٢).

وقال: ﴿ ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾(٣) والعلم بأحوال القلوب، كالعلم بالاعتقادات الصحيحة، والفاسدة، والإرادات الصحيحة والفاسدة، والعلم بمعرفة الله ومحبته (٤) والإخلاص (٥) له وخشيته، والتوكل (٦) عليه، والرجاء له، والحب فيه والبغض فيه، والرضا بحكمه والإنابة إليه، والعلم بمايحمد ويذم من أخلاق النفوس، كالسخاء، والحياء، والتواضع، والكبر والعجب، والفخر، والخيلاء. وأمثال ذلك من العلوم المتعلقة بأمور باطنة في القلوب ونحوه ـ قد يقال له: علم الباطن أي علم بالأمر الباطن، فالمعلوم هو الباطن، وأما العلم الظاهر فهو ظاهر يتكلم به ويكتب، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة، وكلام السلف وأتباعهم، بل غالب آي القرآن هومن هذا العلم، فإن الله أنزل القرآن ﴿ وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ (٧) بل هذا العلم هو العلم بأصول الدين فإن اعتقاد القلب أصل لقول اللسان، وعمل القلب أصل

⇐ الذي تدركه بديهته وبصيرته. لقد كان الايمان بالغيب هو مفرق الطريق في ارتقاء الإنسان عن عالم البهيمة. ولكن جماعة الماديين في هذا الزمان كجماعة الماديين في كل زمان، يريدون أن يعودوا بالإنسان القهقرى، الى عالم البهيمة الذي لا وجود فيه لغير المحسوس. ويسمون هذه تقدمية وهو النكسة التي وقى الله المؤمنين إياها. فجعل صفتهم المميزة صفة ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ والحمدلله على نعمائه والنكسة للمتنكسين والمرتكسين. في ظلال القرآن ج ١ ص ٤٠.

١. سورة البقرة: الآية ١ ـ ٣. ٢. سورة البقرة: الآية ١٧٧.

٣. سورة النساء: الآية ١٣٦.

٤. قال تعالى: ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ سورة آل عمران: الآية ٣١.

٥. قال تعالى: ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ سورة البينة: الآية ٥.

٦. قال تعالى: ﴿ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾ سورة الأحزاب: الآية ٣.

٧. سورة يونس: الآية ٥٧.

لعمل الجوارح والقلب هو ملك البدن، كما قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ القلب ملك والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده».

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب»[1].

ومن لم يكن له علم بما يصلح باطنه ويفسده، ولم يقصد صلاح قلبه بالإيمان، ودفع النفاق كان منافقاً إن أظهر الإسلام، فإن الإسلام يظهره المؤمن والمنافق وهو علانية، والإيمان في القلب كما في المسند عن النبي ﷺ أنه قال: «الاسلام علانية والإيمان في القلب»[2] وكلام الصحابة والتابعين، والأحاديث والآثار، في هذا أكثر منها في الإجارة، والشفعة، والحيض، والطهارة، بكثير كثير، ولكن هذا العلم ظاهر موجود مقول باللسان، مكتوب في الكتب، ولكن من كان بأمور القلب أعلم كان أعلم به، وأعلم بمعاني القرآن والحديث، وعامة الناس يجدون هذه الأمور في أنفسهم ذوقاً ووجدا فتكون محسوسة لهم بالحس الباطن، لكن الناس في حقائق الإيمان متفاضلون تفاضلا عظيما، فأهل الطبقة العليا يعلمون حال أهل السفلى من غير عكس، كما أن أهل الجنة في الجنة ينزل الأعلى إلى الأسفل، ولا يصعد الأسفل إلى الأعلى، والعالم يعرف الجاهل، لأنه كان جاهلاً، والجاهل لا يعرف العالم لأنه لم يكن عالماً، فلهذا كان في حقائق الإيمان الباطنة، وحقائق أنباء الغيب التي أخبرت بها الرسل مالا يعرفه إلا خواص الناس فيكون هذا العلم باطناً من جهتين:

---

١. الحديث أخرجه البخاري في كتاب الايمان ٣٩ باب فضل من استبرأ لدينه، ٥٢ بسنده عن النعمان بن بشير بلفظ «الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات لايعلمها كثير من الناس فمن اتق الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه ألا وإن في الجسد مضغة إذ صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب».
وأخرجه مسلم في كتاب المساقاة ١٠٧ وابن ماجه في كتاب الفتن ١٤ باب الوقوف عند الشبهات ٣٩٨٤ ـ بسنده عن النعمان بن بشير بلفظ البخاري، والدارمي في البيوع ١.

٢. الحديث أخرجه أحمد في المسند ٣: ١٣٤ ـ ١٣٥ (حلبي) بسند: حدثنا بهز حدثنا علي بن مسعدة. ثنا قتادة عن أنس، قال رسول الله ﷺ يقول: الاسلام علانية والايمان في القلب. قال: ثم يشير بيده الى صدره ثلاث مرات ثم يقول: التقوى ههنا، التقوى ههنا».

من جهة كون المعلوم باطناً، ومن جهة كون العلم باطناً لا يعرفه أكثر الناس، ثم إن هذا الكلام في هذا العلم يدخل فيه من الحق والباطل ما لا يدخل في غيره، فما وافق الكتاب والسنة فهو حق [١]، وما خالف ذلك فهو باطل كالكلام في الأمور الظاهرة.

علم الباطن الذي يبطن عن أكثر الناس علمه:

وأما إذا أريد بالعلم الباطن الذي يبطن عن أكثر الناس، أو عن بعضهم، فهذا على نوعين:

أحدهما: باطن يخالف العلم الظاهر [٢]، والثاني: لا يخالفه، فأما الأول فباطل، فمن ادعى علماً باطناً، أو علماً بباطن وذلك يخالف العلم الظاهر كان مخطئاً، إما ملحداً زنديقاً، وإما جاهلاً ضالاً.

وأما الثاني: فهو بمنزلة الكلام في العلم الظاهر قد يكون حقاً، وقد يكون باطلاً، فإن الباطن إذا لم يخالف الظاهر لم يعلم بطلانه من جهة مخالفته للظاهر المعلوم، فإن علم أنه حق قبل، وإن علم أنه باطل رد وإلا أمسك عنه.

أركان الاسلام في اعتقاد الباطنية:

وأما الباطن المخالف للظاهر المعلوم فمثل ما يدعيه الباطنية القرامطة [٣] من الاسماعيلية والنصيرية [٤] وأمثالهم ممن وافقهم من الفلاسفة وغلاة المتصوفة

---

١. إن الطرق شتى، والمسالك مختلفة ومتباينة، وعقل الإنسان قاصر وتفكيره محدود إذا ابتعد عن دائرة الوحي، واتخذ هواه له طريقاً، ومن أجل هذا فالميزان الذي توزن به أعمال المسلمين، ومنهجهم الذي يسيرون عليه ـ هو الكتاب والسنة فما وافق هذين الأصلين فهو مقبول وماتعارض مع كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فهو مرفوض وصدق ربي في قوله: ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا﴾ سورة الكهف: الآية ٥.

٢. من العلم الظاهر ما جاءت به الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم أجمعين:

٣. القرامطة فرقة تنسب الى حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط، تتلمذ على حسين الأهوازي رسول عبدالله بن ميمون القداح، اتخذ لنفسه داراً للهجرة قريباً من الكوفة، ويشترك مع الباطنية في كثير من العقائد الباطلة، وكثيراً ماشن الغارات على المسلمين بقصد إضعاف دولتهم وكان لدعوة القرامطة أثر كبير في إثارة الفتنة في العالم الإسلامي، ويكفي أن يعلم أنهم سرقوا الحجر الأسود من مكانه في مكة ونقلوه الى مكان آخر في البحرين في القرن الثالث الهجري، ليبطلوا بذلك فريضة الحج إلى مكة [راجع مقالات الأشعري ج ١ ص ٢٦، والفرق بين الفرق ص ١٦٩ ـ ١٧٣ ودائرة المعارف الاسلامية مادة حمدان قرمط].

٤. النصيرية: هي إحدى الفرق الباطنية، تقيم شمال الشام قبل طائفة الدروز في لبنان، وهم من غلاة الشيعة، وموطنهم جبل النصيرية، وهو جزء من لبنان وتمتد بلادهم الى سهل حماه، وحمص وحلب شرقاً والى ما وراء انطاكية على حدود بلاد الأناضول شمالاً.

⇐

والمتكلمين وشر هؤلاء القرامطة، فإنهم يدعون أن للقرآن والإسلام باطناً يخالف الظاهر فيقولون: «الصلاة» المأمور بها ليست هذه الصلاة، أو هذه الصلاة إنما يؤمر بها العامة وأما الخاصة فالصلاة في حقهم معرفة أسرارنا، والصيام كتمان أسرارنا، و«الحج» السفر إلى زيارة شيوخنا المقدسين، ويقولون: إن «الجنة» للخاصة هي التمتع في الدنيا باللذات، و«النار» هي التزام الشرائع والدخول تحت أثقالها، ويقولون: إن الدابة(١) التي يخرجها الله للناس هي العالم الناطق بالعلم في كل وقت.

وإن اسرافيل الذي ينفخ في الصور هو العالم الذي ينفخ بعلمه في القلوب حتى تحيى، و «جبريل» (٢) وهو العقل الفعال الذي نفيض عنه الموجودات، والقلم: هو العقل الأول

⇐ وقد كتب المستشرق «لويس ماسينيون» عن تاريخ طائفة النصيرية وعدد معتقداتها السرية وقدمها للمسؤولين عن دائرة المعارف الاسلامية بتاريخ ٢٩ مارس ١٩٣٣هـ.

وكان مما كتبه «ماسينيون» على النصيرية:

النصيرية: اسم يطلق على فرقة شيعية متطرفة تعيش في سورية، وثمة اختلاف بين الدارسين حول اشتقاق هذا الاسم، [راجع دائرة المعارف الاسلامية مادة نصيري، وتاريخ الاسلام السياسي ج ٤ ومذاهب الاسلاميين ج ٢ ص ٤٤٥].

١. قال تعالى: ﴿ وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ سورة النمل الآية ٨٢.

٢. لعلماء اللسان في جبريل ﷺ لغات، فأما التي هي معتمدة فعشر الأول: جبريل وهي لغة أهل الحجاز: قال حسان بن ثابت:

وجبريل رسول الله فينا.

الثانية: جبريل (بفتح الجيم) وهي قراءة الحسن وابن كثير، وروي عن ابن كثير أنه قال: رأيت النبي ﷺ في النوم وهو يقرأ جبريل وميكائيل فلا أزال أقرؤهما أبداً كذلك.

الثالثة: جبرئيل (بياء بعد الهمزة مثال جبرعيل) كما قرأ أهل الكوفة وأنشدوا

شهدنا فما تلق لنا من كتيبة … مدى الدهر إلا جبرئيل أمامها

وهي لغة تميم وقيس:

الرابعة: جبرئل (على وزن جبرعل) مقصور وهي قراءة أبي بكر عن عاصم

الخامسة: مثلها وهي قراءة يحيى بن يعمر، إلا أنه شدد اللام.

السادسة: جبرائيل (بألف بعد الراء ثم همزة) وبها قرأ عكرمة.

السابعة: مثلها إلا أنه بعد الهمزة ياء. الثامنة ـ جبرييل (بياءين بغير همزة) وبها قرأ الأعمش، ويحيى بن يعمر أيضاً، التاسعة ـ جبرئين (بفتح الجيم مع همزة مكسورة بعدها ياء ونون).

العاشر: جبرين (بكسر الجيم وتسكين الياء بنون من غير همزة، وهي لغة قال الطبري: ولم يقرأ بها، وقال النحاس، وذكر قراءة ابن كثير: (لايعرف من كلام العرب (فعليل) وفيه فعليل نحو دهليز، وقطمير.

الذي تزعم الفلاسفة أنه المبدع الأول، وأن الكواكب والقمر والشمس التي رآها ابراهيم[١] هي النفس والعقل وواجب الوجود، وأن الأنهار الأربعة، التي رآها النبي ﷺ ليلة المعراج هي العناصر الأربعة، وأن الأنبياء التي رآها في السماء هي الكواكب، فآدم هو القمر، ويوسف هو الزهرة، وإدريس هو الشمس وأمثال هذه الأمور.

وقد دخل في كثير من أقوال هؤلاء كثير من المتكلمين والمتصوفين لكن أولئك القرامطة ظاهرهم الرفض وباطنهم الكفر المحض، وعامة الصوفية والمتكلمين ليسوا رافضة يفسقون الصحابة ولا يكفرونهم، لكن فيهم من هو كالزيدية الذين يفضلون علياً على أبي بكر، وفيهم من يفضل علياً في العلم الباطن كطريقة الحربي وأمثاله، ويدعون أن علياً كان أعلم بالباطن وأن هذا العلم أفضل من جهته، وأبو بكر كان أعلم بالظاهر، وهؤلاء عكس محققي الصوفية وأئمتهم، فإنهم متفقون على أن أعلم الخلق بالعلم الباطن هو أبوبكر. وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن أبا بكر أعلم الأمة بالباطن والظاهر، وحكى الإجماع على ذلك غير واحد.

نماذج من تفسير الباطنية والصوفية والفلاسفة لآيات القرآن الكريم:

وهؤلاء الباطنية قد يفسرون: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾[٢] إنه علي، ويفسرون قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾[٣] بأنهما أبو بكر وعمر. وقوله: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ﴾[٤] إنهم طلحة والزبير، و: ﴿ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾[٥] بأنها بنو أمية.

وأما باطنية الصوفية فيقولون في قوله تعالى: ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾[٦] إنه القلب. و﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾[٧] إنها النفس، ويقول أولئك: هي عائشة.

---

١. قال: ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ الى قوله: ﴿ إني بريء مما تشركون ﴾ سورة الأنعام: الآيات ٧٥ـ٧٨.

٢. سورة يس: الآية ١٢.

٣. سورة المسد: الآية ١.

٤. سورة التوبة: الآية ١٢ وعجز الآية ﴿ إنهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون ﴾.

٥. سورة الإسراء: الآية ٦٠.

٦. سورة طه: الآية ٢٤ وعجز الآية ﴿ إنه طغى ﴾.

٧. سورة البقرة: الآية ٦٧.

ويفسرون هم والفلاسفة تكليم موسى بما يفيض عليه من العقل الفعال أو غيره، ويجعلون «خلع النعلين»[١] ترك الدنيا والآخرة»[٢].

قال النيشابوري:

«وقوله ﷺ: «لكل آيةٍ ظهر وبطن» أي ظاهر وباطن، فالظاهر مايعرفه العلماء، والباطن مايخفى عليهم، فنقول في ذلك كما أمرنا ونكل علمه إلى الله تعالى، وقيل: هو أن نؤمن به باطنا كما نؤمن به ظاهرا، وقوله: «ولكل حدٍ مطلع» أى لكل طرف من حدود الله التي يوقف هنالك، ولايتجاوز عنه من مأمور أومنهي أومباح، مصعد ومأتى يؤتى منه ويفهم كما هو، أو مقدار من الثواب والعقاب يعاينه في الآخرة، ويطلع عليه كماقال عمر: لو أن لي مافي الأرض من صفراء وبيضاء لافتديت به من هول المطلع. يعني ما يشرف عليه من أمر الله بعد الموت»[٣].

قال الفيض الكاشاني (ره):

«ومن طريق العامة عن النبي ﷺ: «إن للقرآن ظهراً وبطناً وحدّاً ومطلعاً».

وعنه ﷺ: «إن القرآن أنزل على سبعة أحرف[٤] لكل آية منها ظهر وبطن ولكل حد مطلع».

وفي رواية: «ولكل حرف حد ومطلع».

وعنه ﷺ: «إن للقرآن ظهراً وبطناً ولبطنه بطن إلى سبعة أبطن».

وعن أمير المؤمنين ؑ قال: «ما من آية الا ولها أربعة معان ظاهر وباطن وحد ومطلع، فالظاهر التلاوة والباطن الفهم والحد هو أحكام الحلال والحرام والمطلع هو مراد الله من العبد بها».

ورووا أنه ؑ سئل هل عندكم من رسول الله ﷺ شيء من الوحي سوى القرآن؟ قال:

---

١. قال الله تعالى في سورة طه: الآية ١٢: ﴿إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى﴾.

٢. تفسير الكبير (ابن تيمية) ج ٢ ص ٣٩-٤٩. ٣. غرائب القرآن ج ١ ص ٢٦.

٤. قال بعض أهل المعرفة: الوجه في انحصار الأحرف في السبعة: أن لكل من الظهر والبطن طرفين فذاك حدود أربعة وليس لحد الظهر الذي من تحت مطلع لأن المطلع لايكون الا من فوق، فالحد أربعة والمطلع ثلاثة والمجموع سبعة، منه قدس سره.

« لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يعطي عبداً فهماً في كتابه » .

ورووا عن الصادق عليه السلام إنه قال : « كتاب الله على أربعة أشياء : العبارة والإشارة واللطائف والحقائق ، فالعبارة للعوام والإشارة للخواص واللطائف للأولياء والحقائق للأنبياء » .

أقول : وتحقيق القول في المتشابه وتأويله يقتضي الإتيان بكلام مبسوط من جنس اللباب وفتح باب من العلم ينفتح منه لأهله الف باب .

فنقول وبالله التوفيق : إن لكل معنى من المعاني حقيقة وروحاً وله صورة وقالب وقد تتعدد الصور والقوالب لحقيقة واحدة ، وإنما وضعت الألفاظ للحقائق والأرواح، ولوجودهما في القوالب تستعمل الألفاظ فيهما على الحقيقة لاتحاد ما بينهما، مثلا لفظ القلم إنما وضع لآلة نقش الصور في الألواح من دون أن يعتبر فيها كونها من قصب أو حديد أو غير ذلك ، بل ولا أن يكون جسماً ولاكون النقش محسوساً أو معقولاً ولاكون اللوح من قرطاس أو خشب ، بل مجرد كونه منقوشاً فيه ، وهذه حقيقة اللوح وحده وروحه ، فإن كان في الوجود شيء يستطر بواسطة نقش العلوم في ألواح القلوب فأخلق به أن يكون هو القلم ، فان الله تعالى قال : ﴿ علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم ﴾ [1]، بل هو القلم الحقيقي حيث وجد فيه روح القلم وحقيقته وحدّه من دون أن يكون معه ماهو خارج عنه ، وكذلك الميزان مثلا فإنه موضوع لمعيار تعرف به المقادير وهذا معنى واحد هوحقيقته وروحه ، وله قوالب مختلفة وصور شتّى بعضها جسماني وبعضها روحاني ، كما توزن به الأجرام والأثقال مثل ذي الكفتين والقبان وما يجري مجراهما، وماتوزن به المواقيت والارتفاعات كالأسطرلاب ، وماتوزن به الدواير والقسي كالفرجار، وماتوزن به الأعمدة كالشاقول ، وماتوزن به الخطوط كالمسطر ، وماتوزن به الشعر كالعروض وماتوزن به الفلسفة كالمنطق ، وماتوزن به بعض المدركات كالحس والخيال، وما توزن به العلوم والأعمال ، كما يوضع ليوم القيامة ، ومايوزن به الكل كالعقل الكامل إلى غير ذلك من الموازين .

وبالجملة : ميزان كل شيء يكون من جنسه . ولفظة الميزان حقيقة في كل منها باعتبار

---

١. سورة العلق : الآية ٤ ـ ٥ .

حدّه وحقيقته الموجودة فيه، وعلى هذا القياس كل لفظ ومعنى.

وأنت إذا اهتديت إلى الأرواح صرت روحانياً وفتحت لك أبواب الملكوت وأهلت لمرافقة الملأ الأعلى وحسن أولئك رفيقاً، فما من شيء في عالم الحس والشهادة الا وهو مثال وصورة لأمر روحاني في عالم الملكوت؛ وهو روحه المجرد وحقيقته الصرفة. وعقول جمهور الناس في الحقيقة أمثلة لعقول الأنبياء والأولياء فليس للأنبياء والأولياء أن يتكلموا معهم إلا بضرب الأمثال، لأنهم أمروا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم، وقدر عقولهم انهم في النوم بالنسبة إلى تلك النشأة والنائم لا ينكشف له شيء في الأغلب إلا بمثل، ولهذا من كان يعلم الحكمة غير أهلها رأى في المنام أنه يعلق الدر في أعناق الخنازير، ومن كان يؤذن في شهر رمضان قبل الفجر رأى أنه يختم على أفواه الناس وفروجهم. وعلى هذا القياس وذلك لعلاقة خفية بين النشآت، فالناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا وعلموا حقائق ماسمعوه بالمثال، وعرفوا أرواح ذلك وعقلوا أن تلك الأمثلة كانت قشوراً ،قال الله سبحانه: ﴿**أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً**﴾ [١] فمثّل العلم بالماء والقلوب بالأودية والضلال بالزبد، ثم نبه في آخرها فقال: ﴿**كذلك يضرب الله الأمثال**﴾ [٢] فكل ما لايحتمل فهمك فإن القرآن يلقيه إليك على الوجه الذي كنت في النوم مطالعاً بروحك للوح المحفوظ ليتمثل لك بمثال مناسب ذلك يحتاج إلى التعبير، فالتأويل يجري مجرى التعبير فالمفسر يدور على القشر، ولما كان الناس إنما يتكلمون على قدر عقولهم ومقاماتهم فما يخاطب به الكل يجب أن يكون للكل فيه نصيب، فالقشرية من الظاهريين لا يدركون إلا المعاني القشرية، كما أن القشر من الانسان وهو مافي الاهاب والبشرة ومن البدن لاينال الا قشر تلك المعاني وهو مافي الجلد والعلاف من السواد والصور، وأما روحها وسرها وحقيقتها فلا يدركها الا أولو الألباب وهم الراسخون في العلم، وإلى ذلك أشار النبي ﷺ في دعائه لبعض أصحابه حيث قال: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**» ولكل منهم حظ قل أم كثر وذوق نقص أوكمل، ولهم درجات في الترقي إلى أطوارها وأغوارها وأسرارها وأنوارها، وأما البلوغ للاستيفاء

---

١. سورة الرّعد: الآية ١٧.
٢. سورة الرّعد: الآية ١٧.

والوصول إلى الأقصى فلا مطمع لأحد فيه ولو كان البحر مداداً لشرحه والأشجار اقلاماً (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي ـ لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً) .

ومماذكر يظهر سبب اختلاف ظواهر الآيات والأخبار الواردة في أصول الدين ؛ وذلك لأنها مما خوطب به طوائف شتى وعقول مختلفة فيجب أن يكلم كل على قدر فهمه ومقامه، ومع هذا فالكل صحيح غير مختلف من حيث الحقيقة ولامجاز فيه أصلاً .

واعتبر ذلك بمثال العميان والفيل ـ وهو مشهور ـ وعلى هذا فكل من لم يفهم شيئاً من المتشابهات من جهة أن حمله على الظاهر كان مناقضاً ـ بحسب الظاهر ـ لأصول صحيحة دينية وعقائد حقة يقينية عنده فينبغي أن يقتصر على صورة اللفظ لايبدلها ويحيل العلم به إلى الله سبحانه والراسخين في العلم ، ثم يرصد لهبوب رياح الرحمة من عند الله تعالى ويتعرض لنفحات أيام دهره الآتية من قبل الله تعالى ؛ لعل الله يأتي له بالفتح أو أمر من عنده ويقتضي الله امراً كان مفعولا ، فان الله سبحانه ذم قوماً على تأويلهم المتشابهات بغير علم فقال سبحانه : ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ومايعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم﴾[١]»[٢] .

قال البحراني (ره) في ان القرآن له ظهر وبطن :

١ ـ محمدبن الحسن الصفار ، عن محمدبن عبدالجبار ، عن محمدبن اسمعيل ، عن منصور ، عن ابن اخيه ، عن فضيل بن يسار قال : سألت ابا جعفر عليه السلام عن هذه الرواية : « ما من آية الاولها ظهر وبطن » قال : « ظهر وبطن وهو تأويله ، منه ماقد مضى ومنه مالم يجيء يجرى كما تجرى الشمس والقمر ، كلما جاء تأويل شيىء يكون على الاموات كمايكون على الاحياء ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ ومايعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم ﴾[٣]، نحن نعلمه » .

٢ ـ العياشى، عن ابى محمد الهمدانى ، عن رجل ، عن ابي عبدالله عليه السلام قال : سألته عن

---

١. سورة آل عمران : الآية ٧. ٢. الصافي ج ١ ص ٣٠ ـ ٣٤.
٣. سورة آل عمران : الآية ٧.

الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه ؟ قال : « الناسخ الثابت والمنسوخ ماmضى والمحكم مايعمل به والمتشابه الذي شبه بعضه بعضاً » .

٣ ـ عن ابى عبدالرحمن السلمى ، ان علياً عليه السلام مرّ على قاض ، فقال : « هل تعرف الناسخ والمنسوخ » ؟ فقال : لا ، فقال : « هلكت واهلكت تأويل كل حرف من القرآن على وجوه » .

٤ ـ عن ابراهيم بن عمر قال : قال ابو عبدالله عليه السلام : « ان في القرآن مامضى ومايحدث وماهو كائن ، كانت فيه اسماء الرجال فالقيت ، وانما الاسم الواحد منه في وجوه لايحصى يعرف ذلك الوصاة » »[١] .

قال الآلوسى : « ممايؤيد أن للقرآن ظاهراً وباطنا ماأخرجه ابن ابى حاتم من طريق الضحاك ، عن ابن عباس قال : القرآن ذوشجون وفنون ، وظهور وبطون ، لاتنقضى عجائبه ، ولا تبلغ غايته ، فمن أوغل فيه برفق نجا ومن أوغل فيه بعنف هوى ، أخبار وأمثال وحلال وحرام وناسخ ومنسوخ ومحكم و متشابه وظهر وبطن ، فظهره التلاوة وبطنه التأويل ، فجالسوا به العلماء وجانبوا به السفهاء .

وقال ابن مسعود : من أراد علم الأولين والآخرين فليتل القرآن ، ومن المعلوم أن هذا لايحصل بمجرد تفسير الظاهر .

وقد قال بعض من يوثق به : « لكل آية ستون الف فهم » ، وروى عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لكل آية ظهر وبطن ولكل حرف حدو لكل حد مطلع » ، قال ابن النقيب : « إن ظاهرها ماظهر من معانيها لاهل العلم بالظاهر ، وباطنها ماتضمنته من الاسرار التى أطلع الله تعالى عليها أرباب الحقائق » .

ومعنى قوله : « ولكل حرف حد » ان لكل حرف منتهى فيما أراده الله تعالى من معناه .

ومعنى قوله : « ولكل حدّ مطلع » أن لكل غامض من المعانى والاحكام مطلعا يتوصل به إلى معرفته ويوقف عن المراد به .

وقيل في رواية : « لكل آية ظهر وبطن وحد ومطلع » والمذكور بوساطة الالفاظ وتأليفاتها وضعا وإفادة وجعلها طرقا الى استنباط الاحكام الخمسة هو الظهر وروح

---

١ . البرهان في تفسير القرآن ج ١ ص ١٩ ـ ٢٠ .

الالفاظ ؛ أعنى الكلام المعتلى عن المدارك الآلية بجواهر الروح القدسية هوالبطن واليه الاشارة بقول الأمير السابق ، والحد إمابيّن الظهر والبطن يرتقى منه اليه وهو المدرك بالجمعية من الجمعية ، وإما بين البطن والمطلع فالمطلع مكان الاطلاع من الكلام النفسى إلى الاسم المتكلم المشاراليه بقول الصادق : لقد تجلى الله تعالى في كتابه لعباده ولكن لايبصرون ، والحد بينهما يرتقى به من البطن اليه عند ادراك الرابطة بين الصفة والاسم واستهلاك صفة العبد تحت تجليات أنوار صفة المتكلم تعالى شأنه .

وقيل : الظهر التفسير ، والبطن التأويل ، والحد ماتتناهى اليه الفهوم من معنى الكلام، والمطلع مايصعد اليه منه فيطلع على شهود الملك العلام ، انتهى .

فلا ينبغي لمن له أدنى مسكة من عقل بل أدنى ذرة من إيمان أن ينكر اشتمال القرآن على بواطن يفيضها المبدأ الفياض على بواطن من شاء من عباده ، ويا ليت شعرى ماذا يصنع المنكر بقوله تعالى : ﴿ **وتفصيلا لكل شيء** ﴾ [١] ، وقوله تعالى : ﴿ **ما فرطنا في الكتاب من شيء** ﴾ [٢] ؟ ويالله تعالى العجب ، كيف يقول باحتمال ديوان المتنبى وأبياته المعانى الكثيرة ولا يقول باشتمال قرآن النبى ﷺ وآياته ـ وهو كلام رب العالمين المنزل على خاتم المرسلين ـ على ماشاء الله تعالى من المعانى المحتجبة وراء سرادقات تلك المبانى؟ ﴿ **سبحانك هذا بهتان عظيم** ﴾ [٣]، بل ما من حادثة ترسم بقلم القضاء في لوح الزمان إلا وفي القرآن العظيم إشارة اليها ؛ فهو المشتمل على خفايا الملك والملكوت وخبايا قدس الجبروت .

وقد ذكر ابن خلكان في تاريخه : أن السلطان صلاح الدين لمافتح مدينة حلب أنشد القاضى محيى الدين قصيدة بائية أجاد فيها كل الاجادة وكان من جملتها :

وفتحك القلعة الشهباء في صفر　　　مبشر بفتوح القدس في رجب

فكان كما قال ، فسئل القاضى من أين لك هذا؟ فقال : أخذته من تفسير ابن برجان في قوله تعالى :﴿ **الم غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع**

---

١. سورة الانعام : الآية ١٥٤ .　　٢. سورة الانعام : الآية ٣٨ .

٣. سورة النور : الآية ١٦ .

سنين ﴾ (١)، قال المؤرخ: فلم أزل أتطلب التفسير المذكور حتى وجدته على هذه الصورة، وذكر له حساباً طويلاً وطريقاً في استخراجه وله نظائر كثيرة، ومن المشهور استنباط ابن الكمال فتح مصر على يد السلطان سليم من قوله تعالى: ﴿ **ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادى الصالحون** ﴾ (٢) فالانصاف كل الانصاف التسليم للسادة الصوفية الذين هم مركز للدائرة المحمدية ماهم عليه واتهام ذهنك السقيم فيما لم يصل لكثرة العوائق والعلائق اليه.

وإذا لم تر الهلال فسلم   لأناس رأوه بالأبصار (٣)

قال صديق حسن خان: قال النسفي في عقائده: النصوص تحمل على ظواهرها والعدول عنها إلى معان يدعيها أهل الباطن إلحاد.

وقال التفتازاني في شرحه: سميت الملاحدة باطنية لادعائهم أن النصوص ليست على ظواهرها بل لها معان باطنة.

قال صاحب مفتاح السعادة: الايمان بالقرآن هو التصديق بأنه كلام الله سبحانه قد أنزل على رسوله محمد ﷺ بواسطة جبرئيل عليه السلام، وأنه دال على صفة أزلية له سبحانه، وأن مادل هو عليه بطريق القواعد العربية مما هو مراد الله سبحانه حق لاريب فيه، ثم تلك الدلالة على مراده سبحانه بواسطة القوانين الأدبية الموافقة للقواعد الشرعية والأحاديث النبوية مراد الله تعالى، وقد ثبت في الحديث: «أن لكل آية ظهراً وبطناً» (٤)، وذلك المراد الآخر لما لم يطلع عليه كل أحد، بل من أعطى فهماً وعلماً من لدنه تعالى يكون الضابط في صحته أن لايرفع ظاهر المعاني المنفهمة عن الألفاظ بالقوانين العربية، وأن لايخالف القواعد الشرعية، ولا يباين إعجاز القرآن، ولا يناقض النصوص الواقعة فيها، فإن وجدت فيه هذه الشرائط فلا طعن فيه وإلا فهو بمعزل عن القبول» (٥).

---

١. سورة الرّوم: الآية ١ ـ ٤.   ٢. سورة الانبياء: الآية ١٠٥.

٣. روح المعاني ج ١ ص ٧ ـ ٨.

٤. قال صديق حسن خان في هامش كتابه: «أين الحديث؟ من رواه؟ من أخرجه؟ لم نجده في أي كتاب لدينا».

٥. فتح البيان ج ١ ص ١٦ ـ ١٧.

قال الجنابذي في الفرق بين الظهر والبطن :

«اعلم أنّ القرآن كلام الحق الاوّل تعالى وقد ظهر اوّل ما ظهر مطلقاً عن جميع التعيّنات الامكانيّة وبهذا الاعتبار يسمى بنفس الرحمٰن ، ولجواز اتصافه بجميع التعينات لكونه لابشرط شيء ولابشرط لا شيء يسمّى باضافته الاشراقيّة وبمقام كن ، ولظهور الغيب به بنحو الاجمال والبساطة مثل : ظهور مافي الصدور في الكلمات يسمّى بكلمته ، ولاشتماله على جميع الوجودات الامكانيّة بنحو أشرف واعلى يسمى بالقرآن، وبجمع الجمع ولكونه اعلى مقامات محمّد ﷺ الّذى هو آخر فعليّاته التى هو بها يسمى بالحقيقة المحمّدية ، ولذلك كان خُلقه القرآن ، ولمّا كان القرآن باطلاقه وكلام الله في اول ظهور لاتقوم لسماعه السماوات والسّماويّات ولا الارض والارضيّات، أُنزله تعالى عن مقام اطلاقه وحجبه بحجب التعيّنات العقليّة بمراتبها ، فصارت العقول بفعليّاتها ووجوداتها مصاديق القرآن ، ثم أنزله وحجبه بحجب التعيّنات النفسيّة فصارت النّفوس بفعليّاتها مصاديق له ، ثم انزله وحجبه بحجب التعيّنات المقداريّة النورية فصار عالم المثال بمراتبه مصاديق له ، ثم نزّله وحجبه بحجب التعيّنات الطبيعيّة فصارت الاجسام الطبيعيّة مصاديق له ، ثمّ نزّله الى انزل مراتب الوجود والبسه لباس الصّوت والحروف والكتابة والنقوش حتّى تطيقه الآذان والأبصار البشريّة فصارت الحروف والنّقوش مصاديق له ، ولكون جميع مراتب الوجود مصاديق للقرآن صار تبياناً لكل شيء ولارطب ولايابس الاكان فيه ، اذا عرفت ذلك فاعلم انّ مصاديقه المحسوسةالطبيّعيّة ظهوره ومصاديقهالرّوحانية بطونه ، وباعتبار تعدّد المراتب الرّوحانيّة كليّاتها وجزئيّاتها ذكر تعدد البطون في الاخبار الى سبعين الفاً ، ولمّا كان المنزل فيه لكل آية وامثال المنزل فيه جميعاً مصاديقها ، وكان المنزل فيه اظهر مصاديقها ورد ان لكلّ ظهر ظهراً ، ولمّا كانت كلّ مرتبة من الرّوحانيات بالنّسبة الى دانيتها بطناً ورد أنّ لكلّ بطن بطناً»[1].

قال القاسمي في معنى ما نقل : إن للقرآن ظاهرا وباطنا[2]:

« قال الشاطبي في الموافقات : من الناس من زعم أن للقرآن ظاهرا وباطنا ، وربما نقلوا

---

١. بيان السعادة ج ١ ص ١٣.

٢. سورة النساء : الآية ٧٨.

في ذلك بعض الأحاديث والآثار . فعن الحسن ، مما أرسله عن النبي ﷺ ، أنه قال : ما أنزل الله آية إلا لها ظهر وبطن ، بمعنى ظاهر وباطن ، وكل حرف حد وكل حد مطلع . وفسر بأن الظهر والظاهر هو ظاهر التلاوة ، والباطن هو الفهم عن الله لمراده ، لأن الله تعالى قال : ﴿ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ﴾ (١) . والمعنى لايفهمون عن الله مراده من الخطاب ، ولم يرد أنهم لايفهمون نفس الكلام ، كيف وهو منزل بلسانهم ؟ ولكن لم يحظوا بفهم مراد الله من الكلام ، وكان هذا هو معنى ماروى عن على أنه سئل هل عندكم كتاب ؟ فقال: «لا، إلا كتاب الله ، أوفهم أعطيه رجل مسلم ، أو مافي هذه الصحيفة (١)» . الحديث .وإليه يرجع تفسيرالحسن للحديث إذ قال : الظهر هو الظاهر والباطن هو السر .

وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً ﴾ (٢) .فظاهر المعنى شيء ، وهم عارفون به لأنهم عرب . والمراد شيء آخر ، وهو الذي لاشك فيه أنه من عندالله ، وإذا حصل التدبرلم يوجد في القرآن اختلاف البتة . فهذا الوجه الذي من جهته يفهم الاتفاق ، وينزاح الاختلاف هو الباطن المشار إليه . ولما قالوا في الحسنة: هذا من عندالله، وفي السيئة: هذا من عند رسول الله ، بيّن لهم أن كلا من عندالله ، وأنهم لايفقهون حديثاً ، لكن بين الوجه الذي يتنزل عليه أن كلا من عندالله بقوله : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ... ﴾ (٣) الآية . وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٤) فالتدبر إنما يكون لمن التفت إلى المقاصد. وذلك ظاهر أنهم أعرضوا عن مقاصد القرآن فلم يحصل منهم تدبر.

---

١ . صحيح البخاري في ص ٩٦ ـ كتاب الاعتصام ، ٥ ـ باب مايكره من التعمق والتنازع في العلم والغلو في الدين والبدع .

عن إبراهيم التيميّ قال : حدثني أبي قال : خطبنا علي رضي الله عنه على منبر من آجرّ ، وعليه سيف ، فيه صحيفة معلقة . فقال : (والله ماعندنا من كتاب يقرأ إلاكتاب الله . ومافي هذه الصحيفة . فنشرها فإذا فيها : أسنان الإبل . وإذا فيها : المدينة حرم من عير إلى كذا (وكذا يعني ثورا . كما جاء في روايات أخرى متعددة) فمن أحدث فيها حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . لايقبل الله منه صرفا ولا عدلا . وإذا فيه (كذا) : ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم . فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . لايقبل الله منه صرفا ولا عدلا . وإذا فيها : من والى قوماً بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . لايقبل الله منه صرفا ولا عدلا .

٢. سورة النساء : الآية ٨٢. ٣. سورة النساء : الآية ٧٩.

٤ . سورة محمد : الآية ٢٤.

قال بعضهم : الكلام في القرآن على ضربين : أحدهما يكون برواية ، فليس يعتبر فيها إلا النقل . والآخر يقع بفهم فليس يكون إلا بلسان من الحق إظهار حكمة عن لسان العبد ، وهذا الكلام يشير إلى معنى كلام علي .

وحاصل هذا الكلام أن المراد بالظاهر هو المفهوم العربيّ ، والباطن هو مراد الله تعالى من كلامه ، وخطابه ، فإن كان مراد من أطلق هذه العبارة مافسر ، فصحيح . ولا نزاع فيه . وإن أرادوا غير ذلك فهو إثبات أمر زائد على ماكان معلوماً عند الصحابة ومن بعدهم ، فلابد من دليل قطعي يثبت هذه الدعوى . لأنها أصل يحكم به على تفسير الكتاب ، فلا يكون ظنيا . وما استدل به إنما غايته ، إذا صح سنده ، أن ينتظم في سلك المراسيل . وإذا تقرر هذا فليرجع إلى بيانهما على التفسير المذكور بحول الله . وله أمثلة تبين معناه بإطلاق . فعن ابن عباس [١] : كان عمر يدخلني مع أصحاب النبي ﷺ . فقال له عبد الرحمن ابن عوف : أتدخله ولنا بنون مثله ؟ فقال له عمر : إنه من حيث تعلم . فسألني عن هذه الآية : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ﴾ [٢] فقلت : إنما هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه . وقرأ السورة إلى آخرها . فقال عمر : والله ما أعلم منها إلا ماتعلم .

فظاهر هذه السورة أن الله أمر نبيه ﷺ أن يسبح بحمدالله ويستغفره إذ نصره الله وفتح عليه . وباطنها أن الله نعى إليه نفسه .

ولمانزل قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ... ﴾ [٣] فرح الصحابة ، وبكى عمر وقال: مابعد الكمال إلا النقصان . مستشعراً نعيه ﷺ . فما عاش بعدها إلا أحدا وثمانين يوماً. وقال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ ... ﴾ [٤] الآية . قال الكفار : ما بال العنكبوت والذباب يذكر في القرآن .

ماهذا الكلام لِإِلٍّ فنزل : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [٥] فأخذوا بمجرد الظاهر ، ولم ينظروا في المراد . فقال تعالى :﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ

---

١. صحيح البخاري في ص ٦٥ ـ كتاب التفسير . ١١ ـ سورة اذا جاء نصر الله .
٢. سورة النّصر : الآية ١ . ٣. سورة المائدة : الآية ٣ .
٤. سورة العنكبوت : الآية ٤١ . ٥. سورة البقرة : الآية ٢٦ .

الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ...﴾[١] الآية .

ويشبه مانحن فيه نظر الكفار للدنيا واعتدادهم منها بمجرد الظاهر الذي هو لهو ولعب ، وظل زائل ، وترك ماهو المقصود منها ، وهوكونها مجازاً ومعبراً لامحل سكنى . وهذا هو باطنها على ماتقدم من التفسير .

ولما قال تعالى : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾[٢] نظر الكفار إلى ظاهر العدد . فقال أبوجهل ، فيما روى : لايعجز كل عشر منكم أن يبطشوا برجل منهم . فبيّن الله تعالى باطن الأمر بقوله : ﴿ وَمَاجَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً ...﴾[٣] ، إلى قوله : ﴿ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهٰذَا مَثَلاً ﴾[٤] .

وقال : ﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ﴾[٥] ، فنظروا إلى ظاهر الحياة الدنيا . وقال تعالى : ﴿وَللهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ...﴾[٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ...﴾ [٧] الآية . لما نزل القرآن ، الذي هو الهدى للناس ورحمة للمحسنين ناظره الكافر النضربن الحرث بأخبار فارس والجاهلية ، أو بالغناء ، فهذا هو عدم الاعتبار لباطن ماأنزل الله .

وقال تعالى في المنافقين :﴿ لأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ...﴾ [٨] وهذا عدم فقه منهم . لأن من علم أن الله هو الذي بيده ملكوت كل شيء ، وأنه هو مصرف الأمور ، فهو الفقيه . ولذلك قال تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَيَفْقَهُونَ﴾[٩] .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَيَفْقَهُونَ ﴾ [١٠] لأنهم نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحده ثم انصرفوا.

فاعلم أن الله تعالى إذا نفى الفقه أو العلم عن قوم فذلك لوقوفهم مع ظاهر الأمر وعدم اعتبارهم للمراد منه . وإذا ثبت ذلك فهو لفهمهم مراد الله من خطابه ، وهو باطنه .

---

١. سورة البقرة : الآية ٢٦.
٢. سورة المدثر : الآية ٢٧ ـ ٣٠.
٣. سورة المدثر : الآية ٣١.
٤. سورة المدثر : الآية ٣١.
٥. سورة المنافقون : الآية ٨.
٦. سورة المنافقون : الآية ٨.
٧. سورة لقمان : الآية ٦.
٨. سورة الحشر : الآية ١٣ .
٩. سورة الحشر : الآية ١٣ .
١٠. سورة التوبة : الآية ١٢٧ .

ثم قال الشاطبي :

فكل ماكان من المعاني العربية التى لاينبنى فهم القرآن إلا عليها فهو داخل تحت الظاهر . فالمسائل البيانية ، والمنازع البلاغية لامعدل بها عن ظاهر القرآن ، فإذا فهم الفرق بيْن ضيق في قوله تعالى : ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً...﴾ (١) وبيْن ضائق في قوله: ﴿ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ...﴾ (٢) والفرق بيْن النداء : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، وياأيها الذين كفروا ﴾ وبيْن النداء : ﴿ يا أيها الناس ، أو يا بنى آدم ﴾ ، والفرق بيْن ترك العطف في قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ ...﴾ (٣) ، والعطف في قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَالْحَدِيثِ...﴾ (٤) وكلاهما قد تقدم عليه وصف المؤمنين ، والفرق بيْن تركه أيضاً في قوله :﴿ مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا...﴾ (٥) وبيْن الآية الاخرى ﴿ وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ (٦) .... واشباه ذلك من الأمور المعتبرة عند متأخرى أهل البيان ، فإذا حصل فهم ذلك كله على ترتيبه في اللسان العربي ، فقد حصل فهم ظاهر القرآن .... وكل ماكان من المعانى التى تقتضى تحقيق المخاطب بوصف العبودية والإقرار لله بالربوبية ، فذلك هو الباطن المراد والمقصود الذي أنزل القرآن لأجله . ويتبين ذلك بالشواهد المذكورة آنفا .

ومن ذلك أنه لما نزل : ﴿ مَن ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرةً...﴾ (٧) . قال أبوالدحداح : إن الله كريم استقرض منا ما أعطانا. هذا معنى الحديث، وقالت اليهود : إن الله فقير ونحن أغنياء . ففهم أبو الدحداح هو الفقه وهو الباطن المراد . وفي رواية قال أبو الدحداح : يستقرضنا وهو غنيّ . فقال ﷺ :نعم ليدخلكم الجنة . وفي الحديث قصة(٨) .

---

١. سورة الانعام : الآية ١٢٥ .
٢. سورة هود : الآية ١٢ .
٣. سورة البقرة : الآية ٦ .
٤. سورة لقمان : الآية ٦
٥. سورة الشعراء : الآية ١٥٤ .
٦. سورة الشعراء : الآية ١٨٦ .
٧. سورة البقرة : الآية ٢٤٥ .
٨. وهذه قصة أبي الدحداح ذكرها الحافظ ابن كثير في تفسيره . الجزء الرابع ص ٣٠٧ ونصها :
قال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة . حدثنا خلف بن خليفة عن حميد الأعرج عن عبدالله بن الحارث عن عبدالله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له ﴾ قال أبو الدحداح الأنصارى : يارسول الله ، وإن الله ليريد منا القرض ؟ قال : نعم . ياأبا الدحداح . قال : أرنى يدك يا رسول الله ، ⇐

وفهم اليهود لم يزد على مجرد القول العربيّ الظاهر ، ثم حمل استقراض الرب الغنى على استقراض العبد الفقير ، عافانا الله من ذلك .

وتجرى هنا مسائل الحيل أمثلة لهذا المعنى . لأن من فهم باطن ماخوطب به لم يحتل على أحكام الله حتى ينال منها بالتبديل والتغيير ، ومن وقف مع مجرد الظاهر غير ملتفت إلى المعنى المقصود اقتحم هذه المتاهات البعيدة . وكذلك تجرى مسائل المبتدعة أمثلة أيضا ، وهم الذين يتبعون ماتشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، كماقال الخوارج لعليّ : إنه حكم الخلق في دين الله والله يقول : ﴿إن الحكم إلا لله ﴾ [1] . وقالوا : إنه محا نفسه من إمارة المؤمنين فهو إذاً أمير الكافرين . وقالوا لابن عباس : لاتناظروه فإنه ممن قال الله فيهم : ﴿ بل هم قوم خصمون ﴾ [2] . وكما زعم أهل التشبيه في صفة البارى ، حين أخذوا بظاهر قوله: ﴿ تجري بأعيننا ﴾[3]، ﴿مما عملت أيدينا﴾[4]، ﴿وهوالسميع البصير﴾ [5]، ﴿ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[6] . وحكموا مقتضاه بالقياس على المخلوقين فأسرفوا ماشاءوا . فلو نظر الخوارج أن الله تعالى قد حكم الخلق في دينه في قوله : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾[7] .

وقوله : ﴿ فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ﴾ [8] ، لعلموا أن قوله : إن الحكم إلا لله ، غير مناف لما فعله علي ، وأنه من جملة حكم الله . فإن تحكيم الرجال يرجع به الحكم لله وحده ، فكذلك ماكان مثله مما فعله على . ولو نظروا إلى أن محو الاسم من أمرٍ لايقتضى إثباته لضده ، لما قالوا إنه أمير الكافرين . وهكذا المشبهة لو حققت معنى قوله :

⇐ قال فناوله يده .قال : فإنى قد أقرضت ربى حائطى . وله حائط فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها . قال فجاء أبو الدحداح فناداها : ياأم الدحداح ! قالت : لبيك . قال : اخرجى فقد أقرضته ربى عز وجل . وفي رواية أنها قالت له : ربح بيعك ياأبا الدحداح . ونقلت منه متاعها وصبيانها .

وإن رسول الله ﷺ قال : « كم من عذق رداح ، في الجنة لأبى الدحداح » وفي لفظ « رب نخلة مدلاة ، عروقها در وياقوت لأبى الدحداح في الجنة » .

١. سورة الانعام : الآية ٥٧ . و سورة يوسف : الآية ٤٠ . وسورة يوسف : الآية ٦٧ .
٢. سورة الزخرف : الآية ٥٨ .
٣. سورة القمر : الآية ١٤ .
٤. سورة يس : الآية ٧١ .
٥. سورة الشورى : الآية ١١ .
٦. سورة الزمر : الآية ٦٧ .
٧. سورة المائدة : الآية ٩٥ .
٨. سورة النساء : الآية ٣٥ .

﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ في الآيات المذكورة، لفهموا بواطنها، وإن الرب منزه عن سمات المخلوقين. وعلى الجملة: فكل من زاغ ومال عن الصراط المستقيم، فبمقدار مافاته من باطن القرآن فهماً وعلماً. وكل من أصاب الحق وصادف الصواب فعلى مقدار ماحصل له من فهم باطنه.

قاعدة في أنه كل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربى فليس من علوم القرآن في شيء.

قال الشاطبيّ: كون الظاهر هوالمفهوم العربى مجرداً، لاإشكال فيه. لأن المؤالف والمخالف اتفقوا على أنه منزل بلسان عربى مبين. وقال سبحانه: ﴿ **ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر** ﴾ ثم رد الحكاية عليهم بقوله: ﴿ **لسان الذي يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين** ﴾ [١]. وهذا الرد على شرط الجواب في الجدل. لأنه أجابهم بما يعرفون من القرآن الذي هو بلسانهم. والبشر، هنا، حبر. وكان نصرانيا. فأسلم. أو سلمان، وقد كان فارسيا فأسلم. أو غيرهما ممن كان لسانه غير عربى باتفاق منهم. وقال تعالى: ﴿ **ولو جعلناه قرءاناً أعجميا لقالوا لو لا فصلت آياته ءأعجمى وعربى** ﴾ [٢]. وقد علم أنهم لم يقولوا شيئا من ذلك. فدل على أنه عندهم عربىّ. وإذا ثبت هذا فقد كانوا فهموا معنى ألفاظه من حيث هو عربى فقط، وإن لم يتفقوا على فهم المراد منه. فلا يشترط في ظاهره زيادة على الجريان على اللسان العربى. فإذا كل معنى مستنبط من القرآن، غير جار على اللسان العربىّ، فليس من علوم القرآن في شيء. لامما يستفاد منه ولا مما يستفاد به. ومن ادعى فيه ذلك فهو في دعواه مبطل.

ثم قال الشاطبىّ:

وكون الباطن هو المراد من الخطاب قد ظهر أيضاً مما تقدم في المسألة قبلها، ولكن يشترط فيه شرطان: أحدهما: أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر في لسان العرب ويجرى على المقاصد العربية. والثاني: أن يكون له شاهد نصاً أو ظاهراً في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض.

---

١. سورة النحل: الآية ١٠٣.
٢. سورة فصلت: الآية ٤٤.

فأما الأول : فظاهر من قاعدة كون القرآن عربيا . فإنه لو كان له فهم لا يقتضيه كلام العرب لم يوصف بكونه عربيا بإطلاق . ولأنه مفهوم يلصق بالقرآن ، ليس في ألفاظه ولا في معانيه مايدل عليه . وما كان كذلك فلا يصح أن ينسب إليه أصلاً ؛ إذ ليست نسبته إليه على أنه مدلوله أولى من نسبة ضده إليه ، ولا مرجح يدل على أحدهما . فإثبات أحدهما تحكم وتقول على القرآن ظاهر . وعند ذلك يدخل قائله تحت إثم من قال في كتاب الله بغير علم. والأدلة المذكورة ، في أن القرآن عربي ، جارية هنا .

وأما الثاني : فلأنه إن لم يكن له شاهد في محل آخر ، أو كان له معارض ، صار من جملة الدعاوى التي تدعى على القرآن ، والدعوى المجردة غير مقبولة باتفاق العلماء . وبهذين الشرطين يتبين صحة ماتقدم إنه الباطن ، لأنهما موفران فيه ، بخلاف مافسر به الباطنية ، فإنه ليس من علم الباطن ، كما أنه ليس من علم الظاهر ، فقد قالوا في قوله تعالى : ﴿ وورث سليمان داود﴾[1] ، أنه الإمام ورث النبى علمه . وقالوا في الجنابة : إن معناها مبادرة المستجيب بإفشاء السر إليه قبل أن ينال رتبة الاستحقاق . ومعنى الغسل تجديد العهد على من فعل ذلك . ومعنى الطهور هو التبرى والتنظف من اعتقاد كل مذهب سوى متابعة الإمام . والتيمم الأخذ من المأذون إلى أن يشاهد الداعى أو الإمام . والصيام الإمساك عن كشف السر ...إلى سائر مانقل من خباطهم الذي هو عين الخبال ، وضحكة السامع .نعوذ بالله من الخذلان»[2] .

قال النهاوندي (ره) في انّ للقرآن المجيد ظهراً وبطناً وبيان المراد منهما:

قد تظافرت او تواترت الرّوايات من طرق الخاصة والعامة في انّ للقرآن العظيم ظهراً وبطناً .

عن الباقر عليه السلام انّه قال في حديث : « ياجابر انّ للقرآن بطناً وللبطن بطن وظهرا وللظهر ظهر .

وعنه في رواية اخرى : « ما في القرآن آية الاّ ولها ظهر وبطن»

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله بسند عامي : « انّ للقرآن ظهراً وبطناً وحداً ومطلعا » . الى غير ذلك من

---

١. سورة النمل : الآية ١٦.

٢. محاسن التأويل ج ١ ص ٥١ ـ ٦٧.

الروايات».

والظاهر، انّ المراد من ظهر القرآن ظواهر آياته التي يفهمها كل احد من مدلولاتها المطابقيّة والالتزاميّة الظاهرة، ومن باطنه دلالاته الالتزامية الخفيّة واشاراته الايهاميّة ولطائفه ودقائقه، ومايستفاد منه بعموم العلّة او اقوائية الملاك أو خصوصيّة الكلمات والحروف أو بعلم الحساب والاعداد، فانّ كلّ واحد من هذه الطرق مما يستفاد به من الآيات علوم وفيرة هي تكون له بطون كثيرة، كما روى ان للقرآن ظهراً وبطناً ولبطنه بطن الى سبعة ابطن. وقد يطلق على ظهره التنزيل وعلى بطنه التّاويل، كما روي عن الباقر عليه السلام قال: «ظهره تنزيله وبطنه تأويله»، والى ماذكرنا من معنى الظهر والبطن اشار الصادق عليه السلام بقوله في رواية: «كتاب الله على اربعة اشياء العبارة والاشارة واللطائف والحقائق، فالعبارة للعوام والاشارة للخواص واللطائف للأولياء والحقايق للأنبياء».

وعن امير المؤمنين عليه السلام قال: «ما من آية الاولها اربعة معان ظاهر وباطن وحدّ ومطلع، فالظّاهر التّلاوة والباطن الفهم والحدّ هو احكام الحلال والحرام والمطلع هو مراد الله من العبد بها». والظاهر من قوله والباطن: الفهم، فهم ماوراء الظّاهر من العلوم الكثيرة بالطرق المذكورة المعلومة عندهم، بل يستفاد من بعض الاخبار ان علوم النبى صلى الله عليه وآله واوصيائه صلوات الله عليهم مستفادة من القرآن العظيم والقرآن مظهر للعلوم غير المتناهية الالهية ومجلاه»[1].

قال النهاوندي (ره) في دفع توهم استلزام اشتمال القرآن على البطون استعمال اللفظ في اكثر من معنى:

«قد يتوهَم المتوهّم انّه يلزم من ارادة المعاني الظاهريّة والبطون الكثيرة من الآيات ارادة المعاني الكثيرة من اللفظ الواحد في استعمال واحد، وقد تقرّر في علم الاصول عدم جوازه بل امتناعه، وبعد الاحاطة بما ذكرنا سابقاً من اختلاف جهات الدلالة واستنباط المعانى منها يندفع هذا التّوهّم؛ فانّ الانتقال من اللفظ الى المعنى واستفادة المطلب من الكلام ليس منحصراً في الدّلالة بجهة واحدة ووجه فارد، بل كلّما استعملت الجمل

---

١. نفحات الرحمن ج ١ ص ٢٨.

المركّبة من المفردات تركيباً مقيداً فهي تدلّ على معانيها الظّاهريّة مطابقة وعلى اجزائها العقليّة والخارجية تضمنا، وعلى عللها واجزاء عللها وشرائطها الى ان تنتهي الى مبدء المبادي وعلّة العلل ومعلولاتها الى ماشاء الله، التزاماً هذه النسبة الى الجملة الواحدة بالنظر الى الدلالات الثلاث مع قطع النظر عن انضمامها الى الآيات الاخر وعن الدلالات غير الكلامية، من كيفيّة الالفاظ و اعداد حروفها وساير طرق الاستفادة منها التى لايعلمها الا الرّاسخون في العلم، فبتلك الوجوه يكون لكلّ آية ظاهر وظاهرها ظاهر وباطن و باطن باطن الى ما شآء الله، وبها يجمع بين الاخبار المتنافية الواردة في تفسير بعض الآيات كالمختلفات في تفسير قوله تعالى: ﴿ ورابطوا ﴾ في آية: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴾ [1]، ففي بعضها إنّ المراد منه التوقف في الثغور وربط الخيل للتهيّؤ للجهاد، وفي بعضها الآخر أن المراد الانتظار للصّلاة بعد الصّلاة وثالث انّه لقآء الامام، فليس التّعارض بين الروايات المختلفة الواردة في تفسير آية من قبيل التّعارض الذي يجب الرّجوع فيه الى المرجّحات المنصوصة او غير المنصوصة وعند فقدها يلتزم بالتوقف او التخيير، فانّ الجمع الدّلالي ممكن فيها ومقدّم على المرجّحات السنّدية[2].

قال الطباطبائي (ره): «وفي تفسير العياشي عن الفضيل بن يسار قال: سألت أبا جعفرعليه السلام عن هذه الرواية: ما في القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن، وما فيه حرف إلا وله حد ولكل حد مطلع، مايعني بقوله: ظهر وبطن؟ قال: «ظهره تنزيله وبطنه تأويله، منه مامضى ومنه مالم يكن بعد، يجري كما تجري الشمس والقمر، كلما جاء منه شيء وقع، قال الله: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ﴾[3]، نحن نعلمه».

أقول: الرواية المنقولة في ضمن الرواية هي ماروته الجماعة عن النبيصلى الله عليه وآله بألفاظ مختلفة وإن كان المعنى واحداً، كما في تفسير الصافي عن النبى صلى الله عليه وآله: «إن للقرآن ظهراً وبطناً وحداً ومطلعاً. وفيه عنه صلى الله عليه وآله أيضاً: «إن للقرآن ظهراً وبطناً ولبطنه بطناً الى سبعة أبطن».

---

١. سورة آل عمران: الآية ٢٠٠.
٢. نفحات الرحمن ج ١ ص ٣٠ـ ٣١
٣. سورة آل عمران: الآية ٧.

وقوله عليه السلام : «منه مامضى ومنه مايأتي»، ظاهره رجوع الضمير الى القرآن باعتبار اشتماله على التنزيل والتأويل، فقوله : «يجري كما تجري الشمس والقمر» يجري فيهما معاً، فينطبق في التنزيل على الجري الذي اصطلحت عليه الأخبار في انطباق الكلام بمعناه على المصداق كانطباق قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ (١)، على كل طائفة من المؤمنين الموجودين في الأعصار المتأخرة عن زمان نزول الآية، وهذا نوع من الانطباق، وكانطباق آيات الجهاد على جهاد النفس، وانطباق آيات المنافقين على الفاسقين من المؤمنين، وهذا نوع آخر من الانطباق أدق من الأول، وكانطباقها وانطباق آيات المذنبين على أهل المراقبة والذكر والحضور في تقصيرهم ومساهلتهم في ذكر الله تعالى، وهذا نوع آخر أدق من ماتقدمه، وكانطباقها عليهم في قصورهم الذاتي عن أداء حق الربوبية، وهذا نوع آخر أدق من الجميع.

ومن هنا يظهر أولاً : أن للقرآن مراتب من المعاني المرادة بحسب مراتب أهله ومقاماتهم، وقد صور الباحثون عن مقامات الإيمان والولاية من معانيه ماهو أدق مماذكرناه.

وثانياً : أن الظهر والبطن أمران نسبيان، فكل ظهر بطن بالنسبة الى ظهره وبالعكس كمايظهر من الرواية التالية.

وفي تفسير العياشي عن جابر قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن شيء من تفسير القرآن فأجابني، ثم سألته ثانية فأجابني بجواب آخر، فقلت : جعلت فداك كنت أجبت في المسألة بجواب غير هذا قبل اليوم ! فقال : « يا جابر إن للقرآن بطناً وللبطن بطن، وظهراً وللظهر ظهر، ياجابر وليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن، إن الآية تكون أولها في شيء وأوسطها في شيء، وآخرها في شيء وهو كلام متصل ينصرف على وجوه ».

وفيه أيضاً عنه عليه السلام في حديث قال : « ولو أن الآية إذا نزلت في قوم ثم مات اولئك القوم ماتت الآية لما بقي من القرآن شيء، ولكن القرآن يجري أوله على آخره مادامت

---

١. سورة التوبة : الآية ١١٩.

السماوات والأرض ، ولكل قوم آية يتلونها هم منها من خير أو شر ».

وفي المعاني عن حمران بن أعين قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن ظهر القرآن وبطنه فقال : « ظهره الذين نزل فيهم القرآن ، وبطنه الذين عملوا بأعمالهم ، يجرى فيهم مانزل في أولئك ».

وفي تفسير الصافي عن عليّ عليه السلام : « ما من آية إلا ولها أربعة معان : ظاهر وباطن وحد ومطلع ، فالظاهر التلاوة ، والباطن الفهم ، والحد هو أحكام الحلال والحرام ، والمطلع هو مراد الله من العبد بها ».

اقول : المراد بالتلاوة ظاهر مدلول اللفظ بدليل أنه عليه السلام عده من المعاني ، فالمراد (بالفهم) في تفسيره الباطن ماهو في باطن الظاهر من المعنى ، والمراد بقوله : «هو أحكام الحلال والحرام» ظاهر المعارف المتلقاة من القرآن في أوائل المراتب أو أوسطها في مقابل المطلع الذي هو المرتبة العليا ، و الحد والمطلع نسبيان كما أن الظاهر والباطن نسبيان كما عرفت فيماتقدم ، فكل مرتبة عليا هي مطلع بالنسبة إلى السفلى .

والمطلع إما بضم الميم وتشديد الطاء وفتح اللام اسم مكان من الاطلاع ، او بفتح الميم واللام وسكون الطاء اسم مكان من الطلوع، وهو مرادالله من العبد بها كما ذكره عليه السلام .

وقد وردت هذه الامورالأربعة في النبوي المعروف هكذا : « إن القرآن انزل على سبعة أحرف ، لكل آية منها ظهر وبطن ولكل حد مطلع ». وفي رواية : « ولكل حد ومطلع ».

ومعنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «ولكل حد مطلع» على مافي إحدى الروايتين : أن لكل واحد من الظهر والبطن الذي هو حد مطلع يشرف عليه ، هذا هوالظاهر ، ويمكن أن يرجع إليه ما في الرواية الاخرى : «ولكل حد ومطلع» بأن يكون المعنى : ولكل منهما حد هو نفسه ومطلع وهو ماينتهي إليه الحد فيشرف على التأويل ،لكن هذا لايلائم ظاهراً مافي رواية علي عليه السلام : «ما من آية إلا ولها أربعة معان» « إلخ » إلا أن يراد أن لها أربعة اعتبارات من المعنى وإن كان ربما انطبق بعضها على بعض .

وعليهذا فالمتحصل من معاني الامور الأربعة : أن الظهر هوالمعنى الظاهر البادى من الآية ، والباطن هو الذي تحت الظاهر سواء كان واحداً أو كثيراً ، قريباً منه أو بعيداً بينهما

واسطة ، والحد هو نفس المعنى سواء كان ظهراً أو بطناً ، والمطلع هو المعنى الذي طلع منه الحد وهو بطنه متصلاً به، فافهم[١]».

قال الصادقي في الظاهر والباطن :

« ظاهر القرآن هو اللائح من المعنى المطابقي حسب قانون الأدب اللفظي، نصّاً أو ظاهراً مستقراً ، والباطن هو الإشارة واللطيفة والحقيقة ، وهذه مراحل اربع وكما يرويه الامام الحسين عن ابيه علي امير المؤمنين عليه السلام : « كتاب الله على أربعة أشياء على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق ، فالعبارة للعوام والإشارة للخواص واللطائف للأولياء والحقايق للانبياء » ولعل الحقائق هي التأويلات : المآخذ والنتائج كما يأتي حول آية التأويل .

فالعبارة هي المعبرة عن المعنى الظاهر دون مجرد اللفظ بلا عبارة له عن المعنى ، ولو كانت هي اللفظ لكان ثانيه المعنى دون الإشارة ، وقد ثناه بالاشارة التي هي بعد المعنى ، ثم هذه العبارة المعنى تشير للخواص الى لطائف ، وهذه اللطائف قد تشير الى الحقائق وهي خاصة بأهل الوحي : أهل بيت الرسالة المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم .

إذاً فالمعاني الباطنية هي سلسلة إشارات فلطائف ثم حقائق تنبع من المعاني الظاهرية لمن شرح الله صدره بالقرآن ، عاش قلبه القرآن فعاش القرآن قلبه ، فأصبح عشيراً للوحي القرآني[٢].

---

١. الميزان ج ٣ ص ٧٢ ـ ٧٤.

٢. قال المغفور له الفيض الكاشاني في المقدمة الخامسة من تفسيره : « ان من زعم ان لا معنى للقرآن الا ما يترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حدّ نفسه ولكنه مخطىء في الحكم برد الخلق كافة الى درجته التي هي حده ومقامه ، بل القرآن والاخبار والآثار تدل على أن في معاني القرآن لارباب الفهم متسعاً بالغاً ومجالاً رحباً قال الله تعالى : «افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب أقفالها » وقال : لعلمه الذين يستنبطونه منهم » وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على احسن الوجوه » .= ثم قال : « فالصواب ان يقال : من أخلص الإنقياد لله ولرسوله وأهل البيت عليهم السلام وأخذ علمه منهم وتتبع آثارهم واطلع على جملة من أسرارهم بحيث حصل له الرسوخ في العلم والطمأنينة في المعرفة وانفتح عينا قلبه وهجم به العلم على حقائق الأمور وباشر روح اليقين واستلان ما استوعره المترفون ، وأنس بما استوحش منه الجاهلون وصحب الدنيا ببدن روحه معلقة بالمحل الاعلى ، فله ان يستفيد من القرآن بعض غرائبه ويستنبط منه نبذاً من عجائبه ، ليس ذلك من كرم الله تعالى بغريب ولا من جوده بعجيب ، فليست السعادة وقفاً على قوم دون آخرين وقد عدوا جماعة من اصحابهم المتصفين بهذه الصفات من انفسهم قالوا : (سلمان منا اهل البيت) .

فـليست الإشـارات إلاّ مـن مشـيرات المـعاني الواسـعة لمـن شـرح الله صـدره، ولا اللطائف إلاّ من هذه الإشارات، درجات تلو بعض لمن يتدرج اليها بـمدارج التدبير ولطيف التفكير وواسع الصدر، دون فوضى ادّعاء لكل من يهوى ما يهواه فيسميه إشارة او لطيفة او حقيقة!.

فليتجنب المفسر عن استعمال القياس في القرآن ـ فـ« من نصب نفسه للقياس لم يزل دهره في التباس ومن دان الله بالرأي لم يزل دهره في ارتماس»[1] ـ « مائلاً عن المنهاج، طاعناً في الاعوجاج، ضالاً عن السبيل، قائلاً غير الجميل »[2].

وفي الصادقي عليه السلام: « إن للقرآن بطناً وللبطن ظهراً وليس شيء أبعد من عقول الرجال منه، إن الآية لتنزل أولها في شيء وأوسطها في شيء وآخرها في شيء وهو كلام متصل ينصرف على وجوه »[3].

وفي النبوي صلى الله عليه وآله وسلم: « ان للقرآن ظهراً وبطناً ولبطنه بطناً إلى سبعة أبطن» وهذه السبعة ـ كما في الصادقي عليه السلام هي ادنى ماللإمام ان يفتي على سبعة وجوه ـ ثم قال: « هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب »[4].

وفي الباقري عليه السلام: « إن للقرآن بطناً وللبطن بطناً وظهراً وللظهر ظهراً »[5].

وهكذا يشار الى مراتب البطون، ان الظهر الاول ظهر لأولى البطون وهذا البطن ظهر للبطن الثاني والثاني ظهر للثالث، فكل بطن ظهر لما بعده وبطن لما قبله، سلسلة تنبؤات وخواطر متدرجة تنبع من منبع النص والظاهر القرآني.

وفي العلوي عليه السلام: « ان الله جل ذكره لسعة رحمته ورأفته بخلقه، وعلمه بما يحدثه المبطلون من تغيير كلامه قسم كلامه ثلاثة أقسام، فجعل قسماً منه يعرفه العالم والجاهل، وقسماً لايعرفه إلاّ من صفى ذهنه ولطف حسه وصح تمييزه ممن شرح الله صدره للاسلام، وقسماً لايعرفه إلا الله وأنبياؤه والراسخون في العلم، وانما فعل ذلك لئلا يدعي أهل

---

١. قرب الاسناد: حدثني هارون بن مسلم قال: وحدثني مسعدة بن صدقة قال: حدثني جعفر بن محمد عن ابيه أن علياً عليه السلام قال ...

٢. المستدرك عن الامام الحسين عليه السلام.

٣. العياشي عن جابر قال قال ابو عبدالله عليه السلام يا جابر ...

٤. العياشي عن حماد بن عثمان قال: قلت لابي عبدالله عليه السلام: ان الاحاديث تختلف عنكم؟ قال: فقال عليه السلام: إن القرآن نزل على سبعة أحرف ...

٥. تفسير البرهان ونور الثقلين.

الباطل من المستولين على ميراث رسول الله ﷺ من علم الكتاب ما لم يجعله الله لهم، ويقودهم الإضطرار إلى الإئتمار لمن ولاه أمرهم ...» [١].

فتجريد الآية عن مضيقٍ من شأن نزولها هو من البطن الأول [٢]، فاذ يقول الله تعالى: ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفاراً﴾ [٣] لايحمل الآية فقط على ﴿ الذين حملوا التوراة ﴾ بل يجريها وبأحرى ـ على الذين حملوا القرآن ثم لم يحملوها فمثلهم اذا ليس فقط ـ كمثل الحمار، بل أضل سبيلاً، كما أن حمل القرآن اثقل فانه أقوم قيلاً.

إذاً فنحن المسلمين المحملين القرآن كل على حده المستطاع، كثير منا مثله كأضل سبيلاً من الحمار، من تارك حمله في علومه ومعارفه، ومن تارك تطبيقه بعد معرفته ومن ...!»

ثم وتحريرها عما تستأنسه الافهام العامة من معاني محدودة هو من البطن الثاني، وتزويدها سعة وعمقاً وايضاحاً بنظائرها من آيات هو من البطن الثالث، وتحريرها عما قبلها وما بعدها من قرائن ومتعلقات غير اصيلة من البطن الرابع، وهكذا الى بطون اخرى، رعاية لأصل الدلالة اللفظية كمنطلق، وحجج ودلالات قرآنية اخرى كوسائل للتحرير والتوسعة، معتمدين في كل ذلك على حجة من علم الكتاب أو أثارة من علم، متجنبين عما نهواه من أهواء علمية امّاهيه، لكي نبتعد عن تفسير القرآن بالرأى، وانما القرآن بالقرآن، وعلى ضوء السنة والله هو الموفق لهداه.

والقول: ان القرآن هدى للناس وهو بين لهم كلهم ومبين فلا حاجة الى التامل الزائد في تفهم معانيه أو بطون له، إنه غير متين، كما مضى في هذه الروايات وصرحت به آيات

---

١. تفسير البرهان ونور الثقلين.

٢. ومن البطن الاوّل هم الذين عملوا بمثل اعمال من نزلت الآية فيهم كما يروي عن الامام الباقر ﷺ: «ظهر القرآن الذين نزل فيهم وبطنه الذي عملوا بمثل اعمالهم» (البرهان ج ١ ص ٢٠ عن حمران بن اعين عنه ﷺ.

٣. سورة الجمعة: الآية ٥.

التفقه [١] والتدبر [٢] والتفكر [٣] والتعقل [٤] والتذكر [٥] والعلم [٦] والشعور [٧].

اجل ان القرآن بيان وتبيان وهدى للناس اذا تفقهوا وتدبروا وتفكروا وعقلوا وتذكروا وعلموا وشعروا، وأما ان يتقنوا فقط اللغة ثم يحيطوا علماً بكل معاني القرآن فلا! حيث الفرق بين الترجمة والتفسير ام ماذا؟» [٨].

قال البازوري: قال رسول الله ﷺ: «إن للقرآن ظهراً وبطناً وحدّاً ومطلعاً ...» [٩]، إن القرآن كالانسان ينقسم إلى سرّ وعلن، ولكل منهما أيضاً ظهر وبطن، ولبطنه بطن آخر ولايعلم تأويله إلا الله.

والروح الانسانية تارة تتلقى إدراك الأشياء من عالم الحس، وتارة تتلقاها من عالم التخيل والتمثيل، وتارة تتلقى المعارف بجوهرها العقلي الذي هو من حيز عالم الأمر، وتارة تأخذ المعارف الإلهية من الله بلاحجاب من عقل أو حس، فإن تصرف الحس ومايجري مجراه لمّا كان فيما هو من عالم الخلق والتقدير، وتصرف العقل لمّا كان

---

١. ﴿ انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون ﴾، ﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾.

٢. ﴿ افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها ﴾، ﴿ افلم يدبروا القول ام جاءهم مالم يأت آباءهم الاولين ﴾، ﴿كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليذكر اولوا الالباب ﴾.

٣. ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾، ﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾، ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾، ﴿ وهو الذي مد الارض وجعل فيها رواسي وانهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾، ﴿ فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾، ﴿ وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾.

٤. ﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون ﴾، ﴿ قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون ﴾، ﴿ انا انزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾، ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾.

٥. ﴿ افمن يخلق كمن لايخلق افلاتذكرون ﴾، ﴿ سورة انزلناها وفرضناها وانزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون ﴾، ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾، ﴿ ولابقول كاهن قليلاً ماتذكرون ﴾.

٦. ﴿ وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾، ﴿ افمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق كمن هو اعمى انما يتذكر اولوا الالباب ﴾، ﴿كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر اولوا الالباب ﴾.

٧. آيات تحمل تنديدات كثيرة بالذين لايشعرون ﴿ الا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾، ﴿ ومايضلون الا انفسهم ومايشعرون ﴾، ﴿وان يهلكون الاانفسهم ومايشعرون ﴾، ﴿ومايمكرون الا بانفسهم ومايشعرون ﴾.

٨. الفرقان ج ١ ص ٥١ ـ ٥٦.

٩. المطلع في اصطلاح العرفاء هو مقام شهود المتكلم عند تلاوة آياته متجلياً بالصفة التي هي مصدر تلك الآية، كما قال الصادق: (لقد تجلى الله لعباده في كلامه ولكن لايبصرون). وكان ذات يوم في الصلاة فخرّ مغشياً عليه. فسئل عن ذلك فقال: «مازلت أكرر آية حتى سمعتها من قائلها»...

فيماهومن عالم الأمر والتدبير، فالذي يكون فوق الخلق والأمر جميعاً فهو محتجب عن الحس والعقل جميعاً، فلا يدرك نور الحق إلا بنور الحق، ولا ينال إلا بقوة من له الأمر والخلق، كما ورد عن أبي عبدالله جعفربن محمد الصادق أنه قال: قال علي ﷺ: «اعرفوا الله بالله [١] والرسول بالرسالة [٢] وأولي ـ الأمر بالأمر بالمعروف ...» الحديث.

وللدلالة على تفاوت المقامات قال تعالى في صفة القرآن: ﴿إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون، لايمسه إلا المطهرون، تنزيل من رب العالمين﴾ [٣]، فذكر له أوصافا بحسب درجاته، ومقاماته، أولها وأعلاها الكرامة عند الله، وأدناها التنزل إلى هذا العالم من عند رب العالمين. ولاشك أن كلام الله من حيث هو كلامه قبل النزول إلى عالم الامر ـ وهو اللوح المحفوظ ـ وقبل نزوله إلى عالم السماء الدنيا ـ وهو لوح المحو والإثبات ـ ونزوله إلى عالم الخلق والتقدير، له مقام شامخ إلهي لايعلمه إلا الله، ولايدركه أحد من الأنبياء، إلا في مقام الأحدية عند انسلاخه عن القيود الإمكانية، وتجرده عن الكونين، وخروجه عن النشأتين، وتجاوزه عن العالمين ـ الخلق والأمر ـ وبلوغه «قاب قوسين أو أدنى» كما أخبر النبي ﷺ عن حاله: «لي مع الله وقت لايسعني فيه ملك مقرّب ولانبيّ مرسل». وللاشارة إلى هذا المقام قوله تعالى: ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ [٤]، وقوله: ﴿ لايعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله ﴾ [٥] ... وفي الحديث: «إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله». وللإشارة إلى مقام القلب المعنوي والحس الباطني قوله تعالى: ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ [٦]، وقوله حكاية عن الكفار: ﴿ لو كنا نعقل أو نسمع ماكنا في أصحاب السّعير ﴾ [٧] ... وللإشارة إلى مقام الحس الظاهر من منازل القرآن قوله: ﴿ فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾ [٨] .. وللإشارة إلى تفاوت

---

١. أي اعرفوا الله بنور وارد من عنده على قلوبكم، وتقربوا إليه حتىٰ يصدق في حقكم قوله الحق: (بي يبصر، وبي يسمع).

٢. ورد في الحديث: «إن من حفظ القرآن فقد أدرجت النبوّة بين جنبيه» وروي كذلك: «إن لله عباداً ليسوا بأنبياء يغبطهم النبيّون».

٣. سورة الواقعة: الآية ٧٧ – ٨٠.

٤. سورة آل عمران: الآية ٧.

٥. سورة النمل: الآية ٦٥.

٦. سورة ق: الآية ٣٧.

٧. سورة الملك: الآية ١٠.

٨. سورة التوبة: الآية ٦.

مقامات العلماء في درجات علمهم قوله : ﴿ نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم ﴾ [١]، وقوله : ﴿ تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض ﴾[٢] ، وقوله في حق الملائكة : ﴿ وما منّا إلا له مقام معلوم ﴾[٣] .

وبالجملة إن للقرآن درجات ومنازل كما للانسان ، وأدنى مراتب القرآن وهو مافي الجلد والغلاف كأدنى مراتب الانسان وهو مافي الإهاب والبشرة . وللقرآن في كل مرتبة ومقام حملة يحفظونه ، والقشر من الانسان لايدرك إلاّ القشور من القرآن ، وأما روح القرآن وسرّه فلا يدركه إلا أولو الألباب وذوو البصائر ، إذ حقيقة الحكمة لاتنال إلا بموهبة الله ، ولذلك قال سبحانه بعد قوله : ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾[٤] ، ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾[٥] ، وسمّى الحكمة خيراً كثيراً فقال : ﴿ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذّكر إلاّ أولوا الألباب ﴾[٦] [٧] ، [٨] .

قال الشيرازي : « ثم ان هنا ثلاثة امور » :

الأول : أن للقرآن ظهراً وبطناً ، ولبطنه بطن وهكذا ، واذا لاحظنا ذلك في التكوينيات التي خلقها الله سبحانه ظهر نوع شبه لفهم المقصود بذلك ، فمثلاً التفاح له ظهر هو قشره، وبطن هو لبه ، ولبطنه بطن هونواته ، ولنواته بطن هو مخه، وهكذا الانسان له ظهر هو جلده المرئي منه ، وله بطن هولحمه ، ولبطنه بطن هو القلب والكبد والكلية ، وكل بطن بمنزلة مخ النواة ، وفي القرآن مثلاً قال سبحانه ، ﴿ ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون ﴾[٩] فظهره هؤلاء الثلاثة في قبال موسى ﷺ ، وبطنه امثالهم في قبال محمد ﷺ ثم امثالهم في قبال علي ﷺ وهكذا ، ويؤيد هذا المعنى ما ورد من أن القرآن كالشمس تجري كل يوم ، فله انطباق في كل زمان على أفراد وأعمال وحالات .

ثم إن من الطبيعي أن يكون القرآن كذلك ، لأنه كتاب اللفظ في قبال كتاب الكون ،

---

١. سورة يوسف : الآية ٧٦.
٢. سورة البقرة : الآية ٢٥٣.
٣. سورة الصّافّات : الآية ١٦٤.
٤. سورة الجمعة : الآية ٢.
٥. سورة الجمعة : الآية ٤.
٦. سورة البقرة : الآية ٢٦٩.
٧. الحكمة المتعالية ، طبع دار إحياء التراث العربي ، ج ٣ ص ٣٢ ـ ٤٠.
٨. الغيب والشهادة ج ١ ص ١٧ ـ ١٨.
٩. سورة القصص : الآية ٦.

فاللازم انطباق هذا الكتاب على ذلك الكتاب ، والا لم يكن كامل الانطباق .

الثاني : ورد بالنسبة الى بعض اساميه سبحانه انه لايعلم ظاهرها ولاباطنها ولاتفسيرها ولاتأويلها الا الله سبحانه ، كما في دعاء السمات ،وقد يظهر من بعض الروايات أن القرآن كذلك كما ذكر في قصة بلوهر مع يوذاسف.

وهنا سؤالان :

السؤال الأول : انه مامعنى ذلك ؟

والجواب : ان فهم كل ظواهر الأشياء وبواطنها كذلك ، فان البشر لا يعلم الا بعض السطحيات ، مثلا ماهي حقيقة اللحم والدم ؟ وماهي حقيقة الماء والكهرباء ؟ والى غير ذلك ، فاذا رأى الانسان سيارة لايعلم ماهي ؟ فانه لا يعلم هل هي حديد اونحاس (ظاهرها) ولا يعلم ماذا في ماكنتها (باطنها) ولا يعلم مانفعها (تفسيرها) ولايعلم الى أي شيء يكون أولها (تأويلها) وكذلك القرآن لايعرف المراد الكامل من ظاهره ولا من باطنه ، كما لايعرف الفائدة الكاملة منه حالا ولا أوّل القرآن للمستمسك به والتارك له .

السؤال الثاني: اذاكان لايعلم ظاهرها ولاباطنها ولاتفسيرها ولاتأويلها فما فائدة ذلك؟

والجواب : الإشارة والتلميح وان كانت الحقيقة مخفية ، مثلاً انك اذا سمعت من انسان مالاقاه من الأهوال في حرب ضروس ، واراك بعض التصاوير التي التقطها من تلك الحرب ، فان الكلام والصورة لاشك يلمحان الى حقيقة ،لكن هل تدرك بذلك هول تلك الحرب وانفعالات اولئك المحاربين ؟ ان نسبة ما نفهم من القرآن الى حقيقته ، كنسبة الصور والكلام الى حقيقة تلك الحرب ـ وللحرب (ظاهر) هي المعركة و(باطن) هي الاستعمار الذي يريد التسلط مثلاً ، و(تفسير) هوما تنتجه الحرب الآن من غلاء الأسعار وانسداد الطرق ، و (تأويل) هو مايترتب من الأثر على هذه الحرب من سقوط امبراطورية ودخول امبراطورية اخرى الى الحياة .

الثالث : قد ورد في باب القرآن انه لاتنقضي غرائبه والمراد بذلك ، اما بعض حقائقه التي لانعلم بها ، أو أن الطريق الذي أرشد القرآن البشر اليه طريق لاتنقضي غرائبه ، مثلا أرشد القرآن البشر الى السير في الأرض والنظر والعبرة ، وهكذا يؤدي دائماً الى اطلاع

البشر على معلومات جديدة غريبة واكتشافات حديثة مدهشة ، والله سبحانه العالم [١] .

قال المدرسي في القرآن الحكيم بين الظاهر والباطن :

« بعد ان تعرفنا على خطي القرآن المتشابكين خط التزكية وخط التعليم، وعرفنا ان الهدف الأهم الذي يبدو من سياق آيات القرآن هي التزكية ، بعد ذلك نستطيع أن نهتدي إلى الظاهر والباطن .

فالظاهر هي التزكية ، بينما الباطن هو التعليم .

وقد جاء في حديث مأثور :« ان ظاهر القرآن حكم وباطنه علم » والحكم هي الشريعة مع موجبات تنفيذها من ترغيب وترهيب وقصص وامثال . بينما العلم ـ هو السنن الفطرية التي بينها القرآن المجيد . والقوانين العلمية التي اشار إليها .

وجاء في حديث آخر : « ظهر القرآن الذي نزل فيهم وبطنه الذين عملوا بمثل اعمالهم»[٢].

ومن المعروف ان قصة الذين نزل فيهم القرآن تعتبر الجانب التربوي منه ، ولكنه حينماينتزع القرآن من القصص سنناً عامة تشمل الذين نزل فيهم وتسع الذين عملوا بمثل أعمالهم . تعتبر ـ آنئذٍ ـ تلك السنن علماً بالتاريخ او الاجتماع او ماشبه .

وجاء في حديث آخر : ان رجلاً قال : سألت الامام عما يعني بقوله : للقرآن ظهر وبطن ؟ قال :« ظهره تنزيله وبطنه تأويله ، منه مامضى ومنه مالم يكن بعد ، يجري كما تجري الشمس والقمر ، كلما جاء منه شيء وقع » .

وهذا الحديث يؤكد معنى الحديث الأول ، ويتظافران على ان تنزيل القرآن هو الظاهر الذي يدل على اللفظ ، بينما التأويل ـ وهو ايضاً بطن القرآن ـ إنما هو الواقع العلمي الذي يهدي إليه الظاهر وينطبق على كل من يشارك مع أولئك في أعمالهم .

وقد عبرت بعض الأحاديث عن علوم القرآن بـ(البطن) لانها تخفى على الناس ، ثم تظهر بالتدبر ، وحسب اختلاف الناس ـ من النواحي العقلية والعلمية تختلف درجات الخفاء ـ حتى يعتبر الواقع الواحد ، ظهراً بالنسبة إلى فريق ، وبطناً بالنسبة إلى فريق آخر . لذلك تعددت البطون والاظهر بقدر تعدد درجات الناس في العقل والعلم . وجاء في

---

١. تقريب القرآن ج ١ ص ٢٤ ـ ٢٦.

٢. تفسير الصافي الجزء الاول ص ١٧ .

حديث: ان رجلاً قال: سألت أباجعفر عليه السلام، عن شيء من تفسير القرآن، فأجابني. ثم سألته ثانية فأجابني بجواب آخر، فقلت: جعلت فداك، كنت أجبت في هذه المسألة بجواب آخر غير هذا قبل اليوم. فقال لي: « ياجابر، ان للقرآن بطناً وللبطن بطناً وظهراً وللظهر ظهراً».

وهكذا فسّر الامام عليه السلام آية واحدة عدة تفاسير ـ حسب درجات السائل ـ إذ أنه حينما عرف تفسيراً يشرح ظاهر القرآن، استعد علمياً لمعرفة تفسير يشرح بطنه.

بهذا نعرف معنى عدة احاديث مأثورة تقول: ان للقرآن سبعة ابطن او سبعين بطناً. وبهذا أيضاً نعرف قيمة التدبر باعتباره الكاشف لبطون القرآن كلما تدبرت كلما ازددت علماً»[١].

---

١. من هدى القرآن ج ١ ص ٤٣ ـ ٤٤.

حكمة وجود المتشابه في القرآن

قال الطوسي (ره) : «فان قيل : هلاّكان القرآن كله محكماً يستغنى بظاهره عن تكلف ما يدل على المراد منه ، حتى دخل على كثير من المخالفين للحق شبهة فيه وتمسكوا بظاهره على ما يعتقدونه من الباطل ؟ أتقولون : إن ذلك لم يكن مقدوراً له تعالى ؟ فهذا هو القول بتعجيزه ! أو تقولون : هو مقدور له ولم يفعل ذلك فلم لم يفعله ؟ قيل : الجواب على ذلك من وجهين : احدهما ـ ان خطاب الله تعالى ـ مع ما فيه من الفوائد ـ المصلحة معتبرة في الفاظه ، فلايمتنع أن تكون المصلحة الدينية تعلقت بان يستعمل الألفاظ المحتملة ويجعل الطريق الى معرفة المراد به ضرباً من الاستدلال ، ولهذه العلة أطال في موضع وأسهب واختصر في آخر وأوجز واقتصر وذكر قصة في موضع وأعادها في موضع آخر .

واختلفت أيضاً مقادير الفصاحة فيه وتفاضلت مواضع منه بعضه على بعض .

والجواب الثاني : ان الله تعالى انما خلق عباده تعريضاً لثوابه وكلّفهم لينالوا اعلى المراتب واشرفها ، ولو كان القرآن كله محكماً لا يحتمل التأويل ولا يمكن فيه الاختلاف ؛ لسقطت المحنة وبطل التفاضل وتساوت المنازل ولم تبن منزلة العلماء من غيرهم . وانزل الله القرآن بعضه متشابهاً ليعمل أهل العقل افكارهم ويتوصلوا بتكلف

المشاق والنظر والاستدلال الى فهم المراد، فيستحقوا به عظيم المنزلة وعالي الرتبة»[١].

قال الراغب في بيان حكمة اللّٰه تعالى في جعله بعض الآيات متشابهاً :

«سئل بعض العابدين، فقيل له: ما بال القرآن جعل بعضه محكماً وبعضه متشابهاً ؟ وهلا جعله كله على نمط المحكم حتى كان يكفي الانسان مؤونة النظر الذي قل ما سلم متعاطيه من زلة ؟

وهذه مسألة نسأل عنها في الأحكام أيضاً فنقول: هلا بينها كلها حتى يستغنى عن جهد الرأي الذي لا يؤمن خطؤه ؟ بل سئل عنها في أصل التكليف فيقال: هلا خوّلنا اللّٰه إنعامه بلا مشقة ولا مؤنة حتى كان عطاؤه أهنأ منالا ؟

فقال: الجواب عن جميع ذلك واحد، وهو أن اللّٰه تعالى خص الانسان بالفكر والتمييز، وشرفه بهما، حتى قال تعالى: ﴿ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾[٢]، وجعله بذلك خليفة في الأرض، فقال للملائكة: ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ ليستخلفنهم في الأرض﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿ ويستخلفكم في الأرض ﴾[٥] الآية، وقال تعالى: ﴿ واستعمركم فيها ﴾[٦]، وكفاه شرفاً بما أعطاه من هذه المنزلة أنه قد يصير لأجلها شريفاً موصوفاً بالعلم والحلم والحكمة، وكثير من الصفات التي هي من صفاته تعالى، وإن لم تكن[٧] على حدها وحقيقتها.

ولما خصه اللّٰه تعالى بهذه الفضيلة ـ أعني بالفكر والروية ـ أعطاه كل ما أعطاه من المعارف[٨] قاصرة عن درجة الكمال، ليكمله الانسان بفكرته، لئلا تتعطل[٩] فائدتها، وإلا كان موجداً لما لا فائدة فيه[١٠]، وذلك شنيع ينزه عنه الباري سبحانه، وعلى ذلك أحوال كل ما أوجده لنا من المأكولات والمشروبات، لأنه أوجد لنا أصول الأغذية، ثم

---

١. التبيان ج ١ ص ٩ - ١٠.
٢. سورة الاسراء: الآية ٧٠.
٣. سورة البقرة: الآية ٣٠.
٤. سورة النور: الآية ٥٥.
٥. سورة الأعراف: الآية ١٢٥.
٦. سورة هود: الآية ٦١.
٧. في نسخة: يكن.
٨. في نسخة: المعاون. وهو تصحيف.
٩. في نسخة: يتعطل.
١٠. في نسخة: كانت موجوداً لا فائدة فيه.

هدانا بما خولنا من التمييز إلى تركيبها، وتناول ما يحتاج [١] إليه على الوجه الذي يحتاج[٢]، وفي الوقت الذي يحتاج [٣].

فإذا ثبت ذلك، فتأويل كتاب اللّٰه تعالى [وأحكام شرائعه][٤] وسائر معانيه [٥]، قسمان : جلي وخفي : فالجلي : ما أدركناه إما بالحاسة، وإما ببديهة العقل.

والخفي [٦] ما يتوصل إليه بوساطة أحد هذين، فسبحان الذي شرف الإنسان بهذه المنزلة السنية لتكون ذريعة له إلى إدراك الحياة الأبدية، وتحصيل ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما قال تعالى: ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين** ﴾ [٧]»[٨].

قال النهاوندي في حكم كون كثير من الآيات متشابهاً وعدم كون جميعها محكمات:

«لا يخفى ان فوائد جعل كثير من آيات القرآن متشابهات وعدم جعل كلها محكمات، كثيرة وحكمه وفيرة.

منها: ما اشار إليه أميرالمؤمنين ﷺ صلوات اللّٰه عليه ـ في الرواية السابقة ـ من اضطرار الناس الى الرجوع الى الراسخين في العلم والائتمار باوامرهم، فانهم اذا حضروا في مجالسهم لاستفادة علم القرآن عرفوا شأنهم وعلو مقامهم، واز دادوا في موالاتهم ومحبتهم واقتدوا باعمالهم واكتسبوا من اخلاقهم.

منها: تبين فضل العلماء على سائر الناس واختلاف مراتبهم.

منها: اضطرار اهل الايمان الى التدبر والتفكر في القرآن فبالتدبر فيه تظهر دقائقه وتكشف حقائقه، ويحصل كمال التوحيد وتمام المعرفة وقوة اليقين وثبات الايمان، ولو كان كله محكماً لتعلقوا به لسهولة مأخذه واعرضوا عن الغور في غوامضه.

منها: شدة الاهتمام بحفظه وزيادة الحب بمضامينه، اذ الانسان اذا تحمل المشقة في تحصيل الشيء كان له احب واحفظ.

---

١. في نسخة: تحتاج.
٢. في نسخة: تحتاج.
٣. في نسخة: تحتاج.
٤. في نسخة: وأحكامه وشرائعه.
٥. في نسخة: معاونه. وهو تصحيف.
٦. في نسخة: فالخفي.
٧. سورة السجدة: الآية ١٧.
٨. جامع التفاسير ج ١ ص ٨٩ـ ٩٠.

منها : زيادة عظم القرآن في الانظار حيث ان العادة قاضية بان كلّ كتاب كان فهم مطالبه اشكل كان قدره عند الناس اعظم.

منها : فتنة الخلق وامتحانهم بها وتبيّن الصادقين في الايمان من الكاذبين ، فان الحكمة البالغة مقتضية لان لا نيسر على احد باب الغى والضلال في حالٍ من الاحوال، ولا يكون لاحد الجاء وقهر على الالتزام بالحق وقبول الرشاد ، واذا كان جميع الايات محكمات لم يكن لاهل الزيغ مجال ابتغاء الفتنة والفساد مع اتمام الحجة عليهم بالامر، الرجوع فيها الى الحجج البالغة والزجر عن التكلم فيها وابتغاء تأويلها بالاهواء الزايغة.

والحاصل : ان الحكيم المتعال جعل كتابه التدويني مطابقاً لكتابه التكويني ، وكما انه جعل غالب آيات لكتاب التكوين من موجودات العالم متشابهات حيث جعل الطبايع فيها والاسباب والمؤثرات لها ، حتى يبقى للذوات الخبيثة وذوى الاهواء الفاسدة والعقول المغلوبة الكاسدة ، مجال للقول بخالقية الطبيعة والوهية الشمس وساير الاجرام الفلكية ، وانكار الصانع الحكيم لعدم علمهم بتأويلها وقصور نظرهم عن رؤية ما وراء طبايعها واسبابها وزيغ قلوبهم عن ادراك مسبب الاسباب وخالقها ، مع اتمام الحجة عليهم بارسال العقل العالم بتاويل تلك المتشابهات اليهم وجعله هادياً ، لهم وتأييده بالانبياء المرسلة والكتب المنزلة ، فالذوات الخبيثة يزيغ قلوبهم يأولون تلك الموجودات المتشابهات التكوينية من قبل انفسهم ويتبعون ما تشابه ابتغاء الفتنة ، واما الذوات الطيبة والنفوس الزكية فلبصيرة قلوبهم يراجعون الى العقل السليم ـ الذي هو الامام الراسخ في العلم ـ ويتعلمون منه التأويل ويتمسكون بالبرهان من عدم امكان كون المخلوق خالقاً والمتغير واجباً ، فعند ذلك يقولون : آمنا كل من المحكمات الواضحات الدلالات على خالقها والمتشابهات من الموجودات بالاسباب والمؤثرات التي جميعها آيات كتاب التكوين من عند ربنا ، كذلك جعل كثيراً من آيات كتاب التدوين وهو القرآن المبين متشابهات ليمتاز اهل الزيغ والنفاق من المتظاهرين بالايمان بالكتاب عن اهل الصدق والاخلاص ، فلو لم يكن في موجودات العالم تشابه ولم يكن في كتاب التكوين متشابه بل كانت كلها محكمات لم يحصل الامتحان والاختيار ، وكان ايمان المؤمن شبه الالجاء والاجبار ، وكذلك لو لم يكن في القرآن متشابهات لم يحصل للمقرين به الفتنة

والامتحان : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴾ [١]»[٢].

قال الطباطبائي (ره) في ما هو السبب في اشتمال الكتاب على المتشابه ؟ :

«ومن الاعتراضات التي اوردت على القرآن الكريم الاعتراض باشتماله على المتشابهات وهو أنكم تدعون أن تكاليف الخلق الى يوم القيامة فيه ، وأنه قول فصل يميز بين الحق والباطل ، ثم إنا نراه يتمسك به كل صاحب مذهب من المذاهب المختلفة بين المسلمين لإثبات مذهبه ، وليس ذلك إلا لوقوع التشابه في آياته ، أفليس أنه لو جعله جلياً نقياً عن هذه المتشابهات كان أقرب إلى الغرض المطلوب ، وأقطع لمادة الخلاف والزيغ ؟.

وأجيب عنه بوجوه من الجواب ، بعضها ظاهر السخافة ، كالجواب : بأن وجود المتشابهات يوجب صعوبة تحصيل الحق ومشقة البحث وذلك موجب لمزيد الأجر والثواب ! وكالجواب : بأنه لو لم يشتمل إلا على صريح القول في مذهب لنفر ذلك سائر أرباب المذاهب فلم ينظروا فيه ، لكنه لوجود التشابه فيه أطمعهم في النظر فيه وكان في ذلك رجاء أن يظفروا بالحق فيؤمنوا به ! وكالجواب : بأن اشتماله على المتشابه أوجب الاستعانة بدلالة العقل ، وفي ذلك خروج عن ظلمة التقليد ودخول في ضوء النظر والاجتهاد ! وكالجواب : بأن اشتماله على المتشابه أوجب البحث عن طرق التأويلات المختلفة ، وفي ذلك فائدة التضلع بالفنون المختلفة كعلم اللغة والصرف والنحو واصول الفقه !.

فهذه أجوبة سخيفة ظاهرة السخافة بأدنى نظر ، والذي يستحق الايراد والبحث من الأجوبة وجوه ثلاثة :

الاول : أن اشتمال القرآن الكريم على المتشابهات لتمحيص القلوب في التصديق به، فإنه لو كان كل ما ورد في الكتاب معقولاً واضحاً لا شبهة فيه عند أحد لما كان في الإيمان شيء من معنى الخضوع لأمر الله تعالى والتسليم لرسله .

وفيه : إن الخضوع هو نوع انفعال وتأثر من الضعيف في مقابل القوي ، والإنسان إنما يخضع لما يدرك عظمته أو لما لا يدركه لعظمته وبهوره الإدراك ، كقدرة الله غير

١ . سورة العنكبوت : الآية ٢.
٢ . نفحات الرحمن ج ١ ص ٢٠ ـ ٢١ .

المتناهية وعظمته غير المتناهية وسائر صفاته التي إذا واجهها العقل رجع القهقري لعجزه عن الإحاطة بها، وأما الامور التي لا ينالها العقل لكنه يغتر ويغادر باعتقاد أنه يدركها فما معنى خضوعه لها ؟ كالآيات المتشابهة التي يتشابه أمرها على العقل فيحسب أنه يعقلها وهو لا يعقل.

الثاني : أن اشتماله على المتشابه إنما هو لبعث العقل على البحث والتنقير، لئلا يموت بإهماله بإلقاء الواضحات التي لا يعمل فيها عامل الفكر، فإن العقل أعز القوى الإنسانية التي يجب تربيتها بتربية الإنسان.

وفيه : إن الله تعالى أمر الناس بإعمال العقل والفكر في الآيات الآفاقية والأنفسية إجمالاً في موارد من كلامه، وتفصيلاً في موارد اخرى، كخلق السماوات والأرض والجبال والشجر والدواب والانسان واختلاف ألسنته وألوانه، ندب الى التعقل والتفكر والسير في الأرض والنظر في أحوال الماضين، وحرض على العقل والفكر، ومدح العلم بأبلغ المدح وفي ذلك غنى عن البحث في امور ليس إلا مزالق للأقدام ومصارع للأفهام.

الثالث : أن الأنبياء بعثوا إلى الناس وفيهم العامة والخاصة، والذكي والبليد والعالم والجاهل، وكان من المعاني ما لا يمكن التعبير عنه بعبارة تكشف عن حقيقته وتشرح كنهه بحيث يفهمه الجميع على السواء، فالحري في أمثال هذه المعاني أن تلقى بحيث يفهمه الخاصة ولو بطريق الكناية والتعريض، ويؤمر العامة فيها بالتسليم وتفويض الأمر إلى الله تعالى.

وفيه : إن الكتاب كما يشتمل على المتشابهات كذلك يشتمل على المحكمات التي تبين المتشابهات بالرجوع إليها، ولازم ذلك أن لا تتضمن المتشابهات أزيد مما تكشف عنها المحكمات، وعند ذلك يبقى السؤال (وهو أنه ما فائدة وجود المتشابهات في الكتاب ولا حاجة اليها مع وجود المحكمات ؟) على حاله، ومنشأ الاشتباه أن المجيب أخذ المعاني نوعين متبائنين : معان يفهمها جميع المخاطبين من العامة والخاصة وهي مداليل المحكمات، ومعان سنخها بحيث لا يتلقاها الا الخاصة من المعارف العالية والحكم الدقيقة، فصارت بذلك المتشابهات لا ترجع معانيها إلى المحكمات، وقد مر أن ذلك مخالف لمنطوق الآيات الدالة على أن القرآن يفسر بعضه بعضاً وغير ذلك.

والذي ينبغي أن يقال: إن وجود المتشابه في القرآن ضروري ناش عن وجود التأويل الموجب لتفسير بعضه بعضاً بالمعنى الذي أوضحناه للتأويل فيما مر.

ويتضح ذلك بعض الاتضاح بإجادة التدبر في جهات البيان القرآني والتعليم الإلهي والامور التي بنيت عليها معارفه والغرض الأقصى من ذلك، وهي امور:

منها: أن الله سبحانه ذكر أن لكتابه تأويلا هو الذي تدور مداره المعارف القرآنية والأحكام والقوانين وسائر ما يتضمنه التعليم الإلهي، وأن هذا التأويل الذي تستقبله وتتوجه اليه جميع هذه البيانات أمر تقصر عن نيله الأفهام وتسقط دون الارتقاء اليه العقول، إلاّ نفوس طهرهم الله وأزال عنهم الرجس، فإن لهم خاصة أن يمسوه. وهذا غاية ما يريده تعالى من الانسان المجيب لدعوته في ناحية العلم أن يهتدي الى علم كتابه الذي هو تبيان كل شيء، ومفتاحه التطهير الإلهي، وقد قال تعالى: ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم ـ في الدين ـ من حرج ولكن يريد ليطهركم ﴾[1]، فجعل الغاية لتشريع الدين هي التطهير الإلهي.

وهذا الكمال الإنساني كسائر الكمالات المندوب اليها لا يظفر بكمالها إلا أفراد خاصة، وإن كانت الدعوة متعلقة بالجميع متوجهة الى الكل، فتربية الناس بالتربية الدينية إنما تثمر كمال التطهير في أفراد خاصة وبعض التطهير في آخرين، ويختلف ذلك باختلاف درجات الناس، كما أن الإسلام يدعو الى حق التقوى في العمل. قال تعالى: ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾[2]، ولكن لا يحصل كماله إلا في أفراد وفيمن دونهم دون ذلك على طريق الأمثل فالأمثل، كل ذلك لاختلاف الناس في طبائعهم وأفهامهم، وهكذا جميع الكمالات الاجتماعية من حيث التربية والدعوة، يدعو داعي الاجتماع الى الدرجة القصوى من كل كمال، كالعلم والصنعة والثروة والراحة وغيرها لكن لا ينالها إلا البعض، ومن دونه ما دونها على اختلاف مراتب الاستعدادات.

وبالحقيقة امثال هذه الغايات ينالها المجتمع من غير تخلف دون كل فرد منه.

ومنها: أن القرآن قطع بأن الطريق الوحيد الى إيصال الإنسان الى هذه الغايه الشريفة تعريف نفس الإنسان لنفسه بتربيته في ناحيتي العلم والعمل: أما في ناحية العلم

١. سورة المائدة: الآية ٦.
٢. سورة آل عمران: الآية ١٠٢.

فبتعليمه الحقائق المربوطة به من المبدأ والمعاد وما بينهما من حقائق العالم، حتى يعرف نفسه بما ترتبط به من الواقعيات معرفة حقيقية. وأما في ناحية العمل فبتحميل قوانين اجتماعية عليه بحيث تصلح شأن حياته الاجتماعية، ولا تشغله عن التخلص الى عالم العلم والعرفان، ثم بتحميل تكاليف عبادية يوجب العمل بها والمزاولة عليها توجه نفسه، وخلوص قلبه الى المبدأ والمعاد، وإشرافه على عالم المعنى والطهارة، والتجنب عن قذارة الماديات وثقلها.

وأنت إذا أحسنت التدبر في قوله تعالى: ﴿ اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ [١]، وضممنه الى ما سمعت إجماله في قوله تعالى: ﴿ ولكن يريد ليطهركم﴾ الآية، وإلى قوله تعالى: ﴿ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ [٢]، وقوله تعالى: ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات ﴾ [٣]، وما يشابهه من الآيات، اتضح لك الغرض الإلهي في تشريع الدين وهداية الإنسان إليه، والسبيل الذي سلكه لذلك، فافهم.

ويتفرع على هذا البيان نتيجة مهمة: هي أن القوانين الاجتماعية في الإسلام مقدمة للتكاليف العبادية مقصودة لأجلها، والتكاليف العبادية مقدمة للمعرفة بالله وبآياته، فأدنى الإخلال أو التحريف أو التغيير في الأحكام الاجتماعية من الإسلام يوجب فساد العبودية وفساد العبودية يؤدي الى اختلال أمر المعرفة.

وهذه النتيجة ـ على أنها واضحة التفرع على البيان ـ تؤيدها التجربة أيضاً: فإنك إذا تأملت جريان الأمر في طروق الفساد في شئون الدين الإسلامي بين هذه الامة وأمعنت النظر فيه: من أين شرع وفي أين ختم، وجدت أن الفتنة ابتدأت من الاجتماعيات ثم توسطت في العباديات ثم انتهت إلى رفض المعارف. وقد ذكرناك فيما مر: أن الفتنة شرعت باتباع المتشابهات وابتغاء تأويلها، ولم يزل الأمر على ذلك حتى اليوم.

ومنها: أن الهداية الدينية إنما بنيت على نفي التقليد عن الناس وركوز العلم بينهم ما أستطيع، فإن ذلك هو الموافق لغايتها التي هي المعرفة، وكيف لا؟ ولا يوجد بين كتب الوحي كتاب، ولا بين الأديان دين يعظمان من أمر العلم ويحرضان عليه بمثل ما جاء به

---

١. سورة فاطر: الآية ١٠. ٢. سورة المائدة: الآية ١٠٥.
٣. سورة المجادلة: الآية ١١.

القرآن والإسلام !.

وهذا المعنى هو الموجب لأن يبين الكتاب للإنسان حقائق المعارف أولاً : وارتباط ما شرعه له من الأحكام العملية بتلك الحقائق ثانياً ، وبعبارة اخرى أن يفهمه : أنه موجود مخلوق لله تعالى خلقه بيده ووسط في خلقه وبقائه ملائكته وسائر خلقه من سماء وأرض ونبات وحيوان ومكان وزمان وما عداها ، وأنه سائر إلى معاده وميعاده سيراً اضطرارياً ، وكادح الى ربه كدحاً فملاقيه ثم يجزى جزاء ما عمله ، أيما إلى جنة ، أيما إلى النار فهذه طائفة من المعارف .

ثم يفهمه : أن الأعمال التي تؤديه إلى سعادة الجنة ما هي ، وما تؤديه إلى شقوة النار ما هي ؟ أي يبين له الأحكام العبادية والقوانين الاجتماعية ، وهذه طائفة اخرى .

ثم يبين له : أن هذه الأحكام والقوانين مؤدية إلى السعادة ، أي يفهمه : أن هذه الطائفة الثانية مرتبطة بالطائفة الأولى ، وأن تشريعها وجعلها للانسان إنما هو لمراعاة سعادته لاشتمالها على خير الانسان في الدنيا والآخرة ، وهذه طائفة ثالثة .

وظاهر عندك أن الطائفة الثانية بمنزلة المقدمة ، والطائفة الاولى بمنزلة النتيجة ، والطائفة الثالثة بمنزلة الرابط الذي يربط الثانية بالاولى ، ودلالة الآيات على كل واحدة من هذه الطوائف المذكورة واضحة ولا حاجة الى إيرادها .

ومنها : أنه لما كانت عامة الناس لا يتجاوز فهمهم المحسوس ولا يرقى عقلهم الى ما فوق عالم المادة والطبيعة ، وكان من ارتقى فهمه منهم بالارتياضات العلمية إلى الورود في إدراك المعاني وكليات القواعد والقوانين يختلف أمره باختلاف الوسائل التي يسرت له الورود في عالم المعاني والكليات ، كان ذلك موجباً لاختلاف الناس في فهم المعاني الخارجة عن الحس والمحسوس اختلافاً شديداً ذا عرض عريض على مراتب مختلفة ، وهذا أمر لا ينكره أحد .

ولا يمكن إلقاء معنى من المعاني إلى إنسان إلا من طريق معلوماته الذهنية التي تهيأت عنده في خلال حياته وعيشته ، فإن كان مأنوساً بالحس فمن طريق المحسوسات على قدر ما رقى اليه من مدارج الحس كما تمثل لذة النكاح للصبي بحلاوة الحلواء ، وإن كان نائلاً للمعاني الكلية فيما نال وعلى قدر ما نال ، وهذا ينال المعاني من البيان الحسي والعقلي معاً بخلاف المأنوس بالحس .

ثم إن الهداية الدينية لا تختص بطائفة دون طائفة من الناس بل تعم جميع الطوائف وتشمل عامة الطبقات، وهو ظاهر.

وهذا المعنى أعني اختلاف الأفهام وعموم أمر الهداية مع ما عرفت من وجود التأويل للقرآن هو الموجب أن تساق البيانات مساق الأمثال، وهو أن يتخذ ما يعرفه الانسان ويعهده ذهنه من المعاني فيبين به مالايعرفه لمناسبة مابينهما، نظير توزين المتاع بالمثاقيل ولامسانخة بينهما في شكل أو صورة أو حجم أو نوع إلا مابينهما من المناسبة وزناً.

والآيات القرآنية المذكورة سابقاً كقوله تعالى: ﴿ **إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وإنه في ام الكتاب لدينا لعلي حكيم** ﴾ [١]، ومايشابهه من الآيات وإن بينت هذا الامر بطريق الإشارة والكناية، لكن القرآن لم يكتف بذلك دون أن بينه بما ضربه مثلاً في أمر الحق والباطل، فقال تعالى: ﴿ **أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل، فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال** ﴾ [٢]، فبين أن حكم المثل جار في أفعاله تعالى كماهو جار في أقواله، ففعله تعالى كقوله الحق إنما قصد منهماالحق الذي يحويانه ويصاحب كلامنهما امور غير مقصودة، ولانافعة يعلوهما ويربوهما لكنها ستزول وتبطل، ويبقى الحق الذي ينفع الناس، وإنما يزول ويزهق بحق آخر هو مثله، وهذا كالآية المتشابهة تتضمن من المعنى حقاً مقصوداً، ويصاحبه ويعلو عليه بالاستباق الى الذهن معنى آخر باطل غير مقصود، لكنه سيزول بحق آخر يظهر الحق الأول على الباطل الذي كان يعلوه، ليحق الحق بكلماته ويبطل الباطل ولوكره المجرمون، والكلام في انطباق هذا المثل على أفعاله الخارجية المتقررة في عالم الكون كالكلام في أقواله عز من قائل.

وبالجملة: المتحصل من الآية الشريفة: أن المعارف الحقة الإلهية كالماء الذي أنزله الله تعالى من السماء هي في نفسها ماء فحسب، من غير تقييد بكمية ولاكيفية، ثم إنها كالسيل السائل في الأودية تتقدر بأقدار مختلفة من حيث السعة والضيق، وهذه الأقدار

---

١. سورة الزخرف: الآية ٣ و ٤.
٢. سورة الرعد: الآية ١٧.

امور ثابتة كل في محله كالحال في اصول المعارف والأحكام التشريعية، ومصالح الأحكام التي ذكرنافيما مر؛ أنها روابط تربط الأحكام بالمعارف الحقة. وهذا حكمها في نفسها مع قطع النظر عن البيان اللفظي. وهي في مسيرها ربما صحبت ماهو كالزبد يظهر ظهوراً ثم يسرع في الزوال، وذلك كالأحكام المنسوخة التي تنسخها النواسخ من الآيات، فإن المنسوخ مقتضى ظاهر طباعه أن يدوم لكن الحكم الناسخ يبطل دوامه ويضع مكانه حكماً آخر. هذا بالنظر إلى نفس هذه المعارف مع قطع النظر عن ورودها في وادي البيان اللفظي.

وأما المعارف الحقة من حيث كونها واردة في ظرف اللفظ والدلالة فبإنها بورودها أودية الدلالات اللفظية تتقدر بأقدارها، [و] تتشكل بأشكال المرادات الكلامية بعد إطلاقها، وهذه أقوال ثابتة من حيث مراد المتكلم بكلامه إلا أنها مع ذلك أمثال يمثل بها أصل المعنى المطلق غير المتقدر، ثم إنها بمرورها في الأذهان المختلفة تحمل معاني غير مقصودة كالزبد في السيل، لأن الأذهان من جهة ما تخزنه من المرتكزات والمألوفات تتصرف في المعاني الملقاة اليها، وجل هذا التصرف إنما هو في المعاني غير المألوفة كالمعارف الأصلية، ومصالح الأحكام وملاكاتها كمامر، وأما الأحكام والقوانين فلا تصرف فيها مع قطع النظرعن ملاكاتها فإنها مألوفة، ومن هنا يظهر أن المتشابهات إنما هي الآيات من حيث اشتمالها على الملاكات والمعارف، دون متن الأحكام والقوانين الدينية.

ومنها: أنه تحصل من البيان السابق: أن البيانات اللفظية القرآنية أمثال للمعارف الحقة الإلهية؛ لأن البيان نزل في هذه الآيات الى سطح الأفهام العامةالتي لا تدرك إلا الحسيات ولاتنال المعاني الكلية إلا في قالب الجسمانيات، ولما استلزم ذلك في إلقاء المعاني الكلية المجردة عن عوارض الأجسام والجسمانيات أحد محذورين: فإن الأفهام في تلقيها المعارف المرادة منها إن جمدت في مرتبة الحس والمحسوس انقلبت الأمثال بالنسبة اليها حقائق ممثلة، وفيه بطلان الحقائق وفوت المرادات والمقاصد، وإن لم تجمد وانتقلت الى المعاني المجردة بتجريد الأمثال عن الخصوصيات غير الدخيلة لم يؤمن من الزيادة والنقيصة.

نظير ذلك أنا لو القي الينا المثل السائر: عند الصباح يحمد القوم السرى، أو تمثل لنا بقول صخر:

أهم بأمر الحزم لا أستطيعه وقد حيل بين العير النزوان

فإنا من جهة سبق عهد الذهن بالقصة أو الأمر الممثل له نجرد المثل عن الخصوصيات المكتنفة بالكلام كالصباح والقوم والسرى ، ونفهم من ذلك أن المراد : أن حسن تأثير عمل وتحسين فعله إنما يظهر إذافرغ منه وبدا أثره ، وأما هو مادام الانسان مشتغلاً به محسا تعب فعله فلا يقدر قدره ، ويظهر ذلك تجريد ماتمثل به من الشعر ، وأما إذا لم نعهد الممثل وجمدنا على الشعر أو المثل خفي عنا الممثل وعاد المثل خبراً من الأخبار ، ولولم نجمد وانتقلنا إجمالاً الى أنه مثل لم يمكنا تشخيص المقدار الذي يجب طرحه بالتجريد ومايجب حفظه للفهم وهو ظاهر .

ولا مخلص عن هذين المحذورين إلا بتفريق المعاني الممثل لها الى أمثال مختلفة ، وتقليبها في قوالب متنوعة حتى يفسر بعضها بعضاً ، ويوضح بعضها أمر بعض ، فيعلم بالتدافع الذي بينها أولاً : أن البيانات أمثال ولها في ماوراءها حقائق ممثلة ، وليست مقاصدها ومراداتها مقصورة على اللفظ المأخوذ من مرتبة الحس والمحسوس . وثانياً : بعد العلم بأنها أمثال : يعلم بذلك المقدار الذي يجب طرحه من الخصوصيات المكتنفة بالكلام ، ومايجب حفظه منها للحصول على المرام ، وإنما يحصل ذلك بأن هذا يتضمن نفي بعض الخصوصيات الموجودة في ذلك .وذاك نفي بعض مافي هذا .

وإيضاح المقاصد المبهمة والمطالب الدقيقة بإيراد القصص المتعددة والأمثال والأمثلة الكثيرة المتنوعة أمر دائر في جميع الألسنة واللغات من غير اختصاص بقوم دون قوم ، ولغة دون لغة ، وليس ذلك إلا لأن الإنسان يشعر بقريحة البيان مساس حاجته الى نفي الخصوصيات الموهمة لخلاف المراد في القصة الواحدة أو المثل الواحد بالخصوصيات النافية الموجودة في قصة اخرى مناسبة أومثل آخر مناسب .

فقد تبين : أن من الواجب أن يشتمل القرآن الكريم على الآيات المتشابهة، وأن يرفع التشابه الواقع في آية بالإحكام الواقع في آية اخرى، واندفع بذلك الإشكال باشتمال القرآن على المتشابهات لكونها مخلة لغرض الهداية والبيان»[1] .

---

١. الميزان ج ٣ ص ٥٦ ـ ٦٣.

عالمون بتأويل المتشابه

قال العياشي في علم الائمة بالتأويل :

«١ ـ عن الاصبغ بن نباتة قال : لما قدم أمير المؤمنين عليه السلام الكوفة صلى بهم أربعين صباحاً يقرأ بهم ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَىٰ ﴾ [1] قال : فقال المنافقون : لا والله مايحسن ابن أبي طالب أن يقرأ القرآن ولو أحسن أن يقرأ القرآن لقرأ بنا غير هذه السورة ، قال : فبلغه ذلك فقال : « ويل لهم إني لأعرف ناسخه من منسوخه ومحكمه من متشابهه وفصله من فصاله وحروفه من معانيه ، والله مامن حرف نزل على محمد ﷺ إلا إني أعرف فيمن أنزل وفي أي يوم وفي أي موضع ، ويل لهم أما يقرأون : ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [2] ، والله عندي ورثتهما من رسول الله ﷺ ، وقد أنهى رسول الله ﷺ من إبراهيم وموسى عليهما السلام [3] ، ويل لهم والله أنا الذي أنزل الله فيّ : ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ فإنّما كنا عند رسول الله ﷺ فيخبرنا بالوحي فأعيه أنا ومن يعيه ، فإذا خرجنا قالوا : ماذا قال آنفاً ؟»[4] .

٢ ـ عن سليم بن قيس الهلالي قال : سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول : « مانزلت آية على رسول الله ﷺ الا أقرأنيها واملاها عليّ ، فاكتبها بخطي ، وعلمني تأويلها وتفسيرها

---

١. سورة الاعلى : الآية ١. ٢. سورة الاعلى : الآية ١٨ و ١٩.

٣. وفي تفسير البرهان : أنهى لي رسول الله ﷺ صحف ابراهيم وموسى عليهما السلام .

٤. تفسير البرهان ج ١ ص ١٦.

وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها ، ودعا الله لي أن يعلمني فهمها وحفظها ، فما نسيت آية من كتاب الله ، ولا علم إملائه علي فكتبته منذ دعا ، لي بما دعا وماترك شيئاً علمه الله من حلال ولاحرام ولا أمر ولا نهي كان أو لايكون من طاعة أومعصية إلا علمنيه وحفظته ، فلم أنس منه حرفاً واحداً ،ثم وضع يده على صدري ودعا الله أن يملأ قلبي علماً وفهماً وحكمة ونوراً ، لم أنس شيئاً ولم يفتني شيء لم أكتبه ، فقلت : يا رسول الله أو تخوفت عليَّ النسيان فيمابعد ؟ فقال : لست أتخوف عليك نسياناً ولاجهلاً ،وقد أخبرني ربي أنه قد استجاب لي فيك وفي شركائك الذين يكونون من بعدك ، فقلت : يارسول الله ومن شركائي من بعدي ؟ قال : الذين قرنهم الله بنفسه وبي، فقال : الأوصياء مني إلى أن يردوا علي الحوض كلهم هاد مهتد لايضرهم من خذلهم ، هم مع القرآن والقرآن معهم ، لايفارقهم ولايفارقونه بهم تنصر أمتي وبهم يمطرون ، وبهم يدفع عنهم وبهم استجاب دعاءهم ، فقلت :يارسول الله سمهم لي فقال: ابني هذا ـ ووضع يده على رأس الحسن عليه السلام ثم إبني هذا ـ ووضع يده على رأس الحسين عليه السلام ، ثم ابن له يقال له علي وسيولد في حياتك فاقرأه مني السلام ، تكمله[١] اثنا عشر من ولد محمد ،فقلت له : بأبي أنت [وأمي] فسمهم لي ، فسماهم رجلاً رجلاً ، فيهم [٢] والله ياأخي بني هلال مهدي أمة محمد صلى الله عليه وآله الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً ،والله إني لأعرف من يبايعه بين الركن والمقام وأعرف أسماء آبائهم وقبائلهم » [٣].

٣ـ عن سلمة بن كهيل عمن حدثه عن علي عليه السلام قال : « لو استقامت لي الأمرة وكسرت أو ثنيت لي الوسادة ، لحكمت لأهل التوراة بما أنزل الله في التوراة حتى تذهب إلى الله أني قد حكمت بما أنزل الله فيها ،ولحكمت لأهل الإنجيل بما أنزل الله في الإنجيل حتى يذهب إلى الله أني قد حكمت بما أنزل الله فيه ،ولحكمت في أهل القرآن بما أنزل الله في القرآن حتى يذهب إلى الله أني قد حكمت بما أنزل الله فيه » [٤].

---

١. وفي تفسير البرهان : ثم تكملة اثني عشر من ولد محمد صلى الله عليه وآله.
٢. وفي نسخة البرهان « منهم ».
٣. البحار ج ١٩ ص ٢٦. البرهان ج ١ ص ١٧. الصافي ج ١ ص ١١.
٤. البحار ج ١٩ ص ٢٥. البرهان ج ١ ص ١٧.

٤ ـ عن أيوب بن حر عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قلت له: الائمة بعضهم أعلم من بعض؟ قال: «نعم وعلمهم بالحلال والحرام وتفسير القرآن واحد [١]».

٥ ـ عن حفص بن قرط الجهني عن جعفربن محمد الصادق عليه السلام قال: سمعته يقول: «كان علي عليه السلام صاحب حلال وحرام وعلم بالقرآن، ونحن على منهاجه» [٢].

٦ ـ عن السكوني عن جعفر عن أبيه عن جده عن أبيه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن فيكم من يقاتل على تأويل القرآن كماقاتلت على تنزيله، وهو علي بن أبي طالب» [٣].

٧ ـ عن بشير الدهان قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «إن اللّه فرض طاعتنا في كتابه فلا يسع الناس جهلاً، لنا صفو المال ولنا الأنفال ولنا كرائم القرآن، ولا أقول لكم إنا أصحاب الغيب، ونعلم كتاب اللّه وكتاب اللّه يحتمل كل شيء، إن اللّه أعلمنا علماً لايعلمه أحد غيره، وعلماً قد أعلمه ملائكته ورسله، فما علمته ملائكته ورسله فنحن نعلمه» [٤].

٨ ـ عن مرازم قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «إنا أهل بيت لم يزل اللّه يبعث فينا من يعلم كتابه من أوله إلى آخره، وإنَّ عندنا من حلال اللّه وحرامه مايسعنا [من] كتمانه مانستطيع أن نحدث به أحداً» [٥].

٩ ـ عن الحكم بن عيينة قال: قال أبو عبدالله عليه السلام ـ لرجل من أهل الكوفة وسأله عن شيء ـ: «لولقيتك بالمدينة لأريتك أثر جبرئيل في دورنا، ونزوله على جدي بالوحي والقرآن والعلم، فيستقي الناس العلم من عندنا فيهدونهم وضللنانحن؟ هذا محال» [٦].

١٠ ـ عن يوسف بن السخت البصري قال: رأيت التوقيع بخط محمد بن محمد بن علي [٧] فكان فيه: «الذي يجب عليكم ولكم أن تقولوا إنا قدرة اللّه وأئمة، وخلفاء اللّه

١. البحار ج ١٩ ص ٢٥. البرهان ج ١ ص ١٧. ٢. البحار ج ١٩ ص ٢٥ .البرهان ج ١ ص ١٧.
٣. الوسائل ج ٣ كتاب القضاء باب ١٣. البحار ج ١٩ ص ٢٥ـ٢٦. البرهان ج ١ ص ١٧.
٤. البحار ج ١٩ ص ٢٥ - ٢٦. البرهان ج ١ ص ١٧.
٥. الصافي ج ١ ص ١٢ .البحار ج ١٩ ص ٢٥ـ٢٦. البرهان ج ١ ص ١٧.
٦. البحار ج ١٩ ص ٢٥ـ٢٦. البرهان ج ١ ص ١٧.
٧. كذا في نسختي الأصل والبحاروفي نسخة البرهان «محمدبن محمد بن الحسن بن علي» والظاهر «محمدبن الحسن بن علي» وهو الحجة المنتظر المهدي صلوات اللّه عليه وعلى آبائه الطاهرين.

في أرضه وأمناؤه على خلقه ،وحججه في بلاده ، نعرف الحلال والحرام ونعرف تأويل الكتاب وفصل الخطاب »[١].

١١ ـ عن ثوير بن أبي فاختة عن أبيه قال : قال علي عليه السلام : « ما بين اللوحين شيء إلا وأنا أعلمه [٢]».

١٢ ـ عن سليمان الأعمش عن أبيه قال : قال علي عليه السلام : « مانزلت آية إلا وأنا علمت فيمن أنزلت وأين نزلت وعلى من نزلت ، إن ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً طلقاً »[٣].

١٣ ـ عن أبي الصباح قال : قال أبو عبدالله عليه السلام : « إن الله علم نبيه صلى الله عليه وآله التنزيل والتأويل فعلمه رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام »[٤][٥].

قال هودبن محكم :

«ذكر الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال : نزل القرآن على أربعة أوجه : حلال وحرام لايسع الناس جهله ، وتفسير يعلمه العلماء ، وعربية تعرفها العرب ، وتأويل لايعلمه إلا الله ، ﴿ والرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ، كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ [٦][٧].

قال الراغب في ان هل في القرآن ما لا تعلم الأمة تأويله :

«اختلفوا في ذلك فذهب عامة المتكلمين إلى أن كل القرآن يجب أن يكون معلوماً[٨] ، وإلاّ أدى إلى بطلان فائدة الانتفاع به ، وان لا معنى لإنزاله ، وحملوا قوله تعالى : ﴿ والراسخون في العلم ﴾ على أنه عطف على قوله تعالى : ﴿ لايعلم تأويله إلا

---

١ . البحار ج ١٩ ص ٢٦ ـ ٢٥ . البرهان ج ١ ص ١٧ .
٢ . البحار ج ١٩ ص ٢٦ ـ ٢٩ . البرهان ج ١ ص ١٧ .
٣ . البحار ج ١٩ ص ٢٦ ـ ٢٩ . البرهان ج ١ ص ١٧ .
٤ . البحار ج ١٩ ص ٢٦ ـ ٢٩ . البرهان ج ١ ص ١٧ .
٥ . العياشي ج ١ ص ٢٥ ـ ٢٩ .
٦ . سورة آل عمران : الآية ٧ .إن ابن عباس رضي الله عنه ، يجعل الكلام في هذه الآية يتم عند قوله تعالى: ﴿إلا اللهُ ﴾ ، وعليه الوقف في قراءة ورش . فيجعل الواو في قوله : ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ ﴾ للاستئناف لا للعطف . وفي هذه المسألة خلاف مشهور بين علماء التفسير . فكأن في القرآن آياتٍ تبق سراً مجهولاً لا يعلم حقيقة تأويلها إلا الله . ونحن متعبدون بتلاوتها والإيمان بها .
وهذا قول ذهب إليه الجمهور ، منهم ابن عمر وابن مسعود وأُبي بن كعب وابن عباس وعائشة وعروة بن الزبير وعمر بن عبد العزيز .
٧ . تفسير كتاب الله العزيز ج ١ ص ٦٩ .
٨ . وهو قول مجاهد والضحاك ، وإحدى الروايتين عن ابن عباس ،واختاره النووي وقال في شرح مسلم : « إنه لأصح ، لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لاسبيل لأحد من الخلق إلى معرفته » . وقال ابن الحاجب : إنه الظاهر .

اللّٰه والراسخون في العلم ﴾ ، وجعلوا قوله تعالى : ﴿ يقولون آمنا به ﴾ في موضع الحال[١] كما قال :

الريح يبكي شجوها والبرق يلمع في غمامه [٢]

أي البرق يبكي لامعاً ، وقوي ذلك بقراءة ابن مسعود ـ فيما قيل ـ : ﴿ويقولون آمنابه﴾ بالواو ـ وعامة أعيان الصحابة [٣] وكثير من المفسرين بعدهم ، ذهبوا إلى أنه يصح أن يكون في القرآن بعض مالا يعلم تأويله إلا اللّٰه، قال ابن عباس : « أنزل القرآن على أربعة أوجه : وجه حلال وحرام لايسع أحداً جهالته . ووجه يعرفه العرب .ووجه تأويله يعلمه العالمون . ووجه لايعلم تأويله إلا اللّٰه ، ومن انتحل فيه علماً فقد كذب » . [٤] وحمل الآية على أحد وجوه ثلاثة :

---

١ . وقد استبعد الشيخ محمد الأمين الشنقيطي [واو] الحالية هنا وقال :« المعروف في اللغة العربية أن الحال قيد لعاملها ووصف لصاحبها ، فيشكل هنا تقييد هذا العامل الذي هو « يعلم » بهذه الحال التي هي « يقولون آمنا » إذ لاوجه لتقييد علم الراسخين بتأويله بقولهم « آمنابه » ، لأن مفهومه أنهم في حال عدم قولهم « آمنابه » لا يعلمون تأويله ، وهو باطل ، وهذا الإشكال قوي ،وفيه الدلالة على منع الحالية في جملة « يقولون » ـ على القول بالعطف » ثم يقول الشيخ الأمين : « وإذا كانت جملة « يقولون » لا يصح ان تكون لما ذكرنا فما وجه إعرابها ـ على القول بأن الواو عاطفة ؟ الجواب ـ واللّٰه تعالى أعلم ـ أنها معطوفة بحرف محذوف . والعطف بالحرف المحذوف أجازه ابن مالك وجماعة من علماء العربية . والتحقيق جوزه وله ليس مختصا بضرورة الشعر كما زعم بعض علماء العربية ،والدليل على جوازه وقوعه في القرآن وفي كلام العرب . فمن أمثلته في القرآن : ﴿وجوه يومئذ ناعمة ﴾ فإنه معطوف بلاشك على قوله ﴿وجوه يومئذ خاشعة ﴾ بالحرف المحذوف الذي هو الواو . ويدل له إثبات الواو في نظيره في سورة القيامة :﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ،ووجوه يومئذ باسرة ﴾ الآية ، وقوله تعالى في « عبس » : ﴿وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة . ووجوه يومئذ عليها غبرة ﴾ ، عن أضواء البيان : ج ١ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤ .

٢ . البيت ليزيد بن مفرغ الحميري من قصيدة مطلعها :

أصرمت حبلك من أمامه من بعد أيام برامه

فالريح تبكي شجوها والبرق يلمع في الغمامه

٣ . منهم : عمروابن عباس ـ في اقوى الروايتين ـ وعائشة وعروة ابن الزبير وعمربن عبدالعزيز وابن مسعود وأبي بن كعب نقله عنهم القرطبي وغيره . ونقله ابن جرير عن يونس عن أشهب عن مالك بن أنس ،وهو مذهب الكسائي والأخفش والفراء وأبي عبيد .

٤ . قال في الإتقان : ج ٤ ص ١٨٨ ـ ١٨٩ :

« وقد أخرج ابن جرير وغيره من طرق عن ابن عباس ، قال : التفسير أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب كلامها ، وتفسير لايعذر أحد بجهالته ، وتفسير تعلمه العلماء ، وتفسير لايعلمه إلا اللّٰه تعالى . ثم رواه مرفوعاً بسند ضعيف بلفظ : « أنزل القرآن على أربعة أحرف : حلال وحرام لايعذر أحد بجهالته . وتفسير تفسره العرب ، وتفسير تفسره العلماء ،ومتشابه لايعلمه إلا اللّٰه تعالى . ومن ادعى علمه سوى اللّٰه تعالى فهو كاذب » .

أحدها : أنه جعل « التأويل » بمعنى :ماتؤول إليه حقائق الأشياء من كيفياتها وأزمانها وكثير من أحوالها، وقد علمنا أن كثيراً من العبادات والأخبار الاعتقادية كالقيامة والبعث ودابة الأرض لا سبيل لنا إلى الوقوف على حقائقها وأزمانها، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿ هل ينظرون إلاّ تأويله يوم يأتي تأويله ﴾ (١) الآية.

والثاني :أن من ألفاظه ماأمرنا بأن نتلوها تلاوة، وبها نتعبد دون معرفة تأويلها، كماتعبدنابحركات تحصل في كثير من العبادات في الصلاة والحج. وعلى ذلك حمل قوله تعالى: ﴿ وقولوا حطة ﴾ (٢) أي :إنهم أمروا بالتفوه بهذه اللفظة.

والثالث : أن كثيراً من الآيات مما اختلف المفسرون فيه، ففسروه على أوجه كثيرة تحتملها الآية، ولايقطع على واحد من الأقوال، فإن مراد الله تعالى منها غير معلوم لنا مفصلاً، بحيث يقطع به.

والذين ذهبوا المذهب الثاني، قالوا: قد علم أن الآية نزلت إنكاراً على قوم طمعوا في الهجوم على مالاسبيل لهم إليه، فأراد تعالى حسم أسباب الخوض فيه، ومتى كان فيه تشارك لم ينقطع الشغب، إذكل يدعي معرفته. فإن قيل: إن هذا لأقوام معينين فرجع القول إلى مايقوله الإمامية: إن آيات من القرآن لايعرف تأويلها إلا الإمام ،ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿ لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وماأنزل من قبلك ﴾ (٣)» (٤).

قال البحراني (ره) :

«١ ـ وعنه [محمدبن الحسن الصفار] عن محمدبن الحسين، عن وهيب بن حفص عن ابي عبدالله عليه السلام قال: سمعته يقول: « ان القرآن فيه محكم ومتشابه، فاما المحكم فيؤمن به ويعمل، واماالمتشابه فيؤمن به ولايعمل به وهو قول الله تبارك وتعالى: ﴿ واما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ومايعلم

١. سورة الأعراف: الآية ٥٣.
٢. سورة البقرة: الآية ٥٨.
٣. سورة النساء: الآية ١٦٢.
٤. جامع التفاسير ج ١ ص ٨٦ـ٨٨.

تأويله الا اللّٰه والراسخون في العلم ﴾ ، فرسول اللّٰه واهل بيته افضل الراسخين في العلم قد علّمه اللّٰه جميع مانزل عليه من التنزيل والتأويل وماكان اللّٰه لينزل عليه شيئا لم يعلمه تأويله ، واوصياؤه من بعده يعلمونه كله ، والذين لايعلمون تأويله اذا قال العالم فيه بعلم، فاجابهم اللّٰه : **﴿يقولون آمنابه كل من عند ربنا ﴾** فالقرآن عام وخاص ومحكم ومتشابه وناسخ و منسوخ والراسخون في العلم يعلمونه ».

٢ ـ وعنه ، عن يعقوب بن يزيد ،عن ابن ابي عمير ، عن سيف بن عميرة ، عن ابي الصباح الكناني ، قال قال ابو عبداللّٰه عليه السلام : « يا اباالصباح نحن قوم فرض اللّٰه طاعتنا ، لنا الانفال ولنا صفو المال ونحن الراسخون في العلم، ونحن المحسودون الذين قال اللّٰه : **﴿ام يحسدون الناس على ماآتيهم اللّٰه من فضله ﴾**[1] ».

٣ ـ وعنه ، عن محمدبن خالد ، عن سيف بن عميرة ، عن ابي بصير ، قال قال ابو جعفر عليه السلام : « نحن الراسخون في العلم ونحن نعلم تأويله »[2].

قال النهاوندي : « ... ثم انه قد غلط من قال باختصاص العلم بتأويل المتشابهات باللّٰه سبحانه وانه مما استاثر به ذاته المقدسة ، ولايعلمه النبي صلى الله عليه وآله وسلم واوصيائه المعصومين صلوات اللّٰه عليهم اجمعين فان فائدة الكلام تفهيم الغير فلو خلا عن هذه الفائدة ولو بالنسبة الى الواحد كان لغواً والحكيم تعالى منزه عنه ، مع ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يتحدى بكل آية من الكتاب العزيز ولايمكن ان يتحدى بما لا يعرف المراد منه ولايفهم معناه ، مع انه تعالى استثنى عن جميع الخلق ـ غير العالمين بتأويل المتشابهات ـ الراسخين في العلم وقرنهم بذاته المقدسة في العلم بتأويلها »[3].

قال النهاوندي في أن النبي والمعصومين من ذريته عالمون بتأويل المتشابه ، وفي تغليط القائلين باختصاص علمه باللّٰه تعالى :

«والمراد بالراسخين في العلم ؛ النبي صلى الله عليه وآله وسلم واوصياؤه من بعده صلوات اللّٰه عليهم ـكما في رواية ـ قال رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله وسلم افضل الراسخين في العلم قد علمه اللّٰه جميع ما

---

١. سورة النساء : الآية ٥٤.
٢. البرهان في تفسير القرآن ج ١ ص ٢٠.
٣. نفحات الرحمٰن ج ١ ص ١٩.

انزل عليه من التنزيل والتأويل ـ وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلمه تأويله وأوصياؤه من بعده يعلمونه كله.

وعن أميرالمؤمنين عليه السلام في حديث قال: «ان الله جل ذكره بسعة رحمته ورأفته بخلقه، وعلمه بما يحدثه المبدلون من تغيير كلامه قسم كلامه ثلاثة اقسام. وجعل قسماً منه يعرفه العالم والجاهل، وقسماً لا يعرفه إلا من صفا ذهنه ولطف حسه وصح تميزه ممن شرح الله صدره للاسلام، وقسماً لا يعرفه إلا الله وانبياؤه والراسخون في العلم.

وعن العياشي عن الصادق عليه السلام في حديث قال: «نحن الراسخون في العلم ونحن نعلم تأويله».

وعن ابن عباس بطريق عامي في قوله: ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم** ﴾ [١] قال: انا ممن يعلم تأويله.

وعن مجاهد في قوله: ﴿ **والراسخون في العلم** ﴾ قال: يعلمون تأويله ويقولون آمنا به. وعن الضحاك قال: الراسخون في العلم يعلمون تأويله، ولو لم يعلموا تأويله لم يعلموا ناسخه ومنسوخه ولا حلاله ولا حرامه ولا محكمه عن متشابهه.

وعن النووي على ما نقله السيوطي عنه انه قال ـ في شرح مسلم ـ: إنه الأصح لانه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لاحد من الخلق الى معرفته، ثم إن منشأ غلط اكثر أهل السنة في المقام توهم كون الواو في: ﴿**والراسخون في العلم**﴾ استينافاً وبعده مبتدأ وقوله: ﴿**يقولون آمنا به**﴾ خبره، وهو بمكان من الضعف لقوة ظهور الواو في العطف وعدم وجود قرينة في المقام يليق ان تكون صارفاً عنه، واضعف منه تأييد بعضهم هذا التوهم بأن الآية دلت على ذم متبعي المتشابه ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة وعلى مدح الذين فوضوا العلم إلى الله وسلموا اليه، حيث ان الآية دالة على ذم اهل الزيغ غير العالمين بتأويل المتشابه بانهم مع جهلهم بتأويله يؤوّلونه و يتبعونه لا طلبا للحق، بل ابتغاء للفتنة ففيهم جهات عديدة الذم، واما الراسخون في العلم فانهم لعلمهم بتأويله ومعرفتهم بالعلوم المندرجة في المتشابهات يتجاهرون بالايمان بها،

---

١. سورة آل عمران: الآية ٧.

ويشهدون على رؤوس الاشهاد بانها كلام اللّٰه كالمحكمات . ولو كان اهل الزيغ والعلم مشاركين في الجهل بالتأويل . متفاوتين في الايمان والنّفاق لم يحسن توصيف المؤمنين العلم بل كان الانسب ان يقال : وامّا الراسخون في الايمان يقولون آمنا به كل من عند ربنا، مع أن التأييد المذكور لايقاوم البرهان الذي قدمناه من لزوم اللغو على الحكيم ؛ وهو محال عند العدلية ومستبعد عند من يجوز القبيح على اللّٰه من الاشاعرة ، واما استدلالهم بما رووه بطرقهم عن الاعمش ، قال : ان في قراءة ابن مسعود : أن تأويله الاّ عند اللّٰه والراسخون في العلم يقولون آمنا به ، فموهون سنداً ودلالة لعدم كون ما نقل عنه قرآناً يقيناً بل هو تفسير له ، ولعل مراده : أن الراسخين لا يأوّلون المتشابه من قبل انفسهم واهوائهم بل بتعليم اللّٰه اياهم ، فالعلم به اولاً عند اللّٰه ثم بافاضته يعلمه الراسخون ويقولون : آمنا به كل من المحكم والمتشابه من عند اللّٰه ، وكاشفات عن العلوم غير المتناهية الالهية ، وبهذا يجمع بين الرواية السابقة عن ابن عباس وما روى عنه من قراءته وما يعلم تأويله الا اللّٰه ويقول الراسخون في العلم آمنا به .

وما روي عن أُبيّ بن كعب انه قرأ : ويقول الراسخون ، ومثله في الوهن استدلالهم بما روي عن أبي مالك الاشعري انه سمع رسول اللّٰه ﷺ يقول : « لا أخاف على أمتي الاّ ثلاث خلال ان يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا ، وان يفتح لهم الكتاب فيأخذه المؤمن يبتغي تأويله وما يعلم تأويله الا اللّٰه». حيث ان المراد من الامة المخوف عليهم التأويل غير الراسخين في العلم ، كما ان المراد من الذين يخاف عليهم التحاسد والمقاتلة غير المعصومين منهم ، ولا دلالة لعدم ذكر بقية الآية على شيء كما الخطاب فيما روي عنه ﷺ انه قال : «ان القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه فآمنوا به ، متوجه الى غير الراسخين في العلم العالمين بتأويله من لدن حكيم عليم ؛ فإنهم الذين لايجوز لهم الا الايمان والتعلم من اهل العلم والذكر .

وكذا ما عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : «كان الكتاب الاول ينزل من باب واحدٍ على حرف واحدٍ ونزل القرآن من سبعة ابواب على سبعة احرف : زاجر وآمر وحلالٍ وحرام ومحكم ومتشابه وامثال ، فاحلّوا حلاله وحرّموا حرامه وافعلوا ما أمرتم به وانتهوا عما

نهيتم عنه ، واعتبروا بامثاله واعملوا بمحكمه وآمنوا متشابهه وقولوا آمنا به كل من عند ربنا ».

فحاصل مدلول هذه الروايات : ان وظيفة غير الراسخين من الناس السكوت عن تأويل المتشابهات وعدم القول فيه من قبل انفسهم ، والايمان بها والاقرار بانها من عند الله .

كما نقل عن ابن عباس رحمة الله عليه ، قال : نؤمن بالمحكم وندين به ونؤمن بالمتشابه ولا ندين به ـ اى لا نعمل به ـ وهو من عند الله كله .

واعجب من جميع استدلالاتهم بصيغ عمر بن الخطاب حيث روي ان رجلاً يقال له عبدالله بن بضيع ، قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن فارسل اليه عمر ـ وقد أعدّ له عراجين النخل ـ فقال : من انت ؟ قال : أنا عبدالله بن بضيع فأخذ عرجونا فضربه حتى ادمى رأسه .

وفي رواية فضربه بالجريد حتى ترك ظهره دبره ثمّ تركه حتى بريء ثم عاد ثم تركه حتى بريء ثم دعاه ليعود ، فقال : ان كنت تريد قتلي فاقتلني قتلاً جميلاً ، فاذن له الرجوع الى ارضه وكتب الى ابى موسى الاشعرى لا يجالسه احد من المسلمين انتهى .

فان الاستدلال بهذا الخبر على الطعن في عمر وانه اظلم الظالمين اولى من الاستدلال به على عدم العلم بتأويل المتشابهات ، حتى للراسخين ؛ لان فعله لا يكون حجة الا على ظلمه ، ولعل ارتكابه له في حق هذا السائل المتعلم من جهة ان سؤاله هذا كان سبباً لاهتدائه الى باب اميرالمؤمنين صلوات الله عليه ، وشدة ظهور فضله على الناس وجهل غيره ، وكأنّ ذهاب اكثر شيعته الى القول بجهل النبي ﷺ بالكتاب الذي انزل عليه لتلازم اعترافهم بعلم النبي ﷺ اعترافهم بعلم اميرالمؤمنين عليه السلام به، واضطرار الخلق الى بابه لانه ﷺ باتفاق الامة مدينة العلم وعلى بابها ، واليه اشار اميرالمؤمنين صلوات الله عليه ـ في حديث بيان المتشابه ـ حيث قال : «إنما فعل ذلك لا لايدّعى اهل الباطل من المستولين على ميراث رسول الله ﷺ من علم الكتاب ما لم يجعله وليقودهم الاضطرار الى الائتمار بمن ولاّه امرهم ، فاستكبروا عن طاعته تعززاً او افتراءً

على الله عزوجل الخبر»[١].

قال الطباطبائي (ره) في هل يعلم تأويل القرآن غير الله سبحانه ؟:

«هذه المسألة أيضاً من موارد الخلاف الشديد بين المفسرين ، ومنشأه الخلاف الواقع بينهم في تفسير قوله تعالى: **﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾**[٢] الآية ، وأن الواو هل هو للعطف ، أو للاستيناف ، فذهب بعض القدماء والشافعية ومعظم المفسرين من الشيعة إلى أن الواو للعطف وأن الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه من القرآن ، وذهب معظم القدماء والحنفية من أهل السنة إلى أنه للاستيناف، وأنه لايعلم تأويل المتشابه إلا الله وهو مما استأثر الله سبحانه بعلمه . وقد استدلت الطائفة الاولى على مذهبها بوجوه كثيرة ، وببعض الروايات . والطائفة الثانية بوجوه اخر وعدة من الروايات الواردة في : أن تأويل المتشابهات مما استأثرالله سبحانه بعلمه، وتمادت كل طائفة في مناقضة صاحبتها والمعارضة مع حججها .

والذي ينبغي أن يتنبه له الباحث في المقام أن المسألة لم تخل عن الخلط والاشتباه من أول مادارت بينهم ووقعت مورداً للبحث والتنقير ، فاختلط رجوع المتشابه الى المحكم . وبعبارة اخرى المعنى المراد من المتشابه بتأويل الآية ، كما ينبيء به ماعنونا به المسألة وقررناعليه الخلاف وقول كل من الطرفين آنفاً .

ولذلك تركنا التعرض لنقل حجج الطرفين لعدم الجدوى في إثباتها أو نفيها بعد ابتنائها على الخلط . وأما الروايات فإنها مخالفة لظاهر الكتاب فإن الروايات المثبتة ، أعني الدالة على أن الراسخين في العلم يعلمون التأويل فإنها أخذت التأويل مرادفاً للمعنى المراد من لفظ المتشابه ، ولا تأويل في القرآن بهذا المعنى . كما روي من طرق أهل السنة: أن النبي ﷺ دعا لابن عباس فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» ، وما روي من قول ابن عباس : أنا من الراسخين في العلم وأنا أعلم تأويله ، ومن قوله : إن المحكمات هي الآيات الناسخة والمتشابهات هي المنسوخة ، فإن لازم هذه الروايات على ما فهموه أن يكون معنى الآية المحكمة تأويلاً للآية المتشابهة ، وهو الذي أشرنا

---

١. نفحات الرحمن ج ١ ص ١٩ ـ ٢٠.

٢. سورة آل عمران: الآية ٧.

إليه : أن التأويل بهذا المعنى ليس مورداً لنظر الآية .

وأما الروايات النافية ، أعني الدالة على أن غيره لا يعلم تأويل المتشابهات ، مثل ما روي : أن ابن عباس كان يقرأ : وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون في العلم آمنا به. وكذلك كان يقرأ أبي بن كعب .

وما روي أن ابن مسعود كان يقرأ : وإن تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به .

فهذه لا تصلح لإثبات شيء :

أما أولاً : فلأن هذه القراءات لا حجية فيها .

وأما ثانياً : فلأن غاية دلالتها أن الآية لا تدل على علم الراسخين في العلم بالتأويل وعدم دلالة عليه غير دلالتها على عدمه ـ كما هو المدعى ـ فمن الممكن أن يدل عليه دليل آخر .

ومثل ما في الدر المنثور عن الطبراني عن أبي مالك الأشعري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا أخاف على امتي إلا ثلاث خصال : أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا ، وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذه المؤمن يبتغي تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا اولوا الألباب ، وأن يكثر علمهم فيضيعونه ولا يبالون به » . وهذا الحديث على تقدير دلالته على النفي لا يدل إلا على نفيه عن مطلق المؤمن لا عن خصوص الراسخين في العلم . ولا ينفع المستدل إلا الثاني .

ومثل الروايات الدالة على وجوب اتباع المحكم والإيمان بالمتشابه . وعدم دلالتها على النفي مما لا يرتاب فيه .

ومثل ما في تفسير الآلوسي عن ابن جرير عن ابن عباس مرفوعاً : أنزل القرآن على أربعة أحرف : حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير تفسره العلماء ، ومتشابه لا يعلمه إلا الله ، ومن ادعى علمه سوى الله تعالى فهو كاذب . والحديث مع كونه مرفوعاً ومعارضاً بما نقل عنه من دعوة الرسول له وادعائه العلم به لنفسه مخالف لظاهر

القرآن : أن التأويل غير المعنى المراد بالمتشابه على ما عرفت فيما مر .

والذي ينبغي أن يقال : إن القرآن يدل على جواز العلم بتأويله لغيره تعالى ، وأما هذه الآية فلا دلالة لها على ذلك .

وأما الجهة الثانية ، فلما مر في البيان السابق : أن الآية بقرينة صدرها وذيلها وما تتلوها من الآيات إنما هي في مقام بيان انقسام الكتاب الى المحكم والمتشابه ، وتفرق الناس في الأخذ بها فهم بين مائل الى اتباع المتشابه لزيغ في قلبه وثابت على اتباع المحكم والإيمان بالمتشابه لرسوخ في علمه ، فإنما القصد الأول في ذكر الراسخين في العلم بيان حالهم وطريقتهم في الأخذ بالقرآن ومدحهم فيه قبال ما ذكر من حال الزائغين وطريقتهم وذمهم ، والزائد على هذا القدر خارج عن القصد الأول ولا دليل على تشريكهم في العلم بالتأويل مع ذلك إلا وجوه غير تامة تقدمت الإشارة اليها ، فيبقى الحصر المدلول عليه بقوله تعالى : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ من غير ناقض ينقضه من عطف واستثناء وغير ذلك . فالذي تدل عليه الآية هو انحصار العلم بالتأويل فيه تعالى واختصاصه به .

لكنه لاينافي دلالة دليل منفصل يدل على علم غيره تعالى به بإذنه ، كما في نظائره مثل العلم بالغيب . قال تعالى : ﴿ قل لا يعلم من في السموات والارض الغيب إلا الله ﴾[1]، وقال تعالى : ﴿ إنما الغيب لله ﴾[2]، وقال تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾[3]، فدل جميع ذلك على الحصر ثم قال تعالى: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ﴾[4]. فأثبت ذلك لبعض من هو غيره وهو من ارتضى من رسول ، ولذلك نظائر في القرآن .

وأما الجهة الاولى ـ وهي أن القرآن يدل على جوار العلم بتأويله لغيره تعالى في الجملة ـ فبيانه : أن الآيات كما عرفت تدل على أن تأويل الآية أمر خارجي نسبته الى مدلول الآية نسبة الممثل الى المثل ، فهو وإن لم يكن مدلولا للآية بمالها من الدلالة لكنه

---

١. سورة النمل : الآية ٦٥.
٢. سورة يونس : الآية ٢٠.
٣. سورة الأنعام : الآية ٥٩.
٤. سورة الجن : الآية ٢٦ ـ ٢٧.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وليس المراد بذلك أنه كان مجموع الآيات مرتب السور على الحال الذي هو عليه الآن عندنا، كتاباً مؤلفاً مجموعاً بين الدفتين مثلاً ثم فرق وانزل على النبي نجوماً ليقرأه على الناس على مكث، كما يفرقه المعلم المقري منا قطعات ثم يعلمه ويقريه متعلمه كل يوم قطعة على حسب استعداد ذهنه.

وذلك أن بين إنزال القرآن نجوماً على النبي وبين إلقائه قطعة قطعة على المتعلم فرقاً بيناً؛ وهو دخالة أسباب النزول في نزول الآية على النبي ﷺ ولاشيء من ذلك ولا ما يشبهه في تعلم المتعلم، فالقطعات المختلفة الملقاة الى المتعلم في أزمنة مختلفة يمكن أن تجمع وينضم بعضها الى بعض في زمان واحد، ولايمكن أن تجمع أمثال قوله تعالى: ﴿فاعف عنهم واصفح﴾ [١]، وقوله تعالى: ﴿ قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ [٢]، وقوله تعالى: ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ﴾ [٣]، وقوله تعالى: ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ [٤]، ونحو ذلك فليغى سبب النزول وزمانها ثم يفرض نزولها في أول البعثة أو في آخر زمان حياة النبي ﷺ، فالمراد بالقرآن في قوله: (وقرآناً فرقناه) غير القرآن بمعنى الآيات المؤلفة.

وبالجملة: فالمحصل من الآيات الشريفة: أن وراء مانقرأه ونعقله من القرآن أمراً هو من القرآن بمنزلة الروح من الجسد، والمتمثل من المثال ـ وهو الذي يسميه تعالى بالكتاب الحكيم ـ وهوالذي تعتمد وتتكي عليه معارف القرآن المنزل ومضامينه، وليس من سنخ الألفاظ المفرقة المقطعة ولا المعاني المدلول عليها بها، وهذا بعينه هو التأويل المذكور في الآيات المشتملة عليه لانطباق أوصافه ونعوته عليه. وبذلك تظهر حقيقة معنى التأويل، ويظهر سبب امتناع التأويل عن أن تمسه الأفهام العادية والنفوس غير المطهرة.

ثم إنه تعالى قال: ﴿إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لايمسه إلا المطهرون ﴾ [٥]، ولاشبهة

---

١. سورة المائدة: الآية ١٣.
٢. سورة التوبة: الآية ١٢٣.
٣. سورة المجادلة: الآية ١.
٤. سورة التوبة: الآية ١٠٣.
٥. سورة الواقعة: الآية ٧٧ ـ ٧٩.

في ظهور الآيات في أن المطهرين من عباد اللّٰه هم يمسون القرآن الكريم الذي في الكتاب المكنون والمحفوظ من التغير ، ومن التغير تصرف الأذهان بالورود عليه والصدور منه ، وليس هذا المس إلا نيل الفهم والعلم ،ومن المعلوم أيضاً :أن الكتاب المكنون هذا هو ام الكتاب المدلول عليه بقوله : ﴿يمحو اللّٰه مايشاء ويثبت وعنده ام الكتاب﴾[1] ، وهوالمذكور في قوله : ﴿ وإنه في ام الكتاب لدينا لعلي حكيم ﴾[2].

وهؤلاء قوم نزلت الطهارة في قلوبهم ، وليس ينزلها إلا اللّٰه سبحانه ، فإنه تعالى لم يذكرها إلا كذلك ، أي منسوبة الى نفسه كقوله تعالى : ﴿إنما يريد اللّٰه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾[3] ، وقوله تعالى : ﴿ولكن يريد ليطهركم ﴾[4] ، ومافي القرآن شيء من الطهارة المعنوية إلا منسوبة الى اللّٰه أو باذنه ، وليست الطهارة إلا زوال الرجس من القلب ، وليس القلب من الإنسان إلا مايدرك به ويريد به ، فطهارة القلب طهارة بنفس الإنسان في اعتقادها وإرادتها وزوال الرجس عن هاتين الجهتين ، ويرجع الى ثبات القلب فيمااعتقده من المعارف الحقة من غير ميلان الى الشك ونوسان بين الحق والباطل ، وثباته على لوازم ماعلمه من الحق من غير تمائل الى اتباع الهوى ونقض ميثاق العلم ، وهذا هو الرسوخ في العلم ، فإن اللّٰه سبحانه ماوصف الراسخين في العلم إلا بأنهم مهديون ثابتون على ماعلموا غير زائغة قلوبهم الى ابتغاء الفتنة ، فقد ظهر أن هؤلاء المطهرين راسخون في العلم هذا .

ولكن ينبغي أن لاتشتبه النتيجة التي ينتجها هذا البيان ، فإن المقدار الثابت بذلك أن المطهرين يعلمون التأويل ، ولازم تطهيرهم أن يكونوا راسخين في علومهم لما أن تطهير قلوبهم منسوب الى اللّٰه وهو تعالى سبب غير مغلوب ، لا أن الراسخين في العلم يعلمونه بما أنهم راسخون في العلم ، أي إن الرسوخ في العلم سبب للعلم بالتأويل ، فإن الآية لاتثبت ذلك ، بل ربما لاح من سياقها جهلهم بالتأويل ، حيث قال تعالى :﴿يقولون

---

١. سورة الرعد : الآية ٣٩.
٢. سورة الزخرف : الآية ٣.
٣. سورة الاحزاب : الآية ٣٣.
٤. سورة المائدة : الآية ٦.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

من العقل إلا بظاهر منه وناطق عنه ».

أقول : قوله ﷺ : « لم يخف الله من لم يعقل عن الله » ، في معنى قوله تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [1] ، وقوله ﷺ : «ومن لم يعقل عن الله إلخ » أحسن بيان لمعنى الرسوخ في العلم ؛ لأن الأمر ما لم يعقل حق التعقل لم تنسد طرق الاحتمالات فيه ، ولم يزل القلب مضطرباً في الإذعان به ، وإذا تم التعقل وعقد القلب عليه لم يخالفه باتباع ما يخالفه من الهوى ، فكان ما في قلبه هو الظاهر في جوارحه وكان ما يقوله هو الذي يفعله ، وقوله : «ولا يكون أحد كذلك إلخ » بيان لعلامة الرسوخ في العلم .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن أنس وأبي أمامة وواثلة بن اسقف وأبي الدرداء : أن رسول الله ﷺ سئل عن الراسخين في العلم فقال : « من برت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه ، ومن عف بطنه وفرجه فذلك من الراسخين في العلم » .

أقول : ويمكن توجيه الرواية بما يرجع الى معنى الحديث السابق .

وفي الكافي عن الباقر ﷺ : « إن الراسخين في العلم من لايختلف في علمه » .

أقول : وهو منطبق على الآية ، فإن الراسخين في العلم قوبل به فيها قوله : (الذين في قلوبهم زيغ) ، فيكون رسوخ العلم عدم اختلاف العالم وارتيابه .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وابن جرير والطبراني وابن مردويه عن ام سلمة : أن رسول الله كان يكثر في دعائه أن يقول : «اللهم مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» . قلت : يا رسول الله وإن القلوب لتتقلب ؟ قال : « نعم ما خلق الله من بشر من بني آدم إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله فإن شاء أقامه ، وإن شاء أزاغه » الحديث .

أقول : وروي هذا المعنى بطرق عديدة عن عدة من الصحابة كجابر ونواس ابن شمعان وعبد الله بن عمر وأبي هريرة ، والمشهور في هذا الباب ما في حديث نواس : «قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن» . وقد روى اللفظة (فيما أظن) الشريف

١ . سورة فاطر : الآية ٢٨ .

الرضي في المجازات النبوية .

وروي عن علي عليه السلام أنه قيل له : هل عندكم شيء من الوحي ؟ قال : « لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يعطي الله عبداً فهماً في كتابه » .

أقول : وهو من غرر الأحاديث ، وأقل ما يدل عليه : أن ما نقل من أعاجيب المعارف الصادرة عن مقامه العلمي الذي يدهش العقول مأخوذ من القرآن الكريم .

وفي الكافي عن الصادق عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « يا أيها الناس إنكم في دار هدنة ، وأنتم على ظهر سفر ، والسير بكم سريع ، وقد رأيتم الليل والنهار والشمس والقمر يبليان كل جديد ، ويقربان كل بعيد ، ويأتيان بكل موعود ، فأعدوا الجهاز لبعد المجاز ، قال : فقام المقداد بن الأسود فقال : يا رسول الله وما دار الهدنة ؟ فقال : دار بلاغ وانقطاع ، فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع ، وما حل مصدق ، ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلفه ساقه الى النار ، وهو الدليل يدل على خير سبيل ، وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل ، وهو الفصل ليس بالهزل ، وله ظهر وبطن ، فظاهره حكم وباطنه علم ، ظاهره أنيق وباطنه عميق ، له تخوم وعلى تخومه تخوم ، لا تحصى عجائبه ، ولا تبلى غرائبه ، فيه مصابيح الهدى ، ومنار الحكمة ، ودليل على المعرفة لمن عرف الصفة، فليجل جال بصره، وليبلغ الصفة نظره ، ينج من عطب ، ويخلص من نشب ، فإن التفكر حياة قلب البصير ،كما يمشي المستنير في الظلمات ، فعليكم بحسن التخلص ، وقلة التربص » .

أقول : ورواه العياشي في تفسيره الى قوله : فليجل جال .

وفي الكافي وتفسير العياشي أيضاً عن الصادق عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «القرآن هدى من الضلالة، وتبيان من العمى ، واستقالة من العثرة ، ونور من الظلمة وضياء من الأحداث، وعصمة من الهلكة ، ورشد من الغواية ، وبيان من الفتن ، وبلاغ من الدنيا إلى الآخرة ، وفيه كمال دينكم ، وما عدل أحد من القرآن إلا إلى النار » .

أقول : والروايات في هذا المساق كثيرة عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة من أهل بيته عليهم السلام »[١].

١. الميزان ج ٣ ص ٦٨ ـ ٧٢.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

قال ابن تيمية في ان اسماء الله وصفاته من المتشابه ام لا ؟ :

وأما إدخال أسماء الله وصفاته، أو بعض ذلك في المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، أو اعتقاد أن ذلك هو المتشابه الذي استأثر الله بعلم تأويله، كما يقول كل واحد من القولين طوائف من أصحابنا وغيرهم، فانهم وإن أصابوا في كثير مما يقولونه ونجوا من بدع وقع فيها غيرهم، فالكلام على هذا من وجهين :

الأول. من قال : إن هذا من المتشابه وأنه لا يفهم معناه، فنقول :

أما الدليل على بطلان ذلك، فإني ما أعلم عن أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة لا أحمد بن حنبل ولا غيره أنه جعل ذلك من المتشابه الداخل في هذه الآية ونفى أن يعلم أحد معناه. وجعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الأعجمي الذي لا يفهم أحد معناه، وإنما قالوا كلمات لها معان صحيحة. قالوا في أحاديث الصفات تمر كما جاءت. ونهوا عن تأويلات الجهمية وردوها وأبطلوها، التي مضمونها تعطيل النصوص على ما دلت عليه. ونصوص أحمد والأئمة قبله بينة في أنهم كانوا يبطلون تأويلات الجهمية ويقرون النصوص على ما دلت عليه من معناها، ويفهمون منها بعض ما دلت عليه، كما يفهمون ذلك في سائر نصوص الوعد والوعيد والفضائل وغير ذلك. وأحمد قد قال : في غير أحاديث الصفات تمر كما جاءت في أحاديث الوعد، مثل قوله : « من غشنا فليس منا »[1]، وأحاديث الفضائل، ومقصوده بذلك : أن الحديث لا يحرف كلمه عن مواضعه كما يفعله من يحرفه ويسمى تحريفه تأويلا بالعرف المتأخر.

فتأويل هؤلاء المتأخرين عند الأئمة تحريف باطل، وكذلك نص أحمد في كتاب ـ الرد على الزنادقة والجهمية ـ أنهم تمسكوا بمتشابه القرآن، وتكلم أحمد على ذلك المتشابه وبين معناه وتفسيره بما يخالف تأويل الجهمية، وجرى في ذلك على سنن الأئمة قبله. فهذا اتفاق من الأئمة على أنهم يعلمون معنى هذا المتشابه، وأنه لا يسكت عن بيانه وتفسيره. بل يبين ويفسر باتفاق الأئمة من غير تحريف له عن مواضعه، أو

---

١. ورد الحديث في مسلم (كتاب الإيمان) ؛ الترمذي (كتاب البيوع) ؛ ابن ماجه (التجارات) ؛ الدارمي (البيوع) ابن حنبل ج ٢ ص ٥ ـ ٢٤٢.

إلحاد في أسماء الله وآياته.

ومما يوضح لك ما وقع هنا من الاضطراب، أن أهل السنة متفقون على إبطال تأويلات الجهمية ونحوهم من المنحرفين الملحدين.

والتأويل المردود هو صرف الكلام عن ظاهره إلى ما يخالف ظاهره. فلو قيل: إن هذا هو التأويل المذكور في الآية وأنه لا يعلمه إلا الله لكان في هذا تسليم للجهمية أن للآية تأويلا يخالف دلالتها لكن ذلك لا يعلمه إلا الله، وليس هذا مذهب السلف والأئمة، وإنما مذهبهم نفي هذه التأويلات وردها لا التوقف عليها، وعندهم قراءة الآية والحديث تفسيرها، وتمر كما جاءت دالة على المعاني، لا تحرف ولا يلحد فيها.

والدليل على أن هذا ليس بمتشابه لا يعلم معناه أن نقول: لا ريب أن الله سمى نفسه في القرآن بأسماء مثل الرحمن والودود والعزيز والجبار والعليم والقدير والرءوف ونحو ذلك، ووصف نفسه بصفات، مثل سورة الإخلاص، وآية الكرسي، وأول الحديد، وآخر الحشر وقوله: ﴿ إن الله بكل شيء عليم ﴾[1]، ﴿ وعلى كل شيء قدير ﴾[2]، ﴿ إن الله يحب المتقين ﴾[3]، و﴿ المقسطين ﴾[4]، و﴿ المحسنين ﴾[5]، وأنه يرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم ﴾[6]، ﴿ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله ﴾[7]، ﴿ ولكن كره الله انبعاثهم ﴾[8]، ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾[9]، ﴿ ثم استوى على العرش ﴾[10]، ﴿ ويعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم ﴾[11]، ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم ﴾[12]، ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه ﴾[13]، ﴿ إنني معكما أسمع وأرى ﴾[14]، ﴿ وهو الله في السموات والأرض ﴾[15]،

---

١. سورة التوبة: الآية ١١٥.
٢. سورة البقرة: الآية ٢٠.
٣. سورة آل عمران: الآية ٧٦.
٤. سورة المائدة: الآية ٤٢.
٥. سورة البقرة: الآية ٥٨.
٦. سورة الزخرف: الآية ٥٥.
٧. سورة محمد: الآية ٢٨.
٨. سورة التوبة: الآية ٤٦.
٩. سورة طه: الآية ٥.
١٠. سورة الاعراف: الآية ٥٤.
١١. سورة الحديد: الآية ٤.
١٢. سورة الزخرف: الآية ٨٤.
١٣. سورة فاطر: الآية ١٠.
١٤. سورة طه: الآية ٤٦.
١٥. سورة الانعام: الآية ٣.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بنفى مخالفة ما لم يتدبر لما تدبر .

وقال علي عليه السلام لما قيل له : هل ترك عندكم رسول الله ﷺ شيئاً ؟ فقال : لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهما يؤتيه الله عبدا في كتابه وما في هذه الصحيفة . فأخبر أن الفهم فيه مختلف في الأمة ، والفهم أخص من العلم والحكم ، قال الله تعالى : ﴿ففهّمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً ﴾[1] ، وقال النبي ﷺ « رب مبلغ أوعى من سامع » ، وقال : «بلغوا عني ولو آية » .

وأيضاً فالسلف من الصحابة والتابعين وسائر الأمة قد تكلموا في جميع نصوص القرآن ، آيات الصفات وغيرها ، وفسروها بما يوافق دلالتها ، وبيانها ورووا عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة توافق القرآن ، وأئمة الصحابة في هذا أعظم من غيرهم ، مثل عبدالله بن مسعود الذي كان يقول : « لو أعلم ـ أعلم بكتاب الله منى تبلغه اباط الابل لأتيته » ، وعبدالله بن عباس الذي دعا له النبي ﷺ وهو حبر الأمة وترجمان القرآن كانا هما وأصحابهما من أعظم الصحابة والتابعين إثباتاً للصفات ورواية لها عن النبي ﷺ . ومن له خبرة بالحديث والتفسير يعرف هذا . وما في التابعين أجل من أصحاب هذين السيدين ، بل وثالثهما في علية التابعين من جنسهم أو قريب منهم ومثلهما في جلالته جلالة أصحاب زيد بن ثابت ، ولكن أصحابه مع جلالتهم ليسوا مختصين به ، بل أخذوا عن غيره مثل عمر وابن عمر وابن عباس . ولو كان معنى هذه الآيات منفيا أو مسكوتاً عنه لم يكن ربانيو الصحابة أهل العلم بالكتاب والسنة أكثر كلاما فيه .

ثم إن الصحابة نقلوا عن النبي ﷺ أنهم كانوا يتعلمون منه التفسير مع التلاوة ، ولم يذكر أحد منهم عنه قط أنه امتنع من تفسير آية .

قال أبو عبدالرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا ـ عثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود وغيرهما ـ : أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، وكذلك الأئمة كانوا إذا سئلوا شيئاً من ذلك لم ينفوا معناه ، بل يثبتون المعنى وينفون الكيفية ، كقول مالك بن أنس لما سئل عن قوله تعالى:

---

١ . سورة الانبياء : الآية ٧٩ .

﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾[1] كيف استوى؟ ، فقال : « الإستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » ، وكذلك ربيعة قبله .

وقد تلقى الناس هذا الكلام بالقبول فليس [أحد] من أهل السنة ينكره . وقد بين أن الاستواء معلوم كما أن سائر ما أخبر به معلوم، ولكن الكيفية لا تعلم ولا يجوز السؤال عنها ، لا يقال : كيف استوى . ولم يقل مالك : الكيف معدوم ، وإنما قال : الكيف مجهول. وهذا فيه نزاع بين أصحابنا وغيرهم من أهل السنة ، غير أن أكثرهم يقولون : لا تخطر كيفيته ببال ، ولا تجري ماهيته في مقال .

ومنهم من يقول ليس له كيفية ولا ماهية .

فإن قيل : معنى قوله الاستواء معلوم ، أن ورود هذا اللفظ في القرآن معلوم قاله بعض أصحابنا الذين يجعلون معرفة معانيها من التأويل الذي استأثر الله بعلمه .

قيل : هذا ضعيف . فإن هذا من باب تحصيل الحاصل ، فان السائل قد علم أن هذا موجود في القرآن وقد تلا الآية .

وأيضا فلم يقل : ذكر الاستواء في القرآن ولا إخبار الله بالاستواء ، وإنما قال الإستواء معلوم . فأخبر عن الإسم المفرد أنه معلوم ، ولم يخبر عن الجملة .

وأيضاً فانه قال : الكيف مجهول ، ولو أراد ذلك لقال : معنى الاستواء مجهول أو تفسير الاستواء مجهول ، أو بيان الاستواء غير معلوم ، فلم ينف إلا العلم بكيفية الاستواء لا العلم بنفس الاستواء . وهذا شأن جميع ما وصف الله به نفسه ، لو قال في قوله : ﴿ إنني معكما أسمع وأرى ﴾[2] كيف يسمع وكيف يرى ؟ لقلنا السمع والرؤيا معلوم والكيف مجهول .

ولو قال : كيف كلم موسى تكليما ؟ لقلنا : التكليم معلوم والكيف غير معلوم .

وأيضا : فإن من قال هذا من أصحابنا وغيرهم من أهل السنة ؛ يقرون بأن الله فوق العرش حقيقة وأن ذاته فوق ذات العرش ، لا ينكرون معنى الاستواء ، ولا يرون هذا من المتشابه الذي لا يعلم معناه بالكلية .

---

١ . سورة طه : الآية ٥.
٢ . سورة طه : الآية ٤٦.

ثم السلف متفقون على تفسيره بما هو مذهب أهل السنة . قال بعضهم : ارتفع على العرش علا على العرش . وقال بعضهم عبارات أخرى ، وهذه ثابتة عن السلف قد ذكر البخاري في صحيحه بعضها في آخر كتاب ـ الرد على الجهمية ـ.

وأما التأويلات المحرفة مثل استوى وغير ذلك ؛ فهي من التأويلات المبتدعة لما ظهرت الجهمية . وأيضا قد ثبت أن اتباع المتشابه ليس في خصوص الصفات ، بل في صحيح البخاري : أن النبي ﷺ قال لعائشة : « يا عائشة إذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذريهم » وهذا عام . وقصة صبيغ بن عسل مع عمر بن الخطاب من أشهر القضايا ، فانه بلغه أنه يسأل عن متشابه القرآن حتى رآه عمر فسأل عمر عن: ﴿ الذاريات ذرواً ﴾[1] فقال ما اسمك ؟ قال عبدالله بن صبيغ ، فقال : وأنا عبدالله عمر ، وضربه الضرب الشديد . وكان ابن عباس إذا ألح عليه رجل في مسألة من هذا الجنس يقول : ما أحوجك أن يصنع بك كما صنع عمر بصبيغ .

وهذا لأنهم رأوا أن غرض السائل ابتغاء الفتنة لا الاسترشاد والاستفهام كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: « إذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه »، وكما قال تعالى : ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ﴾[2] فعاقبوهم على هذا القصد الفاسد ، كالذي يعارض بين آيات القرآن ، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك وقال : «لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض فان ذلك يوقع الشك في قلوبهم» . ومع ابتغاء الفتنة ابتغاء تأويله الذي لا يعلمه إلا الله ، فكان مقصودهم مذموماً ومطلوبهم متعذراً مثل أغلوطات المسائل التي نهى رسول الله ﷺ عنها .

ومما يبين الفرق بين المعنى والتأويل : أن صبيغا سأل عمر عن الذاريات وليست من الصفات، وقد تكلم الصحابة في تفسيرها، مثل علي بن أبي طالب مع ابن الكواء ـ لما سأله عنها ـ كره سؤاله لما رآه من قصده، ولكن عليا كانت رعيته ملتوية عليه لم يكن مطاعا فيهم طاعة عمر حتى يؤدبه. والذاريات والحاملات والجاريات والمقسمات فيها اشتباه، لأن اللفظ يحتمل الرياح والسحاب والنجوم والملائكة ويحتمل غير ذلك، إذ

١. سورة الذّاريات : الآية ١.

٢. سورة آل عمران : الآية ٧.

ليس في اللفظ ذكر الموصوف. والتأويل الذي لا يعلمه إلا الله هو أعيان الرياح ومقاديرها وصفاتها ومتى تهب، وأعيان السحاب وما تحمله من الأمطار ومتى ينزل المطر، وكذلك في قوله: إنا ونحن ونحوهما من أسماء الله التي فيها معنى الجمع كما اتبعه النصارى، فان معناه معلوم وهو الله سبحانه، لكن اسم الجمع يدل على تعدد المعاني بمنزلة الأسماء المتعددة مثل العليم والقدير والسميع والبصير، فان المسمى واحد ومعاني الأسماء متعددة، فهكذا الاسم الذي لفظه الجمع.

وأما التأويل الذي اختص الله به، فحقيقته ذاته وصفاته، كما قال مالك: والكيف مجهول، فاذا قالوا ما حقيقة علمه وقدرته وسمعه وبصره، قيل: هذا هو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله.

وما أحسن ما يعاد التأويل إلى القرآن كله. فإن قيل: فقد قال النبي ﷺ لابن عباس «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» قيل: أما تأويل الأمر والنهي فذاك يعلمه واللام هنا للتأويل المعهود، لم يقل تأويل كل القرآن، فالتأويل المنفي هو تأويل الأخبار التي لا يعلم حقيقة مخبرها إلا الله، والتأويل المعلوم هو الأمر الذي يعلم العباد تأويله، وهذا كقوله: ﴿هل ينظرون إلا تأويله، يوم يأتي تأويله﴾، وقوله: ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله﴾[1] فان المراد تأويل الخبر الذي أخبر فيه عن المستقبل، فانه هو الذي ﴿ينتظر﴾ و ﴿أتي﴾ ولما يأتهم. وأما تأويل الأمر والنهي فذاك في الأمر. وتأويل الخبر عن الله، وعمن مضى إن أدخل في التأويل لا ينتظر. والله سبحانه أعلم وبه التوفيق رحمه الله[2].

قال النهاوندي في ان الحروف المقطعة التي تكون في اوائل السور من ابين مصاديق المتشابه وبيان المراد منها :

«من أبين مصاديق المتشابه في القرآن الحروف المقطعات التي تكون في اوائل السور ولاشبهة انها رموز و اسرار بين الله تعالى والراسخين في العلم لايطلع عليها

١. سورة يونس: الآية ٣٩.

٢. دقائق التفسير ج ١ ص ١١٥ ـ ١٣٠ و تفسير الكبير (ابن تيمية) ج ٢ ص ١١٥ ـ ١٣٨.

غيرهم. عن الشعبي انه سئل عن فواتح السور فقال: انّ لكل كتاب سرّاً وانّ سرّ هذا القرآن فواتح السور، واختلفت الاخبار في بيان المراد منها واكثرها تدل على انّ كلّ حرف منها رمز من اسم من الاسماء الحسنى كما عن السدى، قال: فواتح السور اسماء من اسماء الرب جل جلاله فرّقت في القرآن، وقال الزجاج: انّ العرب كانوا ينطقون بالحرف الواحد كناية عن الكلمة الّتى هو منها.

وقال القاضي ابوبكر بن العربي في الحروف المقطعات: انه لولا ان العرب كانوا يعرفون انّ لّها مدلولاً متداولاً بينهم لكانوا اول من انكر ذلك على النبي ﷺ، بل تلا عليهم حمٓ فُصّلت وصٓ وغيرها فلم ينكروا عليه ذلك، بل صرّحوا بالتسليم له في البلاغة والفصاحة مع تشوّقهم الى عثرته و حرصهم على زلته، فدلّ على انّه كان امراً معروفاً بينهم لاانكار لهم فيه انتهى.

اقول: كان يكفى تداول التكوينة والارماز بالحروف المقطّعة في عدم تمكّنهم على الانكار والاعتراض ولايلزم معرفتهم بخصوص المعنى تفصيلاً، ولعلّ مراده المعرفة الاجماليّة وقد تظافرت روايات الخاصّة والعامّة على انّها رموز وكنايات عن اسماء اللّه تعالى وتعيينها وتبينها.

عن المجمع عن الصادق عليه السلام: «ان صٓ اسم من اسماء اللّه تعالى به اقسم اللّه».

وعن ابن عباس قال: آلم وطسمٓ وصٓ واشباهها قسم اقسم اللّه به وهو من اسماء اللّه تعالى.

وعن ابى العالية في الٓم قال: هذه الاحرف الثلاثة من الاحرف التّسعة والعشرين دارت بها الالسن، ليس منها حرف الاّ وهو مفتاح اسم من اسمائه تعالى.

اقول: يدل على ذلك مارواه الصدوق رحمه اللّه في اماليه من تفسير المعصوم كلّ حرف من حروف ابجد باسم من اسماء اللّه تعالى.

وعن تفسير ابن ماجه من طريق نافع عن ابي نعيم القارى عن فاطمة بنت على بن ابى طالب صلوات اللّه عليه: انها سمعت على بن ابي طالب يقول: «ياكهيٓعٓص اغفرلى».

وعن المجمع عن امير المؤمنين صلوات اللّه عليه: انّه قال في دعآئه: «كهيٓعٓص».

وعن الصادق عليه السلام في حديث: «واما الّم في آل عمران فمعناه: أنا اللّه المجيد».

وعنه عليه السلام في حديث: «والمصّ معناه: أنا اللّه المقتدر الصادق» ومن طريق العامة عن الضحاك مثله وقيل: معنى الصاد: المصور.

وعن محمد بن كعب القرضي، قال: المصّ الالف من اللّه والميم من الرحمن والصاد من الصمد.

وعن ابن عباس: معنى المص: أنا اللّه افصّل.

وعن الصادق عليه السلام في كهيعص: «معناه: أنا الكافي الهادي الوليّ العالم الصادق الوعد».

وعنه عليه السلام ايضاً: «كان لشيعتنا هاد لهم وليّ لهم عالم باهل طاعتنا صادق لهم وعده حتى يبلغ المنزلة التي وعدهم اياها في نصّ القرآن».

وعن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله تعالى: (كهيعَص) قالوا: هو هجاء مقطّع، الكاف من الملك، والهاء من اللّه، والياء والعين من العزيز، والصاد من المصور. وفي نقل آخر والصاد من الصمد.

وعن ام هانى عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله قال: «كافٍ امين عالم صادق».

اقول: الظاهر انه سقط من الرواية تفسير الهاء، كما ان الظاهر سقوط تفسير الياء او العين مما نقل عن ابن مسعود وعن ابن عباس في قوله: (كهيعَص) قال: الكاف الكافي والهاء الهادي والعين العالم والصاد الصادق.

وعن عكرمة في قوله: (كهيعَص) قال: يقول: أنَا الكبير أنَا الهادي انا عليّ أمين صادق.

وعن ابن عباس قال: الكاف من الكريم والهاء من الهادي والياء من الحكيم والعين من العليم والصاد من الصادق.

وعنه ايضاً: كافٍ هادٍ امين عزيز صادق. وعن محمد بن كعب في قوله: (طه) قال: الطاء من ذي الطوّل.

اقول: وفي عدة من روايات الخاصّة والعامّة: انّ طة اسم من اسماء النبي صلى الله عليه وآله. وفي بعضها معناه: يا طالب الحق.

وعن محمد بن كعب في قوله : (طسّم) قال الطاء من ذى الطول ، والسين من القدوس، والميم من الرحمن .

وعن الصادق عليه السلام: «اما حم فمعناه : الحميد المجيد» .

وعن سعيد بن جبير في قوله : (حم) قال : الحاء اشتقت من الرّحمن، والميم اشتقت من الرّحيم .

وعن محمد بن كعب في قوله : (حمعسق) قال : والحاء والميم من الرّحمن ، والعين من العليم ، والسّين من القدّوس ، والقاف من القاهر .

وعن الصادق عليه السلام : «اما حمعسق فمعناه : الحكيم المغيث العالم السميع القادر القوى» .

وقال بعض العامة : انّ القاف هنا اسم الجبل المحيط بالارض وهو مروى عن الصادق عليه السلام في تفسير قوله قاف .

وحكى عن الكرمانى في قوله : قاف : انّه حرف من اسمه قادر وقاهر .

وقال بعض في قوله : نون : انه مفتاح اسمه تعالى نور وناصر .

وروى عن الصادق عليه السلام : انّه اسم النبي صلى الله عليه وآله .

اقول : يمكن ان يستفاد من مجموع الروايات واختلافها ان كل حرف من الحروف المقطعات رمز عن الاسماء الحسنى التي تضمّنت ذلك الحرف ، فالقاف رمز عن اسم القاهر والقادر والقيوم وغير ذلك ، والصاد رمز عن المصور والصمد والصادق وغير ذلك، والعين رمز عن العزيز والعالم والعليم وامثال ذلك .

وفي روايات عديدة : ان مجموع الحروف المقطعات رمز عن اسم اللّٰه الاعظم .

عن القمى عن الباقر عليه السلام في بيان الحروف المقطعات : هي حروف من اسم اللّٰه الاعظم المقطوع يؤلّفه النبي صلى الله عليه وآله والامام عليه السلام فيكون الاسم الاعظم الذي اذا دعى اللّٰه به اجاب .

وعن المعانى عن الصادق عليه السلام : الم هو حرف من حروف اسم اللّٰه الاعظم يؤلّفه النبي والامام فاذا دعى به اجيب .

وعن ابن مسعود بسند صحيح عند العامة : هو اسم اللّٰه الاعظم .

وعن ابن عباس قال : الٓم اسم من اسماء اللّٰه تعالى الاعظم .

ونقل ابن عطية عن بعض القول : بـأنها الاسـم الاعـظم الاّ انـا لا نـعرف تأليـفه مـنها ومقتضى بعض الروايات : أن الراسخين في العلم يستفيدون من تأليفاتها ومن اعـدادهـا بحساب الجمل وعلم الحروف علوماً كثيرة .

كما عن الباقر عليه السلام : علم كلّ شيء في عسٓق .

وعن المجمع عن اميرالمؤمنين صلوات اللّٰه عليه انه قال : لكل كتاب صفوة وصـفوة هذا الكتاب حروف التهجي .

وعن المعاني والعياشي عن الصادق عليه السلام : انّه اتاه رجل من بنى اميّة وكان زيـديّاً فـقال له: قول اللّٰه عزوجلّ في كـتابه : المـصّ اىّ شـيء اراد بـهذا واى شـيء فـيه مـن الحـلال والحرام واى شيء فيه ممّا ينتفع به النّـاس ، قـال فـاغتاض عليه السلام مـن ذلك فـقال : «أمسك ويحك الالف واحد واللاّم ثلاثون والميم اربـعون والصـاد تسـعون كـم مـعك؟» فـقال الرجل: مائة و واحد وستّون فقال عليه السلام : «اذا انقضت احدى وستون ومـائة يـنقضى مـلك اصحابك» قال : فنظر الرّجل فلمّا انقضت احدى وستّون ومائة سنة يـوم عـاشورا دخـل المسوّدة الكوفة وذهب ملكهم .

وفي رواية ابى لبيد المخزومي عن ابي جعفر عليه السلام قـال : «ان لى فـي حـروف القـرآن المقطعة لعلماً جماً» انّ اللّٰه تبارك وتعالى انزل ﴿الم ذلك الكـتاب﴾ فـقام مـحمد صلى الله عليه وآله حتى ظهر نوره وثبتت كلمته وولد يوم ولد وقد مضى من الف السابع مائة سـنة وثـلاث سنين ، ثم قال : وتبيانه في كتاب اللّٰه في الحروف المقطّعة اذا عـددتها مـن غـير تكـرار، وليس من الحروف المقطّعة حرف تنقضى ايامه الا وقائم من بنى هاشم عند انقضائه ، ثم قال : الالف واحد واللام ثلاثون والميم اربـعون والصـاد تسـعون فـذلك مـائة و واحـد وستون ، ثم كان بدو خروج الحسين بن على عليه السلام الم اللّٰه فلما بلغت مدته، ثم قـام قـائم ولد العباس عند الٓمص ، ويقوم قائمنا عند انقضائها بالٓمر فافهم ذلك وعد واكتمه الخبر»

ولا يخفى ان الرواية من المشكلات التي يجب ردّ علمها اليهم عليهم السلام وان تصدى لشرحها

جماعة من العلماء، ولعلّه يستفاد من قوله: (انزل الـمّ ذلك الكتاب فقام محمد ﷺ) وجه تقديم هذه السورة على ساير السور حيث انّ فيها اشارة الى قيام النبي ﷺ وبدو بعثته.

ومن طرق العامة عن ابن عباس عن جابر بن عبدالله بن رئاب قال: مرّ ابو ياسر بن اخطب في رجال من اليهود برسول الله ﷺ وهو يتلو فاتحة سورة البقرة ﴿الٓـمٓ ذلك الكتاب لاريب فيه﴾ فاتى اخاه حيَ بن اخطب في رجال من اليهود، فقال: تعلمون والله لقد سمعت محمداً ﷺ يتلو فيما انزل عليه الٓـم ذلك الكتاب، فقال: أنت سمعته، فقال: نعم، فمشى حيّ في اولئك النّفر الى رسول الله ﷺ، فقالوا: الَم تذكر انّك تتلو فيما انزل عليك الٓـم ذلك الكتاب؟ فقال: بلى، فقالوا: لقد بَعَث الله قبلك انبياء ما نعلم بيّن نبيّ منهم ما مدّة ملكه وما اجل امّته غيرك، الالف بواحد واللاّم بثلاثين والميم باربعين فهذه احدى وسبعون سنة، أفتدخل في دين نبيّ انّما مدّة ملكه واجل امّته احدى وسبعون سنة؟ ثم قال: يا محمد هل مع هذا غيره؟ قال: (نعم المّص) قال: هذه اثقل واطول، الالف بواحد واللام بثلاثين والميم باربعين والصاد بتسعين فهذه احدى وستون ومائة سنة، هل مع هذا غيره؟ قال: (نعم الٓمر).

قال: هذه اثقل واطول، الالف بواحد واللام بثلاثين والميم باربعين والراء بمأتين هذه احدى وسبعون ومأتا سنة، ثم قال: لقد لبس علينا امرك حتى ما ندرى اقليلاً اعطيت ام كثيراً، ثم قال: قوموا عنه، ثم قال ابو ياسر لاخيه ومن معه ما يدريكم لعله قد جمع هذا كله لمحمّد ﷺ؛ احدى وسبعون واحدى وستّون ومائة واحدى وثلاثون ومأتان واحدى وسبعون ومأتان، فذلك سبعمائة واربع وثلاثون سنة، فقالوا: لقد تشابه علينا امرك فيزعمون ان الآيات نزلت فيهم: ﴿ هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أمّ الكتاب واخر متشابهات ﴾ (١).

وعن الاكمال عن الحجة القائم عجل الله فرجه في حديث انه سئل عن تأويل (كهيعصٓ) فقال: هذه الحروف من أنباء الغيب اطلع الله عبده زكريا ثم قصّها على محمد ﷺ، وذلك انّ زكريا سأل ربّه ان يعلّمه اسمآء الخمسة فاهبط الله عليه جبرئيل

١. سورة آل عمران: الآية ٧.

فعلّمه ايّاها، فكان زكريّا اذا ذكر محمّداً ﷺ وعلياً ﷺ وفاطمة والحسن ﷺ سرى عنه همّه وانجلى كربه، واذا ذكر الحسين ﷺ خنقته العبرة ووقعت عليه البهرة، فقال ذات يوم: الهي ما بالي اذا ذكرت اربعاً منهم تسليت باسمائهم من همومي واذا ذكرت الحسين ﷺ تدمع عيني وتثور زفرتي، فانبأ تبارك وتعالى عن قصّته، فقال: (كهيعص) فالكاف اسم كربلا والهاء هلاك العترة واليآء يزيد لعنه الله وهو ظالم الحسين ﷺ والعين عطشه والصّاد صبره، فلمّا سمع ذلك زكريّا لم يفارق مسجده ثلاثة ايام ومنع فيها الناس من الدخول عليه واقبل على البكاء والنّحيب الخبر.

ثم لايذهب عليك انّه لا منافاة بين الاخبار لا مكان ان يكون ذات الحروف المقطّعة كناية ورمزاً عن امور، وتركيبها عن امور، وعددها اشارة الى امور، ويستفاد بعض انحاء استفادتهم عليهم السلام العلوم من الكتاب من الرواية الواردة. عن الباقر ﷺ في تفسير الصمد حيث سألوه عن مسائل واجابهم، ثم سألوه عن الصمد فقال: «تفسيره فيه، الصمد خمسة احرف فالالف دليل على اننيته وهو قوله عزّ وجلّ ﴿شهد الله انه لا إله إلا هو﴾ وذلك تنبيه واشارة الى الغايب عن درك الحواس، واللام دليل على آلهيّته وانه هو الله، والالف واللام مدغمان لايظهران على اللسان ولا يقعان في السمع ويظهران في الكتابة، دليلان على انه الَهيّته بلطفه خافية لا تدرك بالحواس ولا تقع في لسان واصف ولا اذن سامع؛ لأن تفسير الإله هو الذي اله الخلق عن درك ماهيّته وكيفيّته تجسس أو بوهم، لأنه مبدع الاوهام وخالق الحواس، وانما يظهر ذلك عند الكتابة دليل على انّ الله تعالى اظهر ربوبيته في ابداع الخلق وتركيب ارواحهم اللطيفة في اجسادهم الكثيفة، فاذا نظر عبد الى نفسه لم ير روحه كما انّ لام الصّمد لا تبين ولا تدخل في حاسة من الحواس الخمس، فاذا نظر الى الكتابة ظهر له ما خفي ولطف، فمتى تفكّر العبد في ماهية البارى وكيّفيته آله فيه وتحيّر ولم تحط فكرته بشيء يتصور له؛ لانه عزوجل خالق الصّور، فاذا نظر الى خلقه ثبت له انه عزّ وجلّ خالقهم ومركّب ارواحهم واجسادهم.

واما الصاد فدليل على انّه عزّ وجلّ صادق وقوله صدق وكلامه صدق ودعا عباده الى اتّباع الصدق وعد بالصدق دار الصدق.

واما الميم فدليل على ملكه وانّه الملك الحق لم يزل ولا يزال ولا يزول ملكه .

واما الدال فدليل على دوام ملكه وانه عز وجل دائم متعال عن الكون والزوال، بل هو عزّ وجلّ مكون الكائنات الذي كان بتكوينه كل كائن، ثم قال : لو وجدت لعلمي الذي اتاني اللّه عز وجل حملة لنشرت التوحيد والاسلام والايمان والدّين والشّرايع من الصمد، وكيف لي بذلك ولم يجد جدّي اميرالمؤمنين عليه السلام حملة لعلمه حتى كان يتنفّس السّعداء، ويقول على المنبر: سلوني قبل ان تفقدوني فان بين الجوانح منّي علماً جماً هاه هاه الا لا اجد من يحمله الاوانى عليكم من اللّه الحجة البالغة . الخبر).

ثم اعلم انّ ما ذكرناه من الفوائد للحروف المقطّعة مختصّ بالخواص وهم الراسخون في العلم واما فائدتها لعامة الناس، فهي على ما قيل: ان العرب كان اذا سمعوا القرآن لغوا فيه فانزل اللّه تعالى هذا النّظم البديع ليعجبوا منه، فيكون تعجّبهم منه سبباً لاستماعهم وسماعهم له سبباً لاستماع ما بعده فترّق القلوب وتلين الافئدة .

وقيل : انّه ذكرت هذه الحروف المقطعة اشعاراً بانّ القرآن مؤلّف من الحروف التي هي ا بَ تَ ليدل القوم الّذين نزل القرآن بلغتهم انه بالحروف التي يعرفونها ويتداولونها في السنتهم، فيكون ذلك تقريعاً لهم ودلالة على عجزهم ان يأتوا بمثله بعد ان يعلموا انّه منزل بالحروف التي يعرفونها ويبنون كلامهم منها، والى هذا الوجه اشار العسكرى ﷺ في التفسير المنسوب اليه» .[١]

قال الخفاجي في رأى جديد في فواتح سور القرآن :

«الآراء في معانى ابتداءات سورالقرآن الكريم كثيرة ، والاختلافات حولها متعددة ، أهى أسماء اللّه تعالى ، أم هى أسماء للسور نفسها ، أم هى حروف لا أسماء ، وما معناها حينئذ؟ ، أم أن اللّه تعالى هو الذى ينفرد بعلم ذلك ، وعقل الإنسان يعجز عن فهم أسرار اللّه تعالى فيها ، أم هي رموز لمعان دينية أو صوفية ..الخ؟ .

اختلاف كثير لاحصر له ولقد رجح من قبل الإمام جار اللّه الزمخشرى أن هذه الفواتح عدة حروف هجائية صدر اللّه بها الكثير من سور قرآنه ليقول للعرب : « إن هذا

---

١. نفحات الرحمن ج ١ ص ٢١ ـ ٢٣ ..

القرآن المنزل على محمد من جنس كلامكم، مكون من مثل هذه الحروف الميسورة لكم، نستفتح بها الحديث معكم، فإن كنتم في ريب من إلهية هذا الكتاب وقدسيته فدونكم مجال التحدي والأعجاز، فأتوا بمثله إن استطعتم»، وسبقه إلى ذلك الباقلاني.

ولقد عرض لي رأي جديد في هذا الموضوع، وخلاصته هي: افتتح اللّه سبحانه وتعالى تسعا وعشرين سورة من سور القرآن بهذه الابتداءات: ألم ألمَر المَص ـ كهعيص ـ طسم ـ طس ـ يس ـ حمعسق ـ حم ـ ص ـ ق ـ ن ـ طه الر: وهي كلمات مكونة من بعض حروف الهجاء وتقرأ هذه الكلمات بقراءة الحروف الهجائية المركبة منها مع إسكان هذه الحروف، فمثل، «ألم» تقرأ هكذا «ألف لام ميم»، والحروف التي كررت في هذه الفواتح هي أربعة عشر حرفا من حروف الهجاء البالغة تسعة وعشرون، ومجموع عدد الحروف المكررة ثمانية وسبعون حرفا.

فما معنى بدء بعض سور القرآن بهذه الحروف المفردة أو المركبة، يريد اللّه عز وجل بذلك التنويه بالعربية التي هذه بعض حروفها، والإشادة بالقرآن الكريم ـ كتاب العربية الخالد ـ الذي تلك بعض آياته.

وكأن اللّه عز وجل يقول للناس: هذه هي اللغة العربية لغة البيان والفصاحة وهذا هو القرآن كتاب اللّه المعجز، وكتاب العربية المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد...

وخلاصة رأيي هذا: أن هذه الابتداءات تشير إلى الصلة الوثيقة بين القرآن والعربية، وإلى أن هذه الرسالة السماوية وهي آخر الرسالات نزل بها القرآن العربي المبين، واختير لنشرها محمد أكرم العرب والخلق أجمعين، وإلى أنها ستكون مجداً للعرب والعربية طول العصور»[1].

قال الزحيلي: في الحروف التي في أوائل السور ـ الحروف المقطعة ـ:

«بدأ الحق سبحانه وتعالى بعض السور المكية أو المدينة القرآنية ببعض حروف التهجي أو الحروف المقطعة، منها البسيط المؤلف من حرف واحد، وذلك في سور

١. تفسير القرآن الحكيم للخفاجي ج ١ ص ٢٤ ـ ٢٥

ثلاث : صاد وقاف والقلم ، إذ افتتحت الأولى بحرف: ﴿صٓ﴾ والثانية بحرف : ﴿ ق ﴾ ، والثالثة بحرف : ﴿ ن ﴾ .

ومنها فواتح عشر سور مؤلفة من حرفين ، سبع منها متماثلة تسمى : الحواميم، لابتدائهابحرفي : ﴿ حمٓ ﴾ ، وهي سور: غافر، وفصّلت ، والشورى، والزخرف ، والدخان ، والجاثية ، والأحقاف ، وتتمة العشر : هي سور : طه ، وطس ، ويس .

ومنها فواتح ثلاث عشرة سورة مركبة من ثلاثة أحرف ، ست منها بدئت بـ ﴿الٓمٓ ﴾ وهي سور : البقرة ، و آل عمران ، والعنكبوت ، والروم ، ولقمان ، والسجدة . وخمس منها بلفظ ﴿الٓر ﴾ : وهي سور : يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر . واثنتان منها بدئت بـ﴿طسٓمٓ ﴾ ، وهما سورتا الشعراء والقصص .

ومنها سورتان افتتحتا بأربعة أحرف ، وهما سورة الأعراف وفاتحتها ﴿الٓمٓصٓ ﴾ وسورة الرعد وفاتحتها ﴿الٓمٓر﴾ .

ومنها سورة واحدة افتتحت بخمسة حروف هي سورة مريم ومستهلها : ﴿ كهيعص﴾ . فصارت مجموعة الفواتح القرآنية تسعاً وعشرين ، وهي على ثلاثة عشر شكلاً ، وحروفها أربعة عشر ، وهي نصف الحروف الهجائية (١)

وقد اختلف أهل التأويل المفسرون في بيان المقصود من فواتح السور(٢)، فقال جماعة : هي سرّ الله في القرآن ، ولله في كل كتاب سر ، وهي مما استأثر الله بعلمه ، فهومن المتشابه الذي نؤمن به ، على أنه من عندالله ، دون تأويل ولا تعليل ، لكنه أمر مفهوم عند النبي ﷺ .

وقال جماعة : لابد أن يكون لذكره معنى وجيه ، والظاهر أنه إيماء إلى إقامة الحجة على العرب وتثبيته في أسماعهم وآذانهم ، بعد أن تحداهم القرآن على أن يأتوا بمثله ، علماً بأن القرآن مؤتلف من حروف هي التي منها بناء كلامهم .

فكأنه يقول لهم : كيف تعجزون عن الإتيان بمثله أو بمثل سورة منه مع أنه كلام

---

١ . مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح : ص ٢٣٤ ومابعدها .
٢ . تفسير القرطبي ج ١ ص ١٥٤ ومابعدها .

عربي، مكون من حروف هجائية، ينطق بها كل عربي: أمي أو متعلم؟، وهم أساطين البيان وفرسان الفصاحة والبلاغة، ويعتمدون على هذه الحروف في الكلام: نثره وشعره وخطابته وكتابته، وهم يكتبون بهذه الحروف، ومع هذا فقد عجزوا عن مجاراة القرآن الذي نزل على محمد ﷺ، فقامت الحجة عليهم أنه كلام الله، لا كلام بشر، فيجب الإيمان به، وتكون الفواتح الهجائية تقريعاً لهم وإثباتاً لعجزهم أن يأتوا بمثله.

لكنهم لما عجزوا عن معارضة القرآن. كانوا مكابرين معاندين في عدم الإيمان به، وقالوا ببلاهة وسخف، وسطحية وسذاجة عن محمد والقرآن: محمد ساحر، شاعر، مجنون، والقرآن: أساطير الأولين، وذلك كله آية الإفلاس. ومظهر الضعف، وفقد الحجة، وكذب المعارضة والممانعة، وكفر المقلّدة. والعكوف على التقاليد العتيقة البالية، والعقائد الوثنية الموروثة الخرقاء.

والرأي الثاني: هو رأي جماهير المفسرين والمحققين من العلماء، وهو المعقول لمقتضى فتح الأسماع، واستماع القرآن، والإقرار بأنه كلام الله تعالى»[1].

---

١. المنير ج ١ ص ٣٨.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

التفسير والمفسرون

□ معنى التفسير ومبادله .

□ معنى التأويل .

□ الفرق بين التفسير والتأويل .

□ هل القرآن يترجم ؟

□ فضل علم التفسير .

□ الحاجة الى التفسير .

□ هل يجوز التفسير أم لا؟

□ معنى التفسير بالرأي

□ أقسام التفسير .

□ فيما يحتاج اليه المفسّر .

□ أسباب الاختلاف في التفسير .

□ فوائد أسباب النزول .

□ في قصص القرآن وسرّ تكريرها .

□ الاسرائيليات .

□ طبقات المفسرين .

□ احسن طرق التفسير .

□ اهم كتب التفسير .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

معنى التفسير ومبادئه

قال ابوحيان: « التفسير في اللغة: الاستبانة و الكشف ، قال: «ابن دريد »:و منه يقال للماء الذى ينظر فيه الطبيب: تفسره، وكأنه تسمية بالمصدر؛ لان مصدر فعل جاء أيضا على تفعله، نحو جرب تجربة و كرم تكرمة، وانكان القياس فى الصحيح من فعل التفعيل كقوله تعالى: ﴿وأحسن تفسيرا﴾[1]، و ينطلق أيضا التفسير على التعرية للانطلاق، قال ثعلب تقول : فسرت الفرس عَرَّيتُه لينطلق فى حضره، و هو راجع لمعنى الكشف فكأنه كشف ظهره لهذا الذى يريده منه من الجري. و أما الرسم فى الاصطلاح ؛ فنقول :التفسير علم يبحث فيه عن كيفية النطق بالفاظ القرآن، و مدلولاتها، و أحكامها الافرادية والتركيبية، ومعانيها التى تحمل عليها حالة التركيب، و تتمات لذلك .

فقولنا : علم هو جنس يشمل سائر العلوم، و قولنا: يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن هذا هو علم القراءات ، و قولنا: و مدلولاتها أى مدلولات تلك الألفاظ و هذا هو علم اللغة الذى يحتاج اليه فى هذا العلم ، و قولنا: و أحكامهاالافرادية و التركيبية هذا يشمل علم التصريف و علم الاعراب و علم البيان و علم البديع، [وقولنا:] و معانيها التى تحمل عليها حالة التركيب، شمل بقوله التى تحمل عليها ما لا دلالة عليه بالحقيقة و ما دلالته عليه بالمجاز، فان التركيب قد يقتضى بظاهره شيئاً و يصد عن الحمل على الظاهر

---

١. سورة الفرقان: الآية ٣٣.

صادٌ فيحتاج لاجل ذلك أن يحمل على غير الظاهر و هو المجاز، و قولنا: و تتمات لذلك هو معرفة النسخ و سبب النزول و قصة توضح بعض ما أبهم في القرآن و نحو ذلك»[١].

قال الآلوسى في معنى التفسير: «أما معناه فالتفسير تفعيل من الفسر و هو لغة البيان و الكشف و القول بأنه مقلوب السفر مما لايسفر له وجه، و يطلق التفسير على التعرية للانطلاق يقال: فسرت الفرس اذا عَرّيتُه لينطلق، و لعله يرجع لمعنى الكشف كما لا يخفى، بل كل تصاريف حروفه لاتخلو عن ذلك كما هو ظاهر لمن أمعن النظر، و رسموه بأنه علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن و مدلولاتها و أحكامها الافرادية والتركيبية و معانيها التى تحمل عليها حالة التركيب و تتمات لذلك، كمعرفة النسخ وسبب النزول و قصة توضح ما أبهم في القرآن و نحو ذلك»[٢].

قال صديق حسن خان: «و هو علم باحث عن نظم نصوص القرآن، و آيات سور الفرقان بحسب الطاقة البشرية و بوفق ما تقتضيه القواعد العربية، قال الفنارى: الأولى أن يقال: علم التفسير معرفة أحوال كلام الله سبحانه و تعالى من حيث القرآنية، و من حيث دلالته على ما يعلم أو يظن أنه مراد الله تعالى بقدر الطاقة الانسانية انتهى، و هذا يتناول أقسام البيان بأسرها، و لا يرد عليه ما يرد على سائر الحدود، و مبادئه العلوم اللغوية و أصول التوحيد و أصول الفقه و غير ذلك من العلوم الجمة.

والغرض منه معرفة معاني النظم ومعرفة الأحكام الشرعية العملية، و فائدته حصول القدرة على استنباط الأحكام الشرعية على وجه الصحة، و موضوعه كلام الله سبحانه الذي هو منبع كل حكمة و معدل كل فضلة، و غايته التوصل إلى فهم معاني القرآن و استنباط حكمه ليفوز به إلى السعادة الدنيوية و الأخروية، و شرف العلم و جلالته باعتبار شرف موضوعه و غايته، فهو أشرف العلوم و أعظمها، ذكره أبو الخير و ابن صدر الدين»[٣].

---

١. البحر المحيط ج ١ ص ١٤ ـ ج ١٣ ص ١٣ ـ ١٤.
٢. روح المعاني ج ١ ص ٤.
٣. فتح البيان ج ١ ص ١١.

قال ابن عربي في تفسير القرآن: «اعلم أن الآية المتلفظ بها من كلام الله بأى وجه كان، من قرآن أو كتاب منزل أو صحيفة أو خبر إلهى، فهى آية على ما تحتمله تلك اللفظة من جميع الوجوه، أى علامة مقصودة لمن أنزلها بتلك اللفظة الحاوية فى ذلك اللسان على تلك الوجوه، فإن منزلها عالم بتلك الوجوه كلها و عالم بأن عباده متفاوتون فى النظر فيها، و أنه ما كلفهم فى خطابه سوى ما فهموا عنه فيه، فكل من فهم من الآية وجهاً فذلك الوجه هو مقصود بهذه الآية فى حق هذا الواجد له، و ليس يوجد هذا فى غير كلام الله و إن احتمله اللفظ، فإنه قد لا يكون مقصوداً للمتكلم به، لعلمنا بقصور علمه عن الإحاطة بما فى تلك اللفظة من الوجوه، و لهذا كان كل مفسر فسر القرآن ولم يخرج عما يحتمله اللفظ فهو مفسر، و من فسره برأيه فقد كفر، كذا ورد فى حديث الترمذى، و لا يكون برأيه إلا حتى يكون ذلك الوجه لا يعلمه أهل ذلك اللسان فى تلك اللفظة و لا اصطلحوا على وضعها بإزائه، فالقرآن هو البحر الذى لا ساحل له، إذ كان المنسوب إليه يقصد به جميع ما يطلبه الكلام من المعانى، بخلاف كلام المخلوقين، فكلام الله إذا نزل بلسان قوم فاختلف أهل ذلك اللسان فى الفهم عن الله ما أراده بتلك الكلمة أو الكلمات مع اختلاف مدلولاتها، فكل واحد منهم و إن اختلفوا فقد فهم عن الله ما أراده، فإنه عالم بجميع الوجوه تعالى، و ما من وجه إلا و هو مقصود لله تعالى بالنسبة إلى هذا الشخص المعين، ما لم يخرج من اللسان، فإن خرج من اللسان، فلا فهم و لا علم، و كل وجه تحتمله كل آية من كلام الله من فرقان و توراة و زبور و إنجيل و صحيفة عند كل عارف بذلك اللسان، فإنه مقصود لله تعالى فى حق ذلك المتأول، لعلمه الإحاطى سبحانه بجميع الوجوه، فلا سبيل إلى تخطئة عالم فى تأويل يحتمله اللفظ، فإن مخطئه فى غاية القصور فى العلم، و لكن لا يلزمه القول به ولا العمل بذلك التأويل، إلا فى حق ذلك المتأول خاصة و من قلده.

و إذا وردت الآية أو الخبر بلفظ ما من اللسان، فالأصل أن يؤخذ بما هو عليه فى لغة العرب، فإن أطلقه الشارع على غير المفهوم من اللسان كاسم الصلاة و اسم الوضوء و اسم الحج و اسم الزكاة، صار الأصل ما فسره به الشارع، و لم يحمل عليه ما هو عليه

فى اللسان حتى يرد من الرسول فى ذلك اللفظ أنه لما هو عليه من اللسان ، فيعدل عند ذلك إليه فى ذلك الخبر على التعيين ، فإن الشارع إذا عيّن ما أراده باللفظ ، صار ذلك الوصف بذلك اللفظ أصلا ، فمتى ورد اللفظ به من الشارع فإنه يحمل على المفهوم منه فى الشرع حتى يدل دليل آخر من الشارع أو من قرائن الأحوال أنه يريد بذلك اللفظ المفهوم منه فى اللغة أو أمراً آخر بعينه أيضا ، هذا مطرد فى جميع ما تلفظ به الشارع[1].

قال عبد القادر فى معنى التفسير: «إعلم رعاك الله ، ان التفسير هو كشف ما غطى لأنه مأخوذ من الفسر ، و هو الكشف و بيان المعانى المعقولة من الألفاظ ، فكما أن الطبيب ينظر فى تفسيرته إى دليله ليكشف عن علة المريض بعد فحصه و معرفة الداء ليصف له الدواء ، كذلك المفسر ينظر فى معانى الألفاظ بعد تمحيصها ليكشف عن غوامضها ، ويعلم معناها وشأنها وقصتها ، وهو يتوقف على النقل المسموع فى معانى الألفاظ ، ويلحق به الحديث الشريف ، أما فى غيرهما فلا يتوقف على ذلك ،بل له أن يقدح فكرته لاستخراج معانى الكتب الأخرى »[2].

قال ابن عاشور فى معنى التفسير: «التفسير مصدر فسّر بتشديد السين الذى هو مضاعف فسر بالتخفيف ـ من بابى نصر و ضرب ـ الذى مصدره الفَسْر ، و كلاهما فعل متعد فالتضعيف ليس للتعدية .

و الفسر الإبانة و الكشف لمدلول كلام أو لفظ بكلام آخر هو اوضح لمعنى المفسَّر عند السامع ، ثم قيل المصدران و الفعلان متساويان فى المعنى ، و قيل يختص المضاعف بإبانة المعقولات ، قاله الراغب و صاحب البصائر ، و كأن وجهه أن بيان المعقولان يكلف الذى يبينه كثرة القول ، كقول أوس بن حجر :

الألمعى الذى يظن بك الظـ ـن كأن قد رأى و قد سمعا

فكان تمام البيت تفسيرا لمعنى الألمعى ، و كذلك الحدود المنطقية المفسّرة للمواهى و الأجناس ، لاسيما الأجناس العالية الملقبة بالمقولات فناسب أن يخص هذا البيان بصيغة المضاعفة ، بناء على ان فعَّل المضاعف إذا لم يكن للتعدية كان المقصود

---

١. رحمة من الرحمن ج ١ ص ١١ - ١٣. ٢. بيان المعانى ج ١ ص ١٤.

منه الدلالة على التكثير من المصدر ،قال في الشافية «و فعّل للتكثير غالباً» و قد يكون التكثير ـو ذلك مجازيًا واعتبارياً ـبأن ينزل كدُّ الفكر في تحصيل المعاني الدقيقة ، ثم في اختيار أضبط الأقوال لإبانتها منزلة العمل الكثير كتفسير صُحَارٍ العَبْدِي [١] و قد سأله معاوية عن البلاغة فقال : «أن تقول فلا تخطىء ، و تجيب فلا تبطىء» ثم قال لسائله: أقلني «لا تخطىء و لا تبطىء».

و يشهد لهذا قوله تعالى : ﴿ و لا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق و أحسن تفسيرا ﴾[٢].

فأما إذا كان فعّل المضاعف للتعدية فإنّ إفادته التكثير مختلف فيها ، و التحقيق أن المتكلم قد يعدل عن تعدية الفعل بالهمزة إلى تعديته بالتضعيف لقصد الدلالة على التكثير؛ لأن المضاعف قد عُرف بتلك الدلالة في حالة كونه فعلاً لازماً فقارنته تلك الدلالة عند استعماله للتعدية مقارنة تبعية . ولذلك قال العلامة الزمخشري في خطبة الكشاف: «الحمد لله الذي أنزل القرآن كلاما مؤلفاً منظماً ، و نزّله على حسب المصالح منجماً» فقال المحققون من شراحه : جمع بين أنزل و نزل لما في نزل من الدلالة على التكثير ، الذي يناسب ما أراده العلامة من التدريج والتنجيم . و أنا أرى أن استفادة معنى التكثير في حال استعمال التضعيف للتعدية أمر من مستتبعات الكلام حاصل من قرينة عدول المتكلم البليغ عن المهموز ، الذي هو خفيف إلى المضعف الذي هو ثقيل ، فذلك العدول قرينة على المراد و كذلك الجمع بينهما في مثل كلام الكشاف قرينة على إرادة التكثير . .....

و التفسير في الاصطلاح نَقُوْل :

هو اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن و ما يستفاد منها باختصار أو توسع . و المناسبة بين المعنى الاصلي و المعنى المنقول اليه لايحتاج الى تطويل»[٣].

---

١. صحار بضم الصاد و تخفيف الحاء المهملتين ، و هو ابن عياش ، بليغ من بلغاء قبيلة عبد القيس في صدر الدولة الأموية.

٢. سورة الفرقان: الآية ٣٣.

٣. التحرير والتنوير ج ١ ص ١٠ -١٢.

قال مغنية :

«التفسير في اللغة الإستبانة، وفي الاصطلاح علم يبحث فيه عن معاني ألفاظ القرآن وخصائصه»[١].

قال السيد مصطفى الخميني (ره): «الاولى ما هي حقيقة علم التفسير؟.

قال ابو حيان: لم اقف لاحد من علماء التفسير على رسم له [٢].

«فنقول: التفسير في اللغة الإستبانة والكشف، قاله ابن دريد، الى ان قال: وأما الرسم في الاصطلاح فنقول: التفسير علم يبحث فيه عن كيفية النطق بالفاظ القرآن ومدلولاتها واحكامها الافرادية والتركيبية ومعانيها التي عليها حالة التركيب وتتمات لذلك » انتهى.

والذي تقرر أن لكل علم موضوعا وربما يكون موضوع العلم عين موضوع مسائله، وما هو موضوع علم التفسير في هذه المسألة هو القرآن بمجموعه، وموضوع مسائله اجزاؤه كعلم الجغرافيا.

واما تعريفه: فهو العلم بالمرادات والمقاصد الكامنة فيه بالاحاطة عليها بقدر الطاقة البشرية، والإحاطة المطلقة غير ممكنة حتىٰ لمن نزل عليه ﷺ، وما جعله رسما يرجع الى انحلال علم التفسير الى العلوم المختلفة وعدم كونه علما مستقلا قبال سائر العلوم المدونة.

وأمّا عوارضه الذاتية: فهي ما تعرض لموضوعات مسائله من غير واسطة تورث مجازتيها، واتضحت من تعريفه ما هي حقيقتها.

وأمّا غايته: فهي الوصول الى درجة العقول في النيل بالاصول النازل على الرسول ﷺ، وشرافته بعد بعض العلوم اكثر من ساير الفنون لشرافة موضوعه، وله المبادي التصورية والتصديقية من العلوم الادبية الراجعة الى فهم المفردات والمركبات، وحيث ان المحرر في محله؛ ان وحدة العلوم اعتبارية وليست طبيعية ولا تأليفية وهي تابعة لوحدة الموضوع، فعلم التفسير تارة يكون موضوعه مطلق الكتب السماوية، واخرى يكون كتابا خاصا، والذي هو موضوع علم التفسير في هذه الامة هو القرآن العظيم والكتاب الكريم،

---

١. التفسير الكاشف ج ١ ص ٩. ٢. تفسير البحر المحيط ج ١ ص ١٣.

فيشبه علم الطب في السعة والضيق بحسب سعة الموضوع وضيقه، وغير خفي أن مسائل هذا العلم ليست من القضايا الحقيقية، بل هي دائرة بين القضايا الخارجية والشخصية.

ونحن قد بسطنا البحث حول هذه المسائل في موسوعتنا الاصولية، ولمكان ان المفسر لابد أن لا يتجاوز عن مقصوده، ولا ينظر في بعض الفنون التي من المبادي التصورية او التصديقية لهذا العلم الشريف، نظراً ينتهي اليه مرامه، اشرنا الى هذا النموذج الاجمالي ونعتذر.

وان شئت قلت: إن علم التفسير علم طويل سلّمه، سالكة افلاكه والنجم، بعيد الغور، غريب الطور، ذو سبل وفجاج، متفنن الطرق في الاستقامة والاعوجاج، فلّما اهتدى الى اغواره الأ واحد بعد واحد؛ لان كلام الكبرياء اجل من ان يكون شريعة لكل وارد، وقليل من الناس وصلوا الى اسراره وهم مع ذلك ينادون من مكان بعيد: أن موضوع هذا العلم وهو القرآن ليس له حدّ تقف اليه الافهام وليس كغيره من كلام الانام وانما هو مقال الملك العلام، ذو عبارات للعلماء واشارات وحقائق للاولياء ولطائف للانبياء، بل هو بحر لجّي في قعره درر وفي ظاهره خبر والناس في التقاط دررہ والوصول الى خبره على مراتب متفاوتة، ومن اجل ذلك جاءت التفاسير مختلفة حسب اختلاف اهلها، فمنها: ما يغلب عليه العربية والادبية من الإعراب والبناء، ومنها: ما يغلب عليه المجادلات الكلامية لما ظنوها من الحكمة والبرهان، ومنها: ما يغلب عليه القصص والسير، و منها: ما يغلب عليه نقل الاحاديث والخبر، ومنها: ما يغلب عليه التأويلات البعيدة وبيانات غريبة عجيبة؛ لانهم لم يأخذوا التفاسير من مشكاة النبوة والولاية، فالتفسير الجامع لمجامع العلوم والاحكام والكافل للحقائق والدقائق والشامل للاشارات والعبارات والحاوي لاسس مطالب الحكمة والعرفان، فلم يتيسّر لاحد من العلماء والحكماء، ولا يمكن ذلك الا لمن خص بهبة من الله تبارك وتعالى و وراثة من الانبياء واخذ العلم من مشكاة الاولياء واقتبس قوة قدسية ونورا من الله من القوالب السنية، ونعم ما قيل بالفارسية:

جمع صورت با چنين معنى ژرف ... نيست ممكن جز ز سلطان شگرف

وقال الوالد المحقق العارف برموز الكتاب وبعض اسراره: إن تفسير القرآن لا يتيسّر الا لله تعالى؛ لانه علمه النازل ولا يمكن الاحاطة عليه»[١].

قال الطباطبائي (ره):

«التفسير: هو بيان معاني الآيات القرآنية والكشف عن مقاصدها ومداليلها»[٢].

قال المحققان فى تعريف التفسير في اللغة والاصطلاح:

أ ـ في اللغة:

يطلق التفسير في اللغة على الإبانة والتوضيح، وهو مصدر (فسر).

قال في المصباح: «فَسَرْتُ الشيء فسراً..... بينته وأوضحته، والتثقيل مبالغة».

وقال في لسان العرب: «والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل».

فهو في اللغة يطلق على التوضيح والكشف والإبانة والإظهار لكل شيء سواء أكان بإظهاره ماديًا أم معنوياً، بتوضيحه وبيانه. وعلى هذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ [٣].

ب ـ في الاصطلاح:

أما تعريف التفسير في الاصطلاح، فقد عرّفه الزركشي بأنه: «علم يُعرف به فهم كتاب الله المنزَّل على نبيِّه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه والقراءات. ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ» [٤].

فعلم التفسير في الاصطلاح: علم يُكشف به عن معاني القرآن، عن طريق العلم بنزول الآيات القرآنية وشؤونها وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكّيِّها ومدنيِّها، ومُحكمها ومُتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصِّها وعامِّها، ومُطلَقِها ومُقَيَّدِها، ومَجمَلها ومُفصَّلها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها،

---

١. تفسير القرآن الكريم ج ١ ص ١١ – ١٣.
٢. الميزان ج ١ ص ٤.
٣. سورة الفرقان: الآية ٣٣.
٤. البرهان في علوم القرآن ج ١ ص ١٣.

وعِبَرِها وأمثالها .... إلخ»[١][٢].

قال المحققان :

«التفسير في اللغة: الكشف والإظهار، ومنه قوله تعالى: ﴿ولا يأتونَك بمثَلٍ إلاَّ جِئناك بالحقِّ وأحْسَنَ تفسيراً﴾[٣]، أي: بياناً وتفصيلاً.

والتفسير في اللغة: يستعمل في الكشف الحسي، وفي الكشف عن المعاني المعقولة.

التفسير في الاصطلاح الشرعي :

هو العلم الذي يعرف به فهم القرآن الكريم، وإدراك معانيه، والكشف عن مقاصده ومراميه، واستخراج أحكامه وحكمه، وتوضيح معنى الآيات القرآنية، بذكر معنى الآية وشأنها وقصتها والسبب الذي نزلت فيه، بلفظ يدلّ عليه دلالة ظاهرة»[٤].

قال عبدالسلام: « وهو في اللغة: مصدر فسّر .. بمعنى الإيضاح والتبيين. قال تعالى: ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾ [٥] أي بياناً وتفصيلاً.

والفَسْر: البيان وكشف المغطى.

قال أبو حيان: ويطلق التفسير أيضاً على التعرية للانطلاق، يقال: فَسَرْت الفرس: عَرَّيته لينطلق، وهو راجع لمعنى الكشف، فكأنه كشف ظهره لهذا الذي يريده منه من الجري.

أما في الاصطلاح:

فقد عرّف بعدة تعريفات منها:

هو: علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمات ذلك[٦].

---

١. انظر حول هذا التعريف الأخير البرهان للزركشي ج ٢ ص ١٤٨ ، والإتقان للسيوطي ج ٢ ص ١٧٤.
٢. مقدمة تفسير النسائي ج ١ ص ٦ ـ ٧.
٣. سورة الفرقان: الآية ٣٣.
٤. مقدمة معالم التنزيل (بغوي) ج ١ ص ٧.
٥. سورة الفرقان: الآية ٣٣.
٦. هكذا عرفه أبو حيان في مقدمة البحر المحيط ج ١ ص ١٣.

ـ وقال الزركشي [١]:

«هو علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من: علم اللغة، والنحو، والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ.

ـ وقال السيوطي [٢]:

«هو علم نزول الآيات وشؤونها، وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيّها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفصّلها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالها، وهذا التعريف أتم في الدلالة من تعريفي أبي حيان والزركشي.»

ـ وقيل [٣]:

هو: علم يبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية.

ـ وقيل [٤]:

هو: اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن وما يستفاد منها باختصار أو توسع. ومن عدّ التفسير علماً تسامح»[٥]»[٦].

قال المحققان في تعريف التفسير :

« التفسير: مصدر فسر بتشديد السين، الذي هو مضعف فسر بالتخفيف ـ من بابي نصر وضرب ـ الذي مصدره الفسر، وكلاهما فعل متعد فالتضعيف ليس للتعدية.

والفسر: الإبانة والكشف لمدلول كلام أو لفظ بكلام آخر هو أوضح لمعنى المفسر من السامع، ثم قيل: المصدران والفعلان متساويانْ في المعنى، وقيل: يختص المضعف بإبانة المعقولات.

---

١. البرهان، ج ١ ص ٣٣. ٢. الاتقان، ج ٢ ص ١٧٤.
٣. منهج الفرقان / محمد سلامة ج ٢ ص ٦.
٤. ابن عاشور ـ في مقدمة تفسيره التحرير والتنوير ص ١١.
٥. راجع المصدر السابق ص ١٢. ٦. مقدمة المحرر الوجيز ج ١ ص ٤ – ٥.

قال الراغب والفيروز آبادي: وكأن وجهه أن بيان المعقولات يكلف الذي يبينه كثرة القول، كقول أوس بن حجر:

الألمعيّ الذي يَظُنُّ بِكَ الظـ ـنَّ كَأَنْ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا

فكان تمام البيت تفسيراً لمعنى الألمعي، وكذلك الحدود المنطقية المفسّرة للمواهي والأجناس، فناسب أن يخص هذا البيان بصيغة المضاعفة، بناء على أن الفعل المضعف إذا لم يكن للتعدية كان المقصود منه الدلالة على التكثير من المصدر.

قال في الشافية: «وفعّل للتكثير غالباً» وقد يكون التكثير في ذلك مجازياً واعتبارياً بأن ينزل كدُّ الفكر في تحصيل المعاني الدقيقة، ويشهد لهذا قول الله تعالى: ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾ [١].

وقيل: مأخوذ من التفسرة وهي اسم لما يعرف به الطبيب المرض [٢].

فأما علم التفسير ـ في نظر أهل العلم ـ فقد اختلفت أساليب العلماء في تعريفه، فمنهم من أطال في تعريفه فقال: هو علم نزول الآيات وشؤونها وأقاصيصها والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيها، وبيان محكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالها، ونحو ذلك [٣]. ومنهم من توسط ـ كمصنفنا ذي البيان أبي حيان هنا في البحر «فقال في تعريفه: علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحصل عليها حالة التركيب، وتتمات لذلك. وشرح هذا التعريف ... قال الشيخ أبو شهبة في الإسرائيليات [٤]: وهذا التعريف غير جلي ولا واضح، وكذلك لم يصرح بالغرضين الأهمّين، اللذين نزل لهما القرآن، وهما كونه كتاب الهداية البينة، التي هي أوضح الهدايات وأقومها، والتي لو اتبعها البشر لحققت لهم السعادتين الدنيوية والأخروية.

---

١. سورة الفرقان: الآية ٣٣.
٢. انظر الصحاح ج ٢ ص ٧٨١. اللسان ج ٥ ص ٣٤١٢. ترتيب القاموس ج ٣ ص ٤٩٠.
٣. الإتقان ج ٢ ص ١٧٤.
٤. الإسرائيليات ص ٤١.

والكتاب السماوي المعجز، فهو المعجزة العظمى والآية الكبرى الباقية على وجه الدهر لنبينا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

وعرّفه الزركشي في برهانه [١]: بأنه علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه، وحكمه، واستمداد ذلك من: علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ »[٢].

قال احمد رضا في معنى التفسير :

«اللغة فيه ،

التفسير مأخوذ من فسر المشتق بالاشتقاق الكبير من السفر؛ وهو الكشف والظهور. يقال: أسفر الصبح إذا ظهر وأسفرت المرأة عن وجهها إذا كشفته.

أو هو مأخوذ من فسر يفسر كضرب يضرب أو كنصر ينصر فسراً، والفسر: هو الإبانة وكشف المغطّى، تقول: فسرت الشيء إذا بيّنته. وقال اللغويون أيضاً: إن التفسير هو كشف معنى اللفظ وإظهاره، قاله في مجمع البحرين.

ماهيته:

استعمل التفسير في اصطلاح العلماء لمعنيين، أولهما: التفسير الذي هو قسم من أقسام البديع الراجع إلى المحسنات المعنوية، ويراد به عندهم: أن يأتي المتكلم بمعنى لا يستقل الفهم بإدراك فحواه ما لم يفسره كلام آخر بعده كما في قول الشاعر:

آراؤهم ووجوههم وسيوفهم ... في الحادثات إذا دجون نجوم
منها معالم للهدى ومصابح ... تجلو الدجى والأخريات رجوم

وهذا القسم غير ما نريده الآن.

والمعنى الثاني للتفسير: فهو ما نعني بالكلام فيه في مقالنا هذا وقد كثر كلام العلماء في شرح ماهيته، فقال بعضهم: هو علم بأصول تعرف به معاني كلام الله تعالى من

---

١. البرهان ج ١ ص ٣٣.
٢. مقدمة البحر المحيط ج ١ ص ٩ – ١٠.

الأوامر والنواهي وغيرها، ومثله قول الرازي: وهو ما يبحث فيه عن مراد الله تعالى من قرآنه المجيد وقول التفتازاني: وهو العلم الباحث عن أحوال ألفاظ كلام الله من حيث الدلالة على مراد الله تعالى، وعرفه أبو حيان وأدخل فيه علم التجويد بقوله: هو علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات ذلك. ولكن الزركشي جعل التعريف موضحاً لذكر ما يحتاج إليه علم التفسير فقال: هو علم يفهم به كتاب الله تعالى المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه واستمداد ذلك من: علم اللغة والنحو والتصريف والبيان وأحوال الفقه والقراءات ويحتاج إلى معرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ.

وقد دقق العلامة الفناري في هذه التعريفات ولم يرتضها لعدم جمعها ومنعها، واختار للتفسير تعريفاً آخر على ما في كشف الظنون فقال هو معرفة أحوال كلام الله تعالى من حيث القرآنية ومن حيث دلالته على ما يعلم أن يظن أنه مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية.

وأنت تعلم من اختلاف كلماتهم في التعريفات التي مر بيانها ومن التأمل فيها أنهم قد اعملوا الفكر ليكون التعريف جامعاً مانعاً ولكن هذا العلم لكونه يطوي في تضاعيف مسائله مسائل من علوم شتى يدخلها بعضهم فيه ويخرجها بعضهم منه وهي داخلة في حدود غيره من العلوم لا تكاد تجد تعريفاً جامعاً لمسائله مانعاً من دخول غيره فيه ولا تكاد تدلنا على جهة وحدة تضبط مسائله إجمالاً.

موضوعه والغرض منه:

قالوا: إن موضوعه كلام الله تعالى، والغرض منه حصول القدرة على استنباط الأحكام الشرعية على وجه الصحة ومعرفة معاني النظم»[١].

---

١. مقدمة مجمع البيان ج ١ ص ٥٦ ـ ٦٠.

قال الشيرازي :

« ما هو التفسير؟.

التفسير في اللغة الإبانة وإماطة اللثام.

وهل يحتاج القرآن إلى إبانة وإماطة لثام .. وهو «النور» و«الكلام المبين»؟!.

لا، ليس على وجه القرآن لثام أو نقاب .. بل إنّنا بالتفسير ينبغي أن نزيل اللثام عن روحنا، ونزيح الستار المسدول على بصيرتنا، كي ندرك مفاهيم القرآن ونعيش أجواءه.

من جهة أخرى، ليس للقرآن بعد واحدٌ .. نعم، له بعد عام ميسر للجميع، ينير الطريق، ويهدي البشريّة إلى سواء السبيل.

وهناك أيضاً أبعاد أخرى، للعلماء والمفكرين، لأولئك الطامحين الى مزيد من الإرتواء .. وهؤلاء يجدون في القرآن ما يروي ظمأهم إلى الحقيقة، ويغرفون من بحره قدر سعة آنيتهم .. وتتسع الآنية بإتساع دائرة السعي والجهد والإخلاص.

هذه الأبعاد أطلقت عليها الأحاديث اسم «البطون» .. بطون القرآن ... وهي لا تتجلّى للجميع، أو بعبارة أدق، لا تقوى كل العيون على رؤيتها.

والتفسير يمنح العيون قوة، ويزيل من أمامها الحجب والأستار، ويمكّنها من رؤية تلك الأبعاد بدرجة وأخرى.

وبعض أبعاد القرآن تنجلي بمرور الزمان من خلال نضج التجارب البشرية ونمو الكفاءات الفكرية، وهذا ما أشار إليه «ابن عباس» إذ قال: «القرآن يفسّره الزمان».

أضف إلى ذلك: أن «القرآن يفسّر بعضه بعضاً»، وهذا لا يتنافى مع كونه نوراً وكلاماً مبيناً، لأنه كل لا يتجزأ، يشكل بمجموعه النور والكلام المبين»[١].

قال ابن عاشور : « وموضوع التفسير: ألفاظ القرآن من حيث البحث عن معانيه، وما يستنبط منه، وبهذه الحيثية خالف علم القراءات؛ لأن تمايز العلوم ـ كما يقولون ـ بتمايز الموضوعات، وحيثيات الموضوعات.

هذا وفي عد التفسير علماً تسامح؛ إذ العلم إذا أطلق، إما أن يراد به نفس الإدراك،

---

١. الامثل ج ١ ص ٧ – ٨.

نحو قول أهل المنطق: العلم إما تصور وإما تصديق، وإما أن يراد به الملكة المسماة بالعقل، وإما أن يراد به التصديق الجازم وهو مقابل الجهل، (وهذا غير مراد في عد العلوم)، وإما أن يراد بالعلم المسائل المعلومات؛ وهي مطلوبات خبرية يبرهن عليها في ذلك العلم وهي قضايا كلية، ومباحث هذا العلم ليست بقضايا يبرهن عليها فما هي بكلية، بل هي تصورات جزئية غالباً؛ لأنه تفسير ألفاظ أو استنباط معان. فأما تفسير الألفاظ فهو من قبيل التعريف اللفظي، وأما الاستنباط فمن دلالة الالتزام، وليس ذلك من القضية.

فإذ قلنا: إن يوم الدين في قوله تعالى: ﴿مَلِكِ يوم الدين﴾[1] هو يوم الجزاء، وإذا قلنا: إن قوله تعالى: ﴿وحَمْلُه وفِصَالُه ثلاثُون شهراً﴾[2] مع قوله: ﴿وفصاله في عامين﴾[3]، يؤخذ منه أن أقل الحمل ستة أشهر عند من قال ذلك، لم يك شيء من ذلك قضية، بل الأول تعريف لفظي، والثاني من دلالة الالتزام ، ولكنهم عدوا تفسير ألفاظ القرآن علماً مستقلا أراهم فعلوا ذلك لواحد من وجوه ستة:

الأول: أن مباحثه لكونها تؤدّي إلى استنباط علوم كثيرة وقواعد كلية، نزلت منزلة القواعد الكلية لأنها مبدأ لها، ومنشأ، تنزيلا للشيء منزلة ما هو شديد الشبه به، بقاعدة ما قارب الشيء يعطى حكمه، ولا شك أن ما تستخرج منه القواعد الكلية والعلوم أجدر بأن يعد علماً من عد فروعه علماً، وهم قد عدّوا تدوين الشعر علماً لما في حفظه من استخراج نكت بلاغية وقواعد لغوية.

والثاني أن نقول: إن اشتراط كون مسائل العلم قضايا كلية يبرهن عليها في العلم الخاص بالعلوم المعقولة، لأن هذا اشتراطٌ ذكره الحكماء في تقسيم العلوم، أما العلوم الشرعية والأدبية فلا يشترط فيها ذلك، بل يكفي أن تكون مباحثها مفيدة كمالا علمياً لمزاولها، والتفسير أعلاها في ذلك، كيف وهو بيان مراد الله تعالى من كلامه، وهم قد عدّوا البديع علما والعروض علما وما هي إلا تعاريف لألقاب اصطلاحية.

---

١. سورة الفاتحة: الآية ٣. ٢. سورة الاحقاف: الآية ١٥.

٣. سورة لقمان: الآية ١٤.

والثالث أن نقول: التعاريف اللفظية تصديقات على رأي بعض المحققين فهى تؤول إلى قضايا، وتفرع المعاني الجمة عنها نزلها منزلة الكلية، والاحتجاج عليها بشعر العرب وغيره يقوم مقام البرهان على المسألة، وهذا الوجه يشترك مع الوجه الأول في تنزيل مباحث التفسير منزلة المسائل، إلا أن وجه التنزيل في الأول راجع إلى ما يتفرع عنها، وهنا راجع إلى ذاتها، مع أن التنزيل في الوجه الأول في جميع الشروط الثلاثة وهنا في شرطين، لأن كونها قضايا إنما يجيء على مذهب بعض المنطقيين.

الرابع أن نقول: إن علم التفسير لا يخلو من قواعد كلية في أثنائه مثل تقرير قواعد النسخ عند تفسير ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ [1]، وتقرير قواعد التأويل عند تقرير ﴿ وما يعلم تأويله ﴾ [2]، وقواعد المحكم عند تقرير ﴿ منه آيات محكمات ﴾ [3]، فسمي مجموع تلك وما معه علما تغليبا، وقد اعتنى العلماء بإحصاء كليات تتعلق بالقرآن، وجمعها ابن فارس، وذكرها عنه في الإتقان، وعنى بها أبو البقاء الكفوى في كلياته، فلا بدع أن تزاد تلك في وجوه شبه مسائل التفسير بالقواعد الكلية.

الخامس: أن حق التفسير أن يشتمل على بيان أصول التشريع وكلياته فكان بذلك حقيقا بأن يسمى علما، ولكن المفسرين ابتدأوا بتقصى معاني القرآن فطفحت عليهم وحسرت دون كثرتها قواهم، فانصرفوا عن الاشتغال بانتزاع كليات التشريع إلا في مواضع قليلة.

السادس - وهو الفصل - : أن التفسير كان اول ما اشتغل به علماء الاسلام قبل الاشتغال بتدوين بقية العلوم ، وفيه كثرت مناظراتهم وكانت تحصل من مزاولته والدربة فيه لصاحبه ملكة يدرك بها اساليب القرآن ودقائق نظمه ، فكان بذلك مفيداً علوماً كلية لها مزيد اختصاص بالقرآن المجيد ، فمن اجل ذلك سمي علما .

ويظهر أن هذا العلم إن أخذ من حيث إنه بيان وتفسير لمراد الله من كلامه كان معدودا من أصول العلوم الشرعية؛ وهى التي ذكرها الغزالي في الضرب الأول من العلوم

---

١. سورة البقرة: الآية ١٠٦.
٢. سورة آل عمران: الآية ٧.
٣. سورة آل عمران: الآية ٧.

الشرعية المحمودة من كتاب الإحياء، لأنه عد أولها الكتاب والسنة، ولا شك أنه لا يعني بعلم الكتاب حفظ ألفاظه بل فهم معانيها، وبذلك صح أن يعد رأس العلوم الإسلامية كما وصفه البيضاوي بذلك، وإن أخذ من حيث ما فيه من بيان مكي ومدني، وناسخ ومنسوخ، ومن قواعد الاستنباط التي تذكر أيضا في علم أصول الفقه من عموم وخصوص وغيرهما، كان معدودا في متممات العلوم الشرعية المذكورة في الضرب الرابع من كلام الغزالي [١]، وبذلك الاعتبار عد فيها إذ قال: «الضرب الرابع المتممات وذلك في علم القرآن ينقسم إلى ما يتعلق باللفظ، كعلم القراءات، وإلى ما يتعلق بالمعنى كالتفسير فإن اعتماده أيضا على النقل، وإلى ما يتعلق بأحكامه كالناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، وكيفية استعمال البعض منه مع البعض وهو العلم الذي يسمى أصول الفقه» وهو بهذا الاعتبار لا يكون رئيس العلوم الشرعية» [٢].

قال عبدالقادر في بيان مبادىء فن التفسير :

«إعلم وفقك الله، لما كان من الواجب صناعة على كل شارع في فن أن يبين مبادئه العشرة ليكون القارىء على بصيرة منه وهي المذكورة في قول الناظم رحمه الله :

إن مبادي كل فن عشرة ... الحد والموضوع ثم الثمرة
وغاية ونسبة والواضع ... والاسم الاستمداد حكم الشارع
مسائل والبعض بالبعض اكتفى ... ومن درى الجميع حاز الشرفا

١ ـ فحد علم التفسير هو علم بأصول تعرف بها معاني كلام الله تعالى بحسب الطاقة البشرية.

٢ ـ وموضوعه آيات القرآن من حيث فهم معانيها والوقوف على ما تشير إليه.

---

١. حيث قسم العلوم إلى شرعية وغيرها، وقسم الشرعية إلى محمودة ومذمومة، وقسم المحمودة منها إلى أضرب أربعة: أصول وفروع ومقدمات ومتمات. فالأصول الكتاب والسنة والإجماع وآثار الصحابة، والثاني الفروع وهو ما فهم من الأصول، وهو الفقه وعلم أحوال القلوب، والثالث المقدمات كالنحو واللغة، والرابع المتمات للقرآن وللسنة وللآثار وهي القراءات والتفسير والأصول وعلم الرجال، وليس في العلوم الشرعية مذموم إلا عرضا، كبعض أحوال علم الكلام، وبعض الفقه الذي يقصد للتحيل ونحوه.

٢. التحرير والتنوير ج ١ ص ١٢ - ١٤.

٣ـ وثمرته معرفة ما في كتاب الله على الوجه الأكمل.

٤ـ وغايته الاعتصام بالعروة الوثقى والوصول إلى سعادة الدارين.

٥ـ ونسبته لبقية العلوم يكون هو أفضلها؛ لأن شرف العلم بشرف موضوعه، وناهيك بعلم موضوعه كلام الله إذ هو أصل العلوم ومعدنها.

٦ـ وواضعه الراسخون في العلم من عهد المنزل عليه إلى يومنا هذا فما بعد.

٧ـ واسمه علم التفسير أي الكشف عن غطاء معانيه والوقوف على ما ترمي اليه مبانيه.

٨ـ واستمداده من آي الكتاب الجليل، لأنه يفسر بعضه بعضاً، ومن السنة السنية لأنها شرح له، ومن كلام الفصحاء ما يكون بياناً له.

٩ـ وحكمه الوجوب الكفائي على كل أهل بلدة.

١٠ـ ومسائله قضاياه من حيث الأمر والنهي والمواعظ والأخبار، وجاء في بعض النسخ بدل غايته، وفضله، وعلى ذلك فإن علم التفسير أفضل العلوم على الاطلاق؛ لكونه متعلقاً بكلام الله الذي لا أفضل منه البتة، كيف لا وهو رب العالمين أجمعين.»[١]

١. بيان المعاني ج ١ ص ٦.

معنى التأويل

قال ابن تيمية : معاني التأويل ثلاثة :

ومنشأ الشبهة الاشتراك في لفظ التأويل.

فان التأويل في عرف المتأخرين من المتفقهة والمتكلمة والمحدثة والمتصوفة ونحوهم: هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به، وهذا هو التأويل الذي يتكلمون عليه في أصول الفقه ومسائل الخلاف. فإذا قال أحد منهم: هذا الحديث أو هذا النص مؤول، أو هو محمول على كذا، قال الآخر: هذا نوع تأويل والتأويل يحتاج إلى دليل، والمتأول عليه وظيفتان:

بيان احتمال اللفظ للمعنى الذي ادعاه.

وبيان الدليل الموجب للصرف إليه عن المعنى الظاهر، وهذا هو التأويل الذي يتنازعون فيه في مسائل الصفات إذا صنف بعضهم في إبطال التأويل ، أو ذم التأويل، أو قال بعضهم آيات الصفات لا تؤول، وقال الآخر : بل يجب تأويلها، وقال الثالث بل التأويل جائز يفعل عند المصلحة ويترك عند المصلحة أو يصلح للعلماء دون غيرهم، إلى غير ذلك من المقالات والتنازع.

وأما التأويل في لفظ السلف فله معنيان:

أحدهما: تفسير الكلام وبيان معناه، سواء وافق ظاهره أو خالفه، فيكون التأويل

والتفسير عند هؤلاء متقاربا أو مترادفا، وهذا والله أعلم هو الذي عناه مجاهد: أن العلماء يعلمون تأويله.

ومحمد بن جرير الطبري يقول في تفسيره: القول في تأويل قوله «كذا وكذا». واختلف أهل التأويل في هذه الآية ونحو ذلك، ومراده التفسير.

والمعنى الثاني في لفظ السلف، وهو الثالث من مسمى التأويل مطلقاً[١] هو نفس المراد بالكلام، قال: الكلام إن كان طلباً كان تأويله نفس الشيء المخبر به. وبين هذا المعنى والذي قبله بون؛ فإن الذي قبله يكون التأويل فيه من باب العلم والكلام، كالتفسير والشرح والإيضاح، ويكون وجود التأويل في القلب واللسان له الوجود الذهني واللفظي والرسمي.

وأما هذا فالتأويل فيه نفس الأمور الموجودة في الخارج، سواء كانت ماضية أو مستقبلة.

فإذا قيل طلعت الشمس فتأويل هذا نفس طلوعها.

[ويكون التأويل من باب الوجود العيني الخارجي.

فتأويل الكلام: هو الحقائق الثابتة في الخارج بما هي عليه من صفاتها وشئونها وأحوالها. وتلك الحقائق لا تعرف على ما هي عليه بمجرد الكلام والاخبار، إلا أن يكون المستمع قد تصورها أو تصور نظيرها بغير كلام وإخبار، لكن يعرف من صفاتها وأحوالها قدر ما أفهمه المخاطب، إما بضرب المثل، وإما بالتقريب، وإما بالقدر المشترك بينها وبين غيرها، وإما بغير ذلك][٢].

وهذا الوضع والعرف الثالث؛ هو لغة القرآن التي نزل بها وقد قدمنا التبيين في ذلك، ومن ذلك قول يعقوب عليه السلام ليوسف: ﴿وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل

---

١. المعنى الأول. صرف اللفظ عن ظاهره الراجح الى المعنى المرجوح لدليل يقترن به.
هذا المعنى محدث لم يعرفه السلف في تخاطبهم. وانما ظهر بعد القرون الثلاثة الاولى للهجرة.
المعنى الثاني التفسير والبيان، المعنى الثالث هو نفس مراد المتكلم بكلامه فيكون للتأويل ثلاثة معاني.
٢. ما بين المعقوفين زيادة في. نسخة.

الأحاديث﴾[١]، وقوله: **﴿ودخل معه السجن فتيان، قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً، وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين. قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما﴾**[٢] وقول الملأ: **﴿أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين. وقال الذي نجا منهما وادّكر بعدامة: أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون﴾**[٣]، وقول يوسف لما دخل عليه أهله مصر: **﴿آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين. ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربي حقا...﴾**[٤].

فتأويل الأحاديث التي هي رؤيا المنام، هي نفس مدلولها التي تؤول اليه كما قال يوسف: **﴿... هذا تأويل رؤياى من قبل...﴾** والعالم بتأويلها: الذي يخبر به كما قال يوسف: **﴿لا يأتيكما﴾** أي قبل أن يأتيكما التأويل.

وقال الله تعالى: **﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلا﴾**[٥] قالوا: أحسن عاقبة ومصيراً. فالتأويل هنا تأويل فعلهم الذي هو الرد إلى الكتاب والسنة. والتأويل في سورة يوسف تأويل أحاديث الرؤيا. والتأويل في الأعراف ويونس تأويل القرآن، وكذلك في سورة آل عمران.

اشتقاق التأويل:

وقال تعالى في قصة موسى والعالم: **﴿قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً﴾**[٦]، إلى قوله: **﴿وما فعلته عن امرى، ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾**[٧]، فالتأويل هنا تأويل الأفعال التي فعلها العالم من: خرق السفينة بغير إذن صاحبها، ومن قتل الغلام، ومن إقامة الجدار، فهو تأويل عمل لا تأويل قول. وإنما كان

---

١. سورة يوسف: الآية ٦.
٢. سورة يوسف: الآية ٣٦ــ٣٧.
٣. سورة يوسف: الآية ٤٤ــ٤٥.
٤. سورة يوسف: الآية ٩٩ــ١٠٠.
٥. سورة النساء: الآية ٥٩.
٦. سورة الكهف: الآية ٧٨.
٧. سورة الكهف: الآية ٨٢.

كذلك؛ لأن التأويل مصدر أوّله يأوّله تأويلا، مثل حول تحويلا، وعول تعويلا. وأول يأوّل تعديه آل يؤول أولا ، مثل : حال يحول حولا. وقولهم: آل يؤول، أي عاد إلى كذا ورجع إليه، ومنه المآل وهو ما يؤول إليه الشيء ويشاركه في الاشتقاق الأكبر الموئل، فإنه من وأل وهذا من أول. والموئل المرجع قال تعالى: ﴿لن يجدوا من دونه موئلا﴾[1].

ومما يوافقه في اشتقاقه الأصغر الآل، فإن آل الشخص من يؤول إليه، ولهذا لايستعمل إلا في عظيم، بحيث يكون المضاف إليه اعظم من المضاف يصلح أن يؤول إليه الآل، كآل إبراهيم وآل لوط وآل فرعون، بخلاف الأهل، والأول أفعل لأنهم قالوا في تأنيثه: أولى، كما قالوا: جمادي الأولى. وفي القصص: ﴿ ... وله الحمد في الأولى والآخرة...﴾ [2] ومن الناس من يقول : فوعل، ويقول: أولة، إلا أن هذا يحتاج إلى شاهد من كلام العرب، بل عدم صرفه يدل على أنه أفعل لا فوعل، فان فوعل مثل كوثر وجوهر مصروف، سمى المتقدم أول ـ والله أعلم ـ لأن ما بعده يأوّل اليه ويبنى عليه، فهو أسٌ لما بعده وقاعدة له. والصيغة صيغة تفضيل لاصفة مثل أكبر وكبرى وأصغر وصغرى، لا من باب أحمر وحمراء. ولهذا يقولون: جئته من أمس، وقال: (من أول يوم)، وأنا اول المسلمين، (ولا تكونوا اول كافر به)، ومثل هذا أول هؤلاء، فهذا الذي فضل عليهم في الأول، لأن كل واحد يرجع إلى ما قبله فيعتمد عليه، وهذا السابق كلهم يأوّل إليه، فإن من تقدم في فعل فاستبق به من بعده كان السابق الذي يؤول الكل إليه، فالأول له وصف السؤدد والاتباع.

ولفظ «الأول» مشعر بالرجوع والعود، والأول مشعر بالابتداء، والمبتدأ خلاف العائد، لأنه إنما كان أولا لما بعده، فانه يقال: «أول المسلمين» و«أول يوم»، فما فيه من معنى الرجوع والعود هو للمضاف إليه لا للمضاف.

وإذا قلنا: آل فلان، فالعود إلى المضاف، لأن ذلك صيغة تفضيل في كونه مآلا ومرجعا لغيره، لأن كونه مفضلا دل على أنه مآل ومرجع لا آيل راجع، إذ لافضل فى كون الشيء

---

١. سورة الكهف : الآية ٥٨.

٢. سورة القصص : الآية ٧.

راجعا إلى غيره آيلا إليه ويؤال. فلما كانت الصيغة صيغة تفضيل أشعرت بأنه مفضل في كونه مآلا ومرجعا، والتفضيل المطلق في ذلك يقتضي أن يكون هو السابق المبتدئ، والله أعلم.

فتأويل الكلام ما أوله إليه المتكلم، أو ما يأوّل إليه الكلام، أو ما تأوله المتكلم، فإن التفعيل يجرى على غير فعل، كقوله: ﴿وتبتّل إليه تبتيلا﴾[1]، فيجوز أن يقال: تأول الكلام إلى هذا المعنى تأويلا، والمصدر واقع موقع الصفة، إذ قد يحصل المصدر صفة بمعنى الفاعل، كعدل وصوم وفطر، وبمعنى المفعول كدرهم ضرب الأمير، وهذا خلق الله.

فالتأويل: هو ما أول إليه الكلام أو يؤول إليه، أو تأول هو إليه. والكلام إنما يرجع ويعود ويستقر ويأول ويأوّل إلى حقيقته التي هي عين المقصود به، كما قال بعض السلف في قوله: ﴿لِكُلِّ نبإٍ مستقرٌ﴾ [2] قال: حقيقة، فإنه إن كان خبراً فالى الحقيقة المخبر بها يؤول ويرجع، وإلا لم تكن له حقيقة ولا مآل ولا مرجع، بل كان كذبا. وإن كان طلبا فالى الحقيقة المطلوبة يؤول ويرجع، وإن لم يكن مقصوده موجودا ولا حاصلا. ومتى كان الخبر وعداً أو وعيداً فالى الحقيقة المطلوبة المنتظرة يؤول، كما روى عن النبي أنه تلاهذه الآية: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعًا﴾ [3] قال إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد»[4]»[5].

قال الالوسي في معنى التأويل : «والتأويل من الأول؛ وهو الرجوع، والقول: بأنه من

---

١. سورة المزمل :الآية ٨.
٢. سورة الأنعام: الآية ٦٧.
٣. سورة الأنعام: الآية ٦٥.
٤. سلك ابن تيمية في تبيانه لمعنى كلمة «تأويل» في القرآن الكريم منهجاً قوياً أخذ به ابن تيمية في علاجه لكثير من المشكلات التي عرض لها، وموقفه في بيان معنى هذه الكلمة يعتبر تطبيقاً أمينا لمنهجه الذي يأخذ به. وهذا المنهج له ثلاث مراحل.
المرحلة الأولى: استقراء كامل للفظ في القرآن الكريم وبيان معناه خلال حكاية أقوال السلف له.
المرحلة الثانية: بيان معنى اللفظ في السنة النبوية وبأى معنى كان يستعمله الرسول. ثم الصحابة.
المرحلة الثالثة: بيان معنى اللفظ في اللغة التي نزل بها القرآن ولا ينتقل إلى المرحلة الثانية الا بعد الانتهاء من المرحلة الأولى. وهكذا الثالثة: فيكون ابن تيمية بذلك قد طبق منهجه الذي دعا إليه تطبيقاً أمينا. حيث فسر القرآن بالقرآن ثم بالسنة. ثم باللغة. وكل واحدة من هذه المراحل تؤكد الأخرى وتقويها.
٥. دقائق التفسير ج ١ ص ١٠٩ ـ ١١٤ وتفسير الكبير (ابن تيمية) ج ٢ ص ١٠٨ ـ ١١٤.

الايالة وهي السياسة كأن المؤول للكلام ساس الكلام ووضع المعنى فيه موضعه، ليس بشيء»[١].

قال الجنابذي في التنزيل والتأويل: «وتنزيل القرآن ان كان بمعناه المصدري كان عبارة عن جعله صادقاً على المصاديق الطّبيعيّة، وان كان بمعنى المنزل فيه كان عبارة عن نفس تلك المصاديق، وتأويله عبارة عن ارجاعه الى المصاديق الروحانية او عن نفس تلك المصاديق، ولمروره على تلك المصاديق حين النزول سمي جعله صادقاً عليها ارجاعاً، وما ورد في بعض الاخبار من تسمية بعض المصاديق الطبيعية تأويلاً اشارة الى ان تعميم الآية للمنزل فيه المخصوص، ولأمثاله التي تأتي بعد زمان النزول، لايكون الا بارجاعها عن خصوصيات الشخص المنزل فيه الى معنى كلي يصدق على المنزل فيه وعلى امثاله، وهكذا الحال في تسمية المصاديق الطبيعية التي هي غير المنزل فيه بطناً»[٢].

قال عبدالقادر : «أما التأويل فهو الرجوع إلى الأصل ورد الشيء إلى الغاية فيه والمراد منه، وهذا يتوقف على الفهم الصحيح، لأن المراد منه غايته القصوى وبيان المعاني والوجوه المستنبطة الموافقة للفظ الآية، ويحتاج للوقوف على العلوم العربية ولا يتقيد بالمسموع، لهذا منع القول بالرأي في القرآن؛ لأنه منزل من الله تعالى الذي حدد شأن البشر فيه بقوله جل قوله: ﴿ومايعلم تأويله إلا الله﴾[٣]، لهذا لا يجوز لأي كان تأويله مالم يكن متضلعاً بالعلوم العربية، والأحاديث النبوية كالسلف الصالح من التابعين، لأن العارفين والربانيين أيضاً لا يعلمون جميع حقائقه، تأمل في قوله تعالى بعد ذلك: ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به﴾[٤]، وسيأتي في تفسير هذه الآية ما به كفاية، لتعذر وقوفهم على المعنى المراد فيه، راجع ما بيناه آنفًا من الأحاديث في المطلب الثاني هذا.

---

١. روح المعاني: ج ١ ص ٤.
٢. بيان السعادة: ج ١ ص ١٣.
٣. سورة آل عمران: الآية ٧.
٤. سورة آل عمران: الآية ٧.

وقد روي عن عمر حينما سئل عن القرآن، قال أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني، إن أنا قلت في القرآن (أي برأي) وقد رخص لأهل العلم بالتفسير والتأويل بما لا يخالف السنة والكتاب، لأن الصحابة رضوان الله عليهم، فسروا القرآن واختلفوا في تفسيره على وجوه، وليس كل ما قالوه سمعوه من حضرة الرسول، بل اجتهدوا فيه على قدر فهمهم، وقد دعا ﷺ لابن عباس فقال «اللهم علّمه التأويل، وفقهه في الدين»، فكان أكثر ما نقل عنه في التفسير.

هذا وان المرء مهما سمت رتبته في المعارف، وعلت درجته في الذكاء، لا يبلغ مبلغ ابن عباس، أو عمر رضي الله عنهما، إذاً فلا يجوز أن يجرؤ أحد على الخوض في آيات الله إلا عن سماع وتوقيف متواترين، أما بعض أهل هذا الزمن المتزعمون فإنهم يهرفون بما لا يعرفون ويقولون ما لا يفعلون»[1].

قال المحققان:

« التأويل: لغة [2] أصله من الأول؛ وهو الرجوع، فكأن المؤوّل للآية رجع بها إلى ما تحتمله من المعاني.

وقيل: مأخوذ من الإيالة وهي السياسة، وكأن المؤول للكلام ساسه، وتناوله بالمحاورة والمداورة حتى وصل إلى المراد منه.

قال الزرقاني في مناهل العرفان: والتأويل مرادف للتفسير في أشهر معانيه اللغوية.

قال الفيروز آبادي: في قاموسه: «أوّل الكلام تأويلاً وتأوّله: دبّره وقدّره وفسّره».

وقال في لسان العرب: الأول: الرجوع، آل الشيء يؤول أولاً ومآلاً رجع، وأول الشيء رجعه، وإلت عن الشيء ارتددت ...

والناظر في القرآن الكريم يجد أن لفظ التأويل قد ورد في كثير من آياته على معان مختلفة، فمن ذلك قول الله تعالى في سورة آل عمران الآية السابعة: ﴿فأما الذين في

---

١. بيان المعاني ج ١ ص ١٥.
٢. الصحاح ج ٤ ص ١٦٢٧، اللسان ج ١ ص ١٧١، وترتيب القاموس ج ١ ص ١٩٧.

قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله﴾، فهو في هذه الآية بمعنى التفسير والتعيين.

وأيضاً قوله تعالى في سورة النساء في الآية التاسعة والخمسين: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾، فهو في هذه الآية بمعنى العاقبة والمصير.

وقوله تعالى في سورة الأعراف في الآية الثالثة والخمسين: ﴿هل ينظرون إلاّ تأويله، يوم يأتي تأويله﴾.

وقوله تعالى في سورة يونس في الآية التاسعة والثلاثين: ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله﴾، فهو في الآيتين بمعنى وقوع المخبر به.

وقوله تعالى في سورة يوسف الآية السادسة: ﴿وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ...﴾، وقوله أيضاً في نفس السورة، الآية السابعة والثلاثون: ﴿وقال لايأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله﴾.

وقوله أيضاً في نفس السورة في الآية الرابعة والأربعين: ﴿أنا أنبئكم بتأويله ...﴾.

وقوله في الآية المائة من نفس السورة: ﴿هذا تأويل رؤياي من قبل﴾، فالمراد به في كل هذه الآيات نفس مدلول الرؤيا.

وقوله في سورة الكهف في الآية الثامنة والسبعين: ﴿سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ...﴾، وقوله أيضاً في نفس السورة في الآية الثانية والثمانين: ﴿ذلك تأويل مالم تستطع عليه صبراً﴾، فمراده بالتأويل هنا: تأويل الأعمال التي أتى بها الخضر من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، وبيان السبب الحامل عليها، وليس المراد منه تأويل الأقوال.

والتأويل في الاصطلاح له معنيان عند السلف: تفسير الكلام وبيان معناه، سواء أوافق ظاهره أو خالفه، أو هو نفس المراد بالكلام، فإن كان الكلام طلباً كان تأويله نفس الشيء المخبر به ...

أما عند المتأخرين فمعناه: صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به ...»[١].

قال عبدالسلام؛ ما معنى التأويل؟ :

هو في اللغة: من الإيالة وهي السياسة، فكأن المؤول يسوس الكلام ويضعه في موضعه.

وقيل: من الأول؛ وهو الرجوع، فكأن المؤول أرجع الكلام إلى ما يحتمله من المعاني.

وأوّل الكلام وتأوّله: دبره وقدره. وأوله وتأوله: فسره [٢].

وفي الاصطلاح

اوّلاً : في الاصطلاح عند السلف :

أ ـ تفسير الكلام وبيان معناه ، سواء وافق ظاهره ام خالفه، وعليه فيكون التأويل و التفسير مترادفين .

ب ـ نفس المراد بالكلام؛ فإن كان الكلام طلباً كان تأويله نفس الفعل المطلوب. وإن كان خبراً كان تأويله نفس الشيء المخبر به، وبين هذا المعنى والذي قبله فرق ظاهر.

ثانياً: عند الخلف: هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به»[٣].

قال خالد عبدالرحمن في التأويل:

«قال العلامة الجرجاني في تعريفاته:

«التأويل في الأصل: الترجيع. وفي الشرع: صرف اللفظ عن معناه الظاهر الى معنى يحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه موافقاً للكتاب والسنة، مثل قوله تعالى: ﴿يُخرِجُ الحيَّ مِنَ الميّت﴾[٤]، إن أراد به إخراج الطير من البيضة كان تفسيراً، وإن أراد إخراج المؤمن من الكافر أو العالِم من الجاهل، كان تأويلاً».

١. مقدمة البحر المحيط ج ١ ص ١٠ ـ ١١ .

٢ . اللسان. أول. وأساس البلاغة: الأول.

٣. مقدمة المحرر الوجيز ج ١ ص ٤ ـ ٥.

٤ . سورة الانعام : الآية ٩٥.

وقال بعض العلماء: «التفسير ما يتعلق بالرواية، والتأويل ما يتعلق بالدراية»[١].

قال احمد رضا:

«التأويل مأخوذ من الأول، كالقول من آل الأمر إلى كذا يؤول أي صار إليه ورجع، ومنه قيل للمرجع: مآل. وأوّل الكلام تأويلاً دبره وقدره وفسره قاله في القاموس المحيط. وقال ثعلب: إن التأويل والتفسير واحد. وقال غيره: إن التفسير هو كشف المراد عن المشكل، والتأويل رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر، كما في القاموس ومجمع البحرين»[٢].

قال الطباطبائي (ره) في معنى التأويل :

وفسر قوم من المفسرين التأويل بالتفسير وهوالمراد من الكلام ، وإذ كان المراد من بعض الآيات معلوماً بالضرورة كان المراد بالتأويل على هذا من قوله تعالى : **﴿وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله﴾**[٣] الآية ، هوالمعنى المراد بالآية المتشابهة ، فلا طريق الى العلم بالآيات المتشابهة على هذا القول لغير الله سبحانه، أولغيره وغير الراسخين في العلم .

وقالت طائفة اخرى : إن المراد بالتأويل : هوالمعنى المخالف لظاهر اللفظ ، وقد شاع هذا المعنى بحيث عاد اللفظ حقيقة ثانية فيه بعد ما كان بحسب اللفظ لمعنى مطلق الإرجاع أوالمرجع .

وكيف كان فهذا المعنى هوالشائع عند المتأخرين، كما أن المعنى الأول هوالذي كان شائعاً بين قدماء المفسرين، سواء فيه من كان يقول : إن التأويل لا يعلمه إلا الله ، ومن كان يقول : إن الراسخين في العلم أيضاً يعلمونه، كما نقل عن ابن عباس : أنه كان يقول : أنا من الراسخين في العلم وأنا أعلم تأويله .

وذهب طائفة اخرى : إلى أن التأويل معنى من معاني الآية لايعلمه إلا الله تعالى، أو

---

١. مقدمة معالم التنزيل (للبغوى) ج ١ ص ٧.
٢. مقدمة مجمع البيان ج ١ ص ٥٩.
٣. سورة آل عمران : الآية ٧.

لايعلمه إلا الله والراسخون في العلم مع عدم كونه خلاف ظاهر اللفظ ، فيرجع الأمر إلى أن للآية المتشابهة معاني متعددة بعضها تحت بعض ، منها ما هو تحت اللفظ تناله جميع الأفهام ، ومنها ما هو أبعد منه لا يناله إلا الله سبحانه، أو هو تعالى والراسخون في العلم .

وقد اختلفت أنظارهم في كيفية ارتباط هذه المعاني باللفظ، فإن من المتيقن أنها من حيث كونها مرادة من اللفظ ليست في عرض واحد وإلا لزم استعمال اللفظ في أكثر من معنى واحد، و هو غير جائز على مابين في محله ، فهي لامحالة معان مترتبة في الطول : فقيل : إنها لوازم معنى اللفظ إلا أنها لوازم مترتبة بحيث يكون للفظ معنى مطابقي وله لازم وللازمه لازم وهكذا ، وقيل : إنها معان مترتبة بعضها على بعض ترتب الباطن على ظاهره ، فإرادة المعنى المعهود المألوف إرادة لمعنى اللفظ وإرادة لباطنه بعين إرادته نفسه، كما أنك إذا قلت : اسقني، فلا تطلب بذلك إلا السقي وهو بعينه طلب للإرواء ، وطلب لرفع الحاجة الوجودية ، وطلب للكمال الوجودي وليس هناك أربعة أوامر ومطالب ، بل الطالب الواحد المتعلق بالسقي متعلق بعينه بهذه الامور التي بعضها في باطن بعض والسقي مرتبط بها ومعتمد عليها .

وهيهنا قول رابع : وهو أن التأويل ليس من قبيل المعاني المرادة باللفظ بل هو الأمر العيني الذي يعتمد عليه الكلام ؛ فإن كان الكلام حكماً إنشائياً كالأمر والنهي فتأويله المصلحة التي توجب إنشاء الحكم وجعله وتشريعه ، فتأويل قوله : أقيموا الصلاة مثلاً هو الحالة النورانية الخارجية التي تقوم بنفس المصلي في الخارج فتنهاه عن الفحشاء والمنكر ، وإن كان الكلام خبرياً فإن كان إخباراً عن الحوادث الماضية كان تأويله نفس الحادثة الواقعة في ظرف الماضي كالآيات المشتملة على أخبار الأنبياء والامم الماضية فتأويلها نفس القضايا الواقعة في الماضي ، وإن كان إخباراً عن الحوادث والامور الحالية والمستقبلة فهو على قسمين : فإما أن يكون المخبر به من الامور التي تناله الحواس أو تدركه العقول كان أيضاً تأويله ما هو في الخارج من القضية الواقعة كقوله تعالى: ﴿وفيكم

سماعون لهم﴾[1] ، وقوله تعالى: ﴿غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين﴾[2] وإن كان من الامور المستقبلة الغيبية التي لا تنالها حواسنا الدنيوية ولاتدرك حقيقتها عقولنا، كالامور المربوطة بيوم القيامة ووقت الساعة وحشر الأموات والجمع والسؤال والحساب وتطائر الكتب ، أو كان مما هو خارج من سنخ الزمان وإدراك العقول، كحقيقة صفاته وأفعاله تعالى، فتأويلها أيضاً نفس حقائقها الخارجية .

والفرق بين هذا القسم ـ أعني الآيات المبينة لحال صفات الله تعالى و أفعاله وما يلحق بها من أحوال يوم القيامة ونحوها ـ وبين الأقسام الأخر: أن الأقسام الاخر يمكن حصول العلم بتأويلها بخلاف هذا القسم ، فإنه لايعلم حقيقة تأويله إلا الله تعالى ، نعم يمكن ان يناله الراسخون في العلم بتعليم الله تعالى بعض النيل على قدر ما تسعه عقولهم ، وأما حقيقة الأمر الذي هو حق التأويل فهو مما استأثر الله سبحانه بعلمه .

فهذا هو الذي يتحصل من مذاهبهم في معنى التأويل ، وهي أربعة .

وهيهنا أقوال أُخر ذكروها هي في الحقيقة من شعب القول الأول، وإن تحاشى القائلون بها عن قبوله .

فمن جملتها: أن التفسير أعم من التأويل ، وأكثر استعماله في الألفاظ ومفرداتها، وأكثر استعمال التأويل في المعاني والجمل، وأكثر ما يستعمل التأويل في الكتب الإلهية ، ويستعمل التفسير فيها وفي غيرها .

ومن جملتها : أن التفسير بيان معنى اللفظ الذي لا يحتمل إلا وجهاً واحداً والتأويل تشخيص أحد محتملات اللفظ بالدليل استنباطاً .

ومن جملتها : أن التفسير بيان المعنى المقطوع من اللفظ والتأويل ترجيح أحد المحتملات من المعاني غير المقطوع بها، وهو قريب من سابقه .

ومن جملتها : أن التفسير بيان دليل المراد والتأويل بيان حقيقة المراد ، مثاله : قوله

---

١. سورة التوبة : الآية ٤٧. ٢. سورة الروم : الآية ٤.

تعالى: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾[١] فتفسيره: أن المرصاد مفعال من قولهم: رصد يرصد إذا راقب، وتأويله التحذير عن التهاون بأمر الله والغفلة عنه.

ومن جملتها: أن التفسير بيان المعنى الظاهر من اللفظ والتأويل بيان المعنى المشكل.

ومن جملتها: أن التفسير يتعلق بالرواية والتأويل يتعلق بالدراية.

ومن جملتها: أن التفسير يتعلق بالاتباع والسماع والتأويل يتعلق بالاستنباط والنظر.

فهذه سبعة أقوال هي في الحقيقة من شعب القول الأول الذي نقلناه، يرد عليها ما يرد عليه وكيف كان فلا يصح الركون إلى شيء من هذه الأقوال الأربعة وما ينشعب منها.

أما إجمالاً: فلأنك قد عرفت: أن المراد بتأويل الآية ليس مفهوماً من المفاهيم تدل عليه الآية سواء كان مخالفاً لظاهرها أو موافقاً، بل هو من قبيل الامور الخارجية، ولاكل أمر خارجي حتى يكون المصداق الخارجي للخبر تأويلاً له، بل أمر خارجي مخصوص نسبته إلى الكلام نسبة الممثل إلى المَثَل -بفتحتين- والباطن إلى الظاهر.

وأما تفصيلاً فيرد على القول الأول: أن أقل ما يلزمه أن يكون بعض الآيات القرآنية لاينال تأويلها أي المراد من مداليلها اللفظية عامة الأفهام، وليس في القرآن آيات كذلك، بل القرآن ناطق بأنه إنما أنزل قرآناً لتناله الأفهام، ولامناص لصاحب هذا القول إلا أن يختار أن الآيات المتشابهة إنما هي فواتح السور من الحروف المقطعة حيث لاينال معانيها عامة الأفهام، ويرد عليه: أنه لادليل عليه، ومجرد كون التأويل مشتملاً على معنى الرجوع وكون التفسير أيضاً غير خال عن معنى الرجوع لايوجب كون التأويل هو التفسير، كما أن الام مرجع لأولادها وليست بتأويل لهم، والرئيس مرجع للمرؤوس وليس بتأويل له.

على أن ابتغاء الفتنة عد في الآية خاصة مستقلة للتشابه وهو يوجد في غير فواتح السور، فأن أكثر الفتن المحدثة في الإسلام إنما حدثت باتباع علل الأحكام وآيات الصفات وغيرها.

---

١. سورة الفجر: الآية ١٤.

وأما القول الثاني فيرد عليه : أن لازمه وجود آيات في القرآن اريد بها معان يخالفها ظاهرها الذي يوجب الفتنة في الدين بتنافيه مع المحكمات ، ومرجعه إلى أن في القرآن اختلافاً بين الآيات لايرتفع إلا بصرف بعضها عن ظواهرها إلى معان لايفهمها عامة الأفهام ، وهذا يبطل الاحتجاج الذي في قوله تعالى : ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[1]، إذ لو كان ارتفاع اختلاف آية مع آية بان يقال : إنه اريد بإحداهما أو بهما معاً غير مايدل عليه الظاهر، بل معنى تأويلي باصطلاحهم لايعلمه إلا الله سبحانه مثلاً لم تنجح حجة الآية ، فان انتفاء الاختلاف بالتأويل باصطلاحهم في كل مجموع من الكلام ولو كان لغير الله أمر ممكن ، ولادلالة فيه على كونه غير كلام البشر ، إذ من الواضح أن كل كلام حتى القطعي الكذب و اللغو يمكن إرجاعه إلى الصدق والحق بالتأويل والصرف عن ظاهره ، فلايدل ارتفاع الاختلاف بهذا المعنى عن مجموع كلام على كونه كلام من يتعالى عن اختلاف الأحوال ، وتناقض الآراء ، والسهو والنسيان والخطأ والتكامل بمرور الزمان كما هو المعني بالاحتجاج في الآية ، فالآية بلسان احتجاجها صريحة في أن القرآن معرض لعامة الأفهام ، ومسرح للبحث والتأمل والتدبر ، وليس فيه آية اريد بها معنى يخالف ظاهر الكلام العربي ، ولا أن فيه أحجية وتعمية .

وأما القول الثالث فيرد عليه : أن اشتمال الآيات القرآنية على معان مترتبة بعضها فوق بعض وبعضها تحت بعض مما لاينكره إلا من حرم نعمة التدبر ، إلا أنها جميعاً - وخاصة لو قلنا: إنها لوازم المعنى - مداليل لفظية مختلفة من حيث الانفهام وذكاء السامع المتدبر وبلادته ، وهذا لايلائم قوله تعالى في وصف التأويل : ومايعلم تأويله إلا الله ، فان المعارف العالية والمسائل الدقيقة لاتختلف فيها الأذهان من حيث التقوى وطهارة النفس بل من حيث الحدة وعدمها ، وإن كانت التقوى وطهارة النفس معينين في فهم المعارف الطاهرة الإلهية، لكن ذلك ليس على نحو الدوران والعلية كما هو ظاهر

---

١. سورة النساء: الآية ٨٢.

قوله : «وما يعلم تأويله إلا الله» .

وأما القول الرابع فيرد عليه : أنه وإن أصاب في بعض كلامه لكنه أخطأ في بعضه الآخر، فإنه وإن أصاب في القول: بأن التأويل لايختص بالمتشابه بل يوجد لجميع القرآن، وأن التأويل ليس من سنخ المدلول اللفظي بل هو أمر خارجي يبتني عليه الكلام، لكنه أخطأ في عد كل أمر خارجي مرتبط بمضمون الكلام حتى مصاديق الأخبار الحاكية عن الحوادث الماضية والمستقبلة تأويلاً للكلام ، وفي حصر المتشابه الذي لايعلم تأويله في آيات الصفات وآيات القيامة .

توضيحه : أن المراد حينئذ من التأويل في قوله تعالى : ﴿وابتغاء تأويله﴾ «إلخ » إما أن يكون تأويل القرآن برجوع ضميره إلى الكتاب فلا يستقيم قوله : ﴿ولايعلم تأويله إلا الله﴾ إلخ فإن كثيراً من تأويل القرآن وهو تأويلات القصص بل الأحكام أيضاً، وآيات الأخلاق مما يمكن أن يعلمه غيره تعالى وغير الراسخين في العلم من الناس حتى الزائغون قلباً على قوله، فإن الحوادث التي تدل عليها آيات القصص يتساوى فيإدراكها جميع الناس من غير أن يحرم عنها بعضهم، وكذا الحقائق الخلقية والمصالح التي يوجدها العمل بالأحكام من العبادات والمعاملات وسائر الامور المشرّعة .

وإن كان المراد بالتأويل فيه تأويل المتشابه فقط استقام الحصر في قوله : ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ إلخ ، وأفاد أن غيره تعالى و غير الراسخين في العلم مثلاً لاينبغي لهم ابتغاء تأويله المتشابه ، وهو يؤدي الى الفتنة وإضلال الناس، لكن لاوجه لحصر التشابه الذي لايعلم تأويله في آيات الصفات والقيامة، فإن الفتنة والضلال كما يوجد في تأويلها يوجد في تأويل غيرها من آيات الأحكام والقصص وغيرهما، كأن يقول القائل (وقد قيل): إن المراد من تشريع الأحكام إحياء الاجتماع الانسانيّ بإصلاح شأنه بما ينطبق على الصلاح ، فلو فرض أنَّ صلاح المجتمع في غير الحكم المشرع ، أو أنه لاينطبق على صلاح الوقت وجب اتباعه وإلغاء الحكم الديني المشرع . وكأن يقول القائل (وقد قيل) إن المراد من كرامات الأنبياء المنقولة في القرآن امور عادية ، وإنما نقل بألفاظ

ظاهرها خلاف العادة لصلاح استمالة قلوب العامة لانجذاب نفوسهم وخضوع قلوبهم لما يتخيلونه خارقاً للعادة قاهراً لقوانين الطبيعة. ويوجد في المذاهب المنشعبة المحدثة في الإسلام شيء كثيرمن هذه الأقاويل، وجميعها من التأويل في القرآن ابتغاءً للفتنة بلاشك، فلا وجه لقصر المتشابه على آيات الصفات وآيات القيامة.

إذا عرفت ما مر علمت: أن الحق في تفسير التأويل: أنه الحقيقة الواقعية التي تستند اليها البيانات القرآنيةمن حكم أو موعظة أو حكمة، وأنه موجود لجميع الآيات القرآنية: محكمها ومتشابهها، وأنه ليس من قبيل المفاهيم المدلول عليها بالألفاظ بل هي من الامور العينية المتعالية من أن تحيط بها شبكات الألفاظ، وإنما قيدها الله سبحانه بقيد الألفاظ لتقريبها من أذهاننا بعض التقريب، فهي كالأمثال تضرب ليقرب بها المقاصد وتوضح بحسب ما يناسب فهم السامع كما قال تعالى: ﴿والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وإنه في ام الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾[1] وفي القرآن تصريحات وتلويحات بهذا المعنى.

على أنك قد عرفت فيما مر من البيان: أن القرآن لم يستعمل لفظ التأويل في الموارد التي استعملها – وهي ستة عشر مورداً على ما عدت – إلا في المعنى الذي ذكرناه»[2].

---

١. سورة الزخرف: الآية ٤ ـ ٢.
٢. الميزان ج ١ ص ٤٤ – ٤٩.

الفرق بين التفسير والتأويل

قال ابن تيمية في الفرق بين المعنى والتأويل:

ومما جاء من لفظ التأويل في القرآن قوله تعالى: **﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله﴾**[1] أي: كذبوا بالقرآن الذي لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله، ففرق بين الإحاطة بعلمه وبين إتيان تأويله. فتبين أنه يمكن أن يحيط أهل العلم والإيمان بعلمه ولما يأتهم تأويله، وأن الإحاطة بعلم القرآن ليست إتيان تأويله؛ فإن الإحاطة بعلمه معرفة معاني الكلام على التمام، وإتيان التأويل نفس وقوع المخبر به، وفرق بين معرفة الخبر وبين المخبر به، فمعرفة الخبر هي معرفة تفسير القرآن، ومعرفة المخبر به هي معرفة تأويله.

«ونكتة ذلك»: أن الخبر لمعناه صورة علمية وجودها في نفس العالم، كذهن الإنسان مثلا، ولذلك المعنى حقيقة ثابتة في الخارج عن العلم، واللفظ إنما يدل ابتداء على المعنى الذهني ثم تتوسط ذلك أو تدل على الحقيقة الخارجة.

فالتأويل هو الحقيقة الخارجة، وأما معرفة تفسيره ومعناه فهو معرفة الصورة العلمية. وهذا هو الذي بيناه فيما تقدم: أن الله إنما أنزل القرآن ليعلم ويفهم ويفقه ويتدبر ويتفكر فيه، محكمه ومتشابهه وإن لم يعلم تأويله.

---

١. سورة يونس: الآية ٣٩.

ويبين ذلك: أن الله يقول عن الكفار: ﴿وإذا قرأتَ القرآنَ جعلنا بينَكَ وبين الذين لايؤمنونَ بالآخرة حِجَابًا مستُورًا. وجَعَلنا على قلوبِهم أكنةً أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا، وإذا ذكرتَ رَبَّكَ في القرآنِ وحدَهُ ولو على أدبارِهِم نُفورا﴾[١]، فقد أخبر ذما للمشركين أنه إذا قرىء عليهمْ القرآن حجب بين أبصارهم وبين الرسول بحجاب مستور، ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يَفْقَهُوهُ وفي آذانهم وقرا﴾. فلو كان أهل العلم والإيمان على قلوبهم أكنة أن يفقهوا بعضه لشاركوهم في ذلك. وقوله: ﴿أن يفقهوه﴾ يعود إلى القرآن كله. فعلم أن الله يحب أن يفقه. ولهذا قال الحسن البصرى[٢]: ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم في ماذا أنزلت وماذا عنى بها، وما استثنى من ذلك لا متشابهاً ولا غيره.

وقال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره مرات أقف عند كل آية وأسأله عنها، فهذا ابن عباس حبر الأمة وهو أحد من كان يقول: لا يعلم تأويله إلا الله، يجيب مجاهداً عن كل آية في القرآن.

وهذا هو الذي حمل مجاهداً ومن وافقه كابن قتيبة على أن جعلوا الوقف عند قوله ﴿والراسخون في العلم﴾[٣]، فجعلوا الراسخين يعلمون التأويل، لأن مجاهداً تعلم من ابن عباس تفسير القرآن كله وبيان معانيه، فظن أن هذا هو التأويل المنفي عن غيرالله.

ـ الفرق بين التأويل في لغة القرآن وبين التفسير:

وأصل ذلك: أن لفظ التأويل فيه اشتراك بين ما عناه في القرآن وبين ما كانت تطلقه طوائف من السلف وبين اصطلاح طوائف من المتأخرين، فبسبب الإشتراك في لفظ التأويل اعتقد كل من فهم منه معنى بلغته أن ذلك هو المذكور في القرآن. ومجاهد إمام التفسير.

---

١. سورة الإسراء: ٤٥ـ٤٦.

٢. هو الحسن ابن أبي الحسن بن أبي سعيد البصري. تربى في حجر أم سلمة زوج رسول الله ﷺ حيث كانت أمه تعمل خادمة لها. وقيل: إن أم سلمة كانت تلقم الحسن ثديها ليكف عن بكائه حين كانت تغيب أمه عنه. وكان لنشأته في بيت النبوة أثر في حكمته التي رزقها. سمعته عائشة وهو يحدث فقالت: من هذا يشبه كلامه كلام الأنبياء. ويعده المعتزلة من رجال الطبقة الثالثة فيهم توفى سنة ١١٠ هـ

انظر. طبقات المعتزلة ص ٣٣ـ٣٨؛ فضل الاعتزال ص ٢١٥ـ٢٢٦.

٣. سورة آل عمران: الآية ٧.

قال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. وأما التأويل فشأن آخر.

ويبين ذلك: أن الصحابة والتابعين لم يمتنع أحد منهم عن تفسير آية من كتاب الله، ولا قال هذه من المتشابه الذي لا تعلم معناه، ولا قال قط أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة المتبوعين: إن في القرآن آيات لا تعلم معناها ولا يفهمها رسول الله ﷺ ولا أهل العلم والإيمان جميعهم، وإنما قد ينفون علم بعض ذلك عن بعض الناس، وهذا لا ريب فيه.

وإنما وضع هذه المسألة المتأخرون من الطوائف بسبب الكلام في آيات الصفات وآيات القدر وغير ذلك، فلقبوها: «هل يجوز أن يشتمل القرآن على مالا يعلم معناه؟».

وأما تعبدنا بتلاوة حروفه بلا فهم: فجوز ذلك طوائف متمسكين بظاهر من هذه الآية، وبأن الله يمتحن عباده بما شاء، ومنعها طوائف ليتوصلوا بذلك إلى تأويلاتهم الفاسدة التي هي تحريف الكلم عن مواضعه. والغالب على كلا الطائفتين الخطأ، أولئك يقصرون في فهم القرآن بمنزلة من قيل فيه: ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب ألا أماني﴾[1]، وهؤلاء معتدون بمنزلة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه.

ومن المتأخرين من وضع المسألة بلقب شنيع، فقال: لا يجوز أن يتكلم الله بكلام ولايعني به شيئاً. خلافا للحشوية. وهذا لم يقله مسلم: إن الله يتكلم بما لا معنى له.

وإنما النزاع هل يتكلم بما لا يفهم معناه؟، وبين نفى المعنى عند المتكلم ونفي الفهم عند المخاطب بون عظيم.

ثم احتج بما لا يجرى على أصله فقال: هذا عبث، والعبث على الله محال. وعنده أن الله لا يقبح منه شيء أصلا بل يجوز أن يفعل كل شيء، وليس له أن يقول العبث صفة نقص، فهو منتف عنه، لأن النزاع في الحروف وهي عنده مخلوقة من جملة الأفعال، ويجوز أن يشتمل الفعل عنده على كل صفة، فلا نقل صحيح ولا عقل صريح.

ومثار الفتنة بين الطائفتين ومحار عقولهم: أن مدعى التأويل أخطأوا في زعمهم أن العلماء يعلمون التأويل، وفي دعواهم أن التأويل هو تأويلهم الذي هو تحريف الكلم عن مواضعه. فان الأولين لعلمهم بالقرآن والسنن وصحة عقولهم وعلمهم بكلام السلف

---

١. سورة البقرة: الآية ٧٨.

وكلام العرب، علموا يقيناً أن التأويل الذي يدعيه هؤلاء ليس هو معنى القرآن، فانهم حرفوا الكلم عن مواضعه، وصاروا مراتب ما بين قرامطة وباطنية يتأولون الأخبار والأوامر، وما بين صابئة فلاسفة يتأولون عامة الأخبار عن الله وعن اليوم الآخر، حتى عن أكثر أحوال الأنبياء، وما بين جهمية ومعتزلة يتأولون آيات الصفات، وقد وافقهم بعض متأخرى الأشعرية على ما جاء في بعض الصفات، وبعضهم في بعض ما جاء في اليوم الأخر، وأخرون من أصناف الأمة، وإن كانت تغلب عليهم السنة، فقد يتأولون أيضاً مواضع يكون تأويلها من تحريف الكلم عن مواضعه.

والذين ادعوا العلم بالتأويل مثل طائفة من السلف وأهل السنة وأكثر أهل الكلام والبدع، رأوا أيضاً أن النصوص دلت على معرفة معاني القرآن، ورأوا عجزاً وعيباً وقبيحاً أن يخاطب الله عباده بكلام يقرأونه ويتلونه وهم لا يفهمونه، وهم مصيبون فيما استدلوا به من سمع وعقل، لكن أخطأوا في معنى التأويل الذي نفاه الله وفي التأويل الذي أثبتوه وتسلق بذلك مبتدعهم إلى تحريف الكلم عن مواضعه، وصار الأولون أقرب إلى السكوت والسلامة بنوع من الجهل، وصار الآخرون أكثر كلاما وجدالا ولكن بفرية على الله، وقول عليه بمالا يعلمونه، وإلحاد في أسمائه وأياته. فهذا هذا:»[١].

قال الراغب : والتأويل: من آل يؤول: إذا رجع، والتفسير أعم من التأويل.

وأكثر ما يستعمل التفسير في الألفاظ. والتأويل: في المعاني، كتأويل الرؤيا.

والتأويل: يستعمل اكثره في الكتب الالهية، والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها.

والتفسير: أكثره يستعمل في مفردات الألفاظ والتأويل يستعمل اكثره في الجمل.

فالتفسير: إما أن يستعمل في غريب الألفاظ نحو «البحيرة»[٢] و«السائبة»[٣]

---

١. دقائق التفسير ج ١ ص ١٠٨ ـ ١٠٤ وتفسير الكبير (ابن تيميه) ج ٢ ص ١٠٢ ـ ١٠٨.

٢. قال الراغب: «وذلك ما كانوا يجعلونه بالناقة إذا ولدت عشرة أبطن. شقوا أذنها، فيسيبوها فلا تركب، ولا يحمل عليها».

٣. وقال الراغب في مفرداته: «السائبة. التي تسيب في المرعى فلا ترد عن حوض ولا علف. وذلك إذا ولدت خمسة أبطن».

و«الوصيلة»(١)، أو في [وجيز يبيِّن وبشرح](٢) كقوله: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾(٣).

وإما في كلام مضمَّن بقصة (٤) لا يمكن تصوره [إلاّ] بمعرفتها، نحو قوله تعالى: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾ (٥)، وقوله: ﴿ليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ (٦) الآية.

وأما التأويل: فإنه يستعمل مرة عاما ومرة خاصاً، نحو «الكفر» المستعمل تارة في الجحود المطلق، وتارة في جحود الباري خاصة. و«الإيمان» المستعمل في التصديق المطلق تارة، وفي تصديق دين الحق تارة.

وإما في لفظ مشترك بين معان مختلفة، نحو لفظة «وجد» المستعملة (٧) في الجدة، والوجد والوجود.

والتأويل نوعان: مستكره ومنقاد:

فالمستكره: ما يستبشع إذا سُبِرَ بالحجة، ويستقبح بالتدليسات (٨) المزخرفة (٩) وذلك على أربعة أضرب:

الأول: أن يكون لفظ عام فيخصص في بعض ما يدخل تحته، نحو قوله تعالى: ﴿وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين﴾ (١٠)، حمله بعض الناس على علي بن ابي طالب رضي الله عنه ـ فقط.

---

١. قال الراغب: «وقوله: ولا وصيلة: وهو أن أحدهم كان إذا ولدت له شاته ذكراً وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلا يذبحون أخاها من أجلها».

٢. في نسخة: تبين وشرح وهي عبارة قاصرة وفي الإتقان: ج ٤ ص ١٦٨: «وجيز يبيّن بشرح».

٣. سورة البقرة: الآية ٤٨، ٨٣ وقد تكررت في سور أخرى.

٤. في الاتقان: ج ٤ ص ١٦٨ لـ «متضمن لقصة».

٥. سورة التوبة: الآية ٣٧ ـ وقد قال الراغب في مفرداته: «ومنها النسيء الذي كانت العرب تفعله، وهو تأخير بعض الأشهر الحرم إلى شهر آخر».

٦. سورة البقرة الآية ١٨٩، وقد قال مكي بن أبي طالب في قصتها: «كان ناس من الأنصار إذا أهلوا بالعمرة لم يحل بينهم وبين السماء شيء ـ يتحرجون من ذلك ـ فإذا خرج الرجل مهلاً ثم بدت له حاجة رجع فدخل بيته من ظهره، من أجل السقف لئلا يحول بينه وبين السماء، فأعلموا أنه ليس من البر».

٧. في نسخة: المستعمل وذلك في الإتقان، لكنها في الإتقان جاءت صفة لـ «لفظ» بالتذكير بدلا من «لفظة» انظر الإتقان: ج ٤ ص ١٦٨.

٨. في نسخة: بالتدليات. وهو تصحيف.

٩. في نسخة: المزخرفة المزوجة.

١٠. سورة التحريم: الآية ٤.

والثاني: أن يلفق [١] بين اثنين، نحو قوله: من زعم أن الحيوانات كلها مكلفة؟ محتجاً بقوله تعالى: ﴿وإن من أمة إلاّ خلا فيها نذير﴾ [٢]، وقد قال تعالى : ﴿وما من دابّة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه إلاّ أُمم امثالكم﴾ [٣] فدلّ بقوله: ﴿إلا أمم امثالكم﴾ أنهم مكلفون كما نحن مكلفون.

الثالث [٤]: ما استعين فيه بخبر مزور أو كالمزور، كقوله تعالى ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ [٥]، قال بعضهم: عنى به الجارحة مستدلاً بحديث موضوع [٦].

والرابع: ما يستعان به [٧] باستعارات واشتقاقات بعيدة، كما قاله بعض الناس في البقر: إنه (إنسان) يبقر عن أسرار العلوم. وفي الهدهد: إنه إنسان (موصوف) بجودة البحث والتنقير.

فالأول: أكثر ما يروج [٨] على المتفقهة [٩] الذين لم يَقْوَوْا [١٠] في معرفة الخاص والعام.

والثاني: على المتكلم الذي لم يقْوَ في معرفة شرائط النظم.

والثالث: على صاحب الحديث الذي لم يتهذب في شرائط قبول الأخبار.

والرابع: على الأديب الذي لم يتهذب بشرائط الاستعارات والاشتقاقات.

والمنقاد من التأويل: مالا تعرض فيه البشاعة المتقدمة. وقد يقع الخلاف فيه بين الراسخين في العلم لإحدى جهات ثلاث:

ـ إما لاشتراك في اللفظ: نحو قوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ [١١] هل هو من بصر

---

١. في نسخة: تلفق.
٢. سورة فاطر: الآية ٢٤.
٣. سورة الانعام: الآية ٣٨.
٤. في نسخة: والثالث.
٥. سورة القلم: الآية ٤٢.
٦. لعله يريد بالحديث الموضوع ما جاء في تفسير ابن كثير عن النبي ﷺ قال «يوم يكشف عن ساق» يعني: عن نور عظيم يخرون له سجداً» وقد علق عليه ابن كثير بقوله: ورواه ابو يعلى عن القاسم بن يحيى عن الوليد بن مسلم به. وفيه رجل مبهم والله أعلم. وقد أورد ابن كثير في سياق تفسيره حديث أبي سعيد الخدري وهو مخرج في الصحيحين وغيرهما فانظره هناك.
٧. في نسخة: فيه.
٨. في نسخة: روج.
٩. في نسخة: المتفقه.
١٠. في نسخة: يقولوا، وهو تصحيف ظاهر.
١١. سورة الأنعام: الآية ١٠٣.

العين أو من بصر القلب؟.

أو لأمر راجع إلى النظم. نحو قوله: ﴿وأولئك هم الفاسقون. إلا الذين تابوا﴾ [١] هل هذا الاستثناء مقصور على المعطوف، أو مردود إليه وإلى المعطوف عليه معاً؟.

ـ وإما لغموض المعنى ووجازة اللفظ، نحو قوله تعالى: ﴿وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم﴾ [٢].

والوجوه التي يعتبر بها [٣] تحقيق أمثالها أن ينظر:

فإن كان ما ورد فيه ذلك أمراً أو نهياً [٤] عقلياً فزع في كشفه إلى الأدلة العقلية، فقد حث تعالى على ذلك في قوله: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾ [٥].

ـ وإن كان أمراً شرعياً فزع في كشفه إلى آية محكمة أو سنة مبينة.

ـ وإن كان من الأخبار الاعتقادية فزع فيه إلى الحجج العقلية.

ـ وإن كان من الأخبار الاعتبارية فزع فيه إلى الأخبار الصحيحة المشروحة في القصص». [٦]

قال الطبرسي (ره) في ذكر التفسير والتأويل والمعنى:

« التفسير: كشف المراد عن اللفظ المشكل، والتأويل: رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر والتفسير والبيان، وقال أبو العباس المبرد: التفسير والتأويل والمعنى واحد، وقيل: التفسير كشف المغطى، والتأويل انتهاء الشيء ومصيره ومايؤول إليه أمره، والمعنى مأخوذ من قولهم: عنيت فلاناً أي قصدته، فكان المراد من قولهم عنى به كذا:

---

١. سورة النور: الآية ٤، ٥.

٢. سورة البقرة: الآية ٢٢٧، وقد جاء قبلها: ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاؤا فإن الله غفور رحيم﴾. وقد قال مكي بن ابي طالب في تفسيره: «فإن فاؤا»: أي: رجعوا إلى الوطء وكفّروا عن أيمانهم، فإن الله غفور لهم على يمينهم رحيم بهم أن يعاقبهم بعد كفارتهم، قوله: «وإن عزموا الطلاق»: أي: إن لم يُكَفِّروا ولا فاؤا إلى الوطء، أي: رجعوا إليه وأرادوا الطلاق، فإن الله سميع لقولهم، عليم باعتقادهم وعزيمتهم».

٣. في نسخة: فيها.

٤. في نسخة: ونهياً.

٥. سورة ص: الآية ٢٩.

٦. جامع التفاسير: ج ١ ص ٤٧ ـ ٥١.

قصد بالكلام كذا، وقيل: هو من قولهم: عُنيت بهذا الأمر أي تكلفته»(١).

قال ابن الجوزي : «اختلف العلماء : هل التفسير والتأويل بمعنى ، أم يختلفان ؟ فذهب قوم يميلون إلى العربية إلى أنهما بمعنى ، وهذا قول جمهور المفسرين المتقدمين . وذهب قوم يميلون إلى الفقه الى اختلافهما ، فقالوا : التفسير : إخراج الشيء من مقام الخفاء إلى مقام التجلي . والتأويل : نقل الكلام عن وضعه فيما يحتاج في إثباته إلى دليل لولاه ماترك ظاهر اللفظ ، فهو مأخوذ من قولك : آل الشيء إلى كذا ، أي : صار إليه (٢).

قال صديق حسن خان : «والقرآن الكلام العربي المنزل على محمد ﷺ المتحدى بأقصر سورة منه المنقول تواتراً ، ودليله الكتاب والسنة ولفظ العرباء ، واستمداده من علمي أصول الدين والفقه، وهو قسمان: «تفسير» وهو ما لا يدرك إلا بالنقل كأسباب النزول و«تأويل» وهو مايمكن إدراكه بالقواعد العربية فهو مما يتعلق بالدراية .

والسر في جواز التأويل بشروطه دون التفسير ، أن التفسيركشهادة على الله وقطع بأنه عنى بهذا اللفظ هذا المعنى ولا يجوز إلا بتوقيف ، ولذا جزم الحاكم بأن تفسير الصحابي مطلقاً في حكم المرفوع ، والتأويل ترجيح لأحد المحتملات بلاقطع ، فاغتفر ، أفاد ذلك جماعة من أهل العلم ذكرهم سليمان الجمل في حاشية الجلالين»(٣).

وقال صديق حسن خان : فأما التأويل وهو صرف الآية إلى معنى يحتمل موافق لما قبلها وما بعدها غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط، فقد رخص فيه لاهل العلم ، أما التفسير وهو الكلام في أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها، فلا يجوز إلا بالسماع بعد ثبوته من طريق النقل . وأصل التفسير من التفسرة وهو الدليل الذي ينظر فيه الطبيب فيكشف عن علة المريض ، كذلك المفسر يكشف عن شأن الآية وقصتها ، واشتقاق التأويل من الأول وهو الرجوع، يقال: أولته فآل أي صرفته فانصرف انتهى ، والفرق بينهما أن التفسير موقوف على النقل المسموع ، والتأويل موقوف على الفهم

---

١. مجمع البيان ج ١ ص ٨٠. ٢. زاد المسير ج ١ ص ٤.
٣. فتح البيان ج ١ ص ١٢.

الصحيح»[١].

قال البغدادى في معنى التفسير والتأويل: «فأما التفسير فأصله في اللغة من الفسر وهو كشف ما غطى وهو بيان المعاني المعقولة، فكل ما يعرف به الشيء معناه فهو تفسير، وقد يقال فيما يختص بمفردات الألفاظ وغريبها تفسير. وقيل: هو من التفسرة وهو الدليل الذي ينظر فيه الطبيب فيكشف عن علة المريض فكذلك المفسر يكشف عن معنى الآية وشأنها وقصتها. وأماالتأويل فاشتقاقه من الأول وهو الرجوع إلى الأصل، يقال: أولته فآل أي صرفته فانصرف وهو رد الشيء إلى الغاية والمراد منه بيان غايته المقصودة منه، فالتأويل بيان المعاني والوجوه المستنبطة الموافقة للفظ الآية. والفرق بين التفسير والتأويل: أن التفسير يتوقف على النقل المسموع والتأويل يتوقف على الفهم الصحيح والله أعلم»[٢].

قال ابن جُزى : «ما الفرق بين التفسير والتأويل ؟ : فالجواب أن في ذلك ثلاثة أقوال : الأوّل أنهما بمعنى واحد. والثاني : أن التفسير للفظ ، والتأويل للمعنى. الثالث وهو الصواب : أن التفسير : هو الشرح ، والتأويل : هو حمل الكلام على معنى غير المعنى الذي يقتضيه الظاهر بموجب اقتضى أن يحمل على ذلك ويخرج على ظاهره»[٣].

قال الألوسي: «واختلف في الفرق بين التفسير والتأويل، فقال: أبو عبيدة هما بمعنى ، وقال الراغب : التفسيرأعم وأكثر استعماله فى الالفاظ و مفرداتها فى الكتب الالهية وغيرها، والتأويل فى المعانى والجمل فى الكتب الالهية خاصة؛ وقال الماتريدى: التفسير القطع بأن مراداالله تعالى كذا والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون قطع، وقيل: التفسير ما يتعلق بالرواية ، والتأويل ما يتعلق بالدراية. وقيل غبر ذلك ، وعندى انه ان كان المراد الفرق بينهما بحسب العرف فكل الأقوال فيه ما سمعتها ومالم تسمعها مخالفة للعرف اليوم إذ قد تعارف من غير نكير: أن التأويل أشارة قدسية ومعارف سبحانية تنكشف من سجف العبارات للسالكين وتنهل من سحب الغيب على قلوب

---

١. فتح البيان ج ١ ص ٢٨ - ٢٩.
٢. لباب التأويل (خازن) ج ١ ص ١٠.
٣. التسهيل ج ١ ص ٦.

العارفين ، والتفسير غير ذلك وان كان المراد الفرق بينهما بحسب ما يدل عليه اللفظ مطابقة، فلا أظنك في مرية من رد هذه الأقوال، أو بوجه ما فلا أراك ترضى إلا أن في كل كشف إرجاعا وفي كل إرجاع كشفا فافهم»[١].

قال النهاوندي : «في بيان معنى التفسير والتأويل وعدم كون بيان المراد من الظاهر تفسيراً منهيّا عَنه، واختصاص العلم بالتّأويل بالرّاسخِينَ في العلم. التفسير هو كشف القناع عن المعني وتوضيح المقصود من الكلمة أو الكلام، والتّأويل هو أول الكلام وارجاعه إلى بعض المعاني البعيدة المُحتملة منه، وقيل: هُما واحد.

والظّاهرانّ بيان المراد من المحكمات نصّاً كان المحكم أو ظاهراً لَيس من التفسير أو من المنهي منّه لتواتر الأمر بالتمسّك بالكتاب والعمل به وعرض الأحاديث علَيه وترجيح المتعارضات منها به وتميز الشروط الصّحيحة عَن الفاسدة بموافقتها له وسيرة المُسلمين والأصحاب على التمسّك بظواهِره فضلاً عن نصوصه .

وأمّا غير المحكمات فلا شبْهة أنّ العلم بها مخصُوص بالراسخين في العلم وإنّه لايجُوز لغيرهم التكلّم فيها برأيه ومن قبل نفسه عن جزمٍ وبتّ، وعليه تحمل الرّوايات النّاهية عن تفسير القرآ ن بالرّأي، أو عليه وعلى القول في المحكمات من دون فحص في الأخبار المعتبرة عَن الهُداة صلوات الله عليهم عن ناسخها ومقيّدها ومُخصّصها ومُبيّنها»[٢].

قال ابن عاشور : «وقد جرت عادة المفسرين بالخوض في بيان معنى التأويل ، وهل هو مساو للتفسير أو أخص منه أو مباين . وجمع القول في ذلك أن من العلماء من جعلهما متساويين، وإلى ذلك ذهب ثعلب وابن الأعرابي وأبو عبيدة ، وهو ظاهر كلام الراغب ، ومنهم من جعل التفسير للمعنى الظاهر والتأويل للمتشابه ، ومنهم من قال : التأويل صرف اللفظ عن ظاهر معناه الى معنى آخر محتمل لدليل فيكون هنا بالمعنى الأصولي ، فإذا فسر قوله تعالى : ﴿يخرج الحى من الميت﴾[٣] بإخراج الطير من البيضة ،

---

١. روح المعاني ج ١ ص ٤. ٢. نفحات الرحمن ج ١ ص ٢٣.
٣. سورة الانعام: الآية ٩٥.

فهو التفسير، أو بإخراج المسلم من الكافر فهو التأويل، وهنالك اقوال أخر لا عبرة بها، وهذه كلها اصطلاحات لامشاحة فيها، إلا أن اللغة والآثار تشهد لمقول الأول، لأن التأويل مصدر أوله إذا أرجعه إلى الغاية المقصودة، والغايةُ المقصودةُ من اللفظ هو معناه وما أراده منه المتكلم به من المعاني، فساوى التفسير، على أنه لا يطلق إلا على مافيه تفصيل معنى خفي معقول. قال الأعشى:

عـلى أنـها كـانت تَأَوُّلُ حُـبِّهاَ تَأَوُّلَ رِبْـعِيِّ السـقاب فأَصْـحَبا

أي تُبينُ تفسير حبها أنه كان صغيرا في قلبه، فلم يزل يشب حتى صار كبيرا كهذا السقب أي ولد الناقة، الذي هو من السقاب الربيعية لم يزل يشب حتى كبر وصار له ولد يصحبه، قاله أبو عبيدة، وقد قال الله تعالى: ﴿هل ينظرون إلا تأويلَه﴾ (١) أي ينتظرون إلا بيانه الذي هو المراد منه، وقال ﷺ في دعائه لابن عباس: «اللهم فَقِّهْهُ في الدين وعَلِّمْه التأويل»، أي فَهْم معاني القرآن، وفي حديث عائشة كان ﷺ يقول في ركوعه: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأول القرآن أي يعمل بقوله تعالى: ﴿فسبِّح بحمد ربك واستغفره﴾ (٢)، فلذلك جمع في دعائه التسبيح والحمد وذكر لفظ الرب وطلب المغفرة، فقولها: «يتأول»، صريح في أنه فسر الآية بالظاهر منها ولم يحملها على ما تشير إليه من انتهاء مدة الرسالة وقرب انتقاله ﷺ، الذي فهمه منها عمر وابن عباس رضي اللّه عنهما» (٣).

قال عبد السلام: «اختلف العلماء في بيان الفرق بين التفسير والتأويل:

ـ فقد ذهب بعضهم إلى أن التفسير والتأويل بمعنى واحد. وهؤلاء يمثلهم أبو عبيدة وطائفة معه.

ـ وقيل: التفسير أعم من التأويل، وأكثر ما يستعمل التفسير في الألفاظ، والتأويل في المعاني، كتأويل الرؤيا. والتأويل يستعمل أكثره في الكتب الإلهية. والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها.

---

١. سورة الاعراف: الآية ٥٣.
٢. سورة النصر: الآية ٣.
٣. التحرير والتنوير ج ١ ص ١٦ ـ ١٧.

وقيل غير ذلك.

والراجح: أن التفسير ما كان راجعاً إلى الرواية، والتأويل: ما كان راجعاً إلى الدراية، وذلك: لأن التفسير معناه: الكشف والبيان، والكشف عن مراد الله تعالى لانجزم به إلا إذا ورد بطريق مأثور.

والتأويل: ملحوظ فيه ترجيح أحد احتمالات اللفظ بالدليل، والترجيح يعتمد على الاجتهاد»[١].

قال المحققان في الفرق بين التفسير والتأويل والعلاقة بينهما:

«قال أبو عبيد القاسم بن سلام: هما بمعنى واحد، وعلى هذا يعرف بما عرف به التفسير. وقد أنكر بعض العلماء ذلك.

قال الراغب الأصفهاني في المفردات: التفسير أعم من التأويل، وأكثر استعمالاً في الألفاظ ومفرداتها، وأكثر استعمال التأويل في المعاني والجمل، وأكثر ما يستعمل في الكتب الإلهية، وأما التفسير فيستعمل فيها وفي غيرها.

وقال أبو طالب الثعالبي: التفسير بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازاً، كتفسير الصراط بالطريقة، والصيب بالمطر. والتأويل: تفسير باطن اللفظ مأخوذ من الأول وهو الرجوع لعاقبة الأمر، فالتأويل إخبار عن حقيقة المراد، والتفسير إخبار عن دليل المراد، لأن اللفظ يكشف عن المراد والكاشف دليل مثاله قوله تعالى في سورةالفجر في الآية الرابعة عشرة: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ تفسيره: أنه من الرصد، يقال: رصدته إذا رقبته، والمرصاد: مفعال منه، وتأويله: التحذير من التهاون بأمرالله، والغفلة عن الأهبة والاستعداد للعرض عليه.

وقال بعض العلماء: التفسير يتعلق بالرواية، أي: التفسير بالمأثور، والتأويل: يتعلق بالدراية أي التفسير بالرأي[٢] والاجتهاد.

وقال الماتريدي: «التفسير القطع على أن المراد من اللفظ هذا، والشهادة على الله أنه عنى باللفظ هذا، فإن قام دليل مقطوع به فصحيح، وإلا فتفسير بالرأي، و هذا

---

١. مقدمة المحرر الوجيز ج ١ ص ٥. ٢. الإتقان ج ٢ ص ١٧٣.

المنهي عنه، والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون القطع والشهادة على الله [١]، قال شيخنا الشيخ محمد حسين الذهبي في كتابه القيم (التفسير والمفسرون) [٢]: والذي تميل إليه النفس من هذه الأقوال هو أن التفسير ما كان راجعاً إلى الرواية، والتأويل ما كان راجعاً إلى الدراية، وذلك لأن التفسير معناه الكشف والبيان، والكشف عن مراد الله تعالى لا نجزم به إلا إذا ورد عن رسول الله ﷺ أو عن بعض أصحابه الذين شهدوا نزول الوحي، وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع، وخالطوا رسول الله ورجعوا إليه فيما أشكل عليهم من معاني القرآن الكريم. وأما التأويل فملحوظ فيه ترجيح أحد محتملات اللفظ بالدليل، والترجيح يعتمد على الاجتهاد، ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها في لغة العرب، واستعمالها بحسب السياق، ومعرفة الأساليب العربية واستنباط المعاني من كل ذلك.

قال الزركشي: «وكان السبب في اصطلاح الكثير على التفرقة بين التفسير والتأويل التمييز بين المنقول والمستنبط، ليحيل على الاعتماد في المنقول، وعلى النظر في المستنبط» [٣]، [٤].

- الفرق بين الترجمة والتفسير والتأويل:

قال الصادقي في الترجمة والتفسير والتأويل: «فقد يترجم القرآن من لغته الى اخرى تحويلا للمعنى المفهوم منه - كما يفهمه العربي الساذج - إلى لغات أخرى.

أو يفسر كشفا للقناع عن المفهوم منه حيث المفاهيم القرآنية درجات فوق بعض ولا يفهمها كل عارف باللغة العربية، أم كشفا للقناع عن الإجمال المقصود حيث لا يراد التفصيل فلتفسر الآية بآية أو آيات أخرى تعني تفصيل ما أجمل فيها [٥].

وأما أن يفسر كشفا عن قناع في المعنى الذي لاسبيل إلى تفهمه، أم قناع في اللفظ

---

١. الإتقان ج ٢ ص ١٧٢.
٢. التفسير والمفسرون ج ١ ص ٢٣.
٣. الإتقان ج ٢ ص ١٨٣ وانظر مقدمتنا على التفسير الوسيط وبحر العلوم.
٤. مقدمة البحر المحيط ج ١ ص ١٢.
٥. فمثل قوله تعالى: «اقيموا الصلاة» لايدل على تعدادها واوقاتها، وإنما المتكفل لهذا البيان آياتها المفصلة حيث تفسر أعداد الصلاة وأوقاتها.

قصوراً[١] أو تقصيراً[٢]، فساحة القرآن بريئة عن هذا المثلث فإنه بيان للناس، لا قصور في دلالته ولا تقصير، ولا غموض في معانيه لحد لايمكن تفهمه.

والتأويل راجع إلى المعنى المفهوم من القرآن إرجاعاً إلى مأخذه أو نتيجته، ولم يأت التأويل في سائر القرآن إلا بهما، خلاف ما يعرف أنه تفسير بخلاف النص أو الظاهر لدلالة عقلية أو علمية أو حسية أم ماذا.

فالترجمة راجعة الى اللفظ، والتأويل يخص المعنى، والتفسير يشملها معنى عاليًا بعيدًا عن تفهم الناس الا من كان عاليًا فى التفهم، ام لفظًا لا يعنى فيما يعنى هنا ما تطلبه من تفصيل، ففى خماسيّة المحتملات للمعنى من التفسير لا يصح إلا هذان دون الثلاثة الاخرى»[٣].

١. قصور الدلالة فيما يقصر المتكلم عن بيان مراده ولاقصور في ساحة الألوهية.

٢. التقصير في الدلالة فيما يقصر المتكلم في بيان مراده على امكانية البيان كما في بعض العبارات المغلقة الغامضة رغم وضوح المفهوم لو كانت الدلالة ظاهرة

٣. الفرقان ج ١ ص ٥٦ ـ ٥٧.

هل القرآن يترجم ؟.

قال ابن تيمية في ترجمة القرآن : «الترجمة والتفسير ثلاث طبقات :

أحدها : ترجمة مجرد اللفظ . مثل نقل اللفظ بلفظ مرادف، ففي هذه الترجمة تريد أن تعرف أن الذي يعنى بهذا اللفظ عند هؤلاء هو بعينه الذي يعنى باللفظ عند هؤلاء . فهذا علم نافع . إذ كثير من الناس يقيد المعنى باللفظ فلا يجرده عن اللفظين جميعاً .

والثاني : ترجمة المعنى وبيانه ، بأن يصور المعنى للمخاطب فتصوير المعنى له وتفهيمه إياه قدر زائد على ترجمة اللفظ ، كما يشرح للعربي كتاباً عربياً قد سمع ألفاظه العربية لكنه لم يتصور معانيه ولا فهمها ، وتصوير المعنى يكون بذكر عينه أو نظيره إذ هو تركيب صفات من مفردات يفهمها المخاطب، يكون ذلك المركب صور ذلك المعنى إما تحديداً وإما تقريباً .

الدرجة الثالثة : بيان صحة ذلك وتحقيقه بذكر الدليل والقياس الذي يحقق ذلك المعنى إما بدليل مجرد ، وإما بدليل يبين علة وجوده .

وهنا قد يحتاج إلى ضرب أمثلة ومقاييس تفيده التصديق بذاك المعنى ، كما يحتاج في الدرجة الثانية إلى أمثلة تصور ذلك المعنى ، وقد يكون نفس تصوره مفيداً للعلم بصدقه . وإذا كفى تصور معناه في التصديق به لم يحتج إلى قياس ومثل ودليل آخر . فإذا عرف القرآن هذه المعرفة فالكلام الذي يوافقه أو يخالفه من كلام أهل الكتاب

والصابئين والمشركين لابد فيه من الترجمة للفظ والمعنى أيضاً ، وحينئذ فالقرآن فيه تفصيل كل شيء كما قال تعالى : ﴿ ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء ﴾ [١]. وقال : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ﴾ [٢]. ومعلوم أن الأمة مأمورة بتبليغ القرآن لفظه ومعناه كما أمر بذلك الرسول ، ولا يكون تبليغ رسالة الله إلا كذلك . وأن تبليغه إلى العجم قد يحتاج الى ترجمته لهم ، فيترجم لهم بحسب الإمكان . والترجمة قد تحتاج الى ضرب أمثال لتصوير المعاني فيكون ذلك من تمام الترجمة .

ـ هل يترجم القرآن في الصلاة ؟ .

وقد اختلف الفقهاء في أذكار الصلاة : هل تقال بغير العربية . ؟ وهي [٣] ثلاث درجات ، أعلاها القرآن [٤]، ثم الذكر الواجب غير القرآن ، كالتحريمة بالإجماع ، وكالتحليل والتشهد عند من أوجبه [٥].

ثم الذكر الواجب من دعاء وتسبيح أو تكبير وغير ذلك .

فأما القرآن فلا يقرؤه بغير العربية (في الصلاة) [٦] سواء قدر عليها أو لم يقدر عند الجمهور . وهو الصواب الذي لاريب فيه . بل قد قال غير واحد أنه يمتنع أن يترجم سورة أو ما يقوم به الإعجاز .

واختلف أبو حنيفة وأصحابه في القادر على العربية . وأما الأذكار الواجبة فاختلف في منع ترجمة القرآن ، هل تترجم للعاجز عن العربية وعن تعلمها .؟ وفيه لأصحاب أحمد، وجهان ؛ أشبههما بكلام أحمد: أنه لايترجم وهو قول مالك وإسحق .

والثاني : يترجم ، وهو قول أبي يوسف ومحمد والشافعي .

وأما سائر الأذكار ، فالمنصوص من الوجهين أنه لايترجمها . ومتى فعل بطلت صلاته . وهو قول مالك وإسحق وبعض أصحاب الشافعي . والمنصوص عن الشافعي: أنه يكره

---

١. سورة هود : الآية ١١١.
٢. سورة النحل : الآية ٨٩.
٣. الضمير يرجع إلى اذكار الصلاة .
٤. كقراءة الفاتحة والآية .
٥. كما في المذهب الشافعي .
٦. ما بين القوسين زيادة لتوضيح المعنى .

ذلك بغير العربية ولا يبطل.

ومن أصحابنا من قال: له ذلك إذا لم يحسن العربية [١].

قال القاسمي في الرد على من توهم أن بعض الصحابة يجوز التلاوة بالمعنى:

«قال ابن الجزري في النشر: أما من يقول بأن بعض الصحابة، كابن مسعود، كان يجيز القراءة بالمعنى فقد كذب عليه. إنما قال: نظرت القراء فوجدتهم متقاربين فاقرأوا كما علمتم.

نعم كانوا ربما يدخلون التفسير في القراءة إيضاحاً وبياناً، لأنهم محققون لما تلقوه عن النبي ﷺ قرآنا. فهم آمنون من الالتباس. وربما كان بعضهم يكتبه معه. لكن ابن مسعود رضي الله عنه كان يكره ذلك ويمنع منه. رواه عنه مسروق. وروى عنه: جردوا القرآن، ولا تلبسوا به ماليس منه [٢].

قال الزحيلي في ترجمة القرآن:

«يحرم ولا يصح شرعاً ترجمة نظم القرآن الكريم؛ لأن ذلك متعذر غير ممكن، بسبب اختلاف طبيعة اللغة العربية التي نزل بها القرآن عن سائر اللغات الأخرى، ففي العربية المجاز والإستعارة والكناية والتشبيه والصور الفنية التي لا يمكن صبها بألفاظها في قوالب لغة أخرى، ولو حدث ذلك لفسد المعنى، واختل التركيب، وحدثت العجائب في فهم المعاني والأحكام، وذهبت قدسية القرآن، وزالت عظمته وروعته، وتبددت بلاغته وفصاحته التي هي سبب إعجازه.

لكن يجوز شرعاً ترجمة معاني القرآن أو تفسيره، على أنه ليس هو القرآن، فلا تعد ترجمة القرآن قرآناً، مهما كانت الترجمة دقيقة، ولا يصح الإعتماد عليها في استنباط الأحكام الشرعية؛ لأن فهم المراد من الآيات يحتمل الخطأ، وترجمتها إلى لغة أخرى يحتمل الخطأ أيضاً، ولا يصح الإعتماد على الترجمة مع وجود هذين الإحتمالين [٣].

---

١. دقائق التفسير ج ١ ص ١٦٣ ـ ١٦٥. والتفسير الكبير (ابن تيمية) ج ٢ ص ١٦٧ ـ ١٧٠.

٢. محاسن التأويل ج ١ ص ٢٩٠.

٣. وهذا هو الحادث الآن، فقد ترجم القرآن الكريم إلى زهاء خمسين لغة، وكلها ترجمات ناقصة، أو مشوهة، وغير موثوقة. وحبذا لو صدرت ترجمة من ثقات العلماء المسلمين.

ولاتصح الصلاة بالترجمة [1] ، ولا يتعبد بتلاوتها ؛ لأن القرآن اسم للنظم والمعنى ، والنظم : هو عبارات القرآن في المصاحف . والمعنى : هو ماتدل عليه العبارات ، ولاتعرف أحكام الشرع الثابتة بالقرآن إلا بمعرفة النظم والمعنى» [2] .

١. تفسير الرازي : ج ١ ص ٢٠٩.
٢. المنير ج ١ ص ٣٧.

فضل علم التفسير

قال الراغب: «أشرف صناعة يتعاطاها الانسان تفسير القرآن وتأويله، وذاك أن الصناعات الحقيقية[١] إنما تشرف بأحد ثلاثة أشياء:

[ـ إما بشرف موضوعاتها، وهي المعمول فيها، نحو أن يقال: الصياغة أشرف من الدباغة، لأن موضوعها ـ وهو الذهب والفضة ـ أشرف من جلد الميتة الذي هو موضوع الدباغة].

ـ وإما بشرف صورها: نحو أن يقال: طبع السيوف أشرف من طبع القيود.

ـ وإمّا بشرف أغراضها وكمالها، كصناعة الطب التي غرضها إفادة الصحة، فإنها أشرف من الكناسة التي غرضها تنظيف المستراح.

فإذا ثبت ذلك، فصناعة التفسير قد حصل لها الشرف من الجهات الثلاث[٢] وهو أن موضوعها المفسّر: كلام الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة. وصورة فعله: إظهار خفيات ما أودعه مُنْزِلُهُ من أسراره ﴿ ليدبروا آياته، وليتذكر أولو الألباب ﴾[٣]. وغرضه: التمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، والوصول إلى السعادة الحقيقية التي لا فناء لها. ولهذا عظّم الله محله بقوله: ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد

---

١. في نسخة: الحقيقة وهو تصحيف.
٢. في نسخة: «الثلاثة».
٣. سورة ص: الآية ٢٩.

أوتي خيراً كثيراً ﴾(١). [قيل: هو تفسير القرآن](٢)»(٣).

قال ابن عطية في فضل تفسير القرآن: «روى ابن عباس أن رجلا سأل النبي ﷺ فقال: أي علم القرآن أفضل؟ فقال النبي ﷺ: «عربيته، فالتمسوها في الشعر». وقال أيضاً: «أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه، فإن الله يحب أن يعرب»(٤).

قال ابن الجوزي في فضيلة علم التفسير: «روى أبو عبدالرحمن السلمي، عن ابن مسعود قال: كنا نتعلم من رسول الله ﷺ العشر، فلا نجاوزها إلى العشر الأُخر حتى نعلم [ما] فيها من العلم والعمل.

وروى قتادة عن الحسن أنه قال: ما أنزل الله آية إلا أحب أن أعلم فيم أنزلت، وماذا عنى بها.

وقال إياس بن معاوية: مثل من يقرأ القرآن ومن يعلم تفسيره أو لا يعلم، مثل قوم جاءهم كتاب من صاحب لهم ليلاً، وليس عندهم مصباح، فتداخلهم لمجيء الكتاب روعة لا يدرون ما فيه، فاذا جاءهم المصباح عرفوا ما فيه»(٥).

قال القرطبي في باب ما جاء في فضل تفسير القرآن وأهله: «قال علماؤنا رحمة الله

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٦٩.

٢. زيادة في نسخة. وقد نقل هذا الفصل السيوطي في الإتقان ببعض اختلاف من زيادة ونقصان، وقد يكون من المناسب أن نورد ما جاء في الإتقان: قال السيوطي في إتقانه ج ٤ ص ١٧٣: قال الأصبهاني: «أشرف صناعة يتعاطاها الانسان تفسير القرآن، بيان ذلك أن شرف الصناعة: إما بشرف موضوعها، مثل الصياغة، فإنها أشرف من الدباغة، لأن موضوع الصياغة الذهب والفضة، وهما أشرف من موضوع الدباغة الذي هو جلد الميتة. وإما بشرف غرضها، مثل صناعة الطب، فإنها أشرف من صناعة الكناسة، لأن غرض الطب إفادة الصحة، وغرض الكناسة تنظيف المستراح. وإما لشدّة الحاجة إليها كالفقه، فإن الحاجة إليه أشدّ من الحاجة إلى الطب، إذ ما من واقعة في الكون في أحد من الخلق إلاّ وهي مفتقرة إلى الفقه، لأن به انتظام صلاح أحوال الدنيا والدين، بخلاف الطب فإنه يحتاج إليه بعض الناس في بعض الأوقات.

إذا عرف ذلك، فصناعة التفسير قد حازت الشرف من الجهات الثلاث، أما من جهة الموضوع، فلأن موضوعه كلام الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وأما من جهة الغرض، فلأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى، والوصول إلى السعادة الحقيقية التي لا تفنى، وأما من جهة شدة الحاجة، فلأن كل كمال ديني أو دنيوي، عاجلي أو آجلي، مفتقر إلى العلوم الشرعية والمعارف الدينية، وهي متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى».

٣. جامع التفاسير ج ١ ص ٩١ ـ ٩٢، وقد نقل عنه القاسمي في محاسن التأويل ج ١ ص ٣٤٩.

٤. المحرر الوجيز ج ١ ص ٤٣.

٥. زاد المسير ج ١ ص ٤.

عليهم: وأما ما جاء في فضل التفسير عن الصحابة والتابعين ، فمن ذلك : أن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ذكر جابر بن عبدالله ووصفه بالعلم ؛ فقال له رجل : جُعلت فداءك! تصف جابراً بالعلم وأنت أنت ! فقال : «إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾(١)».

وقال مجاهد : أحَبّ الخلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل .

وقال الحسن : والله ما أنزل الله آية إلا أحبّ أن يعلم فيما أنزلت وما يعنى بها .

وقال الشعبيّ : رَحَل مسروق إلى البصرة في تفسير آية ، فقيل له : إن الذى يفسّرها رحل إلى الشام ؛ فتجهّز ورَحَل إلى الشام حتى علم تفسيرها .

وقال عكرمة في قوله عزوجل : ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ﴾(٢) طَلبتُ اسم هذا الرجل [الذى خرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله] أربع عشرة سنة حتى وجدته .

وقال ابن عبدالبر : هو ضمرة بن حبيب ، وسيأتي .

وقال ابن عباس : مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللَّتَيْن تظاهرتا على رسول الله ﷺ، ما يمنعني إلا مهابته ، فسألته فقال : هى حفصة وعائشة .

وقال إياس بن معاوية : مَثَلُ الذين يقرأون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره ، كَمَثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلا وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم رَوْعة ولا يدرون ما في الكتاب ؛ وَمَثل الذى يعرف التفسير كَمثل رجل جاءهم بمصباح فقرأوا مافي الكتاب»(٣).

قال ابو حيان : «واما ماورد فى تفسيره، فروى ابن عباس أن رجلا سأل النبى ﷺ فقال: أى علم القرآن أفضل؟ فقال النبى ﷺ : «عربيته فالتمسوها فى الشعر»، وقال أيضا ﷺ: «اعربوا القرآن والتمسوا غرائبه فان الله تعالى يحب أن يعرب»، وقد فسرت الحكمة من قوله تعالى: ﴿ومن يؤت الحكمة﴾(٤) بانها تفسير القرآن وقال رسول الله ﷺ : «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوها كثيرة».

---

١. سورة القصص: الآية ٨٥.
٢. سورة النساء: الآية ١٠٠.
٣. الجامع لاحكام القرآن ج ١ ص ٢٦.
٤. سورة البقرة: الآية ٢٦٩.

وقال الحسن : أهلكتهم العجمة يقرأ أحدهم الآية فيعيا بوجوهها حتى يفترى على الله فيها .

وقال ابن عباس : الذى يقرأ القرآن ولا يفسر كالاعرابى الذى يهذ الشعر .

ووصف علي جابر بن عبدالله بالعلم لكونه يعرف تفسير قوله تعالى : ﴿ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد﴾[١] .

ورحل مسروق الى البصرة في تفسير آية فقيل له: الذى يفسرها رجع الى الشام، فتجهز و رحل اليه حتى علم تفسيرها .

وقال مجاهد : أحب الخلق الى الله تعالى أعلمهم بما أنزل .

وما روي عن رسول الله ﷺ من كونه لا يفسر من كتاب الله الا آياً بعدد علمه اياهن جبريل ؑ محمول ذلك على مغيبات القرآن وتفسيره لمجمله، ونحوه مما لا سبيل اليه الا بتوقيف من الله تعالى »[٢].

قال الثعالبى فى فضل تفسير القرآن و إعرابه : « قال النبي ﷺ : «أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه فان الله تعالى يحب ان يعرف». قال ابو العالية فى تفسير قوله عزوجل : **﴿ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا ﴾**[٣]، قال: الحكمة ، الفهم فى القرآن. وقال قتادة : الحكمة ، القرآن والفقه فيه. وقال غيره : الحكمة تفسير القرآن .

وقال الشعبي : رحل مسروق الى البصرة فى تفسير آية، فقيل له: ان الذى يفسرها رحل الى الشام فتجهز و رحل اليه حتى علم تفسيرها .

وذكر علي بن ابى طالب رضي الله عنه جابر بن‌عبدالله فوصفه بالعلم، فقال له رجل: جعلت فِدَاك تصف جابرا بالعلم وانت انت، فقال: «إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى: **﴿ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد﴾**[٤]».

وقال اياس بن معاوية : مثل الذين يقرأون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلا، وليس عندهم مصباح فتداخلتهم روعة لا يدرون ما فى

---

١. سورة القصص : الآية ٨٠. ٢. البحر المحيط ج ١ ص ١٢ ـ ١٣.

٣. سورة البقرة : الآية ٢٦٩. ٤. سورة القصص : الآية ٨٥.

الكتاب، ومثل الذى يعلم التفسير كرجل جاءهم بمصباح فقرأوا ما فى الكتاب .

وقال ابن عباس : الذى يقرأ ولا يفسر كالاعرابي الذى يهذ الشعر .

وقال مجاهد : احب الخلق الى الله أعلمهم بما انزل الله .

وقال الحسن : والله ما انزل الله آية الا احب ان يعلم فيمن انزلت وما يعنى بها .

وقال النبي ﷺ: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوها كثيرة »[1].

قال الالوسى : « واما بيان شرفه فلان شرف العلم شرف موضوعه، وشرف معلومه، وغايته وشدة الاحتياج اليه وهو حائز لجميعها ، فان موضوعه كلام الله تعالى وماذا عسى أن يقال فيه ، ومعلومه مع أنه مراد الله تعالى الدال عليه كلامه جامع للعقائد الحقة والاحكام الشرعية وغيرها، وغايته الاعتصام بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها والوصول الى سعادة الدارين وشدة الاحتياج اليه ظاهرة مما تقدم، بل هو رئيس جميع العلوم الدينية لكونها مأخوذة من الكتاب، وهي تحتاج من حيث الثبوت أو من حيث الاعتداد إلى علم التفسير وهذا لا ينافى كون الكلام رئيسها أيضا؛ لان علم التفسير لتوقفه على ثبوت كونه تعالى متكلما يحتاج الى الكلام والكلام لتوقف جميع مسائله من حيث الثبوت أوالاعتداد على الكتاب يتوقف على التفسير فيكون كل منهما رئيسا للآخر من وجه، على أن رياسة التفسير بناء على ذلك الشرف مما لا ينتطح فيه كبشان ، وأما الآثار الدالة على شرفه فكثيرة ، أخرج ابن أبى حاتم وغيره من طريق ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿ يؤتى الحكمة ﴾[2] قال : المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله . وأخرج أبو عبيدة عن الحسن قال : ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن تعلم فيما أنزلت وما أراد بها ، وأخرج ابن أبى حاتم عن عمرو بن مرة، قال : ما مررت بآية لا أعرفها إلا أحزنتنى لانى سمعت الله يقول : ﴿ وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون ﴾[3] الى غير ذلك »[4].

قال صديق حسن خان : « اعلم أن الأحاديث في فضائل القرآن كثيرة جداً، ولا يتم

---

١. جواهر الحسان ج ١ ص ١٠ ـ ١١ .
٢. سورة البقرة: الآية ٢٦٩ .
٣. سورة العنكبوت: الآية ٤٣ .
٤. روح المعاني ج ١ ص ٥ .

لصاحب القرآن ما يطلبه من الأجر الموعود به في الأحاديث الصحيحة حتى يفهم معانيه، فإن ذلك هو الثمرة من قراءته.

قال القرطبي [١]: ينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه فينتفع بما يقرأ ويعمل بما يتلو، فما أقبح بحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم معنى ما يتلوه، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه؟، وما أقبح به أن يسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه، فما مثل مَن هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفاراً.

وينبغي له أن يعرف المكي من المدني، ليفرق بين ما خاطب الله به عباده في أول الإسلام وما ندبهم إليه في آخره، وما فرض في أول الإسلام وما زاد عليهم من الفرائض في آخره، فالمدني هو الناسخ للمكي في أكثر القرآن انتهى.

وقد جمعت في بيان ناسخ القرآن والحديث ومنسوخهما مؤلفاً سميته (إفادة الشيوخ بمقدار الناسخ والمنسوخ)، وهو بالفارسية.

وأجاب الشوكاني عمن سأله عن العوام والنساء الذين يقرأون القرآن من غير معرفة حلاله وحرامه ومعانيه، هل لهم الأجر الوارد من غير نقص أم لا؟، فقال: الأجر على تلاوة القرآن ثابت، لكنه إذا كان بتدبر معانيه فأجره مضاعف، وأما أصل الثواب بمجرد التلاوة فلا شك في حصوله، والله سبحانه لا يضيع عمل عامل منهم انتهى، فيمكن حمل ما ذكر هنا أولاً على مضاعفة الأجر الموعود به لا مجرد الإثابة على نفس التلاوة.

وأما ما جاء عن الصحابة والتابعين في فضل التفسير:

فعن علي أنه ذكر جابر بن عبدالله ووصفه بالعلم وقال: «إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى: ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾[٢]».

وقال مجاهد: أحب الخلق إلى الله أعلمهم بما أنزل الله.

وقال الشعبي: رحل مسروق في تفسير آية إلى البصرة، فقيل له: إن الذي يفسرها رجل في الشام فتجهز ورحل إلى الشام حتى علم تفسيرها، وقال عكرمة: في قوله

---

١. راجع تفسير القرطبي ص ٣٢ وما بعدها.

٢. سورة القصص: الآية ٨٥.

سبحانه: ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ﴾[1] طلبت اسم هذا الرجل أربع عشرة سنة حتى وجدته. قال ابن عبدالبر: هو ضميرة بن حبيب.

وقال ابن عباس: مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله ﷺ، ما يمنعني إلا مهابته فسألته فقال: هي حفصة وعائشة.

وقال إياس بن معاوية: مثل الذين يقرأون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره، كمثل قوم جاءهم كتاب من عند مليكهم ليلاً، وليس عندهم مصباح فتداخلتهم روعة ولا يدرون ما في الكتاب، ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرأوا ما في الكتاب »[2].

قال احمد رضا: « لم يخلق الله تعالى الخلق عبثاً و إنما خلقهم ليعلموا بأوامره وطاعته ويجتنبوا نواهيه ومعاصيه، وليتعبدوه بما أوحاه إلى رسله من التكليف لا عن حاجة منه تعالى إليهم بل ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيي عن بينة، وليفوز المطيع بالطاعة والثواب ويشقى العاصي بالمعصية والعقاب، ويدلنا بذلك على أنه لم يخلق لهم العقول إلا ليفكروا ولم يمنَّ عليهم بالجوارح إلا ليعملوا، وأشرف ثمار العقول والأعمال ما أوصل إلى السعادة الأبدية والفوز الأخروي باتباع أوامره تعالى وتجنب معاصيه سواء في ذلك أمر المعاد والمعاش.

وقد بيّن الله تعالى لعباده طرق الفوز ودلّهم على ما يرضيه من الأعمال التي تعود عليهم أنفسهم بالصلاح، بما أنزله من الشرائع الإلّهية على لسان أنبيائه الكرام عليهم الصلاة والسلام الذين أقام بهم الحجة على العباد فصدعوا بأمره وزجروا عن معصيته، فأنزل الله على كل رسول ذي شريعة كتاباً بلسان قومه ليخرجهم من الظلمات إلى النور وليسمعوا كلام ربهم ويعرفوا أحكامه، والرسول هو الزعيم بتفصيل ما أجمل في الكتاب وتبيان ما أبهم منه، فكان من ذلك الكتاب وكان من ذلك السنة النبوية اللذان هما أول الأدلة عند علماء أصول الفقه، ثم علّم الأنبياء أوصياءهم وأمناءهم وخواص أصحابهم

---

١. سورة النساء: الآية ١٠٠.

٢. فتح البيان ج ١ ص ٢٤.

ما إليه يرجعون وبه يهتدون من: معاني كتاب ربهم وسنة نبيهم ليكونوا بعده منارا به يهتدى ونبراسا بنوره يستضاء إذا أدلهمّ ليل الجهالة وادجن ظلام الاهواء، لئلا تذهب بالأمة مذاهب الأهواء فتصرف موارد الشريعة عن مجراها، ويتأولون أحكام الله على ما يريدون لاعلى ما يريد الله ميلاً مع الشهوات وجرياً مع الأهواء المضلة، ويتكلمون بالرأي في القرآن بلا سند إليه يسندون ولا استمساك بكلام الراسخين في العلم إليه يرجعون، كما صرف بعض الصوفية معنى قوله تعالى: ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾[1] إلى معنى الحب والعشق، وكما ذهب إليه بعض الجاهلين من معنى قوله تعالى: ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾[2] فتكلم فيه بما لا استحسن ذكره، وكما تصرف بعض المتسبين إلى العلم في قوله تعالى: ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه ﴾[3] فكتبها ووصل ذا بلام الذي، وقطع عين يشفع عنها وجعلها كلمة مستقلة، فقال فيها: من ذلّ ذي يشف ع، وجعل (ذي) إشارة إلى النفس و(يشف) من الشفاء و(ع) أمراً من الوعي فكان معناه (واستغفر الله): من ذل هذه النفس يُشفَ فعِ هذا الأمر، وأنت خبير بما لهذا الشذوذ من القيمة عند أولي العلم، نجانا الله من أمثال هذه الجهالات، ولهذا ورد النهي عن النبي ﷺ برواية ابن عباس بأنه: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار.»

وكان الصحابة في عصر النبي ﷺ يتلقون منه ما يصل بهم إلى فهم كتاب ربهم ومعرفة ما يراد منه في كثير من الآيات، فاتسعت دائرة السنة النبوية والأحاديث الشريفة كل متسع، ونشأ من ذلك علم التفسير الذي عني المسلمون به عناية تامة وصرف جل علمائهم معظم أوقاتهم بحثاً فيه وتدقيقاً.

فعلم التفسير هو أجل العلوم قدرا؛ لأنه الموصل إلى فهم مراد الله من كتابه ومعرفة أحكام الله في وحيه وما فرضه على عباده، وهذه الغاية كما لا يخفى هي أشرف الغايات وأحسن الطرق لنيل السعادات »[4].

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٨٦.
٢. سورة الفلق: الآية ٣.
٣. سورة البقرة: الآية ٢٥٥.
٤. مقدمة مجمع البيان ج ١ ص ٦٠ـ ٦٢.

الحاجة الى التفسير

قال الآلوسي : وأمابيان الحاجة اليه (التفسير) فلأن فهم القرآن العظيم ـ المشتمل على الاحكام الشرعية التى هى مدار السعادة الابدية وهو العروة الوثقى والصراط المستقيم ـ أمر عسير لا يهتدى اليه الا بتوفيق من اللطيف الخبير، حتى ان الصحابة رضى الله تعالى عنهم ـ على علو كعبهم في الفصاحة واستنارة بواطنهم بما أشرق عليها من مشكاة النبوة ـ كانوا كثيراً ما يرجعون اليه ﷺ بالسؤال عن اشياء لم يعرجوا عليها ولم تصل أفهامهم اليها، بل ربما التبس عليهم الحال ففهموا غير ما أراده الملك المتعال، كما وقع لعدى بن حاتم في الخيط الأبيض والأسود ، ولاشك أنا محتاجون إلى ماكانوا محتاجين اليه وزيادة »[1] .

قال عبد القادر في الحاجة الى التفسير :

«اعلم هداك الله . أن القرآن العظيم ، نزل بلسان عربي مبين ، على قوم هم أفصح الناس ، الا انه لشدة فصاحته وغور معانيه ، وبعد مراميه ، لم يدركوا مراد الله في بعض مغازيه ، فأحتاج الأصحاب وهم خلاصة ذلك العصر ، الى أن يسألوا حضرة الرسول ﷺ عن معاني بعض آياته في زمنه، واحتاجوا لأن يسأل بعضهم بعضا عن بيان بيناته بعد وفاته ، فمن باب أولى يلزم من بعدهم فهم تلك المعاني الغامضة منه ، والوقوف على أحكامه ،

---

١. روح المعاني ج ١ ص ٥.

ومعرفة المراد منها ، لأنه مدار السعادة الأبدية ، والتمسك بالعروة الوثقى ، والوصول الى الصراط المستقيم ، وباب رضى رب العالمين ، لأن الغرض فيه أمر عسير ، لايهتدى إليه الا بتوفيقات ربانية ، وهبات رحمانية من اللطيف الخبير ، واذا كان الأصحاب رضوان الله عليهم على علو رتبتهم في مقامات الكمال ، وارتفاع درجاتهم في الفصاحة واستنارة قلوبهم بإشراق مشكاة النبوة فيها ، لم تعرج أفهامهم الشاقبة الى اشاراته ، ولربما فهم بعضهم غير مراد الله ، كما وقع لعدي بن حاتم في الخيط الأبيض والأسود ، إذ صرفهما لمعناهما المسمى فربط برجليه خيطين ليستبينهما في السحور ، فما بالك ياأخي بغيرهم ، وخاصة أهل هذا العصر الذي انصرف أهله بكليتهم الى علوم لامساس لأكثرها بالدين ، ولهذا مست الحاجة الى تفسير كتاب الله وانكب عليه السلف الصالح ، وعكف عليه التابعون ، واقتفى اثرهم العلماء ، ولم ينفكوا عن الولوج في لجج معانيه والدخول في صحاري مبانيه الى ان يشاء الله ، والى أن يرث الأرض ومن عليها ، ولايعلم تأويله كما أراد غيره . أخرج ابن أبي حاتم وغيره من طريق أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء﴾ [1] ، قال : المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله ، واخرج ابو عبيدة عن الحسن قال : ما أنزل الله آية الا وهو يحب أن يعلم فيم أنزلت ، ومأأراد بها ، وأخرج ابن أبي حاتم عن عمروبن مرة قال : ما مررت بآية لا أعرفها الا أحزنتني ، لأني سمعت رسول الله ﷺ يقول : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس ومايعقلها الا العالمون ﴾ [2] الآية» [3] .

قال المحققان في الحاجة إلى علم التفسير:

«اعلم هداك الله تعالى لما يحب ويرضى أن علم تفسير القرآن من أهم العلوم التي يجب على الأمة الإسلامية تعلمها ، فلقد أوجب سبحانه وتعالى على أمته فهم القرآن ، وتدبر معانيه قال جلّ وعلا : ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ [4] .

---

١ . سورة البقرة : الآية ٢٦٩ .
٢ . سورة العنكبوت : الآية ٤٣ .
٣ . بيان المعاني ج ١ ص ٩ ـ ١٠ .
٤ . سورة النساء : آية ٨٢ .

وقال جلّ وعلا: ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ، وليتذكر أولو الألباب ﴾ [١].

وقال: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ [٢].

فقد دلت الآية الأولى على أنه أنزل للتدبر ، وحثت الآيتان الأخريان على تدبره ، وتدبر القرآن بدون فهم معانيه غير ممكن ، وفهم معانيه إنما يكون بمعرفة تفسيره ، فالتفسير هو مفتاح هذه الكنوز والذخائر التي احتواها الكتاب العزيز النازل لإصلاح البشر وإنقاذ الناس ، وإعزاز العالم . وبدون التفسير لايمكن الوصول إلى كنه هذه الكنوز والذخائر مهما بلغ الناس في ترديد ألفاظ القرآن .

قال السيوطي رحمه الله في بيان الحاجة إلى التفسير : « القرآن إنما نزل بلسان عربي في زمن أفصح العرب ، فكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه ، أما دقائق باطنه فلا تظهر لهم إلا بعد البحث والنظر وسؤالهم النبي ﷺ مثل قولهم: « وأينا لم يظلم نفسه » حينما نزل قوله تعالى :﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ [٣] ففسره النبي ﷺ بالشرك [٤]، واستدل بقوله سبحانه: ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [٥] وكذلك حين قال النبي ﷺ: « من نوقش الحساب عذب » سألته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن قوله تعالى : ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً ﴾ [٦] فقال ﷺ: « ذلك العرض » [٧]، وكقصة عدي بن حاتم في الخيط الأبيض والخيط الأسود [٨]. ونحن محتاجون الى ماكانوا يحتاجون إليه بل نحن أشد الناس احتياجاً إلى التفسير لقصورنا

---

١. سورة ص الآية ٢٩.
٢. سورة محمد: الآية ٢٤.
٣. سورة الأنعام: الآية ٨٢.
٤. أخرجه البخاري ج ١ ص ١٠٩ في كتاب الإيمان باب ظلم دون ظلم ٣٢ ، ٣٣٦٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٢٩ ، ٤٦٢٩، ٤٧٧٦، ٦٩١٨، ٦٩٣٧ ، وأخرجه مسلم ج ١ ص ١٤ في كتاب الإيمان باب صدق الإيمان وإخلاصه ١٩٧ ، ١٢٤ .
٥. سورة لقمان: الآية ١٣ .
٦. سورة الإنشقاق: الآية ٨ ، ٩.
٧. أخرجه البخاري ج ١ ص ١٩٦ ـ ١٩٧ في العلم باب من سمع شيئاً فراجع حتى يعرفه ١٠٣ ، وفي ج ١١ ص ٤٠٠١ في الرقائق باب من نوقش الحساب عذب ٦٥٣٦، ٦٩٣٧ ، و مسلم ج ٤ ص ٢٢٠ في الجنة باب إثبات الحساب ٧٩ ، ٢٨٧٦.
٨. أخرجه البخاري ج ٨ ص ٣١ في كتاب التفسير باب وكلوا واشربوا .. ٤٥١٠ ، وأخرجه مسلم ج ٢ ص ٧٦٦ في كتاب الصيام باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر ٣٣ ، ١٠٩٠.

عن مدارك اللغة وأسرارها بغير تعلم.[١].

قال احمد رضا في وجه الحاجة إليه :

«أنزل القرآن على النبي العربي بلسان عربي مبين فهو عربي الكلام عربي النظم والاسلوب ببلاغة عربية الا ان لغات العرب مختلفة، فلغة تميم تخالف لغة قريش ولغة عرب الحجاز تتميز عن لغة أهل اليمن، والقرآن الكريم وان نزل بلغة قريش قوم النبي وهم افصح العرب على الاطلاق الا انه تضمن بعض الالفاظ من غير اللغة القرشية، وعليه حمل كثير من المحققين منهم الإمام الطبري في مقدمة تفسيره الكبير معنى قوله عليه الصلاة والتسليم: «نزل القرآن على سبعة احرف كلها شاف كاف» وفي بعض الروايات: أن القرآن نزل على سبعة أحرف فلا تماروا في القرآن فإن المراء كفر. حملوه على أن المراد بالأحرف السبعة: لغات العرب التي نزل بها القرآن، وقال بعضهم: هم قريش والفافها، وقال آخر: المراد الحان العرب في اقوالهم واختلاف لهجاتهم فأذن لكل قوم ان يقرأوا بلهجاتهم والحانهم المعروفة عندهم، وقال آخرون: هي القراءات السبع وعليه الاكثر.

وكيفما كان تفسير هذا الحديث فإن القرآن الكريم عربي البيان: واعجازه وارد في النظم والاسلوب الذي يطلق عليه الشيخ عبد القاهر امام البيان اسم النظم والصور والخواص والمزايا والكيفيات ونحو ذلك، ويحكم قطعاً بان الفصاحة من الاوصاف الراجعة إليها، وان الفضيلة التي يستحق بها الكلام ان يوصف بالفصاحة والبلاغة والبراعة وما شاكل ذلك إنما هي فيها، لا في الالفاظ المنطوقة التي هي الاصوات والحروف، ولا في المعاني التي هي الأغراض التي يريد المتكلم اثباتها او نفيها وهي مطروحة في الطريق يعرفها كل احد.

والنظم والصور هي التي استحسن السعد التفتازاني ان يطلق عليها عند البحث في عبارات الشيخ عبد القاهر اسم الالفاظ والمعاني الاول.

ولكن مراتب الكلام تتفاوت في البلاغة بحسب تفاوتها في هذه الالفاظ والمعاني

---

١. مقدمة البحر المحيط ج ١ ص ١٣.

الاول، وان شئت قل في هذه التراكيب والصور المبنية في الأكثر على المدلولات الالتزامية التي منها البيّن وغير البيّن، ومع ذلك فانا نجد ان البليغ المتفنن في بيانه قد يسلك لاعتبارات بيانية مسالك الاختصار والايجاز، أو يرد موارد الأطناب والتطويل، أو يعتمد على الحذف في بعض الاحوال استناداً إلى قرائن ظاهرة أو خفية حالية أو مقالية، أو يهمل طريق استنتاج بعض المقدمات، أو يغفل بعض العلل اعتماداً على قرائن تتفاوت الافهام في ادراكها، ويكون في ذلك جارياً على سنة من الفصاحة ظاهرة فيغلق كلامه على من لايعرف الدقائق البيانية، وكم من اللوازم غير البينة بل ومن البينة أيضاً مالا يتنبه لها إلا من راضت البلاغة نفسه وكيفت ذهنه واسست ملكته، فالناس إذا في ادراك ذلك متفاوتو الافهام.

على ان هذه السنة كانت جارية بين فصحاء العرب وكانوا يأتون بالكلام على وجوه يحتملها ومغاز يشير إليها، قال ابن قتيبة في كتابه المعروف بـ«مشكلات القرآن» ما نصه: «والخطيب من العرب إذا ارتجل كلاماً في نكاح أو حمالة أو تحضيض أو صلح أو ما اشبه ذلك لم يأت به من واد واحد، بل يتفنن فيختصر تارة ارادة التخفيف ويطيل تارة ارادة الافهام، ويكرر ارادة التوكيد، ويخفي بعض معانيه حتى تغمض على اكثر السامعين ويكشف بعضها حتى يفهمه بعض الأعجمين، ويشير إلى الشيء ويكنّي عن الشيء، وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال وقدر الحفل وكثرة الحشد وجلالة المقام، ثم لا يأتي بالكلام كله مهذباً كل التهذيب ولا مصفى كل التصفية بل تجده يمزج ويشوب ليدل بالناقص على الوافر وبالغث على السمين، ولو جعله كله من بحر واحد لبخسه بهاه وسلبه ماءه، ومثل ذلك الشهاب من القبس يبرزه الشعاع والكوكبان يقترنان فينقص التوازن، والسخاب ينتظم بالياقوت والمرجان والعقيق والعقيان ولا يجعله كله جنساً واحداً من الرفيع ولا النفيس المصون».

وقد سرت هذه السنة إلى المؤلفين فترى بعضهم يتحرى البلاغة مع الاختصار في مؤلفه بحيث يطوي تحت الفاظٍ قليلة معاني كثيرة، وبعضهم يبسط ويطيل وهكذا حتى احتاج كثير من كتب العلم إلى شروح وهوامش تفتح ما استغلق وتفصل ما ابهم، بل تجد

الخلاف قائماً بين الشراح على تأويل عبارة أو في مؤدّاها ولذلك عني بعض المؤلفين بشرح كتبهم انفسهم ليدلوا على مقاصدهم، ومع ذلك من يعترض عليهم بان شرحهم بعض الجمل لا ينطبق على مؤداها، وماكان ذلك الا لاختلاف الافهام في ادراك ماهية النظم والاسلوب، وانا نجد عناية العلماء كانت مصروفة لعقد المجالس اللغوية لشرح المعاني البيانية في كلام الخطباء والشعراء شرحاً يفتح مغلقها ويبين مجملها.

وفي كل ذلك لم يتخذ أحد منه قدحاً في الكلام المشروح ولا طعنا فيه مادام جارياً على سنة التراكيب العربية وعلى مقتضى الاسلوب البياني، بل كان ذلك رافعاً من شأن الكلام مظهراً مزيته في عالم البلاغة وهذا مما امتازت به اللغة العربية وكان من أهم خاصياتها والقرآن الكريم و إن كان أنزل بألفاظ عربية يفهم معانيها المخاطبون في عصر صاحب الرسالة صلوات الله عليه وآله وكل من عرف أوضاع اللغة في غير ذلك العصر، ولكن نظمه المعجز وأسلوبه العالي لو كان مغسولا مبذولا لم يكن له قيمة عند العرب الذين كانت تقام اسواقهم وتعمر منتدياتهم بالتفاخر في افانين الفصاحة والبلاغة وتبريز الخطباء ونشر شعر الشعراء، فإذا كان القرآن مبذول الاسلوب بقصد افهام كل احد ممن سلف وخلف مايراد منه عارفاً بافانين الكلام أو غير عارف، كان غير جار على سننهم بل كان دون كلامهم، فتنصرف عنه القلوب ولا تذعن له تلك الطبائع الجافية ولا تطأطيء له هذه الرؤوس الشامخة التي اذعنت لبلاغته ووقفت حيرى دون اعجازه وخلبت البابها بفصاحته. وعند ذلك تفوت الفائدة المطلوبة ولا يؤثر الأثر المقصود.

والله سبحانه أنزله على نبيه الكريم وتحدىٰ البلغاء بمعجز بلاغته فعجزوا عن الاتيان بسورة من مثله، بل لو اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

وإنما كان معتزاً في نظمه وأسلوبه، وللنظم في اللغة العربية المنزلة الفريدة في إلباس الكلام حلة البهاء والنضرة والرواء والبهجة، وللتراكيب افانين ومناهج يستطرقها ارباب الفصاحة بما يختارون لها من متخير الالفاظ وبديع الكنايات ولطائف الاستعارات والمجازات ولطافة الاسلوب، كما تجذب اليهم القلوب والعقول متفاوتة فيما رزقته من

الادراك، فرب مستدل على معنى بجملة يستدل غيره بها على ضده، فلابد إذاً من الرجوع إلى الراسخين في العلم بعد انحطاط اللغة لتمحيص ذلك، وبمثل هذا احتاج الكتاب الكريم إلى التفسير والبيان؛ وتفسيره من قبيل بسط الالفاظ الوجيزة وكشف معانيها وترجيح بعض الاحتمالات على بعض.

وان في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب و أُخر متشابهات، وفيه ناسخ ومنسوخ، ومجمل ومبين، وعام وخاص، واحكام وفرائض، وسنن وقصص، ومواعظ وحكم وأمثال، وما اشبه ذلك، فماكان راجعاً إلى الاخبار والمواعظ فاللفظ دال بظاهره على معناه، وقدكان اصحاب النبي ﷺ في عصره يأخذون منه بما يفهمون يوم كانت ملكة اللسان عند العرب لا يرجع فيها إلى كتاب أو نقل بل كانت فطرية، حتى إذا فسدت اللغة بمخالطة الاعاجم وبعد زمن العرب عن أهل اللسان المخاطبين بالقرآن تنوسي ذلك واحتيج في مثله إلى علم التفسير.

وماكان راجعاً إلى الفرائض والسنن والناسخ والمنسوخ وأمثال ذلك فلابد فيه من الوقف حتى زمن نزوله، ليعلم النص من قبل من شرع الله هذا الدين على لسانه، وبذلك كانت السنة النبوية شارحة لمعاني الكتاب متممة لما فرضه الله أو ندب إليه، علم التفسير كافلاً بايضاح ذلك.

وقد تداوله الصحابة في عصره ﷺ حتى دونت العلم وبوبت ابوابها، وجعل كل علم اصلاً برأسه بعد زمن التابعين، وكان دخل في الاسلام جماعة من علماء أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وكعب الاحبار ووهب بن منبه وأمثالهم وكثير من مشركي العرب الذين لقنوا علومهم عن علماء اليهود، وهؤلاء لم تتغير معارفهم فيما يرجع إلى الاخبار والمواعظ التي لم يتوقف القول فيها على نص النبي ﷺ، فكانوا يفصلون مجمل القصص واخبار الملاحم وأمثال ذلك بعد عصر النبي على ماهو مغروس في اذهانهم من علومهم الاسرائيلية، وكانت العامة يومئذ تنعكف عليهم لاستماع اخبارهم ـ والنفس مولعة بتعلم ما تجهله ـ فكثرت المرويات الاسرائيلية في كتب التفاسير واختلط الغث بالسمين، ولم يمحصها العلماء بنقدهم لما هومعروف بينهم من التسامح

في ادلة السنن وماجرى مجراها، ولانصراف هممهم إلى نقد أدلة الاحكام التكليفية وتمحيصها، اللهم الا قليلاً من المحققين لم يغفلوا هذا الأمر، ولكنهم لم تكن قوتهم هذه لتصد تياره الجارف فلم يؤثروا الأثر المطلوب.

فاتسعت بذلك دائرة علم التفسير وازدادت في الناس الحاجة إلى الوقوف على المصفى المنقى من الأقوال فيه»[١].

١. مقدمة مجمع البيان ج ١ ص ٦٢ ـ ٦٥.

هل يجوز التفسير أم لا ؟

قال الطبري في ذكر الأخبار التي رويت في الحضّ على العلم بتفسير القرآن ، ومن كان يفسِّره من الصَّحابة :

«١ ـ حدثنا محمدبن علي بن الحسن بن شقيق المروزي ، قال: سمعت أبي يقول : حدثنا الحسين بن واقد ، قال : حدثنا الأعمش ، عن شقيق ، عن ابن مسعود ، قال : كان الرجل منّا إذا تعلم عشر آياتٍ لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن ، والعمل بهن .

٢ ـ حدثنا ابن حميد قال : حدثنا جرير ، عن عطاء ، عن أبي عبدالرحمن ، قال : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا : أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعلموا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً .

٣ ـ وحدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا جابربن نوح، قال : حدثنا الأعمش، عن مسلم ، عن مسروق ، قال : قال عبدالله : والذي لا إلّه غيره ، وما نزلت آية في كتاب الله إلاّ وأنا أعلم فيم نزلت ، وأينَ أنزلت ، ولو أعلم مكان أحدٍ أعلم بكتاب الله مني تنالُه المطايا لأتيته .

٤ ـ وحدثني يحيى بن إبراهيم المسعودي ، قال :حدثنا أبي ، عن أبيه ، عن جدّه عن الأعمش ، عن مسلم، عن مسروق ، قال : كان عبدالله يقرأ علينا السُّورة ،ثم يحدِّثنا فيها ويفسرها عامة النهار .

٥ ـ حدثني أبو السائب سلم بن جُنادة، قال: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن شقيق، قال: استعمل علي ابن عباسٍ على الحج، قال: فخطب الناس خطبة لو سمعها الترك والروم لأسلموا، ثم قرأ عليهم سُورة النور، فجعل يفسرها.

٦ ـ وحدثنا محمدبن بشار، قال: حدثنا عبدالرحمن بن مهدي، قال: حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن أبي وائل شقيق بن سلمة، قال: قرأ ابن عباسٍ سورة البقرة، فجعل يُفسرها، فقال رجل: لو سمعت هذا الديلم لأسلمت.

٧ ـ وحدثنا أبو كريب، قال: حدثنا أبو يمان، عن أشعث بن إسحق، عن جعفر، عن سعيد بن جبير، قال: من قرأ القرآنَ ثم لم يُفسِّره، كان كالأعمى أو كالأعرابي.

٨ ـ وحدثنا أبو كُريب، قال: ذكر أبوبكر بن عياش: الأعمش، قال: قال أبو وائل: ولي ابنُ عباس الموسم، فخطبهم، فقرأ على المنبر سُورة النور، والله لو سمعها الترك لأسلموا، فقيل له: حدِّثنا به عن عاصم؟ فسكت.

٩ ـ وحدثنا أبو كريب، قال: حدثنا ابن إدريس، قال: سمعتُ الأعمش، عن شقيق، قال: شهدت ابن عباس وولي الموسم، فقرأ سورة النور على المنبر، وفسرها، لوسمعت الروم لأسلمت!

قال أبو جعفر: وفي حَثُّ الله عزوجلّ عباده على الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبينات ـ بقوله جل ذكره لنبيه ﷺ: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [1]، ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [2] وما أشبه ذلك من آي القرآن، التي أمر الله عباده وحثهم فيها على الاعتبار بأمثال آي القرآن، والاتعاظ بمواعظه ـ مايدلّ على أن عليهم معرفةَ تأويل مالم يُحجب عنهم تأويله من آيه.

لأنه محالٌ أن يُقال لمن لايفهم مايُقال ولا يعقل تأويله: «اعتبر بما لافهم لك به ولامعرفة من القيل والبيان والكلام» ـ إلاّ على معنى الأمر بأن يفهمه ويفقهه، ثم يتدبره ويعتبر به. فأما قبلَ ذلك، فمستحيل أمرُه بتدبره وهو بمعناه جاهل. كما محال أن يقال

١. سورة ص: الآية ٢٩. ٢. سورة الزمر: الآية ٢٧ ـ ٢٨.

لبعض أصناف الأمم الذين لا يعقلون كلام العرب ولا يفهمونه، لو أنشد قصيدة شعرٍ من أشعار بعض العرب ذاتَ أمثالٍ ومواعظ وحكم: « اعتبر بما فيها من الأمثال، واذكر بما فيها من المواعظ » - إلاّ بمعنى الأمر لها بفهم كلامِ العرب ومعرفته، ثم الاعتبار بما نبهها عليه مافيها من الحكم. فأما وهي جاهلة بمعاني مافيها من الكلام والمنطق، فمحالٌ أمْرها بما دلّت عليه معاني ماحوته من الأمثال والعبر. بل سواء أمرُها بذلك وأمرُ بعض البهائم به، إلا بعد العلم بمعاني المنطق والبيان الذي فيها.

فكذلك ما في آي كتاب الله من العبر والحكم والأمثال والمواعظ، لايجوز أن يقال: «اعتبر بها» إلا لمن كان بمعاني بيانه عالماً، وبكلام العرب عارفاً، وإلا بمعنى الأمر - لمن كان بذلك منه جاهلاً - أنْ يعلم معاني كلام العرب، ثم يتدبره بعدُ، ويتعظ بحكمه وصنوف عِبَرِه.

فإذ كان ذلك كذلك - وكان الله جل ثناؤه قد أمر عباده بتدبره، وحثهم على الاعتبار بأمثاله - كان معلوماً أنه لم يأمر بذلك من كان بما يدل عليه آيه جاهلاً. وإذ لم يجز أن يأمرهم بذلك إلا وهم بما يدلهم عليه عالمون، صحّ أنهم - بتأويل ما لم يحجب عنهم علمه من آيه الذي استأثر الله بعلمه منه دون خلقه، الذي قد قدّمنا صفته آنفاً - عارفون. وإذْ صح ذلك فسد قول من أنكر تفسير المفسرين - من كتاب الله وتنزيله - مالم يحجب عن خلقه تأويله»[1].

قال الطبرى في ذكر الأخبار التي غلط في تأويلها منكرو القول في تأويل القرآن:

« فإن قال لنا قائل: فما أنت قائلٌ فيما:

١ - حدثكم به العباس بن عبدالعظيم، قال: حدثنا محمدبن خالد بن عثمة، قال: حدثني جعفربن محمد الزبيري، قال: حدثني هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: ماكان النبي ﷺ يُفسر شيئاً من القرآن إلا آياً بعددٍ، علّمهنّ إياه جبريل.

٢ - حدثنا أبوبكر محمدبن يزيد الطرسوسي، قال: أخبرنا معن، عن جعفربن خالد، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: لم يكن النبي ﷺ يفسر شيئاً من القرآن، إلا

١. جامع البيان ج ١ ص ٦٠ - ٦١.

آياً بعددٍ، علمهنّ إياه جبريل ﷺ .

٣ ـ وحدثنا أحمدبن عبدة الضبي ، قال :حدثنا حمادبن زيد ، قال : حدثنا عبيدالله بن عمر ، قال : لقد أدركت فقهاء المدينة ، وإنهم ليغلظون القول في التفسير ، منهم : سالم بن عبدالله ، والقاسم بن محمد، وسعيدبن المسيب ، ونافع .

٤ ـ وحدثنا محمدبن بشار ، قال : حدثنا بشربن عمر ، قال :حدثنا مالك بن أنس ، عن يحيى بن سعيد ، قال : سمعت رجلاً يسأل سعيدبن المسيب عن آيةٍ من القرآن ، فقال : لاأقول في القرآن شيئاً .

٥ ـ حدثنا يونس ، قال : حدثنا ابن وهب ، قال : أخبرني مالك ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيدبن المسيب : أنه كان إذا سُئل عن تفسير آية من القرآن ، قال : أنا لا أقول في القرآن شيئاً .

٦ ـ حدثنا يونس، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : سمعت الليث يحدث، عن يحيى بن سعيد ، عن ابن المسيَّب : أنه كان لايتكلم إلا في المعلوم من القرآن .

٧ ـ حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا حكام ، قال : حدثنا سفيان ، عن هشام ، عن ابن سيرين ، قال : سألت عبيدة السلماني عن آيةٍ ، قال : عليك بالسَّداد ، فقد ذهب الذين علمُوا فيم أنزل القرآن .

٨ ـ حدثني يعقوب ، قال : حدثنا ابن عُلية ، عن أيوب وابن عون ، عن محمد ، قال : سألت عبيدة عن آية من القرآن، فقال : ذهبَ الذين كانوا يعلمون فيم أنزل القرآن ، اتّق الله وعليك بالسَّداد .

٩ ـ حدثني يعقوب ، قال : حدثنا ابن علية ، عن أيوب ، عن ابن أبي مُليكة : أنّ ابن عباس سُئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها ، فأبى أن يقول فيها .

١٠ ـ حدثني يعقوب ، قال : حدثنا ابن علية ، عن مهدي بن ميمون ، عن الوليد بن مسلم ، قال : جاء طَلْق بن حبيب إلى جندب بن عبدالله ، فسأله عن آية من القرآن ، فقال له : أحرِّج عليك إن كنت مسلماً ، لما قمت عني ـ أو قال : أن تجالسني .

١١ ـ حدثني عباس بن الوليد ، قال : أخبرني أبي ، قال : حدثنا عبدالله بن شَوْذَب ،

قال : حدثني يزيد بن أبي يزيد ، قال : كنا نسأل سعيد بن المسيَّب عن الحلال والحرام ، وكان أعلم الناس ، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سَكَتَ كأن لم يسمع .

١٢ ـ وحدثنا محمدبن المثنى ، قال : حدثنا محمدبن جعفر ، قال : أخبرنا شعبة ، عن عمروبن مرة ، قال : سأل رجلٌ سعيدبن المسيب عن آية من القرآن ، فقال : لاتسألني عن القرآن ، وسَل من يزعم أنه لايخفى عليه شيء منه ـ يعني عكرمة .

١٣ ـ وحدثنا ابن المثنى ، قال : حدثنا سعيدبن عامر ، عن شعبة ، عن عبدالله بن أبي السَّفر ، قال : قال الشعبي : والله مامن آية إلا قد سألت عنها ، ولكنها الروايةُ عن الله .

١٤ ـ حدثني يعقوب بن إبراهيم ، قال :حدثنا ابن علية ، عن صالح ـ يعني ابن مسلم ـ قال : حدثني رجل ، عن الشعبي ، قال : ثلاثٌ لا أقول فيهن حتى أموت : القرآن ، والروح، والرأي .

وماأشبه ذلك من الأخبار (١) ؟.

قيل له : أما الخبر الذي روي عن رسول الله ﷺ أنه لم يكن يفسِّر من القرآن شيئاً إلا آياً بعددٍ ، فإن ذلك مصحح ما قلنا من القول في الباب الماضي قَبْل ، وهو : أنّ من تأويل القرآن ما لا يُدرك علمه إلا ببيان الرسول ﷺ . وذلك تفصيل مجمل مافي آية من أمر الله ونهيه ، وحلاله وحرامه ، وحدوده وفرائضه، وسائر معاني شرائع دينه ،الذي هو مجمَلٌ في ظاهر التنزيل ، وبالعباد إلى تفسيره الحاجة ـ لايدرك علمُ تأويله إلا ببيان من عندالله على لسان رسوله ﷺ، وما أشبه ذلك مما تحويه آي القرآن ، من سائر حُكْمه ـ الذي جعل الله بيانه لخلقه إلى رسول الله ﷺ . فلا يعلم أحدٌ من خلق الله تأويل ذلك إلا ببيان الرّسول ﷺ ، ولايعلمه رسول الله ﷺ إلا بتعليم الله إيّاه ذلك بوحيه إليه ، إما مع جبريل ، أو مع من شاء من رسله إليه . فذلك هو الآي التي كان رسول الله ﷺ يفسِّرها لأصحابه بتعليم جبريل إياه ، وهنَّ لاشك آيٌ ذوات عددٍ .

ومن آي القرآن ماقد ذكرنا: أن الله جل ثناؤه استأثر بعلم تأويله ، فلم يطلع على علمه ملكاً مقرّباً ولانبيّاً مرسلاً ، ولكنهم يؤمنون بأنه من عنده ، وأنه لايعلم تأويله إلا الله .

---

١. هذا آخر السؤال الذي بدأ منذ قبل صفحتين .

فأما ما لابد للعباد من علم تأويله، فقد بيّن لهم نبيهم ﷺ ببيان الله ذلك له بوحيه مع جبريل. وذلك هو المعنى الذي أمره الله ببيانه لهم فقال له جل ذكره: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.(١)

ولو كان تأويل الخبر عن رسول الله ﷺ ـ أنه كان لا يفسّر من القرآن شيئاً إلا آياً بعددٍ ـ هو ما تسبق إليه أوهام أهل الغباء، من أنه لم يكن يفسّر من القرآن إلا القليل من آيه واليسير من حروفه. كان إنما أنزلَ إليه ﷺ الذكر ليترك للناس بيان ما أنزل إليهم، لا ليبين لهم ما أنزل إليهم.

وفي أمر الله جلّ ثناؤه نبيّه ﷺ ببلاغ ما أنزل إليه، وإعلامه إياه أنه إنما نزّل إليه ما أنزل ليبين للناس ما نُزّل إليهم، وقيام الحجة على أنّ النبي ﷺ قد بلّغ وأدّى ما أمره الله ببلاغه وأدائه على ما أمره به، وصحة الخبر عن عبدالله بن مسعود بقيله: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعلم معانيهنّ والعمل بهنّ ـ ماينبىء عن جهل من ظن أو توهّم أنّ معنى الخبر الذي ذكرنا عن عائشة عن رسول الله ﷺ: أنه لم يكن يفسر من القرآن شيئاً إلا آياً بعددٍ، هو أنه لم يكن يبين لأمّته من تأويله إلا اليسير القليل منه.

هذا مع ما في الخبر الذي روي عن عائشة من العلّة التي في إسناده، التي لا يجوز معها الاحتجاج به لأحدٍ ممن علم صحيح سند الآثار وفاسدها في الدين. لأنّ راويه ممن لايعرف في أهل الآثار، وهو: جعفربن محمد الزبيري.

وأما الأخبار التي ذكرناها عمن ذكرناها عنه من التابعين، بإحجامه عن التأويل، فإنّ فعل من فعل ذلك منهم، كفعل من أحجم منهم عن الفتيا في النّوازل والحوادث، مع إقراره بأنّ الله جل ثناؤه لم يقبض نبيه إليه، إلا بعد إكمال الدين به لعباده، وعلمه بأن لله في كل نازلة وحادثة حكماً موجوداً بنصّ أو دلالة، فلم يكن إحجامُه عن القول في ذلك إحجام جاحدٍ أن يكون لله فيه حكم موجود بين أظهرِ عباده، ولكن إحجامَ خائفٍ أن لايبلغ في اجتهاده ماكلّف الله العلماء من عباده فيه.

فكذلك معنى إحجام من أحجم عن القيل في تأويل القرآن وتفسيره من العلماء

---

١. سورة النحل: الآية ٤٤.

السّلف، إنما كان إحجامه عنه حذاراً أن لا يبلغ أداء ما كلّف من إصابة صواب القول فيه، لا على أن تأويل ذلك محجوبٌ عن علماء الأمة، غير موجود بين أظهرهم»[١].

قال الماوردي:

«... وإذا كان القرآن بهذه المنزلة من الاعجاز في نظمه ومعانيه، احتاجت الفاظه في استخراج معانيها إلى زيادة التأمل لها وفضل الروية فيها، ولا يقتصر فيها على أوائل البديهة، ولا يقنع فيها بمبادىء الفكرة، ليصل بمبالغة الإجتهاد وإمعان النظر إلى جميع ما تضمنته ألفاظه من المعاني واحتملته من التأويل، لأن للكلام الجامع وجوهاً، قد تظهر تارة، وتغمض أخرى، وإن كان كلام الله منزهاً من الآفتين: الفكر والروية، ليعمل فيما احتملته ألفاظه من المعاني المختلفة، غير ما سنصفه من الأصل المعتبر في اختلاف التأويل عند احتمال وجوده.

وقد روى سهل بن مهران الضبعي، عن أبي عمران الجوني[٢]، عن جندب بن عبدالله[٣] قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ برأيه فأصاب فقد أخطأ»[٤]، فتمسك

---

١. جامع البيان ج ١ ص ٦٢ ـ ٦٤.

٢. هو عبدالملك بن حبيب الأزدي البصري، أحد التابعين، كان الغالب عليه الكلام في الحكم، وثقه يحيى بن معين وغيره. روى عن جندب البجلي، أنس بن مالك وعبدالله بن الصامت وغيرهم. توفي رحمه الله سنة ثلاث وعشرين ومئة وقيل سنة ثمان وعشرين ومئة عن سن عالية. أنظر: ـ
الجرح والتعديل ج ٥ ص ٣٤٦، التاريخ الكبير ج ٥ ص ٤٥٠، حلية الأولياء ج ٢ ص ٣٠٩ تهذيب الكمال ص ٨٥٣، سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ٢٥٥.

٣. هو جندب بن عبدالله بن سفيان، أبو عبدالله صاحب النبي ﷺ نزل الكوفة والبصرة وله عدة أحاديث وبقي إلى سنة سبعين قاله الذهبي ـ أنظر: ـ
طبقات ابن سعد ج ٦ ص ٣٥، التاريخ الكبير ج ٢ ص ٢٢١، والإستيعاب ص ٢٥٦ أسد الغابة ج ١ ص ٣٠٤ وغيرها.

٤. رواه أبو داود ح ٣٦٥٢ والترمذي ج ٤ ص ٦٥ والنسائي في فضائل القرآن ص ١١٤ والطبري ج ١ ص ٣٥ والبغوي في شرح السنة ج ١ ص ٢٥٩ وضعفه الترمذي بقوله حديث غريب وقدتكلم بعض أهل العلم في سهيل بن أبي حزم اهـ.
قال الحافظ في التقريب ج ١ ص ٣٣٨ ضعيف، والحديث ضعفه الألباني في المشكاة ج ١ ص ٧٩ وضعيف الجامع ج ٥ ص ٢٨ والأرناؤوط في تخرج شرح السنة ج ١ ص ٢٥٩ ومن هذا تعلم أن رمز صاحب الجامع للحديث بعلامة الحسن ج ٦ ص ١٩٠ غير حسن لما عرفت من أن مدار الحديث على سهيل وهو ضعيف عندهم.
وقد أحسن المؤلف صنعاً بقوله: «ولهذا الحديث ـ إن صح ـ تأويل» فهذا يدل على أنه لم يثبت عنده.

فيه بعض المتورعة ممن قلّت في العلم طبقته، وضعفت فيه خبرته، واستعمل هذا الحديث على ظاهره، وامتنع أن يستنبط معاني القرآن باجتهاده، عند وضوح شواهده، إلا أن يرد بها نقل صحيح، ويدلّ عليها نص صريح، وهذا عدول عما تعبد الله تعالى به خلقه في خطابهم بلسان عربي مبين، قد نبه على معانيه ما صرح من اللغز والتعمية، التي لايوقف عليها إلا بالمواضعة إلى كلام حكيم، أبان عن مراده، وقطع أعذار عباده، وجعل لهم سبلاً إلى استنباط أحكامه، كما قال تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [1] ولو كان ماقالوه صحيحاً، لكان كلام الله غير مفهوم، ومراده بخطابه غير معلوم، ولصار كاللغز المعمى، فبطل الاحتجاج به، وكان ورود النص على تأويله، مغنياً عن الاحتجاج بتنزيله، وأعوذ بالله من قول في القرآن يؤدي إلى التوقف عنه، ويؤول إلى ترك الاحتجاج به.

ولهذا الحديث ـ إن صح ـ تأويله، معناه: أنّ من حمل القرآن على رأيه، ولم يعمل على شواهد ألفاظه، فأصاب الحق، فقد أخطأ الدليل.

وقد روى محمدبن عثمان، عن عمروبن دينار [2]، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «القُرآنُ ذَلُولٌ ذُو وُجُوهٍ فاحْمِلُوهُ عَلَى أحْسَنِ وُجُوهِهِ»[3] وفي قوله: «ذَلُولٌ» تأويلان:

أحدهما: أنه مُطيع لحامليه، حتى تنطلق فيه جميع الألسنة.

والثاني: أنه موضح لمعانيه، حتى لاتقصر [عنه] أفهام المجتهدين فيه.

وفي قوله: «ذو وجوهٍ» تأويلان:

أحدهما: أن ألفاظه تحمل من التأويل وجوهاً لإعجازه.

الثاني: أنه قد جمع من الأوامر، والنواهي، والترغيب، والتحليل، والتحريم.

---

١. سورة النّساء: الآية ٨٣.

٢. هو عمروبن دينار أبو محمد الجمحي، قال الذهبي: مات في حدود الثلاثين ومائة له ترجمة في: التاريخ الكبير ج ٤ ص ١٢٢، التاريخ الصغير ص ١٦٩، طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٤٧٩، تاريخ الإسلام ج ٥ ص ١١٤، العقد الثمين ج ٦ ص ٣٧٤.

٣. رواه الدار قطني في السنن ج ٤ ص ١٤٥ وفي إسناده زكريا بن عطية قال أبو حاتم منكر الحديث كذا في الميزان. أنظر: التعليق المغني على الدار قطني ج ٤ ص ١٤٥.

وفي قوله: « فَاحْمِلُوهُ عَلَىٰ أَحْسَنِ وُجُوهِهِ » تأويلان:

أحدهما: أن تحمل تأويله على أحسن معانيه.

والثاني: أن يعمل بأحسن مافيه، من العزائم دون الرخص، والعفو دون الانتقام، وهذا دليل على أن تأويل القرآن مستنبط منه.[١]

قال الطوسي (ره):

«وروي عن ابن مسعود، انه قال: «كان الرجل منا اذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن.»

وروي: انه استعمل عليٌ ﷺ عبدالله بن العباس على الحج، فخطب خطبة لو سمعها الترك والروم لأسلموا، ثم قرأ عليهم سورة النور ـ وروى سورة البقرة ـ ففسرها، فقال رجل: «لو سمعت هذا الديلم لأسلمت».

ويروى عن سعيد بن الجبير: انه من قرأ القرآن ثم لم يفسره كان كالاعجمي أو الاعرابي»[٢].

قال ابن جزي:

«اعلم ان السلف الصالح انقسموا إلى فرقتين: فمنهم من فسر القرآن وتكلم في معانيه وهم الاكثرون. ومنهم من توقف عن الكلام فيه احتياطا لما ورد من التشديد في ذلك. فقد قالت عائشة رضي الله عنها :ماكان رسول الله ﷺ يفسر من القرآن الآيات إلا بعد علمه إياهن من جبريل.

وقال ﷺ: «من قال في القرآن برأيه وأصاب فقد أخطأ» وتأول المفسرون حديث عائشة بأنه في مغيبات القرآن التي لاتعلم إلا بتوقيف من الله تعالى. وتأول الحديث الآخر بأنه فيمن تكلم في القرآن بغير علم ولا أدوات، لا فيمن تكلم فيما تقتضيه أدوات العلوم ونظر في أقوال العلماء المتقدمين. فإن هذا لم يقلْ في القرآن برأيه»[٣].

---

١. النكت والعيون ج ١ ص ٣٣ ـ ٣٦.
٢. التبيان ج ١ ص ١٧.
٣. التسهيل ج ٢ ص ٩.

قال ابن كثير:

«فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله وتفسير ذلك وطلبه من مظانه، وتعلم ذلك وتعليمه كما قال تعالى: ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولاتكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلاً فبئس مايشترون ﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لاخلاق لهم في الآخرة ولايكلمهم الله ولاينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾ (٢)، فذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله المنزل عليهم وإقبالهم على الدنيا وجمعها واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله.

فعلينا أيها المسلمون أن ننتهي عما ذمهم الله تعالى به، وأن نأتمر بما أمرنا به من تعلم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه، وتفهمه وتفهيمه، قال الله تعالى: ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ومانزل من الحق ولايكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وكثير منهم فاسقون اعلموا ان الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ (٣)، ففي ذكره تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها كذلك يلين القلوب بالايمان والهدى بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي، والله المؤمل المسؤول أن يفعل بنا هذا إنه جواد كريم» (٤).

قال الجنابذي في جواز تفسير آيات القرآن وأخبار المعصومين عليهم السلام، والنّظر فيها والتأمل في مفاهيمها والتّفكّر في معانيها والمراد بها، والتّدبّر في مقاصدها والغايات المؤوّل اليها، واستعلام تنزيلها واستنباط تأويلها بقدر استعداد المفسّر النّاظر:

«اعلم انّ الايات والاخبار الدالّة على مدح التّدبّر في القرآن وذمّ ترك التدبّر، ولزوم التوسل به ولزوم جعله اماماً واتّباع أحكامه، والاستنارة بنوره والاستضاءة بضيائه، وانّه المنجى حين التباس الفتن، وانّه شفاء عن داء الجهل، وانّ فيه دليل الامامة وحجّة

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٨٧.
٢. سورة آل عمران: الآية ٧٧.
٣. سورة الحديد: الآية ١٦ ـ ١٧.
٤. تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٦.

الائمّة ، وانّه لاتنقضي عجائبه ولا تبلى غرائبه ، وانّه دليل على المعرفة لمن عرف الصّفة، وانّه الدّليل على خير سبيل ، وانّ فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة ، وانّه ينبغي ان يجلو جال بصره ويبلغ الصّفة نظره ، وانّ من التمس الهدى في غيره اضلّه الله ولايشبع عنه العلماء ، وانّ من قال به صدق ، ومن عمل به اجر ، ومن اعتصم به فقد هدى الى صراط مستقيم ، وانّه هدىً من الضّلالة وتبيان من العمى واستقالة من العثرة ونور من الظلّمة ورشد من الغواية وبيان من الفتن ، وانّ من جعله امامه الّذي يقتدي به ومعوّله الّذي ينتهي اليه ادّاه الله الى جنّات النّعيم ، كثيرة ، وكلّها دالأت على جواز النّظر في آيات القرآن والتأمّل في معانيها وتفسيرها، وامتثال أوامرها ونواهيها، والاعتبار بقصصها وامثالها، واستنباط اشاراتها واستبطان بطونها ولطائفها لمن كان اهلاً لها . وخطابات الله للنّاس عامّة او خاصّة تدلّ على جواز النّظر والتأمّل لمن يخاطب بتلك الخطابات ، فمنع بعض من النّظر في الآيات وبيان معانيها وتفسيرها ، لا يصغى اليه بعد ما ذكره »[1].

قال عبدالسلام ...هل يجوز التفسير أم لا؟.

«قال بعض العلماء : اختلف الناس في تفسير القرآن هل يجوز لكل أحد الخوض فيه؟. فقال قوم : لايجوز لأحد أن يتعاطى تفسير شيء من القرآن ، وإن كان عالماً أديباً متسعاً في معرفة الأدلة والفقه والنحو ، والأخبار والآثار ، وليس له إلا أن ينتهي إلى ماروي عن النبي ﷺ في ذلك .

ومنهم من قال : يجوز تفسيره لمن كان جامعاً للعلوم التي يحتاج إليها المفسر ، ولاطائل لهذا الخلاف ، فأنت ترى أن أصحاب القول الأول جامدون فلا يعبأ بقولهم ولايلتفت إليه لمخالفته اتفاق أهل العلم»[2].

قال المدرسي في ضرورة التدبُر في القرآن :

«هذه هي فوائد القرآن . وهي بالذات الأسباب التي تدعونا إلى التدبر فيه . لأن القرآن لايفيد إلا من عمل به ... ولايعمل به سوى الذي يتدبر فيه فيفهم .

بل ان التدبر في القرآن هو الوسيلة الوحيدة للعمل به . إذ أن الله تعالى اودع كتابه

١. بيان السعادة ج ١ ص ١٢.

٢. مقدمة المحرر الوجيز ج ١ ص ١٣ ـ ١٤.

الكريم ـ نوراً يهدي البشر إلى ربه العظيم . فيؤمن به ـ وبعد الايمان يطبق شرائعه ، من هنا ليس على الانسان سوى أمر واحد هو الانفتاح على القرآن . واستعداد التفهم له . وهذا يكون بالتدبر فيه .

يقول الله سبحانه :

﴿ ... قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سُبُلَ السلام ويخرجهم من الظُلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾[1] .

إن القرآن ذاته نور ، وليس علينا أمام النور إلا أن نفتح أبصارنا لنراه ، ونرى به الأشياء جميعاً .

والتدبر في القرآن . لايعني تحميل آياته الكريمة آراءً وأفكاراً اضافية كلا بل التسليم لعلوم القرآن ، والتأمل في معاني آياته وتبصر الحياة عبرها ، والسعي نحو فهم حقائق الطبيعة ، وآفاق النفس بها .

وهنا يكمن الفرق بين تفسيرالقرآن بالرأي الذي نهى عنه الدين أشد النهي ، وبين التدبر في القرآن الذي أكد عليه الدين أشد تأكيد .

وقد اختلط على البعض هذان الأمران ، فحجب عن نفسه نور الفرقان زاعماً أنه فوق مستواه .

بلى إن البشر لايرقى الى مستوى القرآن ، ولكن شعاعه كما الشمس لا تزال تشرق على العيون البصيرة ، فمن احتجب عنه باتباع هوى أو تفسير برأي ، فقد ضلّ عنه ، ومن سلم له وفرّغ قلبه من كل فكرة سابقة حين يقرأه ، فان الله يهديه سواء السبيل .

يقول العلامة الطبرسي وهو يشرح الفرق بين التفسير بالرأي والتدبر في الذكر :

واعلم أن الخبر قد صح عن النبي ﷺ .....»[2]»[3] .

---

١. سورة المائدة : ١٥ ـ ١٦ .

٢. انظر ص ٢٥٢ من الكتاب الحاضر في كلام الطوسي (ره) .

٣. من هدى القرآن ج ١ ص ٣١ ـ ٣٢ .

معنى التفسير بالرأى

قال هود بن محكم : «ذكروا عن ابن عباس أنه قال : قال رسول الله ﷺ: « من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار »[1].

وذكروا عن ابن عباس أنه قال: الجريء من قال في الكتاب برأيه.

ذكروا عن أبي بكر الصديق أنه قال: أيُّ أرض تُقِلُّني وأيُّ سماء تظلّني إن فسّرت القرآن برأيي [2]. وقال بعض أهل العلم: بلغني أنه من فسّر القرآن برأيه فإن أصاب لم يؤجر وإن أخطأ أثِم»[3].

قال الطبرى في ذكر بعض الأخبار التي رُويت بالنهي عن القولِ في تأويل القرآن بالرّأي

«١ . حدثنا يحيى بن طلحة اليربوعي، قال: حدثنا شَريك، عن عبدالأعلى، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال: «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار».

٢ . حدثنا محمد بن بشار، قال: حدثنا يحيى بن سعيد، قال: حدثنا سفيان، قال: حدثنا عبدالأعلى ـ هو ابن عامر الثعلبي ـ عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن

---

١ . أخرجه أحمد في المسند، وأخرجه الترمذي في أول أبواب تفسير القرآن وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه البغوي في شرح السنة ج ١ ص ٢٥٨، وأخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره ج ١ ص ٧٧ ـ ٧٨ من عدة طرق. وكلهم يرويه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ.

٢ . روى هذا الخبر ابنُ جرير الطبري في تفسيره ج ١ ص ٧٨، من طريقين عن أبي معمر. وانظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ١١.

٣ . تفسير كتاب الله العزيز ج ١ ص ٧٠.

النبي ﷺ، قال: «من قال في القرآن برأيه ـ أو بما لا يعلم ـ فليتبوأ مقعده من النار».

٣. وحدثنا أبو كريب، قال: حدثنا محمد بن بشر، وقَبيصة، عن سفيان، عن عبدالأعلى، قال: حدثنا سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار».

٤. حدثنا محمد بن حميد، قال: حدثنا الحكم بن بَشير، قال: حدثنا عمرو بن قيس المُلائي، عن عبدالأعلى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار.

٥. حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا جرير، عن ليث، عن بكر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: من تكلّم في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار.

٦. وحدثني أبو السائب سَلْم بن جُنادة السُّوَائي، قال: حدثنا حفص بن غياث، عن الحسن بن عبيدالله، عن إبراهيم، عن أبي معمر، قال: قال أبوبكر الصديق رضي الله عنه: أيُّ أرضٍ تُقِلُّني، وأيُّ سماءٍ تُظِلُّني، إذا قلتُ في القرآن ما لا أعلم!.

٧. حدثنا محمد بن المثنى، قال: حدثنا ابن أبي عدي، عن شعبه، عن سليمان، عن عبدالله بن مرة، عن أبي معمر، قال: قال أبوبكر الصديق: أيُّ أرضٍ تُقِلُّني، وأيُّ سماءٍ تظلني، إذا قلتُ في القرآن برأيي ـ أو: بما لا اعلم.

قال أبو جعفر: وهذه الأخبار شاهدةٌ لنا على صحة ما قُلنا: من أنّ ما كان من تأويل آي القرآن الذي لا يدرك علمه إلا بنصِّ بيان رسول الله ﷺ، أو بنصبه الدلالة عليه، فغير جائز لأحد القيل فيه برأيه، بل القائل في ذلك برأيه وإن أصاب الحق فيه فمخطىء فيما كان من فعله، بقيله فيه برأيه، لأن إصابته ليست إصابة موقن أنه محقٌّ وإنما هو إصابة خارصٍ وظانٍّ. والقائل في دين الله بالظنّ، قائلٌ على الله ما لم يعلم. وقد حرّم الله جلّ ثناؤه ذلك في كتابه على عباده، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [1]. فالقائل في تأويل كتاب الله، الذي لا يدرك علمه إلا ببيان رسول الله ﷺ، الذي جعل الله إليه بيانه ـ قائلٌ

١. سورة الاعراف: الآية ٣٣.

بما لا يعلم وإن وافق قيله ذلك في تأويله، ما أراد الله به من معناه. لأن القائل فيه بغير علم، قائلٌ على الله ما لا علم له به. وهذا هو معنى الخبر الذي:

٨. حدثنا به العباس بن عبدالعظيم العنبري، قال: حدثنا حبّان بن هلال، قال: حدثنا سهيل أخو حزم، قال: حدثنا أبو عمران الجوني، عن جندب: أن رسول الله ﷺ قال: «من قال في القرآن برأيه فأصاب، فقد أخطأ».

يعني ﷺ أنه أخطأ في فعله، بقيله فيه برأيه، وإن وافق قيلُه ذلك عين الصَّواب عندالله. لأن قيله فيه برأيه، ليس بقيل عالم أنَّ الذي قال فيه من قول حقٌّ وصوابٌ. فهو قائل على الله ما لا يعلم، آثم بفعله ما قد نهي عنه وحُظِر عليه»[1].

قال العياشي (ره) في من فسّر القرآن برأيه :

«١ ـ عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن، إن الآية ينزل أوّلها في شيء وأوسطها في شيء وآخرها في شيء، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[2] من ميلاد الجاهلية »[3].

٢ ـ عن هشام بن سالم عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «من فسّر القرآن برأيه فأصاب لم يؤجر، وإن أخطأ كان إثمه عليه »[4].

٣ ـ عن أبي الجارود قال: قال أبو جعفر عليه السلام: «ما علمتم فقولوا وما لم تعلموا فقولوا الله أعلم، فإن الرجل ينزع بالآية فيخرُّ بها أبعد ما بين السماء والأرض »[5].

٤ ـ عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «من فسّر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر وإن أخطأ فهو أبعد من السماء »[6].

٥ ـ عن عبدالرحمن بن الحجاج، قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «ليس أبعد من

---

١. جامع البيان ج ١ ص ٥٨ ـ ٥٩.
٢. سورة الاحزاب: الآية ٣٣.
٣. الوسائل ج ٣ كتاب القضاء باب ١٣. البحار ج ١٩ ص ٢٦ ـ ٢٩. البرهان ج ١ ص ١٧.
٤. البحار ج ١٩ ص ٢٩. البرهان ج ١ ص ١٩. وفي نسخة البرهان «هشام بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام» ولكن الظاهر هو المختار فإنه لا يروي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام.
٥. البحار ج ١٩ ص ٢٩. الوسائل ج ٣ كتاب القضاء باب ١٣. البرهان ج ١ ص ١٩.
٦. الصافي ج ١ ص ١٧. البحار ج ١٩ ص ٢٩. الوسائل ج ٣ كتاب القضاء باب ١٣. البرهان ج ١ ص ١٩.

عقول الرجال من القرآن »[١].

٦ـ عن عمار بن موسى عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سئل عن الحكومة، قال: « من حكم برأيه بين اثنين فقد كفر، ومن فسّر [برأيه] آية من كتاب الله فقد كفر[٢] »[٣].

قال الطوسي (ره) : «واعلم ان الرواية ظاهرة في اخبار اصحابنا بأن تفسير القرآن لايجوز إلا بالأثر الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله، وعن الائمة عليهم السلام، الذين قولهم حجة كقول النبي صلى الله عليه وآله، وان القول فيه بالرأي لا يجوز. وروى العامة ذلك عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال: «من فسر القرآن برأيه وأصاب الحق، فقد اخطأ» وكره جماعة من التابعين وفقهاء المدينة القول في القرآن بالرأي: كسعيد بن المسيب وعبيدة السلماني، ونافع، ومحمد بن القاسم، وسالم بن عبدالله، وغيرهم. وروي عن عائشة أنها قالت: لم يكن النبي صلى الله عليه وآله يفسر القرآن إلا بعد أن يأتي به جبرائيل عليه السلام.

والذي نقول في ذلك: إنه لا يجوز ان يكون في كلام الله تعالى وكلام نبيه تناقض وتضاد. وقد قال الله تعالى: ﴿انا جعلناه قرآنا عربيا﴾[٤]، وقال: ﴿بلسان عربي مبين﴾[٥]، وقال: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾[٦]، وقال: (فيه تبيان كل شيء)، وقال: ﴿ما فرّطنا في الكتاب من شيء﴾ [٧] فكيف يجوز ان يصفه بانه عربي مبين، وانه بلسان قومه، وانه بيان للناس ولا يفهم بظاهره شيء؟ وهل ذلك إلا وصف له باللغز والمعمى الذي لا يفهم المراد به إلا بعد تفسيره وبيانه؟ وذلك منزه عن القرآن. وقد مدح الله أقوامًا على استخراج معاني القرآن فقال: ﴿لعلِمَهُ الذين يستنبطونه منهم﴾ [٨]، وقال في قوم يذمهم حيث لم يتدبروا القرآن، ولم يتفكروا في معانيه: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ [٩]، وقال النبي صلى الله عليه وآله: «اني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي أهل

١. البحار ج ١٩ ص ٢٩. الوسائل ج ٣ كتاب القضاء باب ١٣. البرهان ج ١ ص ١٩.
٢. البحار ج ١٩ ص ٢٩. الوسائل ج ٣ كتاب القضاء باب ١٣. البرهان ج ١ ص ١٩.
٣. العياشي ج ١ ص ٢٩ ـ ٣٠.
٤. سورة الزخرف: الآية ٣.
٥. سورة الشعراء: الآية ١٩٥.
٦. سورة إبراهيم: الآية ٤.
٧. سورة الانعام: الآية ٣٨.
٨. سورة النساء: الآية ٨٣.
٩. سورة محمد: الآية ٢٤.

بيتي» فبين ان الكتاب حجة، كما أن العترة حجة. وكيف يكون حجة ما لا يفهم به شيء؟. وروى عنه ﷺ انه قال: «اذا جاءكم عني حديث، فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فاقبلوه، وما خالفه فاضربوا به عرض الحائط». وروي مثل ذلك عن أئمتنا عليهم السلام، وكيف يمكن العرض على كتاب الله، وهو لا يفهم به شيء؟ وكل ذلك يدل على ان ظاهر هذه الاخبار متروك والذي نقول به: إن معاني القرآن على أربعة أقسام:

احدها ـ ما اختص الله تعالى بالعلم به، فلا يجوز لأحد تكلف القول فيه، ولا تعاطي معرفته، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل: إنما علمها عند ربي لا يجلّيها لوقتها إلاّ هو﴾ [1]، ومثل قوله تعالى: ﴿ان الله عنده علم الساعة ..﴾ [2] الى آخرها. فتعاطي معرفة ما اختص الله تعالى به خطأ.

وثانيها ـ ما كان ظاهره مطابقاً لمعناه، فكل من عرف اللغة التي خوطب بها، عرف معناها، مثل قوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾ [3]، ومثل قوله تعالى: ﴿قل هو الله أحد﴾ [4] وغير ذلك.

وثالثها ـ ما هو مجمل لا ينبيء ظاهره عن المراد به مفصلا. مثل قوله تعالى: ﴿أقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة﴾ [5]، ومثله قوله: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا﴾ [6]، وقوله: ﴿وآتوا حقه يوم حَصاده﴾ [7]، وقوله: ﴿وفي أموالهم حق معلوم﴾ [8] وما اشبه ذلك. فان تفصيل اعداد الصلاة وعدد ركعاتها، وتفصيل مناسك الحج وشروطه، ومقادير النصاب في الزكاة، لا يمكن استخراجه إلا ببيان النبي ﷺ ووحي من جهة الله تعالى. فتكلف القول في ذلك خطأ ممنوع منه، يمكن ان تكون الاخبار متناولة له.

ورابعها ـ ما كان اللفظ مشتركا بين معنيين فما زاد عنهما، ويمكن ان يكون كل واحد منهما مراداً. فانه لا ينبغي أن يقدم احد به فيقول: ان مراد الله فيه بعض ما يحتمل ـ إلا

---

١. سورة الاعراف: الآية ١٨٧.
٢. سورة لقمان: الآية ٣٤.
٣. سورة الانعام: الآية ١٥١.
٤. سورة التوحيد: الآية ١.
٥. سورة البقرة: الآية ٤٣ و ٨٣ و ١١٠.
٦. سورة آل عمران: الآية ٩٧.
٧. سورة الانعام: الآية ١٤١.
٨. سورة المعارج: الآية ٢٤.

بقول نبي او امام معصوم - بل ينبغي ان يقول: ان الظاهر يحتمل لأمور، وكل واحد يجوز أن يكون مراداً على التفصيل. والله أعلم بما أراد.

ومتى كان اللفظ مشتركا بين شيئين، أو ما زاد عليهما، ودل الدليل على انه لا يجوز أن يريد إلا وجهاً واحداً، جاز ان يقال: إنه هو المراد.

ومتى قسمنا هذه الاقسام، نكون قد قبلنا هذه الاخبار ولم نردها على وجه يوحش نقلتها والمتمسكين بها، ولا منعنا بذلك من الكلام في تأويل الآي جملة.

ولا ينبغي لأحد ان ينظر في تفسير آية لا ينبىء ظاهرها عن المراد تفصيلا، أو يقلد أحداً من المفسرين، إلا ان يكون التأويل مجمعاً عليه، فيجب اتباعه لمكان الاجماع؛ لأن من المفسرين من حمدت طرائقه، ومدحت مذاهبه، كابن عباس، والحسن، وقتادة، ومجاهد وغيرهم. ومنهم من ذمت مذاهبه، كأبي صالح، والسدي، والكلبي وغيرهم. هذا في الطبقة الاولى. وأما المتأخرون فكل واحد منهم نصر مذهبه، وتأول على ما يطابق اصله، ولا يجوز لأحد أن يقلد أحداً منهم بل ينبغي ان يرجع الى الادلة الصحيحة: إما العقلية، أو الشرعية، من اجماع عليه، أو نقل متواتر به، عمن يجب اتباع قوله، ولا يقبل في ذلك خبر واحد، خاصة اذا كان مما طريقه العلم، ومتى كان التأويل يحتاج الى شاهد من اللغة، فلا يقبل من الشاهد إلا ما كان معلوماً بين اهل اللغة، شائعًا بينهم. وأما طريقة الآحاد من الروايات الشاردة، والالفاظ النادرة، فانه لا يقطع بذلك، ولا يجعل شاهداً على كتاب الله، وينبغي أن يتوقف فيه ويذكر ما يحتمله ولا يقطع على المراد منه بعينه، فانه متى قطع بالمراد كان مخطئاً، وان أصاب الحق، كما روي عن النبي ﷺ؛ لأنه قال تخميناً وحدساً ولم يصدر ذلك عن حجة قاطعة. وذلك باطل بالاتفاق»[1].

قال البغوي في وعيد من قال في القرآن برأيه من غير علم:

أنا أبوبكر محمد بن عبدالصمد الترابي، أنا أبو محمد عبدالله بن أحمد بن حموية السرخسي، أنا أبو اسحاق إبراهيم بن حزيم الشاشي، ثنا أبو محمد عبيد بن حميد، ثنا عبدالرزاق، أنا الثوري عن عبدالأعلى عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس رضي الله

---

١. التبيان ج ١ ص ٤ - ٧.

عنهم، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار».

أنا أبو منصور محمد بن عبدالملك المظفري، أنا أبو سعيد أحمد بن الفضل الفقيه، أنا أبو عبدالله الحسين بن البصري، ثنا أبو الفضل العباس بن محمد الدوري، أخبرنا يحيى بن حماد، ثنا أبو عوانة عن عبدالأعلى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، عن النبي ﷺ قال: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار».

أنا أبوبكر محمد بن عبدالصمد الترابي، حدثنا عبدالله بن أحمد بن حموية، أنا إبراهيم بن خزيم، أنا عبد بن حميد، ثنا حبان بن هلال، ثنا سهيل أخو حزم القطعي، ثنا أبو عمران الحوفي، عن جند بن عبدالله البجلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»، غريب، وسئل أبوبكر الصديق رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿وفاكهة وأبّا﴾ (١) فقال: وأيّ سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم؟!

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهًا كثيرة، قال حماد: قلت لأبي أيوب: ما معنى قول أبي الدرداء رضي الله عنه، فجعل يتفكر، فقلت: هو أن ترى له وجوهاً فتهاب الإقدام عليه، فقال: هو ذاك.

قال شيخنا الإمام رحمه الله: قد جاء الوعيد في حق من قال في القرآن برأيه وذلك فيمن قال من قبل نفسه شيئاً من غير علم، فأما التأويل وهو صرف الآية إلى معنى محتمل يوافق ما قبلها وما بعدها غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط فقد رخص فيه لأهل العلم، أما التفسير وهو الكلام في أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها، فلا يجوز إلا بالسماع بعد ثبوته من طريق النقل، وأصل التفسير من التفسرة، وهي الدليل، من الماء الذي ينظر فيه الطبيب فيكشف عن علة المريض، كذلك المفسّر يكشف عن شأن الآية وقصتها، واشتقاق التأويل: من الأوْل، وهو الرجوع، يُقال: أوّلته فأوّل، أي: صرفته فانصرف.

أخبرنا أبوبكر بن أبي الهيثم البراني، أنا الحاكم أبوالفضل الحدادي، أنا أبو يزيد

---

١. سورة عبس: الآية ٣١.

محمد بن يحيى أنا إسحق بن إبراهيم الحنظلي، ثنا جرير بن عبدالحميد عن المغيرة عن واصل بن حيان، عن ابن هذيل عن أبي الأحوص، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن القرآن أُنزل على سبعة أحرف، لكل آية منها ظهر وبطن ولكل حد مطلع» ويُروى: «لكل حرف حد ولكل حد مطلع»[١]. واختلفوا في تأويله، قيل: الظهر لفظ القرآن، والبطن تأويله، وقيل: الظهر ما حدث عن أقوام أنهم عصوا فعُرقبوا، فهو في الظاهر خبر وباطنه عظة وتحذير أن يفعل أحد مثل ما فعلوا فيحلّ به ما حلّ بهم، وقيل: معنى الظهر والبطن التلاوة والتفهيم، يقول: لكل آية ظاهر وهو أن تقرأها كما أُنزلت، قال الله تعالى: ﴿ورتلِ القرآنَ ترتيلا﴾[٢]، وباطن وهو التدبر والتفكر، قال الله تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مباركٌ ليدَّبرُوا آياتِه﴾[٣]، ثم التلاوة تكون بالتعلّم، والحفظ بالدرس، والتفهم يكون بصدق النية وتعظيم الحرمة، وطيب الطعمة، وقوله: «لكل حرف حد» أراد به من حد في التلاوة والتفسير لا يجاوز، ففي التلاوة لا يجاوز المصحف وفي التفسير لا يجاوز المسموع، وقوله: «لكل حد مطلع» أي: مصعد يصعد اليه من معرفة علمه، ويُقال: المطلع الفهم، وقد يفتح الله على المدبر والمتفكر في التأويل والمعاني ما لا يفتح على غيره، وفوق كل ذي علم عليم وما توفيقي إلا بالله العزيز الحكيم»[٤].

قال ابن تيمية فى «تفسير القرآن بالرأى حرام»:

«فأما تفسير القرآن بمجرد الرأى فحرام. حدثنا مؤمل، حدثنا سفيان، حدثنا عبدالاعلى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار» حدثنا وكيع، حدثنا سفيان عن عبدالاعلى الثعلبى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار»[٥]. وبه إلى الترمذى، قال: حدثنا عبد بن حميد، حدثنى حيان

---

١. حديث: «إن القرآن أُنزل على سبعة أحرف». «لكل آية منها ظهر وبطن، ولكل حدّ ومطلع». الشطر الأول رواه البخاري في فضائل القرآن /٥/، ورواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي. والشطر الثاني: رواه الطبراني. «انظر مجمع الزوائد ح ١٥٣/٧/.

٢. سورة المزّمل: الآية ٤.

٣. سورة ص: الآية ٢٩.

٤. معالم التنزيل ج ١ ص ٣٤ـ٣٦.

٥. ورد الحديث في البخارى (كتاب العلم، الجنائز، المناقب)؛ ابوداود (كتاب الإيمان)، الترمذى (كتاب الفتن)، ابن ⇐

بن هلال، قال: حدثنا سهيل أخو حزام القطعي، قال: حدثنا أبو عمران الجونى عن جندب، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»، قال الترمذى: هذا حديث غريب، وقد تكلم بعض أهل الحديث في سهيل ابن أبى حزم وهكذا روى بعض أهل العلم عن أصحاب النبى ﷺ وغيرهم: أنهم شددوا فى أن يفسر القرآن بغير علم، وأما الذى روى عن مجاهد وقتادة وغيرهما من أهل العلم: أنهم فسروا القرآن فليس الظن بهم أنهم قالوا فى القرآن وفسروه بغير علم أو من قبل أنفسهم، وقد روى عنهم ما يدل على ما قلنا: إنهم لم يقولوا من قبل أنفسهم بغير علم، فمن قال فى القرآن برأيه فقد تكلف مالا علم به، وسلك غير ما أمر به، فلو أنه أصاب المعنى فى نفس الأمر لكان قد أخطأ، لأنه لم يأت الأمر من بابه، كمن حكم بين الناس عن جهل فهو فى النار وإن وافق حكمه الصواب فى نفس الأمر، لكن يكون أخف جرماً ممن أخطأ والله أعلم، وهكذا سمى الله تعالى القذفة كاذبين، فقال: ﴿فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك هم الكاذبون﴾[1] فالقاذف كاذب ولو كان قد قذف من زنى فى نفس الأمر، لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به، وتكلف ما لا علم له به، والله تعالى أعلم.

توقف السلف عن التفسير بالرأي.

ولهذا تحرج جماعة من السلف عن تفسير مالا علم لهم به، كما روى شعبة عن سليمان عن عبدالله بن مرة عن أبي معمر، قال: قال أبوبكر الصديق: «أى أرض تقلنى، وأى سماء تظلنى إذا قلت فى كتاب الله ما لم أعلم». وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا محمود بن يزيد، عن العوام بن حوشب، عن إبراهيم التيمى: أن أبابكر الصديق سئل عن قوله: ﴿وفاكهة وأبّا﴾[2]، فقال: «أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم» (إسناده منقطع)[3].

وقال أبو عبيد أيضاً: حدثنا يزيد عن حميد، عن أنس: أن عمر بن الخطاب قرأ على

⇐ ماجة (المقدمة).

١. سورة النور: الآية ١٣.

٢. سورة عبس: الآية ٣١.

٣. وإنما انقطع الاسناد لأن أبابكر قد توفى سنة ١٣ هـ بينما ولد ابراهيم بن محمد سنة ٣٦ هـ فلم ير ابابكر وبالتالى لم يرو عنه.

المنبر: ﴿وفاكهة وأبًّا﴾، فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها فما هو الأبّ، ثـم رجـع إلى نـفسه فقال: «إن هذا لهو التكلف يا عمر». وقال عبد بن حميد: حدثنا سليمان بـن حـرب، قـال: حدثنا حماد بن زيد عن ثابت عن أنس، قال: كنا عند عمر بن الخطاب وفي ظهر قـميصه أربع رقاع فقرأ: ﴿وفاكهة وأبًّا﴾، فقال: ما الأبّ. ثم قال «إن هذا لهو التكـلف، فـما عـليك أن لا تدريه»، وهذا كله محمول على أنـهما رضـى الله عـنهما إنـما أرادا اسـتكشاف عـلم كيفية الأب، وإلا فكونه نبتاً من الأرض ظاهر لا يجهل لقـوله تـعالى: ﴿فأنبتنا فـيها حـباً وعنباً وقضباً، وزيتوناً ونخلا، وحدائق غلبا﴾[١].

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، قال: حدثنا ابن علية عن أيوب عـن [ابـن أبي مليكة: أن] ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بـعضكم لقـال فـيها، فأبـى أن يـقول فيها، إسناده صحيح. وقال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن أيـوب عـن ابـن أبـي مليكة، قال: سأل رجل ابن عباس عن: ﴿يوم كـان مـقداره ألف سـنة﴾[٢]، فـقال الرجـل: إنما سألتك لتحدثني، فقال ابن عباس: «هما يومان ذكرهما الله في كـتابه الله أعـلم بـهما». فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب يعني [ابن] إبراهيم، حدثنا ابن علية عـن مـهدي بـن ميمون عن الوليد بن مسلم، قال: جاء طلق بن حبيب إلى جندب بن عبدالله فسأله عن آيـة من القرآن، فقال له: «أحرج عليك إن كنت مسلما لما قمت عني»، أو قال: «أن تجالسني».

وقال مالك عن يحيى بن سعيد بن المسيب: أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال: «إنا لا نقول في القرآن شيئاً».

وقال الليث عن يحيى بن سعيد عـن سـعيد بـن المسيب: أنـه كـان لا يـتكلم إلا فـي المعلوم من القرآن. وقال شعبة عن عمرو بن مرة: قال: سأل رجل سعيد بن المسيب عـن آية من القرآن، فقال: لا تسألني عن ـ آية من ـ القرآن وسل من يـزعم أنـه لا يـخفى عـليه شيء منه. يعني عكرمة. وقال ـ عبدالله ـ بن شوذب: حدثني يزيد بن أبي يزيد، قال: كـنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام وكان أعلم الناس، فإذا سألناه عن تفسير آية

١. سورة عبس: الآية ٢٧ ـ ٣٠.
٢. سورة السجدة: الآية ١٥.

من القرآن سكت كأن لم يسمع.

وقال ابن جرير: حدثنى أحمد (ابن عبدة الضبى. حدثنا حماد بن زيد حدثنا عبيدالله بن عمر)، قال: لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول فى التفسير، منهم سالم بن عبدالله والقاسم بن محمد وسعيد بن المسيب ونافع.

وقال أبو عبيد: حدثنا عبدالله بن صالح عن الليث عن هشام بن عروة، قال: ما سمعت أبى تأول آية من كتاب الله قط. وعن أيوب وابن عون وهشام الدستوائى، عن محمد بن سيرين، قال: سألت عبيدة السلمانى عن آية من القرآن، فقال: ذهب الذين كانوا يعلمون فيما أنزل من القرآن، فاتق الله وعليك بالسداد.

وقال أبو عبيد: حدثنا معاذ عن ابن عون عن عبيدالله بن مسلم بن يسار عن أبيه، قال: إذا حدثت عن الله فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده. حدثنا هشيم، عن مغيرة عن إبراهيم قال: كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه.

وقال شعبة عن عبدالله بن أبى السفر، قال: قال الشعبي: والله ما من آية إلا وقد سئلت عنها، ولكنها الرواية عن الله. وقال أبو عبيد: حدثنا هشيم، أنبأنا عمر بن أبى زائدة، عن الشعبي عن مسروق قال: اتقوا التفسير فانما هو الرواية عن الله[١].

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام فى التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه، ولهذا روى عن هؤلاء وغيرهم أقوال فى التفسير، ولا منافاة لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد، فانه كما يجب السكوت عما لاعلم له به فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه، لقوله تعالى: ﴿لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾[٢]، ولما جاء فى الحديث المروى من طرق: من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار[٣].

١. جميع هذه الآثار التى رواها ابن تيمية عن السلف فى موقفهم من التفسير بالرأى رواها ابن جرير الطبرى فى تفسيره بنفس الإسناد. انظر تفسير الطبرى ج ١ ص ٢٨ ـ ٢٩ (ط بولاق).

٢. سورة آل عمران: الآية ١٨٧.

٣. الحديث ورد في الدارمي (كتاب العلم) الترمذي، ابن ماجة في المقدمة وابن حنبل ج ٢ ص ٢٦٣.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا مؤمل، حدثنا سفيان عن أبي الزناد، قال ابن عباس «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله» والله سبحانه وتعالى أعلم»[١].

قال القرطبي في ما جاء من الوعيد في تفسير القرآن بالرأي:

«روى عن عائشة رضي الله عنها قالت: ماكان رسول الله ﷺ يفسّر من كتاب الله إلا آيا بعدد، علمه إياهن جبريل. قال ابن عطية: ومعنى هذا الحديث في مغيبات القرآن، وتفسير مجمله ونحو هذا، مما لا سبيل إليه إلا بتوفيق من الله تعالى؛ ومن جملة مغيباته ما لم يُعلِم الله به، كوقت قيام الساعة ونحوها مما يستقرأ من ألفاظه، كعدد النَّفخات في الصُّور، وكرتبة خلق السماوات والأرض.

روى الترمذي عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «اتقوا الحديث علي إلا ما علمتم، فمن كذب علي متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار». وروى أيضا عن جندب قال قال رسول الله ﷺ: «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ». قال: هذا حديث غريب. وأخرجه أبو داود، وتكلّم في أحد رواته[٢]. وزاد رزين: (ومن قال برأيه فأخطأ فقد كفر). قال أبوبكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنباري النحوي اللغوي في كتاب الرد: فسر حديث ابن عباس تفسيرين: أحدهما ـ من قال في مشكل القرآن بما لا يعرف من مذهب الأوائل من الصحابة والتابعين فهو متعرض لسخط الله. والجواب الآخر ـ وهو أثبت القولين وأصحهما معنى ـ: من قال في القرآن قولاً يعلم أن الحق غيره فليتبوّأ مقعده من النار. ومعنى يتبوّأ: ينزل ويحل؛ قال الشاعر:

وبُوِّئَتْ في صَميم مَعْشرِها فتَمَّ في قَوْمِها مُبَوَّؤها[٣]

وقال في حديث جندب: فحمل بعض أهل العلم هذا الحديث على أن الرأى معنيّ به الهوى؛ من قال في القرآن قولا يوافق هواه لم يأخذه عن أئمة السلف فأصاب فقد

---

١. دقائق التفسير ج ١ ص ٨٢ـ٨٧ ويوجد مثل ذلك في تفسير ابن كثير مع اختلاف يسير ج ١ ص ١٠ـ١٣.

٢. قوله: أحد رواته هو سهيل بن أبي حزم واسمه مهران، ويقال: عبدالله.

٣. جاء في لسان العرب مادّة بوأ تفسيرا لهذا البيت: «أي نزلت من الكرم في صميم النسب».

أخطأ، لحكمه على القرآن بما لا يعرف أصله، ولا يقف على مذاهب أهل الأثر والنقل فيه. وقال ابن عطية: «ومعنى هذا أن يسأل الرجل عن معنى فى كتاب الله عز وجل فيتسور[١] عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء، واقتضته قوانين العلم كالنحو والأصول؛ وليس يدخل فى هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته والنحويون نحوه والفقهاء معانيه، ويقول كل واحد باجتهاده المبنى على قوانين علم ونظر؛ فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلا بمجرد رأيه».

قلت: هذا صحيح وهو الذى اختاره غير واحد من العلماء، فإن من قال فيه بما سنح فى وهمه وخطر على باله من غير استدلال عليه بالأصول فهو مخطىء، وإن من استنبط معناه بحمله على الأصول المحكمة المتفق على معناها فهو ممدوح.

وقال بعض العلماء: إن التفسير موقوف على السماع؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[٢]. وهذا فاسد؛ لأن النهى عن تفسير القرآن لا يخلو: إما أن يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط، أو المراد به أمرا آخر. وباطل أن يكون المراد به ألا يتكلم أحد فى القرآن إلا بما سمعه؛ فإن الصحابة رضى الله عنهم قد قرأوا القرآن واختلفوا فى تفسيره على وجوه، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبى ﷺ؛ فإن النبى ﷺ دعا لابن عباس وقال: «اللَّهمَّ فَقِّهه فى الدِّينِ وَعَلِّمه التأويل». فإن كان التأويل مسموعا كالتنزيل فما فائدة تخصيصه بذلك! وهذا بين لا إشكال فيه؛ وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة «النساء» إن شاء الله تعالى. وإنما النهى يحمل على أحد وجهين:

أحدهما ـ أن يكون له فى الشىء رأى، وإليه ميل من طبعه وهواه؛ فيتأوّل القرآن على وفق رأيه وهواه، ليحتج على تصحيح غرضه، ولو لم يكن له ذلك الرأى والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى. وهذا النوع يكون تارة مع العلم كالذى يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته، وهو يعلم أن ليس المراد بالآية ذلك، ولكن مقصوده أن يلبس على خصمه؛ وتارة يكون مع الجهل، وذلك إذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه

---

١. قوله: فيتسور عليه. تسور الحائط. هجم مثل اللص. ويعنى به هنا التهجم والإقدام بغير بصيرة ولا نذير.
٢. سورة النساء: الآية ٥٩.

إلى الوجه الذى يوافق غرضه، ويرجح ذلك الجانب برأيه وهواه، فيكون قد فسر برأيه، أى رأيه حمله على ذلك التفسير، ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه. وتارة يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلا من القرآن ويستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به، كمن يدعو إلى مجاهدة القلب القاسى فيقول قال الله تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾[1] ويشير إلى قلبه، ويؤمىء إلى أنه المراد بفرعون؛ وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ فى المقاصد الصحيحة تحسينا للكلام وترغيبا للمستمع، وهو ممنوع لأنه قياس فى اللغة، وذلك غير جائز. وقد تستعمله الباطنية فى المقاصد الفاسدة لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذاهبهم الباطلة، فينزلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعاً أنها غير مرادة. فهذه الفنون أحد وجهى المنع من التفسير بالرأى.

الوجه الثانى ـ أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية، من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة، وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير؛ فمن لم يحكم ظاهر التفسير وبادر الى استنباط المعانى بمجرد فهم العربية كثر غلطه، ودخل فى زمرة من فسر القرآن بالرأى؛ والنقل والسماع لا بد له منه فى ظاهر التفسير أولا ليتقى به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط. والغرائب التى لا تفهم إلا بالسماع كثيرة، ولا مطمع فى الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر؛ ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [2] معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها؛ فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة، ولا يدرى بماذا ظلموا، وأنهم ظلموا غيرهم وأنفسهم، فهذا من الحذف والإضمار؛ وأمثال هذا فى القرآن كثير، وما عدا هذين الوجهين فلا يتطرق النهى إليه. والله أعلم»[3].

قال البغدادي فى وعيد من قال فى القرآن برأيه من غير علم: «عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال فى القرآن بغير علم فليتبوّأ مقعده من النار». وفى

---

١. سورة طه: الآية ٢٤.
٢. سورة الاسراء: الآية ٥٩.
٣. الجامع لاحكام القرآن ج ١ ص ٣١ ـ ٣٤.

رواية: «من قال في القرآن برأيه» أخرجه الترمذي وقال حديث حسن، (قوله فليتبوّأ) معناه: فليتخذ له مباءة أي منزلا من النار. عن جندب بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال في كتاب الله عز وجل برأيه فأصاب فقد أخطأ» أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حديث غريب.

وسئل أبوبكر الصديق رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿وفاكهة وأبا﴾[1] فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله بغير علم.

قال العلماء: النهي عن القول في القرآن بالرأي إنما ورد في حق من يتأول القرآن على مراد نفسه وما هو تابع لهواه وهذا لا يخلو إما أن يكون عن علم أولا.

فإن كان عن علم كمن يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أن المراد من الآية غير ذلك لكن غرضه أن يلبس على خصمه بما يقوي حجته على بدعته، كما يستعمله الباطنية والخوارج وغيرهم من أهل البدع في المقاصد الفاسدة ليغروا بذلك الناس.

وإن كان القول في القرآن بغير علم لكن عن جهل وذلك بأن تكون الآية محتملة لوجوه فيفسرها بغير ما تحتمله من المعاني والوجوه، فهذان القسمان مذمومان وكلاهما داخل في النهي والوعيد الوارد في ذلك.

فأما التأويل وهو صرف الآية على طريق الاستنباط إلى معنى يليق بها محتمل لما قبلها وما بعدها وغير مخالف للكتاب والسنة فقد رخص فيه أهل العلم، فإن الصحابة رضي الله عنهم قد فسروا القرآن واختلفوا في تفسيره على وجوه، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبي ﷺ ولكن على قدر ما فهموا من القرآن تكلموا في معانيه، وقد دعا النبي ﷺ لابن عباس فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» فكان أكثر ما نقل عنه التفسير»[2].

قال ابو حيان: «وما روي عنه ﷺ من قوله: «من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»، محمول على من تسور على تفسيره برأيه دون نظر في أقوال العلماء وقوانين العلوم

---

١. سورة عبس: الآية ٣١.

٢. لباب التأويل (خازن) ج ١ ص ٥.

كالنحو واللغة والأصول، وليس من اجتهد ففسر على قوانين العلم والنظر بداخل فى ذلك الحديث ولا هو يفسر برأيه ولا يوصف بالخطأ»[١].

قال الثعالبى فيما قيل فى الكلام فى تفسير القرآن والجرأة عليه:

«روي عن عائشة رضي الله عنها انها قالت: ما كان رسول الله ﷺ يفسر من كتاب الله تعالى الا آيا بعدد علمهن اياه جبريل عليه السلام. قال ابن عطية[٢]: ومعنى هذا الحديث فى مغيبات القرآن وتفسير مجمله ونحو هذا مما لا سبيل اليه الا بتوقيف من الله تعالى، ومن جملة مغيباته ما لم يعلم الله به عباده كوقت قيام الساعة ونحوها، ومنها ما يستقرأ من الفاظه كعدد النفخات في الصور وكرتبة خلق السموات والارض. وروي ان رسول الله ﷺ قال: «من تكلم في القرآن برأيه فاصاب فقد اخطأ) ومعنى هذا: ان يسأل الرجل عن معنى فى كتاب الله فيتسور عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء او اقتضته قوانين العلوم كالنحو والاصول، وليس يدخل في هذا الحديث ان يفسر اللغويون لغته والنحاة نحوه والفقهاء معانيه ويقول كل واحد باجتهاده المبني على قوانين علم ونظر؛ فان هذا القائل على هذه الصفة ليس قائلا بمجرد رأيه، وكان جلة من السلف كسعيد بن المسيب وعامر الشعبي وغيرهما يعظمون تفسير القرآن ويتوقفون عنه تورعا واحتياطا لانفسهم مع ادراكهم وتقدمهم، وكان جلة من السلف كثير عددهم يفسرونه وهم ابقوا على المسلمين فى ذلك رضي الله عن جميعهم.

وخرج ابو عيسى الترمذى فى جامعه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار». قال ابو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وخرج ايضا عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «اتقوا الحديث عنى الا ما علمتم، فمن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار، ومن قال فى القرآن برايه فليتبوأ مقعده من النار». قال ابو عيسى: هذا حديث حسن، وخرج عن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال فى القرآن برأيه فاصاب فقد اخطأ» قال ابو عيسى هكذا روي عن بعض اهل العلم من اصحاب النبي ﷺ وغيرهم انهم شددوا فى هذا فى ان يفسر القرآن

١. البحر المحيط ج ١ ص ١٣.
٢. المحرر الوجيز ج ١ ص ٤٦-٤٧.

بغير علم، واما الذى روي عن مجاهد وقتادة وغيرهما من اهل العلم انهم فسروا القرآن فليس الظن بهم انهم قالوا فى القرآن او فسروه بغير علم او من قبل انفسهم، وقد روي عنهم ما يدل على ما قلنا: انهم لم يقولوا من قبل انفسهم بغير علم»[١].

قال الفيض الكاشاني (ره) فى نبذ مما جاء في المنع من تفسير القرآن بالرأي والسرّ فيه:

«روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من فسر القرآن برأيه فأصاب الحق أخطأ».

وعنه ﷺ: «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار».

وعنه وعن الأئمة القائمين مقامه ﷺ: أن تفسير القرآن لا يجوز إلا بالأثر الصحيح والنص الصريح.

وفي تفسير العياشي عن ابي عبدالله ﷺ قال: «من فسر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر وإن أخطأ فهو أبعد من السماء».

وفيه وفي الكافي عن الصادق عن أبيه ﷺ قال: «ما ضرب رجل القرآن بعضه ببعض إلا كفر».

أقول: لعل المراد بضرب بعضه ببعض متشابهاته إلى بعض بمقتضى الهوى من دون سماع من أهله أو نور وهدى من الله، ولا يخفى أن هذه الأخبار تناقض بظواهرها ما مضى في المقدمة الأولى من الأمر بالاعتصام بحبل القرآن، والتماس غرائبه، وطلب عجائبه، والتعمق في بطونه، والتفكر في تخومه، وجولان البصر فيه وتبليغ النظر الى معانيه، فلا بد من التوفيق والجمع.

فنقول ـ وبالله التوفيق ـ: إن من زعم أن لا معنى للقرآن الا ما يترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حد نفسه وهو مصيب في الاخبار عن نفسه، ولكنه مخطىء في الحكم برد الخلق كافة إلى درجته التي هي حده ومقامه، بل القرآن والأخبار والآثار تدل على أن في معاني القرآن لأرباب الفهم متسعاً بالغاً ومجالاً رحباً قال الله عز وجل: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها﴾[٢]، وقال سبحانه: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل

---

١. جواهر الحسان ج ١ ص ١١ ـ ١٢.

٢. سورة محمد: الآية ٢٤.

شيء﴾[١].

وقال: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾[٢]. وقال: ﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾[٣].

وقال النبي ﷺ: «إذا جاءكم عني حديث فاعرضوه على كتاب الله تعالى فما وافق كتاب الله فاقبلوه وما خالفه فاضربوا به عرض الحائط» وكيف يمكن العرض ولا يفهم به شيء؟!.

وقال ﷺ: «القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على أحسن الوجوه».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إلاّ أن يؤتي الله عبداً فهماً في القرآن».

وقال عليه السلام: «من فهم القرآن فسر جمل العلم». أشار به إلى: أن القرآن مشير إلى مجامع العلوم كلها، إلى غير ذلك من الآيات والأخبار، فالصواب أن يقال: من أخلص الانقياد لله ولرسوله ﷺ ولأهل البيت عليهم السلام، وأخذ علمه منهم وتتبع آثارهم واطلع على جملة من أسرارهم، بحيث حصل له الرسوخ في العلم والطمأنينة في المعرفة وانفتح عينا قلبه، وهجم به العلم على حقائق الأمور وباشر روح اليقين، واستلان ما استوعره المترفون وأنس بما استوحش منه الجاهلون، وصحب الدنيا ببدن روحه معلقة بالمحل الأعلى، فله أن يستفيد من القرآن بعض غرائبه ويستنبط منه نبذاً من عجائبه، ليس ذلك من كرم الله تعالى بغريب ولا من جوده بعجيب، فليست السعادة وقفاً على قوم دون آخرين، وقد عدوا عليهم السلام جماعة من أصحابهم المتصفين بهذه الصفات من أنفسهم، كما قالوا: «سلمان منا أهل البيت عليهم السلام»، فمن هذه صفته لا يبعد دخوله في الراسخين في العلم العالمين بالتأويل، بل في قولهم: (نحن الراسخون في العلم) كما دريت في المقدمة السابقة، فلا بد من تنزيل التفسير المنهي عنه على أحد وجهين:

الأول: أن يكون للمفسر في الشيء رأي وإليه ميل من طبعه وهواه، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ليحتج على تصحيح غرضه ومدعاه، ولو لم يكن ذلك الرأي

١. سورة النحل: الآية ٨٩.
٢. سورة الانعام: الآية ٣٨.
٣. سورة النساء: الآية ٨٣.

والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى، وهذا تارة يكون مع العلم كالذي يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أنه ليس المراد بالآية ذلك ولكن يلبس به على خصمه، وتارة يكون مع الجهل ولكن إذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه إلى الوجه الذي يوافق غرضه ويترجح ذلك الجانب برأيه وهواه، فيكون قد فسّر القرآن برأيه أي رأيه هو الذي حمله على ذلك التفسير ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه.

وتارة قد يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلاً من القرآن ويستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به ذلك، كمن يدعو إلى الاستغفار بالأسحار فيستدل عليه بقوله ﷺ تسحروا فإن السحور بركة، ويوهم أن المراد به التسحر بالذكر وهو يعلم أن المراد به الأكل، وكالذي يدعو إلى مجاهدة القلب القاسي فيقول قال الله تعالى: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾[1]، ويشير إلى قلبه ويؤميء إلى أنه المراد بفرعون وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة تحسيناً للكلام وترغيباً للمستمع وهو ممنوع منه.

وقد يستعمله الباطنية في المقاصد الفاسدة لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذهبهم الباطل فينزلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعاً أنه غير مراد به؛ فهذه الفنون احد وجهي المنع من التفسير بالرأي.

والوجه الثاني: أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيها من الألفاظ المبهمة والمبدلة، وما فيها من الاقتصار والحذف والاضمار والتقديم والتأخير وفيما يتعلق بالناسخ والمنسوخ والخاص والعام والرخص والعزائم والمحكم والمتشابه إلى غير ذلك من وجوه الآيات، فمن لم يحكم ظاهر التفسير ومعرفة وجوه الآيات المفتقرة إلى السماع وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه ودخل في زمرة من يفسر بالرأي، فالنقل والسماع لا بد منه في ظاهر التفسير اولاً ليتقي مواضع الغلط ثم بعد ذلك يتسع التفهم والاستنباط؛ فان ظاهر التفسير يجري مجرى تعليم اللغة التي لا بد منها للفهم، وما لا بد

---

١. سورة طه: الآية ٢٤.

فيه من السماع فنون كثيرة، منها ما كان مجملاً لا ينبيء ظاهره عن المراد به مفصلاً مثل قوله سبحانه: ﴿أقيموا الصلوٰة وآتوا الزكوة﴾[١] ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾[٢] فانه يحتاج فيه إلى بيان النبي ﷺ بوحي من الله سبحانه؛ فيبين تفصيل أعيان الصلوات واعداد الركعات ومقادير النصب في الزكاة وما تجب فيه من الأموال وما لا تجب وامثال ذلك كثيرة.

فالشروع في بيان ذلك من غير نص وتوقيف ممنوع منه»[٣].

قال البحراني (ره) في النهي عن تفسير القرآن بالرأي:

«١ ـ محمد بن علي بن بابويه في الغنيمة، قال: حدثنا محمد بن علي ما جيلويه رضي الله عنه، قال حدثنا عمي محمد بن ابي القاسم رحمه الله، عن محمد بن علي الصيرفي الكوفي، عن محمد بن سنان، عن مفضل بن عمر، عن جابر بن يزيد الجعفي، عن سعيد بن المسيب، عن عبدالرحمن بن سمرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لعن الله المجادلين في دين الله على لسان سبعين نبياً ومن جادل في آيات الله فقد كفر، قال الله عز وجل: ﴿وما يجادل في آيات الله الا الذين كفروا فلا يغررك تقلّبهم في البلاد﴾[٤]، ومن فسر القرآن برأيه فقد افترى على الله الكذب، ومن افتى بغير علم لعنته ملائكة السماء والارض، كل بدعة ضلالة وكل ضلالة سبيلها الى النار».

قال عبدالرحمن بن سمرة فقلت: يا رسول الله ارشدني الى النجاة، فقال: «ياابن سمرة اذا اختلفت الاهواء وتفرقت الآراء فعليك بعلي بن ابي طالب ﷺ، فانه امام امتي وخليفتي عليهم من بعدي؛ وهو الفاروق الذي يتميز بين الحق والباطل، من سأله اجابه، ومن استرشده ارشده، ومن طلب الحق عنده وجده، ومن التمس الهدى لديه صادفه، ومن لجأ عليه آمنه، ومن استمسك به انجاه، ومن اقتدى به هداه. يا ابن سمرة سلم منكم من سلمه ووالاه، وهلك من رد عليه وعاداه. يا ابن سمرة ان علياً مني روحه روحي وطينته من طينتي، وهو اخي وانا اخوه وهو زوج ابنتي فاطمة سيدة نساء العالمين من

---

١ . سورة البقرة: الآية ٤٨ و ٨٣ و ١١٠ و...
٢ . سورة الانعام: الآية ١٤١.
٣ . البيان ج ١ ص ٣٥ ـ ٣٩.
٤ . سورة غافر: الآية ٤.

الاولين والاخرين، وان منه امامى امتى وابنى وسيدى شباب اهل الجنة الحسن والحسين، وتسعة من ولد الحسين تاسعهم قائم امتى يملاء الارض قسطاً وعدلا كما ملئت جوراً وظلماً».

٢ ـ محمد بن يعقوب عن عدة من اصحابنا، عن احمد بن محمد بن خالد، عن الحسن بن على الوشا، عن ابان الاحمر، عن زياد بن ابى رجا، عن ابي جعفر عليه السلام قال: «ما علمتم فقولوا وما لم تعلموا فقولوا الله اعلم، ان الرجل لينتزع الآية فيخرّ بها ابعد ما بين السماء والارض».

٣ ـ وعنه، عن عدة من اصحابنا، عن احمد بن محمد بن خالد، عن ابيه، عن محمد بن سنان، عن زيد الشحام، قال: دخل قتادة بن دعامة على ابى جعفر عليه السلام فقال: «يا قتادة انت فقيه اهل البصرة»؟ فقال: هكذا يزعمون. قال ابو جعفر عليه السلام: «بلغنى أنك تفسّر القرآن؟» قال له قتادة: نعم. فقال له ابو جعفر عليه السلام: «فان كنت تفسره بعلم فانت انت وانا اسألك» قال قتادة: سل، قال: «أخبرنى عن قول الله عز وجل فى سبأ: ﴿وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى واياماً آمنين﴾[1]». فقال قتادة: ذاك من خرج من بيته بزاد وراحلة وكراء حلال يريد هذا البيت كان آمناً حتى يرجع الى اهله فقال ابو جعفر عليه السلام: «ناشدتك الله يا قتادة هل تعلم انه قد يخرج الرجل من بيته بزاد حلال وكراء حلال يريد هذا البيت فيقطع عليه الطريق فتذهب نفقته ويضرب مع ذلك ضربة فيها اجتياحه»[2] قال قتادة: اللهم نعم. فقال ابو جعفر عليه السلام: «ويحك يا قتادة ان كنت انما فسرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت واهلكت، وان كنت قد أخذته من الرجال فقد هلكت واهلكت، ويحك يا قتادة ذلك من خرج من بيته بزاد وراحلة وكراء حلال يروم هذا البيت عارفاً بحقنا يهوانا قلبه كما قال الله عز وجل: ﴿فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم﴾ [3] ولم يعن البيت فيقول اليه، فنحن والله دعوة ابراهيم عليه السلام التى من هواها

---

١. سورة سبأ: الآية ١٨.
٢. الجوح الاهلاك والاستيصال كالاجاحة والاجتياح ـ قاموس.
٣. سورة إبراهيم: الآية ٣٧.

قبلت حجته والا فلا، يا قتادة فان كان كذلك كان آمناً من عذاب جهنم يوم القيامة ». قال: قتادة: لا جرم والله لا فسرتها الا هكذا. فقال ابو جعفر ﷺ: « ويحك يا قتادة انما يعرف القرآن من خوطب به ».

٤ ـ محمد بن علي بن بابويه، قال حدثنا محمد بن موسى بن المتوكل، قال حدثنا علي بن ابراهيم بن هاشم، عن ابيه عن الريان بن الصلت، عن علي بن موسى الرضا ﷺ، عن ابيه، عن آبائه عن اميرالمؤمنين ﷺ قال الله جل جلاله: « ما آمن بي من فسر برايه كلامي، وما عرفني من شبهني بخلقي، وما على ديني من استعمل القياس في ديني ».

٥ ـ عنه، قال: حدثنا ابوالحسن علي بن عبدالله الاسواري المذكر، قال: حدثنا ابو يوسف احمد بن محمد بن قيس الشجري المذكر، قال: حدثنا ابو يعقوب، قال: حدثنا علي بن حشرم، قال: حدثنا عيسى، عن ابي عبيدة، عن محمد بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: « انما اتخوف على امتي من بعدي ثلاث خصال، ان يتأولوا القرآن على غير تأويله، او يتبعوا زلة العالم، او يظهر فيهم المال حتى يطغوا ويبطروا، وسأنبئكم المخرج من ذلك، اما القرآن فاعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه، واما العالم فانظروا فيه ولا تتبعوا زلته، واما المال فان المخرج شكر النعمة واداء حقه ».

٦ ـ وعنه، عن احمد بن الحسن القطان رحمه الله، قال: حدثنا احمد بن يحيى، عن بكر بن عبدالله بن حبيب، قال: حدثني احمد بن يعقوب بن مطر، قال: حدثني محمد بن الحسن بن عبدالله العزيز الجيد[1] بنيسابور، قال: وجدت في كتاب ابي بخطه، حدثنا طلحة بن زيد عن عبدالله بن عبيد، عن ابي معمر السعداني: ان رجلا قال له اميرالمؤمنين علي بن ابي طالب ﷺ: « اياك أن تفسر القرآن برأيك حتى تفقهه عن العلماء؛ فانه رب تنزيل يشبه بكلام البشر وهو كلام الله، وتأويله لا يشبه كلام البشر، كما ليس شيء من خلقه يشبهه كذلك لا يشبه فعله تبارك وتعالى شيئاً من افعال البشر ولا يشبه شيء من كلامه بكلام البشر، وكلام الله تبارك وتعالى صفته وكلام البشر افعالهم

١. عبدالله العزيز الاحدب الجند. انظر: توحيد الصدوق ص ٢٥٥ ح ٥.

فلا يشبه كلام الله بكلام البشر فتهلك وتضل».

٧ـالعياشي، عن ابى جعفر ﷺ...[١]

٩ـعن هشام بن سالم، عن ابى جعفر[٢] ﷺ قال: «من فسر القرآن برايه فاصاب لم يؤجر فان أخطأ كان إثمه عليه».

١٤ـعن زرارة، عن ابى جعفر ﷺ قال: «اياكم والخصومة فانها تحبط العمل وتمحق الدين، وان احدكم لينزع بالآية يقع منها ابعد من السماء».

١٥ـعن المعمر بن سليمان، عن ابي عبدالله ﷺ قال: «قال ابى: ما من رجل ضرب القرآن بعضه ببعض الا وكفر».

١٦ـعن يعقوب بن يزيد عن ياسر عن ابي الحسن الرضا ﷺ يقول: «المراء فى كتاب الله كفر».

١٧ـعن داود بن فرقد، عن ابي عبدالله ﷺ قال: «لا تقولوا لكل آية هذه رجل وهذه رجل ان من القرآن حلالا ومنه حراماً، وفيه نبأ من قبلكم وخبر من بعدكم وحكم ما بينكم فهكذا هو، كان رسول الله ﷺ مفوض فيه ان شاء فعل الشيىء وان شاء ترك، حتى اذا فرضت فرائضه وخمست اخماسه حق على الناس ان يأخذوا به؛ لان الله قال: ﴿ما آتكم الرسول فخذوه وما نهكم عنه فانتهوا﴾»[٣].

١٨ـمحمد بن يعقوب، عن محمد بن يحيى، عن احمد بن محمد، عن حسين بن سعيد، عن النضر بن سويد، عن القاسم بن سليمان، عن ابي عبدالله ﷺ قال: «قال ابى ﷺ: «ما ضرب رجل القرآن بعضه بعضاً الا كفر».

قلت ذكر محمد بن على بن بابويه فى كتاب (معانى الاخبار) عن بعض الفقهاء فى معنى هذا الحديث: هو ان يفسر آية بتفسير آية اخرى»[٤].

قال الآلوسي: «وأما التفسير بالرأى، فالشائع المنع عنه، واستدل عليه بما أخرجه

١. انظر الروايات ٧ الى ١٣ في ص ٢٥١ من الكتاب الحاضر.
٢. نقل العياشى عن هاشم بن سالم عن ابى عبدالله ﷺ وهذا صحيحٌ لانه من رواة ابى عبدالله ﷺ.
٣. سورة الحشر: الآية ٧.
٤. البرهان ج ١ ص ١٧ـ١٩.

أبو داود والترمذى والنسائى من قوله ﷺ: «من تكلم فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ». وفى رواية عن أبى داود: «من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار»، ولا دليل فى ذلك.

أما أولا: فلان فى صحة الحديث الاول مقالا، قال فى المدخل: فى صحته نظر، وإن صح فانما أراد به ـ والله تعالى أعلم ـ: فقد أخطأ الطريق؛ إذ الطريق الرجوع فى تفسير ألفاظه الى أهل اللغة، وفى نحو الناسخ والمنسوخ إلى الاخبار، وفى بيان المراد منه الى صاحب الشرع، فان لم يجد هناك وهنا فلا بأس بالفكرة ليستدل بما ورد على ما لم يرد، أو أراد من قال بالقرآن قولا يوافق هواه بأن يجعل المذهب أصلا والتفسير تابعا له فيرد اليه بأى وجه فقد أخطأ، فالباء على ذلك سببية، أو يقال ذلك فى المتشابه الذى لا يعلمه إلا الله، أو فى الجزم بأن مراد الله تعالى كذا على القطع من غير دليل، وأما الحديث الثانى فله معنيان، الاول ـ من قال فى مشكل القرآن بما لا يعلم فهو متعرض لسخط الله تعالى، والثانى ـ وصحح ـ من قال: «فى القرآن قولا يعلم أن الحق غيره فليتبوأ مقعده من النار».

وأما ثانيا: فلان الادلة على جواز الرأى والاجتهاد فى القرآن كثيرة وهى تعارض ما يشعر بالمنع، فقد قال تعالى: ﴿ولو ردوه إلى الرسول والى أولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾[١]، وقال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوالالباب﴾[٣]. وأخرج أبو نعيم وغيره من حديث أبن عباس: «القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على أحسن وجوهه». وقد دعا رسول الله ﷺ لابن عباس بقوله: «اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل». وقد روى عن على كرم الله وجهه: «أنه سئل هل خصكم رسول الله ﷺ بشىء؟ فقال: «ما عندنا غير ما فى هذه الصحيفة أو فهم يؤتاه الرجل فى كتابه، إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة، والعجب كل العجب مما يزعم: أن علم التفسير مضطر الى النقل فى فهم معانى التراكيب، ولم ينظر الى اختلاف التفاسير وتنوعها ولم يعلم أن ما ورد عنه ﷺ فى ذلك

١. سورة النساء: الآية ٨٣.
٢. سورة محمد: الآية ٢٤.
٣. سورة ص: الآية ٢٩.

كالكبريت الاحمر، فالذى يتبغى أن يعول عليه: أن من كان متبحراً فى علم اللسان مترقيا منه الى ذوق العرفان وله فى رياض العلوم الدينية أو فى مرتع، وفى حياضها أصفى مكرع، يدرك اعجاز القرآن بالوجدان لا بالتقليد وقد غدا ذهنه لما أغلق من دقائق التحقيقات أحسن إقليد، فذاك يجوز له أن يرتقي من علم التفسير ذروته ويمتطى منه صهوته، وأما من صرف عمره بوساوس أرسطاطاليس واختار شوك القنافذ على ريش الطواويس، فهو بمعزل عن فهم غوامض الكتاب وإدراك ما تضمنه من العجب العجاب، وأما كلام السادة الصوفية فى القرآن فهو من باب الاشارات الى دقائق تنكشف على أرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة وذلك من كمال الايمان ومحض العرفان، لا أنهم اعتقدوا أن الظاهر غير مراد أصلا وانما المراد الباطن فقط؛ إذ ذاك اعتقاد الباطنية الملاحدة توصلوا به إلى نفى الشريعة بالكلية وحاشى سادتنا من ذلك، كيف وقد حضوا على حفظ التفسير الظاهر وقالوا لابد منه أولا إذ لا يطمع فى الوصول الى الباطن قبل احكام الظاهر، ومن ادعى فهم أسرار القرآن قبل إحكام التفسير الظاهر فهو كمن ادعى البلوغ الى صدر البيت قبل أن يجاوز الباب»[١].

قال صديق حسن خان: «وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار[٢]»، رواه الترمذي.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المراء في القرآن كفر[٣]» وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: سمع النبي ﷺ قوماً يتدارأون في القرآن فقال: «إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا وما جهلتم فكِلوه إلى عالمه[٤]» رواه أحمد وابن ماجة.

قال البغوي في تفسيره: قد جاء الوعيد في حق من قال في القرآن برأيه، وذلك فيمن

١. روح المعاني ج ١ ص ٦ ـ ٧.
٢. مشكاة المصابيح ص ٢٣٤ والترمذي وسنده ضعيف.
٣. صحيح الجامع الصغير ص ٦٥٦٣. ومشكاة المصابيح ص ٢٣٦.
٤. احمد ج ١ ص ١٨٥ المشكاة ص ٢٣٧.

قال من قبل نفسه شيئاً من غير علم»[١].

قال الجنابذي في تحقيق التفسير بالرأى الذى ورد حرمته ومذمته في الاخبار:

«فعن النبى ﷺ انه قال: «من فسر القرآن برأيه فاصاب الحق فقد اخطأ».

وعنه ﷺ: «من فسر القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النار».

وعن ابي عبدالله عليه السلام: «من فسر القرآن برأيه ان اصاب لم يؤجر وان اخطأ فهو أبعد من السماء» وعنه عليه السلام: «ما ضرب رجل القرآن بعضه ببعض الا كفر».

اعلم: أن الانسان ـ كما سبق ـ واقع بين داري الرحمن والشيطان والعقل والجهل والنور والظلمة، فان ظهر بفعليته المنسوبة الى الشيطان وهى الفعلية المنسوبة الى نفسه بظهور انانيّته، صار تمام اعضائه ومداركه آلات للشيطان ولنفسه لا للرحمن ولعقله، وكان جملة افعاله وفعلياته للشيطان، وكان جميع ادراكاته جهالات واسباباً لتمكن الشيطان منه والبعد من الرحمن، والخطأ فعل او ادراك يكون بتصرف الشيطان ويصير سبباً لتمكنه في الانسان، فالانسان الذى ظهر بفعلية الشيطان كلما ادرك من القرآن كان ادراكاته جهالات الشيطان وان كان موافقاً لمقصود القرآن، وان بين وفسر القرآن كان بتحريك الشيطان فكان خطأ وان كان موافقاً وكان تفسيره برأى منسوب اليه؛ لان صاحب هذه الفعلية لا يرى الافعال والادراكات الاّ من نفسه بظهوره بانانيته، فصح ان من فسر القرآن برأى منسوب الى نفسه وانانيته فان اصاب الحق فقد اخطأ وليتبوأ مقعده من النار، وان اصاب لم يؤجر. وان ظهر بفعليته المنسوبة الى العقل وهى فعلية الرحمن صار كل اعضائه ومداركه آلات للعقل والرحمن، وكان جميع افعاله وفعلياته للرحمن، وكان جملة ادراكاته علوماً ونوراً وباعثاً لضعف الانانية، واذا نسبت اليهم كان نسبتها اليهم نسبة الى العقل؛ لان نفسيتهم حينئذ تكون مسخرة للعقل لا للشيطان ولا تكون انانية لهم، وكلما نسب الى العقل فعلاً كان او ادراكاً كان صواباً ولو لم يكن موافقاً؛ فان العقل خطؤه صواب بحكم المضادة مع الشيطان والجهل، ولصاحب هذه الفعلية ورد ما نقل: ان المصيب له اجران والمخطىء له اجر واحد. وفى حق صاحب الفعلية الشيطانية قيل

١. فتح البيان ج ١ ص ٢٨.

بالفارسية:

«هرچه گيرد علّتى علّت شود»

فان الفعلية الشيطانية مرض فوق جميع الامراض، حتى قيل: انه داء عياءٌ. وفى حق صاحب الفعلية العقلانية قيل بالفارسية:

«كفر گيرد ملّتى ملّت شود»

لانّ صاحب الفعلية العقلانية لا يكون الا مؤمناً بالولاية بايعاً مع ولى امره، ولا تكون سيرة هذا المؤمن الا الهية والسيرة الالهية اذا كانت بتصرف العقل كانت ملة والمخطىء من الملى مصيب وله اجر، ولذلك ورد عن الصادق ﷺ: «ان الله جعل ولايتنا اهل البيت قطب القرآن وقطب جميع الكتب، وعليها يستدير محكم القرآن وبها نوهت الكتب ويستبين الايمان. وقد امر رسول الله ﷺ ان يقتدى بالقرآن وآل محمد ﷺ» الحديث. وللاشارة الى الفعليتين وآثارهما قيل بالفارسيّة:

گفت پيغمبر كه احمق هر كه هست — او عدوّ ما وغول ره زنست

هر كه او عاقل بود او جان ماست — روح او وريح او ريحان ماست

عقل دشنامم دهد من راضيم — زانكه فيضى دارد از فيّاضيم

احمق ار حلوا نهد اندر لبم — من از آن حلواى او اندر تبم

مثال ذلك: ان العامل بالتقية كان مصيباً ولو لم يكن عمله موافقاً لحكم الله فى نفس الامر، والتارك للتقية مخطىء ولو كان عمله موافقاً، والمأذون من الهنود والقلندرية فى الدعاء والمنطريات يؤثر قوله ولو قرأ مغلوطاً، وغير المأذون لا يؤثر قوله ولو قرأ صحيحاً، فاللازم للمفسر بعد تحصيل المقدمات التى ذكرت فى الفصول السابقة ان يفر من الشيطان ويدخل تحت حكم الرحمن ويسلم نفسه لامره تعالى، فان فسر بهذه الحالة كان تفسيره حقاً وصواباً وحكمةً ونوراً. رزقنا الله وجميع المؤمنين هذه الحال»[١].

قال القاسمى فيما جاء من إعمال الرأى فى القرآن الكريم:

«قال الشاطبى: إعمال الرأي فى القرآن جاء ذمه وجاء أيضاً ما يقتضى إعماله،

---

١. بيان السعادة ج ١ ص ١٥ ـ ١٦.

وحسبك من ذلك ما نقل عن الصديق. فإنه نقل عنه أنه قال، وقد سئل فى شىء من القرآن: أي سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إن أنا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم؟ وربما روى فيه: إذا قلت فى كتاب الله برأيى. ثم سئل عن الكلالة المذكورة فى القرآن فقال: أقول فيها برأيى. فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأ فمنى ومن الشيطان: الكلالة كذا وكذا.

فهذان قولان اقتضيا إعمال الرأى وتركه فى القرآن، وهما لا يجتمعان.

والقول فيه: إن الرأى ضربان: أحدهما جارٍ على موافقة كلام العرب وموافقة الكتاب والسنة، فهذا لا يمكن إهمال مثله لعالم بهما، لأمور:

أحدها: أن الكتاب لابد من القول فيه ببيان معنى واستنباط حكم وتفسير لفظ وفهم مراد. ولم يأت جميع ذلك عمن تقدم. فإما أن يتوقف دون ذلك فتتعطل الأحكام كلها أو أكثرها، وذلك غير ممكن. فلابد من القول فيه بما يليق.

والثاني: أنه لو كان كذلك للزم أن يكون الرسول ﷺ مبيناً ذلك كله بالتوقيف. فلايكون لأحد فيه نظر ولا قول. والمعلوم أنه ﷺ لم يفعل ذلك. فدل على أنه لم يكلف به على ذلك الوجه. بل بين منه ما لا يوصل إلى علمه إلا به. وترك كثيراً مما يدركه أرباب الاجتهاد باجتهادهم. فلم يلزم فى جميع تفسير القرآن التوقيف.

والثالث: أن الصحابة كانوا أولى بهذا الاحتياط من غيرهم. وقد علم أنهم فسروا القرآن على ما فهموا. ومن جهتهم بلغنا تفسير معناه. والتوقيف ينافى هذا. فاطلاق القول بالتوقيف والمنع من الرأى، لا يصح.

والرابع: أن هذا الفرض لا يمكن. لأن النظر فى القرآن من جهتين: من جهة الأمور الشرعية، فقد يسلم القول بالتوقيف فيه وترك الرأى والنظر جدلا. ومن جهة المآخذ العربية، وهذا لا يمكن فيه التوقيف. وإلا لزم ذلك فى السلف الأولين. وهو باطل. فاللازم عنه مثله. وبالجملة فهو أوضح من إطناب فيه.

وأما الرأى غير الجارى على موافقة العربية أو الجارى على الادلة الشرعية، فهذا هو الرأى المذموم من غير إشكال. كما كان مذموماً فى القياس أيضاً. لأنه تقول على الله بغير برهان. فيرجع إلى الكذب على الله تعالى. وفى هذا القسم جاء من التشديد فى القول

بالرأى فى القرآن ما جاء. كما روى عن ابن مسعود: ستجدون أقواماً يدعونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم. فعليكم بالعلم ... وإياكم التبدع. وإياكم والتنطع. وعليكم بالعتيق. وعن عمر بن الخطاب: إنما أخاف عليكم رجلين ؛ رجل يتأول القرآن على غير تأويله، ورجل ينافس الملك على أخيه. وعن عمر أيضا: ما أخاف على هذه الأمة من مؤمن ينهاه إيمانه. ولا من فاسق بين فسقه، ولكنى أخاف عليها رجلا قد قرأ القرآن حتى أذلقه بلسانه ثم تأوله على غير تأويله. والذى ذكر عن أبى بكر الصديق أنه سئل عن قوله: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ فقال: أى سماء تظلنى .. الحديث. وسأل رجل ابن عباس عن يوم كان مقداره خمسين ألف سنة؟ فقال له ابن عباس: فما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة؟ فقال الرجل: إنما سألتك لتحدثنى. فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله فى كتابه، الله أعلم بهما. نكره أن نقول فى كتاب الله ما لا نعلم. وعن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن شىء من القرآن قال: أنا لا أقول فى القرآن شيئا. وسأله رجل عن آية؟ فقال: لا تسألنى عن القرآن وسل عنه من يزعم أنه لا يخفى عليه شىء منه (يعنى عكرمة).

وكأن هذا الكلام مشعر بالإنكار على من يزعم ذلك.

وقال ابن سيرين: سألت عبيدة عن شىء من القرآن؟ فقال: اتق الله وعليك بالسداد فقد ذهب الذين يعلمون فيم أنزل القرآن.

وعن مسروق قال: اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله.

وعن إبراهيم قال: كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه.

وعن هشام بن عروة قال: ما سمعت أبى تأول آية من كتاب الله.

وإنما هذا كله توق وتحرز أن يقع الناظر فيه فى الرأى المذموم والقول فيه من غير تثبت.

وقد نقل عن الأصمعى، وجلالته فى معرفة كلام العرب معلومة: أنه لم يفسر قط آية من كتاب الله. وإذا سئل عن ذلك لم يجب. (انظر الحكاية عنه فى الكامل).

ثم قال الشاطبى: فالذى يستفاد من هذا الموضع أشياء. منها: التحفظ من القول فى كتاب الله تعالى إلا على بينة. فإن الناس، فى العلم بالأدوات المحتاج إليها فى التفسير،

على ثلاث طبقات.

إحداها: من بلغ فى ذلك مبلغ الراسخين كالصحابة والتابعين ومن يليهم. وهؤلاء قالوا مع التوقى والتحفظ والهيبة والخوف من الهجوم. فنحن أولى بذلك منهم إن ظننا بأنفسنا أنّا فى العلم والفهم مثلهم. وهيهات.

والثانية: من علم من نفسه أنه لم يبلغ مبالغهم ولا داناهم. فهذا طرف لا إشكال فى تحريم ذلك عليه.

والثالثة: من شك فى بلوغه مبلغ أهل الإجتهاد، أو ظن ذلك فى بعض علومه دون بعض. فهذا أيضا داخل تحت حكم المنع من القول فيه. لأن الأصل عدم العلم. فعندما يبقى له شك أو تردد فى الدخول مدخل العلماء الراسخين، فانسحاب الحكم الأول عليه باق بلا إشكال. وكل أحد فقيه نفسه فى هذا المجال. وربما تعدى بعض أصحاب هذه الطبقة طوره، فحسن ظنه بنفسه، ودخل فى الكلام فيه مع الراسخين. ومن هنا افترقت الفرق، وتباينت النحل، وظهر فى تفسير القرآن الخلل.

ومنها: أن من ترك النظر فى القرآن، واعتمد فى ذلك على من تقدمه، ووكل إليه النظر فيه، غير ملوم. وله فى ذلك سعة. إلا فيما لابد منه، وعلى حكم الضرورة. فإن النظر فيه يشبه النظر فى القياس. وما زال السلف الصالح يتحرجون من القياس فيما لا نص فيه. وكذلك وجدناهم فى القول فى القرآن. فإن المحظور فيهما واحد. وهو خوف التقول على الله. بل القول فى القرآن أشد. فإن القياس يرجع إلى نظر الناظر. والقول فى القرآن يرجع إلى أن الله أراد كذا أو عنى كذا، بكلامه المنزل. وهذا عظيم الخطر.

ومنها: أن يكون على بال من الناظر، والمفسر، والمتكلم عليه، أن ما يقوله تقصيد منه للمتكلم. والقرآن كلام الله. فهو يقول بلسان بيانه: هذا مراد الله من هذا الكلام. فليتثبت أن يسأله الله تعالى: من أين قلت عني هذا؟ فلا يصح له ذلك إلا ببيان الشواهد. وإلا، فمجرد الاحتمال يكفى بأن يقول: يحتمل أن يكون المعنى كذا وكذا. بناء أيضاً على صحة تلك الاحتمالات فى صلب العلم. وإلاّ، فالاحتمالات التى لا ترجع إلى أصل غير معتبرة. فعلى كل تقدير، لابد فى كل قول، يجزم به أو يحتمل، من شاهد يشهد لأصله.

وإلا كان باطلاً. ودخل صاحبه تحت أهل الرأى المذموم، والله أعلم»(١).

قال ابن عاشور في صحة التفسير بغير المأثور ومعنى التفسير بالرأي ونحوه:

«.... وأما الجواب عن الشبهة التى نشأت من الآثار المروية فى التحذير من تفسير القرآن بالرأى فمرجعه إلى أحد خمسة وجوه:

أولها: أن المراد بالرأى هو القول عن مجرد خاطر دون استناد إلى نظر فى أدلة العربية ومقاصد الشريعة وتصاريفها، وما لابد منه من معرفة الناسخ والمنسوخ وسبب النزول فهذا لا محالة إن أصاب فقد أخطأ فى تصوره بلا علم، لأنه لم يكن مضمون الصواب كقول المثل «رَمْيَةٌ مِن غير رَام» وهذا كمن فسر «الٓم»: إن الله أنزل جبريل على محمد بالقرآن فإنه لا مستند لذلك، وأما ما روى عن الصديق رضى الله عنه فيما تقدم فى تفسير الآية فذلك من الورع خشية الوقوع فى الخطأ فى كل ما لم يقم له فيه دليل أو فى مواضع لم تدع الحاجة إلى التفسير فيها، ألم تر أنه سئل عن «الكلالة» فى آية النساء فقال: أقول فيها برأى فإن كان صواباً فمن الله وإن كان خطأ فمنى ومن الشيطان الخ، وعلى هذا المحمل ما روى عن الشعبى وسعيد أي: أنهما تباعدا عما يوقع فى ذلك ولو على احتمال بعيد مبالغة فى الورع ودفعاً للاحتمال الضعيف، وإلا فإن الله تعالى ما تعبدنا فى مثل هذا إلا ببذل الوسع مع ظن الإصابة.

ثانيها: أن لا يتدبر القرآن حق تدبره فيفسره بما يخطر له من بادىء الرأى دون إحاطة بجوانب الآية ومواد التفسير مقتصرا على بعض الأدلة دون بعض، كأن يعتمد على ما يبدو من وجه فى العربية فقط، كمن يفسر قوله تعالى: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله﴾(٢) الآية على ظاهر معناها، يقول: إن الخير من الله والشر من فعل الإنسان بقطع النظر على الأدلة الشرعية التى تقتضى أن لا يقع إلا ما أراد الله غافلا عما سبق من قوله تعالى: ﴿قل كل من عندالله﴾(٣) أو بما يبدو من ظاهر اللغة دون استعمال العرب، كمن

١. محاسن التأويل ج ١ ص ١٦٤ ـ ١٦٧.

٢. سورة النساء: الآية ٧٨.

٣. هذا التمثيل للغزالي على أحد تفسيرين، والمثال يكفى فيه الفرض. وذكر الفخر فى تفسير قوله تعالى ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله﴾ أنه جرى على معنى التعليم للتأدب مع الخالق وقوله: «قل كل من عندالله» جرى مجرى بيان الحقيقة.

يقول فى قوله تعالى: ﴿وآتينا ثمود الناقة مبصرة﴾[1] فيفسر مبصرة بأنها ذات بصر لم تكن عمياء، فهذا من الرأى المذموم لفساده.

ثالثها: أن يكون له ميل إلى نزعة أو مذهب أو نحلة فيتأول القرآن على وفق رأيه ويصرفه عن المراد ويرغمه على تحمله ما لا يساعد عليه المعنى المتعارف، فيجر شهادة القرآن لتقرير رأيه ويمنعه عن فهم القرآن حق فهمه ما قيد عقله من التعصب، عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير مذهبه، حتى إن لمع له بارق حق وبدا له معنى يباين مذهبه حمل عليه شيطان التعصب حملة وقال كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقدك؟ كمن يعتقد من الاستواء على العرش التمكن والاستقرار، فإن خطر له أن معنى قوله تعالى: ﴿القدوس﴾[2] أنه المنزه عن كل صفات المحدثات حجبه تقليده عن أن يتقرر ذلك في نفسه، ولو تقرر لتوصل فهمه فيه إلى كشف معنى ثان أو ثالث، ولكنه يسارع إلى دفع ذلك عن خاطره لمناقضته مذهبه ...

رابعها: أن يفسر القرآن برأى مستند إلى ما يقتضيه اللفظ ثم يزعم أن ذلك هو المراد دون غيره لما فى ذلك من التضييق على المتأولين.

خامسها: أن يكون القصد من التحذير أخذ الحيطة فى التدبر والتأويل ونبذ التسرع الى ذلك، وهذا مقام تفاوت العلماء فيه واشتد الغلو فى الورع ببعضهم حتى كان لا يذكر تفسير شيء غير عازيه إلى غيره. وكان الأصمعى لا يفسر كلمة من العربية إذا كانت واقعة فى القرآن، ذكر ذلك فى المزهر فأبى أن يتكلم فى: أن سرى وأسرى بمعنى واحد، لأن أسرى ذكرت فى القرآن. ولا فى: أن عصفت الريح وأعصفت بمعنى واحد؛ لأنها فى القرآن، وقال: الذى سمعته فى معنى الخليل: أنه أصفى المودة وأصمها ولا أزيد فيه شيئا لأنه فى القرآن ـ اهـ

فهذا ضرب من الورع يعترى بعض الناس لخوف، وأنه قد يعترى كثيرا من أهل العلم والفضل، وربما تطرق إلى بعضهم فى بعض أنواع الأحوال دون بعض، فتجد من يعتريه ذلك فى العلم ولا يعتريه فى العقل، وقد تجد العكس، والحق أن الله ما كلفنا فى غير

---

١ ـ سورة الاسراء: الآية ٥٩.

٢ ـ سورة الحشر: الآية ٢٣ وسورة الجمعة: الآية ١.

أصول الاعتقاد بأكثر من حصول الظن المستند إلى الادلة والأدلة متنوعة على حسب أنواع المستند فيه. وأدلة فهم الكلام معروفة وقد بيناها.

أما الذين جمدوا على القول بأن تفسير القرآن يجب أن لا يعدو ما هو مأثور، فهم رموا هذه الكلمة على عواهنها ولم يضبطوا مرادهم من المأثور عمن يؤثر، فإن أرادوا به ما روى عن النبى ﷺ من تفسير بعض آيات إن كان مرويا بسند مقبول من صحيح أو حسن، فإذا التزموا هذا الظن بهم فقد ضيقوا سعة معانى القرآن وينابيع ما يستنبط من علومه، وناقضوا أنفسهم فيما دونوه من التفاسير، وغلطوا سلفهم فيما تأولوه، إذ لا ملجأ لهم من الاعتراف بأن أئمة المسلمين من الصحابة فمن بعدهم لم يقصروا أنفسهم على أن يرووا ما بلغهم من تفسير عن النبى ﷺ. وقد سأل عمر بن الخطاب أهل العلم عن معانى آيات كثيرة ولم يشترط عليهم أن يرووا له ما بلغهم فى تفسيرها عن النبى ﷺ، وإن أرادوا بالمأثور ما روى عن النبى وعن الصحابة خاصة وهو ما يظهر من صنيع السيوطى فى تفسيره الدر المنثور، لم يتسع ذلك المضيق إلا قليلا ولم يغن عن أهل التفسير فتيلا، لأن أكثر الصحابة لا يؤثر عنهم فى التفسير إلا شىء قليل سوى ما يروى عن على بن أبى طالب على ما فيه من صحيح وضعيف وموضوع، وقد ثبت عنه أنه قال: «ما عندى مما ليس فى كتاب الله شىء إلا فهماً يؤتيه الله». وما يروى عن ابن مسعود وعبدالله بن عمر وأنس وأبى هريرة. وأما ابن عباس فكان أكثر ما يروى عنه قولا برأيه على تفاوت بين رواته. وإن أرادوا بالمأثور ما كان مرويا قبل تدوين التفاسير. الأول مثل ما يروى عن أصحاب ابن عباس وأصحاب ابن مسعود، فقد أخذوا يفتحون الباب من شقه، ويقربون ما بعد من الشقة. إذ لا محيص لهم من الاعتراف بأن التابعين قالوا أقوالا فى معانى القرآن لم يسندوها ولا ادعوا أنها محذوفة الأسانيد، وقد اختلفت أقوالهم فى معانى آيات كثيرة اختلافاً ينبىء إنباء واضحا بأنهم إنما تأولوا تلك الآيات من أفهامهم كما يعلمه من له علم بأقوالهم، وهى ثابتة فى تفسير الطبرى ونظرائه، وقد التزم الطبرى فى تفسيره أن يقتصر على ما هو مروى عن الصحابة والتابعين، لكنه لا يلبث فى كل آية أن يتخطى ذلك إلى اختياره منها وترجيح بعضها على بعض بشواهد من كلام العرب، وحسبه بذلك تجاوزاً لما حدده من الاقتصار على التفسير

بالمأثور وذلك طريق ليس بنهج، وقد سبقه اليه. بَقِيُّ بنُ مَخْلَدَ ولم نقف على تفسيره، وشاكل الطبرى فيه معاصروه، مثل ابن حاتم وابن مردويه والحاكم، فلله در الذين لم يحبسوا أنفسهم فى تفسير القرآن على ما هو مأثور مثل الفراء وأبى عبيدة من الأولين، والزجاج والرمانى ممن بعدهم، ثم الذين سلكوا طريقهم مثل الزمخشرى وابن عطية.

وإذ قد تقصينا منارات التفسير بالرأى المذموم وبينا لكم الأشباه والأمثال، بما لا يبقى معه للاشتباه من مجال، فلا نجاوز هذا المقام ما لم ننبهكم إلى حال طائفة التزمت تفسير القرآن بما يوافق هواها، وصرفوا ألفاظ القرآن عن ظواهرها بما سموه الباطن، وزعموا أن القرآن إنما نزل متضمنا لكنايات ورموز عن أغراض، وأصل هؤلاء طائفة من غلاة الشيعة عرفوا عند أهل العلم بالباطنية فلقبوهم بالوصف الذى عرفوهم به، وهم يعرفون عند المؤرخين بالإسماعيلية؛ لأنهم ينسبون مذهبهم الى جعفر بن إسماعيل الصادق، ويعتقدون عصمته وإمامته بعد أبيه بالوصاية، ويرون أن لابد للمسلمين من إمام هدى من آل البيت هو الذى يقيم الدين، ويبين مراد الله ... وأنهم إن خصوها بالتأويل وصرف اللفظ إلى الباطن اتهمهم الناس بالتعصب والتحكم فرأوا صرف جميع القرآن عن ظاهره وبنوه على أن القرآن رموز لمعان خفية فى صورة ألفاظ تفيد معانى ظاهرة ليشتغل بها عامة المسلمين، وزعموا أن ذلك شأن الحكماء، فمذهبهم مبنى على قواعد الحكمة الإشراقية ومذهب التناسخ والحلولية فهو خليط من ذلك، ومن طقوس الديانات اليهودية والنصرانية وبعض طرائق الفلسفة ودين زرادشت. وعندهم أن الله يحل فى كل رسول وإمام وفى الأماكن المقدسة، وأنه يشبه الخلق ـ تعالى وتقدس ـ وكل علوى يحل فيه الإله. وتكلفوا لتفسير القرآن بما يساعد الأصول التي أسسوها . ولهم في التفسير تكلفات ثقيلة، منها قولهم: إن قوله تعالى: ﴿ وعلى الأعراف رجال ﴾ أن جبلا يقال له الأعراف هو مقر أهل المعارف الذين يعرفون كلا بسيماهم . وأن قوله تعالى: ﴿وإن منكم إلا واردها ﴾ أى لايصل أحد إلى الله إلا بعد جوازه على الآراء الفاسدة إما في أيام صباه ، أو بعد ذلك ، ثم ينجى الله من يشاء . وإن قوله تعالى: ﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى ﴾ أراد بفرعون القلب . وقد تصدى للرد عليهم الغزالى في كتابه الملقب بـ«المستظهرى» . وقال:

إذا قلنا بالباطن لا ضبط له بل تتعارض فيه الخواطر فيمكن تنزيل الآية على وجوه شتى اهـ. يعني والذي يتخذونه حجة لهم يمكن أن نقلبه عليهم وندعى أنه باطن القرآن؛ لأن المعنى الظاهر هو الذي لا يمكن اختلاف الناس فيه لاستناده للغة الموضوعة من قبل. وأما الباطن فلا يقوم فهم أحد فيه حجة على غيره اللهم إلا إذا زعموا أنه لا يُتلقى إلا من الإمام المعصوم، ولا أَخالُهم إلا قائلين ذلك.

ويؤيد هذا ما وقع في بعض قراطيسهم قالوا: «إنما يُنتقل إلى البدل مع عدم الأصل، والنظر بدل من الخبر؛ فإن كلام الله هو الأصل فهو خَلَق الإنسان وعلمه البيان والإمام هو خليفته ومع وجود الخليفة الذي يبين قوله فلا ينتقل إلى النظر اهـ. وبَيَّن ابن العربى في كتاب العواصم شيئاً من فضائح مذهبهم بما لا حاجة إلى التطويل به هنا.

فإن قلت: فما روى أن النبي ﷺ قال: «إن للقرآن ظَهْرا وبَطْنا وحَدًّا ومطّلعاً.

وعن ابن عباس أنه قال: «إن للقرآن ظهراً وبطنا».

قلت: لم يصح ما روي عن النبي ﷺ، بله المروى عن ابن عباس فمن هو المتصدى لروايته عنه؟ على أنهم ذكروا من بقية كلام ابن عباس أنه قال: «فظهره التلاوة وبطنه التأويل»، فقد أوضح مراده إن صح عنه بأن الظهر هو اللفظ والبطن هو المعنى.

أما ما يتكلم به أهل الإشارات من الصوفية فى بعض آيات القرآن من معان لا تجرى على ألفاظ القرآن ظاهرا ولكن بتأويل ونحوه فينبغى أن تعلموا: أنهم ما كانوا يدعون أن كلامهم فى ذلك تفسير للقرآن، بل يعنون أن الآية تصلح للتمثل بها فى الغرض المتكلم فيه، وحسبكم فى ذلك أنهم سموها إشارات ولم يسموها معانى، فبذلك فارق قولهم قول الباطنية. ولعلماء الحق فيها رأيان: فالغزالى يراها مقبولة، قال فى كتاب الإحياء: إذا قلنا فى قوله ﷺ: «لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة»، فهذا ظاهره أو إشارته أن القلب بيت وهو مهبط الملائكة ومستقر آثارهم، والصفات الرديئة كالغضب والشهوة والحسد والحقد والعجب كلاب نابحة فى القلب فلا تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب، ونور الله لا يقذفه فى القلب إلا بواسطة الملائكة، فقلب كهذا لا يقذف فيه النور. وقال: ولست أقول: إن المراد من الحديث بلفظ البيت القلب وبالكلب الصفة المذمومة

ولكن أقول هو تنبيه عليه، وفرق بين تغيير الظاهر وبين التنبيه على البواطن من ذكر الظواهر اهـ. فبهذه الدقيقة فارق نزعة الباطنية. ومثل هذا قريب من تفسير لفظ عام فى آية بخاص من جزئياته كما وقع فى كتاب المغازى من صحيح البخارى عن عمرو بن عطاء فى قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفرا﴾[1] قال هم كفار قريش، ومحمد نعمة الله، «وأحلوا قومهم دار البوار» قال: يوم بدر. وابن العربى فى كتاب العواصم يرى إبطال هذه الإشارات كلها، حتى أنه بعد أن ذكر نحلة الباطنية وذكر رسائل إخوان الصفاء أطلق القول فى إبطال أن يكون للقرآن باطن غير ظاهره، وحتى أنه بعد ما نوه بالثناء على الغزالى فى تصديه للرد على الباطنية والفلاسفة قال: «وقد كان أبو حامد بدراً فى ظلمة الليالى، وعقدا فى لبة المعالى، حتى أوغل فى التصوف، وأكثر معهم التصرف، فخرج عن الحقيقة، وحاد فى أكثر أقواله عن الطريقة اهـ».

وعندى أن هذه الإشارات لا تعدو واحدا من ثلاثة أنحاء:

الأول ما كان يجرى فيه معنى الآية مجرى التمثيل لحال شبيه بذلك المعنى كما يقولون مثلا: «ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه» أنه إشارة للقلوب؛ لأنها مواضع الخضوع لله تعالى إذ بها يعرف فتسجد له القلوب بفناء النفوس. ومنعها من ذكره هو الحيلولة بينها وبين المعارف اللدنية، وسعى فى خرابها بتكديرها بالتعصبات وغلبة الهوى، فهذا يشبه ضرب المثل لحال من لا يزكى نفسه بالمعرفة ويمنع قلبه أن تدخله صفات الكمال الناشئة عنها بحال مانع المساجد أن يذكر فيها اسم الله، وذكر الآية عند تلك الحالة كالنطق بلفظ المثل، ومن هذا قولهم فى حديث: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب» كما تقدم عن الغزالى.

الثانى: ما كان من نحو التفاؤل فقد يكون للكلمة معنى يسبق من صورتها إلى السمع هو غير معناها المراد، وذلك من باب انصراف ذهن السامع إلى ما هو المهم عنده والذى يجول فى خاطره وهذا كمن قال فى قوله تعالى: ﴿من ذا الذى يشفع﴾[2] من ذل ذى إشارة للنفس يصير من المقربين الشفعاء، فهذا يأخذ صدى موقع الكلام فى السمع

---

١. سورة إبراهيم: الآية ٢٨. ٢. سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

ويتأوله على ما شغل به قلبه. ورأيت الشيخ محيى الدين يسمى هذا النوع سماعا ولقد أبدع.

الثالث: عبر ومواعظ وشأن أهل النفوس اليقظى أن ينتفعوا من كل شيء ويأخذوا الحكمة حيث وجدوها فما ظنك بهم إذا قرأوا القرآن وتدبروه فاتعظوا بمواعظه، فإذا أخذوا من قوله تعالى: ﴿فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلا﴾[١] اقتبسوا أن القلب الذى لم يمتثل رسول المعارف العليا تكون عاقبته وبالا. ومن حكاياتهم فى غير باب التفسير: أن بعضهم مر برجل يقول لآخر: هذا العود لا ثمرة فيه فلم يعد صالحا إلا للنار، فجعل يبكى ويقول: إذن فالقلب غير المثمر لا يصلح إلا للنار.

فنسبة الإشارة إلى لفظ القرآن مجازية لأنها إنما تشير لمن استعدت عقولهم وتدبرهم فى حال من الأحوال الثلاثة ولا ينتفع بها غير أولئك، فلما كانت آيات القرآن قد أنارت تدبرهم وأثارت اعتبارهم نسبوا تلك الإشارة للآية. فليست تلك الإشارة هى حق الدلالة اللفظية والاستعمالية حتى تكون من لوازم اللفظ وتوابعه كما قد تبين. وكل إشارة خرجت عن حد هذه الثلاثة الأحوال إلى ما عداها فهى تقترب إلى قول الباطنية رويدا رويدا إلى أن تبلغ عين مقالاتهم وقد بصرناكم بالحد الفارق بينهما، فإذا رأيتم اختلاطه فحققوا مناطه، وفى أيديكم فيصل الحق فدونكم اختراطه.

وليس من الإشارة ما يعرف فى الأصول بدلالة الإشارة فحوى الخطاب، وفهم الاستغراق من لام التعريف فى المقام الخطابى، ودلالة التضمن والالتزام كما أخذ العلماء من تنبيهات القرآن استدلالا لمشروعية أشياء، كاستدلالهم على مشروعية الوكالة من قوله تعالى ﴿فابعثوا أحدكم بوَرِقِكم هذِهِ﴾[٢] ومشروعية الضمان من قوله: ﴿وأنَا به زَعيم﴾[٣]. ومشروعية القياس من قوله: ﴿لِتَحْكُمَ بين الناس بما أراكَ الله﴾[٤]، ولا بما هو بالمعنى المجازى نحو: ﴿يا جبال أوِّبى معه﴾[٥]، ﴿فقال لها وللأرض ائتيا

١. سورة المزّمل: الآية ١٦.
٢. سورة الكهف: الآية ١٩.
٣. سورة يوسف: الآية ٧٢.
٤. سورة النساء: الآية ١٠٥.
٥. سورة سبأ: الآية ١٠.

طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين﴾[١]، ولا ما هو من تنزيل الحال منزلة المقال نحو: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾[٢]، لأن جميع هذا مما قامت فيه الدلالة العرفية مقام الوضعية، واتحدت في إدراكه أفهام أهل العربية فكان من المدلولات التبعية.

قال في الكشاف: وكم من آية أنزلت في شأن الكافرين وفيها أوفر نصيب للمؤمنين تدبرا لها واعتبارا بموردها. يعني أنها في شأن الكافرين من دلالة العبارة وفي شأن المؤمنين من دلالة الإشارة.

هذا وإن واجب النصح في الدين والتنبيه إلى ما يغفل عنه المسلمون مما يحسبونه هينا وهو عندالله عظيم، قضى على أن أنبه إلى خطر أمر تفسير الكتاب والقول فيه دون مستند من نقل صحيح عن أساطين المفسرين، أو إبداء تفسير أو تأويل من قائله إذا كان القائل توفرت فيه شروط الضلاعة في العلوم التي سبق ذكرها في المقدمة الثانية.

فقد رأينا تهافت كثير من الناس على الخوض في تفسير آيات من القرآن فمنهم من يتصدى لبيان معنى الآيات على طريقة كتب التفسير ومنهم من يضع الآية ثم يركض في أساليب المقالات تاركا معنى الآية جانباً، جالبا من معاني الدعوة والموعظة ما كان جالبا، وقد دلت شواهد الحال على ضعف كفاية البعض لهذا العمل العلمي الجليل فيجب على العاقل أن يعرف قدره، وأن لا يتعدى طوره، وأن يرد الأشياء إلى أربابها، كي لا يختلط الخاثر بالزباد، ولا يكون في حالك سواد، وإن سكوت العلماء على ذلك زيادة في الورطة، وإفحاش لأهل هذه الغلطة، فمن يركب متن عمياء، ويخبط خبط عشواء، فحق على أساطين العلم تقويم اعوجاجه، وتمييز حلوه من أجاجه، تحذيراً للمطالع، وتنزيلا في البرج والطالع»[٣].

قال الطباطبائي (ره):

«في الصافي عن النبي ﷺ: من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار».

---

١. سورة فصلت: الآية ١١. ٢. سورة الاسراء: الآية ٤٤.

٣. التحرير والتنوير ج ١ ص ٣٠ ـ ٣٧.

أقول: وهذا المعنى رواه الفريقان، وفي معناه أحاديث اخر رووها عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام.

وفي منية المريد عن النبي ﷺ قال: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوّأ مقعده من النار».

أقول: ورواه أبو داود في سننه.

وفيه عنه ﷺ قال: «من قال في القرآن بغير علم جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار».

وفيه عنه ﷺ قال: «من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ».

أقول: ورواه أبو داود والترمذي والنسائي.

وفيه عنه ﷺ قال: «أكثر ما أخاف على امتي من بعدي رجل يناول القرآن يضعه على غير مواضعه».

وفي تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «من فسر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر وإن أخطأ فهو أبعد من السماء».

وفيه عن يعقوب بن يزيد عن ياسر عن الرضا عليه السلام قال: «الرأي في كتاب الله كفر».

أقول: وفي معناها روايات اخر مروية في العيون والخصال وتفسير العياشي وغيرها.

قوله ﷺ: «من فسر القرآن برأيه»: الرأي هو الاعتقاد عن اجتهاد وربما اطلق على القول عن الهوى والاستحسان، وكيف كان لما ورد قوله: «برأيه» مع الإضافة إلى الضمير علم منه أن ليس المراد به النهي عن الاجتهاد المطلق في تفسير القرآن، حتى يكون بالملازمة أمراً بالاتباع والاقتصار بما ورد من الروايات في تفسير الآيات عن النبي وأهل بيته صلى الله عليه وعليهم على ما يراه أهل الحديث، على أنه ينافي الآيات الكثيرة الدالة على كون القرآن عربياً مبيناً، والآمرة بالتدبر فيه، وكذا ينافي الروايات الكثيرة الآمرة بالرجوع إلى القرآن وعرض الأخبار عليه.

بل الإضافة في قوله: برأيه تفيد معنى الاختصاص والانفراد والاستقلال بأن يستقل المفسر في تفسير القرآن بما عنده من الأسباب في فهم الكلام العربي، فيقيس كلامه

تعالى بكلام الناس فإن قطعة من الكلام من أي متكلم إذا ورد علينا لم نلبث دون أن نعمل فيه القواعد المعمولة في كشف المراد الكلامي ونحكم بذلك: أنه أراد كذا كما نجري عليه في الأقارير والشهادات وغيرهما، كل ذلك لكون بياننا مبنياً على ما نعلمه من اللغة ونعهده من مصاديق الكلمات حقيقة ومجازاً.

والبيان القرآني غير جار هذا المجرى على ما تقدم بيانه في الأبحاث السابقة، بل هو كلام موصول بعضه ببعض في عين أنه مفصول ينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض كما قاله علي عليه السلام، فلا يكفي بما يتحصل من آية واحدة باعمال القواعد المقررة في العلوم المربوطة في انكشاف المعنى المراد منها دون أن يتعاهد جميع الآيات المناسبة لها ويجتهد في التدبر، فيها كما يظهر من قوله تعالى: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**﴾[1]، وقد مر بيانه في الكلام على الإيجاز وغيره.

فالتفسير بالرأى المنهي عنه أمر راجع الى طريق الكشف دون المكشوف وبعبارة اخرى إنما نهى عليه السلام عن تفهم كلامه على نحو ما يتفهم به كلام غيره، وإن كان هذا النحو من التفهم ربما صادف الواقع، والدليل على ذلك قوله صلى الله عليه وآله في الرواية الاخرى: «من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»، فإن الحكم بالخطأ مع فرض الإصابة ليس إلا لكون الخطأ في الطريق، وكذا قوله عليه السلام في حديث العياشي: «إن أصاب لم يؤجر».

ويؤيده ما كان عليه الأمر في زمن النبي صلى الله عليه وآله فإن القرآن لم يكن مؤلفاً بعد ولم يكن منه إلا سور أو آيات متفرقة في أيدي الناس فكان في تفسير كل قطعة قطعة منه خطر الوقوع في خلاف المراد.

والمحصل: أن المنهي عنه إنما هو الاستقلال في تفسير القرآن واعتماد المفسر على نفسه من غير رجوع إلى غيره، ولازمه وجوب الاستمداد من الغير بالرجوع اليه، وهذا الغير لا محالة إما هو الكتاب أو السنة، وكونه هو السنة ينافي القرآن ونفس السنة الآمرة بالرجوع اليه وعرض الأخبار عليه، فلا يبقى للرجوع اليه والاستمداد منه في تفسير

---

١. سورة النساء: الآية ٨٢.

القرآن إلا نفس القرآن.

ومن هنا يظهر حال ما فسروا به حديث التفسير بالرأى فقد تشتتوا في معناه على أقوال:

احدها: أن المراد به التفسير من غير حصول العلوم التي يجوز معها التفسير، وهي خمسة عشر علماً على ما أنهاه السيوطي في الإتقان: اللغة، والنحو، والتصريف، والاشتقاق، والمعاني، والبيان، والبديع، والقراءة، واصول الدين، واصول الفقه، وأسباب النزول وكذا القصص، والناسخ والمنسوخ، والفقه، والأحاديث المبينة لتفسير المجملات والمبهمات، وعلم الموهبة، ويعني بالأخير ما أشار اليه الحديث النبوي: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم».

الثاني: أن المراد به تفسير المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله.

الثالث: التفسير المقرر للمذهب الفاسد بأن يجعل المذهب أصلاً والتفسير تبعاً فيرد إليه بأي طريق أمكن وإن كان ضعيفاً.

الرابع: التفسير بأن مراد الله تعالى كذا على القطع من غير دليل.

الخامس: التفسير بالاستحسان والهوى: وهذه الوجوه الخمسة نقلها ابن النقيب على ما ذكره السيوطي في الإتقان، وهنا وجوه اخر نتبعها بها.

السادس: أن المراد به هو القول في مشكل القرآن بما لا يعرف من مذاهب الأوائل من الصحابة والتابعين، ففيه تعرض لسخط الله تعالى.

السابع: القول في القرآن بما يعلم أن الحق غيره، نقلهما ابن الأنباري.

الثامن: أن المراد به القول في القرآن بغير علم وتثبت، سواء علم أن الحق خلافه أم لا.

التاسع: هو الأخذ بظاهر القرآن بناءً على أنه لا ظهور له بل يتبع في مورد الآية النص الوارد عن المعصوم، وليس ذلك تفسيراً للآية بل اتباعاً للنص، ويكون التفسير على هذا من الشئون الموقوفة على المعصوم.

العاشر: أنه الأخذ بظاهر القرآن بناءً على أن له ظهوراً لانفهمه بل المتبع في تفسير الآية هو النص عن المعصوم.

فهذه وجوه عشرة، وربما أمكن إرجاع بعضها الى بعض، وكيف كان فهي وجوه خالية عن الدليل، على أن بعضها ظاهر البطلان أو يظهر بطلانه بما تقدم في المباحث السابقة، فلا نطيل بالتكرار.

وبالجملة فالمتحصل من الروايات والآيات التي يؤيدها كقوله تعالى: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن**﴾[١] الآية، وقوله تعالى:﴿**الذين جعلوا القرآن عضين**﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿**إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة**﴾ الآية[٣]، وقوله تعالى: ﴿**يحرّفون الكلم عن مواضعه**﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم**﴾[٥]، الى غير ذلك أن النهي في الروايات إنما هو متوجه إلى الطريق وهو أن يسلك في تفسير كلامه تعالى الطريق المسلوك في تفسير كلام غيره من المخلوقين.

وليس اختلاف كلامه تعالى مع كلام غيره في نحو استعمال الألفاظ وسرد الجمل وإعمال الصناعات اللفظية؛ فإنما هو كلام عربي روعي فيه جميع ما يراعى في كلام عربي وقد قال تعالى: ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم**﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿**وهذا لسان عربي مبين**﴾[٧]، وقال تعالى: ﴿**إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون**﴾[٨].

وإنما الاختلاف من جهة المراد والمصداق الذي ينطبق عليه مفهوم الكلام.

توضيح ذلك: أنا من جهة تعلق وجودنا بالطبيعة الجسمانية وقطوننا المعجل في الدنيا المادية ألفنا من كل معنى مصداقه المادي، واعتدنا بالأجسام والجسمانيات، فإذا سمعنا كلام واحد من الناس الذين هم أمثالنا يحكي عن حال أمر من الامور وفهمنا منه معناه حملناه على ما هو المعهود عندنا من المصداق والنظام الحاكم فيه؛ لعلمنا بأنه لا يعني إلا ذلك لكونه مثلنا لا يشعر إلا بذلك، وعند ذلك يعود النظام الحاكم في المصداق يحكم في المفهوم فربما خصص به العام أو عمم به الخاص أو تصرف في

---

١. سورة النساء: الآية ٨٢.
٢. سورة الحجر: الآية ٩١.
٣. سورة فصّلت: الآية ٤٠.
٤. سورة النساء: الآية ٤٦. وسورة المائدة: الآية ١٣.
٥. سورة الإسراء: الآية ٣٦.
٦. سورة ابراهيم: الآية ٤.
٧. سورة النحل: الآية ١٠٣.
٨. سورة الزخرف: الآية ٣.

المفهوم بأي تصرف آخر؛ وهو الذي نسميه بتصرف القرائن العقلية غير اللفظية.

مثال ذلك: أنا إذا سمعنا عزيزاً من أعزتنا ذا سؤدد وثروة يقول: وإن من شيء إلا عندنا خزائنه، وتعقلنا مفهوم الكلام ومعاني مفرداته حكمنا في مرحلة التطبيق على المصداق: أن له أبنية محصورة حصينة تسع شيئاً كثيراً من المظروفات، فإن الخزانة هكذا تتخذ إذا اتخذت، وأن له فيها مقداراً وفراً من الذهب والفضة والورق والأثاث والزينة والسلاح، فإن هذه الامور هي التي يمكن أن تخزن عندنا وتحفظ حفظاً، وأما الأرض والسماء والبر والبحر والكوكب والإنسان فهي وإن كانت أشياء لكنها لا تخزن ولا تتراكم، ولذلك نحكم بأن المراد من الشيء بعض من أفراده غير المحصورة، وكذا من الخزائن قليل من كثير فقد عاد النظام الموجود في المصداق وهو أن كثيراً من الأشياء لا يخزن، وأن ما يختزن منها إنما يختزن في بناء حصين مأمون عن الغيلة والغارة أوجب تقييداً عجيباً في إطلاق مفهوم الشيء والخزائن.

ثم إذا سمعنا الله تعالى ينزل على رسوله قوله: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾[1]، فإن لم ترق أذهاننا عن مستواها الساذج الأولي فسرنا كلامه بعين ما فسرنا به كلام الواحد من الناس مع أنه لا دليل لنا على ذلك البتة فهو تفسير بما نراه من غير علم.

وإن رقت أذهاننا عن ذلك قليلاً، وأذعنا بأنه تعالى لا يخزن المال وخاصة إذا سمعناه تعالى يقول في ذيل الآية: ﴿وما نُنزّله إلا بقدر معلوم﴾[2]، ويقول أيضاً: ﴿وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها﴾[3]، حكمنا بأن المراد بالشيء الرزق من الخبز والماء، وأن المراد بنزوله نزول المطر؛ لأنا لا نشعر بشيء ينزل من السماء غير المطر، فاختزان كل شيء عندالله ثم نزوله بالقدر كناية عن اختزان المطر ونزوله لتهيئة المواد الغذائية. وهذا أيضاً تفسير بما نراه من غير علم إذ لا مستند له إلا أنا لا نعلم شيئاً ينزل من السماء غير المطر، والذي بأيدينا هيهنا عدم العلم دون العلم بالعدم.

وإن تعالينا عن هذا المستوى أيضاً واجتنبنا ما فيه من القول في القرآن بغير علم

---

١. سورة الحجر: الآية ٢١.
٢. سورة الحجر: الآية ٢١.
٣. سورة الجاثية: الآية ٥.

وأبقينا الكلام على إطلاق التام، وحكمنا أن قوله: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾ يبين أمر الخلقة غير أنا لما كنا لا نشك في أن ما نجده من الأشياء المتجددة بالخلقة كالانسان والحيوان والنبات وغيرها لا تنزل من السماء، وإنما تحدث حدوثاً في الأرض حكمنا بأن قوله: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾، كناية عن مطاوعة الأشياء في وجودها لأرادة الله تعالى، وأن الإرادة بمنزلة مخزن يختزن فيه جميع الأشياء المخلوقة وإنما يخرج منه وينزل من عنده تعالى ما تتعلق به مشيئته تعالى، وهذا أيضاً كما ترى تفسير للآية بما نراه من غير علم، إذ لا مستند لنا فيه سوى أنا نجد الأشياء غير نازلة من عندالله بالمعنى الذي نعهده من النزول، ولا علم لنا بغيره.

وإذا تأملت ما وصفه الله تعالى في كتابه من أسماء ذاته وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله والقيامة وما يتعلق بها، وحكم أحكامه وملاكاتها، وتأملت ما نرومه في تفسيرها من إعمال القرائن العقلية، وجدت أن ذلك كله من قبيل التفسير بالرأي من غير علم، وتحريف لكلمه عن مواضعها.

وقد تقدم في الفصل الخامس من البحث في المحكم والمتشابه: أن البيانات القرآنية بالنسبة الى المعارف الإلهية كالأمثال أو هي أمثال بالنسبة الى ممثلاتها. وقد فرقت في الآيات المتفرقة، وبينت ببيانات مختلفة ليتبين ببعض الآيات ما يمكن أن يختفي معناه في بعض، ولذلك كان بعضها شاهداً على البعض، والآية مفسرة للآية، ولولا ذلك لاختل أمر المعارف الإلهية في حقائقها، ولم يمكن التخلص في تفسير الآية من القول بغير علم على ما تقدم بيانه.

ومن هنا يظهر: أن التفسير بالرأي كما بيناه لا يخلو عن القول بغير علم كما يشير الحديث النبوي السابق: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار».

ومن هنا يظهر أيضاً: أن ذلك يؤدي الى ظهور التنافي بين الآيات القرآنية من حيث إبطاله الترتيب المعنوي الموجود في مضامينها فيؤدي الى وقوع الآية في غير موقعها، ووضع الكلمة في غير موضعها، ويلزمها تأويل بعض القرآن أو أكثر آياتها بصرفها عن ظاهرها كما يتأول المجبرة آيات الاختيار، والمفوضة آيات القدر، وغالب المذاهب في

الإسلام لا يخلو عن التأول في الآيات القرآنية وهي الآيات التي لا يوافق ظاهرها مذهبهم، فيتشبثون في ذلك بذيل التأويل استناداً الى القرينة العقلية، وهو قولهم: إن الظاهر الفلاني قد ثبت خلافه عند العقل فيجب صرف الكلام عنه.

وبالجملة يؤدي ذلك الى اختلاط الآيات بعضها ببعض ببطلان ترتيبها، ودفع مقاصد بعضها ببعض، ويبطل بذلك المرادان جميعاً إذ لا اختلاف في القرآن فظهور الاختلاف بين الآيات ـ بعضها مع بعض ـ ليس الا لاختلال الأمر واختلاط المراد فيهما معاً.

وهذا هو الذي ورد التعبير عنه في الروايات بضرب بعض القرآن ببعض كما في الروايات التالية:

في الكافي وتفسير العياشي عن الصادق عن أبيه عليهما السلام قال: «ما ضرب رجل من القرآن بعضه ببعض إلا كفر».

وفي المعاني والمحاسن مسنداً وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام: «ما ضرب رجل من القرآن بعضه ببعض إلا كفر».

قال الصدوق سألت ابن الوليد عن معنى هذا الحديث فقال: هو أن تجيب الرجل في تفسير آية بتفسير آية اخرى.

أقول: ما أجاب به لا يخلو عن إيهام، فإن أراد به الخلط المذكور وما هو المعمول عند الباحثين في مناظراتهم من معارضة الآية بالآية وتأويل البعض بالتمسك بالبعض فحق، وإن أراد به تفسير الآية بالآية والاستشهاد بالبعض للبعض فخطأ، والروايتان التاليتان تدفعانه.

وفي تفسير النعماني بإسناده الى إسمعيل بن جابر قال: سمعت أبا عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام يقول: «إن الله تبارك وتعالى بعث محمداً فختم به الأنبياء فلا نبي بعده، وأنزل عليه كتاباً فختم به الكتب فلا كتاب بعده، أحل فيه حلالاً وحرم حراماً، فحلاله حلال الى يوم القيامة، وحرامه حرام الى يوم القيامة، فيه شرعكم وخبر من قبلكم وبعدكم، وجعله النبي صلى الله عليه وآله علماً باقياً في أوصيائه، فتركهم الناس وهم الشهداء على أهل كل زمان، وعدلوا عنهم ثم قتلوهم، واتبعوا غيرهم ثم أخلصوا لهم الطاعة

حتى عاندوا من أظهر ولاية ولاة الأمر وطلب علومهم، قال الله سبحانه: ﴿ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم﴾[١]، وذلك أنهم ضربوا بعض القرآن ببعض، واحتجوا بالمنسوخ وهم يظنون أنه الناسخ، واحتجوا بالمتشابه وهم يرون أنه المحكم، واحتجوا بالخاص وهم يقدرون أنه العام، واحتجوا بأول الآية وتركوا السبب في تأويلها، ولم ينظروا الى ما يفتح الكلام وإلى ما يختمه، ولم يعرفوا موارده ومصادره إذ لم يأخذوه عن أهله فضلوا وأضلوا».

واعلموا رحمكم الله: أنه من لم يعرف من كتاب الله عز وجل الناسخ من المنسوخ والخاص من العام، والمحكم من المتشابه، والرخص من العزائم، والمكي والمدني وأسباب التنزيل، والمبهم من القرآن في ألفاظه المنقطعة والمؤلفة، وما فيه من علم القضاء والقدر، والتقديم والتأخير، والمبين والعميق، والظاهر والباطن، والابتداء والانتهاء، والسؤال والجواب، والقطع والوصل، والمستثنى منه والجار فيه، والصفة لما قبل مما يدل على ما بعد، والمؤكد منه والمفصل، وعزائمه ورخصه، ومواضع فرائضه وأحكامه، ومعنى حلاله وحرامه الذي هلك فيه الملحدون، والموصول من الألفاظ، والمحمول على ما قبله وعلى ما بعده فليس بعالم بالقرآن ولا هو من أهله.

ومتى ما ادعى معرفة هذه الأقسام مدع بغير دليل فهو كاذب مرتاب مفتر على الله الكذب ورسوله ومأواه جهنم وبئس المصير.

وفي نهج البلاغة والاحتجاج قال عليه السلام: «ترد على أحدهم القضية في حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلاف قوله، ثم تجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي استقضاهم فيصوب آراءهم جميعاً وإلههم واحد، ونبيهم واحد، وكتابهم واحد، فأمرهم الله سبحانه بالاختلاف فاطاعوه؟ أم نهاهم عنه فعصوه؟ أم أنزل الله ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه؟ أم كانوا شركاء فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى؟ أم أنزل الله ديناً تاماً فقصر الرسول صلى الله عليه وآله عن تبليغه وأدائه؟، والله سبحانه يقول: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾[٢] «وفيه تبيان كل شيء»، وذكر أن

---

١. سورة المائدة: الآية ١٣.
٢. سورة الانعام: الآية ٣٨.

الكتاب يصدق بعضه بعضاً، وأنه لا اختلاف فيه فقال سبحانه: « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » ، وإن القرآن ظاهره أنيق، وباطنه عميق لا تحصى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تكشف الظلمات إلا به » .

أقول: والرواية كما ترى ناصة على أن كل نظر ديني يجب أن ينتهي الى القرآن، وقوله: فيه تبيان، نقل للآية بالمعنى.

وفي الدر المنثور: وأخرج ابن سعد وابن الضريس في فضائله وابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ خرج على قوم يتراجعون في القرآن وهو مغضب فقال: «بهذا ضلت الامم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم، وضرب الكتاب بعضه ببعض » . قال: « وإن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً ولكن نزل يصدق بعضه بعضاً، فما عرفتم فاعملوا به، وما تشابه عليكم فآمنوا به» .

وفيه أيضاً: وأخرج أحمد من وجه آخر عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: سمع رسول الله ﷺ قوماً يتدارأون فقال: « إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وانما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا وما جهلتم فكلوه الى عالمه » .

أقول: والروايات كما ترى تعدّ ضرب القرآن بعضه ببعض مقابلاً لتصديق بعض القرآن بعضاً، وهو الخلط بين الآيات من حيث مقامات معانيها، والإخلال بترتيب مقاصدها كأخذ المحكم متشابهاً والمتشابه محكماً ونحو ذلك.

فالتكلم في القرآن بالرأي، والقول في القرآن بغير علم كما هو موضوع الروايات المنقولة سابقاً، وضرب القرآن بعضه ببعضه كما هو مضمون الروايات المنقولة آنفاً، يحوم الجميع حول معنى واحد وهو الاستمداد في تفسير القرآن بغيره.

فان قلت: لا ريب أن القرآن إنما نزل ليعقله الناس ويفهموه كما قال تعالى: ﴿أنزلنا عليك الكتاب للناس﴾[1] ، وقال تعالى: ﴿هذا بيان للناس﴾[2] ، الى غير ذلك من الآيات؛ ولا ريب أن مبينه هو الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس

١. سورة الزمر: الآية ٤١. ٢. سورة آل عمران: الآية ١٣٨.

ما نزل اليهم﴾(١)، وقد بينه للصحابة، ثم أخذ عنهم التابعون فما نقلوه عنه ﷺ الينا فهو بيان نبوي لا يجوز التجافي والإغماض عنه بنص القرآن، وما تكلموا فيه من غير إسناده إلى النبي ﷺ فهو وإن لم يجر مجرى النبويات في حجيتها لكن القلب اليه أسكن، فإن ما ذكروه في تفسير الآيات إما مسموع من النبي ﷺ أو شيء هداهم اليه الذوق المكتسب من بيانه وتعليمه ﷺ؛ وكذا ما ذكره تلامذتهم من التابعين ومن يتلوهم، وكيف تخفى عليهم معاني القرآن مع تعرقهم في العربية، وسعيهم في تلقيها من مصدر الرسالة، واجتهادهم البالغ في فقه الدين على ما يقصه التاريخ من مساعي رجال الدين في صدر الإسلام؟.

ومن هنا يظهر: أن العدول عن طريقتهم وسنتهم، والخروج من جماعتهم، وتفسير آية من الآيات بما لا يوجد بين أقوالهم وآرائهم بدعة؛ والسكوت عما سكتوا عنه واجب.

وفي ما نقل عنهم كفاية لمن أراد فهم كتاب الله تعالى، فانه يبلغ زهاء الوف من الروايات، وقد ذكر السيوطي: أنه أنهاه الى سبعة عشر ألف رواية عن النبي وعن الصحابة والتابعين.

قلت: قد مر فيما تقدم: أن الآيات التي تدعو الناس عامة من كافر أو مؤمن ممن شاهد عصر النزول أو غاب عنه الى تعقل القرآن وتأمله والتدبر فيه، وخاصة قوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾(٢)، تدل دلالة واضحة على أن المعارف القرآنية يمكن أن ينالها الباحث بالتدبر والبحث، ويرتفع به ما يترائى من الاختلاف بين الآيات، والآية في مقام التحدي، ولا معنى لإرجاع فهم معاني الآيات ـ والمقام هذا المقام ـ الى فهم الصحابة وتلامذتهم من التابعين حتى الى بيان النبي ﷺ، فإن ما بينه إما أن يكون معنى يوافق ظاهر الكلام فهو مما يؤدي اليه اللفظ ولو بعد التدبر والتأمل والبحث، وإما أن يكون معنى لا يوافق الظاهر ولا أن الكلام يؤدي اليه فهو مما لا يلائم التحدي ولا تتم به الحجة وهو ظاهر.

نعم تفاصيل الأحكام مما لا سبيل الى تلقيه من غير بيان النبي ﷺ كما أرجعها

---

١. سورة النحل: الآية ٤٤.
٢. سورة النساء: الآية ٨٢.

القرآن اليه في قوله تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾[١]، وما في معناه من الآيات، وكذا تفاصيل القصص والمعاد مثلاً.

ومن هنا يظهر: أن شأن النبي ﷺ في هذا المقام هو التعليم فحسب، والتعليم إنما هو هداية المعلم الخبير ذهن المتعلم وإرشاده الى ما يصعب عليه العلم به والحصول عليه، لا ما يمتنع فهمه من غير تعليم، فإنما التعليم تسهيل للطريق وتقريب للمقصد، لا ايجاد للطريق وخلق للمقصد، والمعلم في تعليمه إنما يروم ترتيب المطالب العلمية ونضدها على نحو يستسهله ذهن المتعلم ويأنس به، فلا يقع في جهد الترتيب وكدّ التنظيم فيتلف العمر وموهبة القوة أو يشرف على الغلط في المعرفة.

وهذا هو الذي يدل عليه أمثال قوله تعالى: ﴿وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم الآية﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾[٣]، فالنبي ﷺ إنما يعلم الناس ويبين لهم ما يدل عليه القرآن بنفسه، ويبينه الله سبحانه بكلامه، ويمكن للناس الحصول عليه بالآخرة؛ لأنه ﷺ يبين لهم معاني لا طريق الى فهمها من كلام الله تعالى فإن ذلك لا ينطبق البتة على مثل قوله تعالى: ﴿كتاب فصّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وهذا لسان عربي مبين﴾[٥].

على أن الأخبار المتواترة عنه ﷺ المتضمنة لوصيته بالتمسك بالقرآن والأخذ به وعرض الروايات المنقولة عنه ﷺ على كتاب الله، لا يستقيم معناها إلا مع كون جميع ما نقل عن النبي ﷺ مما يمكن استفادته من الكتاب، ولو توقف ذلك على بيان النبي ﷺ كان من الدور الباطل وهو ظاهر.

على أن ما ورد به النقل من كلام الصحابة مع قطع النظر عن طرقه لا يخلو عن الاختلاف فيما بين الصحابة أنفسهم، بل عن الاختلاف فيما نقل عن الواحد منهم على ما لا يخفى على المتتبع المتأمل في أخبارهم، والقول بأن الواجب حينئذ أن يختاروا

---

١. سورة الحشر: الآية ٧.
٢. سورة النحل: الآية ٤٤.
٣. سورة الجمعة: الآية ٢.
٤. سورة حم السجدة: الآية ٣.
٥. سورة النحل: الآية ١٠٣.

أحد الأقوال المختلفة المنقولة عنهم في الآية، ويجتنب عن خرق إجماعهم، والخروج عن جماعتهم مردود بأنهم أنفسهم لم يسلكوا هذا الطريق، ولم يستلزموا هذا المنهج ولم يبالوا بالخلاف فيما بينهم، فكيف يجب على غيرهم أن يقفوا على ما قالوا به ولم يختصوا بحجية قولهم على غيرهم، ولا بتحريم الخلاف على غيرهم دونهم؟.

على أن هذا الطريق وهو الاقتصار على ما نقل من مفسري صدر الإسلام من الصحابة والتابعين في معاني الآيات القرآنية يوجب توقف العلم في سيره، وبطلان البحث في أثره كما هو مشهود في ما بأيدينا من كلمات الأوائل والكتب المؤلفة في التفسير في القرون الاولى من الإسلام، ولم ينقل منهم في التفسير إلا معان ساذجة بسيطة خالية عن تعمق البحث وتدقيق النظر، فأين ما يشير اليه قوله تعالى: **﴿ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾**[1]، من دقائق المعارف في القرآن؟.

وأما استبعاد أن تختفي عليهم معاني القرآن مع ما هم عليه من الفهم والجد والاجتهاد فيبطله نفس الخلاف الواقع بينهم في معاني كثير من الآيات، والتناقض الواقع في الكلمات المنقولة عنهم، إذ لا يتصور اختلاف ولا تناقض إلا مع فرض خفاء الحق واختلاط طريقه بغيره.

فالحق أن الطريق الى فهم القرآن الكريم غير مسدود، وإن البيان الإلهي والذكر الحكيم بنفسه هو الطريق الهادي الى نفسه، أي انه لا يحتاج في تبيين مقاصده الى طريق، فكيف يتصور أن يكون الكتاب الذي عرفه الله تعالى بأنه هدى وأنه نور وأنه تبيان لكل شيء مفتقراً الى هاد غيره ومستنيراً بنور غيره ومبيناً بأمر غيره؟.

فإن قلت: قد صح عن النبي ﷺ أنه قال في آخر خطبة خطبها: «إني تارك فيكم الثقلين؛ الثقل الأكبر والثقل الأصغر. فأما الأكبر فكتاب ربي، وأما الأصغر فعترتي أهل بيتي فاحفظوني فيهما فلن تضلوا ما تمسكتم بهما». رواه الفريقان بطرق متواترة عن جم غفير من أصحاب رسول الله ﷺ عنه، أنهى علماء الحديث عدتهم إلى خمسة وثلاثين صحابياً؛ وفي بعض الطرق: «لن يفترقا حتى يردا على الحوض»، والحديث دال على

---

١. سورة النحل: الآية ٨٩.

حجية قول أهل البيت عليهم السلام في القرآن ووجوب اتباع ما ورد عنهم في تفسيره، والاقتصار على ذلك وإلا لزم التفرقة بينهم وبينه.

قلت: ما ذكرناه في معنى اتباع بيان النبي صلى الله عليه وآله وسلم آنفاً جار هيهنا بعينه، والحديث غير مسوق لإبطال حجية ظاهر القرآن وقصر الحجية على ظاهر بيان أهل البيت عليهم السلام. كيف وهو صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «لن يفترقا»، فيجعل الحجية لهما معاً، فللقرآن الدلالة على معانيه والكشف عن المعارف الإلهية، ولأهل البيت الدلالة على الطريق وهداية الناس الى أغراضه ومقاصده.

على أن نظير ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في دعوة الناس الى الأخذ بالقرآن والتدبر فيه وعرض ما نقل عنه عليه وارد عن أهل البيت عليهم السلام.

على أن جماً غفيراً من الروايات التفسيرية الواردة عنهم عليهم السلام مشتملة على الاستدلال بآية على آية، والاستشهاد بمعنى على معنى، ولا يستقيم ذلك إلا بكون المعنى مما يمكن أن يناله المخاطب ويستقل به ذهنه لوروده من طريقه المتعين له.

على أن هيهنا روايات عنهم عليهم السلام تدل على ذلك بالمطابقة، كما رواه في المحاسن باسناده عن أبي لبيد البحراني عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال: « فمن زعم أن كتاب الله مبهم هلك وأهلك » . ويقرب منه ما فيه وفي الاحتجاج عنه عليه السلام قال: « اذا حدثتكم بشيء فاسألوني عنه من كتاب الله » الحديث.

وبما مر من البيان يجمع بين أمثال هذه الأحاديث الدالة على إمكان نيل المعارف القرآنية منه وعدم احتجابها من العقول وبين ما ظاهره خلافه، كما في تفسير العياشي عن جابر قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: « إن للقرآن بطناً وللبطن ظهراً » ، ثم قال: « يا جابر وليس شيء أبعد من عقول الرجال منه، إن الآية لتنزل أولها في شيء وأوسطها في شيء وآخرها في شيء، وهو كلام متصل ينصرف على وجوه » ، وهذا المعنى وارد في عدة روايات. وقد رويت الجملة أعني قوله: وليس شيء أبعد «إلخ» في بعضها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقد روي عن علي عليه السلام: « أن القرآن حمال ذو وجوه » الحديث، فالذي ندب اليه تفسيره من طريقه والذي نهى عنه تفسيره من غير طريقه، وقد تبين أن المتعين في

التفسير الاستمداد بالقرآن على فهمه وتفسير الآية بالآية وذلك بالتدرب بالآثار المنقولة عن النبي وأهل بيته صلى الله عليه وعليهم، وتهيئة ذوق مكتسب منها ثم الورود، والله الهادي»[١].

قال الشيرازي في خطر التفسير بالرأي[٢]:

«أخطر طريقة في تفسير القرآن هي أن يأتي المفسر إلى كتاب الله العزيز معلماً، لا تلميذاً.

أي يأتي إليه ليفرض أفكاره على القرآن، وليعرض أحكامه الناتجة عن البيئة والتخصص العلمي، والإتجاه المذهبي الخاص، والذوق الشخصي، باسم القرآن، ويشكل تفسير للقرآن، مثل هذا الشخص لا يتخذ القرآن هادياً وإماماً، بل يتخذه وسيلة لطرح كلامه وتبرير ذوقه وأفكاره.

هذا اللون من تفسير القرآن ـ أو قل تفسير الأفكار الشخصية بالقرآن ـ راج بين جماعة، وليس وراءه إلا الإنحراف .. الإنحراف عن طريق الله ... والإنزلاق في متاهات الضلال.

هذا ليس بتفسير وإنما هو قسر وفرض وتحميل .. ليس باستفتاء وإنما إفتاء ... ليس بهداية وإنما هو الضلال ... إنه مسخ وتفسير بالرأي».

قال الصادقي: «فالتفسير بين حق وباطل، تفسير بالقرآن وتفسير بالرأي «ومن فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» «اخطأ أو اصاب كان مصيره الى النار» ولا يعني التفسير بالرأي إلا ان تحمل معك رأياً لك او لغيرك من قولة او رواية غير ثابتة، ثم تحمله على آية لا تتحمله، او لا توافقه او تخالفه، وليس الكثير من اختلافات المفسرين في تفسير الآيات إلا لتفرقهم ايادي سبأ عن تفسيره بنفسه، او عدم المؤهلات لمن حاول تفسيره بنفسه، فان له شروطاً جمة»[٣].

قال المدرسي في القرآن والتفسير بالرأي:

«يزعم فريق من المسلمين أن التدبر في القرآن، غير مسموح به إلا للذي أوتي نصيباً

---

١. الميزان ج ٣ ص ٧٥ ـ ٨٧. ٢. الامثل ج ١ ص ٩.

٣. الفرقان ج ١ ص ١٩.

كبيراً من العلم، ويستندون ـ في زعمهم هذا ـ الى بعض الروايات المأثورة التي نهت الناس عن تفسير القرآن بالرأي.

ولكن هذا الزعم غير منطقي أبداً. إذ أن الله كان أعلم بكتابه، وبخلقه حيث أمرهم بالتدبر في آيات القرآن. بل حيث خاطب بالقرآن كل انسان وفي كل أرض وفي كل عصر.

يقول الله سبحانه في كتابه:

﴿هذا بيان للناس * وهدىً وموعظة للمتقين﴾ (١).

وهل يمكن أن يبعث الله بياناً للناس جميعاً، ثم ينهاهم عن التفهم له، أو التدبر فيه، إذاً فما فائدة البيان؟

ان خطابات القرآن ـ تهتف بالناس كافة وتقول: يا أيها الناس ـ أو بالمؤمنين جميعاً. وتقول: يا أيها الذين آمنوا، وهذا يعني أن الله يريدهم أن يسمعوا كلامه. ويتفهموه. فهل نستطيع أن نزعم أنه لا يجوز التدبر فيه؟

ولا يمكن أن نقول: ان الروايات تنهى عن التدبر الذي أمر به الله. بل الأكثر منطقية القول بأن الروايات نهت عن شيء، والآية أمرت بشيء آخر، أو أن الروايات بينت حدود التدبر التي لا يجوز التجاوز عنها.

فأي شيء نهت عنه الروايات؟.

الواقع أن على الانسان أن يتبع الحق الذي يعرفه ويدع الذي لا يعرفه، إن الله سبحانه يقول:

﴿ولا تقف ما ليس لك به علم * إنَّ السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا﴾ (٢).

وكذلك لا يجوز على الانسان ـ في شريعة الاسلام ـ ان يقول شيئاً لا يعلم به. قال الله سبحانه:

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٣٨.

٢. سورة الإسراء: الآية ٣٦.

﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾[1].

وقد اعتبر القرآن القول بغير علم كبيرة يعظمها الله ويستحقرها العباد، فقال تعالى:

﴿وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عندالله عظيم﴾[2].

ومن هنا لا يجوز أن ننسب فكرة أو عملاً لأحد، ما لم نتأكد يقيناً انتسابهما إليه. كذلك لا يجوز تفسير كلام أي فرد إلا بعد التأكد من إرادته فعلا لما نفسره، وإلا اعتبر ذلك نوعاً من التحريف في كلامه وضرباً من التهمة.

وتشتد خطورة الأمر بالنسبة الى الله العظيم، فأي قول ينسب إليه يجب أن نتأكد بالعلم اليقين أنه قاله، والا كنا قد أفترينا على الله كذباً.

﴿إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾[3].

وكذلك اي تفسير لكلام الله المجيد لا نعلم يقيناً مطابقته للواقع يعد نوعاً من الافتراء على الله؛ لأنه يعتبر ضرباً من نسبة القول اليه دون التأكد من ذلك.

وكان في الأمة الاسلامية ـ ولم يزل ـ فريق يريدون أن يستغلوا الدين لمصالحهم الشخصية ـ أو يستخدموه لأثبات اهوائهم المضلة ـ وهكذا يبدأون بتفسير الآيات القرآنية حسب آرائهم الخاصة. إن هؤلاء يريدون أن يجعلوا كتاب الله تابعاً لأفكارهم فيحملونها ما لا تحتمل.

وقد أراد الاسلام ـ تطويق هذا الفريق، فجاء في الكتاب:

﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات وأُخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ـ وابتغاء تأويله. وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم. يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أُولوا الألباب﴾[4].

هكذا وضح القرآن نوايا هذا الفريق الفاسدة ونهى ـ بشكل قاطع ـ عن تأويل القرآن للوصول الى الأغراض الفاسدة.

وجاءت الروايات تنهى عما نهت عنه الآية ايضاً. ولكن بتعبير آخر؛ وهو (التفسير

---

١. سورة البقرة: الآية ١٦٩.
٢. سورة النور: الآية ١٥.
٣. سورة النحل: الآية ١١٦.
٤. سورة آل عمران: الآية ٧.

بالرأي) والذي يعني القول حسب الهوى الشخصي. وهو يقابل التفسير وفق الحق والواقع. بالرغم من ان القول بالرأي ـ بصفة عامة أو تفسير أي كلام منسوب الى احد حسب الرأي ـ هو الآخر محرم، فان كل ذلك بالنسبة الى كلام الله، الحكيم يعتبر اشد حرمة، لذلك خصت الروايات هذا الأمر بالذكر، وهو غير خارج عن القواعد العامة.

وإليك بعض تلك الروايات.

عن الامام الصادق عليه السلام: «من فسر القرآن برأيه إن أصاب لم يُؤجر، وإن اخطأ فهو أبعد من السماء»(١).

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله: «من فسر القرآن برأيه فأصاب الحق فقد اخطأ»(٢).

وروي عنه ايضاً أنه قال: «من فسر القرآن برأيه بَوَّأ مقعده من النار».

إذًا فهناك حقيقة لا ريب فيها هي أن القول بالرأي ـ خصوصاً في تفسير القرآن الحكيم ـ حرام أشد ما تكون الحرمة.

ولكن لا يرتبط ذلك بالتدبر في القرآن، إذ التدبر ـ هو التفكير المركز في الآية لمعرفة الحقيقة التي تذكر بها معرفة تعيينية.

فالتدبر ـ إنما هو لتحصيل العلم بالقرآن، حتى لا يقول الانسان برأيه في تفسير القرآن وإنما بالعلم»(٣).

---

١. تفسير الصافي ـ ج ١ ص ٢١.
٢. المصدر.
٣. من هدى القرآن ج ١ ص ٣٤ ـ ٣٧.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

أقسام التفسير

قال المحققان : «يقسم التفسير إلى تقسيمات متعددة باعتبارات معينة :

١ ـ فباعتبار العناية باللفظ والمعنى يقسم إلى نوعين :لفظي ، ومعنويّ .

٢ ـ وباعتبار معرفة الناس له يقسم إلى أربعة أقسام :

ـ وجه تعرفه العرب من كلامها ،

ـ وتفسير لا يعذر أحد بجهالته .

ـ وتفسير يعلمه العلماء ،

ـ وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى .

٣ ـ وباعتبار مذاهبه ينقسم إلى :

ـ تفسير بالمأثور ،

ـ وتفسير بالرأي ،

٤ ـ ومن حيث جوازه وعدم جوازه ينقسم إلى قسمين :

ـ جائز ،

ـ وغير جائز وهو ما كان بالهوى ويحمل الآيات أكثر مما تتحمل»[١] .

---

١. مقدمة تفسير النسائي ج ١ ص ٨.

ـ أقسام التفسير باعتبار العناية باللفظ والمعنى

قال رشيد رضا: «التفسير له وجوه شتى، أحدها: النظر في أساليب الكتاب ومعانيه، وما اشتمل عليه من أنواع البلاغة ليعرف به علو الكلام وامتيازه على غيره من القول. سلك هذا المسلك الزمخشري. وقد ألم بشيء من المقاصد الأخرى، ونحا نحوه آخرون.

ثانيها: الإعراب، وقد اعتنى بهذا أقوام توسعوا في بيان وجوهه وما تحتمله الالفاظ منها.

ثالثها: تتبع القصص وقد سلك هذا المسلك أقوام زادوا في قصص القرآن ما شاءوا من كتب التاريخ والاسرائيليات. ولم يعتمدوا على التوراة والانجيل والكتب المعتمدة عند أهل الكتاب وغيرهم، بل أخذوا جميع ما سمعوه عنهم من غير تفريق بين غث وسمين، ولا تنقيح لما يخالف الشرع ولا يطابق العقل.

رابعها: غريب القرآن.

خامسها: الأحكام الشرعية من عبادات ومعاملات والاستنباط منها. وقد جمع بعضهم آيات الأحكام وفسروها وحدها. ومن أشهرهم أبوبكر ابن العربي، وكل من يغلب عليهم الفقه من المفسرين يعنون بتفسير آيات أحكام العبادات والمعاملات أكثر من عنايتهم بسائر الآيات.

سادسها: الكلام في أصول العقائد ومقارعة الزائغين و محاجة المختلفين. وللامام الرازي العناية الكبرى بهذا النوع.

سابعها: المواعظ والرقائق. وقد مزجها الذين ولعوا بها بحكايات المتصوفة والعبّاد، وخرجوا ببعض ذلك عن حدود الفضائل والآداب التى وضعها القرآن.

ثامنها: مايسمونه بالإشارة. وقد اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية. ومن ذلك التفسير الذي ينسبونه للشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى، وإنما هو للقاشاني الباطني الشهير، وفيه من النزعات مايتبرأ منه دين الله وكتابه العزيز ...

فعلم مما ذكرنا أن التفسير قسمان:

أحدهما: جاف مبعد عن الله وعن كتابه، وهو مايقصد به حل الألفاظ وإعراب

الجمل، وبيان ماترمي إليه تلك العبارات والإشارات من النكت الفنية وهذالاينبغي أن يسمى تفسيراً، وإنما هو ضرب من التمرين في الفنون كالنحو والمعاني وغيرهما.

وثانيهما: وهو التفسير الذي قلنا: إنه يجب على الناس على أنه فرض كفاية وهو الذي يستجمع تلك الشروط لأجل أن تستعمل لغايتها، وهو ذهاب المفسر إلى فهم المراد من القول، وحكمة التشريع في العقائد والأحكام على الوجه الذي يجذب الأرواح، ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة في الكلام ليتحقق فيه معنى قوله: «هدى ورحمة»، ونحوهما من الأوصاف. فالمقصد الحقيقي وراء كل تلك الشروط والفنون: هو الاهتداء بالقرآن»(١).

قال عبد القادر: «هذا واعلم أن كلام السادة الصوفية في القرآن لايعد تفسيراً لغيرهم؛ لأنه عبارة عن اشارات خفية إلى دقائق تنكشف لهم في خوارق أحوالهم وهي حجاب لغيرهم، بل يحرم عليهم القول بها لعدم معرفتهم المراد منها، لأن لهم كلمات استعملوها لايعرفها إلا من هو منهم أو واقف على تفسيرها، كالمبين في عوارف المعارف للسهروردي وما يماثله من كتبهم، كما أن تفسير بعض المفسرين الذين همهم البلاغة ووجوه الإعراب بما يحتاج إلى تفسير دقيق حجاب لغيرهم أيضاً لعدم وقوفهم على مرادهم منه»(٢).

قال المحققان في إنقسام التفسير من حيث موضوعه:

« ثم إن التفسير من حيث موضوعه « وهو الآيات القرآنية » ينقسم إلى قسمين: الأول يتعلّق بلفظ القرآن الكريم، وهو التفسير اللفظي، والثاني يتعلّق بمعاني القرآن الكريم، وهو التفسير الذي يكشف عن معاني الآيات الكريمة.

والقسم الأوّل « وهو التفسير اللفظي » يعتمد على علم الألفاظ الغريبة، ومعرفة مفردات اللغة وعلى علم التصريف والإعراب، وعلم القراءات المتواترة والمشهورة والشاذّة.

والقسم الثاني « وهو تفسير المعاني » يعتمد على علمي البيان والمعاني، كما هو

---

١. تفسير القرآن الكريم (المنار) ج ١ ص ١٧ ـ ٢٥.
٢. بيان المعاني ج ١ ص ١٦.

معلوم في علم البلاغة ، وعلى علم أصول الدين ، كما هو معلوم في علم العقيدة ، وعلى علم الفقه وأصوله ، كما معلوم في علم الاستنباط والاجتهاد[١]».

أقسام التفسير باعتبار معرفة الناس

قال الطبري في الوجوه التي من قبلها يوصل إلى معرفة تأويل القرآن :

« قال أبو جعفر : قد قلنا في الدلالة على أن القرآن كله عربي ، وأنه نزل بألسن بعض العرب دون ألسن جميعها ، وأن قراءة المسلمين اليوم ـ ومصاحفهم التي هي بين أظهرهم ـ ببعض الألسن التي نزل بها القرآن دون جميعها . وقلنا ـ في البيان عمّا يحويه القرآن من النور والبرهان ، والحكمة والتبيان ، التي أودعها الله إياه : من أمره ونهيه ، وحلاله وحرامه ، ووعده ووعيده، ومحكمه ومتشابهه ، ولطائف حكمه ـ ما فيه الكفاية لمن وفق لفهمه.

ونحن قائلون في البيان عن وجوه مطالب تأويله :

قال الله جل ذكره وتقدست أسماؤه ، لنبيه محمد ﷺ: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٢]، وقال أيضاً جل ذكره: ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[٣]، وقال: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ، وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾[٤].

فقد تبين ببيان الله جل ذكره :

أن مما أنزل الله من القرآن على نبيه ﷺ ، ما لا يوصل إلى علم تأويله إلا ببيان الرسول ﷺ .وذلك تأويل جميع ما فيه : من وجوه أمره ـ واجبه وندبه وإرشاده ـ ، وصنوف نهيه ، ووظائف حقوقه وحدوده ، ومبالغ فرائضه ، ومقادير اللازم بعض خلقه لبعض، وما أشبه ذلك من أحكام آيه ، التي لم يدرك علمها إلا ببيان رسول الله ﷺ لأمته . وهذا وجه

---

١. مقدمه معالم التنزيل للبغوي ج ١ ص ٩ ـ ١٠ .
٢. سورة النحل : الآية ٤٤ .
٣. سورة النحل : الآية ٦٤ .
٤. سورة آل عمران : الآية ٧ .

لا يجوز لأحد القول فيه، إلا ببيان رسول الله ﷺ له تأويله، بنصٍ منه عليه، أو بدلالة قد نصبها، دالةٍ أمته على تأويله.

وأنّ منه مالا يعلم تأويله إلا الله الواحد القهار. وذلك مافيه من الخبر عن آجال حادثة، وأوقات آتية، كوقت قيام الساعة، والنفخ في الصور، ونزول عيسى بن مريم، وما أشبه ذلك: فإن تلك أوقات لا يعلم أحد حدودها، ولا يعرف أحد من تأويلها إلا الخبر بأشراطها، لاستئثار الله بعلم ذلك على خلقه. وبذلك أنزل ربنا محكم كتابه، فقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاها، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي، لايُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إلاَّ هُوَ، ثَقُلَتْ فِي السَّمواتِ وَالأَرْضِ لاتَأْتِيكُمْ إلاَّ بَغْتَةً ،يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ،قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ الله وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لايَعْلَمُونَ﴾ (١). وكان نبينا محمد ﷺ إذا ذكر شيئاً من ذلك، لم يدل عليه إلا بأشراطه دون تحديده بوقته، كالذي روي عنه ﷺ أنه قال لاصحابه، إذ ذكر الدجال: «إن يخرج وأنا فيكم، فأنا حجيجه، وإن يخرج بعدي، فالله خليفتي عليكم»، وما أشبه ذلك من الأخبار ـ التي يطول باستيعابها الكتاب ـ الدالة على أنه ﷺ لم يكن عنده علم أوقات شيء منه بمقادير السنين والأيام، وأن الله جل ثناؤه إنما كان عرفه مجيئه بأشراطه، ووقته بأدلته.

وأنَّ منه ما يعلم تأويله كل ذي علم باللسان الذي نزل به القرآن. وذلك: إقامة إعرابه، ومعرفة المسميات بأسمائها اللازمة غير المشترك فيها، والموصوفات بصفاتها الخاصة دون ماسواها، فإن ذلك لا يجهله أحد منهم. وذلك كسامع منهم لو سمع تالياً يتلو: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَتُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ ، أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ المُفْسِدُونَ وَلٰكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ (٢) لم يجهل أن معنى الإفساد هو ما ينبغي تركه مما هو مضرة، وأن الإصلاح هو ماينبغي فعله مما فعله منفعة، وإن جهل المعاني التي جعلها الله إفسادا، والمعاني التي جعلها الله إصلاحاً، فالذي يعلمه ذو اللسان ـ الذي بلسانه نزل القرآن ـ من تأويل القرآن، هو ما وصفت: من معرفة أعيان المسميات بأسمائها اللازمة غير المشترك فيها، والموصوفات بصفاتها الخاصة، دون الواجب من أحكامها وصفاتها وهيآتها التي

---

١. سورة الاعراف: الآية ١٨٧. ٢. سورة البقرة: الآية ١١ ـ ١٢.

خص الله بعلمها نبيه ﷺ، فلايدرك علمه إلا ببيانه، دون ما استأثر الله بعلمه دون خلقه.

وبمثل ما قلنا من ذلك روي الخبر عن ابن عباس:

١ - حدثنا محمدبن بشار، قال: حدثنا مؤمل، قال: حدثنا سفيان، عن أبي الزناد، قال: قال ابن عباس: التفسير على أربعة أوجهٍ: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لايعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لايعلمه إلا الله تعالى ذكره.

قال أبو جعفر: وهذا الوجه الرابع الذي ذكره ابن عباس: من أنَّ أحداً لايعذر بجهالته، معنى غير الإبانة عن وجوه مطالب تأويله. وإنما هو خبر عن أن من تأويله مالايجوز لاحد الجهل به. وقد روي بنحو ما قلنا في ذلك أيضاً عن رسول الله ﷺ خبر في إسناده نظر.

٢ - حدثني يونس بن عبد الأعلى الصدفي، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: سمعت عمروبن الحارث يحدث، عن الكلبي، عن أبي صالح، مولى أم هانيء، عن عبدالله بن عباس: أنّ رسول الله ﷺ قال: «أنزل القرآن على أربعة أحرفٍ: حلال وحرام لايعذر أحد بالجهالة به، وتفسير تفسره العرب، وتفسير تفسره العلماء، ومتشابهٌ لايعلمه إلا الله تعالى ذكره، ومن ادعى علمه سوى الله تعالى ذكره فهو كاذب»[1].

قال الماوردي: «فإذا صح جواز الاجتهاد في إستخراج معاني القرآن من فحوى ألفاظه، وشواهد خطابه، فقد قسم عبدالله بن عباس رضي الله عنه وجوه التفسير على أربعة أقسام: فروى سفيان، عن أبي الزناد[2]، قال ابن عباس: «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب بكلامها، وتفسير لايعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لايعلمه إلا الله عزوجل» وهذا صحيح.

أما الذي تعرفه العرب بكلامها، فهوحقائق اللغة وموضوع كلامهم.

وأما الذي لايعذر أحد بجهالته، فهومايلزم الكافة في القرآن من الشرائع وجملة دلائل التوحيد.

---

١. جامع البيان ج ١ ص ٥٦ - ٥٧.

٢. هو عبدالله بن ذكوان ولد في حياة ابن عباس. قال أبو حاتم: ثقة، فقيه، محدث صاحب سنة وهو ممن تقوم به الحجة إذا روى عن الثقات. ١ هـ. توفي سنة ثلاثين ومئة ... أنظر: تاريخ الاسلام ج ٥ ص ٢٦٥، التاريخ الكبير ج ٥ ص ٨٣، الجرح والتعديل ج ٥ ص ٤٩ تهذيب الكمال ص ٦٧٩.

وأما الذي يعلمه العلماء، فهو وجوه تأويل المتشابه وفروع الأحكام.

وأما الذي لايعلمه إلا الله عزوجل، فهو مايجري مجرى الغيوب وقيام الساعة.

وهذا التقسيم الذي ذكره ابن عباس صحيح، غير أن مالايعذر أحد بجهالته داخل في جملة مايعلمه العلماء من الرجوع إليهم في تأويله، وإنما يختلف القسمان في فرض العلم به، فما لايعذر أحد بجهله يكون فرض العلم به على الأعيان، وما يختص بالعلماء يكون فرض العلم به على الكفاية، فصار التفسير منقسماً على ثلاثة أقسام:

أحدها: مااختص الله تعالى بعلمه، كالغيوب فلا مساغ للإجتهاد في تفسيره ولايجوز أن يؤخذ [إلا] عن توقيف، من أحد ثلاثة أوجه:

إما من نص في سياق التنزيل.

وإما عن بيانٍ من جهة الرسول.

وإما عن إجماع الأمة على مااتفقوا عليه من تأويل.

فإن لم يرد فيه توقيف، علمنا أن الله تعالى أراد لمصلحةٍ استأثر بها، ألا يطلع عباده على غيبه.

والقسم الثاني: مايرجع فيه إلى لسان العرب، وذلك شيئان، اللغة والإعراب:

فأما اللغة، فيكون العلم بها في حق المفسر دون القارىء، فإن كان مما [لا] يوجب العمل، جاز أن يعمل فيه على خبر الواحد والإثنين، وأن يستشهد فيه من الشعر بالبيت والبيتين، وإن كان مما يوجب العمل، لم يعمل فيه على خبر الواحد والإثنين، ولا يستشهد فيه بالبيت والبيتين، حتى يكون نقله مستفيضاً. وشواهد الشعر فيه متناصرة.

وقد روى أبو حاضر [1]، عن ابن عباس: أن رجلاً سأل النبي ﷺ، أي علم القرآن أفضل؟ قال: غَرِيبُهُ، فالتَمِسُوهُ في الشِّعْرِ [2]. وإنما خص الغريب لاختصاصه بإعجاز القرآن،

---

١. هو عثمان بن حاضر الحميري ويقال الأزدي، أبو حاضر. قال الحاكم :شيخ من أهل اليمن صدوق، وذكره ابن حبان في الثقات، روى عن ابن عباس، ابن الزبير، ابن عمر، جابر، أنس وغيرهم. وروى عنه عمرو بن ميمون، زمعة بن صالح، وزياد بن سعد وغيرهم أنظر: تهذيب التهذيب ج ٧ ص ١٠٩، الكنى والأسماء للدولابي ج ١ ص ٢٥.

٢. لم أهتد إلى تخريجه.

وأحال على الشعر لأنه ديوان كلامهم، وشواهد معانيهم، وقد قال ابن عباس: «إذا أشكل عليكم الشيء من كتاب الله، فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب.

وأما الإعراب، فإن كان اختلافه موجباً لاختلاف حكمه وتغيير تأويله، لزم العلم به في حق المفسر وحق القارىء، ليتوصل المفسر إلى معرفة حكمه، ويسلم القارىء من لحنه، وروي عن النبيﷺ، أنه قال: «أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه»[١].

وإن كان اختلاف إعرابه لايوجب اختلاف حكمه، ولايقتضي تغيير تأويله، كان العلم بإعرابه لازماً في حق القارىء ليسلم من اللحن في تلاوته، ولم يلزم في حق المفسر لوصوله مع الجهل بإعرابه إلى معرفة حكمه، وإن كان الجهل بإعراب القرآن نقصاً عاماً.

والقسم الثالث: مايرجع فيه إلى اجتهاد العلماء، وهو تأويل المتشابه، واستنباط الأحكام، وبيان المجمل، وتخصيص العموم، والمجتهدون من علماء الشرع أخص بتفسيره من غيرهم حملاً لمعاني الألفاظ على الأصول الشرعية، حتى لايتنافى الجمع بين معانيها وأصول الشرع، فيعتبر فيه حال اللفظ ....»[٢].

قال المحققان أنواع التفسير وأقسامه:

«روى الإمام الطبري في مقدمة تفسيره ج ١ ص ٧٥ عن عبدالله بن عباس أنه قال: «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لايعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لايعلمه إلا الله تعالى» وبتقسيم ابن عباس رضي الله عنهما هذا... وجد العلماء المتسع لتحديد معالم منهج تفسير القرآن الكريم وأقسامه.

فأمّا الذي تعرفه العرب: فهو الذي يرجع فيه إلى لسانهم، وذلك في شأن اللغة العربية وعلومها، من علم الإعراب والنحو والتصريف، والبيان والغريب وغير ذلك.. فما كان من التفسير راجعاً إلى هذا القسم، فسبيل المفسر التوقّف فيه على ماورد في لسان

---

١. رواه الحاكم في المستدرك ج ٢ ص ٢٩٣ وأحمد بن منيع كما في المطالب العالية ج ٣ ص ٢٩٨ وأبو يعلى وابن أبي شيبة كما نقله صاحب التعليق على المطالب ج ٣ ص ٢٩٨ والبيهقي في شعب الايمان. كما نقله الخطيب التبريزي في المشكاة ج ١ ص ٦٦٦ من حديث أبي هريرة. وقال البوصيري مداره على عبدالله بن سعيد وهو ضعيف. وكذا ضعفه الهيثمي في المجمع ج ٧ ص ١٦٣. والألباني في المشكاة ج ١ ص ٦٦٦.

٢. النكت والعيون ج ١ ص ٣٦ـ٣٨.

العرب ـ على المنهج المبين في أحسن طرق التفسير ـ ومن ليس من أهل العلم بحقائق اللغة العربية ودقائقها، فليس له أن يقحم نفسه في تفسيره...

وأما مالا عذر لأحد بجهله: فهو ماتتبادر الأفهام إلى معرفته، وإدراك مضمونه، من غير عناء في الفهم ولا مشقّة في البحث، وهذا في آيات: الأمر والنهي، والحلال والحرام، وآيات العقيدة والتوحيد، قال الإمام الزركشي: «فهذا القسم لايختلف حكمه ولا يلتبس تأويله، إذ كل أحدٍ يدرك معنى التوحيد من قوله تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَاإِلٰهَ إِلاَّ اللهُ ﴾ (١)، وأنّه لاشريك له في ألوهيّته ... ويعلم كل أحدٍ بالضرورة أن مقتضى قوله تعالى: ﴿ وأقيمُوا الصَّلاةَ وَآتَوا الزَّكاةَ وأطيعُوا اللهَ ورسولَهُ ﴾ (٢)، ونحوها ... » مالا عناء في فهمه ولا إشكال في إدراكه.

وأما مايعلمه العلماء: فذاك في أمور الاجتهاد والاستنباط، والكشف والبيان عن معاني القرآن الكريم، قال العلامة الزركشي: «وكل لفظ ـ في الآيات ـ احتمل معنيين فصاعداً فهو الذي لايجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه، وعلى العلماء إعمال الشواهد والدلائل، وليس لهم أن يعتمدوا مجرّد رأيهم فيه».

وأمّا الذي لايعلمه إلاّ الله تبارك وتعالى: فإنه لايجوز لأحد الخوض فيه، وهو مايجري مجرى علم الغيب، كالآيات التي تضمنت علم الساعة والآخرة، والأمور الغيبية كالجنة والنار، والملائكة والجان، وكذلك الآيات المتشابهات، التي لا سبيل إلى إدراك معانيها إلا بنص عن الله عزّ وجلّ أو عن رسوله عليه الصلاة والسلام (٣)».

قال صديق حسن خان: «ثم إن تفسير القرآن ثلاثة أقسام:

الأول: ما لم يطلع الله عليه أحداً من خلقه، وهو ما استأثر به من علوم أسرار كتابه من معرفة كنه ذاته ومعرفة حقائق أسمائه وصفاته، وهذا لايجوز لأحد الكلام فيه.

والثاني: ما أطلع الله سبحانه نبيه عليه من أسرار الكتاب واختصه به فلا يجوز الكلام فيه إلا له ﷺ أو لمن أذن له، قيل: وأوائل السور من هذا القسم، وقيل من الأول وهو الراجح.

---

١. سورة محمد: الآية ١٩.
٢. سورة التوبة: الآية ٧١.
٣. مقدمة معالم التنزيل للبغوي ج ١ ص ٩.

والثالث: علوم علمها الله نبيه وأمره بتعليمها، وهذا ينقسم إلى قسمين: منه مالايجوز الكلام فيه إلا بطريق السمع، كأسباب النزول والناسخ والمنسوخ واللغات والقراءات وقصص الأمم وإخبار ماهو كائن، ومنه ما يؤخذ بطريق النظر والاستنباط من الألفاظ، وهو قسمان: قسم اختلفوا في جوازه، وهو تأويل الآيات المتشابهات، وقسم اتفقوا عليه، وهو استنباط الأحكام الأصلية والفرعية والاعرابية، وكذلك فنون البلاغة وضروب المواعظ والحكم والاشارات لايمتنع استنباطها منه لمن له أهلية ذلك، وما عدا هذه الأمور هو التفسير بالرأي الذي نهى عنه، وفيه خمسة أنواع:

الأول: التفسير من غير حصول العلوم التي يجوز معها التفسير، والثاني: تفسير المتشابه الذي لايعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، والثالث: التفسير المقرر للمذهب الفاسد بأن يجعل المذهب أصلاً والتفسير تابعاً له فيرد إليه بأي طريق أمكن وإن كان ضعيفاً، الرابع: التفسير بأن مراد الله سبحانه كذا على القطع من غير دليل، الخامس: التفسير بالاستحسان والهوى والتقليد [١].

- اقسام التفسير باعتبار مذاهبه

قال الجنابذي (ره): وللاشارة الى تفسير التّنزيل والتّأويل ورد انّ تفسير القرآن لايجوز الاّ بالنصّ الصّريح والاثر الصحيح، يعنى ان معرفة التّنزيل من القرآن محتاجة الى بيان من نزل القرآن في بيوتهم، ومعرفة تأويله محتاجة الى ان يدرك الانسان انموذجات المصاديق الرّوحانية في وجوده، الّتى هي آثار المصاديق والرّوحانيّة، او المقصود انّ بيان التّنزيل والتّأويل لايجوز الاّ بواحد منهما او بكليهما، يعنى لايجوز التّفسير الاّ بالقاء السّمع والتّقليد المحض، او بالتحقق بوجدان الآثار في القلب وباعتبار المصاديق الطبيعيّة والرّوحانيّة وانموذجاتها في وجود الانسان.

ورد عن الصادق عليه السلام: «انّ كتاب الله على اربعة اشياء: العبارة والاشارة واللّطائف والحقائق، فالعبارة للعوام، والاشارة للخواصّ، واللّطائف، للاولياء عليهم السلام، والحقائق للانبياء عليهم السلام». فالعبارة: عبارة عن العبارات والنّقوش الدّالّة على المفاهيم العرفيّة

١. فتح البيان ج ١ ص ١٧ـ١٨.

الصّادقة على المصاديق الحسيّة الطبيعيّة، وهذه المرتبة للعوامّ الّذين لايتجاوز ادراكهم عن المحسوسات، بمعنى انّ العوام محصور ادراكهم على هذه المرتبة أو هذه المرتبة بشرط عدم انضمام الاشارات اليها مختصّة بهم، والا فصاحبوا المراتب الاخر يشاركونهم في ادراك هذه المرتبة ويمتازون عنهم بادراك المراتب الاخر، والاشارة: عبارة عن دلالة المصاديق الحسيّة واشاراتها الى المصاديق الرّوحانيّة واللّطائف الحاصلة في وجود المدرك، ولايدرك هذه المرتبة من القرآن الاّ الخواص الذين توجّهوا الى الآخرة واشتغلوا بأنفسهم فتذكّروا النّشأة الاخرى من النّشأة الاولى، وموجودات العالم الصّغير من العالم الكبير، واللّطائف: عبارة عن الرّقائق الّتى يجدها الانسان في وجوده من انموذجات مصاديق العالم الكبير، وهذه المرتبة لاولياء الله الذين كان لهم قلب من حيث ولايتهم، والحقائق: عبارة عن مصاديق القرآن تماماً، وهذه المرتبة لمن تحقّق بها او شاهدها وعاينها وهم الانبياء من حيث نبوّتهم او الاولياءعليهم السلام من حيث خلافتهم للانبياءعليهم السلام، فانّ الوليّ من حيث ولايته لاتوجّه له الى الكثرات حتّى يتحقّق بهاويشاهدها وامّا من حيث خلافته فله شأن النبي في التوجه الى الكثرات والتحقّق بها ومشاهدتها، وكلّ من له المرتبة العليا فله المرتبة الدّانية دون العكس، فصاحب الحقائق كان صاحب اللّطائف والاشارات والعبارات اوّلاً، ثمّ صار صاحب الحقائق ثانياً، فقوله تعالى: ﴿ اطيعوا الرسول ﴾ لفظ الرّسول صلى الله عليه وآله ونقشه المكتوب الدّالآن، على انسان مخصوص مرسل من الله عبارته، والرّسول الهاشمى الّذي هو المنزل فيه وكلّ من كان مثله تنزيله وظهره، وهذا الرّسول المنزل فيه ظهر ظهره والتّنزيل منحصر فيه بوجه، ومن كان مثله من افراد البشر تأويله بوجه كماانّه بطنه بوجه كما سبق، والامر بطاعة محمّد صلى الله عليه وآله بايقاع اسم الرّسول عليه واطلاق اسم الرّسول عليه يدلاّن على انّ فيه معنى من الله به استحقّ وجوب اطاعة النّاس له ويدلاّن على انّ كلّ من كان فيه هذا المعنى سواء كان في العالم الكبير او في العالم الصّغير وسواء كان في عالم الطّبع او في عالم الارواح، كان طاعته واجبة وهذه الدّلالة هي اشارة الكتاب، ومن هذه الدّلالة ينتقل من كان له قلب وسعة في وجوده الى اهل مملكته وانّ فيهم من فيه هذا المعنى كالعقل الّذى هو رسول من الله وكمثال الرّسول المتمثّل عنده الّذى فيه ايضاً هذا المعنى، ويجد

في وجوده وجوب طاعةالعقل والرّسول المتمثّل امّا بصريح الامر او بعدم امكان تخلّفه، وهذه التي يجدها في وجوده هي لطائف الرّسول والامر بطاعته وحقائق الرّسول والامر بطاعته ، وطاعته في عالم المثال وعالم النّفوس وعالم العقول وعالم الاسماء حقائقها وتأويلها وبطنها وبطن بطنها ، وكل من هذه المعاني والمراتب من حيث نفسه يسمّى حدّاً للآية ولحروف القرآن ، ومن حيث كونه دالاً على معنى فوقه يسمّى مطّلعاً[١]».

قال المحققان: التفسير بالمنقول والمعقول.

التفسير بالمنقول :

هوالتفسير بالمأثور الذي رواه الصحابة والتابعون ، عن النبى ﷺ ،أو ماروى علماء الأثر عن الصحابة والتابعين أيضاً ممّا يتعلق بالقرآن الكريم من كلّ الوجوه ، هو من التفسير بالمأثور ..

ومصادره : القراءات القرآنيةسواء منها المتواتر والمشهور والشاذ،والأحاديث النبوية ، وأقوال الصحابة والتّابعين ، والأئمة المجتهدين . « على ماهو مفصّل فيبحث « مصادر التفسير النقلي »كتاب أصول التفسير » .

التفسير بالمعقول :

هو التفسير العقلي الذي يعتمد فيه علم الفهم العميق ، والإدراك المركّز لمعاني الألفاظ القرآنية ، بعد إدراك مدلول العبارات القرآنية التي تنظم في سلكها تلك الألفاظ الكريمة ، وفهم دلالاتها فهماً دقيقاً .

وهذا القسم من التفسير يقوم على الاجتهاد في فهم النصوص القرآنية وإدراك مقاصدها ومعرفة مدلولها ، عن طريق معرفة المفسّر لكلام العرب ومناحيهم في القول وأساليبهم في التعبير ، ومعرفة دلالة الألفاظ ووجوهها ، وآلة هذا النوع من التفسير « علوم الاستنباط وأصول التشريع »[٢].

قال احمد رضافي أقسام التفسير :

تقدّم معنا البحث: أنه بَعدَ ان بَعُدَ عصر اللغة الفصيحة وفسدت الملكات اللسانية من العرب، اصبح البحث عن مايرجع إلى اللسان من: بيان اللغة والاعراب والبلاغة في تأدية

١. بيان السعادة ج ١ ص ١٣ـ١٤.
٢. مقدمة معالم التنزيل للبغوي ج ١ ص ١٠ـ١١.

المراد وما اشبه جزءاً من علم التفسير، فكان هذا قسماً، والقسم الآخر ماكان مستنداً إلى الآثار المنقولة عن السلف، كمعرفة الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ومقاصد الآي والقراءات وقصص الأمم واخبار الملاحم، وهذاعزل الرأي عنه وتوقف البحث فيه على مايرد من الأحاديث المستندة إلى النبي المصطفى ﷺ وأمنائه الكرام، وإن كان يمكن في القصص والمواعظ والأخذ بظاهر اللفظ دون إعمال الفكر وملكة الاستنباط.

ثم إن من التفسير مايجوز للراسخ في العلم ان يأخذه بطريق النظر والاستدلال، ومنه مالا يجوز مما يتوقف البحث فيه على الآثار النبوية فليس للفكر والاستنباط عليه سبيل؛ لأنه وارد في موارد خاصة لايعرفها الا من خبرها ليس للرأي فيها مجال البتة، ومنه مالا يتوقف القول فيه على الآثار النبوية، وهو ماكان مبناه على الاقيسة والقواعد العلمية، كفنون البلاغة وضروب المواعظ والحكم، ففي هذامجال لقوة الاستدلال والاستنباط ومنه استنباط الاحكام الشرعية عمايصلح ان يكون دليلاً لها في الكتاب المبين، واما الآيات المتشابهات فقد اختلف في جواز اعمال النظر فيها ورجح المحققون ان يرد الحكم فيها إلى الله ورسوله.

وأما ماورد من النهي عن التفسير بالرأي فقد جعله في كشف الظنون في انواع خمسة: أولها ـ التفسير من غير حصول العلوم التي يجوز معها التفسير، وثانيها ـ تفسير المتشابه الذي لايعلمه إلا الله تعالى، وثالثها ـ التفسير المقرر للمذاهب الفاسدة بأن يجعل التفسير تابعاً للمذهب فيرده إليه بأي طريق كان وان كان ضعيفاً، ورابعها ـ التفسير بأن مراد الله كذا على القطع من غيردليل، وخامسها ـ التفسير بالاستحسان والهوى المنهي عنه، وقد قسم ابن عباس رضوان الله عليه وجوه التفسير إلى أربعة أقسام: تفسير لا يعذر احد بجهالته، وتفسير تعرفه العرب بكلامها، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله. فأما الذي لايعذر احد بجهالته فهو مايلزم به الكافة من الشرائع التي في القرآن وجل دلائل التوحيد، وأما الذي تعرفه العرب بلسانها فهو حقائق اللغة وموضوع كلامهم، واما الذي يعلمه العلماء فهو تأويل المتشابه وفروع الاحكام، وأما الذي لايعلمه إلا الله فهو مايجري مجرى الغيوب وقيام الساعة [1].

---

١. مقدمة مجمع البيان ج ١ ص ٦٧ ـ ٦٨.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فيما يحتاج اليه المفسّر

قال هود بن الحكم: «وإنه لايعرف تفسير القرآن إلا من عرف اثنتي عشرة خصلة: المكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، والتقديم والتأخير، والمقطوع والموصول، والخاص والعام، والإضمار [١] والعربية» [٢].

قال الراغب في بيان الآلات التي يحتاج إليها [٣] المفسر:

«اختلف الناس في تفسير القرآن: هل يجوز لكل ذي علم الخوض فيه؟

فبعض تشدد [٤] في ذلك: وقال: لايجوز لأحد تفسير شيء من القرآن، وإن كان عالماً أديباً متسعاً في معرفة الأدلة والفقه والنحو والأخبار والآثار، وإنما له أن ينتهي إلى ما روي [له] عن النبي ﷺ وعن الذين شهدوا التنزيل من الصحابة رضي الله عنهم، أو عن الذين أخذوا عنهم من التابعين، واحتجوا في ذلك بما روي عنه ﷺ: «من فسّر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» [٥]، وقوله ﷺ: «من فسّر القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ» [٦]، وفي خبر: «من قال في القرآن برأيه فقد

---

١. يقصد بالاضمار الحذف.

٢. تفسير كتاب الله العزيز ج ١ ص ٧١.

٣. في نسخة: إليه.

٤. في نسخة: يشدد.

٥. انظر روايات الحديث في تفسير الطبري: ج ١ ص ٢٧ ـ ٢٨، وتعليق الأستاذ محمود شاكر عليها حيث يميل إلى تضعيف الحديث.

٦. قال ابن كثير: ج ١ ص ٥ ... عن جندب أن رسول الله ﷺ قال: «من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ» وقد روى هذا الحديث أبو داود والترمذي والنسائي من حديث سهيل بن أبي حزم القطيعي، وقال الترمذي: غريب. وقد تكلم بعض أهل العلم في سهيل، وفي لفظ لهم: «من قال في كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ».

كفر» [١]، وبما روي عن أبي بكر «أيّ سماء تظلّني وأي أرض تقلّني إذا قلت في كتاب الله برأيي».

وذكر آخرون: أن من كان ذا أدب وسيع فموسّع له أن يفسّره، فالعقلاء الأدباء [فوضى فضاً] [٢] في معرفة الأغراض، واحتجوا في ذلك بقوله تعالى: ﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكر أولو الألباب** ﴾ [٣]، وذكر بعض المحققين: [أن المذهبين] هما الغلو والتقصير فمن اقتصر على المنقول إليه فقد ترك كثيراً مما يحتاج إليه، ومن أجاز لكل أحد الخوض فيه، فقد عرضه للتخليط، ولم يعتبر حقيقة قوله تعالى: ﴿ **ليدبروا آياته، وليتذكر أولو الألباب** ﴾.

والواجب: أن يبين أولاً ما ينطوي عليه القرآن، وما يحتاج إليه المفسّر من العلوم، فنقول وبالله التوفيق:

إن جميع شرائط الإيمان والإسلام التي دعينا إليها واشتمل القرآن عليها ضربان:

ـ علم غايته الاعتقاد، وهو الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر.

ـ وعلم غايته العمل، وهو معرفة أحكام الدين والعمل بها [٤] والعلم مبدأ والعمل تمام ولا يتم العلم من دون عمل، ولا يخلص العمل من دون العلم، ولذلك لم يفرد ـ تعالى ـ احدهما من الآخر في عامة القرآن، نحو قوله: ﴿ **ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً** ﴾ [٥]، وقوله: ﴿ **ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن** ﴾ [٦]، وقوله تعالى: ﴿ **الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب** ﴾ [٧].

ولا يمكن تحصيل هذين إلاّ بعلوم لفظية، وعقلية، وموهبية:

فالأول: معرفة الألفاظ: وهو علم اللغة.

---

١. انظر ما قال فيه ابن كثير: ج ١ ص ٥.

٢. قال في اللسان ... وكذلك جاء القوم فوضى، وأمرهم فيضي وفوضى: مختلط. عن اللحياني وقال: معناه: سواء بينهم كما قال ذلك في «فضا» ومتاعهم فوضى بينهم إذا كانوا فيه شركاء ويقال أيضاً فضاً قال:

طعامهم فوضى فضاً في رحالهم ولا يحسبون السوء إلا تناديا

٣. سورة ص: الآية ٢٩.

٤. في نسخة: به.

٥. سورة التغابن: الآية ٩. وتتمتها «يكفّر عن سيئاته» والآية: من الطلاق وتمامها: «يدخله جنات».

٦. سورة غافر: الآية ٤٠.

٧. سورة الرعد: الآية ٢٩.

والثاني: مناسبة بعض الألفاظ إلى بعض، وهو الاشتقاق.

والثالث: معرفة أحكام ما يعرض الألفاظ من الأبنية والتصاريف والإعراب، وهو النحو.

والرابع: ما يتعلق بذات التنزيل، وهو معرفة القراءات.

والخامس: ما يتعلق بالأسباب التي نزلت عندها الآيات، وشرح الأقاصيص التي تنطوي [١] عليها السور من ذكر الأنبياء عليهم السلام والقرون الماضية، وهو علم الآثار والأخبار.

والسادس: ذكر السنن المنقولة عن النبي صلى الله عليه وآله وعمّن شهد الوحي مما اتفقوا عليه وما اختلفوا فيه، مما هو بيان لمجمل، أو تفسير لمبهم المنبأ عنه بقوله تعالى: ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزّل إليهم** ﴾ [٢]، وبقوله تعالى: ﴿ **أولئك الذين هدى اللّه فبهداهم اقتده** ﴾ [٣] وذلك علم السنن.

والسابع: معرفة الناسخ والمنسوخ، والعموم والخصوص، والإجماع والاختلاف، والمجمل والمفسّر والقياسات الشرعية، والمواضع التي يصح فيها القياس، والتي لايصح، وهو علم اصول الفقه.

والثامن: أحكام الدين وآدابه، وآداب السياسات الثلاث، التي [هي] سياسة النفس، والأقارب والرعية، مع التمسك بالعدالة فيها، وهو علم الفقه والزهد.

والتاسع: معرفة الأدلّة العقلية، والبراهين الحقيقية، والتقسيم والتحديد، والفرق بين المعقولات والمظنونات وغير ذلك، وهو علم الكلام.

والعاشر: علم الموهبة، وذلك علم يورثه اللّه من عمل بما علم [٤] وقال أميرالمؤمنين: قالت الحكمة: من أرادني فليعمل بأحسن ما علم. ثم تلا: ﴿ **الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه** ﴾ [٥]. وما روي عنه حيث [٦] سئل: «هل عندك علم عن النبي صلى الله عليه وآله لم يقع إلى غيرك؟» قال: لا، إلاّ كتاب اللّه وما في صحيفتي، وفهم يؤتيه

---

١. في نسخة: ينطوي.
٢. سورة النحل: الآية ٤٤.
٣. سورة الأنعام: الآية ٩٠.
٤. في نسخة: علم ما يعلم. ويبدو أنها جزء من الحديث الوارد: «من عمل بما علم أورثه اللّه علم ما لم يعلم».
٥. سورة الزمر: الآية ١٨.
٦. في نسخة: حين.

اللّٰه من يشاء» وهذا هو التذكر الذي رجّانا تعالى -إدراكه بفعل الصالحات، حيث قال: ﴿ إن اللّٰه يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى ﴾ إلى قوله: ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ [١]، وهو الهداية المزيدة للمهتدي في قوله: ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى ﴾ [٢] -الآية- وهو الطيب من القول المذكور في قوله: ﴿ وهدوا إلى الطيب من القول، وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ [٣].

فجملة العلوم التي هي كالآلة للمفسّر، ولا تتم [٤] صناعة إلا بها، هي هذه العشرة: علم اللغة، والاشتقاق، والنحو، والقراءات، والسير، والحديث، واصول الفقه، وعلم الأحكام، وعلم الكلام، وعلم الموهبة.

فمن تكاملت فيه هذه العشرة واستعملها خرج عن كونه مفسّراً للقرآن برأيه. ومن نقص عن بعض ذلك مما ليس بواجب معرفته في تفسير القرآن، وأحسّ من نفسه في ذلك بنقصه، واستعان بأربابه، واقتبس منهم، واستضاء بأقوالهم، لم يكن إن شاء اللّٰه من المفسرين برأيهم [٥].

فإن القائل بالرأي -ههنا- من لم تجتمع [٦] عنده الآلات التي يستعان بها في [٧] ذلك ففسّره وقال فيه تخميناً وظناً. وإنما جعله النبي ﷺ مخطئاً وإن أصاب، فإنه مخبر بما لم يعلمه، وإن كان قوله مطابقاً لما عليه الأمر في نفسه، ألا ترى أن اللّٰه تعالى قال: ﴿ إلاّ من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ [٨] فشرط مع الشهادة العلم [٩]، وكذّب المنافقين في قولهم: ﴿ نشهد إنك لرسول اللّٰه ﴾ [١٠]، فقال: ﴿ واللّٰه يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ [١١].

ومن حق من تصدى للتفسير أن يكون مستشعراً لتقوى اللّٰه مستعيذاً من شرور نفسه، والإعجاب بها، فالاعجاب أسّ كل فساد. وأن يكون اتهامه لفهمه أكثر من اتهامه لفهم أسلافه الذين عاشروا الرسول وشاهدوا التنزيل. وباللّٰه التوفيق». [١٢]

قال ابن جزى فى فنون العلم التى تتعلق بالقرآن: «اعلم أن الكلام على القرآن

---

١. سورة النحل: الآية ٩٠.
٢. سورة محمد: الآية ١٧.
٣. سورة الحج: الآية ٢٤.
٤. في نسخة: يتم.
٥. في نسخة: بواجبة.
٦. في نسخة: يجتمع.
٧. في نسخة: فيما بذلك.
٨. سورة الزخرف: الآية ٨٦.
٩. في نسخة: والعلم.
١٠. سورة المنافقون: الآية ١.
١١. سورة المنافقون: الآية ١.
١٢. جامع التفاسير ج ١ ص ٩٣-٩٧.

يستدعى الكلام فى اثنى عشر فناً من العلوم ، وهى : التفسير ، والقراءات ، والأحكام ، والنسخ ، والحديث ، والقصص ، والتصوف ، وأصول الدين ، وأصول الفقه ، واللغة ، والنحو ، والبيان ، فأما التفسير، فهو المقصود بنفسه وسائر هذه الفنون أدوات تعين عليه أو تتعلق به أو تتفرع منه ، ومعنى التفسير شرح القرآن وبيان معناه والإفصاح بما يقتضيه بنصه أو إشارته أو فحواه .....

وأما القراءات ، فإنها بمنزلة الرواية فى الحديث ، فلابد من ضبطها كما يضبط الحديث بروايته .

وأما أحكام القرآن، فهى ماورد فيه من الأوامر والنواهى. والمسائل الفقهية. وقال بعض العلماء: إن آيات الأحكام خمسمائة آية . وقد تنتهى إلى أكثر من ذلك إذا استقصى تتبعها فى مواضعها . وقد صنف الناس فى أحكام القرآن تصانيف كثيرة . ومن أحسن تصانيف المشارقة فيها : تأليف إسماعيل القاضى وابن الحسن كباه، ومن أحسن تصانيف أهل الاندلس: تأليف القاضى الإمام أبى بكر بن العربى والقاضى الحافظ بن محمد بن عبدالمنعم بن عبدالرحيم المعروف بابن الفرس .

وأما النسخ، فهو يتعلق بالأحكام لأنها محل النسخ إذ لا تنسخ الأخبار ولابد من معرفة ما وقع فى القرآن من الناسخ والمنسوخ ، والمحكم وهو ما لم ينسخ . وقد صنف الناس فى الناسخ القرآن ومنسوخه تصانيف كثيرة، وأحسنها: تأليف القاضى أبى بكر بن العربى .

وأما الحديث، فيحتاج المفسر إلى روايته وحفظه لوجهين : الأول أنّ كثيرا من الآيات فى القرآن نزلت فى قوم مخصوصين ونزلت بأسباب قضايا وقعت فى زمن النبى ﷺ من الغزوات والنوازل والسؤالات ، ولا بدّ من معرفة ذلك ليعلم فيمن نزلت الآية وفيما نزلت ومتى نزلت، فإنّ الناسخ يبنى على معرفة تاريخ النزول لأنّ المتأخر ناسخ للمتقدم . الثانى أنه ورد عن النبى ﷺ كثير من تفسير القرآن فيجب معرفته لأنّ قوله ﷺ مقدم على أقوال الناس .

وأما القصص، فهى من جملة العلوم التى تضمنها القرآن فلابد من تفسيره إلا أنّ

الضروري منه ما يتوقف عليه . وما سوى ذلك زائد مستغنى عنه، وقد أكثر بعض المفسرين من حكاية القصص الصحيح وغير الصحيح . حتى أنهم ذكروا منه ما لايجوز ذكره مما فيه تقصير بمنصب الأنبياء عليهم السلام أو حكاية ما يجب تنزيههم عنه . وأما نحن فاقتصرنا في هذا الكتاب من القصص على ما يتوقف التفسير عليه وعلى ما ورد منه في الحديث الصحيح .

وأما التصوف، فله تعلق بالقرآن . لما ورد في القرآن من المعارف الإلهية ورياضة النفوس . وتنوير القلوب . وتطهيرها باكتساب الأخلاق الحميدة . واجتناب الأخلاق الذميمة . وقد تكلمت المتصوفة في تفسير القرآن . فمنهم من أحسن وأجاد . ووصل بنور بصيرته إلى دقائق المعاني . ووقف على حقيقة المراد . ومنهم من توغل في الباطنية وحمل القرآن على ما لا تقتضيه اللغة العربية . وقد جمع أبو عبدالرحمن السلمي كلامهم في التفسير في كتاب سماه «الحقائق» وقال بعض العلماء : بل هي البواطل . وإذا انتصفنا قلنا فيه حقائق وبواطل . وقد ذكرنا هذا في كتاب ما يستحسن من الإشارات الصوفية . دون ما يعترض أو يقدح فيه . وتكلمنا أيضا على اثنى عشر مقاما من مقام التصوف في مواضعها من القرآن : فتكلمنا على الشكر في أم القرآن . لما بين الحمد والشكر من الاشتراك في المعنى . وتكلمنا على التقوى في قوله تعالى في البقرة: ﴿هدى للمتقين﴾[١] وعلى الذكر في قوله فيها: ﴿فاذكروني أذكركم﴾[٢] وعلى الصبر في قوله تعالى: ﴿وبشر الصابرين﴾[٣] وعلي التوحيد في قوله فيها: ﴿وإلهكم إله واحد﴾[٤] وعلى محبة اللّٰه في قوله فيها: ﴿والذين آمنوا أشد حبا لله﴾[٥] وعلى التوكل في قوله في آل عمران: ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾[٦] وعلى المراقبة في قوله في النساء: ﴿إنّ اللّٰه كان عليكم رقيبا﴾[٧] وعلى الخوف والرجاء في قوله في الأعراف: ﴿وادعوه خوفا وطمعا﴾[٨] وعلى

---

١. سورة البقرة : الآية ٢ .
٢. سورة البقرة : الآية ١٥٢ .
٣. سورة البقرة : الآية ١٥٥ .
٤. سورة البقرة : الآية ١٦٣ .
٥. سورة البقرة : الآية ١٦٥ .
٦. سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .
٧. سورة النساء : الآية ١ .
٨. سورة الاعراف : الآية ٥٦ .

التوبة في قوله في النور: ﴿وتوبوا إلى الله جميعا﴾[١] وعلى الإخلاص في قوله في لم يكن: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾[٢].

وأما أصول الدين، فيتعلق بالقرآن من طرفين: أحدهما: ما ورد في القرآن من إثبات العقائد وإقامة البراهين عليها. والرد على أصناف الكفار. والآخر: أن الطوائف المختلفة من المسلمين تعلقوا بالقرآن وكل طائفة منهم تحتج لمذهبها بالقرآن وترد على من خالفها. وتزعم أنه خالف القرآن. ولا شك أن منهم المحق والمبطل. فمعرفة تفسير القرآن أن توصل في ذلك إلى التحقيق مع التشديد والتأييد من الله والتوفيق.

وأما أصول الفقه، فإنها من أدوات تفسير القرآن. على أن كثيرا من المفسرين لم يشتغلوا بها. وإنها لنعم العون على فهم المعاني وترجيح الأقوال. وما أحوج المفسر إلى معرفة النص. والظاهر. والمجمل. والمبين. والعام. والخاص. والمطلق. والمقيد. وفحوى الخطاب. ولحن الخطاب. ودليل الخطاب. وشروط النسخ. ووجوه التعارض. وأسباب الخلاف. وغير ذلك من علم الأصول.

وأما اللغة، فلابد للمفسر من حفظ ما ورد في القرآن منها. وهي غريب القرآن وهي من فنون التفسير. وقد صنف الناس في غريب القرآن تصانيف كثيرة.

وأما النحو، فلابد للمفسر من معرفته. فإن القرآن نزل بلسان العرب فيحتاج إلى معرفة اللسان. والنحو ينقسم إلى قسمين: أحدهما عوامل الإعراب. وهي أحكام الكلام المركب. والآخر التصريف وهي أحكام الكلمات من قبل تركيبها. وقد ذكرنا في هذا الكتاب من إعراب القرآن ما يحتاج إليه من المشكل والمختلف. أو ما يفيد فهم المعنى. أو ما يختلف المعنى باختلافه ولم نتعرض لما سوى ذلك من الإعراب السهل الذي لايحتاج إليه إلا المبتدىء، فإن ذلك يطول بغير فائدة كبيرة.

وأما علم البيان، فهو علم شريف تظهر به فصاحة القرآن»[٣].

قال ابو حيان: «وإذ قد جر الكلام الى هذا فلنذكر ما يحتاج إليه علم التفسير من العلوم

١. سورة النور: الآية ٣١.
٢. سورة البيّنة: الآية ٥.
٣. التسهيل ج ١ ص ٦ ـ ٨.

على الاختصار وننبه على أجسن الموضوعات التى فى تلك العلوم المحتاج اليها فيه، فنقول : النظر فى تفسير كتاب اللّٰه تعالى يكون من وجوه:

الوجه الاول: علم اللغة اسما وفعلا وحرفا، الحروف لقلتها تكلم على معانيها النحاة فيؤخذ ذلك من كتبهم، وأما الاسماء والأفعال فيؤخذ ذلك من كتب اللغة وأكثر الموضوعات فى علم اللغة كتاب ابن سيده، فان الحافظ أبا محمد على بن أحمد الفارسى ذكر أنه فى مائة سفر، بدأ فيه بالفلك وختم بالذرة، ومن الكتب المطولة فيه: كتاب الأزهرى والموعب لابن التيانى والمحكم لابن سيده وكتاب الجامع لأبى عبداللّٰه محمد بن جعفر التميمى القيروانى عرف بالقزاز والصحاح للجوهرى والبارع لابى على التالى ومجمع البحرين للصاغانى، وقد حفظت فى صغرى فى علم اللغة كتاب الفصيح لابى العباس أحمد بن يحيى الشيبانى واللغات المحتوى عليها دواوين مشاهير العرب الستة: امرىء القيس والنابغة وعلقمة وزهير وطرفة وعنترة وديوان الافوه الاودى، لحفظى عن ظهر قلب لهذه الدواوين، وحفظت كثيرا من اللغات المحتوى عليها نحو الثلث من كتاب الحماسة، واللغات التى تضمنتها قصائد مختارة من شعر حبيب بن أوس لحفظى ذلك، ومن الموضوعات فى الافعال كتاب ابن القوطية وكتاب ابن طريف وكتاب السرقنطى المنبوز بالحمار ومن أجمعها كتاب ابن القطاع .

الوجه الثانى: معرفة الاحكام التى للكلم العربية من جهة افرادها ومن جهة تركيبها ويؤخذ ذلك من علم النحو، وأحسن موضوع فيه وأجله كتاب أبى بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه رحمه اللّٰه تعالى، وأحسن ما وضعه المتأخرون من المختصرات وأجمعه للاحكام كتاب تسهيل الفوائد لأبى عبدالله بن مالك الجيانى الطائى مقيم دمشق، واحسن ما وضع في التصريف كتاب الممتع لأبي الحسن على بن مؤمن بن عصفور الحضرمى الشبيلى رحمه اللّٰه تعالى، وقد أخذت هذا الفن عن أستاذنا الأوحد العلامة أبى جعفر أحمد بن ابراهيم بن الزبير الثقفى فى كتاب سيبويه وغيره.

الوجه الثالث: كون اللفظ أو التركيب أحسن وأفصح ويؤخذ ذلك من علم البيان والبديع، وقد صنف الناس فى ذلك تصانيف كثيرة، وأجمعها ما جمعه شيخنا الأديب

الصالح أبو عبدالله محمد بن سليمان النقيب وذلك فى مجلدين قدمهما أمام كتابه فى التفسير، وما وضعه شيخنا الأديب الحافظ المتبحر أبو الحسن حازم بن محمد بن حازم الاندلسى الانصارى القرطاجنى مقيم تونس المسمى منهاج البلغاء وسراج الأدباء، وقد أخذت جملة من هذا الفن عن أستاذنا أبى جعفر بن الزبير رحمه الله تعالى.

الوجه الرابع: تعيين مبهم وتبيين مجمل وسبب نزول ونسخ، ويؤخذ ذلك من النقل الصحيح عن رسول الله ﷺ وذلك من علم الحديث، وقد تضمنت الكتب والامهات التى سمعناها ورويناها ذلك، كالصحيحين والجامع للترمذى وسنن أبى داود وسنن النسائى وسنن ابن ماجة وسنن الشافعى ومسند الدارمى ومسند الطيالسى ومسند الشافعى وسنن الدارقطنى ومعجم الطبرانى الكبير والمعجم الصغير له ومستخرج أبى نعيم على مسلم وغير ذلك.

الوجه الخامس: معرفة الاجمال والتبيين والعموم والخصوص والاطلاق والتقييد ودلالة الامر والنهى وما أشبه هذا، ويختص أكثر هذا الوجه بجزء الاحكام من القرآن ويؤخذ هنا من أصول الفقه، ومعظمه هو فى الحقيقة راجع لعلم اللغة، اذ هو شىء يتكلم فيه على أوضاع العرب ولكن تكلم فيه غير اللغويين أو النحويين ومزجوه باشياء من حجج العقول، ومن أجمع ما فى هذا الفن كتاب المحصول لابى عبدالله محمد بن عمر الرازى، وقد بحثت في هذا الفن فى كتاب الاشارة لابى الوليد الباجى على الشيخ الاصولى الاديب أبى الحسن فضل بن ابراهيم العافرى الامام بجامع غرناطة والخطيب به، وعلى الأستاذ العلامة أبى جعفر بن الزبير فى كتاب الاشارة وفى شرحها له وذلك بالاندلس، وبحثت أيضا فى هذا الفن على الشيخ علم الدين عبد الكريم بن على بن عمر الانصارى المعروف بابن بنت العراقى فى مختصره الذى اختصره من كتاب المحصول، وعلى الشيخ علاء الدين على بن محمد بن عبدالرحمن بن خطاب الباجى فى مختصره الذى اختصره من كتاب المحصول، وعلى الشيخ شمس الدين محمد بن محمود الاصبهانى صاحب شرح المحصول بحثت عليه فى كتاب القواعد من تأليفه رحمه الله تعالى.

الوجه السادس: الكلام فيما يجوز على الله تعالى وما يجب له وما يستحيل عليه والنظر فى النبوة، ويختص هذا الوجه بالآيات التى تضمنت النظر فى البارى تعالى وفى الأنبياء واعجاز القرآن ويؤخذ هذا من علم الكلام، وقد صنف علماء الاسلام من سائر الطوائف فى هذا كتبا كثيرة؛ وهو علم صعب اذ المزلة فيه والعياذ بالله مفضية الى الخسران فى الدنيا والآخرة، وقد سمعت منه مسائل تبحث على الشيخ شمس الدين الاصفهانى وغيره.

والوجه السابع: اختلاف الالفاظ بزيادة أو نقص أو تغيير حركة أو اتيان بلفظ بدل لفظ وذلك بتواتر وآحاد ويؤخذ هذا الوجه من علم القراءات، وقد صنف علماؤنا فى ذلك كتبا لا تكاد تحصى وأحسن الموضوعات فى القراءات السبع كتاب الاقناع لأبى جعفر ابن الباذش وفى القراءات العشر كتاب المصباح لأبى الكرم الشهرزورى....

فهذه سبعة وجوه لاينبغى أن يقدم على تفسير كتاب الله الا من أحاط بجملة غالبها من كل وجه منها، ومع ذلك فاعلم أنه لا يرتقى من علم التفسير ذروته ولايمتطى منه صهوته الا من كان متبحرا فى علم اللسان مترقيا منه الى رتبة الاحسان، قد جبل طبعه على انشاء النثر والنظم دون اكتساب وابداء ما اخترعته فكرته السليمة فى أبدع صورة وأجمل جلباب، واستفرغ فى ذلك زمانه النفيس وهجر الأهل والولد والأنيس، ذلك الذى له فى رياضه أصفى مرتع وفى حياضه أصفى مكرع، يتنسم عرف أزاهر طال ما حجبتها الكمام ويترشف كؤس رحيق له المسك ختام، ويستوضح أنوار بدور سترتها كثائف الغمام ويستفتح أبواب مواهب الملك العلام، يدرك اعجاز القرآن بالوجدان لا بالتقليد وينفتح له ما استغلق اذبيده الاقليد، وأما من اقتصر على غير هذا من العلوم أو قصر فى انشاء المنثور والمنظوم، فانه بمعزل عن فهم غوامض الكتاب وعن ادراك لطائف ما تضمنه من العجب العجاب، وحظه من علم التفسير انما هو نقل اسطار وتكرار محفوظ على مر الاعصار، ولتباين أهل الاسلام فى ادراك فصاحة الكلام.وما به تكون الزجاجة فى النظام»[1].

---

١. البحر المحيط ج ١ ص ٥ـ٧.

قال الجنابذي : «ولما كان القرآن والأخبار عبارة عن العبارات الدالة على مفاهيمها العرفية المراد بها المقاصد المخصوصة المشار بها الى لطائفها وحقائقها، وكان تفسير الآيات والأخبار عبارة عن إبانة مفاهيم ألفاظها وكشف الغطاء عن مقاصدها والاشارة الى اشاراتها ، والايماء الى لطائفها التي اتّصف المفسّر بها والتنبيه على حقائقها والتصريح بتنزيلها والتلويح الى تأويلها ؛ لأن الفسر والتفسير بمعنى الإبانة ، والإبانة فى كل شيء تكون بحسبه ، كان المفسّر محتاجاً الى علم لغة العرب وعلى إعرابها وهيئاتها واشتقاقها ، وعلم البلاغة والمحسنات الطارئة للكلام المذكورة فى صناعة البديع ، والاطلاع على الأخبار الواردة فى تفسير الآيات ، والى علم العقائد العقلية الأصلية ، والأخلاق النفسية الفرضية ، والأحكام الجسميّة الفرعيّة ، والعلم بمقاصدها ومعرفة اشاراتها ، والى الاتّصاف بلطائفها المشعرة بامكان التحقّق بحقائقها ، والى العلم بتنزيلها ومعرفة تأويلها بقدر مرتبته ، والى العلم بالمحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ والعام والخاص ، لأنه إن لم يعلم العلوم الادبية كان كثير الخطأ فى بيان المفاهيم والمقاصد ، وان لم يطلع على ما ورد فى تفسير الايات من الاخبار كان كثير الخطأ فى بيان التنزيل والتأويل ، وان لم يعلم العلوم الدينية كان كثير الخطأ فى بيان المتشابهات والمجملات ، وان لم يعرف الاشارات ولم يجد اللطائف فى وجوده كان تفسيره ناقصاً بل تفسيراً بالرأى الذى كان تمامه خطأً ، وهكذا الحال فى معرفة التأويل ، وان لم يعلم المحكم من المتشابه والناسخ من المنسوخ والعام من الخاص لم يكن على يقينٍ فى بيانه وكان كثير الخطأ فيما بيّنه»[1].

قال القاسمي فى أقسام العلوم المضافة إلى القرآن :

«قال الشاطبي : العلوم المضافة إلى القرآن تنقسم على أقسام :

قسم هو كالأداة لفهمه واستخراج ما فيه من الفوائد والمعين على معرفة مراد اللّه تعالى منه . كعلوم اللغة العربية التي لابد منها وعلم القراءات والناسخ والمنسوخ وقواعد أصول الفقه وما أشبه ذلك . فهذا لا نظر فيه هنا . ولكن قد يدعى فيما ليس

---

١. بيان السعادة ج ١ ص ١٢.

بوسيلة أنه وسيلة إلى فهم القرآن وأنه مطلوب كطلب ما هو وسيلة بالحقيقة . فإنّ علم العربية أو علم الناسخ والمنسوخ وعلم الأسباب وعلم المكى والمدنى وعلم القراءات وعلم أصول الفقه معلوم عند جميع العلماء أنها معينة على فهم القرآن . وأما غير ذلك فقد يعده بعض الناس وسيلة أيضاً . ولا يكون كذلك . كما تقدم فى حكاية الرازى فى جعل علم الهيئة وسيلة إلى فهم قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَالَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ [١] . وزعم ابن رشد الحكيم فى كتابه الذى سماه بـ(فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال) أن علوم الفلسفة مطلوبة . إذ لا يفهم المقصود من الشريعة على الحقيقة إلا بها .

ولو قال قائل : إن الأمر بالضد مما قال لما بَعُد فى المعارضة . وشاهد ما بين الخصمين شأن السلف الصالح فى تلك العلوم . هل كانوا آخذين فيها أم كانوا تاركين لها أو غافلين عنها ؟ مع القطع بتحققهم بفهم القرآن . يشهد لهم بذلك النبي ﷺ والجمّ الغفير . فلينظر امرؤ أين يضع قدمه .

وثمّ أنواع أخر يعرفها من زاول هذه الأمور ولا ينبئك مثل خبير . فأبو حامد ممن فتل هذه الأمور خبرة وصرح فيها بالبيان الشافى فى مواضع من كتبه» [٢].

قال رشيد رضا : «للتفسير مراتب أدناها : أن يبيّن بالإجمال ما يشرب القلب عظمة الله وتنزيهه ، ويصرف النفس عن الشر ويجذبها إلى الخير . وهذه هى التى قلنا إنها متيسرة لكل أحد ﴿ ولقد يسّرنا القرآن للذكر ، فهل من مُدّكِر ﴾ [٣] .

وأما المرتبة العليا فهى لا تتم إلا بأمور :

أحدها: فهم حقائق الألفاظ المفردة التى أودعها القرآن بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة ، غير مكتف بقول فلان وفهم فلان ، فإن كثيراً من الألفاظ كانت تستعمل فى زمن التنزيل لمعان ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد . من ذلك «لفظ» التأويل : اشتهر بمعنى التفسير مطلقاً أو على وجه مخصوص ، ولكنه جاء

---

١. سورة ق: الآية ٦.
٢. محاسن التأويل ج ١ ص ١٤٢.
٣. سورة القمر: الآية ١٧، ٢٢، ٣٢و ٤٠.

فى القرآن بمعان أخر كقوله تعالى: ﴿هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾[١] فما هذا التأويل ؟ يجب على من يريد الفهم الصحيح أن يتتبع الاصطلاحات التى حدثت فى الملة ، ليفرق بينها وبين ماورد فى الكتاب . فكثيرا ما يفسر المفسرون كلمات القرآن بالاصطلاحات التى حدثت فى الملة بعد القرون الثلاثة الأولى . فعلى المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعانى التى كانت مستعملة فى عصر نزوله . والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه بأن يجمع ما تكرر فى مواضع منه وينظر فيه ، فربما استعمل بمعان مختلفة كلفظ «الهداية» ـ سيأتى تفسيره فى الفاتحة ـ وغيره ، ويحقق كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية . فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه . وقد قالوا : إن القرآن يفسر بعضه ببعض ، وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ : موافقته لما سبق له من القول واتفاقه مع جملة المعنى وائتلافه مع القصد الذى جاء له الكتاب بجملته .

ثانيها ـ الأساليب . فينبغى أن يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الأساليب الرفيعة . وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته ، مع التفطن لنكته ومحاسنه ، والعناية بالوقوف على مراد المتكلم منه . نعم إننا لانتسامى إلى فهم مراد اللّه تعالى كله على وجه الكمال والتمام . ولكن يمكننا فهم ما نهتدى به بقدر الطاقة . ويحتاج فى هذا إلى علم الإعراب وعلم الأساليب (المعانى والبيان)، ولكن مجرد العلم بهذه الفنون وفهم مسائلها وحفظ أحكامها لايفيد المطلوب . ترون فى كتب العربية أن العرب كانوا مسدّدين فى النطق يتكلمون بما يوافق القواعد قبل أن توضع ، أتحسبون أن ذلك كان طبيعياً لهم ؟ كلا ، وإنما هى ملكة مكتسبة بالسماع والمحاكاة . ولذلك صار أبناء العرب أشد عجمة من العجم ، عند ما اختلطوا بهم . ولو كان طبيعياً ذاتياً لهم لما فقدوه فى مدة خمسين سنة من بعد الهجرة .

ثالثها ـ علم أحوال البشر ـ فقد أنزل اللّه هذا الكتاب وجعله آخر الكتب وبيّن فيه ما لم يبيّنه فى غيره . بيّن فيه كثيرا من أحوال الخلق وطبائعهم، والسنن الإلهية فى البشر ،

---

١ . سورة الأعراف : الآية ٥٣ .

وقص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها. فلا بد للناظر فى هذا الكتاب من النظر فى أحوال البشر فى أطوارهم، وأدوارهم، ومناشيء اختلاف أحوالهم، من قوة وضعف. وعز وذل وعلم وجهل، وإيمان وكفر، ومن العلم بأحوال العالم الكبير. علويه وسفليه، ويحتاج فى هذا إلى فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه.

قال الأستاذ الإمام: أنا لا أعقل كيف يمكن لأحد أن يفسر قوله تعالى: ﴿كان الناس أمة واحدة. فبعث الله النبيين مبشّرين ومنذرين﴾[1] الآية ـ وهو لايعرف أحوال البشر، وكيف اتحدوا، وكيف تفرقوا؟ وما معنى تلك الوحدة التى كانوا عليها؟ وهل كانت نافعة أم ضارة؟ وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم؟[2].

أجمل القرآن. الكلام عن الأمم، وعن السنن الإلهية، وعن آياته فى السماوات والأرض، وفى الآفاق والأنفس، وهو إجمال صادر عمن أحاط بكل شيء علما، وأمرنا بالنظر والتفكر، والسير فى الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذى يزيدنا ارتقاء وكمالا، ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة فى ظاهره. لكنا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده لا بما حواه من علم وحكمة.

رابعها ـ العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن. فيجب على المفسر القائم بهذا الفرض الكفائى أن يعلم ما كان عليه الناس فى عصر النبوة من العرب وغيرهم. لأن القرآن ينادى بأن الناس كلهم كانوا فى شقاء وضلال، وأن النبى ﷺ بعث به لهدايتهم وإسعادهم. وكيف يفهم المفسر ما قبّحته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة، أو ما يقرب منها إذا لم يكن عارفاً بأحوالهم وما كانوا عليه؟ هل يكتفى من علماء القرآن دعاة الدين والمناضلين عنه بالتقليد. بأن يقولوا تقليداً لغيرهم: إن الناس كانوا على باطل، وإن القرآن دحض أباطيلهم فى الجملة؟ كلا.

وأقول الآن: يروى عن عمر ﷺ أنه قال: «إنما تنقض عرى الاسلام عروة عروة: إذا نشأ فى الإسلام من لا يعرف الجاهلية» والمراد أن من نشأ فى الإسلام ولم يعرف حال

---

١. سورة البقرة: الآية ٢١٣.

٢. كتب الأستاذ تفسيرا لهذه الآية، جاء فيه بما لايوجد فى كتاب. ونشر فى الجزء الثانى من مجلد المنار الثامن، أى مجلد سنة ١٣٢٣ ويراجع فى الجزء الثانى من التفسير.

الناس قبله يجهل تأثير هدايته وعناية اللّٰه بجعله مغيرا لأحوال البشر ومخرجا لهم من الظلمات إلى النور ، ومن جهل هذا يظن أن الاسلام أمر عادى . كما ترى بعض الذين يتربون فى النظافة والنعيم يعدون التشديد فى الأمر بالنظافة والسواك من قبيل اللغو . لأنه من ضروريات الحياة عندهم ، ولو اختبروا غيرهم من طبقات الناس لعرفوا الحكمة فى تلك الأوامر وتأثير تلك الآداب من أين جاء ؟.

خامسها ـ العلم بسيرة النبى ﷺ وأصحابه ، وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف فى الشؤون دنيويها وأخرويها»(١) .

قال عبدالقادر فيما يحتاج إليه المفسر :

اعلم رعاك اللّٰه أن المفسر يحتاج إلى معرفة اثنى عشر علماً على الأقل ليتسنى له القيام على أحسن وجه فيما يفسره من كتاب اللّٰه تعالى :

١ ـ علم اللغة لمعرفة معلومات الألفاظ بحسب الوضع ومعرفة الألفاظ المشتركة كالعين وشبهها ، فإن لم يكن له إلمام بها فلا يجوز له الشروع فيه . روي عن أحمد أنه سئل عن القرآن يمثل له الرجل ببيت من الشعر ، فقال: يعجبني إلا أن يكون واقفاً عليه . وقال مجاهد : لايحل التفسير لمن لم يكن عالماً بلغات العرب . وقال مالك: ينكل أي من أقدم على تفسيره دون إلمام له بذلك .

٢ و ٣ ـ علم النحو والتصريف لمعرفة أحكام الكلمات العربية من حيث الاشتقاق والإفراد والتركيب والإعراب والبناء ، أخرج أبو عبيدة عن الحسن: أنه سئل عن الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق ويقيم بها قراءته، فقال : حسن فتعلمها، فإن الرجل يقرأ الآية فيعيى بوجهها فيهلك فيها . وفي قصة أبي الأسود الدؤلي والأعرابي الآتي ذكره في أول سورة التوبة الآتية في ج ٣ بالقسم المدني ما يغني عن البيان .

٤ ـ علم المنطق لما فيه من معرفة وجه الجدل والقضايا الموجبة والسالبة وغيرهما . قال الغزالي رحمه اللّٰه : من لا معرفة له بالمنطق لا ثقة بعلمه .

٥ ـ علم المعاني بفرعيه البيان والبديع لمعرفة خواص تركيب الكلام من جهة افادة

---

١. المنارج ١ ص ٢١ ـ ٢٤.

المعنى ومعرفة خواصها ومن حيث اختلافاتها ومعرفة وجوه تحسين الكلام وهو الركن الأقوم لهذا الفن.

٦ ـ علم الحديث لمعرفة المبهم وتبيين المجمل وسبب النزول والتقييد للمطلق والتخصيص للعام المعبر عنه غالباً بالنسخ.

٧ ـ علم أصول الفقه لمعرفة الإجمال والتبيين والعموم والخصوص والإطلاق والتقييد ودلالة الأوامر والنواهي وما يشبهها ويتفرع عنها.

٨ ـ علم الكلام لمعرفة ما يجوز على الله وما يستحيل وما يجب، والنظر في النبوات لئلا يقع المفسر في أخطاء وورطات قد يهلك فيها.

٩ ـ علم القراءات لمعرفة كيفية النطق بالقرآن وترجيح بعض الوجوه المحتملة للمعاني الأكثر رجحاناً بالنسبة للقارئين بها على البعض الأقل والأضعف.

١٠ ـ علم الفقه لمعرفة الأحكام الشرعية العملية فيه وبيانها في محالّها، وآراء المجتهدين فيها والأخذ بما هو الأقوى دليلاً والأحوط عقيدة وتقى.

١١ ـ علم الموهبة وهو علم يورثه الله تعالى لمن يشاء من عباده العالمين العاملين المتقين فيلهمهم المعرفة بأسرار كتابه، قال عليه الصلاة والسلام: (من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم) وهذا كالأساس لهذا العلم ليطلع على معانيه بما يفيضه الله على قلبه وركن هذا العلم العكوف على التقوى، وملاكه العمل مع الورع، قال تعالى: ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله﴾[(١)].

١٢ ـ علم الاعتماد على الرأي فيما لا يهتدى إليه من كتاب أو سنة أو قول معتمد عليه، وهنا يجب السكوت لئلا يهلك؛ لأن الأمر عظيم ليس للرأي فيه مدخل بل لابد من الاعتماد على شيء معتبر. أخرج أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي ذر قال: قال ﷺ: «من قال بالقرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار» [أي من قال في مشكل القرآن ومتشابهه بما لا يعلم، أو من قال قولاً يعلم أن الحق غيره فقد تعرض لسخط الله الذي عاقبته النار والعياذ بالله]. وفي رواية «من تكلم بالقرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ» أي أخطأ طريق

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

الحق، إذ عليه أن يرجع إلى اللغة عند عدم الاهتداء إلى تفسير اللفظ وإلى الأخبار عند عدم اهتدائه إلى الناسخ والمنسوخ بالمعنى المراد فيهما، وإلى صاحب الشرع عند عدم اهتدائه لبيان المعنى المراد منه، فإن لم يحصل له الاهتداء على ما غمض عليه في هذه الطرق فلا بأس بمراجعة فكرته وقدح رويته ليستدل بما ورد على ما لم يرد، قال تعالى: ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن** ﴾[1]، وقوله جل قوله: ﴿ **ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾[2]، وقال عز قوله: ﴿**ليدبروا آياته**﴾[3]؛ لأن التفسير على صنفين:

نقلي ومستنده الآيات والأحاديث والآثار، وسماعي ومستنده اللغة والإعراب والبلاغة، هذا وقد أخرج أبو نعيم وغيره من حديث ابن عباس: القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على أحسن وجوهه. وروي عن علي ﷺ: أنه سئل هل خصكم رسول الله بشيء؟ قال: «ما عندي غير ما في هذه الصحيفة أو فهم يؤتاه الرجل في كتابه»[4].

قال الآلوسي فيما يحتاجه المفسّر: «فأما ما يحتاجه التفسير فأمور.

الاول: علم اللغة، لأن به يعرف شرح مفردات الألفاظ ومعلولاتها بحسب الوضع ولا يكفي اليسير إذ قد يكون اللفظ مشتركا وهو يعلم أحد المعنيين والمراد الآخر، فمن لم يكن عالما بلغات العرب لايحل له التفسير كما قاله مجاهد، وينكل كما قاله مالك - وهذا مما لاشبهة فيه - نعم روي عن أحمد: أنه سئل عن القرآن يمثل له الرجل ببيت من الشعر، فقال: ما يعجبني - وهو ليس بنص في المنع عن بيان المدلول اللغوى للعارف كما لايخفى.

الثاني: معرفة الأحكام التى للكلم العربية من جهة أفرادها وتركيبها ويؤخذ ذلك من علم النحو، أخرج أبو عبيدة عن الحسن: أنه سئل عن الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق ويقيم بها قراءته، فقال: حسن فتعلمها فان الرجل يقرأ الآية فيعيى بوجهها فيهلك فيها - وفى قصة الأسود ما يغنى عن الاطالة.

الثالث: علم المعاني والبيان والبديع، ويعرف بالاول خواص تراكيب الكلام من

---

١. من سورة محمد: الآية ٢٤.
٢. سورة النساء: الآية ٨٣.
٣. سورة ص: الآية ٢٩.
٤. بيان المعاني ج ١ ص ٧-٨.

جهة إفادتها المعنى ـ وبالثاني خواصها من حيث اختلافها ، وبالثالث وجوه تحسين الكلام ؛ وهو الركن الأقوم واللازم الاعظم في هذا الشأن كما لايخفى ذلك على من ذاق طعم العلوم ولو بطرف اللسان .

الرابع : تعيين مبهم وتبيين مجمل وسبب نزول ونسخ ويؤخذ ذلك من علم الحديث .

الخامس : معرفة الاجمال والتبيين والعموم والخصوص والاطلاق والتقييد ودلالة الأمر والنهي وما أشبه هذا وأخذه من أصول الفقه .

السادس : الكلام فيما يجوز على اللّٰه وما يجب له وما يستحيل عليه والنظر في النبوة ويؤخذ هذا من علم الكلام ولولاه يقع المفسر في ورطات .

السابع : علم القراءات لأنه به يعرف كيفية النطق بالقرآن ، وبالقراءات ترجح بعض الوجوه المحتملة على بعض، هذا ـ وعدّ السيوطي مما يحتاج اليه المفسر علم التصريف وعلم الاشتقاق ـ وأنا أظن أن المهارة ببعض ما ذكرنا يترتب عليها ما يترتب عليهما من الثمرة، وعدّ أيضا علم الفقه ولم يعده غيره ، ولكل وجهة .

ـ وعدّ علم الموهبة أيضا من ذلك ـ قال : وهو علم يورثه اللّٰه تعالى لمن عمل بما علم وإليه الاشارة بالحديث: «من عمل بما علم أورثه اللّٰه علم مالم يعلم»، ثم قال: ولعلك تستشكل علم الموهبة وتقول: هذا شيء ليس في قدرة الانسان تحصيله ، وليس كما ظننت والطريق في تحصيله ارتكاب الأسباب الموجبة له من العمل والزهد إلى آخر ما قاله ، وفيه : إن علم الموهبة بعد تسليم انه كسبي إنما يحتاج اليه في الاطلاع على الاسرار لا في أصل فهم معاني القرآن ، كما يفهمه كلام البرهان وكثير من المفسرين بصدد الثاني والواقفون على الأسرار ـ وقليل ما هم ـ لايستطيعون التعبير عن كثير مما أفيض عليهم ، فضلا عن تحريره وإقامة البرهان عليه ، على أن ذلك تأويل لا تفسير فلعل السيوطي أراد من عبارته معنى آخر يظهر لك بالتدبر فتدبر»[1] .

قال ابن عاشور في استمداد علم التفسير :

«استمداد العلم يراد به توقفه على معلومات سابقٍ وجودها على وجود ذلك العلم

---

١ . روح المعاني ج ١ ص ٥ ـ ٦.

عند مدونيه لتكون عونا لهم على إتقان تدوين ذلك العلم، وسمي ذلك في الاصطلاح بالاستمداد عن تشبيه احتياج العلم لتلك المعلومات بطلب المدد، والمدد العون والغوث، فقرنوا الفعل بحرفي الطلب وهما السين والتاء، وليس كل ما يذكر في العلم معدودا من مدده، بل مدده ما يتوقف عليه تقومه، فأما ما يورد في العلم من مسائل علوم أخرى، عند الإفاضة في البيان، مثل كثير من إفاضات فخر الدين الرازي، في «مفاتيح الغيب» فلا يعد مددا للعلم، ولا ينحصر ذلك ولا ينضبط، بل هو متفاوت على حسب مقادير توسع المفسرين ومستطرداتهم، فاستمداد علم التفسير للمفسر العربي والمولد من المجموع الملتئم من علم العربية وعلم الآثار، ومن أخبار العرب وأصول الفقه، قيل: وعلم الكلام وعلم القراءات.

أما العربية فالمراد منها معرفة مقاصد العرب من كلامهم وأدب لغتهم سواء حصلت تلك المعرفة بالسجية والسليقة، كالمعرفة الحاصلة للعرب الذين نزل القرآن بين ظهرانيهم، أم حصلت بالتلقي والتعلم كالمعرفة الحاصلة للمولدين الذين شافهوا بقية العرب ومارسوهم، والمولدين الذين درسوا علوم اللسان ودونوها.

إن القرآن كلام عربي فكانت قواعد العربية طريقاً لفهم معانيه، وبدون ذلك يقع الغلط وسوء الفهم لمن ليس بعربي بالسليقة، ويعني بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي، وهي: متن اللغة، والتصريف، والنحو، والمعاني، والبيان. ومن وراء ذلك استعمال العرب المتبع من أساليبهم في خطبهم وأشعارهم وتراكيب بلغائهم، ويدخل في ذلك ما يجري مجرى التمثيل والاستئناس للتفسير من أفهام أهل اللسان أنفسهم لمعاني آيات غير واضحة الدلالة عند المولدين، قال في الكشاف: «ومن حق مفسر كتاب الله الباهر، وكلامه المعجز أن يتعاهد في مذاهبه بقاء النظم على حسنه والبلاغة على كمالها، وما وقع به التحدي سليماً من القادح، فإذا لم يتعاهد أوضاع اللغة فهو من تعاهد النظم والبلاغة على مراحل»[1] ولعلمَي البيان والمعاني مزيد اختصاص بعلم التفسير لأنهما وسيلة لإظهار خصائص البلاغة القرآنية، وما تشتمل عليه الآيات

---

١. انظره عند قوله تعالى: ﴿ ويمدهم في طغيانهم يعمهون ﴾ في سورة البقرة.

من تفاصيل المعانى وإظهار وجه الإعجاز ، ولذلك كان هذان العلمان يسميان فى القديم «علم دلائل الإعجاز»، قال فى الكشاف : «علم التفسير الذى لايتم لتعاطيه واجالة النظر فيه كل ذى علم ، فالفقيه وإن برز على الأقران فى علم الفتاوى والأحكام ، والمتكلم وإن برز على أهل الدنيا فى صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإنكان من ابن القرية أحفظ ، والواعظ وإن كان من الحسن البصرى أوعظ ، والنحوى وإن كان أنحى من سيبويه ، واللغوى وإن علك اللغات بقوة لحييه ، لايتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ، ولايغوص على شىء من تلك الحقائق ، إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن وهما علما البيان والمعانى اهـ»[١].

وقال فى تفسير سورة الزمر عند قوله تعالى: ﴿ والسمٰوات مطويات بيمينه﴾[٢] : «وكم من آية من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول ، قد ضيم وسيم الخسف ، بالتأويلات الغثة ، والوجوه الرثة ، لأن من تأولها ليس من هذا العلم فى عير ولا نفير ، ولايعرف قبيلاً منه من دبير» يريد به علم البيان.

وقال السكاكى فى مقدمة القسم الثالث من كتاب المفتاح : «وفيما ذكرنا ما ينبه على أن الواقف على تمام مراد الحكيم تعالى وتقدس من كلامه مفتقر إلى هٰذين العلمين المعانى والبيان كل الافتقار ، فالويل كل الويل لمن تعاطى التفسير وهو فيهما راجل» .

قال السيد الجرجانى فى شرحه : «ولاشك أن خواص نظم القرآن أكثر من غيرها فلابد لمن أراد الوقوف عليها ، إن لم يكن بليغا سليقة ، من هٰذين العلمين . وقد أصاب السكاكى بذكر الحكيم المَحَزَّ ، أى أصاب المحز إذ خص بالذكر هذا الاسم من بين الأسماء الحسنى، لأن كلام الحكيم يحتوى على مقاصد جليلة ومعانى غالية ، لا يحصل الاطلاع على جميعها أو معظمها إلا بعد التمرس بقواعد بلاغة الكلام المفرغة فيه ، وفى قوله ينبه إشارة إلى أن من حقه أن يكون معلوما ولكنه قد يغفل عنه ، وقوله: فالويل كل الويل تنفير ، لأن من لم يعرف هٰذين العلمين إذا شرع فى تفسير القرآن واستخراج لطائفه أخطأ غالبا ، وإن أصاب نادرا كان مخطئا فى إقدامه عليه اهـ» . وقوله : تمام مراد

---

١ . ديباجة الكشاف. ٢ . سورة الزّمر : الآية ٦٧.

الحكيم، أى المقصود هو معرفة جميع مراد اللّه من قرآنه، وذلك إما ليكثر الطلب واستخراج النكت، فيدأب كل أحد للاطلاع على غاية مراد اللّه تعالى، وإما أن يكون المراد الذى نصب عليه علامات بلاغية وهو منحصر فيما يقتضيه المقام بحسب التتبع، والكل مظنة عدم التناهي وباعث للناظر على بذل غاية الجهد فى معرفته، والناس متفاوتون فى هذا الاطلاع على قدر صفاء القرائح ووفرة المعلومات، وقال أبو الوليد ابن رشد، فى جواب له عمن قال: إنه لايحتاج إلى لسان العرب ما نصه: «هذا جاهل فلينصرف عن ذلك وليتب منه فإنه لايصح شىء من أمور الديانة والإسلام إلا بلسان العرب، يقول اللّه تعالى: ﴿بلسان عربي مبين﴾[1] إلا أن يرى أنه قال ذلك لخبث فى دينه فيؤدبه الإمام على قوله ذلك بحسب ما يرى، فقد قال عظيما اهـ»، ومراد السكاكى، من تمام مراد اللّه ما يتحمله الكلام من المعانى الخصوصية، فمن يفسر قوله تعالى: ﴿إياك نعبد﴾[2] بأنا نعبدك لم يطلع على تمام المراد، لأنه أهمل ما يقتضيه تقديم المفعول من القصد.

وقال فى آخر فن البيان من المفتاح: «لا أعلم فى باب التفسير بعد علم الأصول أقرأ على المرء لمراد اللّه من كلامه، من علمى المعانى والبيان، ولا أعون على تعاطى تأويل متشابهاته، ولا أنفع فى درك لطائف نكته وأسراره، ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه، ولكم آية من آيات القرآن تراها قد ضيمت حقها واسْتُلِبَتْ ماءَها ورَونَقَها أن وقعت إلى من ليسوا من أهل هذا العلم، فأخذوا بها فى مآخذ مردودة، وحملوها على محامل غير مقصودة إلخ».

وقال الشيخ عبدالقاهر فى دلائل الإعجاز ـ فى آخر فصل المجاز الحكمى ـ: «ومن عادة قوم ممن يتعاطى التفسير بغير علم، أن يتوهموا لباب الألفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل أنها على ظواهرها أى؛ على الحقيقة، فيفسدوا المعنى بذلك ويبطلوا الغرض ويمنعوا أنفسهم والسامع منهم العلم بموضع البلاغة وبمكان الشرف، وناهيك بهم إذا أخذوا فى ذكر الوجوه وجعلوا يكثرون فى غير طائل، هنالك ترى ما شئت من

١. سورة الشّعراء: الآية ١٩٥.
٢. سورة الحمد: الآية ٤.

باب جهل قد فتحوه، وزند ضلالة قد قدحوا به» .

وأما استعمال العرب ، فهو التملي من أساليبهم في خطبهم وأشعارهم وأمثالهم وعوائدهم ومحادثاتهم ، ليحصل بذلك لممارسة المولد ذوق يقوم عنده مقام السليقة والسجية عند العربي القُحّ «والذوق كيفية للنفس بها تدرك الخواص والمزايا التي للكلام البليغ»، قال شيخنا الجد الوزير: «وهي ناشئة عن تتبع استعمال البلغاء فتحصل لغير العربي بتتبع موارد الاستعمال والتدبر في الكلام المقطوع ببلوغه غاية البلاغة ، فدعوى معرفة الذوق لاتقبل إلا من الخاصة وهو يضعف ويقوى بحسب مثافنة ذلك التدبر» اهـ.

ولله دره في قوله: المقطوع ببلوغه غاية البلاغة المشير إلى وجوب اختيار الممارس لما يطالعه من كلامهم وهو الكلام المشهود له بالبلاغة بين أهل هذا الشأن ، نحو المعلقات والحماسة ونحو نهج البلاغة ومقامات الحريري ورسائل بديع الزمان .

قال صاحب المفتاح قبيل الكلام على اعتبارات الإسناد الخبري: «ليس من الواجب في صناعته وإن كان المرجع في أصولها وتفاريعها إلى مجرد العقل ، أن يكون الدخيل فيها كالناشىء عليها في استفادة الذوق منها ، فكيف إذا كانت الصناعة مستندة إلى تحكيمات وضعية ، واعتبارات إلفية ، فلا بأس على الدخيل في علم المعاني ، أن يقلد صاحبه في بعض فتاواه إن فاته الذوق هناك إلى أن تتكامل له على مهلٍ موجبات ذلك الذوق اهـ» .

ولذلك - أي لإيجاد الذوق أو تكميله - لم يكن غنى للمفسر في بعض المواضع من الاستشهاد على المراد في الآية ، بيت من الشعر ، أو بشيء من كلام العرب لتكميل ما عنده من الذوق ، عند خفاء المعنى ، ولإقناع السامع والمتعلم اللذين لم يكمل لهما الذوق في المشكلات .

وهذا - كما قلناه آنفاً - شيء وراء قواعد علم العربية . وعلم البلاغة به يحصل انكشاف بعض المعاني واطمئنان النفس لها ، وبه يترجح أحد الاحتمالين على الآخر في معاني القرآن ، ألا ترى أنه لو اطلع أحد على تفسير قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا

لايَسْخَرْ قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء ﴾[1]، وعرض لديه احتمال أن يكون عطف قوله: ﴿ ولا نساء ﴾ على قوله: ﴿ قوم ﴾ عطف مباين، أو عطف خاص على عام فاستشهد المفسر في ذلك بقول زهير:

وما أدري وسوف إخالُ أدري ... أقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أم نساء

كيف تطمئن نفسه لاحتمال عطف المباين دون عطف الخاص على العام، وكذلك إذا رأى تفسير قوله تعالى: ﴿ وامسحوا برؤوسكم ﴾[2] وتردد عنده احتمال أن الباء فيه للتأكيد أو أنها للتبعيض أو للآلة وكانت نفسه غير مطمئنة لاحتمال التأكيد إذ كان مدخول الباء مفعولا، فإذا استشهد له على ذلك بقول النابغة:

لك الخَيْر إنْ وارت بك الأرض واحداً ... وأصبح جَدُّ الناس يظلع عاثرا

وقول الأعشى:

فكلنا مغرم يهوى بصاحبه ... قاصٍ ودان ومَخْبُول ومُخْتَبَل

رجح عنده احتمال التأكيد وظهر له أن دخول الباء على المفعول للتأكيد طريقة مسلوكة في الاستعمال.

روى أئمة الأدب: أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر قوله تعالى: ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾[3] ثم قال: ما تقولون فيها. أي في معنى التخوف، فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا، التخوف التنقص، فقال عمر: وهل تعرف العرب ذلك في كلامها؟ قال نعم قال أبو كبير الهذلي:

تَخَوَّفَ الرّحلُ منها تامِكا قَرِدًا ... كما تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ[4]

فقال عمر: «عليكم بديوانكم لا تضلوا، هو شعر العرب فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم»، وعن ابن عباس: «الشعر ديوان العرب فإذا خفي علينا الحرف من القرآن، الذي أنزله الله بلغتهم رجعنا إلى ديوانهم فالتمسنا معرفة ذلك منه»، وكان كثيرا ما ينشد الشعر إذا سئل عن بعض حروف القرآن. قال القرطبي: سئل ابن عباس، عن السنة في

١. سورة الحجرات: الآية ١١.
٢. سورة المائدة: الآية ٦.
٣. سورة النّحل: الآية ٤٧.
٤. التامك: السنام، وقرد بفتح القاف وكسر الراء: كثير القراد، والسفن ـ بفتحتين ـ المبرد.

قوله تعالى: ﴿ لا تَأخُذُه سِنَةٌ ولا نَوم ﴾[١] فقال: النعاس، وانشد قول زهير:

لا سِنَة في طُوَالِ الليل تأخذه ولا يـنام ولا فـي أمْرِه فَنَدُ

وسُئل عكرمة ما معنى الزنيم؟، فقال: هو ولد الزنى وأنشد:

زَنيمٌ ليس يعرف مَن أبوه بَـغِيُّ الأمِّ ذُو حسب لئيمِ

فمما يؤثر[٢] عن أحمد بن حنبل رحمه الله، أنه سئل عن تمثل الرجل ببيت شعر لبيان معنى في القرآن، فقال: «ما يعجبني» فهو عجيب، وإن صح عنه فلعله يريد كراهة أن يذكر الشعر لإثبات صحة ألفاظ القرآن كما يقع من بعض الملاحدة، روي أن ابن الراوندي[٣] (وكان يُزَنُّ بالألحاد) قال لابن الأعرابي: «أتقول العرب لباس التقوى»، فقال ابن الأعرابي: لا بأس لا بأس، وإذا أنجى الله الناس، فلا نجى ذلك الرأس، هبك يابن الراوندي تنكر أن يكون محمدٌ نبياً أفتنكر أن يكون فصيحا عربيا ؟».

ويدخل في مادة الاستعمال العربي ما يؤثر عن بعض السلف في فهم معاني بعض الآيات على قوانين استعمالهم، كما روى مالك في الموطأ عن عروة بن الزبير قال: «قلت لعائشة ـ وأنا يومئذ حديث السن ـ: أرأيت قول الله تعالى: ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطَّوَّفَ بهما ﴾[٤]، فما على الرجل شيء أن لا يطوف بهما، فقالت عائشة: كلا لو كان كما تقول، لكانت فلا جناح عليه أن لايطوف بهما، إنما نزلت هذهالآية في الأنصار كانوا يهلّون لمناة الطاغية، وكانت مناة حذو قديد، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله عن ذلك، فأنزل الله: ﴿ إن الصفا والمروة ﴾ الآية اهـ، فبينت له ابتداء طريقة استعمال العرب لو كان المعنى كما وهمه عروة ثم بينت له مثار شبهته الناشئة عن قوله تعالى: ﴿ فلا جناح عليه ﴾ الذي ظاهره رفع الجناح عن الساعي الذي يصدق بالإباحة دون الوجوب.

وأما الآثار فالمعنى بها ما نقل عن النبي ﷺ، من بيان المراد من بعض القرآن في مواضع

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٥٥.
٢. ذكره الألوسي.
٣. توفي سنة ٢٤٠.
٤. سورة البقرة: الآية ١٥٨.

الإشكال والإجمال، وذلك شيء قليل. قال ابن عطية عن عائشة: «ما كان رسول اللّٰه يفسر من القرآن إلا آيات معدودات علمه إياهن جبريل»، قال: معناه فى مغيبات القرآن وتفسير مجمله مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف، قلت: أو كان تفسيرا لا توقيف فيه، كما بين لعدى بن حاتم: أن الخيط الأبيض والخيط الأسود هما سواد الليل وبياض النهار، وقال له: إنك لعريض الوسادة، وفى رواية: إنك لعريض القفا، وما نقل عن الصحابة الذين شاهدوا نزول الوحي من بيان سبب النزول، وناسخ ومنسوخ، وتفسير مبهم، وتوضيح واقعة من كل ما طريقهم فيه الرواية عن الرسول ﷺ، دون الرأى وذلك مثل كون المراد من: ﴿المغضوب عليهم﴾[١] اليهود ومن ﴿الضالين﴾[٢] النصارى، ومثل كون المراد من قوله تعالى: ﴿ ذَرْنِى ومَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾[٣] الوليد بن المغيرة المخزومى أبا خالد بن الوليد، وكون المراد من قوله تعالى: ﴿أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتينّ مالاً وولدا﴾[٤] الآية، العاصى بن وائل السهمى فى خصومته بينه وبين خباب بن الأرت، كما فى صحيح البخارى فى تفسير سورة المدثر.

قال ابن عباس: مكثت سنين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول اللّٰه ﷺ ما يمنعنى إلا مهابته، ثم سألته، فقال: هما حفصة وعائشة. ومعنى كون أسباب النزول من مادة التفسير، أنها تعين على تفسير المراد، وليس المراد أن لفظ الآية يقصر عليها، لأن سبب النزول لايخصص، قال تقى الدين السبكى: وكما أن سبب النزول لايخصص، كذلك خصوص غرض الكلام لايخصص، كأن يرد خاص ثم يعقبه عام للمناسبة فلا يقتضى تخصيص العام، نحو: ﴿ فلا جناح عليهما أنْ يُصلحا بينهما صُلحا والصلحُ خير ﴾[٥]، وقد يكون المروى فى سبب النزول مبيِّنا ومؤوِّلا لظاهر غير مقصود، فقد توهم قدامة بن مظعون من قوله تعالى: ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ﴾[٦] فاعتذر بها لعمر بن الخطاب فى شرب قدامة خمرا، روى أن عمر استعمل قدامة ابن مظعون على البحرين فقدم الجارود على عمر، فقال: إن قدامة شرب

١. سورة الحمد: الآية ٧.
٢. سورة الحمد: الآية ٧.
٣. سورة المدّثر: الآية ١١.
٤. سورة مريم: الآية ٧٧.
٥. سورة النّساء: الآية ١٢٨.
٦. سورة المائدة: الآية ٩٣.

فسكر، فقال عمر: من يشهد على ما تقول ؟ قال الجارود: أبو هريرة يشهد على ما أقول وذكر الحديث، فقال عمر: يا قدامة إنى جالدك، قال: والله لو شربت كما يقولون ما كان لك أن تجلدني، قال عمر: ولم ؟ قال: لأن الله يقول: ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح ﴾، الآية فقال عمر: إنك أخطأت التأويل يا قدامة، إذا اتقيت الله اجتنب ما حرم الله. وفى رواية فقال: لم تجلدنى ؟! بينى وبينك كتاب الله، فقال عمر: وأى كتاب الله تجد أن لا أجلدك ؟ قال: إن الله يقول فى كتابه: ﴿ ليس على الذين آمنوا ﴾ إلى آخر الآية، فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وأحسنوا، شهدت مع رسول الله بدرا وأُحُدا والخندق والمشاهد، فقال عمر: ألا تردون عليه قوله ! فقال: ابن عباس، إن هؤلاء الآيات أنزلن عذرا للماضين وحجةً على الباقين، فعذر الماضين بأنهم لقوا الله قبل أن تحرم عليهم الخمر، وحجة على الباقين لأن الله يقول: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر﴾[1] ثم قرأ إلى آخر الآية الأخرى، فإن كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا وأحسنوا فإن الله قد نهى أن يشرب الخمر، قال عمر صدقت. الحديث».

وتشمل الآثار إجماع الأمة على تفسير معنى، إذ لا يكون إلا عن مستند كإجماعهم على أن المراد من الأخت فى آية الكلالة الأولى هى الأخت للأم، وأن المراد من الصلاة فى سورة الجمعة هى صلاة الجمعة، وكذلك المعلومات بالضرورة كلها ككون الصلاة مرادا منها الهيئة المخصوصة دون الدعاء، والزكاة المال المخصوص المدفوع.

وأما القراءات: فلا يحتاج إليها إلا فى حين الاستدلال بالقراءة على تفسير غيرها، وإنما يكون فى معنى الترجيح لأحد المعانى القائمة من الآية أو لاستظهار على المعنى، فذكر القراءة كذكر الشاهد من كلام العرب، لأنها إن كانت مشهورة، فلا جرم أنها تكون حجة لغوية، وإن كانت شاذة فحجتها لا من حيث الرواية، لأنها لا تكون صحيحة الرواية، ولكن من حيث إن قارئها ما قرأ بها إلا استنادا لاستعمال عربى صحيح، إذ لا يكون القارىء معتدا به إلا إذا عرفت سلامة عربيته، كما احتجوا على أن أصل الحمد لله أنه منصوب على المفعول المطلق بقراءة هارون العتكى الحمدَ لله بالنصب كما فى الكشاف،

---

١ . سورة المائدة: الآية ٩٠.

وبذلك يظهر أن القراءة لاتعد تفسيرا من حيث هى طريق فى أداء ألفاظ القرآن، بل من حيث إنها شاهد لغوى فرجعت إلى علم اللغة.

وأما أخبار العرب: فهي من جملة أدبهم وإنما خصصتها بالذكر تنبيهاً لمن يتوهم أن الاشتغال بها من اللغو فهي يستعان بها على فهم ما أوجزه القرآن فى سوقها؛ لأن القرآن إنما يذكر القصص والأخبار للموعظة والاعتبار، لا لأن يتحادث بها الناس فى الأسمار، فبمعرفة الأخبار يعرف ما أشارت له الآيات من دقائق المعاني. فنحو قوله تعالى ﴿ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ﴾[١]، وقوله: ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾[٢] يتوقف على معرفة أخبارهم عند العرب.

وأما أصول الفقه: فلم يكونوا يعدونه من مادة التفسير، ولكنهم يذكرون أحكام الأوامر والنواهي والعموم وهي من أصول الفقه، فتحصّل أن بعضه يكون مادة للتفسير وذلك من جهتين: إحداهما أن علم الأصول قد أودعت فيه مسائل كثيرة هي من طرق استعمال كلام العرب وفهم موارد اللغة، أهمل التنبيه عليها علماء العربية مثل مسائل الفحوى ومفهوم المخالفة، وقد عد الغزالي على الأصول من جملة العلوم التى تتعلق بالقرآن وبأحكامه فلا جرم أن يكون مادة للتفسير.

الجهة الثانية: أن علم الأصول يضبط قواعد الاستنباط ويفصح عنها فهو آلة للمفسر فى استنباط المعاني الشرعية من آياتها.

وقد عد عبدالحكيم والآلوسي، أخذاً من كلام السكاكي، فى آخر فن البيان الذى تقدم آنفا وما شرحه به شارحاه التفتزاني والجرجاني، علم الكلام في جملة ما يتوقف عليه علم التفسير، قال عبدالحكيم: «لتوقف علمالتفسير على إثبات كونه تعالى متكلما، وذلك يحتاج إلى علم الكلام».

وقال الآلوسي: «لتوقف فهم ما يجوز على الله ويستحيل على الكلام»، يعني من آيات التشابه فى الصفات مثل: ﴿ الرحمٰن على العرش استوى ﴾[٣]، وهذا التوجيه

---

١. سورة النّحل: الآية ٩٢. ٢. سورة البروج: الآية ٤.
٣. سورة طه: الآية ٥.

أقرب من توجيه عبدالحكيم ، وهو مأخوذ من كلام السيد الجرجاني في شرح المفتاح ، وكلاهما اشتباه ؛ لأن كون القرآن كلام الله قد تقرر عند سلف الأمة قبل علم الكلام ، ولا أثر له في التفسير ، وأما معرفة ما يجوز وما يستحيل فكذلك ، ولا يحتاج لعلم الكلام إلا في التوسع في إقامة الأدلة على استحالة بعض المعاني ، وقد أبنت أن ما يحتاج إليه المتوسع لا يصير مادة للتفسير .

ولم نعدّ الفقه من مادة علم التفسير كما فعل السيوطي ، لعدم توقف فهم القرآن ، على مسائل الفقه ، فإنّ علم الفقه متأخر عن التفسير وفرع عنه ، وإنما يحتاج المفسر إلى مسائل الفقه ، عند قصد التوسع في تفسيره ، للتوسع في طرق الاستنباط وتفصيل المعاني تشريعا وآدابا وعلوما ، ولذلك لايكاد يحصر ما يحتاجه المتبحر في ذلك من العلوم ، ويوشك أن يكون المفسر المتوسع محتاجا إلى الإلمام بكل العلوم وهذا المقام هو الذي أشار له البيضاوي بقوله : « لا يليق لتعاطيه ، والتصدي للتكلم فيه ، إلا من برع في العلوم الدينية ، كلها أصولها وفروعها ، وفي الصناعات العربية والفنون الأدبية بأنواعها » .

تنبيه : اعلم أنه لايعدّ من استمداد علم التفسير ، الآثار المروية عن النبي ﷺ ، في تفسير آيات ، ولا ما يروى عن الصحابة في ذلك لأن ذلك من التفسير لا من مدده ، ولا يعد أيضا من استمداد التفسير ما في بعض آي القرآن من معنى يفسر بعضا آخر منها ، لأن ذلك من قبيل حمل بعض الكلام على بعض ، كتخصيص العموم وتقييد المطلق وبيان المجمل وتأويل الظاهر ودلالة الاقتضاء وفحوى الخطاب ولحن الخطاب ، ومفهوم المخالفة .

ذكر ابن هشام، في مغني اللبيب، في حرف لا، عن أبي علي الفارسي : أن القرآن كله كالسورة الواحدة، ولهذا يذكر الشيء في سورة وجوابه في سورة أخرى، نحو : ﴿ وقالوا ياأيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾[1] ، وجوابه: ﴿ماأنت بنعمة ربك بمجنون﴾[2] اهـ

وهذا كلام لايحسن إطلاقه ، لأن القرآن قد يحمل بعض آياته على بعض وقد يستقل بعضها عن بعض ، إذ ليس يتعين أن يكون المعنى المقصود في بعض الآيات مقصودا

---

١ . سورة الحجر : الآية ٦ .

٢ . سورة القلم : الآية ٢ .

في جميع نظائرها، بله ما يقارب غرضها.

واعلم أن استمداد علم التفسير، من هذه المواد لا ينافي كونه رأس العلوم الإسلامية كما تقدم، لأن كون رأس العلوم الإسلامية، معناه أنه أصل لعلوم الإسلام على وجه الإجمال، فأما استمداده من بعض العلوم الإسلامية فذلك استمداد لقصد تفصيل التفسير على وجه أتم من الإجمال، وهو أصل لما استمد منه باختلاف الاعتبار على ما حققه عبدالحكيم»[1].

قال الطوسي (ره) : «... ذكرنا هذه الجملة تنبيهاً عن الجواب عما لم نذكره، ولعلنا نستوفيه فيما بعد اذا جرى ما يقتضي ذكره ولولا عناد الملحدين، وتعجرفهم، لما احتيج الى الاحتجاج بالشعر وغيره للشيء المشتبه في القرآن، لأن غاية ذلك أن يستشهد عليه ببيت شعر جاهلي، او لفظ منقول عن بعض الأعراب، أو مثل سائر عن بعض أهل البادية. ولا تكون منزلة النبي ﷺ ـ وحاشاه من ذلك ـ أقل من منزلة واحد من هؤلاء. ولا ينقص عن رتبة النابغة الجعدي، وزهير بن الكعب وغيرهم. ومن طرائف الامور ان المخالف اذا أورد عليه شعر من ذكرناه، ومن هو دونهم سكنت نفسه، واطمأن قلبه. وهو لا يرضى بقول محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب. ومهما شك الناس في نبوته: فلا مرية في نسبه، وفصاحته، فأنه نشأ بين قومه الذين هم الغاية القصوى في الفصاحة، ويرجع اليهم في معرفة اللغة. ولو كان المشركون من قريش وغيرهم وجدوا متعلقاً عليه في اللحن والغلط والمناقضة، لتعلقوا به وجعلوه حجة وذريعة الى اطفاء نوره وابطال امره، واستغنوا بذلك عن تكلف ما تكلفوه من المشاق في بذل النفوس والاموال. ولو فعلوا ذلك لظهر واشتهر، ولكن حب الإلحاد والاستثقال لتحمل العبادات، والميل الى الفواحش اعماهم وأصمهم، فلا يدفع أحد من الملحدين ـ وان جحدوا نبوته ﷺ ـ أنه اتى بهذا القرآن، وجعله حجةً لنفسه، وقرأه على العرب. وقد علمنا أنه ليس بأدون الجماعة في الفصاحة. وكيف يجوز أن يحتج بشعر الشعراء عليه، ولا يجوز أن يحتج بقوله عليهم؟ وهل هذا إلا عناد محض، وعصبية صرف[2]؟ وانما يحتج علماء

---

١. التحرير والتنوير ج ١ ص ١٨ ـ ٢٧.

٢. والصحيح: صرفة.

الموحدين بشعر الشعراء وكلام البلغاء، اتساعاً في العلم، وقطعاً للشغب، وازاحة للعلة، و إلاّ فكان يجب ألا يلتفت الى جميع ما يطعن عليه، لأنهم ليسوا بان يجعلوا عياراً عليه باولى من ان يجعل هو ﷺ عياراً عليهم»[١].

قال النهاوندي (ره) في نقل تحقيق بعض العامة في وجه الحاجة الى تفسير الكتاب بالرجوع الى الراسخين في العلم:

«وقال بعض في وجه الحاجة الى تفسير الكتاب بالرجوع الى الراسخين في العلم زائداً على ما ذكرنا: إن من المعلوم أن اللّه تعالى خاطب خلقه بما يفهمونه ولذلك ارسل كل رسول بلسان قومه وانزل كتابه على لغتهم ومع ذلك يحتاج الى التفسير لوجه يظهر بعد تقرير قاعدة وهي: ان كلاً من البشر اذا وضع كتابا فانما وضعه ليفهم بذاته من غير شرح وانما احتيج الى الشروح لامور ثلاثة؛

أحدها: كمال فضيلة المصنف؛ فانه لقوته العلمية يجمع المعاني الدقيقة في اللفظ الوجيز، فربما عسر فهم مراده فقصد بالشرح ظهور تلك المعاني الخفية، ومن هنا كان شرح بعض الائمة تصنيفه ادل على المراد من شرح غيره له؛

وثانيها: إغفاله بعض تتمات المسألة او شرط لها اعتمادا على وضوحها او لانها من علم آخر فيحتاج الى الشارح لبيان المحذوف ومراتبه؛

وثالثها: إحتمال اللفظ لمعان كما في المجاز والاشتراك ودلالة الالتزام فيحتاج الشارح الى بيان غرض المصنف وترجيحه، وقد يقع في التصانيف ما لايخلو عنه بشر من السهو والغلط او تكرار الشيء او حذف مبهم وغير ذلك، فيحتاج الشارح للتنبيه على ذلك اذا تقرر هذا.

فنقول: إن القرآن انما نزل بلسان عربي في زمان افصح العرب، وكانوا يعلمون ظواهره واحكامه أما دقايق باطنه فانما كانت تظهر لهم بعد البحث والنظر والسؤال عن النبي ﷺ في الاكثر، كسؤالهم لما نزل قوله: «ولم يلبسوا إيمانهم بظلم» فقالوا: وأيّنا لم يظلم نفسه؟ ففسره النبيﷺ بالشرك، واستدل عليه بقوله: «إن الشرك لظلم عظيم»،

---

١. التبيان ج ١ ص ١٦ ـ ١٧.

وكسؤال عايشة عن الحساب اليسير ، فقال : «ذلك العرض»، وكقصة عدى بن حاتم فى الخيط الابيض والاسود وغير ذلك مما سألوا عن آحاد منه ، ونحن محتاجون الى ما كانوا يحتاجون اليه وزيادة على ذلك مما لم يحتاجوا اليه من احكام الظواهر لقصورنا عن مدارك احكام اللغة بغير تعلم ، فنحن اشد الناس احتياجاً الى التفسير ومعلوم ان تفسيره بعضه يكون من قبيل الالفاظ الوجيزة وكشف معانيها وبعضه من قبيل ترجيح بعض الاحتمالات على بعض انتهى .

وقال بعض آخر : علم التفسير عسير يسير ، أما عسره فظاهر من وجوه : أظهرها أنه كلام متكلم لم نصل الى مراده بالسماع منه ولا امكن الوصول اليه بخلاف الامثال والاشعار ونحوها ؛ فان الانسان يمكن علمه به اذا تكلم بأن يسمع منه او ممن سمع منه، وأما القرآن فتفسيره على وجه القطع لايعلم إلاّ بأن يسمع من الرسول .

اقول : ولذا ورد إنما يعرف القرآن من خوطب به كما عن الباقر عليه السلام فى رواية الكافى باسناده عن زيد الشحام ، قال : دخل قتادة على ابى جعفر عليه السلام فقال : يا قتادة انت فقيه اهل البصرة ، فقال : هكذا يزعمون ، فقال ابو جعفر عليه السلام : «بلغنى أنك تفسر القرآن» قال له قتادة: نعم ، فقال ابو جعفر عليه السلام : «بعلم تفسّره ام بجهل» قال : لا بل بعلم ، فقال له ابو جعفر عليه السلام : «فان كنت تفسره فانت انت وانا اسئلك» قال قتادة : سلنى ، قال : «أخبرنى عن قول اللّه تعالى فى سبأ : ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ ﴾[1] فقال قتادة : ذلك من خرج من بيته بزاد وراحلة وكرى حلال يريد هذا البيت كان امناً حتى يرجع الى اهله ، فقال ابو جعفر عليه السلام : «نشدتك باللّه يا قتادة ، هل تعلم أنه قد يخرج الرجل من بيته بزاد وراحلة وكرى حلال يريد هذا البيت فيقطع عليه الطريق فتذهب نفقته ويضرب مع ذلك ضربه فيها احتياجه» قال قتادة : اللهم نعم ، فقال ابو جعفر عليه السلام : «ان كنت إنما فسرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت واهلكت وان كنت اخذته من الرجال فقد هلكت واهلكت ، ويحك يا قتادة ذلك من خرج من بيته بزاد حلال وكرى حلال يؤمّ هذا البيت عارفا بحقنا فهوآنا قلبه كما قال اللّه تعالى: ﴿ وَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ

---

[1] . سورة سبأ : الآية ١٨ .

النّاسِ تَهوْي إلَيهِم ﴾[١]، ولم يعنِ البيت فيقول : اليه فنحن والله دعوة ابراهيم التى من هوانا قلبه قبلت حجته والا فلا ، يا قتادة فاذا كان كذلك كان آمناً من عذاب جهنم يوم القيامة» قال قتادة : لاجرم والله لافسرّتها الا هكذا ، فقال ابو جعفر عليه السلام : «ويحك يا قتادة إنما يعرف القرآن من خوطب به».

وعنه عليه السلام : «ليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن إن الآية ليكون اولها في شيء وآخرها في شيء وهو كلام متصل ينصرف على وجوه».

فتحصّل مما ذكرنا: أنه لايجوز تفسير المتشابهات وبيان تأويلها الا بالنص المعتبر عن النبي صلى الله عليه وآله او احد من ورّاث علمه من اوصيائه المعصومين عليهم السلام ، بل قد ظهر من ما قدمناه : أن في القرآن المجيد ناسخاً ومنسوخاً وعاماً اريد به الخاص ومطلقاً اريد به المقيد وكذا العكس ، فلايجوز العمل بمحكماته الا بعد الرجوع الى العلماء بها وهم الائمة المعصومين عليهم السلام ، فان العلم بجميعها عندهم ، لاحظّ لأحد غيرهم فيه الا من قبلهم، كما روى الكافي باسناده عن سليم بن قيس عن اميرالمؤمنين عليه السلام في حديث ،

قال : «ما نزلت آية على رسول الله صلى الله عليه وآله الا أقرأنيها وأملاها عليّ فكتبتها بخطي وعلّمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها ، ودعا الله أن يعلّمني فهمها وحفظها فما نسيت آية من كتاب الله ولا علما أملاه عليّ فكتبته منذ دعا، وما ترك شيئاً علّمه الله من حلالٍ ولا حرام ولا أمرٍ ولا نهي كان او يكون من طاعةٍ او معصيةٍ الا علّمنيه وحفظته فلم انس حرفاً واحداً ، ثم وضع يده على صدري ودعا الله ان يملأ قلبي علماً وفهماً وحكمة ونوراً ، فقلت: يا رسول الله صلى الله عليه وآله بابي انت وامي مذ دعوت الله لي بما دعوت لم أنس شيئاً ولم يفتني شيء لم اكتبه او تتخوف علي النسيان فيما بعد ، فقال : لست اتخوف عليك نسياناً وجهلاً».

وفي ذيل رواية اخرى قريبة من هذه : «وقد أخبرني ربي أنه قد استجاب لي فيك وفي شركائك الذين يكونون من بعدك ، فقلت : يا رسول الله صلى الله عليه وآله ومن شركائي من بعدي ؟ قال : الذين قرنهم الله بنفسه وبي فقال : ﴿ أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُوْلِى

١. سورة إبراهيم : الآية ٣٧.

الأمر منكم ﴾[١]، فقلت: ومن هم؟ قال: الأوصياء منى الى ان يردوا عليّ الحوض، كلهم هادين مهديين لايضرّهم من خذلهم، هم مع القرآن والقرآن معهم لايفارقهم ولا يفارقونه، بهم تنصر امتى وبهم تمطرو بهم يُدفع عنهم البلاء وبهم يستجاب دعاؤهم، فقلت: يا رسول الله سمّهم لى، فقال: إبنى هذا ووضع يده على رأس الحسن عليه السلام ثم ابنى هذا ووضع يده على رأس الحسين عليه السلام ثم ابن لى يقال له: علي وسيولد فى حياتك فاقرأه منى السلام، ثم تكملة اثني عشر من ولده، فقلت له: بابى انت وامى سمّهم لى فسماهم رجلاً رجلاً فقال: فيهم والله يا أخا بنى هلال مهدى امة محمد الذى يملأ الارض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً، والله إني لأعرف من يبايعه بين الركن والمقام، وأعرف اسماء آبائهم وقبائلهم».

وفيه باسناده عن ابى جعفر عليه السلام قال: «ما يستطيع أحد أن يدعى عنده جميع القرآن كله ظاهره وباطنه غير الاوصياء».

وباسناده عن ابى عبدالله عليه السلام في قوله: ﴿بل هو آياتٌ بيّناتٌ في صُدُور الذين اوُتوا العِلمَ﴾[٢] قال: «هم الأئمه عليهم السلام».

وفي العلل باسناده عنه عليه السلام أنه قال لأبي حنيفة: «انت فقيه أهل العراق؟» قال: نعم، قال: «فيم تفتيهم» قال: بكتاب الله وسنة نبيّه، قال: «يا ابا حنيفة تعرف كتاب اللّه حق معرفته وتعرف الناسخ والمنسوخ؟» فقال: نعم، فقال: «يا ابا حنيفة لقد ادعيت علما ويلك ما جعل اللّه ذلك الا عند اهل الكتاب الذين انزله عليهم ويلك ولا هو الا عند الخاص من ذرية نبينا وما اراك تعرف من كتابه حرفاً، فان كنت كما تقول ولست كما تقول فاخبرنى عن قول اللّه تعالى: ﴿سيروا فيها ليالى واياماً آمنين﴾[٣] اين ذلك من الارض؟» قال: أحسبه ما بين مكة والمدينة، فالتفت ابو عبداللّه عليه السلام الى اصحابه فقال: «تعلمون أن الناس يقطع عليهم ما بين المدينة والمكة فيؤخذ اموالهم ولايؤمنون على انفسهم ويقتلون» قالوا: نعم، فسكت ابو حنيفة، فقال: يا أبا حنيفة اخبرنى عن قول اللّه

---

١. سورة النّساء: الآية ٥٩.
٢. سورة العنكبوت: الآية ٤٩.
٣. سورة سبأ: الآية ١٨.

عز وجل: ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كانَ آمِناً ﴾ اين ذلك من الارض؟» قال: الكعبة. قال: «افتعلم أن الحجّاج بن يوسف حين وضع المنجنيق على ابن الزبير في الكعبة فقتله كان آمناً فيها» فسكت الخبر.

وروى العامة: أنه قال علي عليه السلام لقاض: «أتعرف الناسخ من المنسوخ؟» قال: لا، قال: «هلكت واهلكت».

إن قلت: يلزم مما ذكرت عدم جواز العمل بمحكمات القرآن لسقوط جميع نصوص الكتاب وظواهره عن الحجية للعلم الاجمالي بنسخ بعض احكامها وتخصيص بعض عموماتها وتقييد بعض مطلقاتها وارادة المجاز من بعض ظواهرها، مع أنك ادعيت جواز العمل بالمحكمات للادلة المتقدمة من الاوامر الواردة بالتمسك بالكتاب، وعرض الشروط والاخبار المتعارضة عليه وسيرة المسلمين،

قلنا: بعد الفحص في الروايات المروية عن المعصومين عليهم السلام وتحصيل الناسخ والمخصص والمبين والمقيد بمقدار ينطبق عليه المعلوم بالاجمال ينحل العلم الاجمالي وتبقى اصالة الظهور واصالة الحقيقة على حجيتها في البقية بلا اشكال»[1].

قال مغنية رحمه الله: «ولابد لهذا العلم من معدات ومؤهلات، منها العلوم العربية بشتى أقسامها، وعلم الفقه واصوله، ومنها الحديث وعلم الكلام، ليكون المفسر على بينة مما يجوز على الله وأنبيائه، وما يستحيل عليه وعليهم، ومنها كما يرى البعض علم التجويد والقراءات.

وهنا شيء آخر يحتاج اليه المفسر، وهو أهم وأعظم من كل ما ذكره المفسرون في مقدمة تفاسيرهم، لأنه الأساس والركيزة الأولى لتفهم كلامه جل وعلا. ولم أر من أشار اليه، وقد اكتشفته بعد أن مضيت قليلاً في التفسير، وهو ان معاني القرآن لايدركها، ولن يدركها على حقيقتها، ويعرف عظمتها الا من يحسها من أعماقه، وينسجم معها بقلبه وعقله، ويختلط ايمانه بها بدمه ولحمه، وهنا يكمن السر في قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «ذاك القرآن الصامت، وأنا القرآن الناطق».»[2].

---

١. نفحات الرحمن ج ١ ص ٢٣ ـ ٢٤. ٢. الكاشف ج ١ ص ٩ ـ ١٠.

قال المحققان فى الإعراب وعلاقته بالتفسير :

«إن من فوائد معرفة إعراب القرآن الكريم معرفة المعنى الذي يتضمنه النص ، لأن الإعراب يميز المعاني ، ويوقف على أغراض المتكلم .

روى أبو عبيد عن يحيى بن عتيق ، قال : قلت للحسن : يا أبا سعيد ، الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق ، ويقيم بها قراءته ؟ قال : حسن يا ابن أخي فتعلّمها ، فإن الرجل يقرأ الآية فيعيى بوجهها فيهلك فيها .

ويجب على مفسر القرآن الكريم النظر في الكلمة القرآنية ، وصيغتها ومحلها فى حالة الرفع والنصب والجر والسكون ، مما له علاقة في علم النحو والإعراب والصرف .

ولهذا نجد المفسرين يشيرون في تفاسيرهم إلى الحالات الإعرابية للآيات القرآنية ، على اختلاف بينهم ما بين مكثر ومقل ...

ولذلك كان علم النحو والإعراب من علوم التفسير ، لأن به يتضح معنى القرآن وتدرك مقاصده ، ثم بمعرفته تستقيم قراءة القارىء فلا يقع منه لحن أو خطأ ...

وقد اتجهت مناهج المفسرين إلى أن يكون مع تفسير المعنى إيضاح المبنى ، قال العلامة العكبري في مقدمة كتابه «إملاء ما منّ به الرحمٰن» : «وأقوم طريق يسلك في الوقوف على معناه ـ أي : القرآن الكريم ـ ويتوصل به إلى تبيين أغراضه ومغزاه ، معرفة إعرابه واشتقاق مقاصده من أنحاء خطابه ، والنظر في وجوه القرآن المنقولة عن الأئمة الأثبات» .

ويقول العلامة القيسي في مقدمة «مشكل إعراب القرآن» : «بمعرفة الإعراب تعرف أكثر المعاني ، وينجلي الإشكال ، وتظهر الفوائد ويفهم الخطاب ، وتصح معرفة حقيقة المراد» .

وهناك فرق بين تفسير الإعراب وتفسير المعنى «راجعه في كتاب : أصول التفسير ، في البحث الثالث «في المنهج اللغوي للتفسير» رقم ٧ «قيمة النحو والإعراب في التفسير». »[١] .

---

١. مقدمة معالم التنزيل (للبغوى) ج ١ ص ١٥ـ١٦.

قال المدرسي في القرآن الحكيم وإثباتات معانيه :

«ما هي الاثباتات اللغوية التي يمكننا الاعتماد عليها في فهم القرآن الحكيم ؟ نرى ثلاثة إثباتات رئيسية لمعنى القرآن : اللغة ، والسياق ، و تفسير المضمون .

أ ـ اللغة :

بالرغم من أن اللغة العربية ، أشمل وادق وأجمل اللغات في انها تعطي لكل حقيقة لفظاً قريباً يتناسب معها تماماً ، وبالرغم من أن العرب اختاروا لكل تطور ينشأ في شيء ـ لفظاً يخصه ـ ويوحي إلى تلك الحقيقة متلبسة بذلك التطور .

بالرغم من هذا وذاك فان الكلمات العربية إكتنفها الغموض ، مما أفقد إيحاء اللفظ وظلاله . فلم نعد ـ نحن العرب ـ نملك رهافة الحس التي كانت تكشف الفرق ما بين لفظتي «قرب ـ إقترب» أو «فكر ـ افتكر» حتى لم نعد نعرف الفرق بين كلمتي سار وسارب و«دلك وأولج» وما أشبه .

ويعود ذلك الى :

ـ أولاً : كثرة استعمال الألفاظ في غير معانيها الأدبية ، فحينما يستعمل العربي كلمة قرب في المجال المحدد لـ«اقترب» أو حتى كلمة سار في موضع كلمة سارب ، يختلط ظلال الكلمتين مع بعضهما ـ وتضيع الايحاءات الخاصة.

ـ ثانياً : تعلقت أذهاننا بمعاني جامدة ومحددة لألفاظ عربية ، وفقدنا الشعور بمحور شعاع الكلمة ، نحن حينما نستعمل كلمة «جن» يتبادر الى أذهاننا المخلوق الغريب ، دون ان نفكر ولا لحظة حول ارتباط كلمة «ج ن ن» مع هذا المخلوق ، ونستعمل كلمة جنين دون أن نعرف أن هناك علاقة تناسب مع معنى الولد في بطن أمه ـ (جنين) ومعنى المخلوق الغريب (جن) وهي أن كليهما مستور عن أعين الناس .

وكذلك نطلق لفظة الخمر للدلالة على السائل المسكر ، ونطلق لفظة الخمار ـ للدلالة على الساتر لوجه المرأة، ولا نلاحظ ان علاقة اللفظين ببعضهما إنما هي من ناحية الستر ، فهذا يستر الوجه ، وتلك تستر العقل .

وهكذا تتداخل ايحاءات اللفظ العربي ببعضها ونفقد بذلك فهم أهم سمة من

سمات اللغة العربية التي لو فهمناها يسهل علينا فهم القرآن كثيراً .

من هنا يتوجب علينا الخروج من الفهم التقليدي للألفاظ العربية ـ نحو أفق أسمى ، يستشم المعنى الايحائي العام منها .

وهذا الخروج ضروري لفهم القرآن الحكيم إذ أنه في قمة البلاغة التي تتلخص في رعاية التناسب الشامل بين الموضوع واللفظ وبين الواقع والتعبير . فيكون كشف المنحنيات التعبيرية والايحاءات اللفظية ذات أهمية خاصة في القرآن اكثر من أي كتاب آخر لأنها معنية فيه بشكل لا يوصف .

يبقى السؤال عن كيفية الخروج ؟.

والجواب : على الفرد :

١ ـ أن يتجرد أولاً عن موحيات المناخ الفكري الذي يُصور له ـ معنى جامداً للفظ .

٢ ـ ثم الرجوع الى المادة الأساسية التي تجمع كل التصريفات للكلمة ، والتفكير في المعنى المناسب لربط هذه المجموعة باللفظ ، فمثلاً : يجمع معاني يعرشون ، عرشاً ، معروشات ونعود الى تصريفات اللفظ الاخرى ، عريش ، وعرش وما أشبه لنستنبط منها جميعاً معنى البناء الفوقي لأنه يجمع معاني سرير الملك والبناء ، والمرفوع ، وسيباط الكرم ، والخيمة من الخشب هذه المعاني التي ذكرتها العرب لهذه الألفاظ .

٣ ـ قياس موارد استعمال اللفظ ببعضها ـ ليعرف المعنى المشترك ـ الذي يمكن أن يتصور معنى جامعاً بين هذه الموارد . ومن الطبيعي أن يعتبر في الاستعمال ان يكون على لسان أهل اللغة المعتنين بالبلاغة .

والأدباء اليوم يكتشفون ظلال الكلمات وإيحاءاتها من موارد الاستعمال في منطق البلغاء اكثر مما يكتشفونها في بطون الكتب اللغوية .

وذلك لأن ما في كتب اللغة لايعدوا ان يكون تسجيلاً ميتاً لموارد الاستعمال ، أو استنباطاً لمعنى مشترك منها قد قام به مؤلفو الكتب ، ومن هنا يكون تعرف الشخص ذاتياً بهذه الموارد واستنباطه بنفسه المعنى الجامع بينها ، أفضل من تقليد كتب اللغة .

وبكثرة النظر في موارد الاستعمال يؤتى الفرد حساً أدبياً مرهفاً يجعله يميز بين

كلمتين مترادفتين بشكل دقيق، بالرغم من أنه قد لا يستطيع الافصاح عما يعرفه بدقة وتحديد. وإذا كان قياس موارد الاستعمال ببعضها أفضل السبل لمعرفة المعنى الحقيقي للفظٍ ما، فان أفضل قياس من هذا النوع هو قياس موارد استعمال الكلمة في القرآن ذاته، إذ أنه ـ ولا ريب ـ ذروة البلاغة العربية، التي عجز عن تحديه أبلغ فصحاء العرب.

من هنا يجدر بالذي يريد التدبر في القرآن ذاته، أن يبحث عن المعنى المحدد للكلمة في آيات القرآن ذاته، ليجد ـ بقياس بعض المواقع المستعملة فيها الكلمة ببعضها ـ ليجد بذلك المعنى الدقيق الذي يقصده القرآن.

ب ـ السياق:

لو بحثنا عن أول يوم تعلمنا فيه اللغة لعرفنا أن السياق كان أول سبيل لهذا التعليم. فالوالد استعمل لفظ العصى عندما كان يتكلم عن الضرب فعرفنا أنه وسيلة الضرب، والوالدة أطلقت لفظة الولاّعة حينما تكلمت عن الطبخ فعرفنا أنها وسيلة النار. و.. و.

ولا ريب أن وجود اللفظ في اطاره المتناسب يوحي بمعناه ربما اكثر من تفسير اللفظ بدون سياق يحدده.

والقرآن الحكيم، ذلك الكتاب البليغ الذي يناسب بين المفردات في اطار السياق بحيث يصعب عليك تبديل لفظه بأخرى دون ان تضر بتناسب الكلمات.

لذلك يهدينا السياق ذاته الى المعاني الدقيقة للكلمات لأنها وضعت في موقع متناسب جداً مع تلك المعاني، فاذا أردنا أن نعرف بالدقة معنى اللفظ كان علينا مراجعة ما قبلها وما بعدها، لمعرفة ما يتناسب معهما من معنى لهذه الكلمة، فمثلاً لو اردنا، أن نكتشف معنى «قصد» في هذه الآية.

﴿ وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾[1].

لو أردنا ذلك قارنّا بين القصد، والجائر، والهداية، نعرف معنى القصد لأنه جاء في مقابل الجائر الذي يعني المائل، فالقصد هو المستقيم والجائر هو الظالم، فالقصد هو العادل.

---

١. سورة النّحل: الآية ٩.

أو إذا أردنا التعرف على معنى «نفش» في هذه الآية: ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم، وكنّا لحكمهم شاهدين ﴾[١].

لو أردنا ذلك لم يكن علينا الا قياس كلمة نفشت بالحرث والغنم والحكم. مما نعرف أنه اتلاف الحرث، وهكذا.

وقد جاء رجل الى صحابي فسأله عن معنى «الأبّ» الذي جاء في الآية الكريمة، وفاكهة وأبّا، فلم يعرفه. وجاء علي عليه السلام وقال: ما مفاده إن معنى اللفظ موجود في الآية ذاتها لأن الله سبحانه يقول:

﴿ وفاكهة وأبّا متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾[٢]

فالفاكهة لكم والأب لأنعامكم.

ج ـ التفسير:

معرفة الاطار التاريخي الذي شاهد نزول الوحي ومعرفة المورد الخاص الذي نزلت فيه والموقف الاجتماعي الذي وجّهته الآية، ذو أثر كبير في تفهم المعنى الدقيق. للآية.

ومعرفة تفاسير أئمة الوحي عليهم السلام للآية قاطعة في معانيها. بيد أن تفاسير الأئمة عليهم السلام قد تختلف بينها أو تبيّن تطبيقاً واحداً للآية. وهنا لابد أن نتخذ منها سبيلاً لفهم المعنى العام الذي يحل مشكلة الاختلاف ـ من جهة ـ ويعطي الآية تطبيقات أشمل من جهة ثانية. ولذلك يجب أن لا نجمد في النصوص الواردة في تفسير الآيات على انها المعاني الوحيدة التي تحملها بل نتخذ منها وسيلة لفهم المعنى الأشمل للآية. وندرس كيف ولماذا انطبقت الآية على المورد الذي يعينه التفسير، لنعرف انه هل يمكن تطبيق الآية ايضاً على مورد متشابه أم لا ؟.

فمثلاً جاء في بعض النصوص التفسيرية أن الآية الكريمة:

﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾[٣].

نزلت في حق عمار بن ياسر حسناً، فهل من الممكن تجميد الآية في عمار؟ كلا. بل

---

١. سورة الأنبياء: الآية ٧٨.
٢. سورة عبس: الآية ٣١ و٣٢.
٣. سورة النّحل: الآية ١٠٦.

يجب أن نفكر كيف جاءت الآية تطبيقاً على حالة عمار أليس لأنه كان قد أكره على الشرك فاعطاهم بلسانه ما أحبوه ؟ أو ليس ذات الموقف لو تكرر لرجل اليوم وصنع مثل ما صنعه عمار تنطبق عليه؟.

إن هذا الأسلوب من التفكير يجعل القرآن حياً في أذهاننا أبداً. وقد أمر به الدين ـ فجاء في الحديث: «لو أن القرآن كان يذهب بموت من نزل فيهم لذهب القرآن كله، وإنما مثله كمثل الشمس كل يوم جديد».

بهذا نعرف ضرورة الاستفادة من التفسير الصحيح بالفهم الواعي لحدود تطبيق التفسير لعموم الآية»[1].

---

١. من هدى القرآن ج ١ ص ٤٩ ـ ٥٤.

الاختلاف في التفسير واسبابه

قال ابن تيمية : «الاختلاف في التفسير على نوعين : منه ما مستنده النقل فقط ، ومنه ما يعبر بغير ذلك . إذ العلم إما نقل مصدق ، وإما استدلال محقق . والمنقول إما عن المعصوم ، وإما عن غير المعصوم .

والمقصود بأن حسن المنقول سواء كان عن المعصوم أو غير المعصوم - وهذا هو النوع الأول - فمنه ما يمكن معرفة الصحيح منه والضعيف ، ومنه ما لا يمكن معرفة ذلك فيه . وهذا القسم الثاني من المنقول - وهو ما لا طريق لنا إلى الجزم بالصدق منه - فالبحث عنه مما لا فائدة فيه فالكلام فيه من فضول الكلام . وأما ما يحتاج المسلمون إلى معرفته فان الله نصب على الحق فيه دليلا . فمثال ما لا يفيد ولا دليل على الصحيح منه اختلافهم في أحوال أصحاب الكهف ، وفي «البعض» الذي ضرب به موسى من البقرة ، وفي مقدار «سفينة نوح»، وما كان خشبها ، وفي اسم «الغلام» الذي قتله الخضر ونحو ذلك . فهذه الأمور طريق العلم بها النقل ، فما كان من هذا منقولا نقل صحيحاً عن النبي ﷺ - كا سم صاحب موسى أنه الخضر - فهذا معلوم . وما لم يكن كذلك بل كان مما يؤخذ عن أهل الكتاب كالمنقول عن كعب ووهب ومحمد بن اسحق وغيرهم ممن يأخذ عن أهل الكتاب - فهذا لا يجوز تصديقه ولا تكذيبه إلا بحجة كما ثبت في الصحيح

عن النبى ﷺ أنه قال : «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه ، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه» [١] وكذلك ما نقل عن بعض التابعين وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب ، فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض ، وما نقل فى ذلك عن بعض الصحابة نقلا صحيحاً فالنفس إليه أسكن مما نقل عن بعض التابعين ، لأن احتمال أن يكون سمعه من النبى ﷺ أو من بعض من سمعه منه أقوى ، ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين ، ومع جزم الصاحب فيما يقوله كيف يقال إنه أخذه عن أهل الكتاب وقد نهوا عن تصديقهم ؟ والمقصود أن الاختلاف الذى لا يعلم صحيحه ولا تفيد حكاية الأقوال فيه هو كالمعرفة لما يروى من الحديث الذى لا دليل على صحته وأمثال ذلك . وأما القسم الأول الذى يمكن معرفة الصحيح منه فهذا موجود فيما يحتاج إليه وَلله الحمد ، فكثيراً ما يوجد فى التفسير والحديث والمغازى أمور منقولة عن نبينا ﷺ وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه والنقل الصحيح يدفع ذلك ، بل هذا موجود فيه مستنده النقل وفيما قد يعرف بامور اخرى غير النقل .

النوع الثانى سببه الاختلاف طرق الاستدلال

وأما النوع الثانى من سببى الاختلاف ، وهو ما يعلم بالاستدلال لا بالنقل فهذا أكثر ما فيه الخطأ من جهتين حدثتا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم ، فإن التفاسير التى يذكر فيها كلام هؤلاء صرفاً لا يكاد يوجد فيها شىء من هاتين الجهتين ، مثل تفسير عبدالرزاق ووكيع وعبدالرحمن بن حميد بن ابراهيم دحيم . ومثل تفسير الإمام أحمد واسحاق بن راهويه ، وبقى بن مخلد وأبى بكر بن المنذر وسفيان بن عيينة وسنيد وابن

---

١ . أورد البخارى بسنده عن أبى هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تذكبوهم وقولوا : ﴿ آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم ﴾ ـ الآية » ـ انظر : البخارى ج ٩ ص ١٣٦ (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب قول النبى لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء) .

جرير وابن أبى حاتم وأبى سعيد الأشج وأبى عبدالله بن ماجة وابن مردويه.

احدهما: قوم اعتقدوا معانى ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها.

والثانية: قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بلغة العرب من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن، والمنزل عليه والمخاطب به. فالأولون راعوا المعنى الذى رأوه من غير نظر إلى ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان.

والآخرون راعوا مجرد اللفظ وما يجوز عندهم أن يريد به العربى من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به وسياق الكلام. ثم هؤلاء كثيراً ما يغلطون فى احتمال اللفظ لذلك المعنى فى اللغة كما يغلط فى ذلك الذين قبلهم، كما أن الأولين كثيراً ما يغلطون فى صحة المعنى الذى فسروا به القرآن كما يلغط بذلك الآخرون، وإن كان نظر الأولين إلى المعنى أسبق، ونظر الآخرين إلى اللفظ أسبق.

والأولون صنفان: تارة يسلبون لفظ القرآن مادل عليه وأريد به، وتارة يحملونه على ما لم يدل عليه ولم يرد به. وفى كلا الأمرين قد يكون ما قصدوا نفيه أو إثابته من المعنى باطلا فيكون خطؤهم فى الدليل والمدلول، وقد يكون حقًّا فيكون خطؤهم فيه فى الدليل لا فى المدلول.

وهذا كما أنه وقع فى تفسير القرآن فإنه وقع أيضاً فى تفسير الحديث، فالذين أخطأوا فى الدليل والمدلول مثل طوائف من أهل البدع اعتقدوا مذهباً يخالف الحق الذى عليه الأمة الوسط الذين لا يجتمعون عل ظلالة كسلف الأمة وأئمتها. وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على آرائهم: تارة يستدلون بآيات على مذهبهم ولا دلالة فيها، وتارة يتأولون ما يخالف مذهبهم بما يحرفون بهالكلم عن مواضعه. ومن هؤلاء فرق الخوارج [1]

---

١. الخوارج يرجع تاريخهم إلى قضية التحكيم فى الخلاف الذى نشب بين على ﷺ ومعاوية حيث خرجوا على التحكيم وكفروا مرتكب الكبيرة وقالوا بخلوده فى النار وأجازوا أن تكون الإمامة فى غير قريش. وتفرع عنهم فرق مختلفة كالحرورية، والناصبية، والشراة والبغاة، ومن أشهرهم الاباضية والزارقة.

انظر عنهم: مقالا الاشعرى ج ١ ص ٨٦ـ ١٣١ (ط ريتر)؛ الملل والنحل ج ١ ص ١٩٥ ـ ٢٥٥؛ الفرق بين الفرق ص ٤٥ ـ ٦٦؛ التبصير فى الدين ص ٤٦ ـ ٥٩.

والروافض والجهمية [١] والمعتزلة والقدرية [٢] والمرجئة[٣] وغيرهم. وهذا كالمعتزلة مثل فإنهم من أعظم الناس كلاما وجدالا، وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم مثل تفسير عبدالرحمن بن كيسان الأصم شيخ ابراهيم ابن اسماعيل بن علية الذى كان يناظر الشافعي، ومثل كتاب أبى على الجبائى، والتفسير الكبير للقاضى عبدالجبار بن أحمد الهمدانى (والتفسير) لعلى بن عيسى الرمانى، والكشاف لابى القاسم الزمخشرى، فهؤلاء وأمثالهم اعتقدوا ماذهب المعتزلة ...

... والمقصود أن مثل هؤلاء اعتقدوا رأياً ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم باحسان ولا من أئمة المسلمين، لا فى رأيهم ولا فى تفسيرهم. وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة، وذلك من جهتين: تارة من العلم بفساد قولهم، وتارة من العلم بفساد ما فسروا به القرآن إما دليلا على قولهم أو جواباً على المعارض لهم، ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة فصيحاً ويدس البدع فى كلامه وأكثر الناس لا يعلمون، كصاحب الكشاف ونحوه، حتى

١. الجهمية ينتسبون إلى الجهم بن صفوان. كان معاصر الواصل بن عطاء تتلمذ على الجعد بن درهم، أخذ عنه القول بخلق القرآن ونفى الصفات. وابن تيمية يستعمل لفظ الجهمية أحيانا ويريد به المعتزلة لقولهم بآراء الجهم فى نفى الصفات وخلق القرآن ويصفهم بقول الشاعر:

جــهمية الأوصــاف إلا أنهــم   قــد لقبــوها أعــظم الأشــياء

وأحيانا يستعمل لفظ الجهمية ويريد به الأشاعرة لقولهم بالجبر ويرى أنهم أخذوه عن الجهم. انظر عن الجهم والجهمية: مقالات الأشعرى ج ١ ص ١٣٢، ٢٧٩ الملل والنحل ج ١ ص ١٣٥ـ١٣٧، الفرق بين الفرق ص ١٢٨ـ١٣٩، الخطط للقريزى ج ٢ ص ٣٤٩ـ٣٥٠، لسان الميزان ج ٢ ص ١٤٢ـ١٤٣، وانظر تاريخ الجهمية للقاسمى.

٢. القدرية لا تطلق على فرقة بعينها. وإنما يطلق ابن تيمية هذا اللفظ على المعتزلة وعلى كل من يرى أن العبد خالق لفعله بقدرته المستقلة عن قدرة الله، وأحيانا يرجع هذا الرأى إلى غيلان الدمشق ويرى أن المعتزلة اخذوا عنه القول بنفى القدر. ولفظ القدرية من الالفاظ التى يرمى بها علماء الكلام بعضهم بعضا وتحاول كل فرقة ان تبرىء نفسها من الاتصاف به وتتهم به غيرها. فالمعتزلة يصفون به الجبرية والمشبهة، والأشاعرة يطلقونه على المعتزلة. انظر شرح الأصول الخمسة ص ٧٧٢ـ٧٨٣، التعريفات للجرجانى.

٣. هم القائلون بأن العمل ليس جزاء من الايمان. ويقصرون الايمان على التصديق القلبى والاقرار باللسان. ويرجئون أمر الفاسق إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه، واكثرهم على ان الايمان لا يزيد ولا ينقص لانه لا يتبعض، ويصرح بعضهم بأن المؤمن لن يدخل النار مهما ارتكب من المعاصى.

انظر عنهم: مقالات الاشعرى ج ١ ص ١٣٢ـ١٥٤؛ الملل والنحل ج ١ ص ٢٥٧ـ٢٩٧، الفرق بين الفرق ص ١٢٢ـ١٢٥، الفصل لابن حزم ج ٤ ص ٢٠٤ـ٢٠٥ خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٤٩ـ٣٥٠.

أنه يروج على خلق كثير ممن لا يعتقد بالباطل من تفاسيرهم الباطلة ما شاء الله ، وقد رأيت من العلماء المفسرين وغيرهم من يذكر فى كتابه وكلامه من تفسيرهم ما يوافق أصولهم التى يعلم أو يعتقد فسادها ولا يهتدى لذلك.

ثم إنه لسبب تطرف هؤلاء وضلالهم دخلت الرافضة الإمامية ثم الفلاسفة ثم القرامطة[١] وغيرهم فيما هو أبلغ من ذلك ، وتفاقم الأمر فى الفلاسفة والقرامطة والرافضة فانهم فسروا القرآن بأنواع لا يقضى العالم منها عجبه ، فتفسير الرافضة كقولهم: ﴿ **تبت يدا أبى لهب** ﴾[٢] وهما أبوبكر وعمر ، و ﴿ **لئن أشركت ليحبطن عملك** ﴾[٣] أى بين أبى بكر وعمر وعلى فى الخلافة ، و ﴿ **إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة** ﴾[٤] هى عائشة ، و ﴿ **قاتلوا أئمة الكفر** ﴾[٥] طلحة والزبير ، و ﴿ **مرج البحرين** ﴾[٦] على وفاطمة ، و ﴿ **اللؤلؤ والمرجان** ﴾[٧] الحسن والحسين ، ﴿ **وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين** ﴾[٨] فى على بن أبى طالب ، و ﴿ **عم يتساءلون عن النبأ العظيم** ﴾[٩] على بن أبى طالب ، و ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون** ﴾[١٠] هو علي ، ويذكرون الحديث الموضوع باجماع أهل العلم وهو تصدّقه بخاتمه فى الصلاة ، وكذلك قوله : ﴿ **أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة** ﴾[١١] نزلت فى علي لما أصيب بحمزة . ومما يقارب هذا ـ من بعض الوجوه ـ ما يذكره كثير من المفسرين فى مثل قوله : ﴿ **الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين**

---

١. القرامطة فرقة تنسب إلى حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط ، تتلمذ على حسين الاهوازى رسول عبدالله بن ميمون القداح ، اتخذ لنفسه داراً للهجرة قريبا من الكوفة ، يشترك مع الباطنية في كثير من العقائد الباطلة ، وكثيراً ما شهر الغارات على المسلمين بقصد اضعاف دولتهم ، وكان لدعوة القرامطة أثر كبير في اثارة الفتن في العالم الإسلامى ، ويكفى ان يعلم أنهم سرقوا الحجر الأسود من مكانه فى مكة ونقلوه إلى مكان آخر فى البحرين فى القرن الثالث الهجرى ، ليبطلوا بذلك فريضة الحج إلى مكة .انظر عنهم : مقالا الاشعرى ج ١ ص ٢٦ ، الفرق بين الفرق ص ١٦٩ ـ ١٧٣ ، دائرة المعارف الإسلامية (مقال هبوار) مادة حمد قرمط ، مشكاة الأنوار الهادمة لقواعده الباطنية الاشرار ، ليحيى بن حمزة العلوى (المقدمة)، بغية المرتاد فى الرد على القرامطة أهل الالحاد لابن تيمية .

٢. سورة المسد : الآية ١.

٣. سورة الزمر : الآية ٦٥.

٤. سورة البقرة : الآية ٦٧.

٥. سورة التوبة : الآية ١٢.

٦. سورة الرحمن : الآية ١٦.

٧. سورة الرحمن : الآية ٢٢.

٨. سورة يس : الآية ١٢.

٩. سورة النبأ : الآية ١ ـ ٢.

١٠. سورة المائدة : الآية ٥٥.

١١. سورة البقرة : الآية ١٥٧.

بالأسحار ﴾[١] أن الصابرين رسول الله، والصادقين أبوبكر ، والقانتين عمر ، والمنفقين عثمان ، والمستغفرين علي ، وفي مثل قوله ﴿ محمد رسول الله والذين معه ﴾ أبوبكر ﴿ أشداء على الكفار ﴾ عمر ﴿ رحماء بينهم ﴾ عثمان ﴿ تراهم ركعاً سجداً ﴾[٢] علي . وأعجب من ذلك قول بعضهم: ﴿ والتين ﴾ أبوبكر ﴿ والزيتون ﴾ عمر ﴿ وطور سينين ﴾ عثمان ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ علي .

وأمثال هذه الخرافات التي تتضمن تارة تفسير اللفظ بما لا يدل عليه بحال، فان هذه الألفاظ لا تدل على هؤلاء الأشخاص ، وقوله تعالى : ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً ﴾ كل ذلك نعت للذين معه ؛ وهي التي يسميها النحاة خبراً بعد خبر ، والمقصود هنا أنها كلها صفات لموصوف واحد ، وهم الذين معه لا يجوز أن يكون كل منها مراداً به شخص واحد ، وتتضمن تارة جعل اللفظ المطلق العام منحصراً في شخص واحد كقولهم : إن قوله : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ﴾[٣] أريد بها علي وحده، وقول بعضهم : إن قوله : ﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به ﴾[٤] أريد بها أبوبكر وحده ، وقوله ﴿ لايستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ﴾[٥] أريد بها أبوبكر وحده ، ونحو ذلك ، وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة والجماعة وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري ، ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأثورة عنهم على وجهه لكان أحسن وأجمل ، فانه كثيراً ما ينقل من تفسير محمد بن جرير الطبري ، وهو من أجل التفاسير وأعظمها قدراً ، ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف لا يحكيه بحال ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين ، وإنما يعني بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم ، وإن كانوا أقرب إلى السنة من المعتزلة لكن ينبغي أن يعطى كل ذي حق حقه ويعرف أن هذا من جملة التفسير على المذهب ، فان الصحابة والتابعين والأئمة إذا كان لهم في تفسير الآية قول وجاء قوم فسروا الآية بقول آخر لأجل مذهب اعتقدوه ـ وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحابة والتابعين

١. سورة آل عمران: الآية ١٧.
٢. سورة الفتح: الآية ٢٩.
٣. سورة المائدة: الآية ٥٥.
٤. سورة الزمر: الآية ٣٣.
٥. سورة الحديد: الآية ١٠.

لهم باحسان ـ صاروا مشاركين للمعتزلة وغيرهم من أهل البدع فى مثل هذا .

وفى الجملة من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئا فى ذلك بل مبتدعا ، وإن كان مجتهداً مغفوراً له خطؤه. فالمقصود بيان طرق العلم وأدلته وطرق الصواب ، ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم ، وأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه كما أنهم أعلم بالحق الذى بعث الله به رسوله ﷺ ، فمن خالف قولهم وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ فى الدليل والمدلول جميعاً . ومعلوم أن كل من خالف قولهم له شبهة يذكرها إما عقلية وإما سمعية كما هو مبسوط فى موضعه ، والمقصود هنا التنبيه على مثار الاختلاف فى التفسير ، وأن من أعظم أسبابه البدع الباطلة التى دعت أهلا إلى أن حرفوا الكلم عن مواضعه . وفسروا كلام الله ورسوله ﷺ بغير ما أريد به وتأولوه على غير تأويله . فمن أصول العلم بذلك أن يعلم الإنسان القول الذى خالفوه وأنه الحق ، وأن يعرف أن تفسير السلف يخالف تفسيرهم ، وأن يعرف أن تفسيرهم محدث مبتدع ، ثم أن يعرف بالطرق المفصلة فساد تفسيرهم بما نصبه الله من الأدلة على بيان الحق .

وكذلك وقع من الذين صنفوا فى شرح الحديث وتفسيره من المتأخرين من جنس ما وقع فيما صنفوه من شرح القرآن وتفسيره .

وأما الذين يخطئون فى الدليل لا فى المدلول فمثل كثير من الصوفية والوعاظ والفقهاء وغيرهم ، يفسرون القرآن بمعان صحيحة لكن القرآن لا يدل عليها ، مثل كثير مما ذكره أبو عبدالرحمن السلمى فى حقائق التفسير . و إن كان فيما ذكروه ما هو معان باطلة فإن ذلك يدخل فى القسم الاول ، وهو الخطأ فى الدليل والمدلول جميعاً حيث يكون المعنى الذى قصدوه فاسدا»[1].

قال ابن جُزى : « واعلم أن التفسير منه متفق عليه ومختلف فيه ، ثم إن المختلف فيه على ثلاثة أنواع : الاوّل : اختلاف فى العبارة ، مع اتفاق فى المعنى : فهذا عدّه كثير من المؤلفين خلافا ، وليس فى الحقيقة بخلاف لاتفاق معناه ، وجعلناه نحن قولا واحدا ،

---

١. دقائق التفسير ج ١ ص ٥٥ ـ ٧٥ والتفسير الكبير لابن تيمية ج ٢ ص ٢٠٩ ـ ٢٣٠.

وعبرنا عنه بأحد عبارات المتقدمين ، أو بما يقرب منها ، أو بما يجمع معانيها . الثانى اختلاف فى التمثيل لكثرة الأمثلة الداخلة تحت معنى واحد ، وليس مثال منها على خصوصه هو المراد ، وإنما المراد المعنى العامّ الذى تندرج تلك الأمثلة تحت عمومه فهذا عدّه أيضا كثير من المؤلفين خلافا ، وليس فى الحقيقة بخلاف ؛ لأنّ كل قول منها مثال ، وليس بكل المراد ، ولم نعدّه نحن خلافا : بل عبرنا عنه بعبارة عامّة تدخل تلك تحتها ، وربما ذكرنا بعض تلك الأقوال على وجه التمثيل مع التنبيه على العموم المقصود. الثالث : اختلاف المعنى ؛ فهذا هو الذى عددناه خلافا »[١] .

قال ابن جُزى فى أسباب الخلاف بين المفسرين : « فأما أسباب الخلاف فهى اثنا عشر : الأول : اختلاف القرآن . الثانى : اختلاف وجوه الإعراب وإن اتفقت القراءات . الثالث : اختلاف اللغويين فى معنى الكلمة . الرابع : اشتراك اللفظ بين معنيين فأكثر . الخامس : احتمال العموم والخصوص . السادس : احتمال الإطلاق أو التقييد . السابع : احتمال الحقيقة أو المجاز . الثامن : احتمال الإضمار أو الإستقلال . التاسع : احتمال الكلمة زائدة . العاشر : احتمال حمل الكلام على الترتيب وعلى التقديم والتأخير . الحادى عشر : احتمال أن يكون الحكم منسوخاً أو محكماً . الثانى عشر : اختلاف الرواية فى التفسير عن النبى ﷺ وعن السلف رضى الله عنهم »[٢] .

قال المحققان فى أسباب الاختلاف فى التفسير:

« إنّ من أهمّ ما يجب معرفته في هذا الأمر هو : أن يعلم المسلم أن كلام الله تبارك وتعالى ذُو معانٍ كثيرة ووجوه عديدة ، وذلك من أنواع إعجازه . فقد جاء كلام الله تعالى بالألفاظ اليسيرة والمعاني الكثيرة ، فحين نرى تعدّد الأقوال عند المفسرين حول الآيات القرآنية ، فإنما يعني ذلك كثرة توارد تلك المعاني على أذهان أولئك المفسرين ، كل حسب طاقته الفكرية ومدى إدراكه العقلي لتلك المعاني المتعدّدة للآية الواحدة ...

ثم إن كثيراً من اختلاف المفسرين في تفاسيرهم للقرآن الكريم ما يعود لاختلاف ثقافاتهم ....

---

١. التسهيل ج ١ ص ٦.

٢. التسهيل ج ١ ص ٩.

والحق في هذا الموضوع: أن اختلاف المفسرين في تفسيرهم للقرآن هو اختلاف تنوّع لا اختلاف تضادّ أو تضارب، وذلك أنّ كلّ واحد منهم يُعبّر عن المعنى المراد بعبارة غير عبارة صاحبه، تدلّ على معنىً في المُسمى غير المعنى الآخر، مع اتحاد المُسمى. بمنزلة الأسماء المتكافئة التي بين المترادفة والمتباينة.

أو أن يذكر كل منهم من الإسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع، لا على سبيل الحدّ المطلق للمحدود في عمومه وخصوصه، مثل سائلٍ أعجمي سأل عن مُسمّى الخبز، فأُري رغيفاً، ثم قيل له هذا هو الخبز، فالإشارة إلى النوع لا إلى هذا بعينه، فإن للخبز أشكالاً وأنواعاً...

ولاختلاف المفسرين أسباب، نُشير هنا لمجملها ونُحيل في تفصيلها إلى مصدرها، وهي كالتالي:

١ ـ اختلاف القراءات بتعدّد وجوهها.

٢ ـ اختلاف وجوه الإعراب.

٣ ـ اختلاف اللغويين في معنى الكلمة.

٤ ـ اشتراك اللفظ بين معنيين فأكثر.

٥ ـ احتمال الإطلاق والتقييد.

٦ ـ احتمال العموم والخصوص.

٧ ـ احتمال الحقيقة والمجاز.

٨ ـ احتمال الإضمار أو الاستقلال.

٩ ـ احتمال الحذف أو الزيادة.

١٠ ـ احتمال التقديم والتأخير.

١١ ـ احتمال النسخ أو عدمه.

١٢ ـ اختلاف الروايات عن النبي ﷺ أو عن الصحابة أو التابعين، وهذا يعود لتعدد معاني الآية التي وردت تلك الروايات»[1].

---

١. مقدمة معالم التنزيل (للبغوى) ج ١ ص ١١ ـ ١٢.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فوائد أسباب النزول وأقسامها

قال ابن تيمية: «فكل قول فيه ذكر نوع داخل في الآية وإنما ذكر لتعريف المستمع بتناول الآية له وتنبيهه به على نظيره، فان التعريف بالمثال قد يسهل أكثر من التعريف بالحد المطابق، والعقل السليم يتفطن للنوع كما يتفطن إذا أشير له الى رغيف فقيل له: هذا هو الخبز. وقد يجيء كثيراً من هذا الباب قولهم: هذه الآية نزلت في كذا، لا سيما إن كان المذكور شخصاً، كأسباب النزول المذكورة في التفسير، كقولهم: إن آية الظهار (١) نزلت في امرأة أوس بن الصامت، وإن آية اللعان (٢) نزلت في عويمر العجلاني أو هلال بن أمية، وإن آية الكلالة نزلت في جابر بن عبدالله، و إن قوله: ﴿وأن أحكم بينهم بما أنزل الله﴾ (٣) نزلت في بني قريظة والنضير، و إن قوله: ﴿ومن يولّهم يومئذ دبره﴾ (٤) نزلت في بدر، وإن قوله: ﴿شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت﴾ (٥) نزلت في قضية تميم الداري وعدي بن بداء، وقول أبي أيوب: إن قوله: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ (٦) نزلت فينا معشر الأنصار. الحديث. ونظائر هذا كثير مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين بمكة، أو في قوم من أهل الكتاب اليهود والنصارى أو في قوم من المؤمنين. فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية مختص بأولئك الأعيان دون

---

١ . سورة المجادلة: الآية ٢ و٣.

٢ . سورة النور: الآية ٥.

٣ . سورة المائدة: الآية ٤٩.

٤ . سورة الأنفال: الآية ١٦.

٥ . سورة المائدة: الآية ١٠٦.

٦ . سورة البقرة: الآية ١٩٥.

غيرهم، فان هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق، والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه أم لا، فلم يقل أحد من علماء المسلمين إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين، وإنما غاية ما يقال: إنها تختص بنوع ذلك الشخص فيعم ما يشبهه ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ.

والآية التي لها سبب معين إن كانت أمراً أو نهياً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته، وإن كانت خبراً بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص ولمن بمنزلته أيضاً. ومعرفة سبب النزول تعين على فهم الآية، فان العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب، ولهذا كان أصح قولى الفقهاء : إنه إذا لم يعرف ما نواه الحالف رجع إلى سبب يمينه وما هيجها وأثارها. وقولهم : «نزلت هذه الآية في كذا» يراد به تارة أنه سبب النزول، ويراد به تارة أن هذا داخل في الآية وإنْ لم يكن السبب، كما تقول : عني بهذه الآية كذا. وقد تنازع العلماء في قول الصحابي : «نزلت هذه الآية في كذا» هل يجرى مجرى المسند كما يذكر السبب الذي أنزلت لأجله، أو يجرى مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند، والبخاري يدخله في المسند، وغيره لا يدخله في المسند، وأكثر المساند على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره، بخلاف ما إذا ذكر سبباً نزلت عقبه فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند، وإذا عرف هذا فقول أحدهم: نزلت في كذا، لا ينافي قول الآخر: نزلت في كذا إذا كان اللفظ يتناولهما كما ذكرناه في التفسير بالمثال. وإذا ذكر أحدهم لها سببا نزلت لأجله، وذكر الآخر سببا، فقد يمكن صدقهما بأن تكون نزلت عقب تلك الأسباب، أو تكون نزلت مرتين: مرة لهذا السبب ومرة لهذا السبب»[1].

قال القاسمى في قاعدة في معرفة سبب النزول:

«قال ابن تيمية: معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب. وقد أشكل على مروان بن الحكم معنى قوله تعالى : ﴿لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾[2] الآية، وقال: لئن كان كل امرىء فرح بما أوتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً، لنعذبنّ أجمعون. حتى بيّن له ابن عباس : أن الآية نزلت فى أهل الكتاب حين

---

١ . دقائق التفسير ج ١ ص ٤٩ ـ ٥١.

٢ . سورة آل عمران : الآية ١٨٨ .

سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره، وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه ـ أخرجه الشيخان[1] ـ».

وحكي عن عثمان بن مظعون وعمرو بن معد يكرب أنهما كانا يقولان: الخمر مباحة، ويحتجان بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ...﴾[2] الآية، ولو علما سبب نزولها لم يقولا ذلك. وهو أن ناساً قالوا، لما حرّمت الخمر: كيف بمن قتلوا في سبيل الله وماتوا وكانوا يشربون الخمر وهي رجس؟ فنزلت ـ أخرجه أحمد والنسائي[3] وغيرهما ـ.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾[4] فقد أشكل معنى هذا الشرط على بعض الائمة حتى قال الظاهرية: بأن الآيسة لا عدة عليها إذا لم ترْتَبْ. وقد بين ذلك سبب النزول: وهو أنه لما نزلت الآية التي في سورة البقرة في عدد من النساء قالوا: قد بقي عدد من عدد النساء لم يذكرن ـ الصغار والكبار ـ أخرجه الحاكم عن أبيّ ـ فعلم بذلك: أن الآية خطاب لمن لم يعلم ما حكمهنّ في العدة، وارتاب هل عليهن عدة أو لا، وهل عدتهن كاللاتي في سورة البقرة

---

١. صحيح البخاريّ في: ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٣ ـ سورة آل عمران، ١٦ باب ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾.
عن ابن أبي مليكة: أن علقمة بن وقاص أخبره أن مروان قال لبوابه: اذهب، يا رافع، إلى ابن عباس فقل له: لئن كان كل امرىء فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بمالم يفعل معذّبا، لنعذّبنّ أجمعون. فقال ابن عباس: وما لكم ولهذه؟ إنما دعا النبي ﷺ يهود. فسألهم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم.
ثم قرأ ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾. إلى آخر الآيتين.
٢. سورة المائدة: الآية ٩٣.
٣. صحيح البخاريّ في: ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٥ ـ سورة المائدة، ١١ ـ باب ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾.
عن أنس رضي الله عنه: أن الخمر التي أهريقت الفضيخ. قال: كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة. فنزل تحريم الخمر فأمرَ منادياً فنادى. فقال أبو طلحة: اخرج فانظر ما هذا الصوت. قال: فخرجت فقلت: هذا منادٍ ينادي ألا إن الخمر قد حرّمت. فقال لي: اذهب فأهرقها.
قال: فجرت في سكك المدينة.
قال: وكانت خمرهم يومئذ الفضيخ.
فقال بعض القوم: قتل قوم وهي في بطونهم. قال فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾.
٤. سورة الطلاق: الآية ٤.

أولا . فمعنى «إن ارتبتم» : إن أشكل عليكم حكمهن وجهلتم كيف يعتدُّون، فهذا حكمهن .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[1] فإنا لو تركنا ومدلول اللفظ لاقتضى أن المصلى لا يجب عليه استقبال القبلة سفراً ولا حضراً، وهو خلاف الإجماع. فلما عرف سبب نزولها علم أنها فى نافلة السفر، أو فيمن صلى بالاجتهاد وبان له الخطأ، على اختلاف الروايات فى ذلك .

ومن ذلك قوله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ...﴾[2] الآية: فإن ظاهر لفظها لا يقتضى أن السعى فرض . وقد ذهب بعضهم إلى عدم فرضيته تمسكاً بذلك . وقد ردت عائشة على عروة فى فهمه ذلك بسبب نزولها، وهو أن الصحابة تأثموا من السعى بينهما، لأنه من عمل الجاهلية، فنزلت.

ومنها رفع توهم الحصر . قال الشافعىّ ما معناه فى قوله تعالى: ﴿قُلْ لاَ أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً ...﴾[3] الآية: إن الكفار لما حرموا ما أحل الله. وكانوا على المضادة والمحادة، فجاءت الآية مناقضة لغرضهم، فكأنه قال: لا حلال إلا ما حرمتموه ولا حرام إلا ما أحللتموه، نازلا منزلة من يقول: لا تأكل اليوم حلاوة ، فتقول: لا آكل اليوم إلا الحلاوة ؛ والغرض المضادة، لا النفى والإثبات على الحقيقة. فكأنه تعالى قال: لا حرام إلا ما حللتموه من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، ولم يقصد حل ماوراءه، إذ القصد إثبات التحريم لا إثبات الحل .

قال إمام الحرمين: وهذا فى غاية الحسن، ولولا سبق الشافعىّ إلى ذلك لما كنا

---

١ . سورة البقرة : الآية ١١٥.

٢ . سورة البقرة : الآية ١٥٨ . وجاء فى صحيح البخارىّ، فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٢ ـ سورة البقرة، ٢١ ـ باب إن الصفا والمروة من شعائر الله .

عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال: قلت لعائشة، زوج النبىّ ﷺ، وأنا يومئذ حديث السن : أرأيتِ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ . فما أرى على أحد شيئا أن لا يطَّوَّف بهما؛ فقالت عائشة: كلا . لو كان كما تقول كانت: فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما .

إنما أنزلت هذه الآية فى الأنصار، كانوا يهلون لمناة . وكانت مناة حذو قديد. وكانو يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة . فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فأنزل الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾.

٣ . سورة الانعام : الآية ١٤٥.

نستجيز مخالفة مالك فى حصر المحرمات فيما ذكرته الآية، وتعيين المبهم فيها. ولقد قال مروان فى عبدالرحمن بن أبىبكر: إنه الذى أنزل فيه، ﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ حتى ردت عليه عائشة وبينت له سبب نزولها[١].

وقال ابن تيمية أيضا: قد يجيء كثيرا من هذا الباب قولهم: هذه الآية نزلت فى كذا، ...[٢]

... وقال الزركشىّ فى البرهان: قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية فى كذا، فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هنا الحكم، لا أن هذا كان السبب في نزولها. فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية، لا من جنس النقل لما وقع. انتهى.

وقال المحقق أبو إسحق الشاطبىّ فى الموافقات: معرفة أسباب التنزيل لازمة لمن أراد علم القرآن، والدليل على ذلك أمران:

أحدهما: أن علم المعانى والبيان الذى يعرف به إعجاز نظم القرآن، فضلا عن معرفة مقاصد كلام العرب، إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال حال الخطاب من جهة نفس الخطاب أو المخاطِب أو المخاطَب أو الجميع. إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين، وبحسب مخاطبين، وبحسب غير ذلك كالاستفهام لفظه واحد، وتدخله معان أخر، من تقرير وتوبيخ، وغير ذلك كالأمر يدخله معنى الإباحة والتهديد والتعجيز وأشباهها. ولا يدل على معناها المراد إلا الأمور الخارجة. وعمدتها مقتضيات الأحوال. وليس كل حال ينقل، ولا كل قرينة تقترن بنفس الكلام المنقول. وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة، فات فهم الكلام جملة، أو فهم شيء منه. ومعرفة الأسباب رافعة لكل مشكل فى هذا النمط، فهى من المهمات فى فهم الكتاب بلابد. ومعنى معرفة السبب هو معنى معرفة مقتضى الحال. وينشأ عن هذا الوجه،

الوجه الثاني: وهو أن الجهل بأسباب التنزيل موقع فى الشبه والإشكالات، مورد للنصوص الظاهرة مورد الإجمال، حتى يقع الاختلاف، وذلك مظنة وقوع النزاع.

---

١. سورة الأحقاف: الآية ١٧. فى صحيح البخارىّ فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٤٦ ـ سورة الأحقاف، ١ ـ باب (وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا).

٢. انظر قبل اربع صفحات.

ويوضح هذا المعنى ما روى أبو عبيد عن إبراهيم التيميّ، قال: خلا عمر ذات يوم، فجعل يحدث نفسه: كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد؟! فأرسل إلى ابن عباس فقال: كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد، وقبلتها واحدة ؟! فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين! إنّا أُنزل القرآن علينا فقرأناه، وعلمنا فيم نزل. وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرأون القرآن ولا يدرون فيم نزل، فيكون لهم فيه رأى. فإذا كان لهم فيه رأى اختلفوا، واقتتلوا. قال: فزجره عمر وانتهره! فانصرف ابن عباس. نظر عمر فيما قال، فعرفه، فأرسل إليه فقال: أعد علىّ ما قلت. فأعاده عليه، فعرف عمر قوله وأعجبه. وما قاله صحيح فى الاعتبار، ويتبين بما هو أقرب.

فقد روى ابن وهب عن بكير أنه سأل نافعا: كيف كان رأى ابن عمر فى الحرورية؟ قال: يراهم شرار خلق الله، إنهم انطلقوا إلى آيات أنزلت فى الكفار، فجعلوها على المؤمنين. فهذا معنى الرأى الذى نبه ابن عباس عليه، وهو الناشىء عن الجهل بالمعنى الذى نزل فيه القرآن.

ثم ساق الشاطبىّ نحو ما تقدم عن ابن تيمية مطولا، وقال فى آخر البحث: وهذا شأن أسباب النزول فى التعريف بمعانى المنزل، بحيث لو فقد ذكر السبب، لم يعرف من المنزل معناه على الخصوص، دون تطرق الاحتمالات، وتوجه الإشكالات. وقد قال ﷺ: خذوا القرآن من أربعة، منهم عبدالله بن مسعود[1]. وقد قال فى خطبة خطبها: والله! لقد علم أصحاب النبىّ ﷺ أنى من أعلمهم بكتاب الله. وقال فى حديث آخر: والذى لا إله غيره! ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله منى، تبلغه الإبل، لركبت إليه[2]. وهذا يشير إلى أن علم الأسباب من العلوم التى يكون العالم بها عالما بالقرآن.

---

١ . صحيح البخارىّ فى: ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن، ٨ ـ باب القراء من أصحاب النبىّ ﷺ.
عن مسروق: ذكر عبدُالله بن عمرو، عبدالله بن مسعود فقال: لا أزال أحبه. سمعت النبى ﷺ يقول: «خذوا القرآن من أربعة: من عبدالله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأُبىّ بن كعب».

٢ . صحيح البخارىّ فى الباب السابق:
قال عبدالله رضى الله عنه: والله الذى لا إله غيره! ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين أنزلت. ولا أنزلت آية فى كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أنزلت. ولو أعلم أحداً أعلمَ منى بكتاب الله. تبلغه الإبل، لركبت إليه.

وعن الحسن أنه قال: ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيما أنزلت، وما أراد بها. وهو نص فى الموضع مشير إلى التحريض على تعلم علم الأسباب.

وعن ابن سيرين قال: سألت عبيدة عن شيء من القرآن، فقال: اتق الله وعليك بالسداد، فقد ذهب الذين يعلمون فيم أنزل القرآن. وعلى الجملة فهو ظاهر بالمزاولة لعلم التفسير انتهى.

وقال ولى الله الدهلوىّ فى الفوز الكبير: ومن المواضع الصعبة معرفة أسباب النزول. ووجه الصعوبة فيها خلاف المتقدمين والمتأخرين. والذى يظهر من استقراء كلام الصحابة والتابعين، أنهم لا يستعملون «نزلت فى كذا» لمحض قصة كانت فى زمنه ﷺ، وهى سبب نزول الآية. بل ربما يذكرون بعض ما صدقت عليه الآية مما كان فى زمنه ﷺ، أو بعده ﷺ. ويقولون: «نزلت فى كذا» ولا يلزم هناك انطباق جميع القيود، بل يكفى انطباق أصل الحكم فقط. وقد يقررون حادثة تحققت فى تلك الأيام المباركة، واستنبط ﷺحكمها من آية، وتلاها فى ذلك الباب، ويقولون: «نزلت فى كذا» وربما يقولون: فى هذه الصورة، فأنزل الله قوله كذا، فكأنه إشارة إلى أنه استنباطُه ﷺ. وإلقاؤها فى تلك الساعة بخاطره المبارك أيضا، نوعٌ من الوحى والنفث فى الروع. فلذلك يمكن أن يقال: فأنزلت، ويمكن أن يعبر فى هذه الصورة بتكرار النزول. ويذكر المحدثون فى ذيل آيات القرآن كثيرا من الأشياء ليست من قسم سبب النزول فى الحقيقة. مثل استشهاد الصحابة فى مناظراتهم بآية، أو تمثيلهم بآية، أو تلاوته ﷺ آية للاستشهاد فى كلامه الشريف، أو رواية حديث وافق الآية فى أصل الغرض، أو تعيين موضع النزول، أو تعيين أسماء المذكورين بطريق الإبهام، أو بطريق التلفظ بكلمة قرآنية، أو فضل سور وآيات من القرآن، أو صورة امتثاله ﷺ بأمر من أوامر القرآن ونحو ذلك ، وليس شيء من هذا فى الحقيقة من أسباب النزول، ولا يشترط إحاطة المفسر بهذه الأشياء، إنما شرط المفسر أمران:

الأول: ما تعرض له الآيات من القصص، فلا يتيسر فهم الإيماء بتلك الآيات إلا بمعرفة تلك القصص.

والثاني: ما يخصص العام من القصة، أو مثل ذلك من وجوه صرف الكلام عن الظاهر. فلا يتيسر فهم المقصود من الآيات بدونها.

ومما ينبغي أن يعلم أن قصص الأنبياء السابقين لا تذكر في الحديث إلا على سبيل القلة، فالقصص الطويلة العريضة التي تكلف المفسرون روايتها، كلها منقولة عن علماء أهل الكتاب، إلا ما شاء الله تعالى. وقد جاء في صحيح البخاريّ مرفوعا: لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم[1]. وليعلم أن الصحابة والتابعين ربما كانوا يذكرون قصصا جزئية لمذاهب المشركين واليهود وعاداتهم من الجهالات لتتضح تلك العقائد والعادات، ويقولون: نزلت الآية في كذا. ويريدون بذلك أنها نزلت في هذا القبيل، سواء كان هذا وما أشبهه، أو ما قاربه. ويقصدون إظهار تلك الصورة، لا بخصوصها، بل لأجل أن التصوير صالح لتلك الأمور الكلية. ولهذا تختلف أقوالهم في كثير من المواضع، وكلٌّ يجرّ الكلام إلى جانب. وفي الحقيقة، المطالب متحدة. وإلى هذه النكتة أشار أبو الدرداء حيث قال: لا يكون أحد فقيها حتى يحمل الآية على محامل متعددة. انتهى.

وقال أيضا: من جملة الآثار المروية في كتب التفسير بيان سبب النزول. وسبب النزول على قسمين:

الأول: أن تقع حادثة يظهر فيها إيمان المؤمنين، ونفاق المنافقين، كما وقع في أُحُدٍ والأحزاب، أنزل الله تعالى مدح هؤلاء، وذم أولئك، ليكون فيصلاً بين الفريقين. وربما يقع في مثل هذا من التعريض بخصوصيات الحادثة ما يبلغ حدّ الكثرة. فيجب أن يذكر شرح الحادثة مختصراً ليتضح سوق الكلام على القارىء.

القسم الثاني: أن يتم معنى الآية بعمومها من غير احتياج إلى العلم بالحادثة التي هي سبب النزول. والحكم لعموم اللفظ لا لخصوص السبب. وقد ذكر قدماء المفسرين تلك الحادثة بقصد الإحاطة بالآثار المناسبة للآية، أو بقصد بيان ما صدق عليه العموم. وليس

---

١. أخرجه البخاريّ في: ٩٧ ـ كتاب التوحيد ٥١ ـ باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب الله بالعربية وغيرها.

عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: ﴿ءامَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ ...﴾ الآية».

ذكر هذا القسم من الضروريات.

وقد تحقق عند الفقير؛ أن الصحابة والتابعين كثيراً ما كانوا يقولون: نزلت الآية في كذا وكذا، وكان غرضهم تصوير ما صدقت عليه الآية، وذكر بعض الحوادث التي تشملها الآية بعمومها، سواء تقدمت القصة أو تأخرت، إسرائيليًا أو جاهلياً كان ذلك أو إسلاميًا، استوعبت جميع قيود الآية أو بعضها والله أعلم.

فعلم من هذا التحقيق : أن للاجتهاد في هذا القسم مدخلاً، وللقصص المتعددة هنا لك سعة. فمن استحضر هذه النكتة يتمكن من حل ما اختلف من سبب النزول بأدنى عناية. انتهى كلامه»[١].

قال عبدالقادر: «.... وقد أخطأ من قال لا طائل تحت بيان أسباب النزول، لأن فيه معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم وتخصيص الحكم به عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب، ولأن اللفظ قد يكون عاماً ويقوم الدليل على تخصيصه فإذا عرف السبب قصر التخصيص على ما عدا صورته لأن دخول صورة السبب قطعي، واخراجها بالاجتهاد ممنوع، ولأن الوقوف على المعنى وازالة الإشكال لا يمكن إلا بمعرفة سبب النزول غالباً، فسبب النزول طريق قوي في فهم بعض معاني القرآن لأن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب تنبه لهذا.

فائدة معرفة أسباب النزول:

وبعضها ينزل لسؤال بعض المؤمنين مثل مرثد الغنوي لما أرسله الرسول إلى مكة لاخراج بعض المستضعفين من المسلمين في مكة ، فعرضت امرأة نفسها عليه فأبى خوفاً من الله وطلبت الزواج به فاستمهلها لسؤال حضرة الرسول، وكانت ذات جمال ومال فلما رجع إلى المدينة عرض قولها عليه فأنزل الله: ﴿ولاتنكحوا المشركات حتى يؤمنّ﴾ [٢] وأنزل في جواب من سأل: ﴿يسألونك عن الخمر﴾، ﴿يسألونك ماذا ينفقون﴾، ﴿يسألونك عن المحيض﴾، ﴿يسألونك عن الشهر الحرام﴾ [٣]، ﴿يستفتونك

---

١ . محاسن التأويل ج ١ ص ٢٢ ـ ٣٠.

٢ . سورة البقرة: الآية ٢٢١.

٣. سورة البقرة: الآية ٢١٩ ـ ٢١٥ ـ ٢٢٢ ـ ٢١٧.

في النساء﴾، ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم﴾[١]، ﴿يسألونك ماذا أحل لهم﴾[٢].

ومنها ما ينزل بدون حادث، وكلما ترى حكما لم يذكر له المفسرون حادثا انزل الحكم مرتباً عليه»[٣].

قال ابن عاشور في أسباب النزول:

«أولع كثير من المفسرين بتطلب أسباب نزول آى القرآن، وهي حوادث يُروى أن آيات من القرآن نزلت لأجلها لبيان حكمها أو لحكايتها أو إنكارها أو نحو ذلك، وأغربوا في ذلك وأكثروا حتى كاد بعضهم أن يوهم الناس أن كل آية من القرآن نزلت على سبب. وحتى رفعوا الثقة بما ذكروا. بيد أنا نجد في بعض آى القرآن إشارة إلى الأسباب التي دعت إلى نزولها ونجد لبعض الآى أسباباً ثبتت بالنقل دون احتمال أن يكون ذلك رأى الناقل، فكان أمر أسباب نزول القرآن دائرا بين القصد والإسراف، وكان في غض النظر عنه وإرسال حبله على غاربه خطر عظيم في فهم القرآن. فذلك الذي دعاني إلى خوض هذا الغرض في مقدمات التفسير لظهور شدة الحاجة إلى تمحيصه في أثناء التفسير، وللاستغناء عن إعادة الكلام عليه عند عروض تلك المسائل، غير مُدَّخِر ما أراه في ذلك رأيا يجمع شتاتها. وأنا عاذر المتقدمين الذين ألّفوا في أسباب النزول فاستكثروا منها، بأن كل من يتصدى لتأليف كتاب في موضوع غير مشبَع تمتلكه محبة التوسع فيه فلا ينفك يستزيد من ملتقطاته ليُذْكِيَ قَبسه، ويُمِدُّ نَفَسه، فيرضى بما يجدُ رضى الصب بالوعد، ويقول: زدني من حديثك يا سعد. غير هَيَّاب لعاذل، ولا متطلب معذرة عاذر، وكذلك شأن الولع إذا امتلك القلب، ولكني لا أعذر أساطين المفسرين الذين تلقفوا الروايات الضعيفة فاثبتوها في كتبهم ولم ينبهوا على مراتبها قوة وضعفاً، حتى أوهموا كثيراً من الناس أن القرآن لا تنزل آياته إلا لأجل حوادث تدعُو إليها، وبئس هذا الوهم؛ فإن القرآن جاء هادياً إلى ما به صلاح الأمة في أصناف الصلاح فلا يتوقف نزوله على حدوث الحوادث الداعية إلى تشريع الأحكام. نعم إن العلماء توجسوا منها فقالوا: إن

---

١. سورة النساء: الآيتان ١٢٧ ـ ١٧٦. ٢. سورة المائدة: الآية ٤.

٣. بيان المعاني ج ١ ص ٢٦ ـ ٢٧.

سبب النزول لا يخصِّص، إلا طائفة شاذة ادعت التخصيص بها، ولو أن أسباب النزول كانت كلها متعلقة بآيات عامة لما دخل من ذلك ضر على عمومها؛ إذ قد أراحنا أئمة الأصول حين قالوا «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»، ولكن أسبابا كثيرة رام رواتها تعيين مراد من تخصيص عام أو تقييد مطلق أو إلجاء إلى مجمل، فتلك هي التي قد تقف عُرْضةً أمام معاني التفسير قبل التنبيه على ضعفها أو تأويلها. وقد قال الواحدي في أول كتابه في أسباب النزول: «أما اليوم فكل أحد يخترع للآية سبباً، ويختلق إفْكاً وكذباً، ملقياً زمامه إلى الجهالة، غير مفكر في الوعيد»، وقال: «لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل» اهـ.

إن من أسباب النزول ما ليس المفسر بغنى عن علمه؛ لأن فيها بيان مجمل من إيضاح خفي وموجز، ومنها ما يكون وحده تفسيراً. ومنها ما يدل المفسر على طلب الأدلة التي بها تأويل الآية أو نحو ذلك. ففي صحيح البخاري: أن مروان بن الحكم أرسل إلى ابن عباس يقول: «لئن كان كلُّ امرئٍ فرح بما أتى، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذَّباً لنعذَّبنَّ أجمعون» يشير إلى قوله تعالى: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الذين يفرَحون بما أَتَوْا ويُحِبُّون أن يُحْمَدُوا بما لم يفعلوا فلا تَحْسَبَنَّهُمْ بمَفازَةٍ من العذاب ولهم عذاب أليم﴾[1] فأجاب ابن عباس قائلا: إنما دعا النبي اليهود فسألهم عن شيء فكتموه اياه وأخبروه بغيره، فأروه أنهم قد استحمدوا اليه بما أخبروه عنه فيما سألهم وفرحوا بما أتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابن عباس: ﴿وإذْ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيِّنُنَّه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلا فبئس ما يشترون ... لا تحسبن الذين يفرحون.﴾[2] الآيات. وفي الموطأ عن هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه أنه قال: قلت لعائشة أم المؤمنين وأنا يومئذ حديث السن: أرأيتِ قول الله تعالى: ﴿إنَّ الصفا والمَرْوَة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يَطَّوَّف بهما﴾[3] فما على الرجل شيء ألاَّ يطوف بهما، قالت عائشة: كلا، لو كان كما تقول لكانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما،

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٨٨.
٢. سورة آل عمران: الآية ١٨٧ ـ ١٨٨.
٣. سورة البقرة: الآية ١٥٨.

إنما نزلت هذه الآية في الأنصار كانوا يُهِلُّون لمناةَ، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله عن ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿إن الصفا والمَرْوة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما﴾[١] اهـ.

ومنها ما ينبه المفسر إلى إدراك خصوصيات بلاغية تتبع مقتضى المقامات؛ فإن من أسباب النزول ما يعين على تصوير مقام الكلام، كما سننبهك إليه في أثناء المقدمة العاشرة.

وقد تصفَّحتُ أسباب النزول التي صحت أسانيدها فوجدتها خمسة أقسام:

الأول: هو المقصود من الآية يتوقف فهم المراد منها على علمه، فلابد من البحث عنه للمفسر وهذا منه تفسير مبهمات القرآن مثل قوله تعالى: ﴿قد سمع الله قولَ التي تُجادلك في زوجها﴾[٢]، ونحو: ﴿يا أيها الّذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا اُنظُرْنا﴾[٣]، ومثل بعض الآيات التي فيها ﴿ومن الناس﴾.

والثاني: هو حوادث تسببت عليها تشريعاتٌ أحكام وصور تلك الحوادث لا تبيِّن مجملا ولا تخالف مدلول الآية بوجهٍ تخصيص أو تعميمٍ أو تقييدٍ، ولكنها إذا ذُكرت أمثالُها وجدت مساوية لمدلولات الآيات النازلة عند حدوثها، مثل حديث عُويمر العجلاني الذي نزلت به آية اللعان، ومثل حديث كعب بن عجرة الذي نزلت به آية: ﴿ومن كان مريضاً أو به أذىً من رأسه ففِدْيَةٌ من صيام﴾[٤] الآية، فقد قال كعب بن عجرة: هي لي خاصة ولكم عامة، ومثل قول أم سلمة رضي الله عنها للنبي ﷺ: يغزو الرجال ولا نغزو، فنزل قوله تعالى: ﴿ولا تتمنّوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾[٥] الآية. وهذا القسم لا يفيد البحثُ فيه إلا زيادة تفهم في معنى الآية وتمثيلا لحكمها، ولا يخشى توهم تخصيص الحكم بتلك الحادثة، إذ قد اتفق العلماء ـ أو كادوا ـ على أن سبب النزول في مثل هذا لا يخصص، واتفقوا على أن أصل التشريع أن لا يكون خاصا.

والثالث: هو حوادث تكثر أمثالها تختص بشخص واحد فنزلت الآية لإعلانها وبيان

---

١. سورة البقرة: الآية ١٥٨.
٢. سورة المجادلة: الآية ١.
٣. سورة البقرة: الآية ١٠٤.
٤. سورة البقرة: الآية ١٩٦.
٥. سورة النساء: الآية ٣٢.

أحكامها وزجر من يرتكبها، فكثيرا ما تجد المفسرين وغيرهم يقولون نزلت في كذا وكذا، وهم يريدون أن من الأحوال التي تشير إليها تلك الآية تلك الحالة الخاصة فكأنهم يريدون التمثيل. ففي كتاب الأيمان من صحيح البخاري في باب قول الله تعالى: ﴿إن الذين يشترون بعهدالله وأيمانهم ثمنا قليلا﴾[1] أن عبدالله بن مسعود قال: «قال رسول الله من حلف على يمين صبرٍ يقتطع بها مال امرىء مسلم لقى الله وهو عليه غضبان»، فأنزل الله تصديق ذلك: ﴿إن الذين يشترون بعهدالله وأيمانهم ثمنا قليلا﴾ الآية، فدخل الأشعث بن قيس فقال: ما حدثكم أبو عبدالرحمان؟ فقالوا: كذا وكذا، قال: فيَّ أُنزلت، لى بئر في أرض ابن عم لى الخ، فابن مسعود جعل الآية عامة لأنه جعلها تصديقا لحديث عام. والأشعث بن قيس ظنها خاصة به إذ قال: «فيَّ أنزلت» بصيغة الحصر. ومثل الآيات النازلة في المنافقين في سورة براءة المفتتحة بقوله تعالى: ﴿ومنهم - ومنهم﴾، ولذلك قال ابن عباس: كنا نسمى سورة التوبة سورة الفاضحة. ومثل قوله تعالى: ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يُنَزَّلَ عليكم من خيرٍ مِن ربكم﴾[2]، فلا حاجة لبيان أنها نزلت لما أظهر بعض اليهود مودة المؤمنين. وهذا القسم قد أكثر من ذكره أهل القصص وبعض المفسرين ولا فائدة في ذكره، على أن ذكره قد يوهم القاصرين قصر الآية على تلك الحادثة لعدم ظهور العموم من ألفاظ تلك الآيات.

والرابع: هو حوادث حدثت وفي القرآن آيات تناسب معانيها سابقةً أو لاحقةً، فيقع في عبارات بعض السلف ما يوهم أن تلك الحوادث هي المقصودة من تلك الآيات، مع أن المراد: أنها مما يدخل في معنى الآية، ويدل لهذا النوع وجود اختلاف كثير بين الصحابة في كثير من أسباب النزول كما هو مبسوط في المسألة الخامسة من بحث أسباب النزول من لاتقان، فارجعوا إليه ففيه أمثلة كثيرة. وفي صحيح البخاري في سورة النساء: أن ابن عباس قرأ قوله تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لستَ مؤمنا﴾[3]. بألف بعد لام السلام، وقال: كان رجل في غُنيمة له (تصغير غنم) فلحقه المسلمون، فقال: السلام عليكم فقتلوه (أى ظنوه مشركا يريد أن يتقى منهم بالسلام)،

---

١. سورة آل عمران: الآية ٧٧.
٢. سورة البقرة: الآية ١٠٥.
٣. سورة النساء: الآية ٩٤.

وأخذوا غُنيمته فأنزل الله في ذلك: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام﴾ الآيـةَ. فـالقصة لابد أن تكون قد وقعت لأن ابن عباس رواها ، لكن الآية ليست نـازلة فـيها بـخصوصها ولكن نزلت في أحكام الجهاد بدليل ما قبلها وما بعدها ، فإن قبلها : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فـي سـبيل الله فـتَبَيَّنُوا﴾[١] وبـعدها: ﴿فـعِنْدَالله مـغانِمُ كـثيرةٌ كـذلكَ كـنتم مـن قَبْلُ﴾[٢]. وفي تفسير تلك السورة من صحيح البخاري بعد أن ذكر نزاع الزبير والأنصاري في ماء شراج الحرّة ، قال الزبير: فما أحسب هذه الآيات إلا نزلت في ذلك : ﴿فَلا وربِّك لا يؤمنون حتى يحكِّمُوك فيما شَـجَر بـينهم﴾[٣] الآيـة ، قـال السـيوطي فـي الإتـقان عـن الزركشي : قد عُرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال : نزلت هذه الآيـة فـي كذا فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم لا أن هذا كان السبب في نزولها. وفيه عن ابن تيمية : قد تنازع العلماء في قول الصحابي : نزلت هذه الآية في كذا هـل يـجري مـجرى المسند أو يجرى مجرى التفسير؟. فالبخاري يدخله في المسند، وأكثر أهـل المسـانيد لا يدخلونه فيه، بخلاف ما إذا ذكر سببا نزلت عقِبه فإنهم كلهم يدخلونه فى المسند.

والخامس : قسم يبين مجملات. ويدفع متشابهات مثل قوله تعالى ﴿ومـن لم يـحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾[٤] فإذا ظن أحـد أن مـن للشـرط أشكـل عـليه كـيف يكون الجور في الحكم كفرا؟، ثم إذا عـلم أن سـبب النـزول هـم النـصارى عـلم أن مـن موصولة ، وعلم أن الذين تركوا الحكم بالإنجيل لا يـتعجب مـنهم أن يكـفروا بـمحمد. وكذلك حديث عبدالله بن مسعود ، قال : لما نزل قوله تعالى : ﴿الذين آمـنوا ولم يَـلْبِسوا إيمانَهم بظُلْم﴾[٥] شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، وقالوا : أينا لم يَلْبِس إيمانَه بظلم (ظنوا أن الظلم هو المعصية). فقال رسول الله: «إنه ليس بذلك ألا تـسمع لقول لقمان لابنه ﴿إن الشِّرْكَ لَظُلم عظيم﴾[٦]؟ . ومن هذا القسم مالا يبيّن مجملا ولا يؤول متشابها ولكنه يبيّن وجه تناسب الآى بعضها مع بعض ، كما في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وإن خفتم ألاّ تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾[٧] الآية، فقد تخفى الملازمة بين

---

١. سورة النساء : الآية ٩٤.
٢. سورة النساء : الآية ٩٤.
٣. سورة النساء : الآية ٦٥.
٤. سورة المائدة : الآية ٤٤.
٥. سورة الانعام : الآية ٨٢.
٦. سورة لقمان : الآية ١٣.
٧. سورة النساء : الآية ٣.

الشرط وجزائه فيبينها ما في الصحيح، عن عائشة : أن عروة بن الزبير سألها عنها فقالت: «هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله فيريد أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن في الصداق. فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن».

هذا وإن القرآن كتاب جاء لهدى أمة والتشريع لها، وهذا الهدى قد يكون واردا قبل الحاجة، وقد يكون مخاطبا به قوم على وجه الزجر أو الثناء أو غيرهما، وقد يكون مخاطبا به جميع من يصلح لخطابه، وهو في جميع ذلك قد جاء بكليات تشريعية وتهذيبية، والحكمة في ذلك أن يكون وعي الأمة لدينها سهلا عليها، وليُمْكن تواتُر الدِّين، وليكون لعلماء الأمة مزية الاستنباط، وإلا فإن الله قادر أن يجعل القرآن أضعاف هذا المنزَّل وأن يطيل عمر النبي ﷺ للتشريع أكثر مما أطال عمر إبراهيم وموسى، ولذلك قال تعالى : ﴿وأتممتُ عليكم نعمتي﴾[١]، فكما لا يجوز حمل كلماته على خصوصيات جزئية لأن ذلك يُبطل مرادَ الله، كذلك لا يجوز تعميم ما قصد منه الخصوص ولا إطلاق ما قصد منه التقييد؛ لأن ذلك قد يفضي إلى التخليط في المراد أو إلى إبطاله من أصله، وقد اغتر بعض الفرق بذلك، قال ابن سيرين في الخوارج: إنهم عمدوا إلى آيات الوعيد النازلة في المشركين فوضعوها على المسلمين فجاءوا ببدعة القول بالتكفير بالذنب، وقد قال الحرورية لعلي رضي الله عنه يوم التحكيم : ﴿إنِ الحكمُ إلاَّ لله﴾[٢] فقال علي: «كلمة حق أُريدَ بها باطل» وفسرها في خطبة له في نهج البلاغة.

وثمة فائدة أخرى عظيمة لأسباب النزول وهي : أن في نزول القرآن عند حدوث حوادث دلالة على إعجازه من ناحية الارتجال، وهي إحدى طريقتين لبلغاء العرب في أقوالهم، فنزوله على حوادث يقطع دعوى من ادعوا أنه أساطير الأولين»[٣].

قال الزحيلي في فائدة العلم بأسباب النزول:

«إن معرفة أسباب نزول الآيات بحسب الوقائع والمناسبات لها فوائد كثيرة وأهمية

---

١. سورة المائدة : الآية ٣. ٢. سورة الانعام : الآية ٥٧.

٣. التحرير والتنوير ج ١ ص ٤٦ ـ ٥٠.

بالغة في تفسير القرآن وفهمه على الوجه الصحيح؛ لأن أسباب النزول قرائن معبرة توضح غاية الحكم، وتبين سبب التشريع، وتعرف أسراره ومراميه، وتساعد على فهم القرآن فهماً دقيقاً شاملاً، حتى وإن كانت العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب. ونرى في عالمنا القانوني اليوم ما يسمى بالمذكّرات التوضيحية للقوانين والأنظمة والأحكام، يبين فيها أسباب إصدارها، واهدافها. ويؤكد ذلك أن كل نظام يظل في مستوى الأمور النظرية غير المقنعة كثيراً للناس، ما لم يقترن بالمتطلبات الواقعية، أو يرتبط بالحياة العملية.

وكل ما سبق يشير إلى أن شريعة القرآن ليست فوق مستوى الأحداث، أو أنها سامية مثالية لا تقبل التطبيق، وإنما هي متعاصرة مع كل زمن، متفاعلة مع الواقع، تصف العلاج الحاسم لكل داء عضال من أمراض المجتمع، وشذوذات الأفراد وانحرافاتهم»[1].

قال الصادقي في شؤون النزول:

«ان شؤون نزول الآيات وإن كانت تساعد على تفهُّم معانيها أحياناً ولكنّها ليست شرطاً في التعرُّف الى معاني آيها، ولا أنها تحدِّد معاني الآيات بمواردها، فلو أن الآية ماتت بموت الشأن الذي نزلت فيه، إذاً لماتت الآيات كلها، وإنما شؤون النزول مبرِّرات وقتية لنزولها، تماشياً مع كل حادث وحديث في نزولها، فالآيات مستقلة في دلالاتها على معانيها، عرفت شؤونها أم لا، وانما تكمل دلالاتها رعاية قرائنها القرنية لها قبل او بعد او مع، ام البعيدة عنها من نظائرها، واما شؤون نزولها فلا شأن لها أصيلاً في تفسيرها، وإنما الشأن الأصيل هو شأن الآيات أنفسها دون شؤون سواها.

«ولو ان الآية اذا نزلت في قوم ثم مات اولئك القوم ماتت الآية لما بقي من القرآن شيء، ولكن القرآن يجري أوّله على آخره ما دامت السماوات والأرض ولكل قوم آية يتلونها هم منها من خير او شر»[2] [3].

---

١. المنير ج ١ ص ١٨ ـ ١٩.
٢. تفسير البرهان ج ١ ص ٢١.
٣. الفرقان ج ١ ص ٥٠.

في قصص القرآن وسر تكريرها

ـ فوائد قصص القرآن

قال القاسمي : « ثم اعلم أن قصص القرآن الكريم لا يراد بها سرد تاريخ الأمم أو الأشخاص ، وإنما هي عبرة للناس . كما قال تعالى في سورة هود ، بعد ما ذكر موجزاً من سيرة الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم : ﴿ وَكُلاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ ... ﴾[1] الخ ، ولذلك لا تذكر الوقائع والحوادث بالترتيب ، ولا تستقصى فيذكر منها الطمّ والرمّ ، ويؤتى فيها بالجرّة وأُذُن الجرة، كما في بعض الكتب ، التي تسميها الملل الأخرى مقدسة . وللعبرة وجوه كثيرة . وفي تلك القصص فوائد عظيمة ، وأفضل الفوائد وأهم العبر فيها التنبيه على سنن الله تعالى في الاجتماع البشريّ، وتأثير أعمال الخير والشر في الحياة الإنسانية . وقد نبه الله تعالى على ذلك في مواضع من كتابه كقوله : ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾[2]. وقوله : ﴿ سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَا لِكَ الْكَافِرُونَ ﴾[3]. يذكر أمثال هذا بعد بيان أحوال الأمم في غمط الحق والإعراض عنه ، والغرور بما أوتوا ، ونحو ذلك . فالآية الأولى جاءت في سياق الكلام عن المعرضين عن الحق لا يلوون عليه ولا ينظرون في أدلته لانهماكهم في ترفهم وسرفهم ، وجمودهم على عاداتهم وتقاليدهم.

---

١. سورة هود : الآية ١٢٠.
٢. سورة الحجر : الآية ١٣.
٣. سورة غافر : الآية ٨٥.

والآية الثانية : جاءت فى سياق محاجّة الكافرين والتذكير بما كان من شأنهم مع الأنبياء ، وبَعْدَ الأمر فى السير فى الأرض والنظر فى عاقبة الأمم القوية ذات القوة والآثار فى الأرض ، وكيف هلكوا بعد ما دعوا إلى الحق والتهذيب فلم يستجيبوا ، لما صرفهم من الغرور بما كانوا فيه ، ولم ينفعهم إيمانهم عند ما نزل بهم بأس الله وحَلّ بهم عذاب التفريط والاسترسال فى الكفر وآثاره السوءى . وليس المراد ، بنفى كون قصص القرآن تاريخاً ، أنّ التاريخ شىء باطل ضارّ ينزه القرآن عنه . كلا . إن قصصه شذور من التاريخ تعلم الناس كيف ينتفعون بالتاريخ .

فمثل ما فى القرآن من التاريخ البشرىّ كمثل ما فيه من التاريخ الطبيعىّ من أحوال الحيوان والنبات والجماد ، ومثل ما فيه من الكلام فى الفلَك . يراد بذلك كله التوجيه إلى العبرة والاستدلال على قدرة الصانع وحكمته ؛ لا تفصيل مسائل العلوم الطبيعية والفلكية التى مكن الله البشر من الوقوف عليها بالبحث والنظر والتجربة، وهَدَاهُمْ إلى ذلك بالفطرة وبالوحى معاً »[1].

قال القاسمى فى قصص الأنبياء والاستشهاد بالإسرائيليات :

« قال الإمام أبو العباس أحمد بن زروق فى قواعد التصوف : التأثير بالأخبار عن الوقائع أتم لسماعها من التأثير بغيرها . فمن ثَمّ قيل : الحكايات جند من جنود الله يثبت الله بها قلوب العارفين . قيل : فهل تجد لذلك شاهداً من كتاب الله ؟ قال : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾[2] ووجه ذلك : أن شاهد الحقيقة بالفعل أظهر وأقوى فى الانفعال من شاهدها اللغوىّ ، إذ مادة الفاعل مستمرة فى الفعل لغابر الدهر .

وقال ولىّ الله الدهلوىّ ، قدس سره ، فى أصول التفسير ، فى فصل الكلام على معرفة أسباب النزول :

شرط المفسر أمران :

الأول : ما تعرض له الآيات من القصص ، فلا يتيسر فهم الإيماء بتلك الآيات إلا بمعرفة تلك القصص .

---

١. محاسن التأويل ج ١ ص ١١٤ ـ ١١٥.

٢. سورة هود : الآية ١٢٠.

والثاني : ما يخصص العام من القصة ، أو مثل ذلك من وجوه صرف الكلام عن الظاهر فلا يتيسر فهم المقصود من الآيات بدونها .

ومما ينبغي أن يعلم أن قصص الأنبياء السالفين لا تذكر في الحديث إلا على سبيل القلة فالقصص الطويلة العريضة التي تكلف المفسرون روايتها ، كلها منقولة عن علماء أهل الكتاب إلا ما شاءالله تعالى . انتهى .

فإذن ، لا يخفى أن من وجوه التفسير معرفة القصص المجملة في غضون الآيات الكريمه ثم ما كان منها غير إسرائيليّ كالذى جرى في عهده ﷺ ، أو أخبر عنه فهذا تكفَّل ببيان المحدثون . وقد رووه بالأسانيد المتصلة . فلا مغمز فيه »[١].

قال ابن عاشور في قصص القرآن :

«امتن الله على رسوله ﷺ بقوله ﴿ نحن نَقُصُّ عليك أَحسنَ القَصَصِ بما أوحينا إليك هذا القرآنَ وإنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافلين ﴾[٢] فعلِمْنا من قوله أحسن ، أن القصص القرآنية لم تُسق مساق الإحماض [٣] وتجديد النشاط ، وما يحصل من استغراب مبلغ تلك الحوادث من خير أو شر ؛ لأن غرض القرآن أسمى وأعلى من هذا ، ولو كان من هذا لساوى كثيرا من قصص الأخبار الحسنة الصادقة فما كان جديرا بالتفضيل على كل جنس القصص.

والقصة : الخبر عن حادثة غائبة عن المخبَر بها ، فليس ما في القرآن من ذكر الأحوال الحاضرة في زمن نزوله قَصَصا مثل ذكر وقائع المسلمين مع عدوهم . وجمع القصة قِصص بكسر القاف ، وأما القصص بفتح القاف فاسم للخبر المقصوص ، وهو مصدر سمي به المفعول ، يقال قص على فلان إذا أخبره بخبر .

وأَبْصَرَ أهل العلم أن ليس الغرض من سوقها قاصرا على حصول العبرة والموعظة مما تضمنته القصة من عواقب الخير أو الشر ، ولا على حصول التنويه بأصحاب تلك القصص في عناية الله بهم أو التشويه بأصحابها فيما لقوه من غضب الله عليهم كما تقف عنده أفهام القانعين بظواهر الأشياء وأوائلها ، بل الغرض من ذلك أسمى وأجل . إن في

---

١. محاسن التأويل ج ١ ص ٤٠.
٢. سورة يوسف : الآية ٣.
٣. من أحمض القوم : أفاضوا فيما يؤنسهم.

تلك القصص لَعِبرا جمة وفوائد للأمة ؛ ولذلك نرى القرآن يأخذ من كل قصة أشرف مواضيعها ويعرض عما عداه ليكون تعرضه للقصص منزها عن قصد التفكه بها . من أجل ذلك كله لم تأت القصص في القرآن متتالية متعاقبة في سورة أو سور كما يكون كتاب تاريخ ، بل كانت مفرقة موزعة على مقامات تناسبها ، لأن معظم الفرائد الحاصلة منها لها علاقة بذلك التوزيع ، وهو ذكر وموعظة لأهل الدين فهو بالخطابة أشبه . وللقرآن أسلوب خاص هو الأسلوب المعبر عنه بالتذكير وبالذكر في آيات يأتي تفسيرها ؛ فكان أسلوبه قاضيا للوطرين وكان أجل من أسلوب القصاصين في سَوْق القصص لمجرد معرفتها لأن سوقها في مناسباتها يكسبها صفتين : صفة البرهان وصفة التبيان ونجد من مميزات قصص القرآن نسج نظمها على أسلوب الإيجاز ليكون شبهها بالتذكير أقوى من شبهها بالقصص ، مثال ذلك قوله تعالى في سورة القلم ﴿ فلما رأوها قالوا إنا لضالّون بل نحن محرومون قال أوسطهم ألم أقل لكم لو لا تُسبِّحون ﴾[1] فقد حُكيت مقالته هذه في موقع تذكيره أصحابَه بها لأن ذلك محض حكايتها ولم تحك أثناء قوله ﴿ إذ أقسموا ليصْرِمُنّها مصبحين ﴾[2] وقوله ﴿ فتنادوا مصبحين أنِ اغْدُوا على حرثِكمُ إن كنتم صارمين ﴾[3] .

وممن مميّزاتها طي ما يقتضيه الكلام الوارد كقوله تعالى في سورة يوسف ﴿ واسْتَبَقَا الباب ﴾[4] فقد طوي ذكر حضور سيّدها وطرقه الباب واسراعهما إليه لفتحه ، فإسراع يوسف ليقطع عليها ما توسّمه فيها من المكر به لترى سيدها أنّه أراد بها سوءا . وإسراعُها هي لضد ذلك لتكون البادئة بالحكاية فتقطع على يوسف ما توسمّه فيه من شكاية . فدلّ على ذلك ما بعده من قوله ﴿ وألفيا سيّدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا ﴾[5] الآيات ، ومنها أنّ القصص بث بأسلوب بديع إذ ساقها في مظان الاتعاظ بها مع المحافظة على الغرض الأصلي الذي جاء به القرآن من تشريع وتفريع فتوفرت من ذلك عشر فوائد :

١ . سورة القلم : الآية ٢٦ ـ ٢٨ .
٢ . سورة القلم : الآية ١٧ .
٣ . سورة القلم : الآية ٢١ ـ ٢٢ .
٤ . سورة يوسف : الآية ٢٥ .
٥ . سورة يوسف : الآية ٢٥ .

الفائدة الأولى : أن قصارى علم أهل الكتاب فى ذلك العصر كان معرفة أخبار الأنبياء وأيامهم وأخبار من جاورهم من الأمم ، فكان اشتمال القرآن على تلك القصص التى لا يعلمها إلا الراسخون فى العلم من أهل الكتاب تحديا عظيما لأهل الكتاب ، وتعجيزا لهم بقطع حجتهم على المسلمين ، قال تعالى ﴿ تلك من أنباء الغيب توحيها إليك ما كُنتَ تعلمها أنتَ ولا قومُك من قبل هذا ﴾[1] فكان حَملة القرآن بذلك أحقَّاء بأن يوصفوا بالعلم الذى وصفت به أحبار اليهود ، وبذلك انقطعت صفة الأمية عن المسلمين فى نظر اليهود ، وانقطعت ألسنة المعرّضين بهم بأنهم أمة جاهلية ، وهذه فائدة لم يبينها مَن سَلَفنا من المفسرين .

الفائدة الثانية أن من أدب الشريعة معرفة تاريخ سلفها فى التشريع من الأنبياء بشرائعهم فكان اشتمال القرآن على قصص الأنبياء وأقوامهم تكليلا لهامة التشريع الإسلامى بذكر تاريخ المشرعين ، قال تعالى ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾[2] الآية . وهذه فائدة من فتوحات الله لنا أيضا . وقد رأيت من أسلوب القرآن فى هذا الغرض أنه لا يتعرض إلا إلى حال أصحاب القصة فى رسوخ الإيمان وضعفه وفيما لذلك من أثر عناية إلهية أو خذلان . وفى هذا الأسلوب لا تجد فى ذكر أصحاب هذه القصص بيان أنسابهم أو بلدانهم إذ العبرة فيما وراء ذلك من ضلالهم أو إيمانهم . وكذلك مواضع العبرة فى قدرة الله تعالى فى قصة أهل الكهف ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً -إلى قوله- نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾[3]. الآيات فلم يذكر أنهم من أى قوم وفى أى عصر. وكذلك قوله فيها ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾[4] فلم يذكر أية مدينة هى لأن موضع العبرة هو انبعاثهم ووصول رسولهم إلى مدينة إلى قوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾[5] .

الفائدة الثالثة : ما فيها من فائدة التاريخ من معرفة ترتب المسببات على أسبابها فى

١. سورة هود : الآية ٤٩.
٢. سورة آل عمران : الآية ١٤٦.
٣. سورة الكهف : الآية ٩ـ١٣.
٤. سورة الكهف : الآية ١٩.
٥. سورة الكهف : الآية ٢١.

الخير والشر والتعمير والتخريب لتقتدى الأمة وتحذر، قال تـعالى ﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ﴾[١] وما فيها من فائدة ظهور المثل العليا فى الفضيلة وزكـاء النـفوس أو ضـد ذلك.

الفائدة الرابعة: ما فيها من موعظة المشركين بـما لحـق الأمَـم التى عـاندت رسـلها، وعصت أوامر ربها حتى يرعَوُوا عن غُلَوائهم، ويتعظوا بمصارع نظرائهم، وكيف يُورث الأرض أولياءه وعبادَه الصالحين قال تعالى ﴿ فـاقصص القـصص لعـلهم يـتفكرون ﴾[٢] وقال ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾[٣] وقال ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذِّكْرِ أنَّ الأرْض يرثُها عبادِيَ الصالحون ﴾[٤] وهذا فى القصص التى يُذكَر فـيها مـا لقـيه المكذِّبون للرسل كقصص قوم نوح وعاد وثمود وأهل الرَّسِّ وأصحاب الأَيْكَة.

الفائدة الخامسة: أن فى حكاية القصص سلوك أسلوب التوصيف والمـحاورة وذلك أسلوب لم يكن معهوداً للعرب فكان محيئه فى القرآن ابتكارَ أسلوب جديد فى البـلاغة العربية شديدِ التأثير فى نفوس أهل اللسان، وهو من إعـجاز القـرآن؛ إذ لا يـنكرون أنه أسلوب بديع ولا يستطيعون الإتيان بمثله إذ لم يعتادوه، انظر إلى حكاية أحـوال النـاس فى الجنة والنار والأعراف فـى سورة الأعـراف، وقـد تـقدم التـنبيه عـليه فـى المـقدمة الخامسة فكان من مكملات عَجز العرب عن المعارضة.

الفائدة السادسة: أن العرب بتوغل الأمية والجهل فيهم أصبحوا لا تهتدى عقولهم إلا بما يقع تحت الحس، أو ما يـنتزع مـنه فـفقدوا فـائدة الاتـعاظ بأحـوال الأمـم المـاضية وجهلوا معظمها وجهلوا أحوال البعض الذى علموا أسماءه فأعقبهم ذلك إعـراضـا عـن السعى لإصلاح أحوالهم بتطهيرها مما كان سبب هلاك مَن قبلهم، فكان فى ذكر قصص الأمم توسيع لعلم المسلمين بإحاطتهم بوجود الأمم ومعظم أحـوالهـا، قـال مشـيراً إلى غفلتهم قبل الإسلام ﴿ وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبيَّنَ لكـم كـيفَ فَـعلْنا بهم ﴾[٥].

١. سورة النمل: الآية ٥٢.
٢. سورة الاعراف: الآية ١٧٦.
٣. سورة يوسف: الآية ١١١.
٤. سورة الانبياء: الآية ١٠٥.
٥. سورة ابراهيم: الآية ٤٥.

الفائدة السابعة: تعويد المسلمين على معرفة سعة العالم وعظمة الأمم والاعتراف لها بمزاياها حتى تُدفع عنهم وصمة الغرور كما وعظهم قوله تعالى عن قوم عاد ﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾[1] فإذا علمت الأمة جوامع الخيرات وملائمات حياة الناس تطلبت كل ما ينقصها مما يَتوقف عليه كمالُ حياتها وعظمتها.

الفائدة الثامنة أن يُنْشِىءَ فى المسلمين همة السعى إلى سيادة العالم كما ساده أمم من قبلهم ليخرجوا من الخمول الذى كان عليه العرب إذ رضوا من العزة باغتيال بعضهم بعضا فكان منتهى السيد منهم أن يَغْنَم صَرَيْمَة، ومنتهى أمل العامى أن يَرْعَى غُنَيْمَة، وتقاصرت هممهم عن تطلب السيادة حتى آل بهم الحال إلى أن فقدوا عزتهم فأصبحوا كالأتباع للفُرس والروم، فالعراق كله واليمن كله وبلاد البحرين تبع لسيادة الفُرْس. والشام وَمَشَارِفه تبع لسيادة الروم. وبقى الحجاز ونجد لا غُنية لهم عن الاعتزاز بملوك العجم والروم فى رحلاتهم وتجارتهم.

الفائدة التاسعة: معرفة أن قوة الله تعالى فوق كل قوة، وأن الله ينصر من ينصره، وأنهم إن أخذوا بوسيلتى البقاء: من الاستعداد والاعتماد؛ سلموا من تسلط غيرهم عليهم. وذكر العواقب الصالحة لأهل الخير، وكيف ينصرهم الله تعالى كما فى قوله ﴿ فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين. فاستجبنا له ونجيناه من الغم، وكذلك نُنجى المؤمنين ﴾[2].

الفائدة العاشرة: أنها يحصل منها بالتبع فوائد فى تاريخ التشريع والحضارة وذلك يفتق أذهان المسلمين للإلمام بفوائد المدنية كقوله تعالى ﴿ كَذلك كِدْنَا لِيوسف ما كان ليأْخُذَ أخاه فى دِينِ المَلِكِ إلا أن يشاء الله ﴾[3] فى قراءة من قرأ دِين بكسر الدال، أى فى شرع فرعون يومئذ، فعلمنا أن شريعة القبط كانت تخول استرقاق السارق. وقوله ﴿ قال معاذ الله أن نأْخُذَ إلاَّ مَنْ وجدْنا متاعَنا عنده ﴾[4] يدل على أن شريعتهم ما كانت تسوغ أخذ البدل فى الاسترقاق، وأن الحُر لا يُملك إلا بوجه معتبر. ونعلم من قوله ﴿ وابعث

١. سورة فصّلت: الآية ١٥.
٢. سورة الانبياء: الآية ٨٧-٨٨.
٣. سورة يوسف: الآية ٧٦.
٤. سورة يوسف: الآية ٧٩.

في المدائن حاشرين ـ فأرسل فرعون في المدائن حاشرين ﴾[1] أن نظام مصر في زمن موسى إرسال المؤذنين والبريح بالإعلام بالأمور المهمة . ونعلم من قوله ﴿ قال قائل منهم لا تقتلوا يوسُف وألقوه في غيابات الجُبّ يَلْتَقِطْهُ بعضُ السيَّارة ﴾[2] أنهم كانوا يعلمون وجود الأجباب في الطرقات وهي آبار قصيرة يقصدها المسافرون للاستقاء منها. وقول يعقوب ﴿ وأخافُ أن يَأكُلَه الذئبُ ﴾[3] أن بادية الشام إلى مصر كانت توجد بها الذئاب المفترسة وقد انقطعت منها اليوم »[4].

قال المحققان في القصص القرآني:

« قال الله تعالى : ﴿ نحنُ عليكَ احسَنَ القَصَصِ بما أوْحَيْنَا إليكَ هذا القرآن ﴾[5] ، والقصّة هي : الخبر عن حادثة غائبة عن المُخْبِرِ بها ، وهي من القَصص ـ بالفتح ـ اتباع الخبر بعضه بعضاً، وأصله في اللغة: المتابعة ، قال سبحانه : ﴿ وقالتْ لاختِهِ قُصِّيهِ ﴾[6]، أيْ : اتّبعي أثره ، وقال سبحانه : ﴿ فارْتَدَّا على آثارِهما قَصَصَاً ﴾[7]، أيْ : اتّباعاً . وإنّما سُميت الحكاية قصصاً، لأن الذي يقصُّ الحديث أو الخبر يذكره شيئاً فشيئاً .

وإنّ للقصص القرآني لعبراً كثيرة وفوائد عديدة ، نُريد أن نذكر مجملها فيما يلي :

١ ـ لقد اشتمل القرآن الكريم على تلك القصص التي لا يعلمها إلاّ الراسخون من أهل الكتاب ، وكان ذلك تحدّياً عظيماً لهم ، وإثباتاً لصدق رسول الله ﷺ على أنّ هذا القرآن ليس من عنده ، وإنّما هو تنزيلٌ من حكيم حميد ، قال الله تعالى:﴿ تلكَ مِنْ أنباءِ الغيبِ نُوحيها إليكَ ما كُنتَ تعلمها أنتَ ولا قومُكَ من قبلِ هذا﴾[8] .

٢ ـ إنّ من أسلوب القصص القرآني : أن لا يتعرّض إلاّ الى حال أصحاب القصة من رسوخ الإيمان أو ضعفه ، ليُظهر موضع العبرة منها ، إثباتاً لتكريم المؤمنين الصادقين في نصرهم وتأييدهم ، وتخذيلاً للكافرين في تقريعهم وتوبيخهم ...

٣ ـ ما فيهامن عظيم الفائدةمن معرفة ترتيب المُسببات على أسبابها من الخير والشرّ ،

---

١ . سورة الشعراء : الآية ٣٦ و ٥٣ .
٢ . سورة يوسف : الآية ١٠ .
٣ . سورة يوسف : الآية ١٣ .
٤ . التحرير والتنوير ج ١ ص ٦٤ ـ ٦٨ .
٥ . سورة يوسف : الآية ٣ .
٦ . سورة القصص : الآية ١١ .
٧ . سورة الكهف : الآية ٦٤ .
٨ . سورة هود : الآية ٤٩ .

والتعمير والتخريب، لتتقي الأمة وتحذر، قال سبحانه: ﴿فَتلكَ بُيُوتُهم خاويةً بما ظلمُوا﴾[١]، وما فيها من فائدة ظهور المَثل العُليا في الفضيلة وزكاء النفوس، أو ضدّ ذلك.

٤ ـ موعظة المشركين وتهديدهم لما لَحِقَ الأُمم التي عاندت رسلها، وعصتْ أوامر ربِّها حتى يرعووا عن غلوائهم، ويتعظوا بمصارع نُظرائهم، قال سبحانه: ﴿فاقْصِص القصَصَ لعلَّهم يتفكرون﴾[٢]، ﴿لقد كان في قصصهم عِبْرَةٌ لأُولي الألْباب﴾[٣].

إلى غير ذلك من الفوائد الجمة التي يدركها أهل الفهم والمعرفة ...»[٤].

ـ في سر تكرير القصص في القرآن

قال الطوسي (ره): «والوجه في تكرير القصة بعد القصة في القرآن، أن رسول الله ﷺ كان يبعث الى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة فلو لم تكن الأنباء والقصص مكررة، لوقعت قصة موسى الى قوم وقصة عيسى الى قوم، وقصة نوح الى قوم آخرين، فاراد الله بلطفه ورحمته أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض ويلقيها في كل سمع، ويثبتها في كل قلب، ويزيد الحاضرين في الافهام.

وتكرار الكلام من جنس واحد، وبعضه يجري على بعض، كتكراره في: ﴿قل يا ايها الكافرون﴾[٥]، وسورة المرسلات، والرحمن فالوجه فيه، ان القرآن نزل بلسان القوم، ومذهبهم في التكرار ـ ارادة للتوكيد وزيادة في الافهام ـ معروف كما ان من مذهبهم الايجاز والاختصار ارادة للتخفيف. وذلك أن افتنان المتكلم والخطيب في الفنون، وخروجه من شيء الى شيء، أحسن من اقتصاره من المقام على فن واحد. وقد يقول القائل: والله لأفعله ثم والله لأفعله، إذا أراد التوكيد كما يقول: افعله بحذف اللام اذا أراد الايجاز. قال الله تعالى: ﴿كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون﴾[٦] وقال: ﴿فان مع العسر يسراً ان مع العسر يسراً﴾[٧] وقال الله تعالى: ﴿اولى لك فأولى. ثم اولى لك

---

١. سورة النّمل: الآية ٥٢.
٢. سورة الاعراف: الآية ١٧٦.
٣. سورة يوسف: الآية ١١١.
٤. مقدمة معالم التنزيل للبغوي ج ١ ص ١٣ ـ ١٤.
٥. سورة الكافرون: الآية ١.
٦. سورة التكاثر. الآية ٣ و ٤.
٧. سورة الانشراح. الآية ٥ و ٦.

فأولى ﴾[١] وقال: ﴿ ما أدراك ما يوم الدين ، ثم ما ادراك ما يوم الدين ﴾[٢]كل هذا يراد به التوكيد . وقد يقول القائل لغيره : اعجل اعجل وللرامي ارم ارم قال الشاعر :

كـم نـعمةٍ كـانت لكـم كـــم كـسـم وكــم

وقال آخر:

هـلا سألت جـموع كـنـ ـدة يـوم ولوا ايـن ايـنا

وقال عوف بن الخزرج :

وكادت فزارةُ تـصلى بـنا فـاولى فـزار فأولى فـزار

فاما تكرار معنى واحد بلفظين مختلفين ، كقوله : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾[٣] وقوله : ﴿ يسمع سرهم ونجواهم ﴾[٤] والنجوى هو السر، فالوجه فيه ما ذكرنا من ان عادة القوم ، تكرير المعنى بلفظين مختلفين ، اتساعاً في اللغة ، كقول الشاعر . كذباً ومينا . وهما بمعنى واحد وقول الآخر :

لميـاء فـي شـفتيها حـوة لعس وفي اللثات وفي أنيابها شـنـب

واللمى : سواد في الشفتين . والحـوة . واللـعس كـلاهما سـواد فـي الشـفتين وكـرر لاختلاف اللفظ . والشنب : تحزز في الانياب كالمنشار ، وهو نعت لها . ورحمن ورحيم ، سنبين القول فيهما فيما بعد . وقوله : ﴿ فغشاها ما غشى ﴾[٥] وقوله : ﴿ فغشيهم من اليمّ ما غشيهم ﴾[٦] وقوله : ﴿ ولا طائر يطير بجناحيه ﴾[٧] عـلى مـا قـلناه مـن التـوكيد ، كـما يقول القائل : كلمته بلساني ، ونظرت اليه بعيني ، ويقال بين زيد وبين عمرو ، وانما البين واحد . والمراد بين زيد وعمرو . وقال الشاعر أوس بن الحجر :

ألم تكسف الشمس شمس النها ر مع النجم والقـمر الواجب [٨]

والشمس لا تكون إلا بالنهار ، فأكد »[٩].

---

١. سورة القيامة . الآية ٣٤و ٣٥.
٢. سورة الانفطار : الآية ١٧ و ١٨.
٣. سورة الحمد : الآية ٣.
٤. سورة التّوبة : الآية ٧٨.
٥. سورة النجم . الآية ٥٤ .
٦. سورة طه . الآية ٧٨.
٧. سورة الانعام . الآية ٣٨.
٨. الواجب : الغائب .
٩. التبيان ج ١ ص ١٤ ـ ١٦.

قال ابن جُزى : « ... فإن قيل : ما الحكمة فى تكرار قصص الأنبياء فى القرآن. فالجواب من ثلاثة أوجه .

الأوّل أنه ربما ذكر فى سورة من أخبار الأنبياء ما لم يذكره فى سورة أخرى ، ففى كل واحدة منهما فائدة زائدة على الأخرى:

الثانى أنه ذكرت أخبار الأنبياء فى مواضع على طريقة الإطناب ، وفى مواضع على طريقة الإيجاز لتظهر فصاحة القرآن فى الطريقتين .

الثالث أن أخبار الأنبياء قصد بذكرها مقاصد فتعدّد ذكرها بتعدّد تلك المقاصد ، فمن المقاصد بها إثبات نبوة الإنبياء المتقدّمين بذكر ما جرى على أيديهم من المعجزات ، وذكر إهلاك من كذبهم بأنواع من المهالك . ومنها إثبات النبوة لمحمد ﷺ لإخباره بتلك الأخبار من غير تعلم من أحد . وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى ﴿ **ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا** ﴾[1] ومنها إثبات الوحدانية. ألا ترى أنه لما ذكر إهلاك الأمم الكافرة قال ﴿ **فما أغنت عنهم آلهتهم اللاتى يدعون من دون الله من شيء** ﴾[2] ومنها الاعتبار فى قدرة الله وشدّة عقابه لمن كفر . ومنها تسلية النبى ﷺ عن تكذيب قومه له بالتأسى بمن تقدّم من الأنبياء :كقوله ﴿ **ولقد كذبت رسل من قبلك** ﴾[3] ومنها تسليته ﷺ ووعده بالنصر كما نصر الأنبياء الذين من قبله . ومنها تخويف الكفار بأن يعاقبوا كما عوقب الكفار الذين من قبلهم ، إلى غير ذلك مما احتوت عليه أخبار الأنبياء من العجائب والمواعظ واحتجاج الأنبياء . وردّهم على الكفار وغير ذلك . فلما كانت أخبار الأنبياء تفيد فوائد كثيرة : ذكرت فى مواضع كثيرة . ولكل مقام مقال »[4].

قال القاسمى فى سر التكرير:

« فتكرير صفات الله دالّ على الاعتناء بمعرفتها ، والعمل بموجبها .

وتكرير القصص دالّ على الاهتمام بالوعظ للإيقاظ والاعتبار . وفائدة تكرير القصص تطرئة المواعظ وتشديدها ، لأن منها : ما يحث على الطاعة والإيمان ، ومنها ما يزجر عن

...ورة هود : الآية ٤٩.

٢. سورة هود : الآية ١٠١.

...ورة الانعام : الآية ٣٤.

٤. التسهيل ج ١ ص ٦.

الكفر والعصيان .

وكذلك تكرير الوعد والوعيد ، وكذلك تكرير ذكر الأحكام ، وكذلك تكرير المدح والذم ، وما يترتب على المأمورات والمنهيات من المؤكدات المذكورات . فتكرير الوعد يدل على الاهتمام بفعل الطاعات ترغيباً في ثوابها . تكرير الوعيد يدلّ على الاهتمام بترك المخالفات ترهيباً من عقابها . وتكرير القِرَان بين الوعد والوعيد يدلّ على الاهتمام بوقوف العباد بين الخوف والرجاء ، فلا يقنطوا من رحمة الله وأفضاله ، ولا يغترّوا بحلمه وإمهاله . وتكرير الأحكام يدلّ على الاعتناء بفعل الطاعات واجتناب المخالفات . وتكرير الأمثال يدلّ على الاعتناء بالإيضاح والبيان . وتكرير تذكير النعم يدلّ على الاعتناء بشكرها .

واعلم أنه لا تؤكد العرب إلا ما تهتم به ؛ فإن من اهتم بشيء أكثر ذكره . وكلما عظم الاهتمام كثر التأكيد . وكلما خفّ ، خفّ التأكيد . وإن توسط الاهتمام ، توسط التأكيد . فإذا قال القائل : زيد قائم ، فقد أخبر بقيامه . فإن أراد تأكيد ذلك ، عند من شك فيه ، أو يكذبه ، أو ينازعه فيه ، أكّده فقال : إن زيداً قائم . فإذا جاء بـ(إن) فكأنه قال : زيد قائم ، زيد قائم . فإن زاد في التأكيد قال : إن زيداً لقائم ، فيصير بمثابة ما لو قال : زيد قائم ، ثلاث مرات .

أمثلة ذلك: قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُون * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَمَا أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾[1] تأكيد لقوله تعالى : ﴿ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ تأكيد لقوله ﴿ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ . لـمّا وقع الاهتمام بأنه لا يوافقهم على عبادة الأصنام ، وبأن الله قد حرمهم أن يدخلوا في دين الإسلام ـ أكّد ذينك لشدة الاهتمام بهما . فهذا تأكيد واحد لكل واحد من الخبرين . وعلى الجملة : فقد أكد نفي عبادته لأصنامهم بقوله ﴿ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ وأكّد نفي عبادتهم لمعبوده بقوله ﴿ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ وإن حمل ذلك على وقتين مختلفين ، فلا تأكيد إذن .

---

١. سورة الكافرون: الآية ١ ـ ٤ .

ومثال تكرير التأكيد قوله تعالى: ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ المَقَابِرَ * كَلاَّ...﴾ (١) المعنى: ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد عن الاستعداد للمعاد، ثم زجرهم عن التكاثر بقوله ﴿ كَلاَّ ﴾ ثم هددهم بقوله: ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾. ثم أكد الزجر الأول بـ﴿ كَلاَّ ﴾ الثانية، ثم أكد التهديد بـ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾؛ ثم أكد الزجر بـ﴿ كَلاَّ ﴾ الثالثة، فزجرهم ثلاث مرات للاهتمام بزجرهم عن ذلك. وهددهم على ذلك مرتين للاهتمام بالاستعداد للمعاد.

ومثل هذا قوله تعالى ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ * كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ...﴾ (٢) زجرهم بـ«كلاّ» الأولى عن التساؤل والاختلاف، ثم أكد كلاّ الأولى بكلاّ الثانية وتهددهم فيما بينهما بقوله بعدُ: ﴿ سيعلمون ﴾ ثم أكد هذا التهديد بعدُ: ﴿ كلاّ ﴾ الثانية ﴿ سيعلمون ﴾.

وأما تكرير قوله: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (٣) فيجوز أن يكون ما عدا الكلمة الأولى تأكيداً لها، وأن تتكرر العِدَة بالويل على من كذب، بقوله: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴾(٤). ويجوز أن يريد بكلّ عِدَةٍ من عذاب الويل من كذب بما بين عدتي كل ويل.

وأما قوله: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (٥) فيجوز أن تكون مكررة على جميع أنعمه؛ ويجوز أن يراد بكل واحدة منهنّ ما وقع بينها وبين التي قبلها من نعمة؛ ويجوز أن يراد بالأولى ما تقدمها من النعم، وبالثانية ما تقدّمها، وبالثالثة ما تقدم على الأولى والثانية، وبالرابعة ما تقدم على الأولى والثانية والثالثة ... وهكذا إلى آخر السورة.

فإن قيل: كيف يكون قوله ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلاَنِ ﴾(٦) نعمةً، وقوله: ﴿ يُعْرَفُ المُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ﴾(٧) نعمة؟ وكذلك قوله ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا المُجْرِمُونَ ﴾(٨)، وقوله: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ ﴾(٩)، وقوله: ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾(١٠)؟.

---

١. سورة التكاثر: الآية ١ ـ ٣.
٢. سورة النباء: الآية ١ ـ ٥.
٣. سورة المرسلات: الآية ١٩ ـ ٢٤ ـ ٢٨.
٤. سورة المرسلات: الآية ٧.
٥. سورة الرحمن: الآيات ١٣ ـ ١٦ ـ ١٨ ....
٦. سورة الرحمن: الآية ٣١.
٧. سورة الرحمن: الآية ٤١.
٨. سورة الرحمن: الآية ٤٣.
٩. سورة الرحمن: الآية ٣٥.
١٠. سورة الرحمن: الآية ٤٤.

قلنا : هذه كلها نعم جسام، لأن الله هدد العباد بها استصلاحاً لهم ليخرجوا من حيز الكفر والطغيان والفسوق والعصيان ، إلى حيّز الطاعة والإيمان والانقياد والإذعان ؛ فإن مَن حذَّر مِن طرق الردى وبيّن ما فيها من الأذى ، وحثّ على طريق السلامة الموصلة إلى المثوبة والكرامة ، كان مُنعِما غاية الإنعام ، ومحسناً غاية الإحسان .

ومثل ذلك قوله : ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ ﴾[١]، وعلى هذا تصلح فيه مناسبة الربط بذكر صفة الرحمة فى ذلك المقام .

وأما قوله: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾[٢] فإنه تذكير بالموت والفناء للترغيب فى الإقبال على العمل لدار البقاء ، وفى الإعراض عن دار الفناء .

وأما قوله : ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾[٣] فإن تقديره عند بعضهم : وإن كانوا من قبل إنزال القطر عليهم ، من قبل إنزاله ، لمبلسين . فأكد ﴿ قبل ﴾ الأولى بـ﴿ قبل ﴾ الثانية. وهذا لا اهتمام فيه ، فإنه معلوم أن اليأس من نزول المطر كان محققاً قبل الإنزال ، فلا حاجة ـ فى مثل هذا ـ إلى التأكيد .

وقدّر آخرون : وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبل إرسال الرياح ، أو من قبل إثارة السحاب لمبلسين ؛ فعلى هذا لا يكون تكريراً ولا تأكيداً .

وعود الضمائر إلى المصادر التى دلت عليها الأفعال ، ولم تذكر معها ـ كثير فى القرآن وفصيح الكلام . مثاله : قوله ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[٤] فعاد الضمير إلى العدل الذى دلّ عليه «اعدلوا» . ومثله قوله : ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا ﴾[٥] أي : لا نشترى بالقسم الذى دلّ عليه قوله : ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ ﴾ .

سر تكرير قصة موسى مع فرعون

ذكرنا قبل ما قاله العز بن عبدالسلام ـ فى التكرير ـ من الأسرار الباهرة التى تشمل قصة موسى مع فرعون . ثم رأيت كلاماً ـ فى ذلك ـ لشيخ الإسلام تقيّ الدين بن تيمية ـ فى

---

١. سورة يٓس : الآية ٥٢.
٢. سورة الرحمن : الآية ٢٦.
٣. سورة الروم : الآية ٤٩.
٤. سورة المائدة : الآية ٨.
٥. سورة المائدة : الآية ١٠٦.

خلال رسالةٍ له ـ يقول رحمه الله :

«وثنّى في القرآن قصة موسى مع فرعون لأنهما في طرفي نقيضٍ، في الحق والباطل. فإن فرعون في غاية الكفر والباطل، حيث كفر بالربوبية وبالرسالة. وموسى في غاية الحق والإيمان من جهة أن الله كلمه تكليما لم يجعل الله بينه وبين خلقه واسطةً من خلقه، فهو مثبت لكمال الرسالة، وكمال التكليم، ومثبت لرب العالمين بما استحقه من النعوت؛ وهذا بخلاف أكثر الأنبياء مع الكفار، فإن الكفار أكثرهم لا يجحدون وجود الله؛ ولم يكن أيضاً للرسل ـ من التكْليم ـ ما لموسى. فصارت قصة موسى وفرعون أعظم القصص، وأعظمها اعتباراً لأهل الإيمان ولأهل الكفر. ولهذا كان النبي ﷺ يقص على أمته عامة ليله عن بني إسرائيل، وكان يتأسّى بموسى في أمورٍ كثير، ولما بُشِّرَ بقتل أبي جهل يوم بدر قال: «هذا فرعون هذه الأمة». وكان فرعون وقومه من الصابئة المشركين الكفار؛ ولهذا كان يعبد آلهة من دون الله، كما أخبر عنه بقوله: ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾[1] وإن كان عالماً بما جاء به موسى، مستيقناً له، لكنه كان جاحداً مثبوراً، كما أخبر الله بذلك في قوله: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ . وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ... ﴾[2] الآية. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَات بَيِّنَاتٍ ... ـ إلى قوله ـ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ... ﴾ الآية[3]»[4].

قال ابن عاشور: «وفيما ذكرنا ما يدفع عنكم هاجسا رأيتُه خطر لكثير من أهل اليقين والمتشككين وهو أن يقال: لماذا لم يقع الاستغناء بالقصة الواحدة في حصول المقصود منها. وما فائدةُ تكرار القصة في سور كثيرة؟ وربما تطرق هذا الهاجس ببعضهم إلى مناهج الإلحاد في القرآن. والذي يكشف لسائر المتحيرين حيرتهم على اختلاف نواياهم وتفاوت مداركهم أن القرآن ـ كما قلنا ـ هو بالخطب والمواعظ أشبه منه بالتآليف. وفوائد القصص تجتلبها المناسبات فتذكر القصة كالبرهان على الغرض المسوقة هي معه، فلا يعد ذكرها مع غرضها تكرير الها لأن سبق ذكرها إنما كان في مناسبات أخرى. كما

١. سورة الاعراف: الآية ١٢٧.
٢. سورة النمل: الآية ١٣ و ١٤.
٣. سورة الاسراء: الآية ١٠١ و ١٠٢.
٤. محاسن التأويل ج ١ ص ٢٥٧ ـ ٢٦٠ و ٢٦٤ و ٢٦٥.

لا يقال للخطيب فى قوم ، ثم دعته المناسبات إلى أن وقف خطيبا فى مثل مقامه الأول فخطب بمعان تضمنتها خطبته السابقة ـ إنه أعاد الخطبة ، بل إنه أعاد معانيها ولم يُعِدْ ألفاظ خطبته . وهذا مقام تظهر فيه مقدرة الخطباء فيحصل مِن ذِكرها هذا المقصد الخَطابى . ثم تحصل معه مقاصد أخرى : أحدها رسوخها فى الأذهان بتكريرها .

الثانى : ظهور البلاغة ، فإن تكرير الكلام فى الغرض الواحد من شأنه أن يَثقُلَ على البليغ فإذا جاء اللاحقُ منه إثر السابق مع تفنن فى المعانى باختلاف طرق أدائها من مجاز أو استعارات أو كناية . وتفنن الألفاظ وتراكيبها بما تقتضيه الفصاحة وسعة اللغة باستعمال المترادفات مثل: ولئن رُدِدْتُ . ولئن رُجِعْتُ . وتفنن المحسنات البديعية المعنوية واللفظية ونحو ذلك كان من الحدود القصوى فى البلاغة ، فذلك وجه من وجوه الإعجاز .

الثالث : أن يسمع اللاحقون من المؤمنين فى وقت نزول القرآن ذكر القصة التى كانت فاتتهم مُمَاثِلَتُها قبل إسلامهم أو فى مدة مغيبهم ، فإن تلقى القرآن عند نزوله أوقعُ فى النفوس من تطلبه من حافظيه .

الرابع : أَن جمعَ المؤمنين جميع القرآن حفظا كان نادرا بل تجد البعض يحفظ بعض السور فيكون الذى حفظ إحدى السور التى ذُكرت فيها قصة معينة عالما بتلك القصة . كعلم من حفظ سورة أخرى ذكرت فيها تلك القصة .

الخامس : أن تلك القصص تختلف حكاية القصة الواحدة منها بأساليب مختلفة ويذكر فى بعض حكاية القصة الواحدة ما لم يذكر فى بعضها الآخر وذلك لأسباب :

منها تجنب التطويل فى الحكاية الواحدة فيُقتصر على موضع العبرة منها فى موضع ويذكر آخر فى موضع آخر فيحصل من متفرق مواضعها فى القرآن كمالُ القصة أو كمالُ المقصود منها ، وفى بعضها ما هو شرح لبعض .

ومنها أن يكون بعض القصة المذكور فى موضع مناسباً للحالة المقصودة من سامعيها ، ومن أجل ذلك تجد ذكراً لبعض القصة فى موضع وتجد ذكراً لبعض آخر منها فى موضع آخر لأن فيما يذكر منها مناسبة للسياق الذى سيقت له ، فإنها تارة تساق إلى المشركين ،

وتارة إلى أهل الكتاب، وتارة تساق إلى المؤمنين، وتارة إلى كليهما، وقد تساق للطائفة من هؤلاء في حالة خاصة، ثم تساق إليها في حالة أخرى. وبذلك تتفاوت بالإطناب والإيجاز على حسب المقامات، ألا ترى قصة بَعْثِ موسى كيف بُسِطت في سورة طَه، وسورة الشعراء. وكيف أوجزت في آيتين في سورة الفرقان ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتابَ وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمّرناهم تدميرا** ﴾[1].

ومنها أنه قد يقصد تارة التنبيه على خطأ المخاطبين فيما ينقلونه من تلك القصة، وتارة لا يقصد ذلك.

فهذه تحقيقات سمحت بها القريحة، وربما كانت بعض معانيها في كلام السابقين غير صريحة»[2].

---

١. سورة الفرقان: الآية ٣٥ـ٣٦.

٢. التحرير والتنوير ج ١ ص ٦٨ـ٦٩.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الاسرائيليات

اسباب تدخل الاسرائيليات في التفاسير:

قال القاسمي: « وقد جمع المتقدمون في ذلك (تفاسير المأثور) وأوعوا، الا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين، والمقبول والمردود. والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية. وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات، وبدء الخليقة، وأسرار الوجود، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود، ومن تبع دينهم من النصارى. وأهلُ التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من اهل الكتاب، ومعظمهم من حمير، الذين أخذوا بدين اليهودية. فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها، مثل أخبار بدء الخليقة، وما يرجع إلى الحدثان والملاحم، وأمثال ذلك. وهؤلاء مثل كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبد الله بن سلام وأمثالهم. فامتلأت التفاسير من المنقولات عندهم فى أمثال هذه الأغراض، أخبار موقوفة عليهم، وليست مما يرجع إلى الأحكام، فيتحرى في الصحة التي يجب بها العمل. ويتساهل المفسرون في مثل ذلك وملؤوا كتب التفسير بهذه المنقولات. وأصلها، كما قلنا، عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية، ولا تحقيق عندهم بمعرفة

ما ينقلونه من ذلك. إلا أنهم بعد صيتهم، وعظمت أقدارهم، لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة. فتلقيت بالقبول من يومئذ. فلما رجع الناس الى التحقيق والتمحيص، وجاء أبو محمد بن عطية، من المتأخرين بالمغرب، فلخص تلك التفاسير كلها، وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها، ووضع ذلك في كتاب، متداول بين أهل المغرب الأندلس، حسن المنحى. وتبعه القرطبيّ في تلك الطريقة على منهاج واحد في كتاب آخر مشهور، بالمشرق» [1].

اقسام الاسرائيليات وحكمها:

قال ابن تيمية : «... ولهذا غالب ما يرويه اسماعيل بن عبدالرحمن السدى في تفسيره عن هذين الرجلين ابن مسعود وابن عباس ـ، ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب التي أباحها رسول الله ﷺ حيث قال «بلغوا عنى ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج. ومن كذب على فليتبوء مقعده من النار» [2] رواه البخاري عن عبدالله ابن عمرو، ولهذا كان عبدالله ابن عمرو قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الأذن في ذلك، ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح.

والثاني ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني، ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيراً، ويأتى عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعدتهم، وعصا موسى من أي الشجر كانت، وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين «البعض» الذي ضرب به المقتول من البقرة، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله في

---

١. محاسن التأويل ج ١ ص ١٤ ـ ١٣.

٢. ورد الحديث في البخاري (كتاب العلم. باب أثم من كذب على النبي ﷺ) وكذا في كتاب الأنبياء، والادب، وفي مسلم (كتاب الزهد) والدارمي (كتاب العلم). الترمذي (كتاب الفتن)، ابن حنبل ج ٣ ص ٤٧، ٨٣.

القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم. ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز كما قال تعالى ﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب، ويقولون سبعة وثامِنُهُم كلبهم قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً﴾ [١] فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام وتعليم ما ينبغي في مثل هذا، فانه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث، فدل على صحته، إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما، ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته. فيقال في مثل هذا ﴿قل ربي أعلم بعدتهم﴾ [٢] فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه، فلهذا قال ﴿فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً﴾ أى لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ولا تسألهم عن ذلك، فانهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب، فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف، أن تستوعب الاقوال في ذلك المقام، وأن ينبه على الصحيح منها ويبطل الباطل وتذكر فائدة الخلاف وثمرته لئلا (يطول) النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته فيشتغل به عن الأهم. فأما من حكى خلافاً في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص، إذ قد يكون الصواب في الذي تركه، أو يحكى الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال فهو ناقص أيضاً، فان صحح غير الصحيح عمداً فقد تعمد الكذب، أو جاهلا فقد أخطأ. كذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته، أو حكى أقوالا متعددة لفظاً ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى فقد ضيع الأمانة، وتكثر مما ليس بصحيح، فهو كلابس ثوبى زور والله الموفق للصواب » [٣].

باب ترك الرواية التي بخلاف القرآن:

قال العياشي (ره): « ١ ـ عن هشام بن الحكم عن أبي عبدالله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ في خطبة بمنى أو بمكة: « يا أيها الناس ما جاءكم عنّي يوافق القرآن فأنا قلته وما جاءكم عنّي لا يوافق القرآن فلم أقله » [٤].

---

١. سورة الكهف: الآية ٢٢.   ٢. سورة الكهف: الآية ٢٢.

٣. دقائق التفسير ج ١ ص ٧٩ ـ ٨٠ وقد نقل عين هذه العبارة ابن كثير في مقدمة تفسيره ج ١ ص ٨

٤. البحار ج ١: ١٤٤ـ١٤٥. البرهان ج ١: ٢٩.

٢ ـ عن إسماعيل بن أبي زياد السكوني عن أبي جعفر عن أبيه عن علي صلوات الله عليه قال: «الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة، وتركك حديثاً لم تروه خير من روايتك حديثاً لم تحصه، إنّ على كل حقّ حقيقة وعلى كل صواب نوراً فما وافق كتاب الله فخذوا به، وما خالف كتاب الله فدعوه» (١).

٣ ـ عن محمد بن مسلم قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «يا محمد ما جاءك في رواية من برّ أو فاجر يوافق القرآن فخذ به، وما جاءك في رواية من برّ أو فاجر يخالف القرآن فلا تأخذ به» (٢).

٤ ـ عن أيوب بن حرّ قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «كل شيء، مردود إلى الكتاب والسنة، وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف» (٣).

٥ ـ عن كليب الأسدي قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «ما أتاكم عنّا من حديث لا يصدّقه كتاب الله فهو باطل» (٤).

٦ ـ عن سدير قال: «كان أبو جعفر عليه السلام وأبو عبدالله عليه السلام لا يصدق علينا إلا بما يوافق كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله» (٥).

٧ ـ عن الحسن بن الجهم عن العبد الصالح عليه السلام قال: «إذا جاءك الحديثان المختلفان فقِسهما على كتاب الله وعلى أحاديثنا، فإن أشبههما فهو حقّ وإن لم يشبههما فهو باطل (٦)» (٧).

قال البحراني في ان كل حديث لا يوافق القرآن فهو مردود:

١ ـ «محمد بن يعقوب، عن علي بن ابراهيم، عن ابيه، عن النوفلي، عن السكوني، عن ابيعبدالله عليه السلام قال قال رسول الله «ان على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نوراً فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه».

---

١. البحار ج ١: ١٤٤ ـ ١٤٥. البرهان ج ١: ٢٩.
٢. البحار ج ١: ١٤٤ ـ ١٤٥. البرهان ج ١: ٢٩.
٣. البحار ج ١: ١٤٤ ـ ١٤٥. البرهان ج ١: ٢٩.
٤. البحار ج ١ ص ١٤٤ ـ ١٤٥. البرهان ج ١: ٢٩.
٥. الوسائل ج ٣ كتاب القضاء باب ٩. البحار ج ١: ١٤٤ ـ ١٤٥. البرهان ج ١: ٢٩.
٦. البحار ج ١: ١٤٤ ـ ١٤٥. البرهان ج ١: ٢٩. الوسائل ج ٣ كتاب القضاء باب ٩.
٧. العياشي ج ١ ص ٢٠ ـ ١٩.

٢ ـ عنه، عن محمد ين يحيى، عن عبدالله بن محمد، عن علي بن الحكم، عن ابان بن عثمان، عن عبدالله بن ابي يعفور قال وحدثني الحسين بن ابي العلا انه حضر ابن ابي يعفور في هذا المجلس قال سئلت ابا عبدالله عليه السلام عن اختلاف الحديث يرويه من نثق به ومنهم من لا نثق به، قال «اذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهداً من كتاب الله عز وجل او من قول رسول الله صلى الله عليه وآله والا فالذي جائكم به اولى به».

٣ ـ وعنه عن عدة من اصحابنا عن احمد بن محمد بن خالد، عن ابيه، عن النضر بن سويد، عن يحيى الحلبي، عن ايوب بن الحر، قال سمعت ابا عبدالله عليه السلام يقول: «كل شيئى مردود الى الكتاب والسنة وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف».

٤ ـ وعنه عن محمد بن يحيى، عن احمد بن محمد بن عيسى، عن ابن فضال، عن ابن عقبة، عن ايوب بن راشد، عن ابيعبدالله عليه السلام قال: «ما لم يوافق من الحديث القرآن فهو زخرف».

٥ ـ وعنه، عن محمد بن اسمعيل، عن الفضل بن شاذان، عن ابن ابي عمير، عن الهشام بن الحكم وغيره عن ابيعبدالله عليه السلام قال خطب النبي صلى الله عليه وآله بمنى فقال: «ايها الناس ما جائكم عني يوافق كتاب الله فانا قلته وما جائكم (عني) بخلاف كتاب الله فلم اقله».

٦ ـ وعنه، بهذا الاسناد عن ابن ابي عمير، عن بعض اصحابه قال سمعت ابا عبدالله عليه السلام يقول: «من خالف كتاب الله وسنة محمد صلى الله عليه وآله فقد كفر».

٧ ـ العياشي عن هشام بن الحكم، عن ابيعبدالله عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله في خطبته بمنى او بمكة: يا.....[١]»[٢].

قال النهاوندي (ره) في عدم حجية الامارات الدالة على تفسير الآيات الغير المرتبطة بالأحكام الشرعية العملية:

«لا شبهه في عدم حجية الامارات الشرعية في مورد ليس له بنفسه او بتوسط اللوازم العقلية او العادية حكم شرعي عملي حيث انه الحجية اما عبارة عن حكم شرعي تكليفي طريقي بترتيب الاحكام العملية الواقعية على مؤدى الامارة الدالة عليها او على

١. أنظر قبل صفحتين من الكتاب الحاضر.

٢. البرهان في تفسير القرآن ج ١ ص ٢٨ ـ ٢٩.

وجود موضوعها عند جهل المكلّف بها او بموضوعها او حكم وضعى وجعل انشائى ممن له الحكم والجعل يكون منشاء لاعتبار عقلائي يستتبع الآثار العقلية من تنجيز الاحكام الشرعية الواقعية التي تكون مؤدّيها او العقلائية كذلك ولو بالوسايط العقلية او العادية عند الاصابة والعذر عند الخطاء والموافقة والتجرى عند المخالفة فلا يتصور تحقق مفهوم الحجية وجعلها الا لامارة كان مؤديها حكم عملي او موضوع ذا حكم ولو بواسطة امور غير شرعية فلا معنى لحجية الاخبار الغير العملية الواردة في بيان شان نزول الآيات او تفسيرها او بطونها وتاويلها اذا لم يترتب عليها حكم شرعي ولم تكن لها دخل في فهم الآيات الدالة على الاحكام التكليفية او الوضعية ولا يجوز ترتيب اثر العلم على تلك الامارات المجعولة ولو كان العلم ماخوذاً فيها على جهة الكشف والطريقته فعلى المكلف ان يرتب على الامارات آثار المعلوم لا آثار العلم فعليهذا لا يجوز الاخبار بتحقق مؤديها لان جواز الاخبار بالواقعي من آثار العلم به لا من آثار نفسه فان دليل الحجية لا يفى باثبات آثار العلم للامارة وانما يثبت لها اثر الكشف عن الواقع الذي للعلم الا ان يقوم دليل غير دليل الحجية على جواز ترتيب اثر العلم على الامارة فعلى هذا لا يجوز الارتماس في الماء للصائم ولا يجوز الاخبار بان الارتماس مبطل الصوم فى حكم الله الواقع لانه كذب على الله وعلى رسوله اذا كان الكذب هو الاخبار بشىء لا يعلم به نعم له ان يقول رأيني او راى مقلدى عدم جواز الارتماس حال الصوم او يقول مقتضى الاخبار كذا الا ان يقال ان اقوى دليل حجية الروايات هو بناء العقلاء وسيرتهم على العمل بالخبر الموثوق به وكما ان سيرتهم قائمة على جواز العمل كذلك قائمة على جواز الاخبار بالواقع الذي يكون مؤداه فاذا اخبر احد بشان نزول آية او تفسيرها او تاويلها او بحكم من احكام الله الواقعي ثم سئل عن مدرك اخباره فاجاب بانه ورد خبر معتبر به لايلام عند العقلاء على اخباره مع عدم علمه به ويؤيده الرواية في جواز الشهادة على الملك الواقعي بالاستصحاب واليد.

والحاصل ان في الحجج العقلائية من خبر الثقة وظواهر الالفاظ وغيرها سيرتين منهم احديهما على جواز العمل بمؤديها على انه الواقع وثانيتها على جواز الاخبار

بالواقع الذي تكون امارة عليه»(١).

ـ حكم الاستشهاد بالاسرائيليات:

قال ابن عربي: «أما المفسرون الذين يأخذون حكايات اليهود في تفسير القرآن فقد أمرنا رسول الله ﷺ أن لا نصدق أهل الكتاب ولا نكذبهم، فمن فسر القرآن برواية اليهود فقد ردَّ أمر رسول الله ﷺ، ومن ردَّ أمر رسول الله ﷺ فقد رد أمر الله، فانه أمر أن نطيع الرسول وأن نأخذ ما أتانا به، وأن ننتهي عما نهانا عنه، إذ لا يوصلنا إلى أخبار الأنبياء الإسرائليين إلا نبي فنصدقه، أو أهل كتاب فنقف عند أخبارهم، إذ لم يكن في كتابنا ولا قول رسولنا ﷺ ولا في أدلة العقول ما يرده ولا يثبته، ولا نقضي فيه بشيء، وينبغي للمفسر أن يتحرى الصدق ولا يتعرض لما ذكره المؤرخون عن اليهود من زلات من أثنى الله عليهم واجتباهم، ويجعل ذلك تفسيراً لكتاب الله، وما ينبغي أن يقدم على تفسير كلام الله بمثل هذه الطوام، كقصة يوسف وداود وأمثالهم ﷺ ومحمد ﷺ، بتأويلات فاسدة، وأسانيد واهية، عن قوم قالوا في الله ما قد ذكر الله عنهم، فيجد الذي في دينه نقص رخصة يلجأ إليها في معصيته، ويقول: إذا كانت الأنبياء قد وقعت في مثل هذا، فمن أكون أنا؟ وحاشا والله الأنبياء مما نسبت إليهم اليهود لعنهم الله، فهؤلاء المفسرون الذين يرددون افتراءات اليهود، نقلة عن اليهود لا عن كلام الله، لما غلب عليهم من الجهل، فواجب إقامة حرمة الأنبياء عليهم السلام، والحياء من الله أن لا يقلد اليهود فيما قالوا في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من المثالب»(٢).

قال القاسمي: «.... وأما ما كان إسرائيلياً، وهو الذي أخذ جانباً وافراً من التنزيل العزيز، فقد تلقى السلف شرح قصصه، إما مما استفاض على الألسنة ودار من نبئهم، وإما من المشافهة عن الإسرائيليين الذين آمنوا. وهؤلاء كانوا تلقفوا أنباءهم عن قادتهم إذ الصحف كانت عزيزة لم تتبادلها الأيدي، كما هو في العصور الأخيرة. واشتهر [illegible] رؤسائهم بنشرها لدى عمومهم، إبقاءً على زمام سيطرتهم. فيروون ما شاؤوا غير مؤاخذين ولا مناقشين. فذاع ما ذاع.

١. نفحات الرحمن ج ١ ص ٣١.
٢. رحمة من الرحمن ج ١ ص ١٣.

ومع ذلك فلا مغمز على مفسرينا الأقدمين في ذلك، طابق أسفارهم أم لا، إذ لم يألوا جهدا في نشر العلم وإيضاح ما بلغهم وسمعوه. إما تحسينا للظن في رواة تلك الأنباء وأنهم لا يروون إلا الصحيح، وإما تعويلا على ما رواه الإمام أحمد والبخاري والترمذي عن عمرو ابن العاص عن رسول الله ﷺ قال: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» [١] ورواه أبو داود أيضا بإسناد صحيح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» فترخصوا في روايتها كيفما كانت، ذهابا إلى أن القصد منها الاعتبار بالوقائع التي أحدثها الله تعالى لمن سلف لينهجوا منهج من أطاع فأثنى عليه وفاز وينكبوا عن مهيع من عصى فحقت عليه كلمة العذاب وهلك. هذا ملحظهم رضي الله عنهم.

وقد روى عن الإمام أحمد بن حنبل أنه كان يقول: إذا روينا في الأحكام شددنا، وإذا روينا في الفضائل تساهلنا، فبالأحرى القصص. وبالجملة فلا ينكر أن فيها الواهيات بمرة، والموضوعات، مما استبان لمحققي المتأخرين. وقد رأيت، ممن يدعى الفضل، الحط من كرامة الإمام الثعلبي، قدس الله سره العزيز، لروايته الإسرائيليات وهذا، وايم الحق، من جحد مزايا ذوى الفضل ومعاداة العلم. على أنه، قدس سره، ناقل عن غيره، وراو ما حكاه بالأسانيد إلى أئمة الأخبار. وما ذنب مسبوق بقولٍ نقله باللفظ وعزاه لصاحبه؟ فمعاذاً بك، اللهم! من هضيمة السلف. وقد رأيت له في تاريخ القاضي ابن خلّكان ترجمة عالية أحببت إثباتها هنا، تعريفا بمقامه لدى الجاهل به.

قال القاضي في حرف الهمزة: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري المفسر المشهور: كان أوحد زمانه في علم التفسير، وصنف التفسير الكبير الذي فاق غيره من التفاسير، وله كتاب العرائس في قصص الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، وغير ذلك.

والقصد أن الصالحين كانوا يتقبلون الروايات على علاتها للملاحظة المارة، لصفاء

---

١. صحيح البخاري في: ٦٠ ـ كتاب الأنبياء، ٥٠ ـ باب ما ذكر عن بني إسرائيل. عن عبدالله بن عمرو: أن النبي ﷺ قال «بلغوا عني ولو آية. وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج. ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار».

سريرتهم. فلا ينبغي إلا تفنيد الموضوع منها، لا الحط من مقامهم وقرض أعراضهم. كيف وقد تلقى الصحابة ومن بعدهم الإسرائيليات وحكوها، بل بعضهم اقتنى أسفارها وأدمن مطالعتها، لما استبان له من البشائر النبوية، وتحقق تحريفهم.

روى الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ، في ترجمة عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه؛ أنه أصاب جملة من كتب أهل الكتاب وأدمن النظر فيها ورأى فيها عجائب.

وقال السيوطي في الإتقان في طبقات المفسرين: وورد عن عبدالله بن عمرو بن العاص أشياء تتعلق بالقصص وأخبار الفتن والآخرة. وما أشبهها بأن يكون مما تحمله عن أهل الكتاب.

وقال أيضا، في آخر الإتقان: حديث الفتون طويل جدا. يتضمن شرح قصة موسى وتفسير آيات كثيرة تتعلق به. وقد نبه الحفاظ منهم المزي وابن كثير على أنه موقوف من كلام ابن عباس. قال ابن كثير: وكان ابن عباس تلقاه من الإسرائيليات. انتهى.

وقد ثبت أن النبي ﷺ دخل كنيسة لليهود وسمع قراءة التوراة حتى أتوا على صفته.

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود، رضي الله تعالى عنه، قال: إن الله عز وجل ابتعث نبيه لإدخال رجل الجنة، فدخل الكنيسة فإذا يهود، وإذا يهودي يقرأ عليهم التوراة. فلما أتوا على صفة النبي ﷺ أمسكوا، وفي ناحيتها رجل مريض، فقال النبي ﷺ: ما لكم أمسكتم؟ فقال المريض: إنهم أتوا على صفة نبي فأمسكوا. ثم جاء المريض يحبو حتى أخذ التوراة فقرأ حتى أتى على صفة النبي ﷺ وأمته. فقال: هذه صفتك وصفة أمتك. أشهد أن لاإله إلاالله وأنك رسول الله، فقال النبي ﷺ لأصحابه: «لُو أخاكم»[1].

وروى الإمام أحمد أيضاً في مسنده عن أبي صخر العقيلي قال: حدثني رجل من الأعراب قال: جلبت جلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ . فلما فرغت من بيعتي قلت لألقينَّ هذا الرجل فلأسمعن منه، قال: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون، فتبعتهم في أقفائهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشراً التوراة يقرؤها يعزي بها نفسه على ابن له في الموت كأحسن الفتيان وأجمله، فقال رسول الله ﷺ : أنشدك بالذي

١. مسند أحمد. جزء أول ص ٤١٦ (طبعة الحلبي) ورقم ٣٩٥١ (طبعة المعارف) بتحقيق أحمد محمد شاكر.

أنزل التوراة! هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي؟ فقال برأسه: هكذا، أي لا. فقال ابنه: إي والله الذي أنزل التوراة! إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله! فقال: أقيموا اليهودي عن أخيكم، ثم ولي دفنه وحنطه وصلى عليه [1].

وروى الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ في ترجمة عبدالله بن سلام الحبر رضي الله عنه؛ عن إبراهيم بن أبي يحيى، قال: حدثنا معاذ بن عبدالرحمن عن يوسف بن عبدالله بن سلام عن أبيه: جاء الى النبي ﷺ فقال: إني قرأت القرآن والتوراة، فقال: اقرأ هذا ليلة وهذا ليلة. قال الذهبي: فهذا ـ إن صح ـ ففيه الرخصة في تكرير التوراة وتدبرها. انتهى.

أي ليعلم المحرف فيها من سياق القرآن الكريم، وليتبصر فيما تقوم به الحجة على حملة أسفارها، وليزداد معرفة بمجادلتهم من معتقدهم، ولغير ذلك.

قال الحافظ ابن كثير في مقدمة تفسيره: غالب ما يرويه إسماعيل بن عبدالرحمن السدي ...[2]

... وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني. انتهى.

فحيث جازت حكايته، على ما قاله، فالأولى رواية ما كان من القسم الأول أو الثالث عن نص كتبهم، كما هو مذهب عبدالله بن عمرو، رضي الله عنهما، كما نقله ابن كثير هنا، والذهبي والسيوطي كما تقدم.

وإنما كان الأولى، في رواية الإسرائيليات، ما ذكرنا دفعاً لمناقشة بعضهم على الإسرائيليات المتداولة في التفاسير بأنها لم ترو في كتب الحديث المشهورة حتى تكون المرجع، ولم تؤخذ من أسفارهم حتى تتطابق معها، فارتأى النقل عنها لذلك، لا اعتقاداً بسلامتها من التحريف المحقق، كلا. بل توسعاً في باب الأخبار للاستشهاد والاعتبار. قياماً بالحجة على الخصم من معتقده، وناهيك بذلك.

قال ابن حزم في كتاب الملل والنحل، بعد ما أوضح البراهين العديدة على تحريفهم

---

١. مسند الإمام أحمد. جزء خامس ص ٤١١ (طبعة الحلبي).

٢. انظر ص ٤٠٤ و ٤٣٣ من الكتاب الحاضر.

وتبديلهم: إن الله تعالى كما أطلق أيديهم في تبديل ما شاء رفعه من ذينك الكتابين، كفَّ أيديهم عما شاء إبقاءه من ذينك الكتابين، حجة عليهم.

وممن كان يرى جواز النقل عن كتبهم، من قدماء الشافعية، الإمام الماوردي. كما تراه في مواضع من كتابه «أعلام النبوة».

وممن حقق هذا البحث الإمام برهان الدين البقاعي، ثم الدمشقي، في تفسيره «المناسبات» الذي قال عنه شيخ الإسلام القاضي زكريا: «ما ألف نظيره وجدير بأن يكتب بماء الذهب» كما حكاه عنه تلميذه الإمام الهيتمي في آخر فتاويه الحديثية. وهاك ما قاله البقاعي، رحمه الله، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [١]، ما نصه: فإن أنكر منكر الاستشهاد بالتوراة أو بالإنجيل، وعمى عن أن الأحسن في باب النظر أن يرد على الإنسان بما يعتقده، تلوت عليه قول الله تعالى استشهاداً على كذب اليهود ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٢]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً﴾ [٣] في آيات من أمثال ذلك كثيرة. وذكرته باستشهاد النبي ﷺ بالتوراة في قصة الزاني [٤]. وروى [٥] الشيخان عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: تكون الأرض يوم القيامة خبزة نزلاً لأهل الجنة. فأتى رجل من اليهود فقال: بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم، ألا أخبرك بنزل أهل الجنة

---

١. سورة البقرة: الآية ٣٤.

٢. سورة آل عمران: الآية ٩٣.

٣. سورة المائدة: الآية ٤٨.

٤. صحيح البخاري في: ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٣ ـ سورة آل عمران، ٦ ـ باب قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.
عن عبدالله بن عمر؛ أن اليهود جاءوا إلى النبي ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا. فقال لهم: كيف تفعلون بمن زنى منكم؟ قالوا: نحممها ونضربهما. فقال: لا تجدون في التوراة الرجم؟ فقالوا: لا نجد فيها شيئا. فقال لهم عبدالله بن سلام: كذبتم فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين. فوضع مدراسها الذي يدرسها منهم كفه على آية الرجم. فطفق يقرأ مادون يده وما وراءها. ولا يقرأ آية الرجم. فنزع يده عن آية الرجم، فقال: ما هذه؟ فلما رأوا ذلك قالوا: هي آية الرجم. فأمر بهما فرجما قريباً من حيث موضع الجنائز عند المسجد. فرأيت صاحبها يجنأ عليها يقيها الحجارة.

٥. صحيح البخاري في: ٨١ ـ كتاب الرقاق، ٤٤ ـ باب يقبض الله الأرض:
عن أبي سعيد الخدري: قال النبي ﷺ: تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلاً لأهل الجنة. فأتى رجل من اليهود فقال: بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم. ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة؟ قال: بلى. قال: تكون الأرض خبزة واحدة (كما قال النبي ﷺ) فنظر النبي ﷺ إلينا ثم ضحك حتى بدت نواجده، ثم قال: ألا أخبرك بإدامهم؟ قال: إدامهم بالام ونون. قالوا: وما هذا؟ قال: ثور ونون، يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفا.

يوم القيامة؟ قال: بلى. قال: تكون الأرض خبزة. كما قال النبي ﷺ، فنظر النبي ﷺ إلينا ثم ضحك حتى بدت نواجذه.

وقريب من ذلك حديث الجساسة [1] في أشباهه.

هذا فيما يصدقه كتابنا، وأما مالا يصدقه ولا يكذبه، فقد روى البخاري عن عبدالله ابن عمرو، رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ورواه مسلم والترمذي والنسائي عن أبي سعيد رضي الله عنه، وهو معنى ما في الصحيحين، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم» الآية [2]. فإن دلالة هذا على سنّية ذكر مثل ذلك أقرب من الدلالة على غيرها. ولذا أخذ كثير من الصحابة رضي الله عنهم عن أهل الكتاب.

فإن فهم أحد من الشافعية منع أئمتهم من قراءة شيء من الكتب القديمة مستنداً إلى قوم الإمام أبي القاسم الرافعي في شرحه: وكتب التوراة والإنجيل مما لا يحل الانتفاع به لأنهم بدلوا وغيروا. وكذا قال غيره من الأصحاب. قيل له: هذا مخصوص بما علم تبديله. بدليل أن كل من قال ذلك علل بالتبديل. فدار الحكم معه.

ونص الشافعي ظاهر في ذلك. قال المزني عنه في مختصره، في باب جامع السير: وما كان من كتبهم ـ أي الكفار ـ فيه طب وما لا مكروه فيه، بيع. وما كان فيه شرك بطل وانتفع بأوعيته.

وقال في الأم في سير الواقدي في باب ترجمة كتب الأعاجم، قال الشافعي: وما وجد من كتبهم فهو مغنم كله، وينبغي للإمام أن يدعو من يترجمه، فإن كان علماً من طب أو غيره لا مكروه فيه، باعه كما يبيع ما سواه من المغانم. وإن كان كتاب شرك شقّوا

---

١. قصة الجساسة أوردها مسلم في صحيحه في: ٥٢ ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة، ٢٤ ـ قصة الجساسة، حديث ١١٩ ص ٢٢٦١ (طبعة دار الإحياء) وهو حديث طويل روته فاطمة بنت قيس، أخت الضحاك بن قيس، عن رسول الله ﷺ.

٢. اخرجه البخاري في: ٩٧ ـ كتاب التوحيد ٥١ ـ باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب الله بالعربية ...

الكتاب فانتفعوا بأوعيته وأداته فباعها، ولا وجه لتحريقه ولا دفنه قبل أن يعلم ما هو. انتهى.

فقوله في الأم: «كتاب شرك» مفهم لأنه كله شرك، ولهذا عبر المزني عن ذلك بقوله: وماكان فيه شرك، أي من أبواب الكتاب وفصوله.

وأدل من ذلك قولهم في باب الأحداث: أن حكمها في مس المحدث حكم ما نسخت تلاوته من القرآن في أصح الوجهين. والتعبير «بالأصح» على ما اصطلحوا عليه، يدل على أن الوجه القائل بحرمة مس المحدث وحمله لها قوي.

وأدل من ذلك ما ذكره محرر المذهب، الشيخ محيى الدين النووي رحمه الله في مسائل ألحقها في آخر باب الأحداث من شرح المهذب وأقره؛ أن المتولى قال: فإن ظن أن فيها شيئاً غير مبدل، كره مسه. انتهى.

فكراهة المس للاحترام فرع جواز الإبقاء والانتفاع بالقراءة.

وأصرح من ذلك كله قول الشافعي رحمه الله: أن ما لا مكروه فيه يباع. وكذا قول البغوي في تهذيبه في آخر باب الوضوء: وكذلك لو تكلم - أي الجنب - بكلمة توافق نظم القرآن أو قرأ آية نسخت قراءتها أو قرأ التوراة والإنجيل أو ذكر الله سبحانه أو صلى على النبي ﷺ فجائز.

قالت عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يذكر الله على كل أحيانه [1].

حينئذ لا يتخيل أنه يجوز للجنب مالا يجوز للمحدث، بل كل ما جاز للجنب قراءته من غير أمر ملجىء جاز للمحدث، ولا عكس.

وتعليله لذلك بحديث عائشة رضي الله عنها دالّ على أن ذلك ذكر لله تعالى. ولا يجوز الحمل على العموم، لا سيما إذا لو حظ قول القاضي الحسين: أنه يجوز الاستنجاء بها. لأنه مبني على الوجه القائل بأن الكل مبدل. وهو ضعيف أو محمول على المبدل منهما. لأنه لا يخفى على أحد أن مسلماً، فضلا عن عالم، لا يقول أنه يستنجى بنحو

---

١. صحيح البخاري في: ١٠ ـ كتاب الأذان، ١٩ ـ باب هل يتتبع المؤذن فاه ههنا وههنا؟ وقالت عائشة: كان النبي ﷺ يذكر الله على كل أحيانه.

قوله في العشر الكلمات التي صدرت بها الألواح: قال الله جميع هذه الآيات كلها. أنا الرب إلهك الذي أصعدتك من أرض مصر من العبودية والرق لا يكونن لك آلهة غيري. لا تعلمنّ شيئا من الأصنام والتماثيل التي مما في السماء فوق، وفي الأرض من تحت، ومما في الماء أسفل الأرض. لا تسجدن لها ولا تعبدنّها. لأني أنا الرب إلهك إله غيور. لا تقسم بالرب إلهك كذباً. لأن الرب لا يزكي من حلف باسمه كذباً. أكرم أباك وأمك ليطول عمرك في الأرض التي يعطيكها الرب إلهك. لا تقتل، لا تزن، لا تسرق، لا تشهد على صاحبك شهادة زور.

وقد أشبع الكلام في المسأله شيخنا حافظ عصره أبو الفضل ابن حجر في آخر شرحه للبخاري. وآخر ما حط عليه، التفرقة بين من رسخ قدمه في العلوم الشرعية، فيجوز له النظر في ذلك، فإنه يستخرج منه ما ينتفع به المهتدون. وبين غيره فلا يجوز له ذلك. وأيده بنظر الأئمة فيها قديما وحديثاً، والرد على أهل الكتابين بما يستخرجونه منها. فلولا جواز ذلك ما أقدموا عليه. والله الموفق.

وقد حررت هذه المسألة في فن المرفوع من حاشيتي على شرح ألفية الشيخ زين الدين العراقي. فراجعه إن شئت. والله الهادي.

ثم صنفت في ذلك تصنيفا حسنا سميته، الأقوال القويمة في حكم النقل من الكتب القديمة، اهـ كلام البقاعي الدمشقي رحمه الله تعالى.

وأما مسألة تحريف الكتابين، أعنى التوراة والإنجيل، فقد نقل البخاري في أواخر صحيحه في باب قول الله تعالى ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾[1] عن ابن عباس: يحرفون يزيلون، وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله عز وجل، ولكن يحرفون يتأولونه عن غير تأويله اهـ

قال أبو الفضل ابن حجر في شرحه: قال شيخنا ابن الملقن في شرحه: هذا الذي قاله أحد القولين في تفسير هذه الآية، وهو مختاره. أي البخاري.

ثم قال ابن حجر: اختلف في هذه المسأله على أقوال:

---

١. سورة البروج: الآية ٢١ ـ ٢٢.

أحدها: أنها بدلت كلها. وهو مقتضى القول المحكي بجواز الامتهان، وهو إفراط. وينبغي حمل إطلاق من أطلقه على الأكثر، وإلا فهى مكابرة. والآيات والأخبار كثيرة في أنه بقى منها أشياء كثيرة لم تبدل. من ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾ [1] الآية ـ ومن ذلك قصة رجم اليهوديين وفيه وجود آية الرجم [2]. ويؤيده قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [3].

ثانيها: أن التبديل وقع ولكن في معظمها. وأدلته كثيرة. وينبغي حمل الأول عليه.

ثالثها: وقع في اليسير منها. ومعظمها باق على حاله. ونصره الشيخ تقي الدين بن تيمية في كتابه «الرد الصحيح على من بدل دين المسيح».

رابعها: إنما وقع التبديل والتغيير في المعاني لا في الألفاظ وهو المذكور هنا اهـ

وبالجملة فكتب الكتابيِّن، كأقوالهم، لا يعتمد عليها كلها. لظهور الكذب والتناقض فيها إلى اليوم. ولظهور تلفيقها. فهى ككتب القصص عندنا. فيها شيء من القرآن والسنة، ولكنه ممزوج بالأكاذيب والآراء المقتبسة من الأمم. ثم إن موافقة القرآن الكريم أو الحديث الصحيح لبعض ما في كتبهم دون بعض، يدل على أن الله تعالى بيّن له حق كلامهم من باطله، وصدقه من كذبه. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ [4].

قال بعضهم: لا شيء يعول عليه في صحة بعض أقوال كتب اليهود دون بعض، بعد ما طرأ عليها من الضياع والتحريف والخلط. إلا الوحي. وقد ثبتت نبوة محمد ﷺ بالدلائل الساطعة والآثار النافعة. انتهى. أي فعلى وحيه المعوّل. فالحمد لله الذي وفقنا لاتباعه» [5].

نموذج من الاكاذيب في التفاسير:

قال البلاغي قدس سره: «هذا وإن كثيراً من كتب التفسير قد لهج باكذوبة شنيعة وهي ما زعموا من ان الرسول ﷺ قرأ سورة النجم في مكة في محفل من المشركين حتى إذا

---

١. سورة الاعراف: الآية ١٥٧.

٢. صحيح البخاري في: ٦٥ ـ كتاب التفسير. انظر الحاشية رقم ١ ص ٤٦.

٣. سورة آل عمران: الآية ٩٣.

٤. سورة المائدة: الآية ٤٨.

٥. محاسن التأويل ج ١ ص ٤١ ـ ٥٠.

قرأ قوله تعالى: ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومنات الثالثة الأخرى﴾[١] قال ﷺ في تمجيد هذه الأوثان وحاشا قدسه «تلك الغرانيق الأولى منها الشفاعة ترتجى» فأخبره جبرائيل بما قال فاغتم لذلك فنزل عليه في تلك الليلة أية تسلية ولكن بماذا تسلية بزعمهم تسليه بما يسلب الثقة من كل نبي وكل رسول في قراءته وتبليغه. والآية هي قوله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ إلا اذا تمنى ألقى الشيطان في امنيته﴾[٢] فقالوا معنى ذلك إذا تكلم أو حدث أو تلا وقرأ ادخل الشيطان ضلاله في ذلك»[٣].

أثر الأخبار الإسرائيلية في التفسير:

قال خالد عبدالرحمن: لقد تركت رواية الأخبار الإسرائيلية في كتب التفسير، أثراً سلبياً إزاء الروح الإسلامية في تفسير القرآن الكريم. فما من مسلم ذي عقل نير يقبل بمجريات الأحداث أو الوقائع التي تحكيها القصة الإسرائيلية، فهناك الكثير من الشكوك تدور حول تلك الأخبار هل هي مختلقة مصطنعة؟ أم فيها من الدسائس ما قد شوّه مضمونها[٤]..

والحال في هذا الأمرين لا يليق بجلال القرآن وقدسيته، من حشو كتب التفسير بتلك الأخبار التي نقلها إلينا مسلموا أهل الكتاب، ونحن لم نقف على مدى صحتها وثبوتها وسلامتها من الزيادة أو التحريف.

والرسول الكريم ﷺ قد رسم لنا منهجاً في ذلك فقال: «لا تُصدّقُوا أهلَ الكتابِ ولا تُكذِّبُوهم»، أي: فيما لا يخالف الإسلام في عقيدته ومعانيه ...

كما قال عليه الصلاة والسلام أيضاً: «حَدِّثُوا عنْ بني إسْرائيلَ ولا حَرَجَ»، وذلك فيما يتعلّق بماضيهم، للعبرة والاتعاظ، بما يتوافق مع جلالة الأنبياء والمرسلين السابقين، لأن اليهود لا يتورعون من الحطّ من شأن أنبيائهم والافتراء عليهم. وأخبارهم عن أنبيائهم محشّوة بالأضاليل والأكاذيب ..

وإنْ كان ولا بدّ من ذكر شواهد من الأخبار الإسرائيلية، فلابدّ من التقيّد بهذا المنهج

---

١. سورة النجم: الآية ١٩ ـ ٢٠.
٢. سورة الحج: الآية ٥٢.
٣. آلاء الرحمن ج ١ ص ٤٦.

المستقيم:

١ ـ ما علمت صحته عن النبي ﷺ فيما يحكيه عن بني إسرائيل فهذا مما لا تحرّج فيه قطعاً، وهو حق وصدق.

٢ ـ ما علم عدم صحته، بأن كان يناقض الحقائق الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل في كل زمان ومكان، كعصمة الأنبياء، وعقيدة التوحيد. وتنزيه الباري سبحانه وتعالى، فكل خبر يناقض معنىً من معاني هذه الحقائق الثابتة، فهو مردود لا تجوز روايته إلا للتنبيه عليه أو لتفنيده ونقضه.

٣ ـ ما هو مسكوت عنه، لا هو من قبيل الأول، ولا هو من قبيل الثاني، وهذا القسم نتوقّف فيه، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته، وهذا النوع مما ليس فيه فائدة تعود على المسلمين في أمر دينهم. فيبقى الأمر على ما علمت صحته عن النبي ﷺ، وكفى ...»[1].

قال المحققان: «... بعض المعاصرين [2] قرر أن الاسرائيليات كانت مصدراً رابعاً من مصادر التفسير!! وهذا الذي قالوه مخالف للحق هادمٌ لاصول التفسير في العصور الاسلامية فما الجواب عن هذه الفرية؟!

وتفصيل ذلك يأتي بعد توضيح لأمر معين:

أولاً: لابد من تحديد الألفاظ قبل أن نلج في الموضوع؛ أن نحدد معنى الإسرائيليات فنقول:

إن المتقدمين لم يصيغوا معنى اصطلاحياً لهذه الكلمة مما جعلهم يتناولون هذه الكلمة بمعابير ومعانٍ مختلفة. فمنهم من يرى أنها مطلق الأخبار الواردة عن بني إسرائيل، وبعضهم يخَصِّصُها بالأخبار التي جاءت من طريق اليهود الذي دخلوا الإسلام، وفريق ثالث يتحدث عنها على اعتبار أنها كل ما جاء عن أهل الكتاب سواء كانوا يهوداً أو نصارى.

---

١. مقدمة معالم التنزيل للبغوي ج ١ ص ١٢ ـ ١٣.

٢. كالدكتور محمد حسين الذهبي في كتاب «التفسير والمفسرون» ج ١ ص ٣٧ وغيره.

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تُذكر للاستشهاد لا للاعتقاد، فإنها على ثلاثة أقسام:

أ ـ ما وافق شرعنا: أي ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذلك صحيح.

ب ـ ما خالفه : أي ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

جـ ـ ما سكت عنه شرعنا: أي ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل، ولا من هذا القبيل. فلا نؤمن به، ولا نكذبه، وتجوز حكايته، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني.

تناول الشيخ الذهبي رحمه‌الله الحديث عن الإسرائيليات بتفصيل. ثم إنه لما تكلم عن مصادر التفسير في عهد الصحابة قال: «كان الصحابة في هذا العصر يعتمدون في تفسيرهم للقرآن الكريم على أربعة مصادر: الأول القرآن الكريم. والثاني النبي ﷺ. الثالث الاجتهاد وقوة الاستنباط. الرابع أهل الكتاب من اليهود والنصارى». ولقد حاولت جهدي أن أفهم من عبارة الذهني خلاف ظاهر النص، ولكن دون جدوى. فإن كان مراد الذهبي أن الروايات القليلة الواردة عن بعض الصحابة في أخبار الأمم السابقة، والتي قد تكون مستقاة من مسلمة أهل الكتاب أصبحت مصدراً رابعاً لمصادر التفسير، فهذا لم يقل به أحد لمخالفته للحق. أما إن كان مراد الذهبي من عبارته أن يقرر وجود روايات في التفسير عن الصحابة من هذا النوع فلا ينكره أحد، ولعله مقصده كان ذلك، وإن قصرت العبارة عن مراده. خاصة وأن الذهبي رحمه‌الله قرر بإسهاب في حديثه عن الإسرائيليات أن الصحابة لم يسألوا أهل الكتاب عن كل شيء، ولم يقبلوا منهم كل شيء، وأن الصحابة توقفوا فيما سمعوه منهم، وأنهم لم يسألوا أهل الكتاب عن أشياء كانت مدعاة للهو والعبث؛ كعدد ألواح سفينة نوح ... وكذلك كان الصحابة رضي الله عنهم لا يصدقون اليهود فيما يخالف الشريعة أو يتنافى مع العقيدة [1] ولكن المشكلة أن الذين نقلوا عن الذهبي في مؤلفاتهم الحديثه صرحوا بأن الإسرائيليات مصدر رابع.

استغل المستشرقون مثل هذه الكتابات وجعلوها مستندهم فيما أشاعوه من أن

---

١. التفسير والمفسرون ١ / ٧٠ ـ ٨٣، ١٦٥ ـ ١٩٠.

مصدر الفكر الإسلامي أو المتمم له على الأقل هو التوراة والإنجيل، لذا لم يجد الصحابة بُدًّا من الرجوع إلى جذور هذا الفكر برجوعهم إلى الإسرائيليات في منهج التفسير: فيرجع القاريء إلى عشرات التُّرهات التي أوردها تسيهر [١] إذ قال: «إن ابن عباس اعتبر مصادر العلم المفضلة لديه: اليهوديَّيْن اللَّذيْنِ اعتنقا الإسلام وهما كعب الأحبار وعبدالله بن سلام» [٢] كما ادعى تسيهر أيضاً: «أن ابن عباس كان يسأل كعب الأحبار عن التفسير الصحيح للتعبيرين القرآنيين: أم الكتاب، والمرجان» [٣].

والذي نريد أن نركز عليه هنا أن أدلة تسيهر التي ساقها لتقرير هذا كتابات بعض المسلمين قديماً وحديثاً، بمعنى أن تسيهر استغل السقطات العملية عند العلماء فاتخذها سلاحاً ضد الحق وضد المسلمين مما يؤكد على المسلمين وجوب الحيطة فيما يكتبون.

كما أنه لا دليل لمن قال بأن الصحابة رغبوا في الوقوف على تفصيل ما أجمله القرآن، إذا الثابت عكس ذلك، إذ أورد السيوطي وغيره عشرات الآثار الدالة على أن الصحابة اكتفوا بفهم القرآن مجملاً، وتورعوا عن الخوض فيه بغير علم، منها أن عمر بن الخطاب سأل عن الأبُّ في قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةً وأَبًّا﴾ [٤] ثم تراجع عن هذا المطمح وقال: إن هذا هو التكلف يا عمر [٥].

..... جاء في ميزان الاعتدال عند ترجمة مجاهد بن جبر مايلي: «عن أبي بكر بن عياش قال: قلت للأعمش: ما بال تفسير مجاهد مخالف؟ أو ما بالهم يتقون تفسير مجاهد؟ قال: كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب» [٦]: فإن كان التابعون يجرحون من يعتمد على أهل الكتاب في نقل الأخبار ويجعلون ذلك سبباً كافياً للتجريح فما بالنا بالصحابة رضوان الله عليهم.

ثم إن الإسرائيليات لو كانت فعلاً مصدراً معتمداً عند السلف في التفسير لأثرت في منهجه، أو غيرت من وجهته، ولكنها لم تؤثر على الفكر الإسلامي ولا على عقيدته

---

١. مذاهب التفسير الإسلامي ص ٧٣ ـ ٩٥.
٢. نفس المصدر.
٣. نفس المصدر.
٤. سورة عبس، الآية ٣١.
٥. الإتقان ج ١ ص ١١٣.
٦. ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٤٣٩.

وبقيت اللعنة على بني إسرائيل يتقرب المسلمون إلى الله بترديدها فيما يتلونه من القرآن. ولو أنها لعبت أدنى دور في المسيرة الإسلامية عقيدة أو منهجاً لما تجرأنا ونحن في القرن الخامس عشر أن ندعوا لطرحها من تاريخنا الاسلامي غير متأسفين عليها. والله أعلم»[1].

١. مقدمة تفسير النسائي ج ١ ص ١٢ ـ ١٧.

طبقات المفسرين

قال هود بن مُحَكم : « ذكروا أن رسول الله ﷺ دعا لابن عباس فقال : «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل »[1].

ذكروا أن الحسن كان يسأل أصحاب النبي ﷺ عن تفسير القرآن، فيسأل عن الآيات ، فيقال نزلت في بني فلان ، فيذهب إليهم حتى يسألهم عنها .

ذكروا أن جملة التفسير جاء عن ابن عباس والحسن ، وأن تفسير مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والضحاك بن مزاحم والكلبي عن أبي صالح كله عن ابن عباس . وكل المفسرين إنما يدورون على ابن عباس والحسن .

ذكروا عن عبدالله بن مسعود أنه قال : كنا نتعلم العشر آيات فلا نجاوزهن حتى نتعلم العلم بهن ، فكنا نتعلم العلم ونتعلم العمل[2] .

ذكروا عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « تعلموا القرآن وعلموه الناس ، وتعلموا العلم وعلموه الناس ، وتعلموا الفرائض وعلموها الناس . ألا إنه سيأتي زمان

---

١ . حديث صحيح متفق عليه . أخرجه البخاري في كتاب العلم ، باب قول النبي ﷺ : (اللهم علمه الكتاب) ، «عن عكرمة عن ابن عباس قال : ضمني رسول الله ﷺ وقال : (اللهم علمه الكتاب) . وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل ، باب فضائل عبدالله بن عباس رضي الله عنهما (رقم ٢٤٧٧) بلفظ : «اللهم فقهه» .

٢ . وفي رواية أخرى : «كنا لا نجاوز عشر آيات حتى نعرف أمرها ونهيها وأحكامها» . وهذا هو معنى العلم بهن . انظر الدكتور محمد رواس قلعه جي ، موسوعة فقه ابن مسعود، ص : ٤٩٨ . نشر جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، طبع مطبعة المدني القاهرة ١٤٠٤ ـ ١٩٨٤ .

يختلف الرجلان في فريضة فلا يجدان أحداً يفصل بينهما»[١][٢].

قال الطبري في ذكر الأخبار عن بعض السلف فيمن كان من قدماء المفسرين محموداً علمه بالتفسير ومن كان منهم مذموماً علمه به :

١ ـ حدثنا محمد بن بشار ، قال : حدثنا وكيع ، قال : حدثنا سفيان ، عن سليمان ، عن مسلم ، قال : قال عبدالله : نعم ترجمان القرآن ابن عباس .

٢ ـ حدثني يحيى بن داود الواسطي ، قال : حدثنا إسحق الأزرق ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن أبي الضحى ، عن مسروق ، عن عبدالله بن مسعود ، قال : نعم ترجمان القرآن ابن عباس .

٣ ـ وحدثني محمد بن بشار ، قال : حدثنا جعفر بن عون ، قال : حدثنا الأعمش عن أبي الضحى ، عن مسروق عن عبدالله ، بنحوه .

٤ ـ حدثنا أبو كريب قال : حدثنا طلق بن غنام ، عن عثمان المكي ، عن ابن أبي مليكة قال : رأيت مجاهداً يسأل ابن عباس عن تفسير القرآن ، ومعه ألواحه ، فيقول له ابن عباس : «اكتب» ، قال : حتى سأله عن التفسير كله .

٥ ـ حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا المحاربي ، ويونس بن بكير قالا : حدثنا محمد بن إسحق ، عن أبان بن صالح ، عن مجاهد ، قال : عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات ، من فاتحته إلى خاتمته ، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها .

٦ ـ وحدثني عبيدالله بن يوسف الجبيري ، عن أبي بكر الحنفي ، قال : سمعت سفيان الثوري يقول : إذا جاءك التفسير عن مجاهدٍ فحسبك به .

٧ ـ وحدثنا محمد بن المثنى ، قال : حدثنا سليمان أبو داود ، عن شعبة، عن عبدالملك بن ميسرة ، قال: لم يلق الضحاك ابن عباس ، وإنما لقي سعيد بن جبير بالري ،

---

١. أخرجه الدار قطني في سننه ، في كتاب الفرائض عن عبدالله بن مسعود مرفوعاً . ورواه الترمذي مختصراً عن أبي هريرة في أبواب الفرائض ، باب ما جاء في تعليم الفرائض ولفظة : «تعلموا الفرائض والقرآن وعلموا الناس فإني مقبوض» . وقال الترمذي هذا حديث مضطرب . وأخرج البخاري في كتاب فضائل القرآن ، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه ، عن عثمان عن النبي ﷺ قال : « خيركم (وفي رواية) أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه » .

٢. تفسير كتاب الله العزيز ج ١ ص ٧١.

وأخذ عنه التفسير.

٨ـ حدثنا ابن المثنى، قال: حدثنا أبو داود، عن شعبة، عن مشاش، قال: قلت للضحاك: سمعت من ابن عباس شيئاً؟ قال: لا.

٩ـ حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا ابن إدريس، قال حدثنا زكريا، قال: كان الشعبي يمر بأبي صالح باذان، فيأخذ بأذنه فيعركها ويقول: تفسر القرآن وأنت لا تقرأ القرآن!

١٠ـ حدثني عبدالله بن أحمد بن شبويه، قال: حدثنا علي بن الحسين بن واقد، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا الأعمش، قال: حدثني سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾[1] قال: قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة، وبالسيئة السيئة ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[2]، قال الحسين: فقلت للأعمش: حدثني به الكلبي، إلا أنه قال: إن الله قادرٌ أن يجزي بالسيئة السيئة وبالحسنة عشراً، فقال الأعمش: لو أن الذي عند الكلبي عندي ما خرج مني إلا بخفير.

١١ـ حدثني سليمان عبدالجبار، قال: حدثنا علي بن حكيم الأودي، قال: حدثنا عبدالله بن بكير، عن صالح بن مسلم، قال: مر الشعبي على السدي وهو يفسر، فقال: لأن يضرب على استك بالطبل، خيرٌ لك من مجلسك هذا.

١٢ـ حدثني سليمان بن عبدالجبار، قال: حدثني علي بن حكيم، قال: حدثنا شريك، عن مسلم بن عبدالرحمن النخعي، قال: كنت مع إبراهيم، فرأى السدي، فقال: أما إنه يفسر تفسير القوم.

١٣ـ حدثنا ابن البرقي، قال: حدثنا عمرو بن أبي سلمة، قال: سمعت سعيد بن بشير، يقول عن قتادة قال: ما أرى أحداً يجري مع الكلبي في التفسير في عنان.

قال أبو جعفر: قد قلنا فيما مضى من كتابنا هذا في وجوه تأويل القرآن، وأن تأويل جميع القرآن على أوجهٍ ثلاثة:

أحدها ـ لا سبيل الى الوصول إليه، وهو الذي استأثر الله بعلمه، وحجب علمه عن جميع خلقه، وهو أوقات ما كان من آجال الأمور الحادثة، التي أخبر الله في كتابه أنها

---

١ و ٢. سورة غافر: الآية ٢٠.

كائنة، مثل: وقت قيام الساعة، ووقت نزول عيسى بن مريم، ووقت طلوع الشمس من مغربها، والنفخ في الصور، وما أشبه ذلك.

والوجه الثاني: ما خص الله بعلم تأويله نبيه ﷺ دون سائر أمته، وهو ما فيه مما بعباده إلى علم تأويله الحاجة، فلا سبيل لهم إلى علم ذلك إلا ببيان الرسول ﷺ لهم تأويله.

والثالث منها: ما كان علمه عند أهل اللسان الذي نزل به القرآن، وذلك علم تأويل عربيته وإعرابه، لا يوصل إلى علم ذلك إلا من قبلهم.

فإذا كان ذلك كذلك، فأحق المفسرين بإصابة الحق ـ في تأويل القرآن الذي إلى علم تأويله للعباد السبيل أوضحهم حجة فيما تأول وفسر، مما كان تأويله إلى رسول الله ﷺ دون سائر أمته من أخبار رسول الله ﷺ الثابتة عنه: إما من جهة النقل المستفيض، فيما وجد فيه من ذلك عنه النقل المستفيض، وإما من جهة نقل العدول الأثبات، فيما لم يكن فيه عنه النقل المستفيض، أو من جهة الدلالة المنصوبة على صحته، وأصحهم برهاناً ـ فيما ترجم وبين من ذلك ـ مما كان مدركاً علمه من جهة اللسان: إما بالشواهد من أشعارهم السائرة، وإما من منطقهم ولغاتهم المستفيضة المعروفة، كائناً من كان ذلك المتأول والمفسر، بعد أن لا يكون خارجاً تأويله وتفسيره ما تأول وفسر من ذلك، عن أقوال السلف من الصحابة والأئمة، والخلف من التابعين وعلماء الأمة [(١)].

قال ابن عطية: «فأما صدر المفسرين والمؤيد فيهم فعلي بن أبي طالب ﷺ، ويتلوه عبدالله بن العباس ﷺ، وهو تجرد للأمر وكمّله، وتبعه العلماء عليه كمجاهد [(٢)]، وسعيد بن جبير، وغيرهما، والمحفوظ عنه في ذلك أكثر من المحفوظ عن علي بن أبي طالب. [وكان علي بن أبي طالب ﷺ] يثني على تفسير ابن عباس، ويحض على الأخذ عنه. وكان عبدالله بن مسعود يقول: نعم ترجمان القرآن عبدالله بن عباس [(٣)]. وهو الذي قال فيه

١. جامع البيان ج ١ ص ٦٥ـ٦٦.

٢. مجاهد بن جبر وقيل: ابن جبير من كبار التابعين سمع ابن عباس وجابرا وأبا هريرة وأبا سعيد الخدري. أخذ القراءة عن عبدالله بن عباس وقال مجاهد: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة. مات سنة ١٠٤ هـ. معجم الأدباء ج ١٧ ص ٧٧.

٣. تفسير الطبري ج ١ ص ٣١، والإصابة في تمييز الصحابة ج ٤ ص ٩٢.

رسول الله ﷺ: «اللهم فقهه في الدين» [١]. وحسبك بهذه الدعوة. وقال عنه علي بن أبي طالب: ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق، ويتلوه [٢] عبدالله بن مسعود، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبدالله بن عمرو بن العاص وكل ما أخذ عن الصحابة فحسن متقدم.

ومن المبرزين في التابعين الحسن بن أبي الحسن، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعلقمة. قرأ مجاهد على ابن عباس قراءة تفهّم ووقوف عند كل آية، ويتلوهم عكرمة [٣]، والضحاك بن مزاحم [٤]، وإن كان لم يلق ابن عباس، وإنما أخذ عن ابن جبير. وأما السدي [٥] رحمه الله فكان عامرٌ الشعبي يطعن عليه، وعلى أبي صالح لأنه كان يراهما مقصرين في النظر.

ثم حمل تفسير كتاب الله تعالى عدول كل خلف وألف الناس فيه كعبد الرزاق [٦]، والمفضل [٧]، وعلي بن أبي طلحة [٨]، والبخاري، وغيرهم. ثم إن محمد بن جرير الطبري رحمه الله، جمع على الناس أشتات التفسير، وقرب البعيد، وشفى في الإسناد.

---

١. في تيسير الوصول ج ٣ ص ٩٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ضمني رسول الله ﷺ إلى صدره وقال: «اللهم فقهه في الدين» وفي رواية «اللهم علمه الكتاب» وفي أخرى «الحكمة» أخرجه الشيخان والترمذي.

٢. هكذا في بقية النسخ وفي نسخة «ويتلو» وهو خطأ من الناسخ.

٣. عكرمة بن خالد المخزومي محدث جليل من وجوه التابعين وشقيق الشاعر الحارث بن خالد المخزومي أحد شعراء قريش الغزليين. الأغاني ج ٣ ص ٣١٢.

٤. الضحاك بن مزاحم أبوالقاسم، وردت عنه الرواية في حروف القرآن، سمع سعيد بن جبير، وأخذ عنه التفسير، مات سنة ١٠٥ هـ. طبقات القراء ج ١ ص ٣٣٧.

٥. إسماعيل بن عبدالرحمن بن أبي ذؤيب السدي، روى عن أنس بن مالك وأبي صالح ورأى ابن عمر، كان ثقة مأموناً، روى عنه الثوري. مات سنة ١٢٧ هـ معجم الأدباء ج ٧ ص ١٣.

٦. أبو بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني المحدث. روى عنه أئمة الإسلام في زمانه منهم سفيان بن عيينة، وأحمد بن حنبل. قيل: ما رحل الناس إلى أحد بعد رسول الله مثلما رحلوا إليه توفي سنة ٢١١ باليمن. وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٨٥.

٧. المفضل الضبي، عربي من ضبة، من أشهر علماء الكوفة اشتهر بالأنساب، وأيام العرب، وروايته للشعر، وعرف بالصدق فيما يروي واختلف في تاريخ وفاته، واتفق على أنها فيما بين سنة ١٦٤ ـ ١٧٠، ومن أهم كتبه المفضليات وكتاب الأمثال. ضحى الإسلام ج ٢ ص ٣٠٦، ونزهة الألباء ٣٦.

٨. ابن محمد أبو الحسن البصري، مقرىء، مشهور، ثقة، مات سنة ٤٣٤. طبقات القراء ج ١ ص ٥٤٦.

ومن المبرزين فى المتأخرين أبو إسحاق الزجاج [١]، وأبو على الفارسى [٢]، فإن كلامهما منخول. وأما أبو بكر النقاش [٣]، وأبو جعفر النحاس [٤] ـ رحمهما الله ـ فكثيرا ما استدرك الناس عليهما. وعلى سننهما مكى بن أبى طالب [٥] ﷺ، وأبو العباس المهدوى ـ رحمه الله ـ متقن التأليف، وكلهم مجتهد مأجور، رحمهم الله ونضر وجوههم» [٦].

قال ابن تيمية: «يجب أن يعلم أن النبى ﷺ بين لاصحابه معانى القرآن كما بين لهم ألفاظه، فقوله تعالى: ﴿ لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ [٧] يتناول هذا وهذا، وقد قال أبو عبدالرحمن السلمى [٨]: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن ـ كعثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود وغيرهما ـ أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً. ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة. وقال أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جل فى أعيننا. وأقام

---

١. أبو إسحاق إبراهيم بن سهل الزجاج، كان من أهل العلم والأدب المتين، أخذ الأدب عن المبرد وثعلب، وألف كثيرا من الكتب، كان فى مبدأ حياته يخرط الزجاج ثم تركه واشتغل بالأدب. مات حوالى سنة ٣١٦. وفيات الأعيان ج ١ ص ٣١.

٢. أبو على الحسن بن أحمد الفارسى النحوى، كان إمام وقته فى علم النحو، ألف كثيرا من الكتب، وكان متهما بالاعتزال. مات سنة ٣٧٧. وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٦٣.

٣. أبو بكر محمدبن‌الحسن النقاش، الموصلى البغدادى، كان عالما بالقرآن والتفسير، وصنف بعض كتب التفسير، اختلف فيه العلماء، وقال بعضهم فيه: ليس فى تفسيره حديث صحيح ففى حديثه مناكير بأسانيد مشهورة، وقال آخر فيه: كان يكذب فى الحديث. مات سنة ٣٥١ هـ على بعض الروايات. الوفيات ج ٣ ص ٣٢٥.

٤. كان من الفضلاء، له تصانيف مفيدة فى التفسير والنحو والأدب، روى عن النسائى، وأخذ النحو عن الأخفش والزجاج وابن الانبارى. مات بمصر سنة ٣٣٨ هـ. الوفيات ج ١ ص ٨٢.

٥. القيروانى الأصل، القرطبى مسكنا، النحوى اللغوى المقرىء، كان إماما عالما بوجوه القراءات متبحرا فى علوم القرآن والعربية، فقيها أديبا متفننا غلبت عليه علوم القرآن فكان من الراسخين فيها. مات سنة ٤٣٧ هـ. معجم‌الأدباء ج ١٩ ص ١٦٧، وطبقات‌القراء ج ٢ ص ٣٠٩، والقراءات القرآنية فى ضوء علم اللغة الحديث ٤٥٢.

٦. المحرر الوجيز ج ١ ص ٤٧ ـ ٥٠، ونقل عين هذه العبارة الثعالبى فى جواهر الحسان ج ١ ص ١٣ ـ ١٤.

٧. سورة النحل: الآية ٤٤.

٨. هو عبدالله بن حبيب بن ربيعة الشهير بأبى عبدالرحمن السلمى من مشاهير القراء الذين أخذوا عن عثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب. لم يعلم تاريخ ميلاده ولا تاريخ وفاته. انظر طبقات القراء لابن الجزرى ج ١٠ ص ٤١٣، وكثيراً ما يذكر ابن تيمية هذا النص عن السلمى ليستدل به على أن السلف تعلموا القرآن وتعلموا معه العمل به.

ابن عمر على حفظ البقرة عدة سنين - قيل ثمان سنين - ذكره مالك. وذلك أن الله تعالى قال: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته﴾ [١]، وقال: ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾[٢]، وقال: ﴿أفلم يدبروا القول﴾ [٣] وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لايمكن. وكذلك قال تعالى: ﴿إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون﴾ [٤]، وعقل الكلام متضمن لفهمه. ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك.

وأيضاً فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله الذى هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم؟ ولهذا كان النزاع بين الصحابة فى تفسير القرآن قليلا جداً، وهو وإن كان فى التابعين أكثر منه فى الصحابة فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم، وكلما كان العصر أشرف كان الاجتماع والائتلاف والعلم والبيان فيه أكثر. ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة، كما قال مجاهد [٥]: عرضت المصحف على ابن عباس، أقفه [٦] عند كل آية منه وأسأله عنها [٧]، ولهذا قال الثورى [٨]: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعى والبخارى وغيرهما من أهل العلم، وكذلك الامام أحمد وغيره ممن صنف فى التفسير يكرر الطرق عن مجاهد أكثر من غيره والمقصود أن التابعين تلقوا التفسير عن الصحابة كما تلقوا عنهم علم السنة، وإن كانوا قد يتكلمون فى بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال كمايتكلمون فى بعض السنن بالاستنباط

١. سورة ص: الآية ٢٩.
٢. سورة النساء: الآية ٨٢، سورة محمد: الآية ٢٤.
٣. سورة المؤمنون: الآية ٦٨.
٤. سورة يوسف: الآية ٢.
٥. هو أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكى، شيخ القراء والمفسرين، قرأ على ابن عباس وأخذ عنه، ولد سنة ٢١ وقيل أنه توفى سنة ١٠٣ أو ١٠٤ هـ انظر شذرات الذهب ج ١ ص ١٢٥، تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٨٠ - ٨١، ميزان الأعتدال ج ٣ ص ٩ الاعلام ج ٦ ص ١٦١.
٦. فى طبعة محب الدين لخطيب. أوقفه وهو خطأ.
٧. ذكر ابن كثير هذا الأخير فى (كتاب فضل القرآن) ذكره فى فضائل أبن عباس ومجاهد. انظر ج ٤ ص ٢٨ - ٢٩ (فضائل القرآن).
٨. هو سفيان بن سعيد بن مسروق (الثورى) محدث وامام ثقة ولد سنة ٩٧ وتوفى سنة ١٦١ هـ. انظر ترجمته فى: دول الإسلام ج ١ ص ٧٨ - ٧٩، الوفيات ج ٢ ص ١٢٧، طبقات ابن سعد ج ٦ ص ٣٧١ - ٣٧٤.

والاستدلال»[١].

قال ابن تيمية اهل مكة اعلم الناس بالتفسير :

وأما التفسير فان أعلم الناس به أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس ـ كمجاهد ، وعطاء بن أبي رياح ، وعكرمة مولى ابن عباس ـ وغيرهم من أصحاب ابن عباس، كطاووس وأبي الشعثاء وسعيد بن جبير وأمثالهم ، وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود ، ومن ذلك ما تميزوا به على غيرهم . وعلماء أهل المدينة في التفسير مثل زيد بن أسلم الذي أخذ عنه مالك التفسير ، وأخذه عنه أيضاً ابنه عبدالرحمن ، وأخذه عن عبدالرحمن عبدالله بن وهب»[٢].

قال القرطبي : «قال ابن عطية : «وكان جلة من السلف الصالح كسعيد بن المسيب وعامر الشعبي وغيرهما يعظمون تفسير القرآن ، ويتوقفون عنه تورعا واحتياطاً لأنفسهم مع إدراكهم وتقدمهم» .

قال أبو بكر الأنباري : وقد كان الأئمة من السلف الماضي يتورعون عن تفسير المشكل من القرآن ، فبعض يقدّر أن الذي يفسره لا يوافق مراد الله عزوجل فيحجم عن القول . وبعض يشفق من أن يجعل في التفسير إماما يبنى على مذهبه ويقتفى طريقه .

فلعل متأخرا أن يفسر حرفاً برأيه ويخطيء فيه ويقول : إمامي في تفسير القرآن بالرأي فلان الإمام من السلف . وعن ابن أبي مليكة قال : سئل أبو بكر الصديق ﷺ عن تفسير حرف من القرآن فقال : أي سماء تظلني ، وأي أرض تقلني ! وأين أذهب ! وكيف أصنع ! إذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى .

قال ابن عطية : «وكان جلةٌ من السلف كثير عددهم يفسرون القرآن وهم أبقوا[٣] على المسلمين في ذلك رضي الله عنهم ، فأما صدر المفسرين والمؤيد فيهم فعلي بن أبي طالب ﷺ ، ويتلوه عبدالله بن عباس وهو تجرد للأمر وكمّله ، وتبعه العلماء عليه كمجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما ، والمحفوظ عنه في ذلك أكثر من المحفوظ عن

---

١ . دقائق التفسير ج ١ ص ٤٢ ـ ٤٤ . ٢ . دقائق التفسير ج ١ ص ٥٧ .

٣ . من قولهم : أبقيت على فلان إذا أشفقت عليه ورحمته .

علي» . وقال ابن عباس : ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبى طالب . وكان علي ﷺ يثني على تفسير ابن عباس ويحض على الأخذ عنه ، وكان ابن مسعود يقول : نعم ترجمان القرآن عبدالله بن عباس ، وقال عنه علي ﷺ : « ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق » . ويتلوه عبدالله ابن مسعود وأُبى بن كعب وزيد بن ثابت وعبدالله بن عمرو بن العاص . وكل ما أخذ عن الصحابة فحسن مقدم لشهودهم التنزيل ونزوله بلغتهم .

وعن عامر بن واثلة قال : شهدت علي بن أبى طالب ﷺ يخطب فسمعته يقول فى خطبته : « سلونى ، فو الله لا تسألونى عن شيء يكون إلى يوم القيامة إلا حدثتكم به ، سلونى عن كتاب الله ، فو الله ما من آية إلا أنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار ، أم فى سهل نزلت أم فى جبل؟ » ، فقام إليه ابن [1] الكواء فقال : يا أميرالمؤمنين ، ما الذاريات ذروا ؟ وذكر الحديث .

وعن المنهال بن عمرو قال : قال عبدالله ابن مسعود : لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله مني تبلغه المطى لأتيته ، فقال له رجل : أما لقيت علي بن أبى طالب ؟ فقال : بلى ، قد لقيته .

وعن مسروق قال : وجدت أصحاب محمد ﷺ مثل الإخاذ يروى الواحد والإخاذ يروى الاثنين ، والإخاذ لو ورد عليه الناس أجمعون لأصدرهم ، وإن عبدالله بن مسعود من تلك الآخاذ [2] . ذكر هذه المناقب ابوبكر الانباري في كتاب الرد ، وقال : الاخاذ عند العرب : الموضع الذي يحبس الماء كالغدير . قال أبو بكر : حدثنا أحمد بن الهيثم بن خالد، حدثنا أحمد بن عبدالله بن يونس ، حدثنا سلام عن زيد العمى [3] عن أبى الصديق الناجى عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ : «أرحم أمتي بها أبو بكر وأقواهم فى دين

---

١ . اسمه عبدالله بن أبى أوفى اليشكرى كما فى تاريخ الطبرى فى عدة مواضع .

٢ . قوله : من تلك الآخاذ . يعنى أن فيهم الصغير والكبير ، والعالم والأعلم .

٣ . جاء فى حاشية بهامش الأصل : أنه سمي زيدا العمي لأنه كان ينادى من رآه بياعم . وجاء فى تهذيب التهذيب عند الكلام على اسم زيد المذكور : أنه زيد بن الحوارى أبو الحوارى العمى ، وهو مولى زياد بن أبيه . ولقب بذلك لأنه كان إذا سئل عن الشيء يقول: حتى أسأل عمي .

الله عمر وأصدقهم حياء عثمان وأقضاهم علي وأفرضهم زيد وأقرؤهم لكتاب الله عزوجل أبي بن كعب وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ ابن جبل، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح وأبو هريرة وعاءٌ من العلم وسلمان بحرٌ من علم لا يدرك، وما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء ـ أو قال البطحاء ـ من ذي لهجة أصدق من أبي ذر».

قال ابن عطية: «ومن المبرزين في التابعين الحسن البصري ومجاهد وسعيد بن جبير وعلقمة. قرأ مجاهد على ابن عباس قراءة تفهم ووقوف عند كل آية، ويتلوهم عكرمة والضحاك وإن كان لم يلق ابن عباس، وإنما أخذ عن ابن جبير، وأما السدي فكان عامر الشعبي يطعن عليه وعلى أبي صالح، لأنه كان يراهما مقصرين في النظر».

قلت: وقال يحيى بن معين: الكلبي ليس بشيء. وعن يحيى بن سعيد القطان عن سفيان قال: قال الكلبي: قال أبو صالح: كل ما حدثتك كذب. وقال حبيب بن أبي ثابت: كما نسميه الدّروغ زن [1] ـ يعني أبا صالح مولى أم هانيء ـ والدروغ زن: هو الكذاب بلغة الفرس. ثم حمل تفسير كتاب الله تعالى عدول كل خالف، كما قال ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين». خرجه أبو عمر وغيره. قال الخطيب أبو بكر أحمد بن علي البغدادي. وهذه شهادة من رسول الله ﷺ بأنهم أعلام الدين وأئمة المسلمين لحفظهم الشريعة من التحريف، والانتحال للباطل، ورد تأويل الأبله الجاهل، وأنه يجب الرجوع إليهم، والمعول في أمر الدين عليهم، رضي الله عنهم» [2].

قال ابن كثير: « قال الإمام ابو جعفر بن جرير: حدثنا ابو كريب، حدثنا جابر بن نوح، حدثنا الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق، قال: قال عبدالله يعني ابن مسعود: والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، وأين نزلت. ولو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته.

وقال الأعمش أيضاً عن أبي وائل عن ابن مسعود، قال: كان الرجل منا اذا تعلم عشر

---

١. أسمه باذام، وقيل: باذان. بمعجمة بين ألفين. يروى عن علي وابن عباس ومولاته أم هانيء. كما في تهذيب التهذيب.

٢. الجامع لأحكام القرآن ج ١ ص ٣٤ ـ ٣٧.

آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن.

وقال أبو عبدالرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا : أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعا.

ومنهم الحبر البحر عبدالله بن عباس ابن عم رسول الله ﷺ وترجمان القرآن ببركة دعاء رسول الله ﷺ له، حيث قال : «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»، وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار ، وحدثنا وكيع : حدثنا سفيان عن الأعمش عن مسلم ـ كذا قال ـ قال عبدالله يعني ابن مسعود: نعم ترجمان القرآن ابن عباس . ثم رواه عن يحيى بن داود عن إسحق الأزرق عن سفيان عن الأعمش عن مسلم بن صبيح عن أبي الضحى عن مسروق عن ابن مسعود ، أنه قال : نعم الترجمان للقرآن ابن عباس . ثم رواه عن بندار عن جعفر بن عون عن الأعمش به كذلك. فهذا إسناد صحيح الى ابن مسعود ، أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة . وقد مات ابن مسعود ﷺ في سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح، وعمّر بعده عبدالله ابن عباس ستا وثلاثين سنة ، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود .

وقال الأعمش عن أبي وائل : استخلف علي عبدالله بن عباس على الموسم فخطب الناس فقرأ في خطبته سورة البقرة وفي رواية سورة النور : ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا .

ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبدالرحمن السدي الكبير في تفسيره عن هذين الرجلين ابن مسعود وابن عباس ، ولكن في بعض الأحيان يُنقل عنه ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب التي أباحها رسول الله ﷺ حيث قال: «بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» رواه البخاري عن عبدالله بن عمرو ، ولهذا كان عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب ، فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك .

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد [١].

قال ابو حيان: «الكلام فى تفسير القرآن:

من الصحابة جماعة منهم علي بن أبى طالب وعبدالله بن عباس وعبدالله بن مسعود وأُبى بن كعب وزيد بن ثابت وعبدالله بن عمرو بن العاص، فهؤلاء مشاهير من أخذ عنه التفسير من الصحابة رضى الله تعالى عنهم وقد نقل عن غير هؤلاء غير ماشيء من التفسير، (ومن المتكلمين) فى التفسير من التابعين الحسن بن أبى الحسن ومجاهد بن جبر وسعيد بن جبير وعلقمة والضحاك بن مزاحم والسدى وأبو صالح، وكان الشعبى يطعن على السدى وأبى صالح لانه كان يراهما مقصرين فى النظر، ثم تتابع الناس فى التفسير وألفوا فيه التآليف وكانت تآليف المتقدمين أكثرها انما هى شرح لغة ونقل سبب ونسخ وقصص؛ لأنهم كانوا قريبى عهد بالعرب وبلسان العرب، فلما فسد اللسان وكثرت العجم ودخل فى دين الاسلام أنواع الأمم المختلفو الألسنة والناقصو الادراك، احتاج المتأخرون الى اظهار ما انطوى عليه كتاب الله تعالى من غرائب التركيب وانتزاع المعانى وابراز النكت البيانية حتى يدرك ذلك من لم تكن فى طبعه، ويكتسبها من لم تكن نشأته عليها ولا عنصره يحركه اليها، بخلاف الصحابة والتابعين من العرب فان ذلك كان مركوزا فى طباعهم يدركون تلك المعانى كلها من غير موقف ولا معلم؛ لأن ذلك هو لسانهم وخطتهم وبيانهم، على أنهم كانوا يتفاوتون أيضا فى الفصاحة وفى البيان ألا ترى الى قوله ﷺ حين سمع كلام عمرو بن الأهتم فى الزبرقان: «إن من البيان لسحرا» [٢].

قال ابن جزى: « واعلم أن المفسرين على طبقات:

فالطبقة الأولى: الصحابة رضى الله عنهم. وأكثرهم كلاما فى التفسير ابن عباس وكان علي بن أبى طالب ﷺ يثنى على تفسير ابن عباس. ويقول: « كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق ». وقال ابن عباس: ما عندى من تفسير القرآن فهو عن علي بن أبى طالب. ويتلوهما عبدالله بن مسعود. وأُبى بن كعب. وزيد بن ثابت. وعبدالله بن عمر بن الخطاب. وعبدالله بن عمرو بن العاص، وكلما جاء من التفسير عن الصحابة فهو حسن.

---

١. تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٨. ٢. البحر المحيط ج ١ ص ١٣.

والطبقة الثانية : التابعون . وأحسنهم كلاما فى التفسير الحسن بن الحسن البصرى . وسعيد بن جبير ومجاهد مولى ابن عباس . وعلقمة صاحب عبدالله بن مسعود . ويتلوهم : عكرمة . وقتادة . والسدى . والضحاك بن مزاحم . وأبو صالح وأبو العالية . ثم حمل تفسير القرآن عدول كل خلف ، وألف الناس فيه : كالمفضل . وعبدالرزاق . وعبد بن حميد . والبخارى . وعلى بن أبى طلحة . وغيرهم .

ثم إن محمد بن جرير الطبرى جمع أقوال المفسرين وأحسن النظر فيها . وممن صنف في التفسير أشياء : أبو بكر النقاش . والثعلبي . والماوردي . إلا أن كلامهم يحتاج إلى تنقيح . وقد استدرك الناس على بعضهم . وصنف أبو محمد بن قتيبة فى غريب القرآن ومشكله وكثير من علومه ، وصنف فى معانى القرآن جماعة من النحويين : كأبى إسحق الزجاج ، وأبى على الفارسى ، وأبى جعفر النحاس . وأما أهل المغرب والأندلس فصنف القاضى منذر بن سعيد البلوطى كتابا فى غريب القرآن وتفسيره . ثم صنف المقرىء أبو محمد مكى بن أبى طالب كتاب الهداية فى تفسير القرآن . وكتابا فى غريب القرآن . وكتابا فى ناسخ القرآن ومنسوخه . وكتابا فى إعراب القرآن . إلى غير ذلك من تآليفه . فإنها نحو ثمانين تأليفا : أكثرها فى علوم القرآن والقراءات والتفسير وغير ذلك. وأما أبو عمرو الدانى فتآليفه تنيف على مائة وعشرين . إلا أن أكثرها فى القرآن . ولم يؤلف فى التفسير إلا قليلا . وأما أبو العباس المهدى فمتقن التأليف . حسن الترتيب . جامع لفنون علوم القرآن . ثم جاء القاضيان أبو بكر بن العربى وأبو محمد عبدالحق بن عطية . فأبدع كل واحد وأجمل . واحتفل وأكمل . فأما ابن العربى فصنف كتاب «أنوار الفجر» فى غاية الاحتفال والجمع لعلوم القرآن : فلما تلف تلافاه بكتاب «قانون التأويل» إلا أنه اخترمته المنية قبل تخليصه وتلخيصه . وألف فى سائر علوم القرآن تآليفا مفيدة وأما ابن عطية فكتابه فى التفسير أحسن التآليف وأعدلها ؛ فإنه اطلع على تآليف من كان قبله فهذبها ولخصها . وهو مع ذلك حسن العبارة ، مسدد النظر ، محافظ على السنة . ثم ختم علم القرآن بالأندلس وسائر المغرب بشيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير . فلقد قطع عمره فى خدمة القرآن وآتاه الله بسطة فى علمه . وقوة فى فهمه . وله فيه تحقيق . ونظر

دقيق . ومما بأيدينا من تآليف أهل المشرق تفسير ابن القاسم الزمخشرى فمسدد النظر بارع فى الإعراب متقن فى علم البيان . إلا أنه ملأ كتابه من مذهب المعتزلة وشرهم . وحمل آيات القرآن على طريقتهم . فتكدر صفوه . وتمرر حلوه . فخذ منه ماصفا ودع ما كدر . وأما القرنوى فكتابه مختصر . وفيه من التصوف نكت بديعة . وأما ابن الخطيب فتضمن كتابه ما فى كتاب الزمخشرى وزاد عليه إشباعاً فى قواعد علم الكلام . ونمقه بترتيب المسائل . وتدقيق النظر فى بعض المواضع . وهو على الجملة كتاب كبير الجرم . ربما يحتاج إلى تلخيص ، والله ينفع الجميع بخدمة كتابه . ويجزيهم أفضل ثوابه»[١] .

قال الفيض الكاشانى (ره) في نبذ مما جاء في أن علم القرآن كله إنما هو عند أهل البيت عليهم السلام :

روى في الكافي بإسناده عن سليم بن قيس الهلالي قال : سمعت أميرالمؤمنين يقول، وساق الحديث إلى أن قال : « ما نزلت آية على رسول الله صلى الله عليه وآله إلا أقرأنيها وأملاها عليّ فكتبتها بخطي، وعلمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها، ودعا الله لي أن يعلمني فهمها وحفظها ، فما نسيت آية من كتاب الله ولا علماً أملاه عليّ فكتبته منذ دعا لي بما دعا ، وما ترك شيئاً علمه الله من حلال ولا حرام ولا أمر ولانهي كان او يكون ، ولا كتاب منزل على أحد قبله من طاعة أو معصية إلا علمنيه وحفظته فلم أنس منه حرفاً واحداً ، ثم وضع يده على صدري ودعا الله أن يملأ قلبي علماً وفهماً وحكمة ونوراً . فقلت : يا رسول الله بأبي انت وأمي مذ دعوت الله لي بما دعوت لم أنس شيئاً ولم يفتني شيء لم أكتبه أو تتخوف عليّ النسيان فيما بعد » . فقال : « لست أتخوف عليك نسياناً ولا جهلا » .

ورواه العياشي في تفسيره والصدوق في إكمال الدين بتفاوت يسير في ألفاظه . وزيد في آخره :

« وقد أخبرني ربي أنه قد استجاب لي فيك وفي شركائك الذين يكونون من بعدك » فقلت : « يا رسول الله ومن شركائي من بعدي ؟ » قال : « الذين قرنهم الله بنفسه وبي » ،

---

١. التسهيل ج ١ ص ٩ ـ ١٠.

فقال : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾[١] فقلت : « ومن هـم ؟»، قـال : «الأوصياء مني إلى أن يردوا عليّ الحوض كلهم هادين مهديين لا يضرهم مـن خـذلهم ، هم مع القرآن والقرآن معهم لا يفارقهم ولا يفارقونه، بهم تنصر أمتي وبهم تـمطر وبـهم يدفع عنهم البلاء وبهم يستجاب دعاؤهم » فقلت : « يا رسول اللّـه سـمهم لي » . فـقال : « إبني هذا ووضع يده على رأس الحسن ، ثم إبني هذا ووضع يده على رأس الحسين، ثم ابن له يقال له : علي وسيولد في حياتك فاقرأه مني السلام » ، ثم تكملة إثني عشر من ولد محمد ﷺ ، فقلت له : « بأبي انت وامي فسمهم لي فسماهم رجلاً رجلاً، فقال : «فيهم والله يا أخا بني هلال مهدي أمة محمد الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، والله إني لأعرف من يبايعه بين الركن والمقام واعرف اسماء آبائهم وقبائلهم » .

وفي الكافي بإسناده عن أبي جعفر ﷺ قـال : « مـا ادعـى أحـد مـن الـناس أنـه جـمع القرآن كله كما انزل الا كذاب ، وما جمعه وحفظه كما أنزل اللّـه إلا عـلي بـن أبـي طـالب والأئمة من بعده ﷺ .

وبإسناده عن أبي جعفر ﷺ أنـه قـال : « مـا يـستطيع أحـد أن يـدعي أن عـنده جـميع القرآن كله ظاهره وباطنه غير الأوصياء » .

وبإسناده عن أبي عبدالله ﷺ في قوله تعالى : ﴿ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ﴾[٢]، قال : « هم الأئمة » .

وبإسناده عنه ﷺ قال : « قد ولدني رسول الله ﷺ وأنا أعلم كتاب اللّـه، تـعالى وفـيه بدء الخلق وما هو كائن إلى يوم القيامة ، وفيه خبر السماء وخبر الأرض وخبر الجنة والنار وخبر ما كان وما هو كائن ، أعلم ذلك كما أنظر إلى كفي ، إن الله تعالى يقول : (فيه تـبيان كل شيء) .

أقول : الولادة المشار إليها تشمل الولادة الجسمانية والروحانية ؛ فإن علمه يرجع إليه كما أن نسبه يرجع إليه فهو وارث علمه كما هو وارث ماله ، ولهذا قال : وأنا أعـلم كـتاب الله تعالى وفيه كذا وكذا يعني وأنا عالم بذلك كله .

---

١ . سورة النساء : الآية ٥٩ . ٢ . سورة العنكبوت : الآية ٤٩ .

وبإسناده عنه ﷺ قال: «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وفصل ما بينكم، ونحن نعلمه».

وبإسناده ﷺ قال: «نحن الراسخون في العلم ونحن نعلم تأويله».

وفي تفسير العياشي عن أبي عبدالله ﷺ قال: «انا أهل البيت لم يزل الله يبعث فينا من يعلم كتابه من أوله إلى آخره، وان عندنا من حلال الله وحرامه ما يسعنا كتمانه ما نستطيع أن نحدث به احداً».

وفي رواية: «إن من علم ما أوتينا تفسير القرآن وأحكامه، لو وجدنا أوعية أو مستراحاً لقلنا والله المستعان».

وفيه عنه ﷺ قال: «ان الله جعل ولايتنا أهل البيت قطب القرآن وقطب جميع الكتب، عليها يستدير محكم القرآن وبها نوهت الكتب ويستبين الايمان، وقد أمر رسول الله ﷺ أن تقتدي بالقرآن وآل محمد ﷺ».

وذلك حيث قال في آخر خطبة خطبها: «إني تارك فيكم الثقلين الثقل الأكبر والثقل الأصغر، فاما الأكبر فكتاب ربي وأما الأصغر فعترتي أهل بيتي، فاحفظوني فيهما فلن تضلوا ما تمسكتم بهما».

وفي الكافي بإسناده عن زيد الشحام قال: دخل قتادة بن دعامة على أبي جعفر ﷺ فقال: «يا قتادة انت فقيه اهل البصرة؟» فقال: هكذا يزعمون، فقال ابو جعفر: «بلغني أنك تفسر القرآن؟» قال له قتادة: نعم. فقال أبو جعفر ﷺ: «بعلم تفسره أم بجهل؟». قال: لا بل بعلم. فقال له أبو جعفر ﷺ: «فإن كنت تفسره بعلم فأنت انت وأنا أسألك؟». قال قتادة: سل. قال: «أخبرني عن قوله الله تعالى: ﴿ **وقدّرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين** ﴾»[1]. فقال قتادة: ذلك من خرج من بيته بزاد وراحلة وكرى حلال يريد هذا البيت كان آمناً حتى يرجع إلى أهله، فقال أبو جعفر ﷺ: «نشدتك بالله يا قتادة هل تعلم أنه قد يخرج الرجل من بيته بزاد وراحلة وكرى حلال يريد هذا البيت فيقطع عليه الطريق فتذهب نفقته ويضرب مع ذلك ضربة فيها اجتياحه؟» قال قتادة: اللهم نعم.

١. سورة سبأ: الآية ١٨.

فقال أبو جعفر عليه السلام : « ويحك يا قتادة إن كنت إنما فسرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلكت ، وإن كنت أخذته من الرجال فقد هلكت وأهلكت ، ويحك يا قتادة ذلك من خرج من بيته بزاد وراحلة وكرى حلال يؤم هذا البيت عارفاً بحقنا يهوانا قلبه كما قال الله تعالى : ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ﴾[1] ولم يعنِ البيت[2] فيقول إليه ، فنحن والله دعوة إبراهيم عليه السلام التي من هوانا قلبه قبلت حجته وإلا فلا ، يا قتادة فإذا كان كذلك كان آمناً من عذاب جهنم يوم القيامة » قال قتادة : لا جرم والله لا فسرتها إلا هكذا . فقال أبو جعفر عليه السلام : « ويحك يا قتادة إنما يعرف القرآن من خوطب به ».

أقول : هكذا وجدنا هذا الحديث في نسخ الكافي ويشبه أن يكون قد سقط منه شيء، وذلك لأن ما ذكره قتادة لا تعلق له بقوله تعالى : ﴿ سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين﴾[3]، لأنه ما ذكر فيه اين هي من الأرض وإنما يتعلق بقوله : ﴿ومن دخله كان آمناً﴾[4] . وكذلك ما قاله الإمام علي ، وفيما ورد عن الصادق عليه السلام من سؤال تفسير الآيتين عن أبي حنيفة دلالة ايضاً على ما ذكرناه من السقوط ، وهو ما رواه في علل الشرائع بإسناده عنه عليه السلام أنه قال لأبي حنيفة: « انت فقيه أهل العراق ؟ » فقال : نعم . قال : « فيم تفتيهم ؟ » قال : بكتاب الله تعالى وسنة نبيه . قال : « يا أبا حنيفة تعرف كتاب الله حق معرفته وتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ » فقال : نعم . فقال : « يا أبا حنيفة لقد ادعيت علماً ويلك ما جعل الله ذلك الا عند أهل الكتاب الذي أنزله عليهم ، ويلك وما هو الا عند الخاص من ذرية نبينا وما أراك تعرف من كتابه حرفاً ، فإن كنت كما تقول ولست كما تقول فأخبرني عن قوله الله تعالى : ﴿ سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين ﴾ أين ذلك من الأرض؟ » . قال : أحسبه ما بين مكة والمدينة فالتفت أبو عبدالله عليه السلام إلى أصحابه فقال : « تعلمون أن الناس يقطع عليهم ما بين المدينة ومكة فتؤخذ أموالهم ولا يؤمنون على أنفسهم ويقتلون » . قالوا : نعم . فسكت أبو حنيفة ؟، فقال : « يا أبا حنيفة أخبرني عن

---

١. سورة إبراهيم : الآية ٣٧.

٢. أي لم يعنِ البيت فيقول مكانَ تهوى إليهم ، تهوى إليه بل عنى إياهم . فقال : تهوى إليهم : أي أهل البيت عليهم السلام «منه قده».

٣. سورة سبأ : الآية ١٨.

٤. سورة آل عمران : الآية ٩٧.

قول اللّه عزوجل: ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ اين ذلك من الأرض ؟» قال: الكعبة. قال: «أفتعلم أن الحجاج بن يوسف حين وضع المنجنيق على ابن الزبير في الكعبة فقتله كان آمناً فيها». فسكت. ويأتي تفسير الآيتين في محلهما إنشاء اللّه»[1].

قال البحراني (ره): «١ـ وعنه ـ محمد بن الحسن الصفار ـ عن احمد بن محمد عن ابن سنان عن مرازم وموسى بن بكر، قال: سمعت ابا عبداللّه عليه السلام يقول: «انا اهل بيت لم ينبعث منا الا من يعلم كتابه من اوله الى آخره».

٢ـ وعنه عن محمد بن عيسى عن ابى عبداللّه عن عبد الاعلى مولى آل سام، قال: سمعت ابا عبداللّه عليه السلام يقول: «واللّه انى لأعلم كتاب اللّه من اوله الى آخره كانه فى كفي، فيه خبر السماء وخبر الارض وخبر ماكان وخبر ما هو كائن، قال اللّه: «فيه تبيان كل شيء».

٣ـ وعنه عن الهيثم بن النهدى عن العباس بن عامر، قال: حدثنا عمرو بن مصعب عن ابي عبداللّه عليه السلام قال: سمعته يقول: «ان من علم ما اوتينا تفسير القرآن وأحكامه، وعلم تغيير الزمان وحدثانه، واذا أراد اللّه بقوم خيراً اسمعهم ولو اسمع من لم يسمع لولى معرضاً كأن لم يسمع، ثم أمسك هنيئة»، ثم قال: «لو وجدنا وعاء ومستراحاً لقلنا، واللّه المستعان».

٤ـ وعنه عن أحمد بن محمد عن البرقى عن المرزبان بن عمران عن اسحق بن عمار قال: سمعت ابا عبداللّه عليه السلام يقول: «إن للقران تأويلا فمنه ما قد جاء ومنه مالم يجيء، فاذا وقع التأويل فى زمان امام من الائمة عرفه امام ذلك الزمان».

٥ـ وعنه عن احمد بن محمد عن الحسين بن سعيد عن حماد بن عيسى عن ابراهيم بن عمر عنه، قال: فى القرآن ما مضى وما يحدث وما هو كائن، وكانت فيه اسماء رجال فألقيت وإنما الإسم الواحد فى وجوه لاتحصى، يعرف ذلك الوصاة.

٦ـ وعنه، عن أحمد بن محمد عن على بن الحكم عن هشام بن سالم عن محمد بن مسلم، قال: دخلت عليه بعد ما قتل ابو الخطاب فذكرت ماكان يروى من احاديث تلك

---

١. الصافى ج ١ ص ٢٩ـ٢٣.

العظام قبل ان يحدث ما احدث ، فقال فحسبك والله ـ يا ابا محمد ـ أن تقول فينا يعلمون [الحلال والحرام وعلم القرآن ، وفصل ما بين الناس» فلمّا اردت ان اقوم ، اخذ بثوبي فقال : «يا ابا محمّد وأيّ شيء الحلال و الحرام في جنب العلم؟ إنّما] الحلال والحرام في يسير من القرآن .

٧ ـ وعنه ، عن الفضل عن موسى بن القاسم عن ابن ابى عمير او غيره عن جميل بن دراج عن زرارة عن ابى جعفر عليه السلام قال : « تفسير القرآن على سبعة أوجه ، منه ما كان ومنه ما لم يكن بعد ذلك يعرفه الائمة » .

٨ ـ وعنه عن احمد بن الحسين عن ابيه عن بكر بن صالح عن عبدالله بن ابراهيم بن عبدالعزيز بن محمد بن على بن عبدالله بن جعفر الجعفرى ، قال : حدثنا يعقوب بن جعفر قال : كنت مع ابى الحسن عليه السلام بمكة ، فقال له رجل : انك لتفسر من كتاب الله ما لم يسمع ؟ فقال : « علينا نزل قبل الناس ولنا فسر قبل ان يفسر فى الناس ، فنحن نعلم حلاله وحرامه وناسخه ومنسوخه وسفريه وحضريه ، وفى اى ليلة نزلت من آية وفيمن نزلت، فنحن حكماء الله فى ارضه وشهداؤه على خلقه ، وهو قوله تبارك وتعالى : ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُم وَيُسْئَلونَ ﴾[1] فالشهادة لنا والمسألة للمشهود عليه ، فهذا قد انهيته » .

٩ ـ سعد بن عبدالله عن احمد بن محمد بن عيسى عن محمد بن سنان ، عن مرازم بن حكيم وموسى بن بكر ، قالا : سمعنا ابا عبدالله عليه السلام يقول : « إنا أهل بيت لم يزل الله يبعث منا من يعلم كتابه من اوله الى آخره ، وان عندنا من حلاله وحرامه ما يسعنا كتمانه ما نستطيع ان نحدث به احداً » .

١٠ ـ وعنه عن احمد بن محمد بن عيسى عن عبدالرحمن بن حماد الكوفى عن الحسين بن علوان وعمر بن مصعب عن ابي عبدالله عليه السلام قال : « انى امرؤ من قريش ولدنى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وعلمت كتاب الله وفيه تبيان كل شيء وفيه بدء الخلق وامر السماء وامر الارض وامر الاولين وامر الآخرين وما يكون ، كأني انظر ذلك نصب عينى » .

١١ ـ العياشى عن الاصبغ بن نباتة قال : قدم اميرالمؤمنين عليه السلام الكوفة ، صلى بهم

---

١. سورة الزّخرف : الآية ١٩.

اربعين صباحاً يقرأ بهم سبح اسم ربك الاعلى، قال: فقال المنافقون: لا والله ما يحسن ابن ابى طالب ان يقرأ القرآن ولو احسن ان يقرأ القرآن لقرأ بنا غير هذه السورة، قال: فبلغه ذلك، فقال: «ويل لهم انى لأعرف ناسخه من منسوخه ومحكمه من متشابهه وفصله من فصاله وحروفه من معانيه، والله ما من حرف نزل على محمد ﷺ الا انى اعرف فيمن نزل وفى اى يوم وفى اى موضع، ويل لهم اما يقرأون ﴿ **إن هذا لفى الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى** ﴾ والله عندى ورثتهما من رسول الله ﷺ وقد انهى لى رسول الله ﷺ من ابراهيم وموسى، ويل لهم والله انا الذى انزل الله فىّ: ﴿**وتعيها اذن واعية**﴾، فانما كنا عند رسول الله ﷺ فيخبرنا بالوحى فاعيه انا ومن يعيه، فاذا خرجنا قالوا: ماذا قال آنفاً؟».

١٢ ـ عن سليم بن قيس الهلالى قال: سمعت اميرالمؤمنين عليه السلام يقول: «مانزلت آية على رسول الله ﷺ الا اقرأنيها[١] ...».

١٣ ـ عن سلمة بن كهيل، عمن حدثه، عن علي عليه السلام قال: «لو استقامت لى الامرة وكسرت اوثنيت لى الوسادة، لحكمت لاهل التوراة بما انزل الله فى التوراة حتى تذهب الى الله انى قد حكمت بما انزل الله فيها، ولحكمت لاهل الانجيل بما انزل الله فى الانجيل حتى تذهب الى الله انى قد حكمت بما انزل الله فيها، ولحكمت فى اهل القرآن بما انزل فى القرآن حتى يذهب الى الله انى قد حكمت بما انزل الله فيه».

١٤ ـ عن ايوب بن حر، عن ابي عبدالله عليه السلام قال: قلت له: الائمة بعضهم اعلم من بعض؟ قال: «نعم وعلمهم بالحلال والحرام وتفسير القرآن واحد».

١٥ ـ عن حفص بن قرط الجهنى، عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال سمعته يقول: «كان علي عليه السلام صاحب حلال وحرام وعلم بالقرآن ونحن على منهاجه».

١٦ ـ عن السكونى، عن جعفر، عن ابيه، عن جده، عن ابيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ان فيكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله وهو علي بن ابيطالب عليه السلام».

١٧ ـ عن بشير الدهان قال: سمعت ابا عبدالله عليه السلام يقول: «ان الله فرض طاعتنا فى

---

١. تقدم فى ص ٤٣٦ من الكتاب الحاضر.

كتابه فلا يسع الناس جهلا ، لنا صفو المال ، ولنا الانفال ولنا كرايم القرآن ، ولا اقول لكم: انا صاحب الغيب ، ونعلم كتاب الله وكتاب الله يحتمل كل شيء ان الله أعلمنا علماً لا يعلمه احد غيره ، وعلماً قد اعلمه ملائكته ورسله ، فما علمته ملائكته ورسله ، فنحن نعلمه».

١٨ ـ عن مرازم قال : سمعت ابا عبدالله عليه السلام يقول : «انا اهل بيت لم يزل الله يبعث فينا من يعلم كتابه من أوله الى آخره ، وان عندنا من حلال الله وحرامه ما يسعنا من كتمانه ما نستطيع ان نحدث به احداً».

١٩ ـ عن الحكم بن عيينة ، قال : قال ابو عبدالله عليه السلام لرجل من اهل الكوفة ، وسأله عن شيء قال : «لو لقيتك بالمدينة لاريتك اثر جبرئيل في دورنا ونزوله على جدي بالوحي والقرآن والعلم ، فيستسقى الناس العلم من عندنا فيهدون هم ، وظللنا نحن ؟! هذا محال».

٢٠ ـ عن يوسف بن السخت البصري ، قال : يقول : رأيت التوقيع بخط محمد بن محمد بن الحسن بن علي فكان فيه «الذي يجب عليكم ولكم ان تقولوا: إنا قدوة الله ، وأئمته خلفاء الله في ارضه ، وامناؤه على خلقه ، وحججه في بلاده ، نعرف الحلال والحرام ونعرف تأويل الكتاب وفصل الخطاب».

٢١ ـ عن ثوير بن ابي فاختة ، عن ابيه قال : قال علي عليه السلام : «ما بين اللوحين شيء الا وانا اعلمه».

٢٢ ـ عن سليمان بن الاعمش ، عن ابيه قال : قال علي عليه السلام : «ما نزلت آية الا وانا علمت فيمن انزلت واين انزلت وعلى من نزلت ، ان ربي وهب لي قلباً عقولا ولساناً ناطقاً».

٢٣ ـ عن ابي الصباح قال : قال ابو عبدالله عليه السلام : «ان الله علم نبيه صلى الله عليه وآله التنزيل والتأويل فعلمه رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام».

٢٤ ـ سعد بن عبدالله ، عن احمد بن محمد بن عيسى ، عن الحسان بن سعيد ومحمد بن خالد البرقي ، عن النضر بن سويد ، عن يحيى بن عمران الحلبي ، عن ايوب

بن الحر عن ابي عبدالله ﷺ ، او عمن رواه عن ابي عبدالله قال : قلنا له : الائـمة بـعضهم اعلم من بعض ؟ فقال : « نعم وعلمهم بالحلال والحرام وتفسير القرآن واحد» [١].

قال صديق حسن خان : وقد تصدى لتفسير عويصاته أساطين الأمة ، وتـولى لتيسير معضلاته سلاطين الأئمة من الصحابة والتابعين ، وأئمة اللغة والنحويين ، ثلة من الأولين وأمة من الآخرين ، فغاصوا في بحار لججه ، وخاضوا في أنهار ثبجه ، فنظموا في سلك التقرير فرائده ، وأبرزوا في معرض التحرير فوائده ، وألفوا كتباً جليلة المقدار ، وصنفوا زبراً جميلة الآثار ، وفصلوا مجمله ، وبينوا معضله ، مع تحقيق للمقاصد وفق ما يرتاد ، وتنقيح للمعاقد فوق ما يعتاد .

فالمفسرون من الصحابة الخلفاء الأربعة وابن معسود وابن عباس وأُبـي بـن كـعب ، والرواية عن علي أكثر ، وعن الثلاثة في ندرة جداً ، والسبب فيه تـقدم وفـاتهم ،! وروي عن ابن مسعود أكثر مما روي عن علي ، ومات بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين .

وأما ابن عباس المتوفى سنة ثمان وستين بالطائف فهو ترجمان القـرآن وحـبر الأمـة ورئيس المفسرين ، دعا له النبي ﷺ فقال : «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» [٢]، وقد روى عنه في التفسير ما لا يحصى كثرة لكن أحسن الطرق عنه طريقة علي بن أبي طلحة الهاشمي المتوفى سنة ثلاث وأربعين ومائة ، واعتمد على هذه البخاري فـي صـحيحه ، وأوهى الطرق عنه طريق الكلبي أبي النصر محمد بن السائب ، فان انضم إليه رواية محمد بن مروان السدي الصغير فهي سلسلة الكذب ، وكذلك طريق مقاتل بن سليمان الأزدي، وطريق الضحاك عنه منقطعة فانه لم يلقه ، ومن جيد الطرق عنه طريق قـيس بـن مسـلم الكوفي عن عطاء بن السائب وطريق ابن اسحق صاحب السير .

وأما أُبي بن كعب المتوفى سنة عشرين على خلاف فيه ، فعنه نسخة كبيرة عن طريق أبي العالية ، وهذا إسناد صحيح ، ومن الصحابة مـن ورد عـنه اليسـير مـن التـفسير غـير هؤلاء منهم : أنس بن مالك المتوفى بالبصرة سنة إحدى وتسعين ، وأبو هريرة المـتوفى

---

١ البرهان في تفسير القرآن ج ١ ص ١٥ ـ ١٧.

٢ . المستدرك على الصحيحين برواية : اللهم علمه تأويل القرآن وفقهه فـي الديـن واجـعله مـن اهـل الايـمان ج ٣ ص ٥٣٦ .

بالمدينة سنة سبع وخمسين، وعبدالله بن عمر بن الخطاب المتوفى بمكة المكرمة سنة ثلاث وسبعين، وجابر بن عبدالله المتوفى بالمدينة سنة أربع وسبعين، وأبو موسى الأشعري المتوفى سنة أربع وأربعين، وابن عمرو بن العاص المتوفى سنة ثلاث وستين، وهو أحد العبادلة الذين استقر عليهم أمر العلم في آخر عهد الصحابة، وزيد بن ثابت الأنصاري كاتب النبي ﷺ المتوفى سنة خمس وأربعين.

وأما المفسرون من التابعين فمنهم أصحاب ابن عباس وهم علماء مكة المكرمة، ومنهم مجاهد بن جبر المتوفى سنة ثلاث ومائة واعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري، وسعيد بن جبير المتوفى سنة أربع وتسعين، وعكرمة مولى ابن عباس المتوفى بمكة سنة خمس ومائة، وطاووس بن كيسان اليماني المتوفى سنة ست ومائة، وعطاء بن أبي رباح المكي المتوفى سنة أربع عشرة ومائة.

ومنهم: أصحاب ابن مسعود وهم علماء الكوفة كعلقمة بن قيس المتوفى سنة اثنتين ومائة، والأسود بن يزيد المتوفى سنة خمس ومائة، ومنهم: أصحاب زيد بن أسلم كعبد الرحمن بن زيد ومالك بن أنس، ومنهم الحسن البصري المتوفى سنة إحدى وعشرين ومائة، وعطاء بن أبي سلمة ميسرة الخراساني، ومحمد بن كعب القرظي المتوفى سنة سبع عشرة ومائة، وأبو العالية رفيع بن مهران الرياحي المتوفى سنة تسعين، والضحاك بن مزاحم، وعطية بن سعيد العوفي المتوفى سنة إحدى عشرة ومائة، وقتادة بن دعامة السدوسي المتوفى سنة سبع عشرة ومائة، والربيع بن أنس والسدي.

ثم بعد هذه الطبقة الذين صنفوا كتب التفاسير التي تجمع أقوال الصحابة والتابعين كسفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح، وشعبة بن الحجاج، ويزيد بن هارون، وعبد الرزاق وآدم بن أبي إياس، وإسحق بن راهوية، وروح بن عبادة، وعبدالله بن حميد، وأبي بكر بن أبي شيبة، وآخرين.

ثم بعد هؤلاء طبقة أخرى منهم: عبدالرزاق وعلي بن أبي طلحة وابن جرير وابن أبي حاتم وابن ماجة والحاكم وابن مردويه وأبو الشيخ بن حيان وابن المنذر في آخرين.

ثم انتصبت طبقة بعدهم إلى تصنيف تفاسير مشحونة بالفوائد محذوفة الأسانيد مثل أبي إسحق الزجاج وأبي علي الفارسي ومكي بن أبي طالب وأبى العباس المهدوي، وأما أبو بكر النقاش وأبو جعفر النحاس فكثيراً ما استدرك الناس عليهما [١].

قال الجنابذي في ان علم القرآن بتمام مراتبه منحصر في محمد ﷺ واوصيائه الاثنى عشر وليس لغيرهم الا بقدر مقامه:

قد مضى ان بطون القرآن وحقائقه كثيرة متعددة وان بطنه الاعلى وحقيقته العليا هو محمدية محمد ﷺ وعلوية علي ﷺ وهو مقام المشية التى هى فوق الإمكان، وكل نبى ووصى كان لا يتجاوز مقامه الامكان سوى محمد ﷺ واوصيائه، ومن لم يبلغ الى مقام المشية لا يعلم مافيه ولا يبين من ذلك المقام شيئاً؛ لان المفسر لايتجاوز فى تفسيره حد نفسه، فكل من علم من القرآن شيئاً او فسر منه شيئاً وان بلغ ما بلغ من المقامات لايكون علمه وتفسيره بالنسبة الى علم القرآن الا كقطرة من بحر محيط؛ فان حقيقة القرآن التى هى حقيقة محمد ﷺ وعلي ﷺ هى مقام الاطلاق الذى لا نهاية له، والممكن وان كان اشرف الممكنات الذى هو العقل الكلي، يكون محدوداً ولا يتصور النسبة بين المحدود وغير المتناهى غير المحدود، فعلم كل عالم ومفسر للقرآن بالنسبة الى علم القرآن كقطرة الى البحار، ولما كان مقام محمد ﷺ وعلي ﷺ واولاده المعصومين ﷺ مقام المشية كان علم القرآن كله عندهم، وكان على ﷺ وهو مَن عنده علم الكتاب ـ كما فى الآية ـ باضافة العلم الى الكتاب المفيد للاستغراق، وكان آصف ﷺ هو الذى عنده علم من الكتاب، وكان ابراهيم ﷺ ابتلاه ربه بكلمات معدودة لابجملة الكلمات، مع انه كان اكمل الانبياء بعد نبينا ﷺ، وكان محمد ﷺ يؤمن بالله وكلماته جميعاً، كما فى قوله تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسوله النبى الامى الذى يؤمن بالله وكلماته﴾[٢]: فان الكلمات جمع مضاف مفيد للاستغراق وليس المراد به الايمان الاجمالى والا لشاركه غيره فيه، بل الايمان التفصيلى، والايمان التفصيلى لايكون الا بادراك المؤمن به

---

١. فتح البيان ج ١ ص ١٢ ـ ١٤.
٢. سورة الأعراف: الآية ١٥٨.

شهوداً وعياناً»[١].

قال القاسمى : قال اليمانى : «أما مراتب المفسرين: فخيرهم الصحابة رضى الله عنهم، لما ثبت من الثناء عليهم فى الكتاب والسنة، ولأن القرآن أنزل على لغتهم، فالغلط أبعد عنهم من غيرهم، ولأنهم سألوا رسول الله ﷺ عما أشكل عليهم، وأكثرهم تفسيراً حبر الأمة وبحرها عبدالله بن عباس رضى الله عنهما، وقد جمع عنه تفسير كامل، ولم يتفق مثل ذلك لغيره من الصدر الأول الذين عليهم فى مثل ذلك المعول، ومتى صح الإسناد إليه كان تفسيره من أصح التفاسير، مقدماً على كثير الأئمة الجماهير، وذلك لوجوه:

أولها: أن رسول الله ﷺ دعا له بالفقه فى الدين، وتعلم التأويل أى التفسير، وصح ذلك واشتهر عن رسول الله ﷺ، وله طرق فى مجمع الزوائد. وقال الحافظ أبو مسعود فى أطرافه: إنه مما أخرجه البخارى ومسلم بكماله. وفيهما من غير طريق أبى مسعود عند سائر الرواة «اللهم علمه الكتاب والحكمة»[٢]، وفى رواية «اللهم فقهه فى الدين». وفى رواية الترمذى: أنه رأى جبريل ﷺ مرتين، ودعا له النبى ﷺ بالحكمة مرتين. وينبغى معرفة سائر مناقبه مع ذلك فى مواضعها، ولو لا خوف الإطالة لذكرتها.

وثانيها: أن الصحابة اتفقوا على تعظيمه فى العلم عموماً، وفى التفسير خصوصاً، وسموه البحر والحبر، وشاع ذلك فيهم من غير نكير، وظهرت إجابة الدعوة النبوية فيه، وقصة عمر معه، رضى الله عنهما، مشهورة، فى سبب تقديمه وتفضيله على من هو أكبر منه من الصحابة، وامتحانه فى ذلك[٣].

وثالثها: كونه من أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة.

---

١. بيان السعادة ج ١ ص ١٦. ٢. انظر الحاشية رقم ١ ص ٨.

٣. صحيح البخارى فى: ٦٥ ـ كتاب التفسير، ١١٠ ـ سورة (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ). ٤ ـ باب (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا).

عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد فى نفسه فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم. فدعاه ذات يوم فأدخله معهم. فما رؤيت أنه دعانى يومئذ إلا ليريهم. قال: ما تقولون فى قول الله تعالى: إذا جاء نصر الله والفتح؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً. فقال لى: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له. قال: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)، وذلك علامة أجلك. (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا). فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول.

ورابعها : أنه ثبت عنه أنه كان لا يستحل التأويل بالرأى . روى عنه أنه قال : من قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار . وفى رواية «بغير علم» رواه أبو داود فى العلم ، والنسائى فى فضائل القرآن . والترمذى فى التفسير [1] ، وقال: حديث حسن ، وشرطه فيما قال فيه «حسن » أن يأتى من غير طريق .

والخامس : أن الطرق إليه محفوظة غير منقطعة ، فصح منها تفسيرٌ نافعٌ، ممتعٌ . ولذلك خصصته بالذكر ، وإن كان غيره أكبر منه ، وأقدم وأعلم وأفضل، مثل على بن أبى طالب ﷺ ، من جنسه وأهله ، وغيره من أكابر الصحابة رضى اللّٰه عنهم . لكن ثبوت التفسير عنهم قليل ، بالنظر إليه ، رضى اللّٰه عنهم أجمعين .

ثم المرتبة الثانية من المفسرين «التابعون» ومن أشهر ثقاتهم المصنفين فى التفسير : مجاهد وعطاء وقتادة والحسن البصرى وأبو العالية رفيع بن مهران ومحمد بن كعب القرظى وزيد بن أسلم . ويلحق بهؤلاء عكرمة ، ثم مقاتل بن حيان ومحمد بن زيد ، ثم على بن أبى طلحة ، ثم السدى الكبير . وتتمة هذا فى الإيثار وفى الإتقان .

قال ابن تيمية : «أعلم الناس بالتفسير أهل مكة...» [2] [3] .

قال المراغى في « طبقات المفسرين » .

١ ـ التفسير فى عصر الصحابة :

طفق المسلمون بعد وفاة الرسول ﷺ يتدارسون القرآن ، ويتفهمون معناه بطريق الرواية عن صحبه الذين كانوا يجلسون فى حضرته كثيرا .

وقد اشتهر بالتفسير عشرة من الصحابة : الخلفاء الراشدون الأربعة أبوبكر وعمر وعثمان وعليّ ، ثم عبدالله بن مسعود ، وابن عباس ، وأبيٌّ بن كعب ، وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعرى ، وعبدالله بن الزبير .

وأكثر من روى عنه التفسير من الخلفاء على بن أبي طالب ، والرواية عن الثلاثة الباقين نادرة ، وروى عن ابن مسعود المتوفى بالمدينة سنة ٣٢ هـ أكثر مما روى عن عليّ

١. انظر الحاشية رقم ٥ ص ٩.
٢. تقدم فى ص ٤٣٠ من الكتاب الحاضر .
٣. محاسن التأويل ج ١ ص ١٤ ـ ١٧ .

رضى الله عنه.

أما عبدالله بن عباس المتوفى بالطائف سنة ٦٨ هـ فهو ترجمان القرآن، وحبر الأمة، وشيخ المفسرين، فقد روى عنه في التفسير ما لا يحصى كثرة، دعا له النبي ﷺ فقال: اللهمّ فقهه في الدين وعلّمه التأويل.

قال صاحب كشف الظنون ما نصه:

وأصح الطرق في الرواية عنه:

١ ـ طريق عليّ بن أبي طلحة الهاشمي المتوفى سنة ١٤٣ هـ، وعليها اعتمد البخاري في صحيحه.

٢ ـ طريق قيس بن مسلم الكوفي المتوفى سنة ١٢٠ هـ عن عطاء بن السائب.

٣ ـ طريق ابن إسحاق صاحب السيرة.

٤ ـ طريق أبي النصر محمدبن السائب الكلبي المتوفى سنة ١٤٦ هـ وهي أوهى الطرق، ولا سيما إذا وافقتها طريق محمد بن مروان السدي الصغير المتوفى سنة ١٨٦ هـ.

وقد طبع تفسير ينسب إلى ابن عباس برواية الفيروزآبادي صاحب القاموس، سماه (تنوير المقباس من تفسير ابن عباس).

وروى عن أُبي بن كعب المتوفى سنة ٢٠ هـ تفسير كبير رواه عنه أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية، وهو أحد الأربعة الذين جمعوا القرآن في عهد النبي ﷺ، وكان أقرأ الصحابة وسيد القراء.

وزيد بن ثابت الأنصاري المتوفى سنة ٤٥ هـ أحد كتاب الوحي، وهو الذي جمع المصحف أولا في عهد أبي بكر، ثم كان رئيس الجماعة الذين كتبوا المصحف في عهد عثمان.

وأبو موسى الأشعري هو عبدالله بن قيس الأشعري المتوفى سنة ٤٤ هـ.

٢ ـ التفسير في عهد التابعين:

أعلم الناس بالتفسير في هذا العصر:

أ ـ علماء مكة أصحاب عبدالله بن عباس، وأشهرهم:

١ ـ مجاهد بن جبر المتوفى سنة ١٠٣ هـ، وقد قال: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة، واعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري.

٢ ـ سعيد بن جبير المتوفى سنة ٩٤ هـ.

٣ ـ عكرمة مولى ابن عباس المتوفى بمكة سنة ١٠٥ هـ.

٤ ـ طاوس بن كيسان اليماني المتوفى بمكة سنة ١٠٦ هـ.

٥ ـ عطاء بن أبي رباح المكي المتوفى سنة ١١٤ هـ.

قال سفيان الثوري: خذوا التفسير عن أربعة: عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك. وقال قتادة: كان أعلم التابعين أربعة، كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير، وكان عكرمة أعلمهم بالسير، وكان الحسن [1] أعلمهم بالحلال والحرام.

ب ـ علماء الكوفة أصحاب ابن مسعود، وأشهرهم:

١ ـ علقمة بن قيس المتوفى سنة ١٠٢ هـ.

٢ ـ الأسود بن يزيد المتوفى سنة ٧٥ هـ.

٣ ـ إبراهيم النخعي المتوفى سنة ٩٥ هـ.

٤ ـ الشعبي المتوفى سنة ١٠٥ هـ.

ج ـ علماء المدينة أصحاب زيد بن أسلم العدوي المدني المتوفى سنة ١٣٦ هـ، وله تفسير يعدّ من أمهات التفاسير، ومن أشهرهم:

١ ـ ابنه عبدالرحمن بن زيد المتوفى سنة ١٨٢ هـ.

٢ ـ مالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩ هـ.

٣ ـ الحسن البصري المتوفى سنة ١٢١ هـ.

٤ ـ عطاء بن أبي مسلم الخراساني المتوفى سنة ١٣٥ هـ.

٥ ـ محمد بن كعب القرظي المتوفى سنة ١١٧ هـ.

٦ ـ أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي المتوفى سنة ٩٠ هـ.

---

١. الحسن البصري.

٧ ـ الضحاك بن مزاحم المتوفى سنة ١٠٥ هـ.

٨ ـ عطية بن سعيد العوفى المتوفى سنة ١١١ هـ.

٩ ـ قتادة بن دعامة السدوسى المتوفى سنة ١١٧ هـ.

١٠ ـ الربيع بن أنس المتوفى سنة ١٣٩ هـ.

١١ ـ إسماعيل بن عبدالرحمن السدى الكبير المتوفى سنة ١٢٧ هـ.

٣ ـ طبقة ثالثة جمعت أقوال الصحابة والتابعين :

وأشهر هؤلاء :

١ ـ سفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨ هـ.

٢ ـ وكيع بن الجراح الكوفى المتوفى سنة ١٩٧ هـ.

٣ ـ شعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هـ.

٤ ـ يزيد بن هرون السُّلمى.

٥ ـ عبدالرزاق المتوفى سنة ٢١١ هـ.

٦ ـ آدم بن أبي إياس المتوفى سنة ٢٢١ هـ.

٧ ـ إسحاق بن راهويه الإمام الحافظ النيسابورى المتوفى سنة ٢٣٨ هـ.

٨ ـ روح بن عبادة المتوفى سنة ٢٠٥ هـ.

٩ ـ عبدالله بن حميد الجهنى.

١٠ ـ أبوبكر بن أبى شيبة الإمام الحافظ الكوفى المتوفى سنة ٢٣٥ هـ.

٤ ـ الطبقة الرابعة طبقة ابن جرير :

تلت هؤلاء طبقة أخرى، منها :

١ ـ علىّ بن أبى طلحة المتوفى سنة ٣٤٣ هـ.

٢ ـ ابن أبى حاتم عبدالرحمن بن محمد الرازى المتوفى سنة ٣٢٧ هـ.

٣ ـ ابن ماجة الحافظ أبو عبدالله محمد القزوينى المتوفى سنة ٢٧٣ هـ.

٤ ـ ابن مردويه أبوبكر أحمد بن موسى الأصفهانى المتوفى سنة ٤١٠ هـ.

٥ ـ أبو الشيخ بن حبان البستى المتوفى سنة ٣٥٤ هـ.

٦ ـ إبراهيم بن المنذر المتوفى سنة ٢٣٦ هـ.

٧ ـ أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ، وهو من أشهر مفسرى هذا العصر. قال السيوطى فى الإتقان: وكتابه أجل التفاسير وأعظمها، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض وللإعراب، والاستنباط، فهو يفوق بذلك تفاسير الأقدمين اهـ. وقال النووى النيسابورى الشافعي في تهذيبه: كتاب ابن جرير فى التفسير لم يصنف أحد مثله، وقال أبو إسحاق الاسفرائينى: لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيرا، وروى أن ابن جرير قال لأصحابه: أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا كم يكون قدره؟ قال: ثلاثين ألف ورقة. قالوا هذا مما تفني الأعمار قبل تمامه، فاختصره فى نحو ثلاثة آلاف ورقة، ذكر ذلك السبكى فى طبقاته.

٥ ـ الطبقة الخامسة طبقة المفسرين بحذف الأسانيد:

ألّف بعد هؤلاء جماعة من المفسرين لهم تفاسير مشحونة بالفوائد محذوفة الأسانيد، من أشهرهم:

١ ـ أبو إسحاق الزجاج إبراهيم بن السريّ النحوى المتوفى سنة ٣١٠ هـ، وقد سمى تفسيره (معانى القرآن).

٢ ـ أبو على الفارسى الحجة الثبت فى اللغة والبلاغة، وصاحب المؤلفات الكثيرة فى مختلف الفنون، توفى سنة ٣٧٧ هـ.

٣ ـ أبو بكر محمد بن الحسن المعروف بالنقاش الموصلى المتوفى سنة ٣٦١ هـ.

٤ ـ أبو جعفر النحاس النحوى المصرى المتوفى سنة ٣٣٨ هـ.

٥ ـ مكى بن أبى طالب القيسى النحوى المغربى المتوفى سنة ٤٣٧ هـ.

٦ ـ أبو العباس أحمد بن عمار المهدوى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ، وله تفسير يسمى (التفصيل الجامع لعلوم التنزيل).

وقد دخل فى التفسير فى هذه الفترة الدخيل، إذ نقلت الأقوال بتراً محذوفة الأسانيد، فالتبس الصحيح بالعليل، وصار كل من سنح له قول يورده، ومن خطر بباله شيء

يعتمده، غير ملتفت إلى ما روى عن السلف الصالح في ذلك، ومن هم القدوة في هذا الباب»[١].

قال ابن عاشور: والتفسير أول العلوم الإسلامية ظهورا، إذ قد ظهر الخوض فيه في عصر النبي ﷺ، إذ كان بعض أصحابه قد سأل عن بعض معاني القرآن كما سأله عمر عن الكلالة، ثم اشتهر فيه بعد من الصحابة عليّ وابن عباس وهما أكثر الصحابة قولا في التفسير، وزيد بن ثابت وأُبي بن كعب، وعبدالله بن مسعود وعبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم، وكثر الخوض فيه، حين دخل في الإسلام من لم يكن عربي السجية، فلزم التصدي لبيان معاني القرآن لهم، وشاع عن التابعين وأشهرهم في ذلك مجاهد وابن جبير، وهو أيضا أشرف العلوم الإسلامية ورأسها على التحقيق.

وأما تصنيفه فأول من صنف فيه عبدالملك بن جريج المكي (المولود سنة ٨٠هـ والمتوفى سنة ١٤٩ هـ) صنف كتابه في تفسير آيات كثيرة، وجمع فيه آثارا وغيرها، وأكثر روايته عن أصحاب ابن عباس مثل: عطاء ومجاهد، وصنفت تفاسير ونسبت روايتها إلى ابن عباس، لكن أهل الأثر تكلموا فيها وهي تفسير محمد بن السائب الكلبي (المتوفى سنة ١٤٦ هـ) عن أبي صالح عن ابن عباس، وقد رمى أبو صالح بالكذب حتى لقب بكلمة «دروغدت»[٢] بالفارسية بمعني الكذاب[٣]، وهي أوهى الروايات فإذا انضم إليها رواية محمد بن مروان السدي عن الكلبي فهي سلسلة الكذب[٤]، أرادوا بذلك أنها ضد ما لقبوه بسلسلة الذهب، وهي مالك عن نافع عن ابن عمر. وقد قيل: إن الكلبي كان من أصحاب عبدالله بن سبأ اليهودي الأصل، الذي أسلم وطعن في الخلفاء الثلاثة وغلا في حب علي بن أبي طالب، وقال إن عليا لم يمت وأنه يرجع إلى الدنيا، وقد قيل: إنه ادعى إلهية علي.

وهنالك رواية مقاتل ورواية الضحاك، ورواية علي بن أبي طلحة الهاشمي كلها عن ابن عباس، وأصحها رواية علي بن أبي طلحة، وهي التي اعتمدها البخاري في كتاب

---

١. تفسير المراغي ج ١ ص ٦ ـ ١٠.
٢. والصحيح: دروغگو.
٣. تفسير القرطبي.
٤. الإتقان.

التفسير من صحيحه فيما يصدّر به من تفسير المفردات على طريقة التعليق ، وقد خرج في الإتقان ، جميع ما ذكره البخارى من تفسير المفردات ، عن ابن أبى طلحة عن ابن عباس مرتبة على سور القرآن. والحاصل أن الرواية عن ابن عباس ، قد اتخذها الوضّاعون والمدلسون ملجأ لتصحيح ما يروونه كدأب الناس فى نسبة كل أمر مجهول من الأخبار والنوادر ، لأشهر الناس فى ذلك المقصد .

وهنالك روايات تسند لعلي ﷺ، أكثرها من الموضوعات ، إلا ما روي بسند صحيح ، مثل ما فى صحيح البخارى ونحوه ، لأن لعلي أفهاما فى القرآن كما ورد فى صحيح البخارى ، عن أبى جحيفة قال : قلت لعلي : هل عندكم شيء من الوحى ليس فى كتاب الله ؟ فقال : « لا والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، ما أعلمه إلا فهماً يعطيه الله رجلا فى القرآن » .

ثم تلاحق العلماء فى تفسير القرآن ، وسلك كل فريق مسلكا يأوى إليه وذوقا يعتمد عليه .

فمنهم : من سلك مسلك نقل ما يؤثر عن السلف ، وأول من صنف فى هذا المعنى ، مالك بن أنس ، وكذلك الداودى تلميذ السيوطى فى طبقات المفسرين ، وذكره عياض فى المدارك إجمالا ، وأشهر أهل هذه الطريقة فيما هو بأيدى الناس محمد بن جرير الطبرى .

ومنهم : من سلك مسلك النظر كأبى إسحاق الزجاج وأبى على الفارسى ، وشغف كثير بنقل القصص عن الإسرائيليات ، فكثرت فى كتبهم الموضوعات ، الى أن جاء فى عصر واحد عالمان جليلان أحدهما بالمشرق ، وهو العلامة أبو القاسم محمود الزمخشرى ، صاحب الكشاف ، والآخر بالمغرب بالأندلس وهو الشيخ عبدالحق بن عطية، فألف تفسيره المسمى بـ «المحرر الوجيز» . كلاهما يغوص على معانى الآيات ، ويأتى بشواهدها من كلام العرب ويذكر كلام المفسرين إلا أن منحى البلاغة والعربية بالزمخشرى أخص ، ومنحى الشريعة على ابن عطية أغلب ، وكلاهما عضادتا الباب ،

ومرجع من بعدهما من أولى الألباب »[١].

قال الشيرازى : متى بدأ تفسير القرآن ؟.

«تفسير القرآن بالمعنى الحقيقي بدأ من عصر رسول اللّه ﷺ ، بل من بدء نزول الوحي ، لكنه بدأ بشكلٍ «علم مدوّن» من زمن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام كما تجمع على ذلك الروايات ، ورجال هذا العلم يصلون بسلسلة أسانيدهم إليه ، ولا عجب في ذلك فهو باب مدينة علم رسول اللّه ﷺ .

ومئات التفاسير كتبت على مر التاريخ الإسلامي ، بلغات مختلفة ، وبأساليب ومناهج متنوعة، منها الأدبي، والفلسفي، والأخلاقي ، والروائي ، والتاريخي ، والعلمي ، وكل واحد منها تناول القرآن من زاوية تخصّص صاحبه»[٢].

قال عبدالسلام فى أشهر مفسري القرآن من الصحابة :

«اشتهر من الصحابة بتفسير القرآن الكريم : الخلفاء الأربعة ـ عبداللّه بن مسعود ، أُبي بن كعب ، زيد بن ثابت ، الزبير بن العوام ، عبداللّه بن عباس .

علي بن أبي طالب :

ومعظم ما روي من التفسير عن الخلفاء الراشدين هو عن علي كرم اللّه وجهه ، وذلك لبعده عن مهام الخلافة إلى نهاية خلافة عثمان .

ثم إنه نشأ في بيت النبوة، وترعرع في كنف رسول اللّه ﷺ فنهل من علمه ، ثم زوجه ﷺ ابنته فاطمة الزهراء .

وقد دخل على تفسيره الشيء الكثير مما لم يقل به ولم يعلمه ، إنما نسبه إليه غلاة الشيعة . فإذا ما ثبت عنه قول صحيح النسبة إليه ـ كما يقول سعيد بن جبير . (.... لم نعدل إلى غيره) ، وقد قال علي عن نفسه وهو يخطب[٣] :

« سلوني ، فواللّه لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به ، وسلوني عن كتاب اللّه ، فواللّه ما من آية إلاّ وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أم في سهل أم في جبل ».

---

١. التحرير والتنوير ج ١ ص ١٤ ـ ١٥. ٢. الأمثل ج ١ ص ٨.
٣. أسد الغابة ج ٤ ص ٢٣.

وقال ـ فيما رواه ابن سعد ـ:

«والله ما نزلت آية إلاّ وقد علمت فيم نزلت، وأين نزلت، وعلام نزلت، إن ربي وهب لي قلباً عقولاً، ولساناً ناطقاً».

وقال أبو عبدالرحمن السلمي:

«ما رأيت ابن أنثى أقرأ لكتاب الله من علي».

عبدالله بن مسعود:

كان من أعلم الناس بالتفسير ـ يقول عن نفسه [١]:

والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته.

وقد زكّاه علي ـ كرم الله وجهه ـ وشهد له بسعة علمه وعلو كعبه في ذلك، فقد قالوا لعلي: أخبرنا عن ابن مسعود، قال:

«علم القرآن والسنة ثم انتهى، وكفى بذلك علماً».

روى البخاري عن مسروق قال: ذكر عبدالله بن مسعود عن عبدالله بن عمرو ـ يعني: ابن العاص، فقال: لا أزال أحبه بعدما سمعت النبي ﷺ يقول: «خذوا القرآن من أربعة: من عبدالله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأُبي بن كعب».

أُبي بن كعب: أحد المشهورين بحفظ القرآن، العالمين بقراءته، وأحد كتاب الوحي للرسول ﷺ.

قال فيه عمر بن الخطاب: «أُبي أقرؤنا». رواه البخاري.

قال له النبي ﷺ: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿ لم يكن الذين كفروا ...﴾» [٢].

قال: وسماني؟ قال «نعم» فبكى.

وفي رواية أخرى: قال ﷺ:

«إني أمرت أن أعرض عليك القرآن»، فقال أُبي: بالله آمنت، وعلى يدك أسلمت،

---

١. الإتقان ج ٢ ص ١٨٧، مقدمة في أصول التفسير /ابن تيمية ٢٥ـ٢٦.
٢. سورة البيّنة: الآية ١.

ومنك تعلمت، قال: فرد النبي ﷺ القول، فقال: يا رسول الله وذكرت هناك ؟ قال: « نعم، باسمك ونسبك في الملأ الأعلى »، قال: فاقرأ إذن يا رسول الله.

وفرح أُبي فرحة غامرة، صرح بها حين سئل، وفرحت بذلك ؟ فأجابه: وما يمنعني وهو يقول: ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾[١].

وقال ﷺ: «استقرئوا القرآن من أربعة: عبدالله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب»[٢].

يقول عبدالله بن عباس[٣]:

«كنت ألزم الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، فأسألهم عن مغازي رسول الله ﷺ وما نزل من القرآن في ذلك، وكنت لا آتي أحداً إلا سرّ بإتياني، لقربي من رسول الله ﷺ، فجعلت أسأل أُبي بن كعب يوماً عما نزل من القرآن بالمدينة فقال: نزل بها سبع وعشرون سورة، وسائرها بمكة».

زيد بن ثابت:

كان من كتاب الوحي، ذا بصيرة نافذة، وعقل واع، وبديهة حاضرة، ولذلك أمره ﷺ أن يتعلم السريانية والعبرانية حتى لا يزيدوا في رسائله ﷺ.

قال زيد: فتعلمت السريانية في خمسة عشر يوماً - والعبرانية في خمسة عشر يوماً[٤].

هو: أعلم الناس بالفرائض - قال النبي ﷺ لأصحابه: «أفرض أمتي زيد بن ثابت»[٥].

وقال سليمان بن يسار[٦]:

«ما كان عمر ولا عثمان يقدمان على زيد بن ثابت أحداً في القضاء، والفتوى، والفرائض، والقراءة».

---

١. سورة يونس: الآية ٥٨.
٢. طبقات القراء ج ٦ ص ٦٢٩، عمدة القاري ج ٢ ص ٢٤. باب القراء من أصحاب النبي ﷺ.
٣. طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٣٧١.
٤. وقيل: سبعة عشر يوماً، من خلاصة تاريخ التشريع. عبدالوهاب خلاف ٢٩٤.
٥. الاستيعاب ج ٢ ص ٢٣، صفة الصفوة ج ١ ص ٢٩٥.
٦. تاريخ الإسلام للذهبي ج ٢ ص ٢٢٥.

عبدالله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن:

هو أكثر الصحابة تفسيراً للقرآن، سماه ابن مسعود: ترجمان القرآن، وكان يقول: نعم ترجمان القرآن ابن عباس.

تردد ابن عباس كثيراً على بيت النبوة، إذ فيه خالته «ميمونة» زوج الرسول ﷺ. فكانت تؤنسه وتلاطفه، وكان ﷺ ينظر إليه نظرة إعجاب، وتوسم فيه الخير الكثير، ودعا له بقوله: «اللهم آته الحكمة».

ودعا له ﷺ قائلاً: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل».

ورآه جبريل عند الرسول ﷺ فأوصاه به وقال: إنه كائن حبر هذه الأمة فاستوص به خيراً، وقد نهل من مأدبة الرسول العلمية والخلقية، فهو الذي قال له ﷺ:

يا غلام: «إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»(١).

ولما توفي الرسول ﷺ واصل ابن عباس رحلة العلم، فتتلمذ على كبار الصحابة، فكان كثيراً ما يجلس على باب أحدهم وهو قائل - أي وقت القيلولة - فيتوسد رداءه - وتسفي عليه الريح التراب، حتى يخرج الصحابي فيراه فيقول له:

يا ابن عم رسول الله: ما جاء بك؟ ألا أرسلت إلي فآتيك؟

فيجيب حبر الأمة: لا، أنا أحق أن آتيك، ثم يسأله عما يحتاج إليه من العلم.

وفي خلافة عمر بن الخطاب ظهر نبوغه الشديد فكان عمر يدنيه من مجلسه، ويعده للمعضلات، وإذا أشكلت عليه قضية دعاه، فقال له: أنت لها ولأمثالها، ثم يأخذ بقوله، ولا يدعو لذلك أحداً(٢).

وأحب عمر فيه - مع علمه - جرأته رغم حداثة سنه. قال عمر يوماً لأصحاب النبي ﷺ: فيمن ترون نزلت هذه الآية: ﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل

---

١. رواه الإمام أحمد والترمذي.

٢. أسد الغابة ج ٣ ص ١٩٣.

وأعناب ...﴾[1] الآية ؟ قالوا : الله أعلم . فغضب عمر وقال : قولوا: نعلم أو لا نعلم .

وهنا برزت جرأة ابن عباس فقال بكل أدب وتوقير لأصحاب النبي ﷺ: في نفسي منها شيء . فقال عمر : يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك .

قال : ضربت مثلاً لعمل ، فقال عمر : أي عمل ؟ قال ابن عباس : رجل غني يعمل بطاعة الله ، ثم بعث له الشيطان ، فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله[2] .

قال عطاء : ما رأيت أكرم من مجلس ابن عباس : أصحاب الفقه عنده ، وأصحاب القرآن عنده ، وأصحاب الشعر عنده .

وقال عبيد الله بن عبدالله بن عتبة :كان ابن عباس قد فات الناس بخصال : بعلم ما سبقه ، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه ، وحلم ، ونسب ، وتأويل ، وما رأيت أحداً كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ منه ، ولا بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان منه ، ولا أفقه في رأي ، ولا أثقب رأياً فيما احتيج إليه منه . ولقد كان يجلس يوماً ولا يذكر فيه إلا الفقه ، ويوماً التأويل ، ويوماً المغازي ، ويوماً الشعر ، ويوماً أيام العرب ، ولا رأيت عالماً قط جلس إليه إلا خضع له ، وما رأيت سائلاً قط مسألة إلا وجد عنده علماً .

وقيل لطاووس :

لزمت هذا الغلام - يعني ابن عباس - وتركت الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ !!

قال : إني رأيت سبعين رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ إذا تدارأوا في أمر صاروا إلى قول ابن عباس .

قيمة تفسيره :

يقول علي - كرم الله وجهه - عن تفسيره : «كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق» .

وقال ابن عمر : ابن عباس أعلم أمة محمد بما نزل على محمد .

وقال تلميذه مجاهد عنه : إنه إذا فسر الشيء رأيت عليه النور .

قيمة التفسير المأثور عن الصحابة .

قال العلماء :

---

١ . سورة البقرة : الآية ٢٦٦ .

٢ . عمدة القاري ج ١٨ ص ١٢٩ .

ـ إن التفسير المأثور عن الصحابة له حكم المرفوع إذا كان مما يرجع إلى أسباب النزول وما ليس للصحابي فيه رأي .

ـ أما ما يكون للرأي فيه مجال فهو موقوف عليه ما دام لم يسنده إلى رسول ﷺ .

ـ وما حكم عليه بأنه من قبيل المرفوع لا يجوز رده اتفاقاً ، بل يأخذه المفسر ولا يعدل عنه إلى غيره بأية حال .

ـ وما حكم عليه بالوقف اختلف العلماء فيه :

قال بعضهم : لايجب الأخذ به ، لأن الصحابي مجتهد والمجتهد قد يخطىء وقد يصيب .

وقال بعضهم : يجب الأخذ به لظن سماعهم من الرسول ﷺ ، ولأنهم حتى مع تفسيرهم القرآن برأيهم فهم أصوب لدرايتهم بكتاب الله ، إذ هم أهل اللسان ، ولبركة صحبتهم للرسول ﷺ والتخلق بأخلاقه ﷺ ، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح ، ولا سيما علماؤهم الكبار كابن مسعود وابن عباس.

قال ابن كثير :

«... وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة ، فإنهم أدرى الناس بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح ...».

وقال الزركشي :

«اعلم أن القرآن قسمان : قسم ورد تفسيره بالنقل وقسم لم يرد .

والأول : إما أن يرد عن النبي ﷺ أو الصحابة ، أو رؤوس التابعين ، فالأول يبحث فيه عن صحة السند . والثاني ينظر في تفسير الصحابي ، فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان فلا شك في اعتماده ، أو مما شاهدوه من الأسباب والقرائن فلا شك فيه» .

مدارس التفسير

١ ـ مدرسة مكة :

كانت مدرسة التفسير في مكة على يدي عبدالله بن عباس ، فهو مؤسسها وأستاذها .

فكان يجلس لأصحابه من التابعين يفسر لهم كتاب الله تعالى ، ويوضح لهم ما خفي من معانيه ، وقد كانت هذه المدرسة أهم المدارس نظراً لـ :

ـ مركز مكة الروحي لدى المسلمين جميعاً .

ـ لأن أستاذها ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن .

يقول ابن تيمية : أعلم الناس بالتفسير أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد ، وعطاء بن أبي رباح . وعكرمة مولى ابن عباس ، وطاووس ، وسعيد بن جبير ، وأمثالهم .

وتتميز هذه المدرسة بنهج المنهج اللغوي في تفسير القرآن ، ولا عجب فأستاذها ابن عباس وهو من هو في حفظ الشعر العربي ، ومسائل نافع بن الأزرق وأجوبة ابن عباس عليها تدل على مدى تبحره في ذلك ..

٢ ـ مدرسة المدينة :

قامت هذه المدرسة على يدي أُبي بن كعب ، ولأن المدينة كانت دار الإسلام وقطب رحاه في حياة النبي ﷺ بعد الهجرة ، وكانت مقر الخلافة الراشدة ـ كانت لها مكانتها عند المسلمين ولا زالت ، ومن هنا كانت مركزاً علمياً مهماً ـ ومن أشهر من تتلمذ على يدي أُبي في هذه المدرسة : زيد بن أسلم ، أبو العالية ، محمد بن كعب القرظي ...

٣ ـ مدرسة العراق :

وقد قامت هذه المدرسة على يدي الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود ، فهو أستاذها الأول ، ذلك أن عمر بن الخطاب لما ولى عمار بن ياسر على الكوفة سير معه عبدالله بن مسعود معلماً ووزيراً .

ويمتاز أهل العراق بأنهم أهل الرأي . وهذه ظاهرة نجدها بكثرة في مسائل الخلاف . وأشهر رجال هذه المدرسة : علقمة بن قيس ، مسروق ، الأسود بن يزيد ، مرة الهمداني ، عامر الشعبي ، الحسن البصري ، قتادة.

وهؤلاء الذين تخرجوا في تلك المدارس هم مفسرو التابعين للقرآن الكريم [١] .

---

١ . مقدمة المحرر الوجيز ج ١ ص ١٣ ـ ١٨ .

قال المحققان في المفسرين من الصحابة :

قال الجلال السيوطي - رحمه الله - في الإتقان : «اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة : الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس وأُبي بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري وعبدالله بن الزبير ، أما الخلفاء فأكثر من روي عنه منهم علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - والرواية عن الثلاثة قليلة جداً وكأن السبب في ذلك تقدم وفاتهم» «والمكثرون من هؤلاء هم علي بن أبي طالب ، وعبدالله بن مسعود ، وأُبي بن كعب وعبدالله بن عباس وإليك كلمة موجزة عنهم :

علي بن أبي طالب [(١)] :

هو أبو الحسن علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب القرشي الهاشمي ابن عم رسول الله ﷺ ، وصهره على ابنته فاطمة ، وذريته ﷺ منهما ، أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم ، وهو أول هاشمي ولد من هاشميين ، ورابع الخلفاء الراشدين ، وأول خليفة من بني هاشم ، وهو أول من أسلم من الأحداث وصدق برسول الله ﷺ ، هاجر إلى المدينة وموقفه من الهجرة مشهور ، وقد أعطاه الرسول ﷺ اللواء في مواطن كثيرة ، وقال يوم خيبر : «لأُعطينّ الراية رجلاً يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» ، ثم أعطاها لعلي ﷺ ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، اجتمع فيه من الفضائل ما لم يحظ به غيره ، فمن ورع في الدين ، إلى زهد في الدنيا ، إلى قرابة وصهر برسول الله ﷺ ، إلى علم جمّ وفضل غزير .

مكانته من التفسير : جمع علي ﷺ إلى مهارته في القضاء والفتوى علمه بكتاب الله ، وفهمه لأسراره وخفي معانيه ، فكان أعلم الصحابة بمواقع التنزيل ومعرفة التأويل ، وقد روي عن ابن عباس أنه قال : «ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب» ، وأخرج أبو نعيم في الحيلة عن علي ﷺ أنه قال : «والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت ؟ وأين نزلت ؟ وإن ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً سؤولاً» .

وتوفي رحمه الله في رمضان سنة أربعين من الهجرة بيد الملعون عبدالرحمن بن ملجم .

---

١ . انظر ترجمته في التهذيب ج ٧ ص ٣٣٤ ، التقريب ج ٢ ص ٣٩ .

عبدالله بن مسعود [١] :

ترجمته : هو عبدالله بن مسعود بن غافل ، يصل نسبه إلى مضر ، ويكنى بأبي عبدالرحمن الهذلي ، وأمه أم عبد بنت عبدود من هذيل ، وكان ينسب إليها أحياناً فيقال ابن أم عبد ، كان ـ رحمه الله ـ خفيف اللحم قصيراً شديد الأدمة ، أسلم قديماً ، وهو أول من جهر بالقرآن بمكة وأسمعه قريشاً بعد رسول الله ﷺ ، أوذي في الله من أجل ذلك ، ولما أسلم عبدالله بن مسعود أخذه رسول الله ﷺ إليه فكان يخدمه في أكثر شؤونه ، وهو صاحب طهوره وسواكه ونعله يلبسه إياه إذا قام ، ويخلعه ويحمله في ذراعه إذا جلس ، ويمشي أمامه إذا سار ، ويستره إذا اغتسل ، ويوقظه إذا نام ، ويلج عليه داره بلا حجاب حتى لقد ظنه أبو موسى الأشعري ﷺ من أهل بيت رسول الله ﷺ ، وهاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، وصلى إلى القبلتين ، وشهد بدراً وأُحداً والخندق وبيعة الرضوان وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ ، وشهد اليرموك بعد وفاة رسول الله ﷺ، وهو الذي أجهز على أبي جهل يوم بدر ، وقد شهد له رسول الله ﷺ بالجنة وشهد له بالفضل وعلو المنزلة .

كان ابن مسعود من أحفظ الصحابة لكتاب الله ، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يسمع منه القرآن، وقد أخبر هو بنفسه عن ذلك فقال: قال لي رسول الله ﷺ: «إقرأ عليَّ سورة النساء» : قلت : أقرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال : «إني أحب أن أسمعه من غيري» ، فقرأت عليه حتى بلغت : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾[٢] : .. فاضت عيناه ﷺ ، وكان رسول الله ﷺ يقول : «من سره أن يقرأ القرآن رطباً كما أُنزل فليقرأ على قراءة ابن أم عبد» .

ولابن مسعود مكانة عالية في التفسير، وروى ابن جرير وغيره عن ابن مسعود ، أنه قال : «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن»، ومن هذا الأثر يتضح لنا مقدار حرص ابن مسعود على تفهم كتاب الله تعالى والوقوف على معانيه ، وعن مسروق قال : «قال عبدالله ـ يعني ابن مسعود ـ والذي لا إله

---

١ . أنظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٤٦١، طبقات ابن سعد ج ٣ ص ١٠٦ ، حلية الأولياء ج ١ ص ١٢٤ ، تاريخ بغداد ج ١ ص ١٤٧ ـ ١٥٠ .

٢ . سورة النساء : الآية ٤١ .

غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت ؟ وأين نزلت ؟ ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تتناوله المطايا لأتيته».

وتوفي ـ رحمه الله ـ بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين، ودفن بالبقيع ليلاً، وكان عمره يوم وفاته بضعاً وستين سنة.

أُبي بن كعب [١]:

هو: أُبي بن كعب بن قيس من بني النجار الأنصاري الخزرجي يكنى: أبا المنذر وأبا الطفيل، كان من السابقين إلى الإسلام من الأنصار، شهد العقبة وبدراً وما بعدهما، وهو أحد المشهورين بحفظ القرآن من الصحابة، وبإقرائه، وقد قال فيه عمر: «أُبي أقرؤنا» رواه البخاري.

ومن فضائله: أن النبي ﷺ قرأ عليه القرآن، روى البخاري في صحيحه بسنده عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال: النبي ﷺ لأُبي: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لم يكن الذين كفروا ...﴾ [٢] ... فبكى» وإنما قرأ عليه النبي ﷺ ليزداد علماً بالقراءة من النبي ﷺ. ويزداد تثبتاً فيها، وليكون عرض القرآن وأخذه عن شيخ مقرىء سنة متبعة وللتنبيه على فضيلة أُبي وتقدمه في حفظ القرآن:

مبلغه في العلم: فكان أُبي بن كعب سيد القراء، وأحد كتاب الوحي لرسول الله ﷺ.

فكان أُبي بن كعب من أعلم الصحابة بكتاب الله تعالى: ولعل من أهم عوامل معرفته بمعاني كتاب الله هو أنه كان حبراً من أحبار اليهود العارفين بأسرار الكتب القديمة وما ورد فيها، وكونه من كتاب الوحي لرسول الله ﷺ وهذا بالضرورة يجعله على مبلغ عظيم من العلم بأسباب النزول ومواضعه ومقدم القرآن ومؤخره وناسخه ومنسوخه.

وتوفي سنة ثلاثين من الهجرة.

عبدالله بن عباس [٣]:

هو عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي ابن

---

١. انظر السير ج ١ ص ٣٨٩، طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٢ / ٥٩، حلية الأولياء ج ١ ص ٢٥٠، أسد الغابة ج ١ ص ٦١.

٢. سورة البيّنة: الآية ١.

٣. أنظر ترجمته: سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٣٣، طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٣٦٥، تاريخ بغداد ج ١ ص ١٧٣، أسد الغابة ج ٣ ص ٢٩٠.

عم رسول الله ﷺ، وأمه لبابة الكبرى بنت الحارث بن حزن الهلالية، ولد والنبي - عليه الصلاة والسلام - وأهل بيته بالشعب بمكة فأتى به النبي - عليه الصلاة والسلام - فحنكه بريقه، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين، ولازم النبي - عليه الصلاة والسلام - في صغره لقرابته منه، ولأن خالته ميمونة كانت من أزواج رسول الله ﷺ، وتوفي رسول الله ﷺ وله من العمر ثلاث عشرة سنة، وقيل: خمس عشرة، فلازم كبار الصحابة وأخذ عنهم ما فاته من حديث رسول الله ﷺ.

كان ابن عباس يلقب بالحبر والبحر لكثرة علمه، وكان على درجة عظيمة من الاجتهاد والمعرفة بمعاني كتاب الله، ولذا انتهت إليه الرياسة في الفتوى والتفسير، وكان عمر ﷺ يجلسه في مجلسه مع كبار الصحابة ويدنيه منه، وكان يقول له: إنك لأصبح فتياننا وجهاً، وأحسنهم خلقاً وأفقههم في كتاب الله، وقال في شأنه: ذاكم فتى الكهول، إن له لساناً سؤولاً وقلباً عقولاً.

وقال فيه ابن مسعود ﷺ: «نعم ترجمان القرآن ابن عباس».

وتوفي بالطائف سنة ثمان وستين على أرجح الروايات وله من العمر سبعون سنة، وقال محمد بن الحنفية بعد أن سوى عليه التراب: مات والله اليوم حبر هذه الأمة.

المفسرون من التابعين وطبقاتهم

قد اشتهر بالتفسير من التابعين - رضي الله عنهم - كثيرون من أعيانهم مجاهد بن جبر وسعيد بن جبير وعكرمة وعطاء والحسن ومسروق وسعيد بن المسيب وأبو العالية والربيع بن أنس والضحاك بن مزاحم وغيرهم.

فنستطيع أن نعتبر المفسرين طبقات ثلاثاً: طبقة أهل مكة، وطبقة أهل المدينة، وطبقة أهل العراق.

أهل مكة[1]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «أعلم الناس بالتفسير أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس، كمجاهد وعطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس وسعيد بن جبير

١. مقدمة في أصول التفسير ٢٣، ٢٤.

وأمثالهم».

مجاهد [١] :

هو مجاهد بن جبر المكي المقرىء ، المفسر ، أبو الحجاج المخزومي مولى السائب بن أبي السائب . كان أحد الأعلام الأثبات ، ولد سنة ٢١ هـ في خلافة عمر بن الخطاب وكانت وفاته بمكة .

كان مجاهد ـ رحمه الله ـ أقل أصحاب ابن عباس رواية عنه في تفسير ، وكان أوثقهم ، لهذا اعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما ، ونجد البخاري ﷺ في كتاب التفسير من الجامع الصحيح ينقل لنا كثيراً من التفسير عن مجاهد ، وهذه أكبر شهادة من البخاري على ثقته وعدالته ، وقد روى الفضل بن ميمون أنه سمع مجاهداً يقول : عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة .

وقال قتادة : أعلم من بقي بالتفسير مجاهد .

وقال الذهبي في الميزان في آخر ترجمة مجاهد : أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به ، وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة .

وتوفي في خلافة عمر بن الخطاب بمكة وهو ساجد سنة أربع ومائة على الأشهر ، وعمره ثلاث وثمانون سنة .

سعيد بن جبير [٢] :

أبو محمد أو أبو عبدالله سعيد بن جبير بن هشام الأسدي الوالبي مولاهم ، كان حبشي الأصل ، وكان من تلاميذ ابن عباس المتخرجين في مدرسته ، وكان أول أمره كاتباً لعبد الله بن عتبة بن مسعود ، ثم لأبي بردة الأشعري ، ثم تفرغ للعلم حتى صار إماماً علماً .

قال سفيان الثوري : «خذوا التفسير عن أربعة : سعيد بن جبير ، ومجاهد بن جبر ،

---

١ . أنظر ترجمته في السير ج ٤ ص ٤٤٩ ، طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٤٦٦ ، البداية والنهاية ج ٩ ص ٢٢٤ ، تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٤٢ .

٢ . أنظر ترجمته في السير ج ٤ ص ٣٢١ ، طبقات ابن سعد ج ٦ ص ٢٥٦ ، طبقات المفسرين ج ١ ص ١٨١ ، تهذيب التهذيب ج ٤ ص ١١ .

وعكرمة، والضحاك، وقال قتادة: وكان أعلم الناس أربعة، كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير، وكان عكرمة أعلمهم بالسير وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام.

قتله الحجاج صبراً في سنة خمس وتسعين من الهجرة وهو ابن تسع وأربعين سنة، فرضي الله عنه وأرضاه.

عطاء بن أبي رباح [١]:

هو أبو محمد عطاء بن أبي رباح المكي القرشي مولاهم، ولد سنة سبع وعشرين، كان ـ رحمه الله ـ أسود، أعور، أفطس، أشل، أعرج، ثم عمي بعد ذلك، روى عن ابن عباس وابن عمر وابن عمرو بن العاص وغيرهم، وحدث عن نفسه: أنه أدرك مائتين من الصحابة وكان ثقة، فقيهاً، عالماً، كثير الحديث، وانتهت إليه فتوى أهل مكة، وكان ابن عباس يقول لأهل مكة إذا جلسوا إليه: تجتمعون إلي يا أهل مكة وعندكم عطاء؟ وقال سلمة بن كهيل: ما رأيت أحداً يريد بهذا العلم وجه الله إلا ثلاثة: عطاء، ومجاهد وطاوس.

توفي سنة أربع عشرة ومائة من الهجرة على أرجح الأقوال.

عكرمة [٢]:

هو أبو عبدالله: عكرمة بن البريري، أحد الأئمة الأعلام وقد أخذه ابن عباس بالتربية والتثقيف في صغره، وربما كان يقسو عليه في هذا، قال عكرمة: «كان ابن عباس يجعل في رجلي الكبل، ويعلمني القرآن والسنن» وكان يقول: «كل شيء أحدثكم في القرآن فهو عن ابن عباس»، وقال أيضاً: «لقد فسرت ما بين اللوحين»: يعني ما بين جلدتي المصحف، وقد اختلف العلماء فيه ما بين معدل له ومجرح، والأكثرون على توثيقه وتعديله وبحسبه توثيقاً، رواية إمام الأئمة البخاري عنه في صحيحه.

قال الشعبي: «ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة».

---

١. أنظر ترجمته في السير ج ٥ ص ٧٨. طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٤٦٧، تهذيب التهذيب ج ٧ ص ١٩٩.
٢. أنظر ترجمته في السير ج ٥ ص ١٢، طبقات ابن سعد ج ٥ ص ٢٨٧، حلية الأولياء ج ٣ ص ٣٣٦، تهذيب التهذيب ج ٧ ص ٢٦٣.

توفي سنة خمس ومائة .

أهل المدينة :

كان بالمدينة كثير من الصحابة ، أقاموا بها ولم يتحولوا عنها ، كما تحول كثير منهم إلى غيرها من بلاد المسلمين ، فجلسوا لأتباعهم يعلمونهم كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فقامت بالمدينة مدرسة للتفسير ، تتلمذ فيها كثير من التابعين لمشاهير المفسرين من الصحابة وكان قيامها على أُبي بن كعب رضي الله عنه .

فأشهر رجالها :

زيد بن أسلم (١)

هو أبو أسامة ـ أو أبو عبدالله ـ زيد بن أسلم العدوي المدني الفقيه المفسر، مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كان من كبار التابعين الذين عرفوا بالقول في التفسير والثقة فيما يروونه ، قال فيه الإمام أحمد ، أبو زرعة ، وأبو حاتم والنسائي : ثقة .

وقد عرف زيد بأنه كان يفسر القرآن برأيه ولا يتحرج من ذلك ، فقد روى حماد بن زيد عن عبيدالله بن عمر أنه قال فيه : لا أعلم به بأساً ، إلا أنه يفسر برأيه القرآن ويكثر منه ، وهذه شهادة من عبيد الله بن عمر أن زيداً ثقة لا يؤخذ عليه شيء ، إلا أنه كان يكثر من القول بالرأي ، وهذا لا يعد مغمزاً من عبيد الله في ثقته وعدالته ، كما لا نستطيع أن نعد هذا طعناً منه في علمه ، فلعل عبيد الله كان ممن يتورعون عن القول في القرآن برأيهم ، كغيره من الصحابة والتابعين ، وكان زيد يرى جوازاً تفسير القرآن بالرأي فلا يتحرج منه .

وكانت وفاته سنة ست وثلاثين ومائة من الهجرة ، وقيل غير ذلك .

أبو العالية (٢) :

أبو العالية البراء اسمه : زياد ، وقيل : رفيع بن مهران الرياحي ، أدرك الجاهلية وأسلم بعد وفاة النبي بسنتين، روى عن علي، وأُبي بن كعب ، وابن عباس ، وابن عمر وغيرهم ،

---

١. أنظر ترجمته في السير ج ٥ ص ٣١٦. حلية الأولياء ج ٣ ص ٢٢١. تهذيب التهذيب ج ٣ ص ٣٩٥.

٢. أنظر ترجمته في السير ج ٤ ص ٢٠٧ ، طبقات ابن سعد ج ٧ ص ١١٢ ، حلية الأولياء ج ٢ ص ٢١٧، تهذيب التهذيب ج ٣ ص ٢٨٤ ، طبقات المفسرين ج ١ ص ١٧٢ .

وروى عنه بديل بن ميسرة، وسعيد بن أبي عروبة، وغيرهما وثقه ابن معين، وأبو زرعة، وأبو حاتم، وهو من كبار التابعين، وروي عنه أنه قال: «قرأت القرآن على عهد عمر ثلاث مرات. وقال فيه ابن أبي داود: ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقراءة من أبي العالية».

وقد روى عن أبي بن كعب نسخة كبيرة من التفسير، ورواها عنه الربيع بن أنس، وعنه أبو جعفر الرازي، وهي صحيحة. وتوفي سنة تسعين.

محمد بن كعب القرظي (١)

هو أبو حمزة - أو أبو عبدالله - محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي المدني من حلفاء الأوس. روى عن علي، وابن مسعود، وابن عباس، وغيرهم. وروى عن أبي بن كعب بالواسطة، وقد اشتهر بالثقة والعدالة، والورع وكثرة الحديث، وتأويل القرآن. وقال العجلي: مدني، تابعي ثقة رجل صالح. عالم بالقرآن، وهو عند أصحاب الكتب الستة. وقال ابن عون: ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من القرظي.

وكان يقص في المسجد فسقط عليه وعلى أصحابه سقف، فمات هو وجماعة معه تحت الهدم سنة ثماني عشرة ومائة من الهجرة، وقيل غير ذلك، وهو ابن ثمان وسبعين سنة.

العراق

مسروق (٢):

هو: أبو عائشة: مسروق بن الأجدع، بن مالك بن أمية، الهمداني الكوفي، العابد العالم، العامل، روى عن الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وأُبي بن كعب وغيرهم. وكان أعلم أصحاب ابن مسعود، وأكثرهم أخذاً منه، قال علي بن المديني: ما أقدم على مسروق أحداً من أصحاب عبدالله: يعني ابن مسعود: وقال الشعبي: ما رأيت أطلب للعلم منه، وقد قال فيه ابن معين: ثقة لا يسأل عن مثله.

---

١. أنظر السير ج ٥ ص ٦٥. تهذيب التهذيب ج ٩ ص ٤٢٠، حلية الأولياء ج ٣ ص ٢١٢.

٢. انظر السير ج ٤ ص ٦٣، وطبقات ابن سعد ج ٦ ص ٧٦. أسد الغابة ج ٤ ص ٣٥٤. حلية الأولياء ج ٢ ص ٩٥، تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ١٠٩.

روي عنه أنه قال: كان عبدالله ـ يعني ابن مسعود ـ يقرأ علينا السورة ثم يحدثنا فيها ويفسرها عامة النهار، وتوفي سنة ثلاث وستين من الهجرة على الأصح.

قتادة [١]:

هو: أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي الأكمه، عربي الأصل. كان يسكن البصرة. روى عن أنس، وأبي الطفيل، وابن سيرين، وعكرمة، وعطاء بن أبي رباح، وغيرهم. وكان قوي الحافظة واسع الاطلاع في الشعر العربي بصيراً بأيام العرب، عليماً بأنسابهم متضلعاً في اللغة الغربية، ومن هنا جاءت شهرته في التفسير.

قال سعيد بن المسيب: ما كنت أظن أن الله خلق مثلك.

وقال ابن حبان في الثقات: كان من علماء الناس بالقرآن والفقه ومن حفاظ أهل زمانه. وكانت وفاته سنة سبع عشرة ومائة من الهجرة، وعمره إذ ذاك ست وخمسون سنة على المشهور.

الحسن البصري [٢]:

هو: أبو سعيد الحسن بن يسار البصري، مولى الأنصار، وأمه خيرة مولاة السيدة أم سلمة، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر، ونشأ بوادي القرى، وكان فصيحاً ورعاً زاهداً واعظاً لايجارى في وعظه روى عن بعض الصحابة والتابعين، وروى عنه الكثيرون من أتباع التابعين، قال فيه ابن سعد: كان الحسن جامعاً عالماً، رفيعاً، فقهياً ثقة مأموناً، عابداً، ناسكاً، كثير العلم، فصيحاً، جميلاً، وسيماً.

مرة الهمداني:

هو أبو إسماعيل مرة بن شراحيل الهمداني الكوفي، العابد المعروف بمرة الطيب ومرة الخير. لقب بذلك لعبادته، وشدة ورعه وكثرة صلاحه، روى عن أبي بكر، وعمر، وعلي، وابن مسعود وغيرهم. وروى عن الشعبي وغيره من أصحابه. وثقه ابن معين والعجلي. قال فيه الحارث الغنوي: سجد مرة الهمداني حتى أكل التراب وجهه وكان

---

١. انظر السير ج ٥ ص ٢٦٩، طبقات ابن سعد ج ٧ ص ٢٢٩، تهذيب التهذيب ج ٨ ص ٣٥١، طبقات المفسرين ج ٢ ص ٤٣.

٢. انظر ترجمته في السير ج ٤ ص ٥٦٣، طبقات ابن سعد ج ٦ ص ١٦، طبقات المفسرين ج ١ ص ٤٧١.

يصلي كل يوم ستمائة ركعة ، وتوفي سنة ٧٦ هـ ست وسبعين من الهجرة .

الضحاك :

هو : الضحاك بن مزاحم الهلالي ، مولاهم الخراساني روى عن بعض الصحابة ، وأخذ عنهم العلم ، وثقه أحمد بن حنبل ، وابن معين ، وأبو زرعة ، وكان له شهرة بالتفسير توفي سنة خمس ومائة .

تدوين التفسير بالمأثور .

جاء قرن تابعي التابعين ، وفيه ألفت تفاسير كثيرة جمعت من أقوال الصحابة والتابعين كتفسير سفيان بن عيينة ، ووكيع بن الجراح ، وشعبة بن الحجاج ، ويزيد بن هارون ، وعبدالرزاق ، وآدم بن أبي إياس ، وإسحاق بن راهويه ، وروح بن عبادة ، وعبد بن حميد ، وأبي بكر بن أبي شيبة ، وعلي بن أبي طلحة ، والبخاري وآخرين . ومن بعدهم ألف ابن جرير الطبري كتابه المشهور وهو من أجل التفاسير ثم ابن أبي حاتم ، وابن ماجة والحاكم ، وابن مردويه ، وابن حبان ، وغيرهم .

وليس في تفاسير هؤلاء إلا ما هو مسند إلى الصحابة والتابعين وتابعيهم ، ما عدا ابن جرير فإنه تعرض لتوجيه الأقوال ، وترجيح بعضها على بعض . وذكر الإعراب والاستنباط»[١] .

قال الخفاجي : « وحسبنا هنا أننا نتمم جهودا قدمها علماء المسلمين فى كل عصر ، في سبيل القرآن وشرحه وتفسيره ، سواء منهم من عاش فى عهد الصحابة من مثل علي ابن أبى طالب ، وزيد بن ثابت المتوفى عام ٣١٠ هـ ، والقرطبى والزمخشرى المتوفى عام ٥٣٨ هـ . والرازى المتوفى عام ٤٥ هـ ، وابن عباس المتوفى عام ٦٨ هـ ، وابن مسعود المتوفى عام ٤٤ هـ ، أو عاش فى عصر التابعين : كمجاهد المتوفى عام ١٠٣هـ ، وعكرمة المتوفي عام ١٠٥هـ ، وطاوس المتوفى عام ١٠٦ هـ ، وعطاء بن أبى رباح المتوفى عام ١١٤ هـ ، وسعيد بن جبير المتوفى عام ٩٤ هـ ، وسعيد بن المسيب ، وسواهم ، ويؤثر عن سفيان الثورى قوله : خذوا التفسير عن أربعة : سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة

---

١. مقدمة البحر المحيط ج ١ ص ١٧ - ٢٣.

والضحاك: كما يؤثر عن قتادة قوله: كان أعلم التابعين أربعة: كان عطاء بن أبى رباح أعلمهم بالمناسك، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير، وكان عكرمة أعلمهم بالسير، وكان الحسن البصرى أعلمهم بالحلال والحرام، ومن التابعين كذلك طبقة تتلمذت فى الكوفة على ابن مسعود، من أمثال الشعبى المتوفى عام ١٠٥ هـ، وإبراهيم النخعى المتوفى عام ٩٥هـ، أما الطبقة السابقة فهم تلامذة عبدالله بن عباس، وهناك طبقة ثالثة من التابعين، ومنهم مالك بن أنس المتوفى عام ١٥٠ هـ، والحسن البصرى المتوفى عام ١١٠ هـ، وقتادة المتوفى عام ١١٧ هـ. وسواء منهم كذلك من عاش بعد عصر التابعين مباشرة، أو بعده بأمد كبير. ومن أجل المفسرين لكتاب الله، أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى عام ٣٠٦ هـ، والخازن علاء الدين بن محمد البغدادى المتوفى عام ٧٤١هـ، والبيضاوى المتوفى عام ٦٩٢ هـ، والجلالين: المحلى والسيوطى، والجمل، وابن كثير الدمشقى الحافظ المتوفى عام ٧٧٤هـ، والنيسابورى المتوفى عام ٤٦٨ هـ، وأبو حيان الأندلسى المتوفى عام ٧٤٥هـ، والخطيب الشربينى المتوفى نحو عام ٩٨٠هـ، والشهاب الخفاجى المتوفى عام ١٠٦٩ هـ، ومحمد رشيد رضا فى تفسير المنار، والطنطاوى جوهرى فى تفسيره الجواهر، ومحمد فريد وجدى فى تفسيره الموجز، والشيخ أحمد مصطفى المراغى فى تفسيره المسمى تفسير المراغى، والشيخ محمد حجازى فى تفسيره المشهور بتفسير حجازى، وسواهم، فضلا عما كتب فى تفسير سورة أو أكثر من سور القرآن الكريم، كتفسير جزء «عمّ» للإمام محمد عبده، وتفسير جزء تبارك للشيخ عبدالقادر المغربى، وكتاب الذكر الحكيم تأليف محمد عبدالمنعم الخفاجى وهو تفسير سور ثلاث من سور القرآن وهى: الحج، لقمان، ق»، وتفسير سورة النور للشيخ إبراهيم الجبالى، وتفسير سورة يوسف، وتفسير سورة لقمان والحديد والحجرات للشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر الأسبق»[1].

قال المحققان فى نشأة علم التفسير وتطوره:

«لما كان علم التفسير مرتبطاً بالقرآن الكريم، كان تاريخه مرتبطاً بنزول القرآن الكريم،

---

١. تفسير القرآن الحكيم ج ١ ص ١١ ـ ١٢.

ثم أخذ ينمو ويتوسع حتى أصبح علماً قائماً بذاته تخصص له علماء وألفوا فيه الكتب.

ونستطيع أن نلم بتطوره باستعراض الأدوار التاريخية التي يمر بها هذا العلم على الوجه الآتي:

المبحث الأول: التفسير في عهد النبي ﷺ.

على الرغم من أن القرآن قد نزل بلغة عربية على قوم اهتموا بالفصاحة والبيان، نجد في القرآن صوراً من التعبيرات التي تتردد بين الحقيقة والمجاز، والتصريح والكناية، والإحكام والتشابه، والإجمال والتفصيل... وغير ذلك.

وعلى ذلك فقد فهموا القرآن إجمالاً دون تفصيل. ولما كان الرسول ﷺ هو مهبط الوحي ومبلغ الرسالة، فقد فهمه جملة وتفصيلاً فكان ﷺ هو المرجع الوحيد لشرح معانيه واستنباط أحكامه. وقام بالأمر خير قيام، وبلغ الرسالة، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾[1] فالآية تشير إلى إحدى وظائف النبي ﷺ الذي أنزل عليه القرآن، أن يعلمه للناس.

كيفية التفسير في عهد النبي ﷺ:

أ ـ كان ﷺ إذا نزلت عليه آية بادر أحياناً بتوضيح ما خفي منها، إذ لما نزل قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[2] قال: «عدلاً».

ب ـ كانت سيرته ﷺ في حياته وعبادته تفسيراً لما حمله القرآن. إذ فسر معنى الصلاة بعمله، وقال: «صلوا كما رأيتموني أصلي» [رواه البخاري] وفسرَّ معنى الحجّ بعمله، فقال: «خذوا عني مناسككم». [رواه مسلم]، وهكذا فسر الأحكام والجهاد حتى الآيات المتعلقة بالأخلاق، فقد فسرها تطبيقاً بعمله، سئلت عائشة أم المؤمنين رضي الله تبارك وتعالى عنها عن خُلق رسول الله ﷺ، فقالت: كان خُلقه القرآن. [رواه مسلم].

ج ـ كان السائل يأتيه فيسأله ﷺ عن شيء مما في القرآن، فأحياناً يجيبه فوراً، وأحياناً يتوقف في الإجابة حتى يأتيه خبر السماء. وقد يأتي الوحي حالاً، وقد يتأخر بأمر الحكيم العليم، سبحانه، وقد يسألونه ﷺ للاختبار، وللتأكد من صدق رسالته، فيأتيه المدد من

---

١. سورة النّحل: الآية ٤٤.
٢. سورة البقرة: الآية ١٤٣.

السماء : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾[١].

وقد يسألون النبي ﷺ عن أمور يخبر الوحي أن علمها عند الله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾[٢].

ميزة التفسير في عهد النبي ﷺ :

١ ـ مصدر التفسير في هذه الفترة كان وحياً من السماء ، سواء ما نزل من آيات أو ما قاله النبي ﷺ وكلاهما وحيٌ ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[٣] ولقوله ﷺ: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه» الحديث [رواه أحمد وأبو داود ، وهو صحيح].

٢ ـ كان هذا التفسير هو الفيصل في كل خلافٍ يمكن أن يقع .

٣ ـ الغالب أن هذا التفسير لم يكن مدوناً وقتئذ . والله تعالى أعلم .

المبحث الثاني : التفسير في عهد الصحابة رضي الله عنهم .

حين قضى الرسول ﷺ ، فالتحق بالرفيق الأعلى صار الناس في حاجة لمعرفة كلام الله تعالى .

وقد اشتهر بالتفسير من الصحابة وكانوا من المكثرين :

علي بن أبي طالب ، وعبدالله بن عباس ، وعبدالله بن مسعود ، وأبي بن كعب .

مصادر التفسير في عهدهم رضي الله عنهم :

ونعني بالمصادر هنا تلك المراجع التي نقل عنها المفسرون ، وأدرجوا ما نقلوه عنها في تفاسيرهم :

١ ـ القرآن الكريم : ويعتبر أهم مصدر من مصادر التفسير . ولهذا أطبقت الأمة سلفاً وخلفاً على أن أصح طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن ، كما ذكر ذلك ابن تيمية[٤] وغيره من أساطين العلم .

وصورة هذا التفسير ، كأن تكون آية مجملة في موضع ، مفصلة ، في موضع آخر

---

١ . سورة الكهف : الآية ٨٣.
٢ . سورة الإسراء : الآية ٨٥.
٣ . سورة النّجم : الآية ٤ و ٥ .
٤ . مقدمة في أصول التفسير ص ٩٣.

كقصص الأنبياء.

ومن هذا النوع حمل المجمل على المبيّن، وحمل المطلق على المقيد، وهي كثيرة جداً، كقوله: ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾[١]، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾[٢]، ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾[٣] وقوله: ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ﴾[٤].

٢ـ السنة النبوية: فقد ساروا على تفسير ما ورد عنه ﷺ من أخبار وأفعال حول الآيات، فكانوا يسألون بعضهم عما ورد عنه فيها.

٣ـ الرأي [الاجتهاد والاستنباط في التفسير]. وذلك إذا لم يجدوا في ذلك آية أو حديثاً يفسر لهم ما أرادوا فيجتهدوا في معرفة الأحكام، وعدتهم في ذلك الفهم الواسع والإدراك العميق والمعرفة المحيطة باللغة وأسرار البلاغة.

تنبيه على خطأ وشبهة بغيضة، والرد عليها:

بعض المعاصرين[٥] قرر أن الإسرائيليات كانت مصدراً رابعاً من مصادر التفسير !!. وهذا الذي قالوه مخالف للحق هادمٌ لأصول التفسير في العصور الإسلامية.

.... نعم لقد انتشرت الإسرائيليات ولكن ليس في عهد الصحابة ـ الذي نحن بصدده ـ بل في عهد التابعين وأتباعهم. ورويت كلها موقوفة على قائليها.

ثم إن الذين وقعوا في هذا الفهم الخاطيء ـ أعني جَعْلَ الإسرائيليات مصدراً رابعاً من مصادر التفسير ـ هم أنفسهم يقررون أن ما نسب إلى ابن عباس وعلي، وغيرهما من الصحابة من الروايات الضعيفة والموضوعة أضعاف ما صح عنهما، فإن كان الأمر كذلك فهل تحققوا من أن الإسرائيليات المنسوبة إلى هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم ليست من هذا النوع الضعيف والموضوع ؟....

ميزة التفسير في عهد الصحابة.

١ ـ لم يفسر القرآن كله، لقرب عهدهم بالرسول وفهمهم له ولمعاصرتهم لنزوله.

٢ ـ قلة الاختلاف في فهم معانيه لنقاء عقيدتهم، وتوحد اتجاهاتهم وتقارب

١. سورة المجادلة: الآية ٣.
٢. سورة النساء: الآية ٩٢.
٣. سورة الأنعام: الآية ١٥٢.
٤. سورة النساء: الآية ٦.
٥. كالدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه التفسير والمفسرون ج ١ ص ٣٧ وغيره.

أفكارهم، وخلوها من التكلف والشطط.

٣ـ الاكتفاء بالمعنى الإجمالي وعدم إلزام أنفسهم بتفهم معانيه على سبيل التفصيل.

٤ـ كان التفسير في هذه المرحلة جزءاً من الحديث النبوي وفرعاً من فروعه.

٥ـ لم يكن مرتباً حسب النزول، بل كانت تفاسيرهم متناثرة كما كان الشأن في رواية الحديث.

٦ـ ندرة الاستنباط الفقهي من الآيات لعدم جهلهم في الغالب بالأمور الفقهية.

٧ـ خلو تفسيرهم من المذاهب الكلامية.

حكم تفسير الصحابي.

قال النووي: وأما قول من قال تفسير الصحابي مرفوع، فذاك في تفسير يتعلق بسبب نزول آية أو نحوه [١].

وقال الزركشي: تفسير الصحابي بمنزلة المرفوع إلى النبي ﷺ، كما قاله الحاكم في تفسيره [٢].

لكن هناك تفصيل في هذه المسألة أورده السيوطي عن الزركشي، قال السيوطي: قال الزركشي: إن علم التفسير، منه ما يتوقف على النقل كسبب النزول والنسخ وتعيين المبهم وتبيين المجمل، ومنه ما لا يتوقف، ويكفي في تحصيله الثقة على الوجه المعتبر ... واعلم أن القرآن قسمان: قسم ورد تفسيره بالنقل، وقسم لم يرد، والأول: إما أن يرد عن النبي ﷺ أو الصحابة أو رؤوس التابعين، فالأول يبحث فيه عن صحة السند، والثاني ينظر في تفسير الصحابي، فإن فسر من حيث اللغة، فهم أهل اللسان فلا شك في اعتماده، أو بما شاهده من الأسباب والقرائن فلا شك فيه [٣].

وفصّل في هذا كله الحافظ في نكته على مقدمة ابن الصلاح، فقال:

والحق أن ضابط ما يفسره الصحابي ﵁ إن كان مما لا مجال للاجتهاد فيه ولا منقولاً عن لسان العرب فحكمة الرفع، وإلا فلا كالإخبار عن الأمور الماضية من بدء الخلق

١. تدريب الراوي ج ١ ص ١٩٣. ٢. البرهان ج ٢ ص ١٥٧.
٣. الإتقان ج ٢ ص ١٨٣.

وقصص الأنبياء، وعن الأمور الآتية: كالملاحم والفتن والبعث وصفة الجنة والنار، والإخبار عن عمل يحصل به ثواب مخصوص أو عقاب مخصوص، فهذه الأشياء لا مجال للاجتهاد فيها، فيحكم لها بالرفع.

قال أبو عمرو الداني: «قد يحكي الصحابي ﷺ قولاً يوقفه، فيخرجه أهل الحديث في المسند، لامتناع أن يكون الصحابي ﷺ قاله إلا بتوقيف.

كما روى أبو صالح السمان عن أبي [١] هريرة ﷺ قال: «نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات لا يجدن عرف الجنة ...» الحديث. لأن مثل هذا لا يقال بالرأي، فيكون من جملة المسند. وأما إذا فسر آية تتعلق بحكم شرعي فيحتمل أن يكون ذلك مستفاداً عن النبي ﷺ وعن القواعد، فلا يجزم برفعه، وكذا إذا فسر مفرداً فهذا نقل عن اللسان خاصة، فلا يجزم برفعه وهذا التحرير الذي حررناه هو معتمد خلق كثير من كبار الأئمة، كصاحبي الصحيح والإمام الشافعي وأبي جعفر الطبري (ت ٣١٠) وأبي جعفر الطحاوي (ت ٣٢١) وأبي بكر بن مردويه (ت ٤١٠) في تفسيره المسند، والبيهقي وابن عبد البر في آخرين. إلا أنه يستثنى من ذلك ما كان المفسر له من الصحابة رضي الله عنهم من عرف بالنظر في الإسرائيليات، كمسلمة أهل الكتاب، مثل عبد الله بن سلام وغيره. وكعبدالله بن عمرو بن العاصي، فإنه كان حصل له في وقعة اليرموك كتب كثيرة من كتب أهل الكتاب، فكان يخبر بما فيها من الأمور المغيبة حتى كان بعض أصحابه ربما قال له: حدثنا عن النبي ﷺ ولا تحدثنا عن الصحيفة، فمثل هذا لا يكون حكم ما يخبر به من الأمور التي قدمنا ذكرها الرفع، لقوة الاحتمال والله أعلم.

المبحث الثالث: التفسير في عهد التابعين.

ويقصد بالتابعين: الجماعات التي شاهدت الصحابة وعاشت في زمانهم، ولكنهم لم يشاهدوا رسول الله ﷺ، وقد اشتدت الحاجةفي زمنهم إلى معرفة معاني كلمات الله، لا سيما بعد انتشار الإسلام في الأقاليم الواسعة في المشرق والمغرب، ودخول الأمم

---

١. رواه مالك في الموطأ، كتاب اللباس (٤٨)، باب ما يكره من الثياب (رقم ٧) عن مسلم بن أبي مريم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة ـ موقوفاً.

الكثيرة فيه. وخروج الصحابة بسبب الفتوح إلى تلك الأقاليم لهداية الناس وتعليمهم، فالتفّ التابعون حولهم وتتلمذوا عليهم، فقام الصحابة بواجبهم خير قيام، فكانت هناك حركة علمية واسعة لتفسير القرآن وتعليمه للناس انتشرت في الأمصار المترامية الأطراف، بل كان لكل صحابي تبوّأ هذه المهمة دور كبير ومساهمة في هذه الحركة، فكانت هناك للتفسير مراكز منتشرة تشد إليها الرحال، برز من بينها ثلاثة مراكز أو مدارس:

أولها: مكة: اشتهر من تلاميذ ابن عباس فيها: سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة مولى ابن عباس - وطاووس بن كيسان اليماني، وعطاء بن أبي رباح.

الثاني: المدينة المنورة: وممن اشتهر فيها: أبو العالية، ومحمد بن كعب القرظي، وزيد بن أسلم.

الثالث: العراق: اشتهر فيها: علقمة بن قيس النخعي، ومسروق بن الأجدع، والأسود بن يزيد بن قيس النخعي، ومرة الهمداني الكوفي، والشعبي، وقتادة.

حكم تفسير التابعي:

إذا لم يرد نصّ من الكتاب والسنة أو من قول الصحابي في تفسير آية ما من القرآن الكريم، وقام أحد من التابعين بتفسيرها اجتهاداً من عنده، فهل يقبل تفسيره؟

اختلف العلماء في هذه المسألة على أقوال، الراجح في نظرنا مذهب ابن تيمية في هذه المسألة: وهو أن التابعي إذا تفرد بقول ليس له شاهد أو ما يؤيده رفض. أما إذا اجتمع التابعون على شيء فلا شك في اعتباره حجة، وأما إذا اختلفوا فلا يكون قول بعضهم - حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن والسنة أو عموم لغة العرب أو أقوال الصحابة في ذلك (١).

مصادر التفسير في عهد التابعين.

هي الكتاب والسنة وأقوال الصحابة وما يفتحه اللّه للتابعين من فهم وقوة في الاستنباط.

---

(١) مقدمة في أصول التفسير ص ١٠٥.

تنبيه :

نقتصر هنا على هذه المصادر الأربعة ولا نقول : إن الذين دخلوا في الإسلام من أهل الكتاب كانوا مصدراً خامساً، مع اعترافنا بأن النصوص الإسرائيلية قد تفشّت خلال هذه الفترة وكثرت ، ولكن ليس إلى الحد الذي يجعلها مصدراً رئيسياً خامساً إلى جانب الكتاب والسنة ، وقد سبق بيان أقسام النصوص الإسرائيلية .

مزاياه :

أنه ظل محتفظاً بطابع التلقي والرواية ، وكان يغلب على روايات التفسير تسلسل أسانيدها إلى علماء البلد الواحد . وقد انفصل في هذه الفترة الحديث عن التفسير .

ومن المآخذ عليه :

تسرب كثير من الروايات الإسرائيلية إلى التفسير عن طريق اليهود والنصارى الذين دخلوا في الإسلام ، ولكن هذه الروايات ، كثرت أو قلت ، لم تؤثر في الفكر الإسلامي ، ولم تغير عقليته ولم تكن إحدى مصادره البتة .

المبحث الرابع :

التفسير في عهد أتباع التابعين .

وهي المرحلة الرابعة من مراحل التفسير ، أطلق عليها المتأخرون (مرحلة التدوين) وهو خطأ فاحش استغله المستشرقون [١] . المهم : أن أشهر من عرف من المفسرين في هذا العهد : سفيان بن عيينة ، وابن وهب ، وعبدالرازق الصنعاني ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، ووكيع بن الجراح ، وشعبة بن الحجاج ، ويزيد بن هارون و.... وغيرهم . وقد ثبت أن أغلب المذكورين كتبوا تفاسير نسبت إليهم .

مزاياه ، ومآخذ عليه :

اتسعت علوم التفسير وجهاته ، وأصبح منفصلاً عن الحديث بشكل أكثر وضوحاً . وأدخل بعض مفسري هذا العهد المزيد من الإسرائيليات في تفسيرهم . وجمع في التفسير الواحد بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي . ولكن غالب التفسير معتمدٌ على

---

١ . انظر بيان ذلك ورده في «ابن عيينة مفسراً» ص ١٠١ ـ ١٠٤ .

الراوية .... وكانت تظهر شخصية المفسر نفسه بما يرجحه أو يعتمده . وظهر في التفاسير المؤلفة في هذه الفترة الانتصار للمذاهب الكلامية . وتفاسير هذه الفترة مدونة ، إذ بين أيدينا اليوم عدد منها ، كتفسير عبدالرزاق الصنعاني وغيره . لكن كان لمدرسة العراق التي تميزت بالاتجاه إلى التفسير بالرأي خاصة بعض المآخذ ، إذ كان من تلامذتها قتادة الذي نسب إليه الخوض في القضاء والقدر فاتهم بأنه قدريٌ ، وما نسب إلى الحسن البصري من إثبات القدر وتكفير من يكذب به . الذي خاض فيه ـ كما قيل ـ والله أعلم»[١] .

قال احمد رضا في طبقات المفسرين :

«أول من تكلم في تفسير القرآن من أصحاب رسول الله ﷺ مولانا أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وهو أعلم المسلمين بكتاب الله وتأويله بلا مدافع ، بل هو باب مدينة العلم . قال ابن مسعود : إن القرآن نزل على سبعة أحرف ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن ، وإن علياً عنده من الظاهر والباطن .

ثم عبدالله بن العباس حبر الأمة وترجمان القرآن ووارث ثلثي علوم رسول الله ، وقد دعا له النبي بقوله : «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» ولذلك كثرت الرواية في التفسير عنه حتى كان ما يقارب النصف من الأحاديث الواردة في التفسير مسنداً إليه .

ثم عبد الله بن مسعود ذو المقام العالي بين المفسرين ، وثاني ابن عباس في كثرة الرواية .

وأُبي بن كعب وهو احد الاربعة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ والمقدم بين القراء .

وفي الصحابة غير من ذكرنا كثيرون تكلموا في التفسير ولكن الرواية عنهم قليلة .

وفي التابعين اشتهر علي بن أبي طلحة خريج ابن عباس ، وقيس بن مسلم الكوفي ، ومجاهد بن جبير المكي ، وقتادة بن دعامة السدوسي ، وإسماعيل بن عبدالرحمن السدي الكوفي ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وهؤلاء هم اشهر التابعين في التفسير ،

---

١. مقدمة تفسير النسائي ج ١ ص ٩ ـ ٢٥ .

وطاووس بن كيسان اليماني وعدّه ابن تيمية من اعلم الناس في التفسير كما في الاتقان، وعطاء بن أبي رباح المكي، وجابر بن يزيد الجعفي، ومحمد بن السائب الكلبي وهو علامة وقته، والحسن البصري وهو اشهر من ان يعرف، ومالك بن انس، وعامر الشعبي، وعطاء بن أبي سلمة، وسليمان بن مهران الاعمش، وأبو العالية رفيع بن مهران الرياحي، والضحاك بن مزاحم، وعطية بن سعيد العوفي، وكثير غيرهم ممن لايسع المقام تعدادهم.

وفي زمن التابعين دوّن التفسير وصنف فيه، وأول كتاب ظهر في التفسير كان لسعيد ابن جبير المتوفى سنة ٦٤ وكان أعلم التابعين في التفسير، نص على ذلك قتادة وحكاه السيوطي في الاتقان.

ثم أبو محمد إسماعيل بن عبدالرحمن الكوفي القرشي المعروف بالسدي المتوفى سنة ١٢٧، قال السيوطي: إن تفسيره من امثل التفاسير، ثم محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ١٤٦ صاحب التفسير الكبير، وأبو حمزة الثمالي صاحب الإمام أبي محمد علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، ذكر تفسيره ابن النديم ثم أبو بصير الأسدي صاحب الإمام أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، وله تفسير جليل، وهو من تابعي التابعين.

وممن صنف في التفسير من التابعين جابر بن يزيد الجعفي المتوفى سنة ١٢٧، ومنهم شعبة بن الحجاج، وسفيان بن عيينة، ومجاهد، وهؤلاء عدا سعيد بن جبير من اهل المائة الثانية للهجرة.

وعرف بالتصنيف في هذا العلم من أهل هذه المائة: عبد الملك بن جريح المكي الأموي بالولاء، وزيد بن اسلم العدوي، ومقاتل الأزدي، ووكيع بن الجراح الكوفي، وابو عبدالله محمد بن عمر الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ صاحب كتاب الرغيب في علوم القرآن.

وفي المائة الثالثة اشتهر بالتفسير: محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير الذي جمع فاوعى وهو البحر الذي ورده اكثر من تأخر عنه من المفسرين، ومحمد بن خالد

البرقي صاحب كتاب التفسير املاء الإمام أبي محمد الحسن العسكري عليه السلام، حكاه ابن شهر آشوب في معالم العلماء. وعلي بن إبراهيم القمي، وابن ماجة محمد بن يزيد القزويني المحدث المشهور، والأشج أبو سعيد بن راهويه.

وفي المائة الرابعة عرف: النيسابوري، وأبو الحسن الاشعري إمام أهل السنة، وعلي بن عيسى الرماني النحوي المشهور، وأبو هلال العسكري، وعبدالله بن محمد الكوفي، وابن حبان، وابن فورك.

وفي المائة الخامسة عرف: شيخ الطائفة الامامية وفقيهها الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي صاحب كتاب البيان الجامع لكل علوم القرآن، ثم السيد الشريف الرضي الموسوي صاحب كتاب حقائق التنزيل ودقائق التأويل، وإمام الحرمين أبو المعالي الجويني، وعبد الملك الثعالبي.

وفي المائة السادسة اشتهر: جار الله الزمخشري صاحب (الكشاف) الذي لم يؤلف في بابه مثله جودة واتقاناً، واشتهر أبو علي الفضل بن الحسن الفاضل الطبرسي صاحب كتاب مجمع البيان، وهو التفسير المشهور الذي لم ينسج على منواله أبدع منه، وأبو البقاء العكبري، وأبو محمد البغوي، وابن الدهان.

وفي المائة السابعة اشتهر: البيضاوي صاحب التفسير المشهور المسمى بانوار التنزيل، الذي تناوله العلماء بالشروح والتعاليق واتخذه طلاب التفسير مناراً لهم، وعرف ابن زرين، والشيخ الاكبر محيي الدين بن العربي صاحب الفتوحات، وابن عقيل النحوي، ومحمد بن سليمان البلخي المعروف بابن النقيب.

وفي المائة الثامنة عرف: الشيخ بدر الدين الزركشي الفقيه الشافعي، وابن كثير إسماعيل بن عمر القرشي، وأبو حيان الاندلسي صاحب كتابي البحر والنهر في التفسير، ومحمد بن عرفة المالكي، وابن النقاش.

وفي المائة التاسعة عرف: البقاعي صاحب نظم الدرر في تناسب الآي والسور، والمولى الجامي، وبرهان الدين بن جماعة، وعلاء الدين القراماني صاحب بحر العلوم في التفسير، والجلال السيوطي صاحب كتاب الاتقان في علوم القرآن.

وفي المائة العاشرة عرف: الشيخ علي بن يونس النباطي صاحب مختصر مجمع

البيان، والعلامة ابن كمال باشا أحمد بن سليمان بن كمال الرومي، وأبو السعود العمادي مفتي القسطنطينية صاحب التفسير الكبير المسمى بارشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم الذي اشتهر صيته وانتشرت نسخه، والشيخ أبو يحيى زكريا بن محمد الانصاري.

وفي المائة الحادية عشرة عرف: الشيخ علي القاري، والشيخ حسن البوريني، والشيخ بهاء الدين العاملي الكركي صاحب التفسير المسمى بعين الحياة وهو مؤلف الكشكول، والشيخ خير الدين الرملي، والشهاب الخفاجي.

وفي المائة الثانية عشرة عرف: الشيخ العارف عبد الغني النابلسي صاحب التحرير الحاوي في شرح تفسير البيضاوي، والسيد هاشم البحراني صاحب البرهان في تفسير القرآن.

وفي المائة الثالثة عشرة اشتهر: الالوسي صاحب التفسير المشهور المسمى روح المعاني، والسيد محمد الحمزاوي مفتي دمشق الشام بكتابه در الاسرار؛ وهو تفسير بالحرف المهمل وما احوج هذا التفسير إلى تفسير.

وفي المائة الرابعة عشرة اشتهر: العلامة المحقق الاستاذ الإمام محمد عبده مفتي الديار المصرية بما كان يلقيه من دروس التفسير المفيدة على طلاب العلوم في الجامع الازهر بالقاهرة، سلك فيها مسلكاً رايعاً دل على مزيد تبحر وسلامة ذوق وجامعية كبرى، وقد اقتبس دروسه هذه العلامة السيد محمد رشيد رضا فنشرها في مجلة المنار التي تصدر عن مصر، وزاد عليها فوائد مهمة في التفسير.

وهذا أنموذج من كتب التفسير واسماء طائفة من علمائه ذكرناها تكملة للبحث، وإلاّ فإن تعداد مفسري كتاب الله الكريم في كل عصر ومصر وفي كل لغة من لغات البشر الشائعة، لمما يفوت الاحصاء والاستقاء، جزى الله العاملين على اعلاء كلامه واحياء لغة الضاد التي لا حياة لها الا بحياته، وهو الكلمة الباقية الخالدة ما دامت الأرض والسماء»[1].

---

١. مقدمة مجمع البيان ج ١ ص ٦٧ ـ ٧١.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

أحسن طُرقِ التفسير

قال ابن تيمية فى أحسن طرق التفسير:

«فان قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب:

الأول ـ إن أصح الطرق فى ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل فى مكان فإنه قد فسر فى موضع آخر، وما اختصر فى مكان فقد بسط فى موضع آخر.

الثاني ـ فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الامام أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن: قال الله تعالى: ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لِتَحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما** ﴾ [1]، وقال تعالى: ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نزّل إليهم ولعلهم يتفكّرون** ﴾ [2]، وقال تعالى: ﴿ **وما أنزلنا عليك الكتاب إلاّ لتبيّن لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ [3]، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه» يعنى السنة. والسنة أيضاً تنزل عليه بالوحى كما ينزل القرآن لأنها تتلى كما يتلى، وقد استدل الامام الشافعى وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك. والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فان لم تجده فمن السنة، كما قال رسول الله ﷺ

---

١. سورة النساء: الآية ١٠٥.
٢. سورة النحل: الآية ٤٤.
٣. سورة النحل: الآية ٦٤.

لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «بم تحكم؟» قال: بكتاب الله. قال: «فإن لم تجد؟» قال: بسنة رسول الله، قال: «فإن لم تجد؟» قال: اجتهد رأيي، قال، فضرب رسول الله ﷺ في صدره، وقال: «الحمد لله الذي وفّق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله»[1] وهذا الحديث في المسانيد والسنن باسناد جيد.

الثالث - وحينئذ اذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فانهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعمل الصحيح لا سيّما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين.

منهم - عبدالله بن مسعود، قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: حدثنا أبو كريب، قال: أنبأنا جابر بن نوح، أنبأنا الأعمش عن أبي الضحى مسلم بن صبيح، عن مسروق قال: قال عبدالله - يعني ابن مسعود -: والذي لا إله غيره، ما نزلت آية من كتاب الله إلاّ وأنا أعلم فيم نزلت وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته[2]. وقال الأعمش أيضاً عن أبي وائل شقيق بن سلمة عن ابن مسعود، قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن[3].

ومنهم - الحبر البحر عبدالله بن عباس ابن عم رسول الله ﷺ حيث قال له: «اللهم فقهه

---

١. أورد ابن جرير الطبري هذه الروايات في تفسيره ج ١ ص ٢٧ - ٢٩ ط بولاق، كما أوردها ابن كثير في مقدمة تفسيره للقرآن بنفس الأسانيد المتصلة إلى ابن مسعود عن ابن عباس انظر ج ١ ص ٣، كما أورد السيوطي بعضاً منها في الاتقان.

٢. ورد هذا الأثر في البخاري ج ٤ ص ٢٢٩ (كتاب التفسير. باب القراء عن أصحاب رسول الله) عن مسروق عن عبدالله بن مسعود أنه قال: والذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت. ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه، وذكره ابن جرير الطبري في تفسير. ج ١ ص ٢٨، ط بولاق، وابن كثير ج ٤ ص ٢٧، كتاب فضائل القرآن.

٣. ذكر ابن تيمية هذا الأثر مرويا عن عبدالرحمن السلمي: «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود ... الحديث» وقد ذكر البخاري مجموعة من الأحاديث في فضل ابن مسعود وعلو مرتبته في التفسير وفي الأخذ عن رسول الله، حيث روى عن الأعمش .... حدّثنا شقيق بن سلمة، قال: خطبنا عبدالله بن مسعود فقال: والله لقد أخذت من في رسول الله بضعا وسبعين سورة» كما روى البخاري عن مسروق قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خذوا القرآن عن أربعة عن عبدالله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأبي بن كعب».

انظر البخاري ج ٥ ص ٣٤، فضائل الصحابة ج ٦ ص ٢٢٩ كتاب التفسير، تفسير الطبري ج ١ ص ٢٧ ط بولاق.

فى الدين، وعلمه التأويل»[١]، وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، أنبأنا وكيع، أنبأنا سفيان عن الأعمش، عن مسلم عن مسروق قال: قال عبدالله يعنى ابن مسعود: نعم ترجمان القرآن ابن عباس، ثم رواه عن يحيى بن داود عن اسحاق الازرق عن سفيان الأعمش عن مسلم بن صبيح أبى الضحى عن مسروق عن ابن مسعود، أنه قال: نعم الترجمان للقرآن ابن عباس، ثم رواه عن بندار عن جعفر بن عون عن الأعمش به كذلك، فهدا اسناد صحيح إلى ابن مسعود، أنه قال هذه العبارة، وقد مات ابن مسعود فى سنة ثلاث وثلاثين على الصحيح، وعمّر بعده ابن عباس ستاً وثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود؟، وقال الأعمش عن أبى وائل: استخلف علي عبدالله بن عباس على الموسم فخطب الناس، فقرأ فى خطبته سورة البقرة وفى رواية سورة النور ـ ففسرها تفسيرا لوسمعته الروم والترك والديلم لأسلموا، ولهذا غالب ما يرويه اسماعيل بن عبدالرحمن السدى فى تفسير. عن هذين الرجلين ابن مسعود وابن عباس ....»

تفسير القرآن بأقوال التابعين:

إذا لم تجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة، ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة فى ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر، فإنه كان آية فى التفسير، كما قال محمد بن إسحاق: حدثنا أبان بن صالح عن مجاهد، قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها. وبه إلى الترمذى قال: حدثنا الحسين بن مهدى البصرى، حدثنا عبدالرزاق عن معمر عن قتادة.

قال مجاهد: ما فى القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئاً. وبه إليه قال: حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان بن عيينة عن الأعمش.

قال مجاهد: لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود لم أحتج أن أسأل ابن عباس عن كثير من القرآن مما سألت.

---

١. ورد هذا الدعاء فى البخارى ج ١ ص ٢٨١ كتاب المناقب، باب ذكر مناقب ابن عباس ولفظه (... اللهم علمه الحكمة)، وباسناد آخر فى كتاب الوضوء ولفظه: «اللهم فقه فى الدين وعلمه التأويل»، مسلم فضائل الصحابة؛ ابن حنبل ج ١ ص ٢٦٦، ٣١٤، ٣٢٨.

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، قال : حدثنا طلق بن غنام عن عثمان المكى عن ابن أبى مليكة ، قال: رأيت مجاهدا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه، فيقول له ابن عباس : «اكتب» ، حتى سأله عن التفسير كله.

ولهذا كان سفيان الثورى يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به.

وكسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبى رباح، والحسن البصرى، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبى العالية ، والربيع ، وابن أنس ، وقتادة ، والضحاك بن مزاحم ، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم، فتذكر أقوالهم فى الآية فيقع فى عباراتهم تباين فى الألفاظ ، يحسبها من لا علم عنده اختلافا فيحكيها أقوالا وليس كذلك، فان منهم من يعبر عن الشيء بلازمه، أو نظيره، ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد فى كثير من الأماكن. فليتفطن اللبيب لذلك والله الهادى.

وقال شعبة بن الحجّاج وغيره : «أقوال التابعين فى الفروع ليست حجة، فكيف تكون حجة فى التفسير؟» ، يعنى أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم.

وهذا صحيح ، أما إذا اجتمعوا على الشيء فلا يرتاب فى كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم، ويرجع فى ذلك إلى لغة القرآن أو عموم لغة العرب أو أقوال الصحابة فى ذلك [١]» [٢].

قال البلاغى (ره) : «أما الرجوع في التفسير وأسباب النزول إلى أمثال عكرمة ومجاهد وعطا وضحاك كما ملئت كتب التفسير بأقوالهم المرسلة ، فهو مما لا يعذر فيه المسلم

---

١. لعل ابن تيمية قد أزال بقاعدته هذه فى التفسير ما يحيك فى صدور البعض من أن الخلاف قد وقع بين صحابة رسول الله فى تفسير القرآن، وأن سبب هذا الظن يرجع إلى عدم المعرفة الكاملة بطرق الحديث وفنون التعبير. فاذا كان بين الصحابة خلاف فى استعمال الألفاظ فان هذا لا يعنى أبدا اختلافهم فى المراد، فان المراد قد يكون واحدا ويعبر عنه بألفاظ متنوعة وليست متضادة وكلها تدلّ على عين المراد، فهو اختلاف تنوع فى العبارة وليس اختلاف تناقض أو تضاد، كما رأى ابن تيمية أن رأى التابعين لا يكون حجة إلا إذا اجتمعوا على رأى واحد، أما إذا اختلفوا فان رأى الواحد منهم ليس حجة على الآخر منهم ولا على من بعدهم، وينبغى ان يكون المرجع فى مسائل الخلاف حينئذ هو الكتاب والسنة وعموم اللغة و اقوال الصحابة .

٢. دقائق التفسير ج ١ ص ٧٦ ـ ٨٢، وقد نقل عين هذه العبارة ابن كثير فى تفسير القرآن العظيم ج ١ ص ٩.

في أمر دينه فيما بينه وبين الله ، ولا تقوم به الحجة. لأنّ تلك الأقوال إن كانت روايات فهي مراسيل مقطوعة ، ولا يكون حجة من المسانيد إلا ما ابتنى على قواعد العلم الديني الرصينة ، ولو لم يكن من الصوارف عنهم إلا ما ذكر في كتب الرجال لأهل السنة لكفى. وإن الجرح مقدم على التعديل إذا تعارضا.

أما عكرمة فقد كثر فيه الطعن بأنه كذاب غير ثقة ويرى رأي الخوارج وغير ذلك.

وقيل للأعمش : ما بال تفسير مجاهد مخالف أو شيء نحوه ؟ قال : أخذه من أهل الكتاب . ومما جاء عن مجاهد من المنكرات في قوله تعالى : ﴿ **عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾[1] قال : يجلسه معه على العرش.

وأما عطا فقد قال أحمد : ليس في المراسيل أضعف من مراسيل الحسن وعطا ، كانا يأخذان عن كل أحد . وقال يحيى بن القطان : مرسلات مجاهد احب إلي من مرسلات عطا بكثير ، كان عطا يأخذ من كل ضرب ، وروي انه تركه ابن جريج وقيس بن سعد.

وأما الحسن البصري فقد قيل : إنه يدلّس ، وسمعت كلام احمد فيه وفي عطا.

وأما الضحاك ابن مزاحم المفسر ، فعن يحيى بن سعيد قوله : الضحاك ضعيف عندنا وكان يروي عن ابن عباس ، وأنكر ملاقاته له حتى قيل : إنه ما رآه قط .

وأما قتادة فقد ذكروا : انه مدلّس.

وأما مقاتل بن سليمان فقد قال فيه وكيع: كان كذاباً. وقال النّسائي: كان مقاتل يكذب . وعن يحيى قال : حديثه ليس بشيء . وقال ابن حيان : كان يأخذ من اليهود والنّصارى من علم القرآن الذي يوافق كتبهم.

وأما مقاتل بن حيان فعن وكيع : أنه ينسب إلى الكذب ، وعن ابن معين : ضعيف ، وعن أحمد بن حنبل : لا يعبأ بمقاتل بن حيان ، ولا بابن سليمان ، فانظر إلى ميزان الذهبي من كتب الرجال اقلا ، ودع عنك أن أصول العلم عندنا تأبى من الركون إلى روايتهم فضلاً عن اقوالهم ، إلاّ في مقام الجدل أوالتأييد أو حصول الاستفاضة والتوافق في الحديث[2]».

١. سورة الإسراء: الآية ٧٩.

٢. آلاء الرحمن ج ١ ص ٤٥ـ٤٦.

قال القرطبي في تبيين الكتاب بالسنة:

«قال الله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[١]. وقال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[٣]، وفرض طاعته في غير آية من كتابه وقرنها بطاعته عزوجل، وقال تعالى: ﴿ وَمَا ءاتَيكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَانَهَيكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾[٤].

ذكر ابن عبدالبر في كتاب العلم له عن عبدالرحمن بن يزيد: أنه رأى مُحرِماً عليه ثيابه فنهى المحرم؛ فقال: ايتني بآية من كتاب الله تنزع ثيابي؛ قال: فقرأ عليه: ﴿ وَمَا ءاتَيكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَانَهَيكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾.

وعن هشام بن حُجير قال: كان طاووس يصلي ركعتين بعد العصر، فقال ابن عباس: أتركهما؛ فقال: إنما نهى عنهما أن تُتّخذا سنة؛ فقال ابن عباس: قد نهى رسول الله ﷺ عن صلاة بعد العصر، فلا أدري أتُعَذّب عليهما أم تُؤجر، لأن الله تعالى قال: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾[٥].

وروى أبو داود عن المِقدام بن معد يكرب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا وإني قد أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشِك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلّوه وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه، ألا لا يحلّ لكم الحمار الأهليّ ولا كل ذي ناب من السباع ولا لقطة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يَقْرُوه فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه».

قال الخطابي: قوله «أوتيت الكتاب ومثله معه» يحتمل وجهين من التأويل: أحدهما: أن معناه أنه أوتى من الوحي الباطن غير المتلوّ، مثل ما أعطى من الظاهر المتلوّ.

والثاني: أنه أوتى الكتاب وَحْياً يُتْلَى، وأوتى من البيان مثله، أي أُذن له أن يبيّن ما في الكتاب فيعم ويخص ويزيد عليه ويشرع ما في الكتاب؛ فيكون في وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن.

---

١. سورة النحل: الآية ٤٤.
٢. سورة النور: الآية ٦٣.
٣. سورة الشورى: الآية ٥٢.
٤. سورة الحشر: الآية ٧.
٥. سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

وقوله: «يوشك رجل شبعان» الحديث. يحذّر بهذا القول من مخالفة السنن التى سنّها مما ليس له فى القرآن ذكر على ما ذهبت إليه الخوارج والرّوافض، فإنهم تعلّقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التى قد ضمنت بيان الكتاب؛ قال: فتحيّروا وضلّوا؛ قال والأريكة: السرير، ويقال: إنه لا يسمى أريكة حتى يكون فى حَجَلَة [١]، قال: وإنما أراد بالأريكة: أصحاب الترفه والدّعة الذين لزموا البيوت لم يطلبوا العلم من مَظانّه. وقوله: «إلاّ أن يستغنى عنها صاحبها» معناه أن يتركها صاحبها لمن أخذها استغناء عنها؛ كقوله: ﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا واسْتَغْنَى اللهُ ﴾[٢] معناه تركهم الله استغناء عنهم. وقوله: «فله أن يعقبهم بمثل قراه» هذا فى حال المضطر الذى لا يجد طعاما ويخاف التلف على نفسه، فله أن يأخذ من مالهم بقدر قِراه عوض ما حرَموه من قِراه. و«يعقبهم» يروى مشدّدا ومخففا من المعاقبة، ومنه قوله تعالى: ﴿ وإنْ عاقَبْتُمْ ﴾[٣] أى فكانت الغلبة لكم فغنمتم منهم، وكذلك لهذا أن يغنم من أموالهم بقدر قِراه.

قال: وفى الحديث دلالة على أنه لا حاجة بالحديث إلى أن يعرض على الكِتاب، فإنه مهما ثبت عن رسول الله ﷺ كان حجة بنفسه.

قال: فأما ما رواه بعضهم أنه قال: «إذا جاءكم الحديث فأعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فخذوه وإن لم يوافقه فردّوه» فإنه حديث باطل لا أصل له.

ثم البيان منه ﷺ على ضربين: بيان لمجملٍ فى الكتاب، كبيانه للصلوات الخمس فى مواقيتها وسجودها وركوعها وسائر أحكامها، وكبيانه لمقدار الزكاة ووقتها وما الذى تؤخذ منه من الأموال، وبيانه لمناسك الحج؛ قال ﷺ إذ حج بالناس: «خذوا عنى مناسككم». وقال: «صلّوا كما رأيتمونى أصلّى». أخرجه البخارى. وروى ابن المبارك عن عمران بن حُصين أنه قال لرجل: إنك رجل أحمق، أتجد الظُّهر فى كتاب الله أربعا لا يُجهر فيها بالقراءة! ثم عدّد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا، ثم قال: أتجد هذا فى كتاب الله مفسرا ؟! إن كتاب الله تعالى أبهم هذا، وإن السُّنة تفسّر هذا.

---

١. الحجلة: مثل القبة.
٢. سورة التغابن: الآية ٦.
٣. سورة النحل: الآية ١٢٦.

وروى الأوزاعيّ عن حسان بن عطية قال: كان الوحي ينزل على رسول ﷺ ويحضره جبريل بالسنة التي تفسر ذلك. وروى سعيد بن منصور: حدثنا عيسى بن يونس عن الأوزاعيّ عن مكحول قال: القرآن أحوج إلى السُّنة من السنة إلى القرآن. وبه عن الأوزاعيّ قال: قال يحيى بن أبي كثير: السنة قاضية على الكتاب، وليس الكتاب بقاضٍ على السنة. قال الفضل بن زياد: سمعت أبا عبدالله ـ يعني أحمد بن حنبل ـ وسئل عن هذا الحديث الذي روى أن السُّنة قاضية على الكتاب، فقال: ما أجْسُر على هذا أن أقوله، ولكني أقول: إن السنة تفسّر الكتاب وتبينة.

وبيان آخر: وهو زيادة على حكم الكتاب كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها، وتحريم الحُمُر الأهلية وكل ذى ناب من السباع، والقضاء باليمين مع الشاهد وغير ذلك، على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى»[1]

قال ابن جُزّى: « ..... أما وجوه الترجيح فهى اثنا عشر. الأول: تفسير بعض القرآن ببعض، فإذا دل موضع من القرآن على المراد بموضع آخر حملناه عليه ورجحنا القول بذلك على غيره من الأقوال.

الثاني: حديث النبى ﷺ: فإذا ورد عنه ﷺ تفسير شيء من القرآن عوّلنا عليه. لا سيما إن ورد فى الحديث الصحيح.

الثالث: أن يكون القول قول الجمهور، وأكثر المفسرين: فإن كثرة القائلين بالقول يقتضى ترجيحه.

الرابع: أن يكون القول قول من يقتدى به من الصحابة كالخلفاء الأربعة وعبدالله بن عباس. لقول رسول الله ﷺ: «اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل».

الخامس: أن يدل على صحة القول كلام العرب من اللغة والإعراب أو التصريف أو الاشتقاق.

السادس: أن يشهد بصحة القول سياق الكلام ويدل عليه ما قبله أو ما بعده.

السابع: أن يكون ذلك المعنى المتبادر إلى الذهن، فإن ذلك دليل على ظهوره

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ١ ص ٣٧ ـ ٣٩.

ورجحانه.

الثامن: تقديم الحقيقة على المجاز، فإن الحقيقة أولى أن يحمل عليها اللفظ عند الأصوليين. وقد يترجح المجاز إذا كثر استعماله حتّى يكون أغلب استعمالا من الحقيقة، ويسمى مجازا راجحا والحقيقة مرجوحة. وقد اختلف العلماء أيهما يقدم: فمذهب أبي حنيفة تقديم الحقيقة، لأنها الأصل، ومذهب أبي يوسف تقديم المجاز الراجح؛ لرجحانه. وقد يكون المجاز أفصح وأبرع فيكون أرجح.

التاسع: تقديم العمومي على الخصوصي؛ فإن العمومي أولى لأنه الأصل إلا أن يدل دليل على التخصيص.

العاشر: تقديم الإطلاق على التقييد، إلاّ أن يدل دليل على التقييد.

الحادي عشر: تقديم الاستقلال على الإضمار إلا أن يدل دليل على الإضمار.

الثاني عشر: حمل الكلام على ترتيبه إلا أن يدل دليل على التقديم والتأخير»[١].

قال صديق حسن خان: «.... ثم ألف في التفسير طائفة من المتأخرين فاختصروا الأسانيد، ونقلوا الأقوال بتراء، فدخل من هنا الدخيل، والتبس الصحيح بالعليل، ثم صار كل من سنح له قول يورده، ومن خطر بباله شيء يعتمده، ثم ينقل ذلك خلف عن سلف ظاناً أن له أصلاً، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح ومن هم القدوة في هذا الباب.

قال السيوطي: رأيت في تفسير قوله سبحانه: ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضّالين ﴾[٢] نحو عشرة أقوال، مع أن الوارد عن النبي ﷺ وجميع الصحابة والتابعين ليس غير اليهود والنصارى، حتى قال ابن أبي حاتم: لا أعلم في ذلك خلافاً من المفسرين.

ثم صنف بعد ذلك قوم برعوا في شيء من العلوم، ومنهم من ملأ كتابه بما غلب على طبعه من الفن واقتصر فيه على ما تمهر هو فيه، كأن القرآن أنزل لأجل هذا العلم لا غير، مع أن فيه تبيان كل شيء، فالنحوي تراه ليس له إلا الإعراب وتكثير الأوجه المحتملة فيه وإن كانت بعيدة، وينقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافياته كالزجاج والواحدي

---

١. التسهيل ج ١ ص ٩.
٢. سورة الفاتحة: الآية ٧.

في البسيط ، وأبي حيان في البحر والنهر، والإخباري ليس له شغل إلا القصص واستيفاؤها والإخبار عمن سلف سواء كانت صحيحة أو باطلة، ومنهم الثعلبي، والفقيه يكاد يسرد فيه الفقه جميعاً وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التي لا تعلّق لها بالآية أصلاً، والجواب عن الأدلة للمخالفين كالقرطبي وصاحب المظهري وصاحب العلوم العقلية ، خصوصاً فخر الدين الرازي قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وخرج من شيء إلى شيء حتى يقضي الناظر العجب، قال أبو حيان في البحر: جمع الامام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير، ولذلك قال بعض العلماء: فيه كل شيء إلا التفسير.

والمبتدع ليس له إلا تحريف الآيات وتسويتها على مذهبه الفاسد بحيث أنه لولاح له شارد من بعيد اقتنصه ، أو وجد موضعاً له فيه أدنى مجال سارع إليه، كما نقل عن البلقيني أنه قال : استخرجت من الكشاف اعتزالاً بالمناقيش، منها أنه قال في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾[١] : أي فوز أعظم من دخول الجنة، وأشار به إلى عدم الرؤية.

والملحد لا تسأل عن كفره وإلحاده في آيات الله وافترائه على الله ما لم يقله، كقول بعضهم في تفسير قوله تعالى : ﴿ إن هي إلا فتنتك ﴾[٢] ما على العباد أضر من ربهم، وينسب هذا القول إلى صاحب قوت القلوب .

ومن ذلك القبيل الذين يتكلمون في القرآن بلا سند ولا نقل عن السلف، ولا رعاية للأصول الشرعية، والقواعد العربية، كتفسير محمود بن حمزة الكرماني ضمنه أقوالاً هي عجائب عند العوام، وغرائب عما عهد عن السلف الكرام، وهي أقوال منكرة لا يحل الاعتقاد عليها ولا ذكرها إلا للتحذير.

ومن ذلك قول من قال في : ﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾[٣] إنه الحب والعشق، ومن ذلك قولهم في: ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾[٤] إنه الذكر إذا قام، وقولهم في: ﴿ من ذا

١. سورة آل عمران: الآية ١٨٥ .
٢. سورة الاعراف: الآية ١٥٥ .
٣. سورة البقرة: الآية ٢٨٦ .
٤. سورة الفلق: الآية ٣ .

الذي يشفع عنده ﴾[١] معناه من ذل أي من الذل وذي اشارة إلى النفس، ويشف من الشفاء جواب «من» وع أمر من الوعي.

وسئل البلقيني عمن فسر بهذا فأفتى بأنه ملحد.

قلت: وقد نبغت في هذا الزمان طائفة تفسر القرآن برأيها، وتحذف منه الآيات المتواليات تسمى بالنيفرية، وهم الذين أنكروا وجود الملائكة والجن والشياطين إلى غير ذلك، وقد عمت فتنتهم بلاد الهند الاسلامية، فرّق الله جمعهم، وبدد شملهم وأنزل بهم بأسه الذي لا يرده عن القوم المجرمين.

وأما كلام الصوفية في القرآن فليس بتفسير، قال ابن الصَّلاح في فتاواه: وجدت عن الامام الواحدي أنه قال: صنف السلمي حقائق التفسير إن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر»[٢].

قال صديق حسن خان: «أقول: إن التفسير الذي ينبغي الاعتداد به والرجوع إليه هو تفسير كتاب الله جل جلاله باللغة العربية حقيقة ومجازاً إن لم تثبت في ذلك حقيقة شرعية ، فان ثبتت فهي مقدمة على غيرها، وكذلك إذا ثبت تفسير ذلك من الرسول ﷺ فهو أقدم من كل شيء بل حجة متبعة لا يسوغ مخالفتها لشيء آخر، ثم تفاسير علماء الصحابة المختصين برسول الله ﷺ فانه يبعد كل البعد أن يفسر أحدهم كتاب الله تعالى ولم يسمع في ذلك شيئاً عن رسول الله ﷺ، وعلى فرض عدم السماع فهو أحد العرب الذين عرفوا من اللغة دِقّها وجلّها، وأما تفسير غيرهم من التابعين ومن بعدهم فان كان من طريق الرواية نظرنا في صحتها سواء كان المرويّ عنه الشارع أو أهل اللغة، وإن كان بمحض الرأي فليس ذلك بشيء ولا يحل التمسك به ولا جعله حجة، بل الحجة ما قدمناه، ولا نظن بعالم من علماء الإسلام أن يفسر القرآن برأيه ؛ فان ذلك مع كونه من الإقدام على ما لا يحل بما لا يحل قد ورد النّهي عنه في حديث : «من فسر القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ ومن فسر القرآن برأيه فأخطأ فقد كفر» ، أو كما قال الترمذي كتاب التفسير الباب الأول بلفظ: من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ.

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

٢. فتح البيان ج ١ ص ١٤ـ١٦.

إلا أنا لم نتعبد بمجرد هذا الإحسان للظن على أن نقبل تفسير كل عالم كيفما كان، بل إذا لم نجده مستنداً إلى الشارع ولا إلى أهل اللغة لم يحل لنا العمل به مع التمسك بحمل صاحبه على السلامة، ونظير ذلك اختلاف العلماء في المسائل العلمية، فهو إن كان إحسان الظن مسوغاً للعمل بما ورد عن كل واحد منهم، لوجب علينا قبول الأقوال المتناقضة في تفسير آية واحدة أو في مسألة علمية واللازم باطل فالملزوم مثله ...

... ولكن الثابت الصحيح من التفسير المرفوع إلى النبي وإن كان المصير إليه متعيناً وتقديمه متحتماً، هو تفسير آيات قليلة بالنسبة إلى جميع القرآن. والثابت من التفسير عن الصحابة ومن تبعهم بالاحسان: إن كان من اللفظ الذي قد نقله الشرع إلى معنى مغاير للمعنى اللغوي فهو مقدم على غيره، وإن كان من الألفاظ التي لم ينقلها الشرع فهو كواحد من أهل اللغة والموثوق بعربيتهم، فإذا خالف ذلك المشهور المستفيض لم تقم الحجة علينا بتفسيره الذي قاله على مقتضى لغة العرب العرباء، فبالأولى تفاسير من بعدهم من تابعيهم وسائر الأئمة.

وأيضاً كثيراً ما يقتصر الصحابي ومن بعده من السلف على وجه واحد مما يقتضيه النظم القرآني باعتبار المعنى اللغوي، ومعلوم أن ذلك لا يستلزم إهمال سائر المعاني التي تفيدها اللغة العربية ولا إهمال ما يستفاد من العلوم التي يتبين بها دقائق العربية وأسرارها كعلم المعاني والبيان، فإن التفسير بذلك هو تفسير اللغة لا تفسير بمحض الرأي المنهي عنه.

وقد قال سفيان: ليس في تفسير القرآن اختلاف إنما هو كلام جامع يراد منه هذا وهذا.

وقال أبو الدرداء: لا تفقه كل الفقه حتى نرى للقرآن وجوهاً.

وأخرج ابن سعد أن علياً قال لابن عباس: «اذهب إليهم (يعني الخوارج) ولا تخاصمهم بالقرآن فإنه ذو وجوه، ولكن خاصمهم بالسنة».

وأيضاً لا يتيسر في كل تركيب من التراكيب القرآنية تفسير ثابت عن السلف بل قد يخلو عن ذلك كثير من القرآن. ولا اعتبار بما لا يصح كالتفسير المنقول بإسناد ضعيف،

ولا بتفسير من ليس بثقة منهم وإن صح إسناده إليه، وبهذا تعرف أنه لا بد من الجمع بين الأمرين والتحلي بالوصفين، وعدم الاقتصار على مسلك أحد الفريقين.

واذكر الحديث معزواً إلى راويه من غير بيان حال الإسناد، لأني آخذه من الأصول التي نقلت عنها كذلك كما يقع في تفسير ابن جرير والقرطبي وابن كثير والسيوطي، ويبعد كل البعد أن يعلموا في الحديث ضعفاً ولا يبينوه، ولا ينبغي أن يقال فيما أطلقوه: أنهم قد علموا ثبوته، فإن من الجائز أن ينقلوه من دون كشف عن حال الإسناد، بل هذا هو الذي يغلب به الظن؛ لأنهم لو كشفوا عنه فثبتت عندهم صحته لم يتركوا بيان ذلك كما يقع منهم كثيراً التصريح بالصحة والحسن، فمن وجد الأصول التي يروون عنها ويعزون ما في تفاسيرهم إليها فلينظر في أسانيدها موفقاً إن شاء الله تعالى.

واعلم أن تفسير السيوطي المسمى بالدر المنثور، قد اشتمل على غالب ما في تفسيرات السلف من التفاسير المرفوعة إلى النبي ﷺ، وتفسير الصحابة ومن بعدهم، وما فاته إلا القليل النادر»[1].

قال القاسمي: تمهيد خطير في قواعد التفسير:

قاعدة في أمهات مآخذه:

للناظر في القرآن، لطلب التفسير، مآخذ كثيرة، أمهاتها أربعة:

الأول ـ النقل عن النبيّ ﷺ: وهذا هو الطراز المعلم. لكن يجب الحذر من الضعيف منه والموضوع، فإنه كثير. ولهذا قال أحمد: ثلاثة كتب لا أصل لها: المغازي، والملاحم، والتفسير.

قال المحققون من أصحابه: مراده أن الغالب أنه ليس لها أسانيد صحاح متصلة. وإلا فقد صح من ذلك كثير، كتفسير الظلم بالشرك في آية الأنعام، والحساب اليسير بالعرض والقوة بالرمي في قوله: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾[2].

الثاني ـ الأخذ بقول الصحابيّ: فإن تفسيره عندهم بمنزلة المرفوع إلى النبيّ ﷺ، كما قاله الحاكم في مستدركه. وقال أبو الخطاب، من الحنابلة: يحتمل أن لا يرجع إليه إذا قلنا:

---

١. فتح البيان ج ١ ص ١٨ ـ ٢٢.

٢. سورة الانفال: الآية ٦٠.

إن قوله ليس بحجة. والصواب الأول، لأنه من باب الرواية لا الرأى.

قلت: ما قاله الحاكم نازعه فيه ابن الصلاح وغيره من المتأخرين، بأن ذلك مخصوص بما فيه سبب النزول أو نحوه، مما لا مدخل للرأى فيه. ثم رأيت الحاكم نفسه صرح به فى علوم الحديث فقال: ومن الموقوفات تفسير الصحابة. وأما من يقول إن تفسير الصحابة مسند فإنما يقوله فيما فيه سبب النزول فقد خصص هنا، وعمَّم فى المستدرك فاعتمد الأول، والله أعلم.

ثم قال الزركشىّ: وفى الرجوع إلى قول التابعىّ روايتان عن أحمد. واختار ابن عقيل المنع، وحكوه عن شعبة، لكن عمل المفسرين على خلافه. فقد حكوا فى كتبهم أقوالهم لأن غالبها تلقوها من الصحابة. وربما يحكى عنهم عبارات مختلفة الألفاظ، فيظن من لا فهم عنده أن ذلك اختلاف محقق فيحكيه أقوالا، وليس كذلك، بل يكون كل واحد منهم ذكر معنى من الآية لكونه أظهر عنده أو أليق بحال السائل. وقد يكون بعضهم يخبر عن الشيء بلازمه ونظيره، والآخر بمقصوده وثمرته، والكل يؤول إلى معنى واحد غالباً. فإن لم يمكن الجمع، فالمتأخر من القولين عن الشخص الواحد مقدم: إن استويا فى الصحة عنه، وإلا فالصحيح المقدم.

الثالث ـ الأخذ بمطلق اللغة: فإن القرآن نزل بلسان عربىّ، وهذا قد ذكره جماعة، ونص عليه أحمد فى مواضع، لكن نقل الفضل بن زياد عنه أنه سئل عن القرآن يمثل له الرجل ببيت من الشعر؟ فقال: ما يعجبنى. فقيل: ظاهره المنع. ولهذا قال بعضهم فى جواز تفسير القرآن بمقتضى اللغة روايتان عن أحمد، وقيل: الكراهة تحمل على من صرف الآية عن ظاهرها إلى معان خارجة محتملة يدل عليها القليل من كلام العرب، ولا يوجد غالباً إلا فى الشعر ونحوه، ويكون المتبادر خلافها.

وروى البيهقىّ فى «الشُّعَب» عن مالك قال: لا أُوتَى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالاً.

الرابع ـ التفسير بالمقتضى من معنى الكلام، والمقتضى من قوة الشرع: وهذا هو الذى

دعا به النبىّ ﷺ لابن عباس حيث قال: «اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل»[١]، والذى عناه علىٌّ بقوله: «إلا فهماً يؤتاه الرجل فى القرآن». ومن هنا اختلف الصحابة فى معنى الآية، فأخذ كل برأيه على منتهى نظره. ولا يجوز تفسير القرآن بمجرد الرأى والاجتهاد من غير أصل. قال تعالى: ﴿ ولا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾[٢]. وقال: ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[٣]. وقال: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[٤]. أضاف البيان إليه. وقال ﷺ: «من تكلّم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ» أخرجه أبو داود[٥] والترمذىّ والنسائىّ. وقال: «من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار»[٦] أخرجه أبو داود.

وقال البيهقى فى الحديث الأول: إن صح أراد ـ والله أعلم ـ الرأى الذى يغلب من غير دليل قام عليه، وأما الذى يشدّه برهان، فالقول به جائز.

وقال في المدخل: فى هذا الحديث نظر، وإن صح، فإنما أراد به ـ والله أعلم ـ فقد أخطأ الطريق، فسبيله أن يرجع فى تفسير ألفاظه إلى أهل اللغة وفى معرفة ناسخه ومنسوخه، وسبب نزوله، وما يحتاج فيه إلى بيانه، إلى أخبار الصحابة الذين شاهدوا تنزيله، وأدّوا إلينا من السنن ما يكون بياناً لكتاب الله تعالى. قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٧]. فما ورد بيانه عن صاحب الشرع ففيه

---

١. فى صحيح البخارىّ فى: ٣ـ كتاب العلم، ١٧ ـ باب قول النبىّ ﷺ «اللهم علمه الكتاب».
عن ابن عباس قال: ضمنى رسول الله ﷺ وقال «اللهم علمه الكتاب».
وكذا هو فى: ٩٦ـ كتاب الاعتصام، فى أول الكتاب.
وفى: ٤ ـ كتاب الوضوء، ١٠ ـ باب وضع الماء عند الخلاء.
عن ابن عباس أن النبىّ ﷺ قال «اللهم فقهه فى الدين».
وفى: ٦٢ ـ كتاب فضائل أصحاب النبىّ ﷺ، ٢٤ ـ باب ذكر ابن عباس رضى الله عنهما.
عن ابن عباس قال: ضمّنى النبىّ ﷺ إلى صدره وقال: «اللّهم علمه الحكمة».
٢. سورة الإسراء: الآية ٣٦. ٣. سورة البقرة: الآية ١٦٩.
٤. سورة النحل: الآية ٤٤.
٥. فى سنن أبى داود فى: ٢٤ ـ كتاب العلم، ٥ ـ باب ـ كلام فى كتاب الله بغير علم، حديث ٣٦٥٢.
عن جندب قال: قال ﷺ: «من قال بكتاب الله عزوجل برأيه فأصاب فقد أخطأ».
٦. فى جامع الترمذىّ فى: ٤٤ ـ كتاب التفسير، ١ ـ باب ما جاء فى الذى يفسر القرآن برأيه.
عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار». وفى رواية: من قال فى القرآن برأيه. ٧. سورة النحل: الآية ٤٤.

كفاية عن فكرة مَنْ بعده، ومالم يرد عنه بيانه ففيه حينئذ فكرة أهل العلم بعده، ليستدلوا بما ورد بيانه على ما لم يرد. قال: وقد يكون المراد به من قال فيه برأيه من غير معرفة منه بأصول العلم وفروعه، فتكون موافقته للصواب، إن وافقه، من حيث لا يعرفه، غير محمودة.

وقال الماورديّ: قد حمل بعض المتورعة هذا الحديث على ظاهره، وامتنع من أن يستنبط معاني القرآن باجتهاده، ولو صحبها الشواهد، ولم يعارض شواهدها نص صريح. وهذا عدول عما تُعُبِّدْنا بمعرفته من النظر في القرآن، واستنباط الأحكام، كما قال تعالى: ﴿ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾[1] ولو صح ما ذهب إليه، لم يعلم شيء بالاستنباط، ولما فهم الأكثر من كتاب الله شيئاً. وإن صح الحديث فتأويله: أن من تكلم في القرآن بمجرد رأيه، ولم يعرج على سوى لفظه، وأصاب الحق، فقد أخطأ الطريق، وإصابَتُهُ اتفاق، إذ الفَرْض أنه مجرد رأى لا شاهد له. وفي الحديث: «القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على أحسن وجوهه» أخرجه أبو نعيم وغيره من حديث ابن عباس. فقوله: «ذلول» يحتمل معنيين:

أحدهما: أنه مطيع لحامليه تنطق به ألسنتهم.

والثاني: أنه موضح لمعانيه حتى لا يقصر عنه أفهام المجتهدين.

وقوله: «ذو وجوه» يحتمل معنيين:

أحدهما: أن من ألفاظه ما يحتمل وجوهاً من التأويل.

والثاني: قد جمع وجوهاً من الأوامر والنواهي والترغيب والترهيب والتحريم.

وقوله: «فاحملوه على أحسن وجوهه» يحتمل معنيين:

أحدهما: الحمل على أحسن معانيه،

والثاني: أحسن ما فيه من العزائم دون الرخص، والعفو دون الانتقام.

وفيه دلالة ظاهرة على جواز الاستنباط والاجتهاد في كتاب الله تعالى - كذا أفاده الزركشيّ في البرهان.

---

١. سورة النساء الآية ٨٣.

وقال أبو حيان: ذهب بعض ما عاصرناه إلى أن علم التفسير مضطر إلى النقل فى فهم معانى تركيبه، بالإسناد إلى مجاهد وطاووس وعكرمة وأضرابهم، وأن فهم الآيات يتوقف على ذلك، قال: وليس كذلك. قال الزركشىّ ـ بعد حكاية ذلك ـ: الحق أن علم التفسير، منه ما يتوقف على النقل، كسبب النزول، والنسخ، وتعيين المبهم، وتبيين المجمل. ومنه ما لا يتوقف. ويكفى فى تحصيله الثقة على الوجه المعتبر. قال: وكان السبب فى اصطلاح كثير على التفرقة بين التفسير والتأويل، والتمييز بين المنقول والمستنبط، ليحيل على الاعتماد فى المنقول وعلى النظر فى المستنبط. قال: واعلم أن القرآن قسمان: قسم ورد تفسيره بالنقل، وقسم لم يرد. والأول: إما أن يرد عن النبىّ ﷺ أو الصحابة أو رؤوس التابعين. فالأوّل يبحث فيه عن صحة السند، والثانى ينظر فى تفسير الصحابىّ، فإن فسره من حيث اللغة، فهم أهل اللسان، فلا شك فى اعتماده، أو بما شاهده من الأسباب والقرائن، فلا شك فيه. وإن تعارضت أقوال جماعة من الصحابة، فإن أمكن الجمع فذاك، وإن تعذر قدّم ابن عباس، لأن النبىّ ﷺ بشره بذلك حيث قال: «اللهم علمه التأويل»[1].

قال القاسمى فى أن بيان الصحابة حجة إذا أجمعوا:

«قال الشاطبىّ فى الموافقات: بيان رسول ﷺ بيان صحيح لا إشكال فى صحته. لأنه لذلك بعث. قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[2] ولا خلاف فيه. وأما بيان الصحابة، فإن أجمعوا على ما بينوه، فلا إشكال فى صحته أيضاً. كما أجمعوا على الغسل من التقاء الختانين المبيّن لقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا ﴾[3] وإن لم يجمعوا عليه، فهل يكون بيانهم حجة أم لا؟ هذا فيه نظر وتفصيل، ولكنهم يترجّح الاعتماد عليهم فى البيان من وجهين:

أحدهما: معرفتهم باللسان العربىّ، فإنهم عرب فصحاء، لم تتغير ألسنتهم، ولم تنزل عن رتبتها العليا فصاحتُهُمْ، فهم أعرف فى فهم الكتاب والسنة من غيرهم، فإذا جاء

---

١. محاسن التأويل ج ١١ ص ٧ ـ ١٢.
٢. سورة النحل: الآية ٤٤.
٣. سورة المائدة: الآية ٦.

عنهم قول أو عمل واقع موقع البيان، صح اعتماده من هذه الجهة.

الثاني : مباشرتهم للوقائع والنوازل، وتنزيل الوحى بالكتاب والسنة، فهم أقعد فى فهم القرائن الحالية، وأعرف بأسباب التنزيل، ويدركون ما لا يدركه غيرهم بسبب ذلك. والشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فمتى جاء عنهم تقييد بعض المطلقات، أو تخصيص بعض العمومات، فالعمل عليه صواب.

هذا، إن لم ينقل عن أحد منهم خلاف فى المسألة: فإن خالف بعضهم، فالمسألة اجتهادية.

مثاله قوله ﷺ : «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر»[١]، فهذا التعجيل يحتمل أن يقصد به إيقاعه قبل الصلاة، ويحتمل أن لا. فكان عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان يصليان المغرب قبل أن يفطرا ثم يفطران بعد الصلاة، بياناً أن هذا التعجيل لا يلزم أن يكون قبل الصلاة، بل إذا كان بعد الصلاة فهو تعجيل أيضاً، وأن التأخير الذى يفعله أهل المشرق شيء آخر، داخل فى التعمق المنهيّ عنه، وكذلك ذكر عن اليهود أنهم يؤخرون الإفطار فندب المسلمون إلى التعجيل. وكذلك قال ﷺ : «لا تصوموا حتى تروا الهلال، ولا تفطروا حتى تروه»[٢]، احتمل أن تكون الرؤية مقيدة بالأكثر، وهو أن يرى بعد غروب الشمس. فبيّن عثمان أن ذلك غير لازم، فرأى الهلال فى خلافته قبل الغروب، فلم يفطر حتى أمسى وغابت الشمس.

وتأمل. فعادة مالك بن أنس فى موطنه وغيره الإتيان بالآثار عن الصحابة. مبيناً بها السنن، وما يعمل به منها، وما لا يعمل به وما يقيّد به مطلقاتها وهو دأبه ومذهبه لما تقدم ذكره.

ومما بيّنَ كلامُهم اللغةَ . ايضاً كما نقل مالك فى دلوك الشمس وغسق الليل كلام ابن

١. سنن أبي داود فى: ١٤ـكتاب الصوم، ٢٠ـباب ما يستحب من تعجيل الفطر ح ٢٣٥٢، ونصه:
عن أبى هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «لا يزال الدين ظاهرا ما عجّل الناس الفطر، لأن اليهود والنصارى يؤخرونه».

٢. صحيح البخاريّ فى: ٣٠ـكتاب الصوم، ١١ـباب قول النبيّ ﷺ إذا رأيتم الهلال .... الخ و نصه :
عن عبدالله بن عمر : أن رسول الله ﷺ ذكر رمضان فقال : «لا تصوموا حتى تروا الهلال ولا تفطروا حتى تروه. فإن غم عليكم فاقدروا له».

عمر وابن عباس، وفى معنى السعى عن عمر بن الخطاب أعنى قوله تعالى: ﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ [١]. وفى معنى الأخوة: أن السنة قضت أن الأخوة اثنان فصاعدا كما تبين بكلامهم معنى الكتاب والسنة.

لا يقال: إن هذا المذهب راجع إلى تقليد الصحابيّ، وقد عرفت ما فيه من النزاع والخلاف. لأنا نقول: نعم هو تقليد، ولكنه راجع إلى ما لا يمكن الاجتهاد فيه على وجهه، إلاّ لَهُمْ، لما تقدم من أنهم عرب، وفرق بين من هو عربيّ الأصل والنحلة وبين من تعرّب: (غلب التطبع شيمةَ المطبوع)، وأنهم شاهدوا من أسباب التكاليف وقرائن أحوالها ما لم يشاهد مَن بعدهم. ونقلُ قرائن الأحوال على ما هو عليه كالمتعذر، فلابد من القول بأن فهمهم فى الشريعة أتم وأحرى بالتقديم. فإذا جاء في القرآن أو فى السنة من بيانهم ما هو موضوع موضع التفسير، بحيث لو فرضنا عدمه، لم يمكن تنزيل النص عليه على وجهه، انحتم الحكم بإعمال ذلك البيان، لما ذكر، ولما جاء فى السنة من اتباعهم والجريان على سننهم كما جاء فى قوله ﷺ: « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ » [٢]، وغير ذلك من الأحاديث فإنها عاضدة بهذا المعنى فى الجملة. أما إذا علم أن الموضع موضع اجتهاد لا يفتقر إلى ذينك الأمرين فَهُمْ وَمَنْ سواهم فيه شَرَع سواء كمسألة العَوْل والوضوء من النوم، وكثير من مسائل الربا التى قال فيها عمر بن الخطاب:مات رسول الله ﷺ ولم يبين لنا آية الربا. فدعوا الربا والريبة. أو كما قال.

فمثل هذه المسائل موضع اجتهاد للجميع، لا يختص به الصحابة دون غيرهم من المجتهدين. وفيه خلاف بين العلماء أيضاً. فإن منهم من يجعل قول الصحابيّ ورأيه حجة يرجع إليها ويعمل عليها من غير نظر، كالأحاديث والاجتهادات النبوية. وهو

١. سورة الجمعة: الآية ٩.

٢. سنن أبي داود في: ٣٩ ـ كتاب السّنة، ٥ ـ باب فى لزوم السنة، ح ٤٦٠٧ ونصه:

عن العرباض: صلّى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم. ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب. فقال قائل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودّع. فماذا تعهد إلينا؟ فقال: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبداً حبشيًا. فإنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافاً كثيراً. فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء المهديين الراشدين. تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ. وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة».

مذكور في كتب الأصول. فلا يحتاج إلى ذكره ههنا»[١].

قال القاسمي في أن الأحكام في التنزيل أكثرها كلية ولذا احتيج في الاستنباط منه إلى السنة:

«قال الشاطبيّ: تعريف القرآن بالأحكام الشرعية أكثره كليّ لا جزئيّ. وحيث جاء جزئيًا فمأخذه على الكلية، إما بالاعتبار أو بمعنى الأصل إلا ما خصه الدليل. مثل خصائص النبيّ ﷺ. ويدل على هذا المعنى، بعد الاستقراء المعتبر، أنه محتاج إلى كثير من البيان. فإن السنة، على كثرتها وكثرة مسائلها، إنما هي بيان للكتاب. كما سيأتي شرحه إن شاء الله تعالى. وقد قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[٢]. وفي الحديث[٣]: ما من الأنبياء نبيّ إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ. فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة.

وإنما الذى أُعطِى القرآن. وأما السنة فبيان له. وإذا كان كذلك فالقرآن على اختصاره جامع. ولا يكون جامعاً إلا والمجموع فيه أمور كليات لأن الشريعة تمت بتمام نزوله لقوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾[٤] الآية. وأنت تعلم أن الصلاة والزكاة والجهاد وأشباه ذلك لم تتبين جميع أحكامها في القرآن. إنما بيّنتها السنة. وكذلك العاديّات من الأنكحة والعقود والقصاص والحدود وغيرها. وأيضاً فإذا نظرنا إلى رجوع الشريعة إلى كلياتها المعنوية وجدناها قد تضمنها القرآن على الكمال، وهي الضروريات والحاجيات والتحسينيات ومكمل كل واحد منها. وهذا كله ظاهر أيضاً فالخارج من الأدلة عن الكتاب هو السنة والإجماع والقياس. وجميع ذلك إنما نشأ عن القرآن.

وقد عد الناس قوله تعالى: ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾[٥] متضمناً للقياس.

وقوله: ﴿ وَمَا ءَاتَيٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾[٦] متضمناً للسنة.

---

١. محاسن التأويل ج ١ ص ١٠٢ ـ ١٠٥. ٢. سورة النحل: الآية ٤٤.

٣. أخرجه البخاريّ في صحيحه في: ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن، ١ ـ باب كيف نزول الوحي، عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ.

٤. سورة المائدة: الآية ٣.

٥. سورة النساء: الآية ١٠٥. ٦. سورة الحشر: الآية ٧.

وقوله: ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) متضمناً للإجماع.

وهـذا أهـم مـا يكـون. وفـي الصحيح عـن ابـن مسـعود قـال: لعـن الله الواشـمات والمستوشمات (٢) الخ. فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب، وكانت تقرأ القرآن فأتته، فقالت: ما حديث بلغني عنك؛ أنك لعنت كذا وكذا؟ فذكرته. فقال عبدالله: ومـالي لا ألعن من لعن رسولُ الله ﷺ، وهو في كتاب الله؟ فقالت المرأة: قد قرأت ما بـين لوحـي المصحف فما وجدته. فقال: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه. قال الله عزوجل: ﴿ وَمَا ءَاتَيْكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا؟ ﴾، الحديث. وعبدالله من العالمين بالقرآن.

ثم قال الشاطبيّ:

فعلى هذا لا ينبغي في الاستنباط من القرآن الاقـتصار عـليه دون الـنظر فـي شـرحـه وبيانه، وهو السنة. لأنه إذا كان كليا وفيه أمور جلية، كما في شأن الصلاة والزكـاة والحـج والصوم ونحوها، فلا محيص عن النظر في بيانه. وبـعد ذلك يـنظر فـي تـفسير السـلف الصالح له، إن أعوزته السنة. فإنهم أعرف به من غيرهم. وإلا فمطلق الفـهم العـربيّ لمـن حصله يكفي فيما أعوز من ذلك. والله أعلم» (٣).

قال القاسمي في الإعتدال في التفسير:

«قال الشاطبيّ: ربما أُخذ تفسير القرآن على التوسط والاعتدال. وعـليه أكـثر السـلف المتقدمين. بل ذلك شأنهم وبه كانوا أفقه الناس فيه، وأعلم العلماء بـمقاصده وبـواطنه. وربما أخذ على أحد الطرفين الخـارجـين عـن الاعـتدال، إما عـلى الإفـراط وإمـا عـلى التفريط وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، فالذين أخذوه عـلى التـفريط قـصروا فـي فـهم

١. سورة النساء: الآية ١١٥.

٢. أخرجه البخاريّ في صحيحه في: ٦٥ ـ كتاب التفسير، ٥٩ ـ سورة الحشر، ٤ ـ باب وما آتاكم الرسول فخذوه:
عن عبدالله قال: لعن الله الواشمات والموتشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيّرات خلق الله. فبلغ ذلك امرأة من بني أسد، يقال لها: أم يعقوب. فجاءت فقالت: إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت. فقال: وما لي لا ألعن من لعن رسولُ الله ﷺ، ومَنْ هو في كتاب الله؟ فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول. قال: لئن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيه. أما قرأت: ﴿ وَمَا ءَاتَيْكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا؟ ﴾ قالت: بلى. قال: فإنه قد نهى عنه. قالت: فإني أرى أهلك يفعلونه. قال: فاذهبي فانظري. فذهبت فنظرت فلم تر من حاجتها شيئاً. فقال: لو كانت كذلك ما جامَعْتُنَا.

٣. محاسن التأويل ج ١ ص ١٣١ ـ ١٣٤.

اللسان الذى به جاء، وهو العربية، فما قاموا فى تفهم معانيه، ولا قعدوا. كما تقدم عن الباطنية وغيرها. ولا إشكال فى اطّراح التعويل على هؤلاء. والذين أخذوه على الإفراط أيضاً قصروا فى فهم معانيه من جهة أخرى. وقد تقدم فى كتاب المقاصد بيان أن الشريعة أمية. وأن ما لم يكن معهوداً عند العرب فلا يعتبر فيها. ومرّ فيه أنها لا تقصد التدقيقات فى كلامها. ولا تعتبر ألفاظها كل الاعتبار إلا من جهة ما تؤدى المعانى المركبة. فما وراء ذلك، إن كان مقصوداً لها، فبالقصد الثاني. ومن جهة ما هو مُعِين على إدراك المعنى المقصود. كالمجاز والاستعارة والكناية. وإذا كان كذلك فربما لا يحتاج فيه إلى فكر. فإن احتاج الناظر فيه إلى فكر خرج عن نمط الحُسْن إلى نمط القُبْح والتكلف. وذلك ليس من كلام العرب. فكذلك لا يليق بالقرآن من باب الأوْلى. وأيضاً، فإنه حائل بين الإنسان وبين المقصود من الخطاب من التفهم لمعناه ثم التعبد بمقتضاه. وذلك أنه إعذار وإنذار وتبشير وتحذير وردٌّ إلى الصراط المستقيم. فكم بَيْنَ من فهم معناه ورأى أنه مقصود العبارة فَدَاخَلَهُ من خوفِ الوعيد ورجاءِ الموعود ما صار به مشمِّرا عن ساعد الجد والاجتهاد، باذلا غاية الطاقة فى الموافقات، هارباً بالكلية عن المخالفات ـ وبين من أخذ في تحسين الإيراد والاشتغال بمآخذ العبارة ومدارجها، وَلِمَ اختلفت مع مرادفتها مع أن المعنى واحد.

وتفريع التجنيس، ومحاسن الألفاظ، والمعنى المقصود فى الخطاب، بمعزل عن النظر فيه.

كل عاقل يعلم أن مقصود الخطاب هو التفقه فى العبارة، بل التفقه فى المعبر عنه، وما المراد به. هذا لا يرتاب فيه عاقل. ولا يصح أن يقال: إن التمكن فى التفقه فى الألفاظ والعبارات وسيلة إلى التفقه في المعاني، بإجماع العلماء. فكيف يصح إنكار ما لا يمكن إنكاره؟ ولأن الاشتغال بالوسيلة والقيام بالفرض الواجب فيها، دون الاشتغال بالمعنى المقصود، لا ينكر في الجملة. وإلاّ لزم ذم علم العربية بجميع أصنافه. وليس كذلك باتفاق العلماء لأنا نقول: ما ذكرته فى السؤال لا ينكر بإطلاق. كيف؟ وبالعربية فهمنا عن الله تعالى مراده من كتابه. وإنما المنكر الخروج في ذلك إلى حد الإفراط الذى يُشَكُّ فى

كونه مراد المتكلم. أو يظن أنه غير مراد. أو يقطع به فيه. لأن العرب لم يفهم منها قصد مثله في كلامها. ولم يشتغل بالتفقه فيها سلف هذه الأمة. فما يؤمننا من سؤال الله تعالى لنا يوم القيامة: من أين فهمتم عني أني قصدت التجنيس الفلانيّ بما أنزلت من قولي: ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[١]، أو قولي: ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾[٢]؟.

فإن في دعوى مثل هذا على القرآن، وأنه مقصود للمتكلم به، خطراً. بل هو راجع إلى معنى قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ ﴾[٣]، وإلى أنه قول في كتاب الله بالرأي. وذلك بخلاف الكناية في قوله تعالى: ﴿ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾[٤]، وقوله: ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾[٥] وما أشبه ذلك. فإنه شائع في كلام العرب، مفهوم من مساق الكلام، معلوم اعتباره عند أهل اللسان ضرورة. والتجنيس ونحوه ليس كذلك. وفرق ما بينهما خدمة المعنى المراد وعدمه. إذ ليس في التجنيس ذلك. والشاهد على ذلك ندوره في العرب الأجلاف البوّالين على أعقابهم. (كما قال أبو عبيدة)، ومن كان نحوهم. وشهرة الكناية وغيرها. ولا تكاد تجد ما هو نحو التجنيس إلا في كلام المولّدين ومن لا يحتج به.

فالحاصل: أن لكل علم عدلا، وطَرَفًا إفراط وتفريط. والطرفان هما المذمومان. والوسط هو المحمود»[٦].

قال القاسمي:

«ثم قال الشاطبيّ:

وقد وقعت في القرآن تفاسير مشكلة يمكن أن تكون من هذا القبيل -من قبيل الباطن غير صحيح - أو من قبيل الباطن الصحيح. وهي منسوبة لأناس من أهل العلم، وربما نسب منها الى السلف الصالح. فمن ذلك فواتح السور نحو: ألم، والمص، وحم، ونحوها. فسرت بأشياء. منها ما يظهر جريانه على مفهوم صحيح ومنها ما ليس كذلك. فينقلون

---

١. سورة الكهف: الآية ١٠٤.
٢. سورة الشعراء: الآية ١٦٨.
٣. سورة النور: الآية ١٥.
٤. سورة النساء: الآية ٤٣. سورة المائدة: الآية ٦.
٥. سورة المائدة: الآية ٧٥.
٦. محاسن التأويل ج ١ ص ١٥٣ـ ١٥٥.

عن ابن عباس: أن «ألم» أن ألف الله. ولام جبريل. وميم محمد ﷺ. وهذا، إن صح فى النقل، فمشكل. لأن هذا النمط من التصرف لم يثبت فى كلام العرب هكذا مطلقا. وإنما أتى مثله إذا دل عليه الدليل اللفظىّ أو الحالىّ، كما قال: (قلت لها: قفى، فقالت: قاف) وقال: (قالوا جميعا كلهم: بلى فا)، وقال: (لا أريد الشهر إلا أن تا)، والقول فى «ألم» ليس هكذا. وأيضاً فلا دليل من خارج يدل عليه. إذ لو كان له دليل لاقتضت العادة نقله، لأنه من المسائل التى تتوفر الدواعى على نقلها لو صح أنه مما يفسر ويقصد تفهيم معناه. ولما لم يثبت شىء من ذلك دل على أنه من قبيل المتشابهات. فإن ثبت له دليل يدلّ عليه، صير إليه. وقد ذهب فريق إلى أن المراد الإشارة إلى حروف الهجاء، وأن القرآن منزل بجنس هذه الحروف وهى العربية. وهو أقرب من الأول. كما أنه نقل أن هذه الفواتح أسرار لا يعلم تأويلها إلا الله؛ وهو أظهر الأقوال فهى من قبيل المشابهات. وأشار جماعة إلى أن المراد بها أعدادها. تنبيهاً على مدة هذه الملة. وفى السير ما يدل على هذا المعنى. وهو قول يفتقر إلى أن العرب كانت تعهد فى استعمالها الحروف المقطعة أن تدل بها على أعدادها. وربما لا يوجد مثل هذا لها، البتة. وإنما كان أصله فى اليهود حسبما ذكره أصحاب السير. فأنت ترى هذه الأقوال مشكلة إذا سبرناها بالمسبار المتقدم. وكذلك سائر الأقوال المذكورة فى الفواتح مثلها فى الإشكال وأعظم. ومع إشكالها فقد اتخذها جمع من المنتسبين إلى العلم، بل إلى الإطلاع والكشف على حقائق الأمور، حججا فى دعاوٍ ادعوها على القرآن. وربما نسبوا شيئا من ذلك إلى علىّ بن أبى طالب، وزعموا أنها أصل العلوم، ومنبع المكاشفات على أحوال الدنيا والآخرة. وينسبون ذلك إلى أنه مراد الله تعالى فى خطابه العرب الأمية التى لا تعرف شيئا من ذلك. وهو، إذا سلم أنه مراد فى تلك الفواتح فى الجملة، فما الدليل على أنه مراد على كل حال من تركيبها على وجوه، وضرب بعضها ببعض، ونسبتها إلى الطبائع الأربع، وإلى أنها الفاعلة فى الوجود، وأنها مجمل كل مفصل، وعنصر كل موجود. ويرتبون فى ذلك ترتيبا جميعه دعاوٍ محالةٌ على الكشف والاطلاع. ودعوى الكشف ليس بدليل فى الشريعة على حال، كما أنه لا يعد دليلا فى غيرها، كما سيأتى بحول الله.

ثم قال الشاطبىّ:

ومن ذلك أنه نقل عن سهل بن عبدالله في فهم القرآن أشياء مما يعد من باطنه. فقد ذكر عنه أنه قال في قوله تعالى: ﴿ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلهِ أَنْدَادًا ﴾ [1]: أي أضداداً. قال: وأكبر الأنداد النفس الأمارة بالسوء، الطواعة إلى حظوظها ومنهيّها بغير هدى من الله. وهذا يشير إلى أن النفس الأمارة داخلة تحت عموم الأنداد، حتى لو فصل لكان المعنى: فلا تجعلوا لله أنداداً لاصنماً ولا شيطاناً ولا النفس ولا كذا. وهذا مشكل الظاهر جداً، إذ كان مساق الآية ومحصول القرائن فيها يدل على أن الأنداد: الأصنام أو غيرها مما كانوا يعبدون، ولم يكونوا يعبدون أنفسهم ولا يتخذونها أرباباً. ولكن له وجه جار على الصحة، وذلك أنه لم يقل: إن هذا هو تفسير الآية، ولكن أتى بما هو ندّ في الاعتبار الشرعيّ الذي شهد له القرآن من جهتين:

إحداهما: أن الناظر قد يأخذ من معنى الآية معنى من باب الاعتبار، فيجريه له فيما لم تنزل فيه، لأنه يجامعه في القصد أو يقاربه، لأن حقيقة الندّ أنه المضاد لندّه، الجاري على مناقضته. والنفس الأمارة هذا شأنها، لأنها تأمر صاحبها بمراعاة حظوظها، لاهية أو صادّة عن مراعاة حقوق خالقها. وهذا هو الذي يعني به الندّ في ندّه. لأن الأصنام نصبوها لهذا المعنى بعينه. وشاهد صحة هذا الاعتبار قوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ [2] وهم لم يعبدوهم من دون الله ولكنهم ائتمروا بأوامرهم، وانتهوا عما نهوهم عنه كيف كان. فما حرموا عليهم حرموه، وما أباحوا لهم حللوه. فقال الله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ وهذا شأن المتبع لهوى نفسه.

والثانية: أن الآية، وإن نزلت في أهل الأصنام، فإن لأهل الإسلام فيها نظراً بالنسبة إليهم. ألا ترى أن عمر بن الخطاب قال لبعض من توسع في الدنيا من أهل الإيمان: أين تذهب بكم هذه الآية ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ [3]؟ وكان هو يعتبر نفسه بها. وإنما أنزلت في الكفار لقوله: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ ﴾ [4] الآية، ولهذا المعنى تقرير في العموم والخصوص. فإذا كان كذلك، صح التنزيل بالنسبة إلى النفس

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٢.
٢. سورة التوبة: الآية ٣١.
٣. سورة الأحقاف: الآية ٢٠.
٤. سورة الاحقاف: الآية ٢٠.

الأمارة فى قوله: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ والله أعلم.

ثم قال الشاطبىّ:

ومن المنقول عن سهل أيضاً فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ [1] قال: لم يرد معنى الأكل فى الحقيقة وإنما أراد معنى مساكنة الهمة لشىء هو غيره، أى لا تهتم بشىء هو غيرى. قال: فآدم لم يعصم من الهمة والتدبير فلحقه ما لحقه. قال: وكذلك كل من ادعى ما ليس له، وساكن قلبه، ناظراً إلى هوى نفسه، لحقه الترك من الله، مع ما جبلت عليه نفسه فيه، إلا أن يرحمه الله فيعصمه من تدبيره، وينصره على عدوه وعليها.

قال: وآدم لم يعصم عن مساكنة قلبه إلى تدبير نفسه للخلود لما أدخل الجنة، لأن البلاء فى الفرع دخل عليه من أجل سكون القلب إلى ما وسوست به نفسه، فغلب الهوى والشهوة العلمَ والعقلَ بسابق القدر، إلى آخر ما تكلم به.

وهذا الذى ادعاه فى الآية خلاف ما ذكره الناس من أن المراد النهى عن نفس الأكل، لا عن سكون الهمة لغير الله، وإن كان ذلك منهيّاً عنه أيضاً، ولكن له وجه يجرى عليه لمن تأول، فإن النهى إنما وقع عن القرب لا غيره، ولم يرد النهى عن الأول تصريحاً، فلا منافاة بين اللفظ وبين ما فسر به.

وأيضاً فلا يصح حمل النهى على نفس القرب مجرداً. إذ لا مناسبة فيه تظهر، ولأنه لم يقل به أُحد، وإنما النهى عن معنى فى القرب. وهو إما التناول والأكل، وإما غيره، وهو شىء ينشأ الأكل عنه، وذلك مساكنة الهمة، فإنه الأصل فى تحصيل الأكل. ولا شك فى أن السكون لغير الله لطلب نفع أو دفع، منهىّ عنه. فهذا التفسير له وجه ظاهر، فكأنه يقول: لم يقع النهى عن مجرد الأكل من حيث هو أكل، بل عما ينشأ عنه الأكل من السكون لغير الله، إذ لو انتهى لكان ساكناً لله وحده. فلما لم يفعل، وسكن إلى أمرٍ فى الشجرة غرّه به الشيطان، وذلك الخلد المدعى، أضاف الله إليه لفظ العصيان، ثم تاب عليه إنه هو التواب الرحيم. ومن ذلك أنه قال فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ... ﴾ [2] الآية ـ باطن البيت قلب محمد ﷺ، يؤمن به من أثبت الله فى قلبه التوحيد،

---

١. سورة البقرة: ٣٥. سورة الأعراف: الآية ١٩. ٢. سورة آل عمران: الآية ٩٦.

واقتدى بهدايته. وهذا التفسير يحتاج إلى بيان. فإن هذا المعنى لا تعرفه العرب. ولا فيه من جهتها وضع مجازيّ مناسب، ولا يلائمه مساق بحال، فكيف هذا؟، والعذر عنه أنه لم يقع فيه ما يدل على أنه تفسير للقرآن. فزال الإشكال إذاً. وبقي النظر في هذه الدعوى. ولابد، إن شاء الله، من بيانها.

ومنه قوله في تفسير قول الله تعالى: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّـٰغُوتِ ﴾[1] قال: رأس الطواغيت كلها النفس الأمارة بالسوء إذا خلا العبد معها للمعصية. وهو أيضاً من قبيل ما قبله. وإن فرض أنه تفسير فعلى ما مر في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ .

وقال في قوله تعالى: ﴿ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ ... ﴾ [2] الآية ـ أما باطنها فهو القلب، والجار الجنب النفس الطبيعيّ، والصاحب بالجنب العقل المقتدى بعمل الشرع، وابن السبيل الجوارح المطيعة لله عزوجل، وهو من المواضع المشكلة في كلامه .

ولغيره مثل ذلك أيضاً. وذلك أن الجاري على مفهوم كلام العرب في هذا الخطاب ما هو الظاهر من أن المراد بالجار ذي القربى وما ذكر معه ما يفهم منه ابتداء. وغير ذلك لا يعرفه العرب. لا مَن آمن منهم ولا مَن كفر. والدليل على ذلك أنه لم ينقل عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين تفسير للقرآن يماثله أو يقاربه، ولو كان عندهم معروفاً لنقل، لأنهم كانوا أحرى بفهم ظاهر القرآن وباطنه باتفاق الأئمة، ولا يأتي آخر هذه الأمة بأهدى مما كان عليه أولها، ولا هم أعرف بالشريعة منهم. ولا، أيضاً، ثَمَّ دليل يدل على صحة التفسير. لا من مساق الآية، فإنه ينافيه. ولا من خارج، إذ لا دليل عليه كذلك. بل مثل هذا أقرب إلى ما ثبت رده ونفيه عن القرآن، من كلام الباطنية ومن أشبههم.

وقال في قوله: ﴿ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ [3] الصرح نفس الطبع، والمراد الهوى. إذا كان غالباً ستر أنوار الهدى بالترك من الله تعالى العصمة لعبده.

وفي قوله: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ [4] أي قلوبهم عند إقامتهم على ما نهوا عنه، وقد علموا أنهم مأمورون منهيون، والبيوت القلوب، فمنها عامرة بالذكر، ومنها

---

١. سورة النساء: الآية ٥١. ٢. سورة النساء: الآية ٣٦.
٣. سورة النمل: الآية ٤٤. ٤. سورة النمل: الآية ٥٢.

خراب بالغفلة عن الذكر.

وفي قوله تعالى: ﴿ فَانْظُرْ إِلَى ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [١] قال: حياة القلوب بالذكر.

وقال في قوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ [٢] الآية ـ مثل الله القلب بالبحر، والجوارح بالبر. ومثله أيضاً بالأرض التي تزهى بالنبات. هذا باطنه.

وقد حمل بعضهم قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ [٣] على أن المساجد القلوب، تمنع بالمعاصي من ذكر الله.

ونقل في قوله تعالى: ﴿ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ [٤] أن باطن النعلين هو الكونان الدنيا والآخرة، فذكر عن الشبليّ أن معنى: ﴿ اخلع نعليك ﴾ اخلع الكل منك تصل إلينا بالكلية.

وعن عطاء: ﴿ اخلع نعليك ﴾ عن الكون، فلا تنظر إليه بعد هذا الخطاب.

وقال: النعل النفس، والواد المقدس دين المرء، أي حان وقت خلوك من نفسك، والقيام معنا بدينك، وقيل: غير ذلك مما يرجع إلى معنى لا يوجد في النقل عن السلف.

وهذا كله، إن صح نقله، خارج عما تفهمه العرب، ودعوى مالا دليل عليه في مراد الله بكلامه.

ولقد قال الصديق [٥]: «أيّ سماء تظلني، وأيّ أرض تقلني، إذا قلت في كتاب الله مالا أعلم».

وفي الخبر: من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ. وما أشبه ذلك من التحذيرات.

وإنما احتيج إلى هذا كله لجلالة من نقل عنهم ذلك من الفضلاء، وربما ألمّ الغزاليّ بشيء منه في الإحياء وغيره. وهو مزلة قدم لمن لم يعرف مقاصد القوم. فإن الناس، في

---

١. سورة الروم: الآية ٥٠.
٢. سورة الروم: الآية ٤١.
٣. سورة البقرة: الآية ١١٤.
٤. سورة طه: الآية ١٢.
٥. جاء في تفسير ابن كثير: وقال أبو عبيد القاسم بن سلاّم: ثنا محمد بن يزيد عن العوّام بن حوشب عن إبراهيم التيميّ: أن أبابكر الصديق سئل عن قوله تعالى: ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾. فقال: أيّ سماء تظلني وأيّ أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله مالا أعلم. منقطع اهـ.

أمثال هذه الأشياء، بين قائلين: منهم من يصدق به ويأخذه على ظاهره ويعتقد أن ذلك هو مراد الله تعالى من كتابه، وإذا عارضه ما ينقل فى كتب التفسير على خلافه، فربما كذب به أو أشكل عليه. ومنهم من يكذب به على الإطلاق ويرى أنه تقوّل وبهتان، مثل ما تقدم من تفسير الباطنية ومن حذا حذوهم. وكلا الطريقين فيه ميل عن الإنصاف»[١].

قال القاسمى: «واعلم أن للتفسير أحكاماً وضروباً، فمن ذلك:

فهم معنى اللفظ: وهو منقسم إلى ثلاثة أقسام:

أحدها : ما يعرفه العامة والخاصة كالأرض والسماء والجبال والرجال والأشجار والأمطار.

القسم الثانى : ما يعرفه معظم الخاصة كالمعاد والملاذ.

القسم الثالث : ما يعرفه القليل من الخاصة كالرفوف والصفصف.

ومن ضروب التفسير ما يتردد بين محملين: أحدهما أظهر عند النزول فيرجع فيه إلى الصحابة والتابعين، ويحمل على ظاهره حينئذ. ومنه ما يحمل على أخفى محمليه لدليل يقوم عليه. ومنه ما يتساوى فيه الأمران فيخص أحدهما بالسبب الذى نزل لأجله. ومنه ما يتساوى من غير ترجيح عندنا وهو راجع فى نفس الأمر، لأن الرسول ﷺ قد بيّن للناس ما نزل إليهم؛ فبعض المتأخرين يحمله على جميع محامله. والوقف أولى به.

وقد يتردد بين محامل كثيرة يتساوى بعضها مع بعض، ويترجح بعضها على بعض.

وأولى الأقوال: ما دلّ عليه الكتاب فى موضع آخر، أو السنة، أو إجماع الأمة، أو سياق الكلام؛ وإذا احتمل الكلام معنيين وكان حمله على أحدهما أوضح وأشد موافقة للسياق ـ كان الحمل عليه أولى. وقد يقدر بعض النحاة ما يقتضيه علم النحو. لكن يمنع منه أدلّة شرعية، فيترك ذلك التقدير، ويقدر تقديراً آخر يليق بالشرع. وقد يعبّر النحاة والمفسرون وغيرهم بالعام ويريدون به الخاص فيجهله كثير من الناس. وعلى الجملة: فالقاعدة فى ذلك أن يحمل القرآن على أصح المعانى وأفصح الأقوال، فلا يحمل على معنى ضعيف، ولا على لفظ ركيك. وكذلك لا يقدر فيه من المحذوفات إلا أحسنها

---

١. محاسن التأويل ج ١ ص ٦٩ ـ ٧٧.

وأشدها موافقة وملايمة للسياق. وإذا كان للاسم الواحد معانٍ كـ«العزيز» بمعنى القاهر، وبمعنى الممتنع، وبمعنى الذى لا نظير له، حمل فى كل موضع على ما يقتضيه ذلك السياق كيلا ينبتر الكلام وينخرم النظام. وإذا اتحد معنى القراءتين ـ كالسراط والصراط ـ فهذا ظاهر. وإن اختلف معناهما وجب القطع بأنهما مرادتان. مثال ذلك قوله: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ ﴾ و ﴿ يَكْذِبُونَ ﴾ [١]، أخبر بأنهم يعذبون بالتكذيب والكذب، وهذا اختصار فى صورة الخط، دون اللفظ.

ومن ضروب التفسير وأحكامه: بيان كون اللفظ حقيقة أو مجازاً. ومنه: بيان رجحان إحدى الحقيقتين على الأخرى. ومنه: بيان رجحان أحد المجازين على الآخر. ومنه: بيان ترجيح الحقيقة على المجاز. ومنه: بيان ترجيح ما يناسب الكلام ويطابقه على ما ليس كذلك. ومنه: ترجيح بعض الإعراب على بعض. ومنه: بيان التقديم والتأخير. ومنه: بيان مظان الإطالة. ومنه: بيان مظان الاختصار. وفائدة الاختصار، سهولته على المتكلم، وإيصال المعنى على الفور إلى المخاطب. كقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّلِمِينَ ﴾ [٢]. ومنه: الحذف وهو أنواع، وقد تقدمت في أول هذا الكتاب ـ يعني كتابه ـ

ومن ضروب التفسير وأحكامه: تعين المضاف المحذوف. ومنه: ترجيح بعض المضافات المحذوفة على بعض. ومنه: استواء المضافات المحذوفة من غير ترجيح. ومنه: ترجيح بعض المفاعيل المحذوفة على بعض، ومنه: استواؤها. ومنه: تعيّن بعضها، ومنه: ترجيع بعض ما تصح الإشارة إليه بذلك على بعض. ومنه: تعيّن ما يشار إليه بذلك. ومنه: عود الإشارة بذلك إلى ما ليس بمذكور. ومنه: ترجيح بعض الموصوفات على بعض. ومنه تعيّن بعض الموصوفات المحذوفة. ومنه ترجيح ما تعود إليه الضمائر. ومنه: تردد ما تعود إليه الضمائر. ومنه: عود الضمائر إلى ما ليس بمذكور. ومنه: عود الضمائر إلى ما دل عليه اللفظ وليس بمذكور، انتهى» [٣].

قال عبدالقادر: «اعلم وفقك الله أن أحوال المفسرين في التفسير مختلفة على ثلاثة

---

١. سورة البقرة: الآية ١٠. ٢. سورة يونس: الآية ١٠٦.
٣. محاسن التأويل ج ١ ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

أصناف:

فمنهم: من يقتصر في تفسيره على المنقول في الآية من أقوال من تقدمه من المفسرين، وأسباب النزول، وأوجه الإعراب، ومعاني الحروف.

ومنهم: من يأخذ في وجوه الاستنباط منها، ويستعمل فكره بما آتاه الله من الفهم، ولا يشتغل في أقوال السابقين لوجودها في بطون الأوراق، ومنهم: من يرى الجمع بين الأمرين والتحلي بالوصفين. وبما أن هذا أحسن الأصناف جريت عليه »[١].

قال محمد امين: «ومن أنواع البيان التى تضمنها أيضاً أن يذكر وقوع شيء فى القرآن، ثم يذكر فى محل آخر كيفية وقوعه كقوله تعالى: ﴿ وإذ وٰعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده ﴾[٢] الآية ـ فإنه لم يبيّن هنا كيفية الوعد بها هل كانت مجتمعة أو مفرقة؟ ولكنه بيّنها فى الأعراف بقوله: ﴿ ووٰعدنا موسى ثلٰثين ليلة وأتممنٰها بعشر فتمّ ميقات ربه أربعين ليلة ﴾[٣]، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿ وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾[٤]، فإنه بيّن كيفية اغراقه لهم فى مواضع أخر كقوله: ﴿ فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق ﴾[٥] الآية ـ وقوله: ﴿ فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبساً ﴾[٦] الآية ـ ومن هذا القبيل أن يذكر وقوع أمر من غير تعرض إلى كونه وقع أولاً بتنجيز أو تعليق، ثم يبيّن ذلك فى موضع آخر، ومثاله قوله تعالى: ﴿ وإذ قلنا للمَلٰئكة اسجدوا لآدم ﴾[٧] الآية ـ فإنه لم يبيّن هنا هل ذلك الأمر بالسجود وقع أولاً بتنجيز أو تعليق، وقد بيّن فى (الحجر) و (ص) أنه وقع أولا معلقا قال فى الحجر: ﴿ وإذ قال ربك للمَلٰئكة إنى خٰلق بشراً من صلصٰل من حمإمسنون * فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحى فقعوا له سٰجدين ﴾[٨] وقال فى (ص): ﴿ وإذ قال ربك للمَلٰئكة إنى خٰلق بشراً من طين * فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحى فقعوا له سٰجدين ﴾[٩]، ومن أنواع البيان المذكورة فيه أن يقع طلب لأمر، ويبين فى موضع آخر المقصود من ذلك

١. بيان المعانى ج ١ ص ١٠.

٢. سورة البقرة: الآية ٥١.

٣. سورة الأعراف: الآية ١٤٢.

٤. سورة البقرة: الآية ٥٠.

٥. سورة الشعراء: الآية ٦٣.

٦. سورة طه: الآية ٧٧.

٧. سورة البقرة: الآية ٣٤.

٨. سورة الحجر: الآية ٢٨ ـ ٢٩.

٩. سورة ص: الآية ٧١ ـ ٧٢.

الأمر المطلوب، ومثاله قوله تعالى فى الأنعام: ﴿ **وقالوا لولا أُنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر** ﴾[١] الآية ـ فإنه بيّن فى الفرقان : أن مرادهم بالملك المقترح إنزاله أن يكون نذيراً آخر معه ﷺ، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ **وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أُنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً** ﴾[٢]، ومن أنواع البيان التى تضمنها أيضا أن يذكر أمر فى موضع، ثم يذكر فى موضع آخر شىء يتعلق بذلك الأمر، كأن يذكر له سبب أو مفعول أو ظرف مكان أو ظرف زمان أو متعلق، فمثال ذكر سببه فى قوله تعالى: ﴿ **ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة** ﴾[٣]، فإنه لم يبين هنا سبب قسوة قلوبهم ولكنه بينه بقوله: ﴿ **فبما نقضهم ميثٰقهم لعنّٰهم وجعلنا قلوبهم قٰسية** ﴾[٤]، وقوله: ﴿ **فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم** ﴾[٥].

ومن أمثلة ذكر السبب قوله تعالى: ﴿ **يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه** ﴾[٦] فإنه أشار هنا لسبب اسودادها بقوله : ﴿ **فأما الذين اسودّت وجوههم أكفرتم** ﴾[٧] الآية ـ وقد بينه فى مواضع أخر كقوله: ﴿ **ويوم القيٰمة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودّة** ﴾[٨]، ونحوها من الآيات كما سترى إن شاء الله تحقيقه فى آل عمران.

ومن أمثلة ذكر المفعول الواحد قوله تعالى: ﴿ **إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى** ﴾[٩] فإنه لم يذكر هنا مفعول يخشى، ولكنه أشار إليه فى هود والذاريات، وإيضاحه : أن الإشارة فى قوله هنا: ﴿ **إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى** ﴾ راجعة إلى ما أصاب فرعون من النكال والعذاب المذكورة فى قوله : ﴿ **فأخذه الله نكال الآخرة والأولى** ﴾[١٠].

فإذا عرفت ذلك فاعلم أنه تعالى صرح فى سورة هود بأن فيما أصاب فرعون من العذاب آية لمن خاف عذاب الآخرة ، فصرح بأن الخوف واقع على عذاب الآخرة فهو المفعول، والخوف المذكور فى هود هو الخشية المذكورة فى النازعات ، فقوله فى هود:

---

١. سورة الأنعام : الآية ٨.
٢. سورة الفرقان : الآية ٧.
٣. سورة البقرة : الآية ٧٤.
٤. سورة المائدة : الآية ١٣.
٥. سورة الحديد : الآية ١٦.
٦. سورة آل عمران : الآية ١٠٦.
٧. سورة آل عمران : الآية ١٠٦.
٨. سورة الزّمر : الآية ٦٠.
٩. سورة النّازعات : الآية ٢٦.
١٠. سورة النّازعات : الآية ٢٥.

﴿ وما أمر فرعون برشيد يقدم قومه يوم القيٰمة فأوردهم النار - إلى قوله - المرفود ﴾[١]، وقوله بعده: ﴿ إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ﴾[٢] يدل على أن المفعول المحذوف في النازعات هو عذاب الآخرة، لتصريحه تعالى به في نفس القصة في هود، ويؤيده قوله تعالى في الذاريات: ﴿ وفي موسى إذ أرسلنٰه إلى فرعون بسلطٰن مبين ﴾[٣] الآية: لأن قوله: ﴿ وفي موسى ﴾ معطوف على قوله: ﴿ وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ﴾[٤]، فيكون المعنى: وتركنا في قصة فرعون مع موسى وما أصابه من العذاب بسبب تكذيبه له آية للذين يخافون العذاب الأليم، ففيه بيان المفعول وأنه عذاب الآخرة، كما ذكر في هود، وسترى إن شاء الله إيضاحه في النازعات، ومثاله في أحد المفعولين قوله: ﴿ثم اتخذتم العجل ﴾[٥] الآية. ونحوها من جميع آيات اتخاذهم العجل إلهاً، فإن المفعول الثاني محذوف في جميعها، وتقديره اتخذتم العجل إلهاً، ونكتة حذفه دائماً التنبيه على أنه لا ينبغي أن يتلفظ بأن عجلا مصطنعاً إله، وقد أشار إلى هذا المفعول في طه بقوله: ﴿ فكذلك ألقى السامري فأخرج لهم عجلاً جسدا له خوار فقالوا هذا إلٰهكم وإله موسى ﴾[٦]، ومثال ذكر ظرف المكان قوله تعالى: ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾[٧]، ثم بين في سورة الروم أن السماوات والأرض من الظروف المكانية لحمده جل وعلا، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وله الحمد في السماوات والأرض ﴾[٨] الآية. ومثال ذكر ظرف الزمان قوله تعالى في القصص: ﴿ له الحمد في الأولى والآخرة ﴾[٩]، وقوله في أول سبأ: ﴿ وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير ﴾[١٠] فبين أن الدنيا والآخرة من الظروف الزمانية لحمده، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾[١١]، فإنه بين في النساء: أن شهادة الرسول واقعة يوم القيامة وذلك في قوله: ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً * يومئذ يودّ الذين

---

١. سورة هود: الآية ٩٧ـ٩٩.
٢. سورة هود: الآية ١٠٣.
٣. سورة الذاريات: الآية ٣٩.
٤. سورة الذاريات: الآية ٣٧.
٥. سورة البقرة: الآية ٥١.
٦. سورة طه: الآية ٨٨.
٧. سورة الفاتحة: الآية ١.
٨. سورة الروم: الآية ١٨.
٩. سورة القصص: الآية ٧٠.
١٠. سورة سبأ: الآية ١.
١١. سورة البقرة: الآية ١٤٣.

كفروا وعصوا الرسول لو تسوّى بهم الأرض ﴾[١]، ومثال ذكر المتعلق قوله تعالى في النساء: **﴿ وحرّض المؤمنين عسى الله أن يكفّ بأس الذين كفروا ﴾**[٢] الآية. فإنه لم يبين هنا متعلق التحريض ولكنه بينه في الأنفال بقوله: **﴿ وحرّض المؤمنين على القتال ﴾**[٣] الآية. ومن أمثلته قوله تعالى: **﴿ وجاء ربك والملك صفا صفا ﴾**[٤]، وقوله: **﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك ﴾**[٥] الآية. فإنه ذكر في البقرة لإتيانه جل وعلا يوم القيامة متعلقاً، وذلك في قوله: **﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام ﴾**[٦] الآية. فالجار والمجرور الذي هو قوله في ظلل يتعلق بقوله يأتيهم، ومن أمثلته قوله: **﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة ﴾**[٧] الآية. وقوله: **﴿ وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ﴾**[٨]، وقوله: **﴿ إذا السماء انشقت ﴾**[٩] فقد ذكر لانشقاقها متعلقاً في الفرقان في قوله: **﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ﴾**[١٠] الآية.

ومن أنواع البيان المذكورة في هذا الكتاب المبارك الاستدلال على أحد المعاني الداخلة في معنى الآية بكونه هو الغالب في القرآن، فغلبته فيه دليل على عدم خروجه من معنى الآية، ومثاله قوله تعالى: **﴿ لأغلبن أنا ورسلي ﴾**[١١] فقد قال بعض العلماء: إن المراد بهذه الغلبة، الغلبة بالحجة والبيان،

والغالب في القرآن هو استعمال الغلبة في الغلبة بالسيف والسنان، وذلك دليل واضح على دخول تلك الغلبة في الآية؛ لأن خير ما يبين به القرآن القرآن فمن ذلك قوله تعالى: **﴿ قل للذين كفروا ستغلبون ﴾**[١٢]، وقوله: **﴿ ومن يقتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب ﴾**[١٣]، وقوله: **﴿ إن يكن منكم عشرون صبرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا ﴾**[١٤]، وقوله: **﴿ فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف**

---

١. سورة النساء: الآية ٤١ ـ ٤٢.
٢. سورة النساء: الآية ٨٤.
٣. سورة الانفال: الآية ٦٥.
٤. سورة الفجر: الآية ٢٢.
٥. سورة الانعام: الآية ١٥٨.
٦. سورة البقرة: الآية ٢١٠.
٧. سورة الرحمن: الآية ٣٧.
٨. سورة الحاقة: الآية ١٦.
٩. سورة الانشقاق: الآية ١.
١٠. سورة الفرقان: الآية ٢٥.
١١. سورة المجادلة: الآية ٢١.
١٢. سورة آل عمران: الآية ١٢.
١٣. سورة النساء: الآية ٧٤.
١٤. سورة الأنفال: الآية ٦٥.

يغلبوا ألفين بإذن الله ﴾[١] الآية. وقوله: ﴿ الم * غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بعض سنين ﴾[٢] إلى غير ذلك من الآيات، وقد يكون المعنى المذكور متكرراً قصده في القرآن، إلا أنه ليس أغلب من قصد سواه، والاستدلال به مذكور في هذا الكتاب أيضا * وهو دون الأول في الرتبة، فالاستدلال به شبه الاستئناس، ومثاله قوله تعالى: ﴿ والله محيط بالكفرين ﴾[٣]، فقد قال بعض أهل العلم: معناه مهلكهم، وإطلاق الإحاطة وإرادة الإهلاك متكرر في القرآن، إلا أنه ليس أغلب في معنى الإحاطة في القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿ وظنوا أنهم أحيط بهم ﴾[٤]، وقوله: ﴿ لتأتنني به إلا أن يحاط بكم ﴾[٥] على أحد القولين، وقوله: ﴿ وأحيط بثمره ﴾[٦] الآية ...

ومن هذا النوع إطلاق الظلم على الشرك كقوله: ﴿ ولم يلبسوا إيمنهم بظلم ﴾[٧]، وقوله: ﴿ إن الشرك لظلم ﴾[٨]، وقوله: ﴿ والكفرون هم الظلمون ﴾[٩]، وقوله: ﴿ ولا تدعُ من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك، فإن فعلت فإنك إذاً من الظلمين ﴾[١٠]...

ومن أنواع البيان المذكورة في هذا الكتاب المبارك وهو من أهمها، بيان أن جميع ما وصف الله به نفسه في هذا القرآن العظيم من الصفات كالاستواء واليد والوجه ونحو ذلك من جميع الصفات، فهو موصوف به حقيقة لا مجازاً مع تنزيهه جل وعلا عن مشابهة صفات الحوادث سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، وذلك البيان العظيم لجميع الصفات في قوله جل وعلا: ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾[١١] فنفى عنه مماثلة الحوادث بقوله: ﴿ ليس كمثله شيء ﴾، وأثبت له الصفات على الحقيقة بقوله: ﴿ وهو السميع البصير ﴾ ....

ومن أنواع البيان التي تضمنها هذا الكتاب المبارك أنا إذا بينا قرآناً بقرآن في مسألة يخالفنا فيها غيرنا، ويدعي أن مذهبه المخالف لنا يدل عليه قرآن أيضاً، فإنا نبين بالسنة

١. سورة الأنفال: الآية ٦٦.
٢. سورة الروم: الآية ١ـ٤.
٣. سورة البقرة: الآية ١٩.
٤. سورة يونس: الآية ٢٢.
٥. سورة يوسف: الآية ٦٦.
٦. سورة الكهف: الآية ٤٢.
٧. سورة الأنعام: الآية ٨٢.
٨. سورة لقمان: الآية ١٣.
٩. سورة البقرة: الآية ٢٥٤.
١٠. سورة يونس: الآية ١٠٦.
١١. سورة الشورى: الآية ١١.

الصحيحة صحة بياننا وبطلان بيانه، فيكون استدلالنا بكتاب وسنة، فإن استدل من خالفنا بسنة أيضاً مع القرآن الذى استدل به، فإننا نبين رجحان ما يظهر لنا أنه الراجح، وكذلك إذا استدل مخالفنا بقرآن ولم يقم دليل من سنة شاهداً لنا ولا له، فإنا نبين وجه رجحان بياننا على بيانه، مثال الأولى من هذه المسائل الثلاث قولنا: إن قراءة: ﴿ وأرجلكم إلى الكعبين ﴾[١] بالخفض المفهمة مسح الرجلين فى الوضوء، تبيّنها قراءة: وأرجلكم بالنصب الصريحة فى الغسل فهى مبينة وجوب غسل الرجلين فى الوضوء، فيفهم منها أن قراءة الخفض لأجل المجاورة للمخفوض أو لغير ذلك من المعانى، كما ستراه إن شاء الله مبيناً فى المائدة، فيقول الشيعى القائل بمسح الرجلين فى الوضوء، بل قراءة الخفض صريحة فى المسح على الرجلين، فهى مبينة أن قراءة النصب من العطف على المحل؛ لأن المجرور الذى هو برؤوسكم فى محل نصب، فنقول: السنة الصحيحة تدل على صحة بياننا وبطلان بيانك، كقوله ﷺ: «ويل للأعقاب من النار»، وغير ذلك من الأحاديث الصحيحة المصرحة بوجوب غسل الرجلين فى الوضوء، ولنا أيضاً أن نقول: لو سلمنا أن قراءة وأرجلكم بالخفض يراد بها المسح، فلا يكون ذلك المسح إلا على خف؛ لأن من أنزل عليه القرآن ﷺ قيل له: ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾[٢] ولم يمسح ﷺ على رجليه فى الوضوء إلا على خفين، فتكون قراءة النصب مبينة لوجوب غسلهما، وقراءة الخفض مبينة لجواز المسح على الخفين، وسترى تحقيق هذه المسألة إن شاء الله فى محلها من سورة المائدة.

ومثال المسألة الثانية من المسائل الثلاث المذكورة، قولنا: إن الأظهر فى القروء فى قوله تعالى: ﴿ ثلاثة قروء ﴾[٣] أنها الأطهار بدليل قوله تعالى: ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾، والزمن المأمور بالطلاق فيه زمن الطهر لا زمن الحيض، فدل على أن العدة بالطهر وتدل له السنة الصحيحة كقوله ﷺ فى حديث ابن عمر: «فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء» والإشارة فى قوله: فتلك العدة لزمن الطهر الواقع فيه الطلاق، وهو تصريح من

١. سورة المائدة: الآية ٦.
٢. سورة النحل: الآية ٤٤.
٣. سورة البقرة: الآية ٢٢٨.

النبى ﷺ ان الطهر هو العدة، وتدل له التاء فى ثلاثة قروء كما تقدم، واستدل من يقول: بأن القروء الحيضات بكتاب وسنة أيضاً، أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿ والّٰىءِ ينسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر وَالّٰىءِ لم يحضن ﴾[١] فإنه رتب العدة بالأشهر على عدم الحيض، فدل على أن أصل العدة بالحيض، وأن الأشهر بدل من الحيضات عند عدمها، وأما السنة فحديث اعتداد الأمة بحيضتين وحديث: «دعى الصلاة أيام أقرائك» وسترى تفصيل هذه المسألة وأدلة الفريقين فى سورة البقرة إن شاء الله.

وقد ذكرنا أن كونها الأطهار أرجح دليلا فى نظرنا، لأن آيتها أصرح وحديثها المصرح بها أصح، ومثال المسألة الثالثة من المسائل الثلاث المذكورة بياننا أن نائب الفاعل ربيون فى قوله تعالى: ﴿ وكأين من نبى قُتل معه ربيون ﴾[٢] على قراءة البناء للمفعول بقوله تعالى: ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ﴾[٣] ونحوها من الآيات، وبيانه أننا لو قلنا: إن نائب الفاعل ضمير النبى لزم على ذلك قتل كثير من الأنبياء في ميدان الحرب، كما تدل عليه صيغة كأين، وتصريح الله تعالى بأنه كتب الغلبة لنفسه ولرسله ينفى ذلك نفياً لا خفاء به، لا سيما وقد قال تعالى: ﴿ ولقد كُذِّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كُذِّبوا وأُو ذوا حتى أتٰهم نصرنا ولا مبدِّل لكلمٰت الله ﴾[٤]، فإن قوله تعالى: ﴿ ولا مبدِّل لكلمٰت الله ﴾ صريح فى أنه لا مبدل لكون الرسل غالبين؛ لأن غلبتهم لأعدائهم هى مضمون كلمة كتب الله لأغلبن أنا ورسلى، فلا شك أنها من كلماته التى صرح بأنها لا مبدل لها كما ذكره القرطبى وغير واحد، ونفى عن المنصور أن يكون مغلوباً نفيا باتا بقوله: ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾[٥].

وقد أوضح تعالى أن المقتول من المتقاتلين ليس غالباً فى قوله: ﴿ ومن يقتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب ﴾[٦] الآية ـ حيث جعل الغالب قسما مقابلا للمقتول، ومعلوم ضرورة من اللسان الذى نزل به القرآن المقتول من المتقاتلين ليس بغالب، فهذا يبين بإيضاح أن نائب الفاعل ربيون، ويستشهد له بقراءة قتل بالتشديد؛ لأن التكثير المدلول عليه بالتشديد يدل على وقوع القتل على الربيين، ولأجل هذه القراءة رجح الزمخشرى

---

١. سورة الطّلاق: الآية ٤.
٢. سورة آل عمران: الآية ١٤٦.
٣. سورة المجادلة: الآية ٢١.
٤. سورة الأنعام: الآية ٣٤.
٥. سورة آل عمران: الآية ١٦٠.
٦. سورة النساء: الآية ٧٤.

وابن جنى والبيضاوى والألوسى وغيرهم أن نائب الفاعل ربيون، وقد قدمنا أنا لا نعتمد فى البيان على القراءة الشاذة، وإنما نذكرها استشهاداً للبيان بقراءة سبعية كما هنا ، فيقول المخالف لنا في هذهالمسألة كابن جرير، وابنإسحاق، والسهيلى -رحمهمالله - وغيرهم : قد دلت آيات أخر على أن نائب الفاعل ضمير النبىﷺ ، وهى الآيات المصرحة بوقوع القتل على بعض الأنبياء كقوله : ﴿ فريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾[١] ونحوها من الآيات، وهى تبين أن القتل فى محل النزاع واقع على النبى ﷺ ، فنقول: يجب تقديم بياننا على بيانكم من ثلاثة أوجه:

الأول: أن الآيات المصرحة بقتل الكفار بعض الرسل التى هى دليل بيانكم أعم من محل النزاع؛ لأن النزاع فى قتل الرسل فى ميدان الحرب خاصة دون غيره، والآيات التى دلت على قتل بعض الرسل ليست واحدة منها فى خصوص القتال البتة، والبيان لا يكون بالأعم؛ لأن الدليل على الأعم ليس دليلا على الأخص؛ لإطباق العقلاء كافة على أن وجود الأعم لا يقتضى وجود الأخص؛ فمطلق قتل الرسول لا يدل على كونه فى جهاد، لأنه أعم من كونه فى جهاد أو غيره كما هو واضح، بخلاف البيان الذى ذكرنا بقوله: ﴿ لأغلبن أنا ورسلى ﴾[٢] ونحوها، فإنه فى محل النزاع؛ لأنه يصرح بأن الرسل غالبون، وهو نص فى أن الرسول المقاتل غير مقتول، لأن المقتول غير غالب كما بينه بقوله: ﴿ فيقتل أو يغلب ﴾[٣] كما تقدم، ومعلوم أنه لا يعارض خاص فى محل النزاع بأعم منه.

الوجه الثانى: أن البيان الذى ذكرنا تتفق به آيات القرآن العظيم على أفصح الأساليب العربية ولم يقع بينها تصادم البتة، وما ذكره المخالف يؤدى إلى تناقضها ومصادمة بعضها لبعض، لأن الرسول الذى لم يؤمر بجهاد إذا قتل لم يكن فى ذلك إشكال ولا مناقضة لقوله: ﴿ لأغلبن أنا ورسلى ﴾ لأنه لم يؤمر بالمغالبة، فلا يصدق عليه أنه مغلوب ولا غالب لعدم وجود المغالبة من أصلها فى حقه؛ لأنها إن عدمت من أصلها فلا يقال : غالب ولا مغلوب، لأن الغلبة صفة إضافية لا تقوم إلا بين متغالبين بخلاف قتل الرسول

---

١. سورة البقرة : الآية ٨٧.
٢. سورة المجادلة : الآية ٢١.
٣. سورة النساء : الآية ٧٤.

المأمور بالمغالبة في الجهاد، فإنه مناقض لقوله : ﴿ لأغلبن أنا ورسلي ﴾ والله يقول فيما وعد به رسله: ﴿ ولا مبدّل لكلمٰت الله، ولقد جاءك من نبإى المرسلين ﴾[1].

الثالث: أن جميع الآيات الدالة على قتل بعض الرسل المستدل بها على صورة النزاع كلها واردة في قتل الرسل في غير جهاد، كقتل بني إسرائيل أنبياءهم ظلماً في غير قتال ... وربما كان في الآية الكريمة أقوال كلها حق وكل واحد منها يشهد له قرآن، فإنا نذكرها ونذكر القرآن الدال عليها من غير تعرض لترجيح بعضها؛ لأن كل واحد منها صحيح، ومثاله قوله تعالى في أول الأنعام: ﴿ وهو الله في السمٰوٰت وفي الأرض يعلم سرّكم وجهركم ﴾[2] الآية ـ فإن فيه للعلماء ثلاثة أقوال:

الأول: أن المعنى وهو الإله أي: المعبود بحق في السماوات والأرض ويدل له قوله تعالى: ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾[3].

الثاني: أن قوله في السماوات وفي الأرض متعلق بقوله يعلم سرّكم ، وعليه: فالمعنى وهو الله يعلم سرّكم وجهركم في السماوات والأرض، ويدل له قوله تعالى: ﴿ قل أنزله الذي يعلم السرّ في السمٰوات والأرض ﴾[4] الآية.

الثالث: وهو اختيار ابن جرير أن الوقف على قوله: في السماوات وقوله: وفي الأرض متعلق بقوله: يعلم سرّكم، ويدل له قوله تعالى: ﴿ ءأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض ﴾[5] الآية ...

ومن أنواع البيان المذكورة فيه تفسير اللفظ بلفظ أشهر منه وأوضح عند السامع كقوله في حجارة قوم لوط: ﴿ وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾[6] الآية ـ فإنه تعالى بين في الذاريات في القصة بعينها أن المراد بالسجيل الطين، وذلك في قوله تعالى: ﴿ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ۞ لنرسل عليهم حجارة من طين ﴾[7] الآية ـ ومن أنواع البيان المذكورة فيه أن يرد لفظ محتمل لأن يراد به الذكر وأن تراد به الانثى ، فيبين المراد منهما،

١. سورة الأنعام: الآية ٣٤.
٢. سورة الأنعام: الآية ٣.
٣ سورة الزخرف: الآية ٨٤.
٤. سورة الفرقان: الآية ٦.
سورة الملك: الآية ١٦.
٦. سورة هود: الآية ٨٢.
سورة الذاريات: الآية ٣٢ـ٣٣.

ومثاله قوله تعالى: ﴿ وإذ قتلتم نفساً ﴾ الآية ـ فإن النفس تطلق على الذكر والأنثى، وقد أشار تعالى إلى أنها هنا ذكر بتذكير الضمير العائد إليها في قوله: ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها ﴾[1] الآية.

ومن أنواع البيان المذكورة فيه أن يكون الله خلق شيئاً لحكم متعددة فيذكر بعضها في موضع، فإنا نبين البقية المذكورة في المواضع الأخر، ومثاله قوله تعالى في الأنعام: ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها ﴾[2] الآية ـ فإن من حكم خلق النجوم تزيين السماء الدنيا ورجم الشياطين أيضاً كما بينه تعالى بقوله: ﴿ ولقد زيّنا السماء الدنيا بمصٰبيح وجعلنٰها رجوماً للشيٰطين ﴾[3]، وقوله: ﴿ إنّا زيّنا السماء الدنيا بزينة الكواكب ۞ وحفظاً من كل شيطٰن مارد ﴾[4]، ومن أنواعها أن يُذكر أمر أو نهي في موضع، ثم يبين في موضع آخر هل حصل الامتثال في الأمر أو النهي أو لا؟ وكذلك أن يُذكر شرط ثم يُذكر في موضع آخر هل حصل ذلك الشرط أو لا؟ فمثال الأمر قوله تعالى لنبيه ﷺ والمؤمنين: ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ـ إلى قوله ـ لا نفرق بين أحد منهم ﴾[5]. فقد بيّن أنهم امتثلوا هذا الأمر بقوله: ﴿ آمن الرسول ـ إلى قوله ـ لا نفرق بين احد من رسله ﴾، ومثال النهي قوله تعالى: ﴿ وقلنا لهم لا تعدوا في السبت ﴾[6] فقد بيّن أنهم لم يمتثلوا بقوله: ﴿ ولقد علمتم الّذين عتدوا منكم في السبت ﴾[7] الآية ـ وقوله: ﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت ﴾[8] الآية ـ والمراد بعضهم، ومثال الشرط قوله: ﴿ ولا يزالون يقٰتلونكم حتى يردّوكم عن دينكم إن استطٰعوا ﴾[9] فقد بيّن في أول المائدة أنهم لم يستطيعوا بقوله: ﴿ اليوم يئس الذين كفروا من دينكم ﴾[10] وقد بينه أيضاً بقوله في براءة والفتح والصف: ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾[11].

ومن أنواع البيان المذكورة فيه أن يذكر أن شيئاً سيقع ثم يبين وقوعه بالفعل كقوله في

١. سورة البقرة: الآية ٧٢ ـ ٧٣.
٢. سورة الأنعام: الآية ٩٧.
٣. سورة الملك: الآية ٥.
٤. سورة الصّافات: الآية ٦ ـ ٧.
٥. سورة البقرة: الآية ١٣٦.
٦. سورة النساء: الآية ١٥٤.
٧. سورة البقرة: الآية ٦٥.
٨. سورة الأعراف: الآية ١٦٣.
٩. سورة البقرة: الآية ٢١٧.
١٠. سورة المائدة: الآية ٣.
١١. سورة التوبة: الآية ٣٣.

الأنعام: ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ﴾[١] الآية ـ وصرح في النحل بأنهم قالوا ذلك بالفعل بقوله: ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء ﴾[٢].

ومن أنواع البيان المذكورة في هذا الكتاب المبارك أن يحيل تعالى على شيء ذكر في آية أخرى، فإنا نبين الآية المحال عليها كقوله في النساء : ﴿ وقد نزل عليكم في الكتب أن إذا سمعتم ءايت الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم ﴾[٣] الآية ـ والآية المحال عليها هي قوله تعالى في الأنعام: ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في ءايتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾[٤]، ومن أمثلته قوله تعالى في النحل : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك ﴾[٥] الآية ـ والمراد به ما قص عليه في الأنعام في قوله تعالى: ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ﴾[٦] الآية ـ ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿ فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾[٧] فإن محل الإتيان المعبر عنه بلفظة حيث المحال على الأمر به هنا أشير إليه في موضعين:

أحدهما: قوله هنا: ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾[٨]؛ لأن قوله: فأتوا أمر منه تعالى بالإتيان، وقوله: حرثكم يعين محل الإتيان وأنه في محل حرث الأولاد وهو القبل دون الدبر، فاتضح أن محل الإتيان المأمور به المحال عليه هو محل بذر الأولاد، ومعلوم أنه القبل، وسترى إن شاء الله تحقيق تحريم الإتيان في الدبر في سورة البقرة.

الثاني: قوله تعالى : ﴿ فالئن بشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾[٩]، فقوله تعالى: باشروهن أي جامعوهن، والمراد بما كتب الله لكم الولد على التحقيق، وهو قول الجمهور، وعليه فالمعنى : جامعوهن وابتغوا ما كتب الله لكم أي ولتكن تلك المجامعة في محل ابتغاء الولد، ومعلوم أنه القبل دون غيره . ومن أنواع البيان المذكورة فيه أن يذكر شيء له أوصاف مذكورة في مواضع أخر، فإنا نبين أوصافه المذكورة في تلك المواضع كقوله

---

١. سورة الأنعام: الآية ١٤٨.
٢. سورة النحل: الآية ٣٥.
٣. سورة النساء: الآية ١٤٠.
٤. سورة الأنعام: الآية ٦٨.
٥. سورة النحل: الآية ١١٨.
٦. سورة الأنعام: الآية ١٤٦.
٧. سورة البقرة: الآية ٢٢٢.
٨. سورة البقرة: الآية ٢٢٣.
٩. سورة البقرة: الآية ١٨٧.

تعالى : ﴿ وندخلهم ظلاً ظليلا ﴾[١] فإنا نبين صفات ظلّ أهل الجنة المذكورة فى غير هذا الموضع كقوله : ﴿ أكلها دائم وظلها ﴾[٢]، وقوله ﴿ وظل ممدود ﴾[٣] ونحو ذلك. ومنها أيضاً أن يذكر وصف الشيء، ثم يذكر نقيض ذلك الوصف لضد ذلك الشيء كقوله فى ظل أهل النار : ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذّبون * انطلقوا إلى ظلٍّ ذى ثلاث شعب لا ظليل ولا يغنى من اللهب ﴾[٤]، مع ذكر أوصاف ظل أهل الجنة كما قدمنا.

ومن أهم أنواع البيان المذكورة فيه أن يشير تعالى فى الآية من غير تصريح إلى برهان يكثر الاستدلال به فى القرآن العظيم على شيء، فإنا نبين ذلك، ومثاله قوله تعالى: ﴿ يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذى جعل لكم الأرض فرٰشاً، والسماء بناء، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرٰت رزقاً لكم ﴾[٥]، فقد أشار تعالى فى هذه الآية الكريمة إلى ثلاثة براهين من براهين البعث يكثر الاستدلال على البعث بكل واحد منها فى القرآن.

الأول: خلق الخلائق أولاً فإنه من أعظم الأدلة على القدرة على الخلق مرة أخرى، وقد أشار تعالى إلى هذا البرهان هنا بقوله : ﴿ الذى خلقكم ﴾ الآية ـ وأوضحه فى آيات كثيرة كقوله : ﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ﴾[٦]، وقوله: ﴿ وهو الذى يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾[٧]، وقوله : ﴿ يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقنٰكم من تراب ﴾[٨] والآيات بمثل هذا كثيرة جداً.

الثانى: خلق السماوات والأرض؛ لأن من خلق ما هو أكبر وأعظم فهو قادر على خلق ما هو أصغر بلا شك، وأشار لذلك هنا بقوله: ﴿ الذى جعل لكم الأرض فرٰشاً والسماء بناءً ﴾[٩] الآية ـ وأوضحه فى آيات كثيرة كقوله : ﴿ أأنتم أشدّ خلقاً أم السماء بناها﴾ الآية وقوله: ﴿ أوليس الذى خلق السمٰوٰت والأرض بقٰدر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلّٰق

١. سورة النساء : الآية ٥٧.
٢. سورة الرّعد : الآية ٣٥.
٣. سورة الواقعة : الآية ٣٠.
٤. سورة المرسلات : الآية ٢٩ ـ ٣٠.
٥. سورة البقرة : الآية ٢١ ـ ٢٢.
٦. سورة يسٓ : الآية ٧٩.
٧. سورة الرّوم : الآية ٢٧.
٨. سورة الحج : الآية ٥.
٩. سورة البقرة : الآية ٢٢.

العليم ﴾[١]، وقوله: ﴿ لخلق السمٰوٰت والأرض أكبر من خلق الناس ﴾[٢] والآيات بمثل هذا كثيرة أيضاً.

الثالث: إحياء الأرض بعد موتها، وقد أشار له هنا بقوله: ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ﴾[٣]، وأوضحه في آيات كثيرة كقوله: ﴿ إن الذى أحياها لمحيى الموتى ﴾[٤]، وقوله: ﴿ ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ﴾[٥]، وقوله: ﴿ وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج ﴾[٦] والآيات بمثل ذلك كثيرة أيضا، وسترى إن شاء الله تعالى أمثلة كثيرة للبراهين الثلاثة المذكورة فى محلها.

ومن أنواع البيان المذكورة فيه أن يذكر لفظ عام، ثم يصرح فى بعض المواضع بدخول بعض أفراد ذلك العام فيه كقوله: ﴿ ذلك ومن يعظم شعٰئر الله ﴾[٧] الآية ـ فقد صرح بدخول البدن في هذا العموم بقوله بعده: ﴿ والبدن جعلنٰها لكم من شعائر الله ﴾[٨].

واعلم أن مما التزمنا فى هذا الكتاب المبارك أنه إن كان للآية الكريمة مبين من القرآن غير واف بالمقصود من تمام البيان فإنا نتمم البيان من السنة من حيث إنها تفسير للمبين باسم الفاعل، ومثاله قوله تعالى: ﴿ إن الصلوٰة كانت على المؤمنين كتٰبا موقوتا ﴾[٩]، فقد أشار تعالى إلى أوقاتها فى قوله: ﴿ أقم الصلوٰة لدلوك الشمس ﴾[١٠] الآية ـ وقوله: ﴿ وأقم الصلوٰة طرفى النهار ﴾[١١] الآية ـ وقوله: ﴿ فسبحٰن الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾[١٢] الآية ـ على ما ذكره جمع من العلماء من أنها فى أوقات الصلاة وكقوله تعالى: ﴿ وءاتوا حقه يوم حصاده ﴾[١٣] على القول بأنها فى الزكاة وأنها غير منسوخة، فإنها تشير لها آيات الزكاة كقوله: ﴿ وآتوا الزكاة ﴾، وقوله: ﴿ ومما أخرجنا لكم من الأرض ﴾[١٤] وكقوله: ﴿ قل

١. سورة يس: الآية ٨١.
٢. سورة غافر: الآية ٥٧.
٣. سورة البقرة: الآية ٢٢.
٤. سورة فصلت: الآية ٣٩.
٥. سورة الروم: الآية ٣٩.
٦. سورة ق: الآية ١١.
٧. سورة الحج: الآية ٣٢.
٨. سورة الحج: الآية ٣٦.
٩. سورة النساء: الآية ١٠٣.
١٠. سورة الإسراء: الآية ٧٨.
١١. سورة هود: الآية ٧٨.
١٢. سورة الروم: الآية ١٧.
١٣. سورة الأنعام: الآية ١٤١.
١٤. سورة البقرة: الآية ٢٦٧.

لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً على طاعم يطعمه ﴾[1] الآية - فإن القرآن زيد فيه على هـذا الحصر تحريم الخمر فنبين ما زاده ﷺ بالسنة الصحيحة ، فمثل هذه المسائل نبينها بـيانا تاما بالسنة تبعاً للبيان القرآني.

واعلم أن الغالب فى الأمثلة التى ذكرنا كلها تعددها فى القرآن بكثرة ومنها مـا يـتعدد من غير كثرة ، وربما ذكرنا فرداً من أفراد البيان لا نـظير له كـإشارته تـعالى إلى أقـل أمـد الحمل بقوله: ﴿ وحمله وفصٰلهُ ثلاثون شهراً ﴾[2] مع قوله: ﴿ وفصٰلهُ فى عامين ﴾[3] فلم يبق للحمل من الثلاثين شهراً بعد عامى الفصال إلا ستة أشهر، فـدل ذلك عـلى أنـها أمـد للحمل يوضع فيه تاماً. واعلم أن أقسام البيان فى هذا الكتاب المبارك بالنسبة إلى المنطوق والمفهوم أربعة؛ لأن كلا من المبين باسم المفعول والمبين باسم الفاعل قد يكون منطوقاً، وقد يكون مفهوماً، فالمجموع أربع من ضرب حالتى المنطوق فى حالتى المفهوم.

الأولى: بيان منطوق بمنطوق كبيان قـوله تـعالى: ﴿ إلا مـا يـتلى عـليكم ﴾[4] بـقوله: ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾[5] الآية.

الثانية: بيان مفهوم بمنطوق كبيان مفهوم قوله: ﴿ هـدى للـمتقين ﴾[6] بـمنطوق قـوله تعالى: ﴿ والذين لا يؤمنون فى ءاذانهم وقر وهـو عـليهم عـمى ﴾[7] وقـوله: ﴿ ولا يـزيد الظّٰلمين إلا خسارا ﴾[8].

الثالثة: بيان منطوق بمفهوم كبيان قوله تعالى: ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ﴾[9] الآية. بمفهوم آيـة الأنـعام، فـإن تـحريم الدم مـطلقا مـنطوق هـنا وقـوله تـعالى فـى الأنـعام: ﴿ أو دماً مسفوحاً ﴾[10] يدل بمفهوم مخالفته على أن غير المسفوح ليس كذلك فيبين هذا المـفهوم أن المـراد بـالدم فـى الآيـة الأولى غـير المسـفوح، ومـن أمـثلته بـيان قـوله: ﴿ والزانى ﴾ بمفهوم المـوافـقة فـى قـوله: ﴿ فـعليهن نـصف مـا عـلى المـحصنٰت مـن

١. سورة الأنعام: الآية ١٤٥.
٢. سورة الأحقاف: الآية ١٥.
٣. سورة لقمان: الآية ١٤.
٤. سورة المائدة: الآية ١.
٥. سورة المائدة: الآية ٣.
٦. سورة البقرة: الآية ٢.
٧. سورة فصّلت: الآية ٤٤.
٨. سورة الإسراء: الآية ٨٢.
٩. سورة المائدة: الآية ٣.
١٠. سورة الأنعام: الآية ١٤٥.

العذاب ﴾[١]، فإنه يفهم من مفهوم موافقته أن العبد الذكر كالأمة فى ذلك يجلد خمسين، فيبين هذا المفهوم أن المراد بالزانى خصوص الحر.

واعلم أن مثل هذا من مفهوم الموافقة يسميه الشافعى وبعض الأصوليين قياساً، وهو المعروف عندهم بالقياس فى معنى الأصل، ويسمى مفهوم الموافقة، وإلغاء الفارق، وتنقيح المناط، وأكثر أهل الأصول على أنه مفهوم وليس بقياس، كما سترى تحقيقه فى مواضع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، ومن أمثلة بيان المنطوق بالمفهوم قوله فى الخمر: ﴿ رجس من عمل الشّيطٰن ﴾[٢] فإنه يدل على أنها نجسة العين؛ لأن الرجس هو المستقذر الخبيث ويدل له مفهوم قوله فى شراب الآخرة: ﴿ وسقٰهم ربهم شراباً طهورا ﴾[٣]؛ فإن مفهومه أن خمر أهل الدنيا ليست كذلك كما قاله الفراء وغير واحد.

الرابعة: بيان مفهوم بمفهوم ومثاله قوله تعالى: ﴿ والمحصنٰت من الذين أوتوا الكتاب ﴾[٤] على القول بأن المراد بالمحصنات الحرائر، كما روى عن مجاهد فإنه يدل بمفهومه على أن الأمة الكتابية لا يجوز نكاحها، ويدل لهذا أيضاً مفهوم قوله تعالى: ﴿ ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنٰت المؤمنٰت فمن مّا ملكت أيمٰنكم من فتيٰتكم المؤمنٰت ﴾[٥] فمفهوم قوله المؤمنات يدل على منع تزويج الإماء الكافرات ولو عند الضرورة، وهو بيان مفهوم بمفهوم كما ترى.

واعلم ـ وفقنى الله وإياك لما يحبه ويرضاه ـ أن هذا الكتاب المبارك تضمن أنواعاً كثيرة جداً من بيان القرآن بالقرآن غير ما ذكرنا تركنا ذكر غير هذا منها خوف إطالة الترجمة، والمقصود بما ذكرنا من الأمثلة مطلق بيان كثرة الأنواع التى تضمنها واختلاف جهاتها ـ وفى البعض تنبيه لطيف على الكل»[٦].

قال ابن عاشور: «فطرائق المفسرين للقرآن ثلاث، إما الاقتصار على الظاهر من المعنى الأصلى للتركيب مع بيانه وإيضاحه وهذا هو الأصل. وإما استنباط معان من وراء الظاهر تقتضيها دلالة اللفظ أو المقام ولا يجافيها الاستعمال ولا مقصد القرآن، وتلك هى

١. سورة النّساء: الآية ٢٥.
٢. سورة المائدة: الآية ٩٠.
٣. سورة الانسان: الآية ٢١.
٤. سورة المائدة: الآية ٥.
٥. سورة النساء: الآية ٢٥.
٦. اضواء البيان ج ١ ص ١٥ ـ ٣٠.

مستتبعات التراكيب، وهى من خصائص اللغة العربية المبحوث فيها فى علم البلاغة ككون التأكيد يدل على إنكار المخاطب أو تردده، وكفحوى الخطاب ودلالة الإشارة واحتمال المجاز مع الحقيقة، وإما أن يجلب المسائل ويبسطها لمناسبة بينها وبين المعنى، أو لأن زيادة فهم المعنى متوقفة عليها، أو للتوفيق بين المعنى القرآنى وبين بعض العلوم مما له تعلق بمقصد من مقاصد التشريع لزيادة تنبيه إليه، أو لرد مطاعن من يزعم أنه ينافيه لا على أنها مما هو مراد الله من تلك الآية بل لقصد التوسع كما أشرنا إليه فى المقدمة الثانية.

ففى الطريقة الثانية قد فرع العلماء وفصلوا فى الأحكام، وخصوها بالتآليف الواسعة، وكذلك تفاريع الأخلاق والآداب التى أكثر منها حجة الإسلام الغزالى فى كتاب الإحياء، فلا يلام المفسر إذا أتى بشىء من تفاريع العلوم مما له خدمة للمقاصد القرآنية، وله مزيد تعلق بالأمور الإسلامية كما نفرض أن يفسر قوله تعالى: ﴿ وكلّم الله موسى تكليما ﴾[1] بما ذكره المتكلمون فى إثبات الكلام النفسى والحجج لذلك، والقول فى ألفاظ القرآن وما قاله أهل المذاهب فى ذلك. وكذا أن يُفسر ما حكاه الله تعالى في قصة موسى مع الخضر بكثير من آداب المعلم والمتعلم كما فعل الغزالى. وقد قال ابن العربى: إنه أملى عليها ثمانمائة مسألة. وكذلك تقرير مسائل من علم التشريع لزيادة بيان قوله تعالى فى خَلق الإنسان: ﴿ من نطفة ثم من علقة ﴾[2] الآيات. فإنه راجع إلى المقصد وهو مزيد تقرير عظمة القدرة الإلهية.

وفى الطريقة الثالثة تُجلب مسائل علمية من علوم لها مناسبة بمقصد الآية: إما على أن بعضها يومئ إليه معنى الآية ولو بتلويح ما كما يفسر أحدٌ قوله تعالى: ﴿ ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ﴾[3] فيذكر تقسيم علوم الحكمة ومنافعها مُدخِلا ذلك تحت قوله: ﴿ خيرا كثيرا ﴾.

فالحكمة وإن كانت علما اصطلاحيا وليس هو تمامَ المعنى للآية إلا أن معنى الآية

---

١. سورة النساء: الآية ١٦٤.
٢. سورة الحج: الآية ٥، سورة غافر: الآية ٦٧.
٣. سورة البقرة، الآية ٢٦٩.

الأصلى لا يفوت وتفاريع الحكمة تعين عليه. وكذلك أن نأخذ من قوله تعالى: ﴿ كى لا يكون دُولةً بين الأغنياء منكم ﴾[١] تفاصيلَ من علم الاقتصاد السياسى وتوزيع الثروة العامة، ونعلل بذلك مشروعية الزكاة والمواريث والمعاملات المركبة من رأس مال وعمل على أن ذلك تومئ إليه الآية إيماء.

وأن بعض مسائل العلوم قد تكون أشد تعلقا بتفسير آى القرآن، كما نفرض مسألة كلامية لتقرير دليل قرآنى مثل برهان التَمَانع لتقرير معنى قوله تعالى: ﴿ لو كان فيهما ءالهةٌ إلا اللهُ لَفَسَدَتا ﴾[٢]، وكتقرير مسألة المتشابه لتحقيق معنى نحو قوله تعالى: ﴿ والسماءَ بنيْنها بأَيْيدٍ ﴾[٣] فهذا كونه من غايات التفسير واضح، وكذا قوله تعالى: ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيْنها وزيّنها ومالها من فروج ﴾[٤]، فإن القصد منه الاعتبار بالحالة المشاهَدة، فلو زاد المفسر ففصل تلك الحالة وبيّن أسرارها وعللها بما هو مبين فى علم الهيأة كان قد زاد المقصد خدمة. وإمّا على وجه التوفيق بين المعنى القرآنى وبين المسائل الصحيحة من العلم حيث يمكن الجمع. وإما على وجه الاستروّاح من الآية كما يؤخذ من قوله تعالى: ﴿ ويومَ نُسَيِّرُ الجبالَ ﴾[٥] أنَّ فناء العالم يكون بالزلازل ومن قوله: ﴿ إذا الشمس كُوِّرَتْ ﴾[٦] الآية أن نظام الجاذبية يختل عند فناء العالم.

وشرط كونِ ذلك مقبولا أن يُسلك فيه مسلك الإيجاز فلا تُجلَبُ إلا الخلاصةُ من ذلك العلم ولا يصير الاستطراد كالغرض المقصود له، لئلا يكون كقولهم: السّيءُ بالسّيءِ يُذْكَر[٧].

وللعلماء فى سلوك هذه الطريقة الثالثة على الإجمال آراء: فأما جماعة منهم فيرون من الحسَن التوفيق بين العلوم غير الدينية وآلاتِها وبين المعانى القرآنية، ويرون القرآن مشيرا إلى كثير منها. قال ابن رشد الحفيد فى فصل المقال: «أجمع المسلمون على أن ليس يجب أن تحمل ألفاظ الشرع كلها على ظاهرها، ولا أن تخرج كلها عن ظاهرها

١. سورة الحشر: الآية ٧.
٢. سورة الأنبياء: الآية ٢٢.
٣. سورة الذاريات: الآية ٤٧.
٤. سورة ق: الآية ٦.
٥. سورة الكهف: الآية ٤٧.
٦. سورة الشمس: الآية ٢.
٧. السي بسين: مهملة مكسورة وتحتية مشددة: النظير والمثيل.

بالتأويل، والسبب فى ورود الشرع بظاهر وباطن هو اختلاف نظر الناس. وتباين قرائحهم فى التصديق» وتخلّص إلى القول : بأن بين العلوم الشرعية والفلسفية اتصالا. وإلى مثل ذلك ذهب قطب الدين الشيرازى فى شرح حكمة الإشراق، وهذا الغزالى والإمام الرازى وأبوبكر ابن العربى وأمثالهم صنيعهم يقتضى التبسط وتوفيق المسائل العلمية، فقد ملأوا كتبهم من الاستدلال على المعانى القرآنية بقواعد العلوم الحكمية وغيرها وكذلك الفقهاء فى كتب أحكام القرآن، وقد علمت ما قاله ابن العربى فيما أملاه على سورة نوح وقصة الخضر» ، وكذلك ابن جنى والزجاج وأبو حيان قد أشبعوا تفاسيرهم من الاستدلال على القواعد العربية، ولا شك أن الكلام الصادر عن علاّم الغيوب تعالى وتقدس لا تبنى مَعانيه على فهم طائفة واحدة ولكن معانيه تطابق الحقائق، وكل ما كان من الحقيقة فى علم من العلوم وكانت الآية لها اعتلاق بذلك فالحقيقة العلمية مرادة بمقدار ما بلغت إليه أفهام البشر وبمقدار ما ستبلغ إليه. وذلك يختلف باختلاف المقامات ويبنى على توفر الفهم، وشرطه أن لا يخرج عما يصلح له اللفظ عربية، ولا يبعد عن الظاهر إلا بدليل، ولا يكون تكلفا بيّناً ولا خروجاً عن المعنى الأصلى حتى لا يكون فى ذلك كتفاسير الباطنية. وأما أبو إسحاق الشاطبى فقال فى الفصل الثالث من المسألة الرابعة: «لا يصح فى مسلك الفهم والإفهام إلا ما يكون عاما لجميع العرب. فلا يُتكلّف فيه فوق ما يقدرون عليه» ، وقال فى المسألة الرابعة من النوع الثانى: «ما تقرر من أمية الشريعة وأنها جارية على مذاهب أهلها وهم للعرب تنبني عليه قواعد، منها: أن كثيراً من الناس تجاوزوا فى الدعوى على القرآن الحدَّ فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين من : علوم الطبيعيات والتعاليم والمنطق وعلم الحروف وأشباهها وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح ، فإن السلف الصالح كانوا أعلم بالقرآن وبعلومه وما أودع فيه، ولم يبلغنا أن أحداً منهم تكلم فى شيء من هذا سوى ما ثبت فيه من أحكام التكاليف وأحكام الآخرة . نعم تضمن علوماً من جنس علوم العرب وماهو على معهودها مما يتعجب منه أولوالألباب ، ولا تبلغه ادراكات العقول الراجحة الخ». وهذا مبنى على ما أسسه من كون القرآن لما كان خطابا للأميين وهم العرب فإنما يعتمد فى

مسلك فهمه وإفهمامه على مقدرتهم وطاقتهم، وأن الشريعة أمية. وهو أساس واه لوجود ستة: الأول : أن ما بناه عليه يقتضى أن القرآن لم يقصد منه انتقال العرب من حال إلى حال وهذا باطل لما قدمناه، قال تعالى : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾[١] . الثاني : أن مقاصد القرآن راجعة إلى عموم الدعوة وهو معجزة باقية ، فلابد أن يكون فيه ما يصلح لأن تتناوله أفهام من يأتى من الناس فى عصور انتشار العلوم فى الأمة. الثالث : أن السلف قالوا: إن القرآن لا تنقضى عجائبه يعنون معانيه ، ولو كان كما قال الشاطبى لانقضت عجائبه بانحصار أنواع معانيه. الرابع : أن من تمام إعجازه أن يتضمن من المعانى مع إيجاز لفظه مالم تف به الأسفار المتكاثرة. الخامس : أن مقدار أفهام المخاطبين به ابتداءً لا يقضى إلا أن يكون المعنى الأصلى مفهوما لديهم ، فأما ما زاد على المعاني الأساسية فقد يتهيأ لفهمه أقوام، وتحجب عنه أقوام، ورب حامِل فقهٍ إلى من هو أفْقَه منه. السادس : أن عدم تكلم السلف عليها إن كان فيما ليس راجعا إلى مقاصده فنحن نساعد عليه، وإن كان فيما يرجع إليها فلا نسلم وقوفهم فيها عند ظواهر الآيات بل قد بيّنوا وفصّلوا وفرّعو فى علوم عُنُوا بها، ولا يمنعنا ذلك أن نقفّى على آثارهم فى علوم أخرى راجعة لخدمة الا مقاصد القرآنية أو لبيان سعة العلوم الإسلامية، أما ما وراء ذلك فإن كان ذكره لإيضاح المعنى فذلك تابع للتفسير أيضا. لأن العلوم العقلية إنما تبحث عن أحوال الأشياء على ما هى عليه، وإن كان فيما زاد على ذلك فذلك ليس من التفسير لكنه تكملة للمباحث العلمية واستطراد فى العلم لمناسبة التفسير ؛ ليكون متعاطى التفسير أوسع قريحة فى العلوم.

وذهب ابن العربى فى العواصم إلى إنكار التوفيق بين العلوم الفلسفية والمعانى القرآنية ولم يتكلم على غير هاته العلوم ، وذلك على عادته فى تحقير الفلسفة لأجل ما خولطت به من الضلالات الاعتقادية ، وهو مُفرط فى ذلك مستخف بالحكماء.

وأنا أقول: إن علاقة العلوم بالقرآن على أربع مراتب:

الأولى: علوم تضمّنها القرآن كأخبار الأنبياء والأمم، وتهذيب الأخلاق والفقه

---

١. سورة هود: الآية ٤٩.

والتشريع والاعتقاد والأصول والعربية والبلاغة.

الثانية: علوم تزيد المفسر علما كالحكمة والهيأة وخواص المخلوقات.

الثالثة: علوم أشار إليها أو جاءت مؤيّدة له كعلم طبقات الأرض والطب والمنطق.

الرابعة: علوم لا علاقة لها به، إما لبطلانها كالزجر والعيافة والميثولوجيا، وإما لأنها لا تعين على خدمته كعلم العروض والقوافي»[1].

قال الطباطبائي قدس سره: «... فقد شرع تاريخ هذا النوع من البحث والتنقير المسمى بالتفسير من عصر نزول القرآن كما يظهر من قوله تعالى وتقدس: ﴿ **كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويُزكّيكم ويعلّمكُم الكتاب والحكمة** ﴾ الآية[2].

وقد كانت الطبقة الاولى من مفسري المسلمين جماعة من الصحابة والمراد بهم غير علي عليه السلام، فانّ له وللأئمة من ولده نبأ آخر سنتعرّض له، كابن عباس وعبدالله ابن عمر وأُبي وغيرهم اعتنوا بهذا الشأن، وكان البحث يومئذ لا يتجاوز عن بيان ما يرتبط من الآيات بجهاتها الأدبية وشأن النزول وقليل من الاستدلال بآية على آية، وكذلك قليل من التفسير بالروايات المأثورة عن النبي صلى الله عليه وآله في القصص ومعارف المبدأ والمعاد وغيرها.

وعلى هذا الوصف جرى الحال بين المفسرين من التابعين كمجاهد وقتادة وابن أبي ليلى والشعبي والسدّي وغيرهم في القرنين الأوّلين من الهجرة، فإنهم لم يزيدوا على طريقة سلفهم من مفسري الصحابة شيئاً غير أنهم زادوا من التفسير بالروايات، (وبينها روايات دسّها اليهود أو غيرهم)، فأوردوها في القصص والمعارف الراجعة إلى الخلقة كابتداء السماوات وتكوين الأرض والبحار وإرم شدّاد وعثرات الأنبياء وتحريف الكتاب وأشياء أُخر من هذا النوع، وقد كان يوجد بعض ذلك في المأثور عن الصحابة من التفسير والبحث.

ثم استوجب شيوع البحث الكلامي بعد النبي صلى الله عليه وآله في زمن الخلفاء باختلاط المسلمين بالفرق المختلفة من أمم البلاد المفتوحة بيد المسلمين وعلماء الأديان

١. التحرير والتنوير ج ١ ص ٤٢ ـ ٤٥.
٢. سورة البقرة: الآية ١٥١.

والمذاهب المتفرقة من جهة.

ونقل فلسفة يونان إلى العربية في السلطنة الأموية أواخر القرن الأول من الهجرة، ثم في عهد العباسيين، وانتشار البحث العقلي الفلسفي بين الباحثين من المسلمين من جهة أُخرى ثانية.

وظهور التصوّف مقارناً لانتشار البحث الفلسفي ، وتمايل الناس الى نيل المعارف الدينية من طريق المجاهدة والرياضة النفسانية دون البحث اللفظي والعقلي من جهة أُخرى ثالثة.

وبقاء جمع من الناس وهم أهل الحديث على التعبد المحض بالظواهر الدينية من غير بحث ، إلا عن اللفظ بجهاتها الأدبية من جهة أُخرى رابعة.

ان اختلف الباحثون في التفسير في مسالكهم بعد ما عمل فيهم الانشعاب في المذاهب ما عمل، ولم يبق بينهم جامع في الرأي والنظر إلا لفظ لا إله إلا الله ومحمد رسول الله ﷺ ، واختلفوا في معنى الأسماء والصفات والأفعال ، والسماوات وما فيها والأرض وما عليها والقضاء والقدر والجبر والتفويض والثواب والعقاب ، وفي الموت وفي البرزخ والبعث والجنة والنار، وبالجملة في جميع ما تمسّه الحقائق والمعارف الدينية ولو بعض المسّ، فتفرقوا في طريق البحث عن معاني الآيات، وكل يتَحفَّظُ على متن ما اتخذه من المذهب والطريقة.

فأما المحدّثون، فاقتصروا على التفسير بالرواية عن السلف من الصحابة والتابعين، فساروا وجدّوا في السير حيث ما يسير بهم المأثور ووقفوا فيما لم يؤثر فيه شيء ولم يظهر المعنى ظهوراً لا يحتاج الى البحث ، أخذاً بقوله تعالى: ﴿ والرّسخون في العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا ﴾[1] الآية . وقد اخطأوا في ذلك ؛ فان الله سبحانه لم يبطل حجة العقل في كتابه، وكيف يعقل ذلك وحجيّته انما تثبت به ؟! ولم يجعل حجيّة في أقوال الصحابة والتابعين وأنظارهم على اختلافها الفاحش، ولم يدعُ الى السفسطة بتسليم المتناقضات والمتنافيات من الأقوال، ولم يندب إلاّ الى التدبر في آياته، فرفع به أي

١ـ سورة آل عمرآن: الآية ٧.

اختلاف يتراءى منها، وجعله هدىً ونوراً وتبياناً لكلّ شيء، فما بال النور يستنير بنور غيره ؟! وما شأن الهدى يهتدى بهداية سواه ؟! وكيف يتبين ما هو تبيان كلّ شيء بشيء دون نفسه ؟!.

واما المتكلمون فقد دعاهم الأقوال المذهبية على اختلافها أن يسيروا في التفسير على ما يوافق مذاهبهم بأخذ ما وافق وتأويل ما خالف، على حسب ما يجوّزه قول المذهب.

واختيار المذاهب الخاصة واتخاذ المسالك والآراء المخصوصة وإن كان معلولاً لاختلاف الأنظار العلمية أو لشيء آخر كالتقاليد والعصبيات القوميّة، وليس هيٰهنا محل الاشتغال بذلك، إلا أن هذا الطريق من البحث أحرى به أن يسمى تطبيقاً لا تفسيراً.

ففرقٌ بين أن يقول الباحث عن معنى آية من الآيات: ماذا يقول القرآن؟ او يقول: ماذا يجب أن نحمل عليه الآية؟ فان القول الاول يوجب أن ينسى كل أمر نظري عند البحث، وأن يتّكى على ما ليس بنظري، والثاني يوجب وضع النظريات في المسألة وتسليمها وبناء البحث عليها، ومن المعلوم أن هذا النحو من البحث في الكلام ليس بحثاً عن معناه في نفسه.

وأما الفلاسفة، فقد عرض لهم ما عرض للمتكلمين من المفسرين من الوقوع في ورطة التطبيق وتأويل الآيات المخالفة بظاهرها للمسلّمات في فنون الفلسفة بالمعنى الأعم ، أعني: الرياضيات والطبيعيات والإلٰهيات والحكمة العملية، وخاصة المشّائين، وقد تأولوا الآيات الواردة في حقائق ما وراءالطبيعة وآيات الخلقة وحدوث السماوات والأرض وآيات البرزخ وآيات المعاد، حتى أنهم ارتكبوا التأويل في الآيات التي لا تلائم الفرضيات والأصول الموضوعة التي نجدها في العلم الطبيعي: من نظام الأفلاك الكلية والجزئية وترتيب العناصر والأحكام الفلكية والعنصرية إلى غير ذلك، مع أنهم نصّوا على أن هذه الأنظار مبتنية على أصول موضوعة لا بينة ولا مبينة.

وأما المتصوفة، فإنهم لاشتغالهم بالسير في باطن الخلقة واعتنائهم بشأن الآيات الأنفسية دون عالم الظاهر وآياته الآفاقية اقتصروا في بحثهم على التأويل، ورفضوا

التنزيل، فاستلزم ذلك اجتراء الناس على التأويل، وتلفيق جمل شعرية والإستدلال من كل شيء على كل شيء، حتى آل الأمر إلى تفسير الآيات بحساب الجُمّل ورد الكلمات إلى الزبر والبينات والحروف النورانية والظلمانية إلى غير ذلك.

ومن الواضح أن القرآن لم ينزل هدى للمتصوفة خاصة، ولا أن المخاطبين به هم أصحاب علم الأعداد والأوفاق والحروف، ولا أن معارفه مبنية على أساس حساب الجُمّل الذي وضعه أهل التنجيم بعد نقل النجوم من اليونانية وغيرها الى العربية.

نعم قد وردت روايات عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام كقولهم: إن للقرآن ظهراً وبطناً ولبطنه بطناً إلى سبعة أبطن، أو إلى سبعين بطناً الحديث.

لكنهم عليهم السلام إعتبروا الظهر كما اعتبروا البطن، واعتنوا بأمر التنزيل كما اعتنوا بشأن التأويل، وسنبين في أوايل سورة آل عمران انشاء الله: أن التأويل الذي يراد به المعنى المقصود الذي يخالف ظاهر الكلام من اللغات المستحدثة في لسان المسلمين بعد نزول القرآن وانتشار الإسلام، وأن الذي يريده القرآن من لفظ التأويل فيما ورد فيه من الآيات ليس من قبيل المعنى والمفهوم.

وقد نشأ في هذه الأعصار مسلك جديد في التفسير، وذلك أن قوماً من منتحلي الإسلام في أثر توغّلهم في العلوم الطبيعية وما يشابهها المبتنية على الحس والتجربة، والإجتماعية المبتنية على تجربة الإحصاء، مالوا إلى مذهب الحسيين من فلاسفة الأروبّة سابقاً، أو إلى مذهب أصالة العمل (لا قيمة للإدراكات الا ترتب العمل عليها بمقدار تعيّنه الحاجة الحيوية بحكم الجبر).

فذكروا: أن المعارف الدينية لا يمكن أن تخالف الطريق الذي تصدقه العلوم وهو أن: (لا أصالة في الوجود إلا للمادة وخواصها المحسوسة) فما كان الدين يخبر عن وجوده مما يكذب العلوم ظاهره كالعرش والكرسي واللوح والقلم يجب أن يُأوّل تأويلا.

وما يخبر عن وجوده مما لا تتعرض العلوم لذلك كحقائق المعاد يجب ان يوجه بالقوانين المادية.

وما يتّكي عليه التشريع من الوحي والملك، والشيطان، والنبوة والرسالة والامامة

وغير ذلك، إنما هي أمور روحية، والروح مادية ونوع من الخواص المادية، والتشريع نبوغ خاص اجتماعي يبني قوانينه على الأفكار الصالحة، لغاية إيجاد الاجتماع الصالح الراقي.

ذكروا: أن الروايات، لوجود الخليط فيها لا تصلح للاعتماد عليها، إلا ما وافق الكتاب، وأما الكتاب فلا يجوز أن يُبنى في تفسيره على الآراء والمذاهب السابقة المبتنية على الاستدلال من طريق العقل الذي أبطله العلم بالبناء على الحس والتجربة، بل الواجب أن يستقل بما يعطيه القرآن من التفسير إلاّ ما بينه العلم.

هذه جمل ما ذكروه أو يستلزمه ما ذكروه، من اتباع طريق الحس والتجربة، فساقهم ذلك إلى هذا الطريق من التفسير، ولا كلام لنا هيهنا في أصولهم العلمية والفلسفية التي اتخذوها أصولاً وبنوا عليها ما بنوا.

وإنما الكلام في أن ما أوردوه على مسالك السلف من المفسرين : (أن ذلك تطبيق وليس بتفسير) وارد بعينه على طريقتهم في التفسير، إن صرحوا أنه حق التفسير الذي يفسر به القرآن بالقرآن.

ولو كانوا لم يحملوا على القرآن في تحصيل معاني آياته شيئاً، فما بالهم يأخذون الأنظار العلمية مسلمة لا يجوز التعدي عنها؟ فهم لم يزيدوا على ما أفسده السلف اصلاحاً.

وأنت بالتأمل في جميع هذه المسالك المنقولة في التفسير تجد: أن الجميع مشتركة في نقص وبئس النقص، وهو تحميل ما انتجته الأبحاث العلمية او الفلسفية من خارج على مداليل الآيات، فتبدل به التفسير تطبيقاً وسُمي به التطبيق تفسيراً، وصارت بذلك حقائق من القرآن مجازاتٍ، وتنزيل عدة من الآيات تأويلات.

ولازم ذلك ـ كما أومأنا إليه في أوائل الكلام ـ أن يكون القرآن الذي يعرّف نفسه بأنه هدى للعالمين ونور مبين وتبيان لكل شيء مهدياً إليه بغيره، ومستنيراً بغيره ومبيناً بغيره، فما هذا الغير ؟! وما شأنه ؟! وبماذا يهدى إليه ؟! وما هو المرجع والملجأ إذا اختلف فيه ؟! وقد اختلف واشتد الخلاف.

وكيف كان فهذا الاختلاف لم يولده اختلاف النظر في مفهوم (مفهوم اللفظ المفرد أو الجملة بحسب اللغة والعرف العربي) الكلمات أو الآيات، فإنما هو كلام عربي مبين لا يتوقف في فهمه عربي ولا غيره ممن هو عارف باللغة وأساليب الكلام العربي.

وليس بين آيات القرآن وهي بضع آلاف آية ـ آية واحدة ذات إغلاق وتعقيد في مفهومها بحيث يتحير الذهن في فهم معناها، وكيف ؟! وهو افصح الكلام ومن شرط الفصاحة خلو الكلام عن الإغلاق والتعقيد، حتى أن الآيات المعدودة من متشابه القرآن كالآيات المنسوخة وغيرها، في غاية الوضوح من جهة المفهوم، وإنما التشابه في المراد منها وهو ظاهر.

وإنما الاختلاف كل الاختلاف في المصداق الذي تنطبق عليه المفاهيم اللفظية من مفردها ومركّبها، وفي المدلول التصوري والتصديقي.

توضيحه: إن الأُنس والعادة (كما قيل) يوجبان لنا ان يسبق إلى أذهاننا عند استماع الألفاظ معانيها المادية أو ما يتعلق بالمادة ، فإن المادة هي التي تتقلب فيها أبداننا وقوانا المتعلقة بها ما دمنا في الحياة الدنيوية، فإذا سمعنا ألفاظ الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام والارادة والرضا والغضب والخلق والأمر كان السابق إلى أذهاننا منها الوجودات المادية لمفاهيمها.

وكذا اذا سمعنا ألفاظ السماء والأرض ، واللوح والقلم ، والعرش والكرسي ، والملك واجنحته ، والشيطان وقبيله وخيله ورجله إلى غير ذلك، كان المتبادر إلى أفهامنا مصاديقها الطبيعية.

وإذا سمعنا: أن الله خلق العالم وفعل كذا وعلم كذا وأراد أو يريد أو شاء وأو يشاء كذا، قيّدنا الفعل بالزمان حملا على المعهود عندنا.

وإذا سمعنا نحو قوله: ﴿ ولدينا مزيد ﴾[1] الآية ، وقوله: ﴿ لا تّخذنٰه من لدنا ﴾[2] الآية ، وقوله: ﴿ وما عند الله خير ﴾[3] الآية ، وقوله: ﴿ اليه ترجعون ﴾[4] الآية ، قيّدنا معنى الحضور بالمكان.

---

١. سورة ق: الآية ٣٥.
٢. سورة الأنبياء: الآية ١٧.
٣. سورة القصص: الآية ٦٠.
٤. سورة البقرة: الآية ٢٨.

وإذا سمعنا نحو قوله: ﴿ إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ﴾[١] الآية، أو قوله ﴿ ونريد أن نمنّ ﴾[٢] الآية، أو قوله: ﴿ يريد الله بكم اليسر ﴾[٣] الآية فهمنا: أن الجميع سنخ واحد من الارادة، لِما إن الأمر على ذلك فيما عندنا، وعلى هذا القياس.

وهذا شأننا في جميع الألفاظ المستعملة، ومن حقنا ذلك، فإن الذي أوجب علينا وضع ألفاظ إنما هي الحاجة الاجتماعية إلى التفهيم والتفهّم، والاجتماع إنما تعلّق به الانسان ليستكمل به في الافعال المتعلقة بالمادة ولواحقها، فوضعنا الألفاظ علائم لمسمياتها التي نريد منها غايات واغراضاً عائدة الينا.

وكان ينبغي لنا أن نتنبه: أن المسمّيات المادية محكومة بالتغير والتبدل بحسب تبدل الحوائج في طريق التحول والتكامل، كما أن السراج أول ما عمله الانسان كان إناء فيه فتيلة وشيء من الدهن تشتعل به الفتيلة للاستضاءة به في الظلمة، ثم لم يزل يتكامل حتى بلغ اليوم إلى السراج الكهربائي ولم يبق من أجزاء السراج المعمول أوّلاً الموضوع بازائه لفظ السراج شيء ولا واحد.

وكذا الميزان المعمول أولاً، والميزان المعمول اليوم لتوزين ثقل الحرارة مثلا.

والسلاح المتخذ سلاحاً أول يوم، والسلاح المعمول اليوم إلى غير ذلك.

فالمسميات بلغت في التغير إلى حيث فقدت جميع أجزائها السابقة ذاتاً وصفة والاسم مع ذلك باق، وليس إلا لأن المراد في التسمية إنما هو من الشيء غايته، لا شكله وصورته، فما دام غرض التوزين او الاستضاءة أو الدفاع باقياً كان اسم الميزان والسراج والسلاح وغيرها باقياً على حاله.

فكان ينبغي لنا أن نتنبه أن المدار في صدق الاسم اشتمال المصداق على الغاية والغرض، لا جمود اللفظ على صورة واحدة، فذلك مما لا مطمع فيه البتة، ولكن العادة والانس منعانا ذلك، وهذا هو الذي دعا المقلّدة من أصحاب الحديث من الحشوية والمجسمة أن يجمدوا على ظواهر الآيات في التفسير، وليس في الحقيقة جموداً على

١. سورة الاسراء: الآية ١٦.
٢. سورة القصص: الآية ٥.
٣. سورة البقرة: الآية ١٨٥.

الظواهر بل هو جمود على العادة والانس في تشخيص المصاديق.

لكن بين هذه الظواهر أنفسها أمور تبيّن: أن الإتكاء والإعتماد على الانس والعادة في فهم معاني الآيات يشوّش المقاصد منها ويختل به أمر الفهم كقوله تعالى: ﴿ ليس كمثله شيء ﴾[١] الآية. وقوله: ﴿ لا تدركه الأبصٰر وهو يدرك الأبصٰر وهو اللطيف الخبير ﴾[٢]. وقوله: ﴿ سبحٰن الله عمّا يصفون﴾[٣].

وهذا هو الذي دعا الناس أن لا يقتصروا على الفهم العادي والمصداق المأنوس به الذهن في فهم معاني الآيات، كما كان غرض الإجتناب عن الخطأ والحصول على النتائج المجهولة هو الذي دعا الانسان إلى ان يتمسك بذيل البحث العلمي، وأجاز ذلك للبحث أن يداخل في فهم حقائق القرآن وتشخيص مقاصده العالية، وذلك على أحد وجهين.

أحدهما: أن نبحث بحثاً علمياً أو فلسفياً أو غير ذلك عن مسألة من المسائل التي تتعرض لها الآية حتّى نقف على الحق في المسألة، ثم نأتي بالآية ونحملها عليه، وهذه طريقة يرتضيها البحث النظري، غير أن القرآن لا يرتضيها كما عرفت.

وثانيهما: أن نفسر القرآن بالقرآن ونستوضح معنى الآية من نظيرتها بالتدبر المندوب إليه في نفس القرآن، ونشخص المصاديق ونتعرفها بالخواص التي تعطيها الآيات، كما قال تعالى: ﴿ ونزّلنا عليك الكتٰب تبياناً لكل شيء ﴾[٤] الآية. وحاشا أن يكون القرآن تبياناً لكلّ شيء ولا يكون تبياناً لنفسه، وقال تعالى: ﴿ هدى للناس وبيّنٰت من الهدى والفرقان ﴾[٥] الآية. وقال تعالى: ﴿ إنا أنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾[٦] الآية. وكيف يكون القرآن هدى وبيّنات وفرقاناً ونوراً مبيناً للناس فى جميع ما يحتاجون ولا يكفيهم فى احتياجهم إليه، وهو أشد الإحتياج! وقال تعالى: ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا ﴾ الآية. وأي جهاد أعظم من بذل الجهد في فهم كتابه ؟! وأي سبيل أهدى إليه من القرآن ؟!.

والآيات في هذا المعنى كثيرة سنستفرغ الوسع فيها في بحث المحكم والمتشابه في

١. سورة الشورى: الآية ١١.
٢. سورة الأنعام: الآية ١٠٣.
٣. سورة المؤمنون: الآية ٩١.
٤. سورة النحل: الآية ٨٩.
٥. سورة البقرة: الآية ١٨٥.
٦. سورة النساء: الآية ١٧٤.

أوائل سورة آل عمران.

ثم إن النبي ﷺ الذي علّمه القرآن وجعله معلّماً لكتابه كما يقول تعالى: ﴿ **نزل به الروح الامين على قلبك** ﴾[١] الآية، ويقول: ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبيِّن للناس ما نزل إليهم** ﴾[٢] الآية، ويقول: ﴿ **يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتب والحكمة** ﴾[٣]. الآية، وعترته واهل بيته الذين أقامهم النبي ﷺ هذا المقام في الحديث المتفق عليه بين الفريقين: «إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً، كتاب الله وعترتي أهل بيتي وأنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض]. وصدّقه الله تعالى في علمهم بالقرآن، حيث قال عز من قائل: ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويُطهّركم تطهيراً** ﴾[٤]، وقال: ﴿ **إنه لقرآن كريم في كتب مكنون لا يمسّه إلاّ المطهرون** ﴾[٥] الآية. وقد كانت طريقتهم في التعليم والتفسير هذه الطريقة بعينها على ما وصل الينا من أخبارهم في التفسير. وسنورد ما تيسر لنا مما نقل عن النبي ﷺ وائمة أهل بيته في ضمن أبحاث روائية في هذا الكتاب، ولا يعثر المتتبع الباحث فيها على مورد واحد يستعان فيه على تفسير الآية بحجة نظرية عقلية، ولا فرضية علمية.

وقد قال النبي ﷺ: «فاذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم، فعليكم بالقرآن فانه شافع مشفع وماحل مصدق، من جعله أمامه قاده الى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه الى النار، وهو الدليل يدل على خير سبيل، وهو كتاب تفصيل وبيان وتحصيل وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن، فظاهره حكمة وباطنة علم، ظاهره انيق وباطنه عميق، له نجوم وعلى نجومه نجوم، لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة، ودليل على المعروف لمن عرف النصفة، فليرع رجل بصره، وليبلغ الصفة نظره ينجو من عطب ويخلص من نشب، فإن التفكر حياة قلب البصير، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور، يحسن التخلّص ويقلّ التربّص». وقال علي ﷺ: «يصف القرآن على ما في النهج» [ينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض، الخطبة].

---

١. سورة الشعراء: الآية ١٩٤. ٢. سورة النحل: الآية ٤٤.
٣. سورة آل عمران: الآية ١٦٢، سورة الجمعة: الآية ٢.
٤. سورة الأحزاب: الآية ٣٣. ٥. سورة الواقعة: الآية ٥٦.

هذا هو الطريق المستقيم والصراط السوي الذي سلكه معلمو القرآن وهداته صلوات الله عليهم»[١].

قال الصادقي:

«اذا كان القرآن هو المعوّل والمرجع لسواه، فبأن يكون مرجعاً لنفسه أحرى، حيث التمسّك بالقرآن في الأمور المشتبهة إصلاح لها، ووصول للرشد فيها، فهو هو أحق أن يمسّك في تفسيره بنفسه: ﴿ **والذين يمسّكون بالكتٰب وأقاموا الصلوٰة إنا لا نضيع أجر المصلحين** ﴾[٢]! فالذين لا يمسكون بالكتاب او يمسّكون في تفسير الكتاب بغير الكتاب هم من المفسدين، حيث المرجع الوحيد في المختلف فيه هو الله، ولا يمثل الحكم فيه إلا كتاب الله: ﴿ **وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله** ﴾[٣]، ثم وموقف السنة المحمدية هو موقف الهامش الشارح لكتاب الله، ما ثبت أنها من سنته، ولا يُعرف إلا بموافقته لكتاب الله: ﴿ **يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإنْ تنٰزعتم في شيء فردّوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً** ﴾[٤]ـ فـ«اردد الى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب ويشتبه عليك من الأمور، والرد الى الله الأخذ بمحكم كتابه، والرد الى الرسول ﷺ الأخذ بسنته الجامعة غير المفرّقة»[٥].

ثم و «أوّلوا الأمر منكم» هم حملة السنة المحمدية السليمة، كما أمر الله بطاعتهم المطلقة بعده وبعد رسوله: فطاعة أولي الأمر هي طاعة الرسول ﷺ، حيث لا يصدرون إلا عن الرسول، فمثنى الذيل في الآية: ﴿ **فردّوه الى الله والرسول** ﴾ هو مثلّث الصدر فيها ﴿ ... **وأوّلي الأمر منكم** ﴾ فإنهم لا يحملون إلا سنة الرسول ﷺ.

ففي هذا المثلّث البارع من الطاعة المطلقة طاعة الله هي القاعدة الرصينة، وطاعة الرسول بعدها هي الزاوية الأولى حيث يصدر عن الله، و «أوّلى الأمر منكم» هم الزاوية الأخيرة حيث يصدرون عن رسول الله، ولا سبيل للتعرف الى واقع السنة التي ترويها الروايات إلاّ موافقتها لكتاب الله، و ﴿ **ذلك خير وأحسن تأويلاً** ﴾: مأخذاً ومالاً.

---

١. الميزان ج ١ ص ٤ـ١٢.
٢. سورة الأعراف: الآية ١٧٠.
٣. سورة الشورى: الآية ١٠.
٤. سورة النساء: الآية ٥٩.
٥. نهج البلاغة عن الامام علي امير المؤمنين عليه السلام.

فـ«القرآن يفسر بعضه بعضاً وينطق بعضه على بعض»[١]، وآيات العرض وأحاديثه المتواترة تفرض على المستفسرين عن آي الذكر الحكيم أن يبدأوا بالتدبر في القرآن نفسه كما يجب، ثم عرض الأحاديث المفسِّرة للقرآن على القرآن فيستفسر الموافق له ويرفض المخالف، لكي يحصل على معاني متلائمة، غير متضاربة: ﴿ أفلا يتدبّرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾[٢].

ولا يعني تفسير القرآن بالقرآن ضرب بعضه ببعض دون رعاية لمناسبات الآيات، وأن تُنثَر آياته نثر الدقل دون تأمل في رباطاتها «وقد رأى رسول الله ﷺ قوماً يتدارأون فقال: هلك من كان قبلكم، بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا وما جهلتم فكلوه الى عالمه»[٣].

«وخرج على قوم يتراجعون القرآن وهو مغضب، فقال: «بهذا ضلّت الأمم باختلافهم على أنبيائهم وضرب الكتاب بعضه ببعض»[٤].

فعلى المفسر التدبُّر التام في آي الذكر الحكيم، متحلّلاً عما أثبته هو أو أثبتته الطرق العلمية أو العقلية أمّاهيه، مستنطقاً كل آية بنظائرها في المغزى، فيستفسر عنها اشباهها ونظائرها، متثبتاً عن الاحاديث الموافقة الملائمة لها.

فاختلاف الروايات في تفسير الآيات، واختلاف المفسرين من جرّائه، ومن اختلاف أفهامهم وأساليبهم، هذه الاختلافات تردّ إلى القرآن نفسه، فلا يصدَّق عليه إلاّ ما يصدقه.

إذاً فمسالك التفسير كلّها هباء وخواء إلاّ تفسير القرآن بالقرآن، كما وأن الرسول والائمة من آل الرسول سلكوا هذا المسلك القويم في تفسير آي الذكر الحكيم، وعلى

---

١. أرجع المصنف الى نهج البلاغة عن الامام على عليه السلام ولكنه لم يوجد هناك.

٢. سورة النساء: الآية ٨٢.

٣. الدر المنثور ـ اخرج احمد عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده عنه ﷺ.

٤. الدر المنثور ـ اخرج ابن سعد وابن الضريس في فضائله وابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده عنه ﷺ.

المفسرين أن يتعلموا هذه الطريقة المثلى من هؤلاء المعلمين المعصومين. رجوعاً الى أساليبهم السليمة في تمسكهم بالكتاب، تفسيراً للآيات بالآيات، ثم سلوكاً في صراطهم المستقيم على طول الخط ومر الزمن.

-.... فالمحدث يفسره بما يجده من أحاديث تناقلتها الروايات، ناظراً الى أسانيدها، غضاً عن متونها، فاذا قيل: إسناده صحيح، صحّح به تفسير القرآن وافقه ام خالفه، رغم وجود الكثير من وثنيات واسرائيليات ومسيحيات وأضرابها من خرافات تسرّبت الى أحاديث الإسلام فترسبت في كتب الحديث، مهما صحت أسنادٌ منها او ضعفت.

كما يروى من طريق السنة «ان النبي ﷺ سحر» مساً من كرامة النبوة، والقرآن يقول عن هؤلاء المختلقين: إنهم ظالمون: ﴿ اذ يقول الظالمون إن تتبعون إلاّ رجلاً مسحوراً ﴾[1].

ويروى من طريق الشيعة في تفسير دابة الأرض: أنها علي عليه السلام! مسّاً جاهلاً او متجاهلاً من كرامة الخلافة الإسلامية المنصوصة المنصوبة.

وكثير أمثال هذه الخرافات الزور التي تناقلتها الرواة والمفسرون من الفريقين دون رعاية لصريح القرآن او ظاهره حيث يمجّه وينافيه.

فهذا ليس تفسيراً للقرآن بالسنة، وإنما بالرواية التي يعتبرها رواتها سنة ويتقبلها المفسر بالسنة كسنة، وما هي سنة، فإنها ليست إلاّ قول الرسول او فعله وتقريره، ولا سبيل اليها قويماً إلاّ موافقتها للقرآن حيث لا يتبع الرسول في كل ما يفعل او يقول إلا وحي القرآن: ﴿ إن أتّبع إلاّ ما يوحى إليّ ﴾[2] فلا يصدّق على الرسول ما يكذّبه القرآن وإن صحّ إسناده، وقد يصدّق عليه ما يصدّقه القرآن وإن ضعف إسناده، فلا يُسنِد الحديث صحيحاً إلا متنُه الموافق للقرآن دون سنده، ولا نحتاج الى صحة السند في متن صحيح إلاّ لإتقان النسبة الى الرسول ﷺ ، فإن المتن الصحيح لا يختص بالرسول، ثم لا تفيدنا صحة السند في متن لا يلائم القرآن، فإن الباطل لا يصدر عن الرسول[3].

---

١. سورة الإسراء الآية ٤٧. ٢. سورة الأنعام الآية ٥٠.

٣. حالات الحديث أربع: ١ صحيح السند والمتن ٢ ضعيف السند والمتن ٣ صحيح السند ضعيف المتن ٤ ضعيف السند صحيح المتن ـ فالأول يسند الى الرسول والأئمة من آل الرسول ـ والثاني يضرب عرض الحائط وكذلك الثالث اذا لم يتحمل التأويل، والرابع يصدق ولكن لا يسند الى الرسول ـ والأصل في صحة المتن موافقته لكتاب الله او سنة رسول الله ﷺ الثابتة، ولا دور للسند الا صحة الإسناد الى المسند اليه اذا كان المتن صحيحاً ـ فصحة السند لا تصحح المتن، وانما هي من أسباب صحة السند على هامش صحة المتن.

وقد تواتر عنه ﷺ قوله: «لقد كثرت عليَّ الكذّابة وستكثر ، فمن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ، فإذا أتاكم الحديث فأعرضوه على كتاب الله وسنتي فما وافق كتاب الله وسنتي فخذوا به وما خالف كتاب الله وسنتي فلا تأخذوا به»[١].

أو «ما جاءكم عني يوافق كتاب الله فأنا قلته وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم أقله»[٢] حيث السنة، وهي الشارحة الموافقة لكتاب الله ـ تندغم في كتاب الله، دون ان تكون فيها محادّة لكتاب الله، وانما هي كظل وهامش يوضِّح منه ما خفي على القاصرين.

ثم لا يفرق في هذا العرض حديث البرّ عن الفاجر، كما في الصادقي عليه السلام : «ما جاءك في رواية من برّ أو فاجر يوافق القرآن فخذ به وما جاءك في رواية من برّ أو فاجر يخالف القرآن فلا تأخذ به»[٣].

«... فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا وسنة نبينا ﷺ ، فإنا اذا حدثنا قلنا: قال الله عزوجل ، وقال رسول الله»[٤] كما رسول الله ﷺ ليس له قالٌ إلا قال الله، بلفظ القرآن أم سواه ـ فـ﴿ ما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى ﴾[٥]، وكيف يناقض او يضادّ وحيُ الله وحيَه ؟!.

---

١ و ٢ . رواه الطبرسي في الاحتجاج بالاسناد الى ابي جعفر الجواد عليه السلام عند احتجاجه على يحيى بن اكثم ـ ورواه مثله الكافي ج ١ ص ٦٩ عن محمد بن اسماعيل عن الفضل بن الشاذان عن ابن ابي عمير عن هشام بن الحكم وغيره عن أبي عبدالله ، وفي المحاسن (٢٢١) البرقي عن ابي ايوب المدائني عن ابن ابي عمير عن الهشامين جميعاً وغيرهما عنه عليه السلام ، وفي المستدرك (ج ٣ : ص ١٨٦) محمد بن مسعود العياشي في تفسيره عن هشام بن الحكم عن ابي عبدالله ـ إلا أنها بحذف سنتي، وإنما «كتاب الله».

٣ . المستدرك (ج ٣ ص ١٨) عن محمد بن مسلم قال : قال أبو عبدالله عليه السلام : يا محمد . ومثله ما في الصادقي عليه السلام ايضاً سئل عن اختلاف الحديث يرويه من نثق به ومنهم من لا نثق به . قال : اذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهداً من كتاب الله او من قول رسول الله ﷺ وإلاّ فالذي جاءكم به اولى» . وفي الكافي ج ١ ص ٦٩ محمد بن يحيى عن عبدالله بن محمد عن علي بن الحكم عن أبان بن عثمان عن عبدالله بن أبي يعفور قال : وحدثني الحسين بن ابي العلاء أنه حضر ابن ابي يعفور في هذا المجلس . قال : سألت أبا عبدالله عليه السلام ، ورواه في المحاسن (٢٢٥) مثله.

٤ . رجال الكشي (١٤٦) : حدثني محمد بن قولويه والحسين بن الحسن البندار القمي قالا : حدثنا سعد بن عبدالله قال : حدثني محمد بن عيسى بن عبيد عن يونس بن عبدالرحمن : أن بعض اصحابه سأله وأنا حاضر فقال له: يا محمد! ما اشدك في الحديث واكثر انكارك لما يرويه اصحابنا فما الذي يحملك على رد الاحاديث ؟ فقال: حدثني هشام بن الحكم أنه سمع أبا عبدالله عليه السلام يقول: (لا تقبلوا علينا حديثاً الا ما وافق القرآن والسنة او تجدون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدمة . فان المغيرة بن شعبة لعنه الله دسّ في كتب أصحابي احاديث لم يحدّث بها أبي فاتقوا الله ...) .

٥ . سورة النجم : الآية ٤ ـ ٥ .

فالقرآن هو النور الذي يصوِّب الصواب ويخطِّيء الخطأ، وكما يروى عن النبي ﷺ قوله: «إن على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نور، فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه»[١].

وفي الباقري عليه السلام: «أنظروا أمرنا وما جاءكم عنا فان وجدتموه للقرآن موافقاً فخذوا به وان لم تجدوه موافقاً فردوه، وان اشتبه الأمر عليكم فقفوا عنده وردّوه إلينا حتى نشرح لكم ما شرح لنا»[٢].

وفي الصادقي عليه السلام: «مالم يوافق من الحديث القرآن فهو زخرف»، وهكذا نجد مستفيضاً من الأحاديث أن ما لا يوافق كتاب الله او يخالفه فهو زخرف، أو فاضربوه عرض الحائط، وكفى بما اوردناه نماذج وإن كان يكفينا كتاب الله: ﴿ **أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون** ﴾[٣]، ﴿ **وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله** ﴾[٤]، وما أجمله توافقاً بين الكتاب: المتن، والسنة: الهامش في وجوب عرض الحديث على القرآن!.

وهنا فوائد هامة:

١ ـ آيات العرض وأحاديثه شاهدة على أن ظهور الكتاب ـ فضلاً عن صريحه ـ حجة، وإلاّ فكيف يقاس الحديث على كتاب غير مفهوم، ام لا حجة في دلالاته؟ وما قوله

---

١. أصول الكافي ١: ٦٩ علي بن ابراهيم عن ابيه عن السكوني عن ابي عبد الله عليه السلام عنه ﷺ.
وفي أمالي الصدوق (٢٢١) قال: حدثنا احمد بن علي عن ابراهيم بن هاشم، قال: حدثنا ابي عن ابيه ابراهيم بن هاشم عن الحسين بن يزيد النوفلي عن اسماعيل بن مسلم الكوفي عن الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام عن ابيه عن جده قال: قال علي عليه السلام، قال ﷺ: وذكر مثله، وفي المحاسن (٢٢٦) البرقي عن النوفلي عن السكوني عن ابي عبدالله عليه السلام عن آبائه عن علي عليه السلام مثله عنه ﷺ، إلا أنه قال: فخذوا به. وفي الوسائل ج ٣ ص ٣٨٢ سعيد بن هبة الله الراوندي عن محمد وعلي ابني علي بن عبدالصمد عن ابيهما عن ابي البركات علي بن الحسين عن ابي جعفر بن بابويه عن ابيه عن سعد بن عبدالله عن يعقوب بن يزيد عن محمد بن ابي عمير عن جميل بن دراج عن ابي عبدالله عليه السلام، قال: (الوقوف عند الشبهة خير من الإقتحام في الهلكة. وذكر مثله وفي المستدرك ج ٣ ص ١٨٦ محمد بن مسعود العياشي في تفسيره عن اسماعيل بن ابي زياد عن جعفر عن ابيه عن علي عليه السلام انه قال في حديث. وذكر مثل ما في المحاسن.

٢. الوسائل ج ٣ ص ٣٨٣ الحسن بن محمد الطوسي في الامالي عن ابيه عن المفيد عن جعفر بن محمد عن محمد بن يعقوب عن علي بن ابراهيم عن محمد بن عيسى عن يونس عن عمرو بن شمر عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام.

٣. سورة العنكبوت: الآية ٥١.
٤. سورة الشورى: الآية ١٠.

القائل: «القرآن قطعي السند ظني الدلالة ، والحديث ظني السند قطعي الدلالة» إلا خرافة جارفة ومسّاً من كرامة القرآن الذي بيانه أفصح بيان وأبلغ تبيان ، وما تفسير السنة للكتاب إلاّ إيضاحاً لما أجمل على القاصرين لا لقصور في دلالات الكتاب، فإنها بيّنات حتى في المتشابهات، وإنما الغامض هو المعاني العالية المطلّة على الأفهام، دون الألفاظ التى هى فى أعلى قمم الفصاحة والبلاغة ...

٢ ـ أدلة العرض تحثُّنا على التدبر في القرآن كما يصح ويجب، قدر ما يمكن أن يُعرض عليه الحديث، فيعرف الغث عن السمين والخائن عن الأمين، وما الأحاديث المروية إلاّ كهوامش مختلفة على متن الكتاب، ما تُلائم منها المتن تُقبل له شارحة، وما لا تُلائم تُضرب عرض الحائط، وما يُشك فيه يرد الى قائله أو راويه.

فليس للمفسر أن يعتمد على حديث مالم يعرضه على القرآن، ولا له أن يعرضه مالم يتدبر حقه في آيته، تأملاً في جملاتها ولغاتها ، مستفسراً للحصول على معناها من الآيات النظيرة لها، لا أن يفسر آية بتفسير آية أخرى بضرب القرآن بعضه ببعض ونثره نثر الدقل، وإنما بسرد الآيات المتماثلة المغزى، المتشابهة المعنى، ونضدها تدبراً: أن يجعل كلاً دَبر الأخرى كما يقتضيه ترتيب المعنى .. ناظراً الى الآية نفسها، ثم ما تحتفُّ بها، ومن ثم نظائرها في سائر القرآن، ثم يراجع الأحاديث الواردة في تفسيرها ناظراً اليها من زاويتين: نظرة التثبت من صدورها بموافقتها للآية، ثم نظرة الإستيضاح لما استخفي منها من اشاراتها ولطائفها وحقائقها إن لم يكن هو من أهلها، او يستزيد منها عن أهليها الذين هم من أهل بيت القرآن، فأهل البيت أدرى بما في البيت.

فأقلّ ما يجب التحري فيه هو فهم العبارة من الآية، وهي المعنى المطابَق الظاهر، ثم يتبناه لسائر الزوايا في مربع التفسير حيث هو على العبارة والاشارة واللطائف والحقائق [١] ، كما يتبناه في عرض الحديث على القرآن اذا كان يعني تفسير العبارة، كما يبتنى الثلاثة الأخرى فيما الحديث يعني تفسيرها.

٤ ـ ومما تشهد عليه أدلة العرض أن الرسول ﷺ والأئمة من آل الرسول عليهم السلام

---

١. يرويه الامام الحسين عليه السلام عن ابيه علي امير المؤمنين عليه السلام ، كما يأتي بكامله (سفينة البحار تحت الحرف ك).

لا يفسرون القرآن إلا بحجة الدلالات القرآنية، دون خلاف على معاني اللغات او سرد الجملات أدبياً أم ماذا؟ وإنما القرآن والقرآن فقط هو حجتهم على ما يقولون، وكما كانوا يأمرون أصحابهم أن يتساءلوهم فيما يفتون، أين ذلك من كتاب الله؟ حتى يروضوا في حياتهم العلمية على دلالات القرآن، دون أن تأخذهم الآراء والأهواء أيادي سبأ!.

واذا كان تفسير القرآن بالحديث ـ دون نظر في متنه وعرض على القرآن ـ تفسيراً بالرأي، فتفسيره بآراء المفسرين، متفردين او مكثرين او مجمعين، او تفسيره بالآراء العلمية في مختلف الحقول، إن ذلك لأحرى أن يسمى تفسيراً بالرأي، فإنه يجمعه تفسيره بغير حجة من كتاب او سنة قطعية، تفسيراً فيه تحميل على القرآن مالا يتحمله أو لا يلائمه.

فعطف القرآن على الرأي كعطف الهدى على الهوى يعطفان بالانسان الى الهاوية والردى، وقد يروى عن الإمام علي اميرالمؤمنين عليه السلام في اصلاحات المهدي القائم عليه السلام أنه: «يُعطف الهوى على الهدى اذا عطفوا الهدى على الهوى ويُعطف الرأي على القرآن اذا عطفوا القرآن على الرأي»[1].

فالذي يفسر القرآن جاهلاً بموازينه، او تجاهلاً عما يجب في تفسيره، انه في ضلال مبين، مهما أتى بعبارات براقة، فلسفية او عرفانية اماهيه؟، فإن هذا الأسلوب الجاهل او المتجاهل او المبتدع المغرض يجعل من النور ظلاماً، ومن الهدى ضلالاً: ﴿ **وننزل من القرءان ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظلمين الا خساراً** ﴾[2].

مثل ما يهرأه الهارعون المفرطون: أن العبادة انما هي لغرض اليقين والوصول الى المعبود. فاذا أتاك اليقين فلا عبادة، مستندين الى الآية: ﴿ **واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾[3]، رغم أن اليقين درجات يتنقل العابد دوماً بين هذه الدرجات، كما وأن المعرفة درجات، ولا نهاية لهذه أو تلك وحتى لرسول الله وهو اوّل العابدين فضلاً عن هؤلاء المدعين، فـ«حتى» هنا لا موقف له منتهى حتى تنتهي عنده العبادة، وقد عبد

١. نهج البلاغة في كلام له عليه السلام حول الامام المهدي عليه السلام.
٢. سورة الإسراء: الآية ٨٢.
٣. سورة الحجر: الآية ٩٩.

الرسول ﷺ ربه وقام في عبادته حتى تورّمت قدماه، فنزلت: ﴿ طهٰ ما أنزلنا عليك القرءان لتشقى ﴾[١]، فهل إنه بعدُ لم يكن اوّل العابدين واصلاً الى درجة من اليقين التي وصلها هؤلاء المدعون! وهو هو المخاطب في: ﴿ واعبُد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾[٢]؟. دون هؤلاء الأغباش الذين هم لم يصلوا بعد إلى درجة من الايمان فضلاً عن اليقين!.

او ما يتقوله بعض الفلاسفة: إن لله عالمين: عالم الامر وهو إحداث المجردات، وعالم الخلق وهو إحداث الماديات، مستندين الى الآية: ﴿ قل الروح من امر ربي ﴾[٣] والآية: ﴿ ألا له الخلق والامر﴾[٤]. فالروح من عالم الأمر المجرد عن المادة دون الخلق المادة.

رغم أن الأمر في الأولى هو مجموع الخلق والتقدير، وفي الثانية الخلق هو الخلق والأمر هو التدبير إذ ليس: ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ إلاّ بعد عرض الكون خلقاً وتقديراً: ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السمٰوٰت والأرض في ستة ايام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسّخرٰت بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العٰلمين ﴾[٥]، فـ﴿ ألا له الخلق والأمر﴾ تنبيه أن له أمر التدبير والتسخير في السماوات والأرض كما له خلقهما، دون ان يكون هو الخالق، والمدبر سواه، او هو المدبر والخالق سواه، بل إنه «لا اله إلا الله» في الخلق والتدبير سواء، ثم وخلق السماوات والأرض يعني خلق الكون أجمع فلا وجود لمخلوق مجرد عن المادة حتى يختص به الأمر، بل الأمر يشمل كلَّ الخلق، ومن المستحيل قرآنياً وعقلياً أن يكون كائن مجرد عن المادة او الطاقة المادية سوى الله.

او ما يحمله على القرآن بعض من يتسمى فقيهاً، من رأيٍ اتخذه تقليدياً، كحرمة حلائل الأبناء من الرضاعة التي تنفيها الآية: ﴿ وحلٰئِل أبنائِكم الذين من أصلٰبكم ﴾[٦]. متقولاً أن قيد الأصلاب انما هو لإخراج الأدعياء، رغم أن أبناء الأصلاب نص في حرمة حلائلهم فقط وفي حلية حلائل الأبناء من الرضاعة مع الأدعياء، ولو كان المقصود

---

١. سورة طه: الآية ١ ـ ٢.
٢. سورة الحجر: الآية ٩٩.
٣. سورة الأسراء: الآية ٨٥.
٤. سورة الأعراف: الآية ٥٤.
٥. سورة الأعراف: الآية ٥٤.
٦. سورة النساء: الآية ٢٣.

ما يهرفونه لكان النص «غير أدعيائكم»، ومن ذلك كثير نأتي عليه في طيّات آياتها.

ومن متفرنج أدهشته العلوم العصرية لحدٍّ كأنها هي الأصل والقرآن من فروعها، كالشيخ الطنطاوي في جواهره! حيث يعتبر فرضية انفصال الأرض عن الشمس لمفترضيها الأوروبيين قانوناً علمياً، ثم يختلق لها تفسيراً لبعض الآيات كالتي في سورة الأنبياء: ﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السّمٰوٰت والأرض كانتا رتقاً ففتقنٰهما... ﴾[1] متقولاً عليها أن السماوات هنا تعني الشمس والأرض هي هذه الأرض حيث فتقها الله عن الشمس بعد رتقهما، و «أو لم ير» الماضي تعني هذا المستقبل الزاهر أن العلماء الكفار الغربيين يرون انفصال الأرض من الشمس!.

وفي ذلك تحميل على الآية مالا تتحمله من تحويل ماضيها الى مستقبلها، وتفسير سماواتها إلى شمسها التي هي ذرة صغيرة من ادنى الجزر السماوية الاولى الينا، ومن ثم ففتقهما، لا فتق الأرض من السماوات: الشمس!.

ثم الآيات في فصّلت تفصّل أن خرافة هكذا فصل باطلة، حيث تقول بعد عرض خلق الأرض وكمالها: ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها .. فقضٰهنّ سبع سمٰوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾[2] وشمسنا هذه هي من مصابيح السماء الدنيا المخلوقة في السبع بعد دخان السماء، اذاً فالشمس متأخرة عن الأرض بمرحلتين!.

ومن ذلك كثير عند المتفرنجين من المفسرين الذين غرقوا في العلوم والنظريات الجديدة، ونسوا أن القرآن هو علم الله فلن يتبدل والعلم دوماً في تبدل وتحوّل من خطأ الى صواب ومن صواب الى أصوب!...

فتفسير القرآن بفرضية العلم أو رأيه، او برأي العقل غير الضروري، منك أم من سواك من مفسرين او علماء آخرين، أو أحاديث غير ثابتة ولا ملائمة للآيات أو أياً كان من تفسير للقرآن بغير القرآن أو ما يصدقه، كل ذلك تفسير له بالرأي، دون علم او أثارة من علم او كتاب منير.

---

١. سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

٢. سورة فصّلت: الآية ١١ ـ ١٢.

فلا تغتر بالتحقيقات الفلسفية والتلطيفات العرفانية ، والتدقيقات العلمية! التي تحول دون استنباط القرآن كقرآن، تحميلاً عليه ما لا يتحمله.

وتحلّل ـ حين ما تروم تفسير القرآن ـ عن كل شارد ووارد حتى وعن مذهبك فضلاً عن رأيك او آراء الآخرين، تحلّل عن كل ذلك وعش الآية التي تعني تفسيرها، بمفرداتها وجملها، بموقفها مما قبلها وما بعدها، وبنظائرها التي تعني معناها، عشها كذلك محقّقاً صافي القلب خالي الذهن إلا عما تستمد به في تفهمها بمفهومها او مصاديقها، سناداً الى عقل رائع وعلم بارع دون تحميل على الآية ما لا تتحمله نصاً أو ظاهراً، او لا تخالفه ولا توافقه حيث لا تمتُّ بصلة دلالية او معنوية بما تحمله عليها، والله من وراء القصد.

فالذي يفسر القرآن برأيه او برأي مذهبه او تقليده أو اياًكان من آراء انما يفسر نفسه او مذهبه عبر القرآن بهواه، دون ان يهتدي بهداه، تفسيراً لنفسه دون تفسير القرآن نفسه، فلذلك «كان مصيره الى النار» «وليتبوأ مقعده من النار».

ولأن الأهوية والآراء تختلف، والمذاهب تتخالف، والنظريات تتضارب، فمعاني الآيات لمن يحمل هذه وتلك تتهافت، ويصبح القرآن مجال القيل والقال ومعترك الآراء والأقوال.

وأما إذ صدر المفسرون عن مصدر واحد، وساروا في مسير واحد، مفسرين للقرآن بالقرآن، على ضوء السنة القطعية الملائمة للقرآن، اغتربت خلافاتهم، واقتربت أفكارهم، واذا جعلوا أمرهم شورى بينهم قلَّ قليلهم وصح عليلهم، واستشرفوا الى ينبوع الوحي وإن كانوا في ذلك درجات.

صحيح أن القرآن بيان للناس، إلاّ أن بيانه درجات كما الناس درجات، وكما يروي الامام الحسين عن ابيه علي امير المؤمنين عليه السلام : «إن كتاب الله على أربعة أشياء، على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق، فالعبارة للعوام والإشارة للخواص واللطائف للاولياء والحقائق للانبياء» وهذه الاشياء المراحل هي متلائمة رغم درجاتها.

فالعبارة ـ وهي ما يعبَّر عنه اللفظ ـ هي التفسير الظاهر، والإشارة هي التحقيق على هامش الظاهر، واللطائف هي البطون، والحقايق هي التأويل ، فالذي لا يعرف التفسير

الظاهر هو أدنى من العوام[١].

ويُروى عن ابن عباس: «إنّ للقرآن آيات متشابهات يفسر ما الزمن»[٢].

والمتشابه على حدّ قول الامام الرضا عليه السلام: «ما اشتبه علمه على جاهله»، فالتشابه في آياته ليس من مقولة الدلالة اللفظية، أن تكون الآية قاصرة الدلالة، وانما هو لعلو المدلول على وضوح الدلالة، وكما الأفهام درجات في مفاهيم الآيات، كذلك الآيات درجات في محكمات ومتشابهات، رب محكمة من جهة متشابهة من [جهة]اخرى، ورب محكمة عندك متشابهة عند الآخر، فلا توجد اذاً آيات معدودات هي بعينها متشابهات وأخر محكمات، وانما هي حسب درجات الأفهام، فالتشابه والإحكام أمران نسبيان، وإن كانت بعض الآيات محكمات لكل من يعرف اللغة وبعضها متشابهات كالحروف المقطعة في اوائل بعض السور.

فليس للمفسر الخوض في آيات الله، قائلاً بغير علم او أثارة من علم فليعلم أنها نازلة بعلم الله، قدر ما يحتاجه العقلاء طول الزمن إلى انقراض العالم، فليأخذ كلٌ نصيبه من الفهم، متثبتاً متدبراً في تفهمه، فتقدم العقول والعلوم يكشف جديدات وجديدات من معارف القرآن، متشابهات عقلية او عملية تصبح محكمات على ضوء تقدم العقل والعلم، فلا يستعجلوا فيما يخفى عليهم زاعمين أن لهم تفسير كل آية، او كل زاوية من زواياها.

وعلى المفسر العارف أن يفسر الآيات ـ كما تهديه ـ بعضها ببعض، دون اتكالية على آراء المفسرين، فليسبر في كل آية غورها، دون تحويل الى كتب أو مقالات اخرى، فلا يحوّل البحث والتنقير عن آيات الأحكام الى الفقه او الى ما ألف في آيات الأحكام، حيث الفقه كما نراه لا يعتمد كما يجب على الآيات في الأحكام، اللهم إلاّ احياناً وهامشياً محولاً الى التفسير او الكتب المؤلفة في آيات الأحكام، فتصبح آياتها غير مفسرة لا في التفسير ولا في الفقه، ولذلك نرى فتاوى تخالف كتاب الله من فقهاء

---

١. بما ان الاشارة بعد المعنى الظاهر فليست العبارة هنا إلاّ التعبير عن الظاهر.

٢. والمقصود تقدم العلم والعقل على مرّ الزمن فليس هناك آيات متشابهات لإيهام دلالي. وانما لعلوّ مدلولي عقلياً او علمياً. فالتقدم العقلي والعلمي يفسر هذه التشابهات على قدره.

الاسلام شيعة وسنة ، ولا قيمة لفتوى لا تعتمد على القرآن وان اعتمدت على احاديث او شهرات أم وإجماعات. حيث القرآن هو المصدر الأصيل.

.... ولقد ضاع القرآن بين حالة منعزلة عن الحيا، بهالة قدسية لا تنالها الأفهام عند من يبررون موقفهم السلبي وجاه القرآن، قدسية خيالية خاوية تعزلها عن الحياة الاسلامية ، وكأنه كتاب ورد ودعاء تكفينا قراءته في حل المشاكل، ويكفي شفاءً للمرضى وشفاعة ورحمة للموتى! رغم أنه حياة مستقيمة لمن شاءها: ﴿ **إن هو إلاّ ذكر للعٰلمين. لمن شاء منكم أن يستقيم** ﴾[1] ، ﴿ **لينذر من كان حياً ويحقّ القول على الكٰفرين** ﴾[2] !.

وبين حالة بسيطة يناله كل من يعرف من لغته شيئاً، ثم وليس وراء ما يفهمه البسطاء إشارات ولطائف وحقائق، فلذلك لا حاجة الى دراسته ومدارسته!

والقرآن بيان للناس وفيه تبيان كل شيء: ﴿ **أفلا يتدبرون القرءان ام على قلوب اقفالها** ﴾[3] !

ولسوف ترون أن القرآن برهان قاطع وبيان ساطع لا مرد له لإثبات المبدأ والمعاد وما بينهما، ولا ثبات كل ما يحويه ويبديه من أحكام عقلية ام ماذا؟ فانه برهان بنفسه لمن أنزله وعلى من أنزل ولماذا أنزل؟: كتاب تدوين يحلّق على التشريع والتكوين ببرهان يقين»![4].

قال المحققان في أقسام التفسير:

«التفسير المعتمد عند أهل العلم سلفاً وخلفاً ينقسم إلى قسمين:

الأول: التفسير بالمأثور، والثاني: التفسير بالرأي السديد، والاجتهاد الصحيح المبني على العلوم والمعارف ، وورد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن التفسير أربعة : حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تفسره العرب بألسنتها، وتفسير تفسره العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله.

قال الزركشي في البرهان: «هذا تقسيم صحيح، فأما الذي تعرفه العرب بألسنتها فهو

---

١. سورة التكوير: الآية ٢٧ ـ ٢٨.
٢. سورة يس: الآية ٧٠.
٣. سورة محمد: الآية ٢٤.
٤. الفرقان ج ١ ص ١٦ ـ ٢٨.

ما يرجع إلى لسانهم من اللغة والإعراب، فأما اللغة فعلى المفسر معرفة معانيها ومسميات أسمائها ـ ولا يلزم ذلك القارىء ـ ثم إن كان ما يتضمنه ألفاظها يوجب العمل دون العلم كفى فيه خبر الواحد والاثنين والاستشهاد بالبيت والبيتين، وإن كان يوجب العلم أي: الاعتقاد لم يكف ذلك، بل لابد أن يستفيض ذلك اللفظ، وتكثر شواهده من الشعر، وأما الإعراب فما كان اختلافه محيلاً للمعنى وجب على المفسر والقارىء تعلمه ليوصل المفسر إلى معرفة الحكم ويسلم القارىء من اللحن، وإن لم يكن محيلاً للمعنى وجب تعلمه على القارىء ليسلم من اللحن، ولا يجب على المفسر لوصوله إلى المقصود بدونه.

وأما ما لا يعذر أحد بجهله فهو ما تبادر إلى الأفهام معرفة معناه من النصوص المتضمنة شرائع الأحكام ودلائل التوحيد، وكل لفظ أفاد معنى واحداً جلياً يعلم أنه مراد الله تعالى فهذا القسم لا يلتبس تأويله إذ كل أحد يدرك التوحيد من قوله: ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾[1] وأنه لا شريك له في الإلوهية، وإن لم يعلم أن «لا» موضوعة في اللغة للنفي (وإلا) موضوعة للإثبات، وأن مقتضى هذه الكلمة الحصر، ويعلم كل أحد بالضرورة أن مقتضى قوله تعالى: ﴿ أقيموا الصّلوٰة ﴾[2] طلب إيجاب المأمورية، وإن لم يعلم أن صيغة أفعل للوجوب.

وأما ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فهو ما يجري مجرى الغيوب كالآيات التي تذكر فيها الساعة والروح والحروف المقطعة ونحو ذلك، وأما ما يعلمه العلماء ويرجع إلى اجتهادهم فهو الذي يغلب عليه إطلاق التأويل ، وذلك استنباط الأحكام وبيان المجمل وتخصيص العموم وكل لفظ احتمل معنيين فصاعداً فهو الذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه، اعتماداً على الدلائل والشواهد دون مجرد الرأي.

وإذا نظرنا إلى صدر ما أسميناه بأقسام التفسير وما ورد عن ابن عباس لا خلاف فهما متفقان مجملاً وتفصيلاً، وسنزيد القسمين وضوحاً فنقول وبالله التوفيق والسداد.

---

١. سورة محمد: الآية ١٩.

٢. سورة البقرة: الآية ٤٣ و...

أولاً: التفسير بالمأثور :

المأثور: اسم مفعول من أثرت الحديث [١] أثراً من باب قتل يقتل ، والأثر بفتحتين: اسم منه، وحديث مأثور أي: منقول.

فالتفسير بالمأثور، سواء أكان متواتراً أم غير متواتر، وعلى هذا يشمل المنقول عن الله تعالى أو عن سيدنا رسول الله ﷺ أو عن الصحابة رضوان الله عليهم أو عن التابعين لهم بإحسان ـ رضي الله عن الجميع.

من تفسير القرآن بالقرآن

ومثال ما جاء في القرآن قوله سبحانه: ﴿ **وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر** ﴾ [٢] فإن كلمة «من الفجر» بيان وشرح للمراد من كلمة «الخيط الأبيض» التي قبلها.

وقوله تعالى: ﴿ **حرّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير** ﴾ [٣]، فإنها بيان للفظ «ما يتلى عليكم من قوله سبحانه : ﴿**أحلت لكم بهيمة الأنعام الا ما يتلى عليكم**﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿ **لئن أقمتم الصّلوٰة وآتيتم الزّكوٰة وآمنتم برسلي وعزّرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيّئاتكم** ﴾ [٥]، فإنهما بيان للعهدين في قوله سبحانه: ﴿ **وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم** ﴾[٦] الأول للأول ، والثاني للثاني.

من تفسير الرسول للقرآن

ومثال ما جاء في السنة شرحاً للقرآن، أنه ﷺ فسر الظلم بالشرك في قوله سبحانه: ﴿ **الذين ءامنوا ولم يلبسوا إيمنهم بظلم، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** ﴾[٧]، وأيّد تفسيره هذا بقوله تعالى: ﴿ **إن الشرك لظلم عظيم** ﴾[٨] وفسّر ﷺ الحساب اليسير بالعرض حين قال : «من نوقش الحساب عذّب» فقالت له السيّدة عائشة أوَ ليس قد قال الله تعالى: ﴿ **فأما**

---

١. لسان العرب ، ترتيب القاموس .
٢. سورة البقرة: الآية ١٨٧ .
٣. سورة المائدة : الآية ١ .
٤. سورة المائدة : الآية ١ .
٥. سورة المائدة : الآية ١٢ .
٦. سورة البقرة: الآية ٤٠ .
٧. سورة الأنعام : الآية ٨٢.
٨. سورة لقمان : الآية ١٣ .

من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً، وينقلب إلى أهله مسروراً ﴾[١] فقال ﷺ: «ذلك العرض» بياناً للحساب اليسير.

وكلا هذين القسمين لا شك في قبوله. أما الأول فلأن الله تعالى أعلم بمراد نفسه من غيره، وأصدق الحديث كتاب الله تعالى. وأما الثاني فلأن خير الهدى هدى سيدنا محمد ﷺ، ووظيفته البيان والشرح، مع أنا نقطع بعصمته وتوفيقه. قال تعالى: ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما أنزل إليهم ﴾[٢].

بقي القسم الثالث: وهو بيان القرآن بما صح وروده عن الصحابة رضوان الله عليهم. قال الحاكم في المستدرك: «إن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل له حكم المرفوع» كذلك أطلق الحاكم.

وما قاله الحاكم وغيره، نازعه فيه الإمام ابن الصلاح وغيره من المحققين المتأخرين، وقالوا: إن ذلك مخصص بما فيه سبب نزول أو نحوه مما لا دخل للرأي فيه، وأما ما يتعلق باللغة والأحكام الاجتهادية: فليس من قبيل المرفوع.

وقد صرح الحاكم نفسه بذلك في كتابه: «علوم الحديث» فقال: ومن الموقوفات: تفسير الصحابة. وأما من يقول: إن تفسير الصحابة مسند ـ أي مرفوع ـ فإنما يقوله فيما فيه سبب نزول، فقد خصص هنا وعمم في المستدرك.

والمحققون من العلماء: فالإمام الحافظ بن حجر، على أن أقوال الصحابة في التفسير لها حكم المرفوع إلى النبي ﷺ بشرطين:

الأول: أن يكون مما لا مجال للرأي فيه، كأسباب النزول، وأحوال القيامة، واليوم الآخر ونحوها.

الثاني: ألا يكون الصحابي معروفاً بالأخذ عن أهل الكتاب الذين أسلموا، أي: غير معروف برواية الإسرائيليات.

قال أبو شهبة: وهذا الشرط يدل على بعد نظر أئمة الحديث ونقاده، وأنهم لم تجز عليهم هذه الإسرائيليات التي رويت عن بعض الصحابة، فقد علموا كذبها، وعلموا أنها

---

١. سورة الإنشقاق: الآية ٩.

٢. سورة النحل: الآية ٤٤.

دخيلة على الرواية الإسلامية.

وقد كان كثير من التابعين يتحاشون الرواية عن بعض الصحابة الذين عرفوا بالأخذ عن أهل الكتاب، وليس أدل على ذلك من: أن عبدالله بن عمرو بن العاص قد شهد له أبو هريرة بأنه كان أكثر حديثاً منه لأنه كان قارئاً كاتباً، رواه البخاري في صحيحه، ومع هذا: فقد جاءت مروياته اقل من مرويّات أبي هريرة، لأنه كانت وقعت له كتب من كتب أهل الكتاب في موقعة اليرموك، تبلغ حمل بعيرين، فكان يحدث ببعض ما فيها، فمن ثم: تحاشى بعض الرواة الرواية عنه، فكان هذا سبباً من أسباب قلّة مروياته عن أبي هريرة رضي الله عنه.

أمثلة من تفسير الصحابة للقرآن:

من ذلك: ما روي عن سلمة بن الأكوع في تفسير قوله تعالى: ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾[1]، كان من أراد أن يفطر يفتدي حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها.

وروى البخاري في صحيحه عن ابن عباس: أنها ليست بمنسوخة، وأنها في الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة، لا يستطيعان أن يصوما، فعليهما أن يطعما مكان كل يوم مسكيناً.

وهذا: إنما يتأتّى على من يفسر الإطاقة: بأنها تحمّل الشيء بتكلف وجهد ويشهد له قراءة «يطوقونه» بضم الياء، وفتح الطاء، وفتح الواو المشددة، وأما قراءة العامة من القراءة المشهورة فتشهد للرأي الأول، وهذا إلى جانب كونه مثالاً لتفسير الصحابي لون من ألوان اختلاف الصحابة في التفسير، وغير ذلك مما هو مسطر في الدر المنثور والطبري وابن أبي حاتم وغيرها من كتب التفسير بالمأثور.

تفسير التابعين:

وأما ما ينقل عن التابعين ففيه خلاف العلماء: منهم من اعتبره من التفسير بالمأثور، لأنهم تلقوه من الصحابة غالباً، وبعضهم عدّه من قبيل التفسر بالرأي والاجتهاد لكثرة اختلافهم أكثر من الصحابة.

قال الزركشي في البرهان: «وفي الرجوع إلى قول التابعي روايتان عن أحمد، واختار

١. سورة البقرة: الآية ١٨٤.

ابن عقيل المنع، وحكوا عن شعبة بن الحجاج أنه قال: أقوال التابعين في الفروع ليست حجة فكيف تكون حجة في التفسير؟! لكن عمل المفسرين على خلافه فقد حكوا في كتبهم أقوالهم، لأن غالبها تلقوها عن الصحابة.

والحق أنه إذا أجمعوا على أمر كان حجة، أما إذا اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض وكذلك من بعدهم.

وقد رويت عن التابعين في التفسير روايات كثيرة لا يحصيها العد لا سيما مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس وعطاء والحسن وقتادة وغيرهم، وإن شئت أن تقف على هذا فارجع إلى ابن أبي حاتم والطبري وتفسير مجاهد والدر المنثور للسيوطي ـ رحمه الله ـ وكذلك هنا في البحر فإنه محشو بالآثار...

ثانياً: التفسير بغير المأثور ـ بالرأي ـ

المراد بالرأي هنا الاجتهاد . فإن كان الاجتهاد موفقاً أي مستنداً إلى ما يجب الاستناد إليه بعيداً عن الجهالة والضلالة ، فالتفسير به محمود وإلا فمذموم. والأمور التي يجب استناد الرأي إليها في التفسير نقلها السيوطي في الإتقان عن الزركشي فقال ما ملخصه: للناظر في القرآن لطلب التفسير مآخذ كثيرة أمهاتها أربع:

الأولى: النقل عن رسول الله ﷺ مع التحرز عن الضعيف والموضوع:

الثانية: الأخذ بقول الصحابي ، فقد قيل : إنه في حكم المرفوع مطلقاً. وخصه بعضهم بأسباب النزول ونحوها مما لا مجال للرأي فيه.

الثالثة: الأخذ بمطلق اللغة مع الاحتراز عن صرف الآيات إلا ما لا يدل عليه الكثير من كلام العرب .

الرابعة: الأخذ بما يقتضيه الكلام ويدل عليه قانون الشرع . وهذا النوع الرابع هو الذي دعا به النبي ﷺ لابن عباس في قوله : «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل».

فمن فسر القرآن برأيه أي: باجتهاده ملتزماً الوقوف عند هذه المآخذ معتمداً عليها فيما يرى من معاني كتاب الله، كان تفسيره سائغاً جائزاً خليقاً بأن يسمى التفسير الجائز أو التفسير المحمود. ومن حاد عن هذه الأصول وفسر القرآن غير معتمد عليها، كان

تفسيره ساقطاً مرذولاً خليقاً بأن يسمى التفسير غير الجائز أو التفسير المذموم.

فالتفسير بالرأي الجائز يجب أن يلاحظ فيه الاعتماد على ما نقل عن الرسول ﷺ وأصحابه مما ينير السبيل للمفسر برأيه. وأن يكون صاحبه عارفاً بقوانين اللغة خبيراً بأساليبها. وأن يكون بصيراً بقانون الشريعة حتى ينزل كلام الله على المعروف من تشريعه.

أما الأمور التي يجب البعد عنها في التفسير بالرأي فمن أهمها: التهجم على تبيين مراد الله من كلامه على جهالة بقوانين اللغة أو الشريعة. ومنها: حمل كلام الله على المذاهب الفاسدة. ومنها: الخوض فيما استأثر الله بعلمه. ومنها: القطع بأن مراد الله كذا من غير دليل. ومنها: السير مع الهوى والاستحسان.

وبعد هذا فاعلم أن أكثر السلف الصالح ـ رضي الله عنهم ـ قد أجازوا تفسير القرآن بالرأي والاجتهاد»[1].

قال المحققان في مناهج المفسرين بالرأي:

«يجب على من يحاول أعلى مراتب التفسير بالرأي أن يأخذ حذره، وأن يتذرع بكل العلوم التي ذكرها الإمام الحبر البحر ذو البيان أبو حيان في مقدمة تفسيره هنا ليكون قد أصاب المراد أو كاد.

أولاً: أن يطلب المعنى من القرآن، فإن لم يجده طلبه من السنة؛ لأنها شارحة للقرآن. فإن أعياه الطلب رجع إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بالتنزيل وظروفه وأسباب نزوله. شاهدوه حين نزل، فوق ما امتازوا به من علم وعمل «وخير ما فسرته بالوارد».

ثانياً: إن لم يظفر بالمعنى في الكتاب والسنة ومأثورات الصحابة وجب عليه أن يجتهد وسعه متبعاً ما يأتي:

١ ـ البدء بما يتعلق بالألفاظ المفردة من اللغة والصرف والاشتقاق. ملاحظاً المعاني التي كانت مستعملة زمن نزول القرآن الكريم.

٢ ـ إرداف ذلك بالكلام على التركيب من جهة الإعراب والبلاغة، على أن يتذوق ذلك بحاسته البيانية.

---

١. مقدمة البحر المحيط ج ١ ص ١٤ ـ ٢٤.

٣ ـ تقديم المعنى الحقيقي على المجازي، بحيث لا يصار إلى المجاز إلا إذا تعذرت الحقيقة.

٤ ـ ملاحظة سبب النزول. فإن لسبب النزول مدخلاً كبيراً في بيان المعنى المراد، كما سبق في مبحث أسباب النزول.

٥ ـ مراعاة التناسب بين السابق واللاحق، بين فقرات الآية الواحدة، وبين الآيات بعضها ببعض.

٦ ـ مراعاة المقصود من سياق الكلام.

٧ ـ مطابقة التفسير للمفسر من غير نقص ولا زيادة.

٨ ـ مطابقة التفسير لما هو معروف من علوم الكون، وسنن الاجتماع، وتاريخ البشر العام وتاريخ العرب الخاص أيام نزول القرآن.

٩ ـ مطابقة التفسير لما كان عليه النبي ﷺ في هديه وسيرته؛ لأنه ﷺ هو الشارح المعصوم للقرآن بسنته الجامعة لأقواله وأفعاله وشمائله وتقريراته.

١٠ ـ ختام الأمر ببيان المعنى المراد والأحكام المستنبطة منه في حدود قوانين اللغة والشريعة والعلوم الكونية.

١١ ـ رعاية قانون الترجيح عند الاحتمال وهو ما يأتي:

قال السيوطي في الإتقان ما نصه: «وكل لفظ احتمل معنيين فصاعداً، فهو الذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه. وعليهم اعتماد الدلائل دون مجرد الرأي.

فإن كان أحد المعنيين أوضح وجب الحمل عليه، إلا أن يقوم الدليل على إرادة غيره. وإذا تساويا والاستعمال فيهما حقيقة، لكن في أحدهما لغوية أو عرفية، وفي الآخر شرعية، فالحمل على الشرعية أولى، إلا أن يدل الدليل على إرادة اللغوية، كما في قوله تعالى: ﴿ وصلِّ عليهم إن صلوٰتك سكن لهم ﴾[1]. وإن كانت في أحدهما عرفية والآخر لغوية فالحمل على العرفية أولى.

وإن اتفقا في ذلك أيضاً، فإن تنافى اجتماعهما. ولم يمكن إرادتهما باللفظ الواحد

---

١. سورة التوبة: الآية ١٠٣.

كالقرء للحيض والطهر، اجتهد في المراد منهما، بالإمارات الدالة عليه. فما ظنه فهو مراد الله تعالى في حقه.

وإن لم يظهر له شيء فهل يتخير أو يأخذ بالأغلظ أو بالأخف؟ أقوال. وإن لم يتنافيا وجب الحمل عليهما عند المحققين، ويكون ذلك أبلغ في الإعجاز والفصاحة إلاّ إن دل دليل على إرادة أحدهما «اهـ».

ـ أهم كتب التفسير بالرأي الجائز .

نذكر منها مجرد أمثلة ، ومن أراد المزيد فليرجع إلى التفسير والمفسرون لشيخنا الشيخ الذهبي ومناهل العرفان وغيرهما.

١ ـ مفاتيح الغيب:

مؤلف هذا التفسير هو أبو عبدالله، محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي، التميمي البكري، الطبرستاني، الرازي، الملقب بفخر الدين، والمعروف بابن الخطيب الشافعي، المولود سنة ٥٤٤ هـ أربع وأربعين وخمسمائة من الهجرة. وتوفي ـ رحمه الله ـ سنة ٦٠٦ هـ ست وستمائة من الهجرة بالري [١].

٢ ـ لباب التأويل في معاني التنزيل:

مؤلف هذا التفسير: هو علاء الدين أبوالحسن، علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر بن خليل الشيحي، البغدادي، الشافعي، الصوفي، المعروف بالخازن [٢] توفي سنة ٧٤١ هـ بمدينة حلب، فرحمه الله رحمة واسعة.

٣ ـ البحر المحيط

وهو الذي نحن بصدده وسنفرد الكلام عليه بإذن الله تعالى.

هذه أمثلة، وليست حصراً لكتب التفسير بالرأي الجائز» [٣].

---

١. انظر ترجمته في: الأعلام ج ٧ ص ٢٠٣، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٢٣، وفيات الأعيان ج ٣ ص ٣٨١، لسان الميزان ج ٤ ص ٤٢٦، البداية والنهاية ج ٣ ص ٥٥، طبقات الشافعية ج ٥ ص ٣٣، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٩٨، مفتاح السعادة ج ١ ص ٤٤٥، مرآة الجنان ج ٤ ص ٧، مرآة الزمان ج ٨ ص ٣٥٣.

٢. انظر ترجمته في: الدر الكامنة ج ٣ ص ٩٧، الأعلام ج ٥ ص ٥. معجم المطبوعات ٨٠٩.

٣. مقدمة البحر المحيط ج ١ ص ٢٤ـ٢٦.

قال المحققان : جاء في أصول التفسير:

«إنّ من أراد تفسير القرآن الكريم: طلبه أولاً من القرآن نفسه، فما أُجمل منه في موضع فقد فُسّر في موضع آخر، وما اختُصر منه في موضع فقد بُسط في موضع آخر. فلزم المفسّر أن ينظر في القرآن نظرة فاحص مدقّق، ثم يجمع الآيات المتعلقة في الموضوع الواحد، ثم يقارن بعضها بعضاً، ليتجلّى له المقصود بشكل بيّن.

فإن لم يتضح له المراد من ذلك ... طلبه من السّنة النبوية، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، وقد قال الإمام الشافعي : «كلُّ ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن» ، وقد قال رسول الله ﷺ : «ألاَ إنّي أُوتيتُ القرآنَ ومثلَه معه».

فإن لم يجد المراد في السّنة رجع إلى أقوال الصحابة، فقد كانوا أدرى بكتاب الله بعد النبي ﷺ، لأنهم عايشوا نزول الوحي، وشهدوا أسباب النزول، وقد ذكر الحاكم في المستدرك أن تفسير الصحابة الذين شهدوا الوحي والتنزيل له حكم المرفوع إلى النبي ﷺ، لأنّه عليه الصلاة والسلام بيّن لأصحابه معاني القرآن قولاً وعملاً وتقريراً، كما بيّن لهم ألفاظه وأحكامه، كما قال الله تعالى : ﴿ لِتُبَيِّنَ للنّاسِ ما نُزِّلَ إليهِمْ ﴾[1] .

فإن لم يجدِ المراد في أقوال الصحابة، طلبه من أقوال التابعين، فهم الذين نقلوا إلينا علوم ومعارف الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . فإن لم يجد المراد في أقوال التّابعين، طلبه من اللغة العربية، فإنّ القرآن الكريم نزل بلغة العرب. روى الإمام البيهقي في شعب الإيمان عن الإمام مالك أنه قال : «لا أُوتى برجل غير عالم بلغة العرب يُفسِّر كتابَ الله إلاّ جعلتُه نكالاً»[2] .

تلك هي طُرق التفسير وسُبله، فلا يجوز لأحد أن يتناول تفسير كلام الله تبارك وتعالى إلاّ من خلالها ومضمونها ...»[3] .

قال عبدالسلام في أقسام التفسير:

«أولاً: التفسير بالمأثور ... أي المنقول، ويشمل:

١. سورة النّحل: الآية ٤٤.

٢. أصول التفسير ، خالد عبدالرحمن العك ، بحث «أحسن طرق التفسير» .

٣. مقدمة معالم التنزيل للبغوي ج ١ ص ٨.

١ ـ تفسير القرآن بالقرآن.
٢ ـ تفسير الرسول للقرآن.
٣ ـ تفسير الصحابة للقرآن.
٤ ـ تفسير التابعين للقرآن.

ولنعرّف كلّ نوع من هذه الأنواع.

تفسير القرآن بالقرآن:

اشتمل القرآن الكريم على الإيجاز والإطناب، وعلى الإجمال والتبيين، وعلى الإطلاق والتقييد، وعلى العموم والخصوص.

وما أوجز في موضع بسط في موضع آخر.

وما أجمل في مكان بيِّن في آخر.

وما جاء مطلقاً في آية قد يلحقه التقييد في أخرى.

وما كان عاماً في مكان قد يدخله التخصيص في مكان آخر.

من هنا: كان على من يفسر القرآن الكريم أن يرجع إلى القرآن أولاً، يبحث فيه عن تفسير ما يريد، فيقابل الآيات بعضها ببعض، ويستعين بما جاء مسهباً ليعرف به ما جاء موجزاً، وبالمبين ليفهم به المجمل، ويحمل المطلق على المقيد، والعام على الخاص.

ولا يجوز لأحد ـ كائناً من كان ـ أن يتخطى هذا التفسير القرآني.

أمثلة لتفسير القرآن بالقرآن.

أ ـ حمل المجمل على المبين ليبين به:

ـ قال تعالى: ﴿ فتلقى ءادم من ربه كلمٰت ﴾[1].

فسرتها آية الأعراف: ﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخٰسرين ﴾[2].

وقال تعالى في سورة المائدة: ﴿ أحلت لكم بهيمة الأنعٰم إلا ما يتلى عليكم ... ﴾[3]، فسرتها من السورة نفسها: ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ... ﴾ الآية.

ب ـ حمل المطلق على المقيد:

ـ وقد مثلوا لذلك بآية الوضوء والتيمم، فإن الأيدي مقيدة في الوضوء بالغاية في قوله

---

١. سورة البقرة: الآية ٣٧.
٢. سورة الأعراف: الآية ٢٣.
٣. سورة المائدة: الآية ١.

تعالى: ﴿ فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ﴾[١]، ومطلقة في التيمم في قوله تعالى - في الآية نفسها -: ﴿ فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه... ﴾[٢] فقيدت في التيمم بالمرافق أيضاً.

-ومنه في كفارة الظهار: ﴿ فتحرير رقبة ... ﴾[٣].

وفي كفارة القتل: ﴿ فتحرير رقبة مؤمنة ﴾[٤]، فيحمل المطلق في الأولى على المقيد في الثانية.

ت -حمل العام على الخاص:

-ومنه: نفي الخلة والشفاعة على جهة العموم في قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقنكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفعة ... ﴾[٥].

فقد استثنى الله المتقين من نفي الخلة في قوله: ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾[٦].

واستثنى ما أذن فيه من الشفاعة بقوله: ﴿ وكم من مَلَك في السّمٰوٰت لا تغني شفاعتهم شيئاً إلاّ من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾[٧].

-وقال تعالى: ﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾[٨].

خصص بمثل قوله: ﴿ وما أصبكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾[٩].

ث -ومن تفسير القرآن بالقرآن:

الجمع بين ما يتوهم أنه مختلف لخلق آدم من تراب في بعض الآيات، ومن طين في غيرها، ومن حمأ مسنون في ثالثة، ومن صلصال ... فإن هذا ذكر للأطوار التي مر بها آدم من مبدأ خلقه إلى نفخ الروح فيه.

ج-التفصيل بعد الإجمال:

كقوله تعالى: ﴿ وكنتم أزوٰجاً ثلٰثة ... ﴾ الآيات، فقد فصلت بقوله سبحانه:

---

١. سورة المائدة: الآية ٦.
٢. سورة المائدة: الآية ٦.
٣. سورة المجادلة: الآية ٣.
٤. سورة النساء: الآية ٩٢.
٥. سورة البقرة: الآية ٢٥٤.
٦. سورة الزّخرف: الآية ٦٧.
٧. سورة النجم: الآية ٢٦.
٨. سورة النساء: الآية ١٢٣.
٩. سورة الشورى: الآية ٣٠.

﴿ فأصحٰب الميمنة ... وأصحٰب المشأمة ... وأصحٰب الشمال ... ﴾[١]. وهناك غير ذلك كثير.

٢ ـ تفسير الرسول للقرآن :

قال عز من قائل: ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأنٰه فاتبع قرءانه. ثم إن علينا بيانه ﴾[٢].

قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ . تبيين حلاله وحرامه.

وقد ثبت أن جبريل كان ينزل على الرسول ﷺ في رمضان فيتدارسان القرآن، وعندما نزل عليه قوله سبحانه : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجٰهلين ﴾[٣]. قال: ما هذا يا جبريل؟

قال : إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك.

وقال ربنا لرسوله: ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾[٤].

وعن المقدام بن معد يكرب: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إنني أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان متكىء على أريكته، يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السباع، ولا لُقَطَة معاهِد. إلا أن يستغني عنها صاحبها ... الحديث» .

وروي ابن المبارك عن الصحابي الجليل عمران بن حصين أنه قال لرجل: إنك رجل أحمق، أتجد الظهر في كتاب الله أربعاً لا يُجهر فيها بالقراءة؟ ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا، ثم قال: أتجده في كتاب الله مفسراً؟ إن كتاب الله أبهم هذا، وإن السنة تفسر هذا ...

وعلى ذلك : فإذا لم نجد تفسير ما نريد من الآيات في القرآن فعلينا أن نلجأ إلى السنة ففيها: ـ

أ ـ بيان المجمل وتفصيله:

مثل: ـ بيان الرسول ﷺ لمواقيت الصلاة، وعددها، وعدد ركعاتها، وكيفيتها.

---

١. سورة الواقعة : الآية ٧ ـ ٩.
٢. سورة القيامة : الآية ١٦.
٣. سورة الأعراف : الآية ١٩٩.
٤. سورة النحل : الآية ٤٤.

-بيانه ﷺ لمقادير الزكاة، وأوقاتها وأنواعها، وبيان مناسك الحج.

إذ قال عليه الصلاة والسلام: «صلوا كما رأيتموني أصلي»، وقال: «خذوا عني مناسككم».

ب ـ توضيح المشكل: من ذلك تفسيره ﷺ للخيط الأبيض والخيط الأسود في قوله تعالى: ﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود ... ﴾[1] فقد فسره ﷺ بأنه: بياض النهار، وسواد الليل.

ومنه: تفسيره ﷺ للقوة الواردة في قوله سبحانه: ﴿ وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ... ﴾[2] فقد روى مسلم وغيره عن عقبة بن عامر قال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ وهو على المنبر ـ ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾، ألا وإن القوة الرمي. ألا وإن القوة الرمي. ألا وإن القوة الرمي».

ت ـ تخصيص العام:

ـ ومن تخصيصه ﷺ الظلم في قوله تعالى: ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ... ﴾[3] الآية حين فهم بعض الصحابة بأن المراد بالظلم العموم فقالوا: وأينا لم يظلم نفسه؟.

فخصصه ﷺ بقوله: «ليس بذلك، إنما هو الشرك» ـ ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾[4].

ـ ومنه تخصيصه ﷺ المورِّث بغير الأنبياء بقوله «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة» وفي حديث آخر «إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذه بحظّ وافر ...».

ث ـ تقييد المطلق:

ـ كما في قوله تعالى: ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ... ﴾[5] إذ قيدت باليمين. وقد جيء إليه ﷺ بسارق فأمر بقطع يمينه.

ـ وكما في حديث «سعد» في الوصية ـ مما جاء في الصحيحين وغيرهما ـ عن سعد

١. سورة البقرة: الآية ١٨٧.
٢. سورة الأنفال: الآية ٦.
٣. سورة الأنعام: الآية ٨٢.
٤. سورة لقمان: الآية ١٣.
٥. سورة المائدة: الآية ٣٨.

بن أبي وقاص قال:

«مرضت عام الفتح مرضاً أشفيت منه على الموت، فأتاني رسول الله ﷺ يعودني فقلت: يا رسول الله إن لي مالاً كثيراً، وليس يرثني إلا ابنتي، أفأوصي بمالي كله؟ قال: لا. قلت: فثلثي مالي؟ قال: لا. قلت: فالشطر؟ قال: لا. قلت: فالثلث؟ قال: الثلث، والثلث كثير، إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالةً يتكففون الناس ... الحديث».

جـ ـ تأكيد ما جاء في القرآن:

مثال ذلك: قوله ﷺ: «لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب نفس منه» فهو موافق لقوله تعالى: ﴿ ولا تأكلوا أموٰلكم بينكم بالبٰطل ... ﴾[1].

حـ ـ بيان معنى لفظ أو متعلقه:

مثال ذلك تفسير: ﴿ المغضوب عليهم ﴾، و ﴿ الضالين ﴾[2].

فقد أخرج أحمد والترمذي ـ وحسنه ـ وابن حبان في صحيحه عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المغضوب عليهم هم اليهود، وإن الضالين هم النصارى».

خـ ـ بيان أحكام زائدة على ما جاء في القرآن:

فقد أورد القرآن ـ مثلاً ـ المحرمات في قوله تعالى: ﴿ ولا تنكحوا ما نكح ءاباؤكم ... حرمت عليكم أمّهٰتكم ... ﴾[3] الآيات. فأثبتت الأحاديث زيادة على ذلك مثلاً:

الجمع بين المرأة وعمتها، والجمع بين المرأة وخالتها.

وهناك أنواع أخرى من تفسير الرسول ﷺ للقرآن.

يقول الطبري: «إن مما أنزل الله في القرآن على نبيه ﷺ ما لا يوصل إلى علم تأويله إلا ببيانه ﷺ، وذلك تأويل جميع ما فيه من وجوه أمره ونهيه، وندبه وإرشاده ... إلخ».

وقال أبو حيان: ـ في معرض حديثه عما يحتاج إليه المفسر:

الوجه الرابع: تعيين مبهم، وتبيين مجمل، وسبب نزول، ونسخ، ويؤخذ ذلك من النقل الصحيح عن الرسول ﷺ، وذلك من علم الحديث.

---

١. سورة البقرة: الآية ١٨٨.
٢. سورة الفاتحة: الآية ٧.
٣. سورة النساء: الآية ٢٢ ـ ٢٣.

القدر الذي فسره الرسول من القرآن :

الرأي الأول: اختلف العلماء في ذلك، فقال بعضهم: كله، وقال بعضهم: بعضه. فمن الذين قالوا: كله، ابن تيمية ... يقول ـ ومن ذهب مذهبه ـ: إن النبي ﷺ بيّن لأصحابه كل معاني القرآن الكريم، كما بيّن لهم ألفاظه، فلم يترك فيه جزءاً يحتاج إلى بيان إلا بينه وفسره.

وقد استدلوا على ذلك بما يأتي

١ ـ قوله تعالى: ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾[1]، فالبيان في الآية يتناول بيان معاني القرآن كله، وبيان معاني ألفاظه.

٢ ـ ما روي عن أبي عبدالرحمن السلمي قال: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وابن مسعود ـ وغيرهما رضي الله عنهم أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً.

وذكر الإمام مالك في الموطأ: أن ابن عمر أقام على حفظ سورة البقرة ثمان سنوات.

٣ ـ إن العادة تمنع قوماً أن يقرأوا كتاباً ولا يستفسروه، فكيف بالقرآن كتاب الله الذي به نجاتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ؟

٤ ـ ما أخرجه الإمام أحمد ـ في مسنده ـ وابن ماجة عن عمر من أن الرسول ﷺ قُبض قبل أن يفسر آية الربا.

قالوا: فحوى ذلك: أن النبي ﷺ كان يفسر كل ما نزل من القرآن ولم يفسر هذه الآية.

وقد رُدّ عليه بما يلي:

١ ـ إنه لا دليل في آية سورة النحل على أن الرسول فسر القرآن كله، وإنما البيان والتبيين لا يكون إلا لما أشكل فهمه.

ثم إن الآية نفسها تبيّن أن المطلوب من المسلمين أن يتفكروا في آيات القرآن.

٢ ـ ولا دليل في ما رواه أبو عبدالرحمن السلمي ـ أيضاً ـ لأنهم لم يحددوا الزمن الذي كانوا يحفظون فيه العشر آيات ... ثم إنهم كانوا يعلمون كثيراً منه مما لا يحتاج إلى بيان

---

١. سورة النحل: الآية ٤٤.

فهم أهل اللسان الأول، والبيان والفصاحة.

٣ـ استدلالهم بأن الرسول ﷺ توفي قبل تفسير آية الربا لا يدل على ما أرادوا ـ وإنما هو دليل على أن الرسول ﷺ لم يبيّن لهم كل معاني القرآن.

ثم إن ابن تيمية نفسه يقول في أحسن طرق التفسير:

الأول: إن أصح الطرق تفسير القرآن بالقرآن.

الثاني: فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة.

الثالث: إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى الناس بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها.

الرابع: إذا لم نجد في القرآن ولا في السنة ولا عند الصحابة ما نريد رجعنا إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر ... إلخ.

معنى ذلك أن الرسول لم يفسر القرآن الكريم كله.

الرأي الثاني: وهو للسيوطي وغيره، الذين ذهبوا إلى أن الرسول ﷺ لم يبين لأصحابه معاني القرآن كله، وإنما بين القليل النادر، واستدلوا على ذلك بـ:

١ ـ حديث روي عن عائشة ـ رواه البزار: عن عائشة قالت: ما كان رسول الله ﷺ يفسر شيئاً من القرآن إلا آياً بعدد، علمه إياهن جبريل.

٢ ـ بيان الرسول لكل معاني القرآن متعذر.

٣ ـ لو فسر الرسول القرآن كله ما دعا لابن عباس قائلاً: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل».

الرد عليهم:

١ ـ أما الحديث الذي استدلوا به فهو حديث منكر غريب؛ لأنه من رواية محمد بن جعفر الزبيري، وهو مطعون فيه.

٢ ـ وأما الدليل الثاني فلابد أيضاً على ندرة ما جاء عن النبي ﷺ في التفسير، إذ إن دعوة إمكان التفسير بالنسبة لآيات قلائل، وتعذره للكل غير مسلمة.

٣ ـ لو سلمنا أن الدليل الثالث يدل على أن النبي ﷺ لم يفسر كل معاني القرآن، فلا نسلم

أنه يدل على أنه فسر النادر منه كما هو المدعى.

التوفيق بين الرأيين :

روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس قال [١] :

التفسير على أربعة أوجه:

* وجه تعرفه العرب من كلامها.
* وتفسير يعلمه العلماء.
* وتفسير لا يعذر أحد بجهالته.
* وتفسير لا يعلمه إلا الله.

ولم يفسر الرسول ﷺ لأصحابه ما يرجع فهمه إلى معرفة كلام العرب؛ لأن القرآن نزل بلغتهم ، ولم يفسر لهم ما تتبادر الأفهام إلى معرفته وهو الذي لا يعذر أحد بجهله؛ لأنه لا يخفى على أحد، ولم يفسر لهم ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة ...

وإنما فسر لهم الرسول ﷺ بعض المغيبات التي أخفاها الله عنهم ... وفسر لهم أيضاً كثيراً مما يندرج تحت القسم الثالث وهو ما يعلمه العلماء ويرجع إلى اجتهادهم، كبيان المجمل، وتخصيص العام، وتوضيح المشكل، وما إلى ذلك مما خفي معناه، والتبس به المراد [٢] .

تفسير الصحابة للقرآن .

إذا لم نجد في القرآن ولا في السنة والأحاديث عن النبي ﷺ رجعنا في ذلك إلى ما صح وثبت عن الصحابة.

ذلك : أنهم أدرى منا بالقرآن، فقد بيّن لهم الرسول معانيه، وأزال مشكله، وشرح مجمله. وهم أعلم بتفسيره منا لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي أحاطت بنزول القرآن الكريم، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح، والعمل الصالح، والقلب المستضيء، والعقل الذكي، ولا سيما كبراءهم وعلماءهم كالخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وأبيّ، وزيد بن ثابت، وابن عباس، وأمثالهم.

عن عبدالله بن مسعود قال: «من كان منكم متأسياً فليتأسّ بأصحاب رسول الله ﷺ فإنهم كانوا أبرّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلّها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً،

---

١. تفسير الطبري ج ١ ص ٢٥.

٢. التفسير والمفسرون ج ١ ص ٥٥.

اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم».

وقال الإمام الشافعي عنهم: «هم فوقنا في كل علم واجتهاد، وورع، وعقل، وأمر استدرك به علم، واستنبطه به، وآراؤهم لنا أحمد، وأولى بنا من آرائنا عندنا لأنفسنا».

أدوات الاجتهاد في التفسير عند الصحابة .

أ ـ معرفة أوضاع اللغة العربية وأسرارها، فإن ذلك يعين على فهم الآيات التي لا يتوقف فهمها على غير لغة العرب.

« فقد ورد أن عمر بن الخطاب قال: عليكم بديوانكم لا تضلوا، قالوا وما ديواننا؟ قال: شعر العرب، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم».

ب ـ معرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها ... في عصر التنزيل.

فذلك مما يعين على فهم القرآن ويبعد من الوقوع في الشُّبه.

فمن عرف منهم أن خزاعة عبدت «الشعرى» ولم يعبد العرب كوكباً سواها عرف سر تخصيصها بالذكر في قوله تعالى: ﴿ وأنه هو ربُّ الشعرى ﴾[1].

ت ـ معرفة أسباب النزول ، وما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات فإنها قرائن تعين على الفهم.

يقول الواحدي[2]: لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان سبب نزولها.

وفي جواب ابن عباس لعمر بن الخطاب ما يبين أهمية معرفة سبب النزول:

إذ سأله عمر بن الخطاب عن سر اختلاف الأمة، فقال له: كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد وقبلتها واحدة؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنا أنزل علينا القرآن فقرأناه، وعلمنا فيم نزل، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرأون القرآن ولا يدرون فيم نزل، فيكون لهم فى رأي، فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا[3].

ث ـ معرفة أحوال اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول القرآن، إذ تعين على فهم الآيات التي تتحدث عنهم أو ترد عليهم.

---

١. سورة النجم: الآية ٤٩. ٢. الإتقان ج ١ ص ١٩.

٣. الموافقات ج ٣ ص ٣٤٨، أصول التشريع الإسلامي ٣٥.

حـ ـ قوة الفهم وسعة الإدراك.

وبديهي أنهم قد تفاوتوا في ذلك، وقد كان ابن عباس صاحب النصيب الأوفر في ذلك، بدعاء النبي ﷺ له .

من أهم كتب التفسير بالمأثور .

١ ـ جامع البيان في القرآن للطبري.

٢ ـ بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي . أنظر الكلام مفصلاً في تحقيقنا لدار الكتب العلمية.

٣ ـ معالم التنزيل للبغوي.

٤ ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية.

٥ ـ تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير.

٦ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي.

ثانياً: التفسير بالرأي .

والمراد بالرأي : الاجتهاد ... فالتفسير بالرأي: هو تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر لكلام العرب ومفاهيمهم في القول، ومعرفته للألفاظ ووجوه دلالتها، واستعانته في ذلك بالشعر الجاهلي، ووقوفه على أسباب النزول ، ومعرفته بالناسخ والمنسوخ من آيات القرآن، وغير ذلك من الأدوات التي يحتاج إليها المفسر.

وقد اختلف العلماء في جواز التفسير بالرأي اختلافاً كبيراً لا داعي للخوض فيه، فعليك بمقدمة البحر المحيط ، واللباب في علوم الكتاب ، وبحر العلوم ، فقد فصلنا القول فيه وفي مذاهب أهل العلم في حكم التفسير بالرأي.

من أشهر كتب التفسير بالرأي

١ ـ مفاتيح الغيب للإمام الفخر الرازي.

٢ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي .

٣ ـ مدرك التنزيل وحقائق التأويل للنفي .

٤ ـ لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن .

٥ ـ البحر المحيط لأبي حيان .. »[1].

---

١ . مقدمة المحرر الوجيز ج ١ ص ٥ ـ ١٩ .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

اهم كتب التفسير

قال ابن تيمية في اصح كتب التفسير: «وأما «التفاسير» التي في أيدي الناس فأصحها «تفسير محمد بن جرير الطبري»[1]، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين، كمقاتل بن بكير والكبي، والتفاسير غير المأثورة بالأسانيد كثيرة، كتفسير عبدالرزاق، وعبد بن حميد. ووكيع وابن أبي قتيبة وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه.

وأما «التفاسير الثلاثة» المسؤول عنها فأسلمها من البدعة والأحاديث الضعيفة «البغوي[2]»، لكنه مختصر من «تفسير الثعلبي[3]» وحذف منه الأحاديث الموضوعة،

---

١. له مؤلفات كثيرة قيل: إنه ظل أربعين سنة من عمره يكتب في اليوم الواحد أربعين ورقة. ومن أهم كتبه على الاطلاق وأكثرها نفعاً تفسيره المشهور للقرآن ويقع في ثلاثين مجلداً. انظر: مفتاح السعادة ج ٢ ص ٣١٥، تاريخ بغداد ج ٢ ص ١٦٢ـ١٦٩، وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٥٧ـ٥٧٨، المنتظم لابن الجوزي ج ٦ ص ١٧٠ـ١٧٦، البداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ١٠٦ـ١٠٨، تذكرة الحفاظ للذهبي ج ٢ ص ٢٥١ـ٢٥٥.

٢. هو أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد البغوي الفقيه الشافعي والمحدث والمفسر، المشهور بالفراء توفي سنة ٥١٦ هـ وهو من أقرب المفسرين وأجودهم رواية عن السلف، تأثر بالثعلبي في تفسيره ونقل عنه بعد أن حذف منه الأحاديث الموضوعة، ويعتبر البغوي من أئمة أهل السنة في زمانه. انظر عنه: الوفيات ج ١ ص ٤٠٢، طبقات الشافعية ج ٤ ص ٢١٤ـ٢١٧؛ تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ٢٥٧ الاعلام ج ٢ ص ٢٨٤.

٣. هو أحمد بن محمد بن ابراهيم النيسابوري صاحب التفسير. كان إماماً في اللغة والتفسير. روى عن أبي طاهر بن خزيمة وأخذ عنه الواحدي. توفي سنة ٤٢٧ هـ انظر عنه. وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٦؛ أنباء الرواة ج ١ ص ١١٩ البداية والنهاية ج ١٢ ص ٤٠؛ معجم الادباء ج ٥ ص ٣٦. طبقات المفسرين ص ٥؛ مرآة الجنان ج ٣ ص ٤٦؛ شذرات الذهب ج ٣ ص ٢٣٠؛ اللباب ج ١ ص ١٩٤. مفتاح السعادة ج ٢ ص ٦٧.

والبدع التى فيه، وحذف أشياء غير ذلك:

أما «الواحدى [١]» فإنه تلميذ الثعلبي، وهو أخبر منه بالعربية؛ لكن الثعلبى فيه سلامة من البدع وإن ذكرها تقليداً لغيره. وتفسيره و «تفسير الواحدى البسيط والوسيط والوجيز» فيها فوائد جليلة، وفيها غث كثير من المنقولات الباطلة وغيرها.

وأما «الزمخشرى [٢]» فتفسيره محشو بالبدعة، وعلى طريقة المعتزلة من إنكار الصفات والرؤية والقول بخلق القرآن، وأنكر أن الله مريد للكائنات وخالق لأفعال العباد، وغير ذلك من أصول المعتزلة.

و «تفسير القرطبى [٣]» خير منه بكثير، وأقرب إلى طريقة أهل الكتاب والسنة، وأبعد عن البدع، وإن كان كل من هذه الكتب لابد أن يشتمل على ما ينقد، لكن يجب العدل بينها، وإعطاء كل ذى حق حقه.

«وتفسير ابن عطية [٤]» خير من تفسير الزمخشرى وأصح نقلا وبحثاً وأبعد عن البدع، وإن اشتمل على بعضها، بل هو خير منه بكثير، بل لعله أرجح هذه التفاسير، لكن تفسير ابن جرير أصح من هذه كلها.

---

١. هو على بن احمد بن محمد بن على بن متويه المعروف بالواحدى. مفسر وعالم بفنون الأدب ولد بنيسابور. وتوفى بها سنة ٤٦٨ هـ من أهم مصنفاته في التفسير: البسيط، والوسيط والوجيز: أسباب النزول. انظر عنه: وفيات الاعيان ج ١ ص ٤١٩. طبقات الشافعية ج ٣ ص ٣٨٩؛ الكامل ج ١٠ ص ٣٥. البداية والنهاية ج ١٢ ص ١١٤. طبقات القراء ج ١ ص ٥٢٣؛ شذرات الذهب ج ٢ ص ٣٢٠. بغية الوعاة ص ٣٢٧ مفتاح السعادة ج ٢ ص ٦٦.

٢. هو أبو القاسم جار الله محمد بن عمر المعتزلى الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ صاحب (تفسير الكشاف) المعروف، ويعده المعتزلة من كبار مفسريهم حيث فسر القرآن على طريقتهم ومذهبهم فى الاصول الخمسة التى أخذوا أيها فى أصول العقيدة. كان غاية في الذكاء والفضل واشتهر بفخر خوارزم. انظر: وفيات الاعيان ج ٢ ص ١٠٧؛ النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٧٤؛ اللباب ج ١ ص ٥٠٧؛ تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ٧٦؛ نزهة الألباء ٤٦٩ ـ ٤٧٢؛ طبقات المفسرين ص ٤١.

٣. هو عبدالله بن الحسن بن أحمد الأنصارى القرطبى المالق من حفاظ الحديث ومن كبار أئمة التفسير. ولد سنة ٥٥٦ وتوفى سنة ٦٣١ هـ. ومن أهم كتبه تفسيره الكبير (الجامع لأحكام القرآن) وله تصانيف في القراءات. انظر عنه: بغية الوعاة ص ٢٨٠. مفتاح السعادة ج ٢ ص ٨٦؛ الإعلام ج ٢ ص ٥٥٢ (ط ١٩٢٥).

٤. هو أبو محمد عبدالله بن عطية بن عبدالله بن حبيب المتوفى سنة ٣٨٣ هـ وينبغى أن نعرف أن هناك مفسراً آخر اشتهر ابن عطية توفى سنة ٥٤١ هـ وله تفسير يسمى «المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز» قال أبو حيان: هو أجل من صنف فى علم التفسير، وأفضل من تعرض للتنقيح فيه والتحرير. وقيل فى المقارنة بين الزمخشرى وابن عطية: ان كتاب ابن عطية أقل وأجمع وأخلص، وكتاب الزمخشرى ألخص وأغوص. انظر كشف الظنون للهجويرى، بغية الوعاة ص ٢٩٥. فهرس الكتبخانة ج ١ ص ٢٠٨؛ الأعلام ج ٢ ص ٤٧٨ (ط ١٩٢٥).

وثَمَّ تفاسير أخر كثيرة جداً كتفسير ابن الجوزي [١] والماوردي [٢]، [٣].

قال احمد رضا في اختلاف أذواق المفسرين:

«قد يتصدى للأمر من لا يحسنه فيعجز عن نيل المراد، وقد يتصدى له الضليع فيه ولكنه يغلب على طبعه جهة واحدة منه فيطنب فيها حتى يكاد يهمل ما سواها. ويحسن بالمفسر لكتاب الله ان يكون جامعاً للعلوم العربية ولعلوم القرآن، قال الزمخشري: «إن العلماء كما بينوا في التفسير شرائط بينوا في المفسر ايضاً شرائط لا يحل التعاطي لمن عري عنها أو هو فيها [غير]ضالع وهي أن يعرف خمسة عشر علماً على وجه الاتقان والكمال.

(١) اللغة (٢) النحو (٣) التصريف (٤) الاشتقاق (٥) المعاني (٦) البيان (٧) البديع (٨) القراءات (٩) اصول الدين (١٠) اصول الفقه (١١) اسباب النزول والقصص (١٢) الناسخ والمنسوخ (١٣) الفقه (١٤) الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم (١٥) علم الموهبة وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم».

فإذا كان العالم جامعاً لهذه العلوم مع رسوخ قدم فيها وفضل تحقيق وصلح لأن يكون مفسراً فربما يغلب عليه الجهة التي هو إليها اميل وبها اعرق، فينحو في البحث نحوها ويطنب في أمرها اطناباً يكاد يجعل بحثه مقصوراً عليها، والزمخشري نفسه مع سعة باعه وجودة تفسيره المعروف بالكشاف قد نحا فيه منحى الجانب البياني من التفسير

---

١. هو عبدالرحمن بن علي بن الجوزي (ابو الفرج) المحدث والفقيه والمتكلم والمفسر. توفي سنة ٥٩٧ هـ. اشتهر بالوعظ وسلاسة الأسلوب. من أهم كتبه: زاد المسير في علم التفسير، تيسير البيان في علم القرآن. المغني في التفسير (قال ابن رجب: إن هذا الكتاب أحد وثمانون جزءاً) أنظر ترجمته في: وفيات الاعيان ج ٢ ص ٣٢١ ـ ٣٢٢، تاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ١٨٨، الذيل على طبقات الحنابلة ج ١ ص ٣٩٩ ـ ٤٣٣، الكامل لابن الاثير ج ١ ص ٢٢٨، ج ١٢ ص ٦٧؛ الاعلام ج ٤ ص ٨٩ ـ ٩٠. وانظر أيضاً درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٢٧٠ هامش ٦.

٢. علي بن محمد بن حبيب الفقيه الشافعي المعروف بالماوردي، درس بالبصرة وبغداد سنين كثيرة، وتولى منصب القضاء مرات عدة، وقيل: إنه يظهر تصانيفه في حياته إلا الحاوي فقد قرىء عليه كما قال ابن السبكي. له مؤلفات كثيرة من أهمها. الحاوي، الإقناع، أدب الدنيا والدين، دلائل النبوة، الاحكام السلطانية، قانون الوزارة، سياسة الملك. توفي سنة ٤٥٠ هـ. أنظر عنه: تاريخ بغداد ج ١٢ ص ١٠٢ ـ ١٠٣؛ وفيات الاعيان ج ١ ص ٤١٠ ـ ٤١١، معجم الادباء ج ١٥ ص ٥٢ ـ ٥٥، طبقات الشافعية ج ٣ ص ٣٠٣ ـ ٣١٤، المنتظر لابن الجوزي ج ٨ ص ١٩٩ ـ ٢٠٠، مفتاح السعادة ج ٢ ص ٣٣١.

٣. دقائق التفسير ج ١ ص ٣٢ ـ ٣٦.

أكثر من غيره، فكان الكشاف بذلك بيانياً أكثر منه تفسيرياً.

وقد عني بعض المفسرين بعلوم النحو والإعراب فبحث واطال حتى خرج عن الحدّ، وتمسك بعضهم بعلم الفقه فلم يدع شاردة الا ذكرها، وبعضهم نحا منحى الإخباريات وغفل عما عداها، وبعضهم شغف بالعلوم الفلسفية فصرف كلامه في التفسير إليها، وهكذا حتى اصبحت كتب التفاسير كأن كل كتاب منها الف في غير ما الف فيه الآخر، بل تكاد تستخرج من مجموعها دائرة معارف عربية، قال صاحب كشف الظنون: «ومنهم من ملأ كتابه بما غلب على طبعه من الفن واقتصر على ما تمهر فيه، كأن القرآن أنزل لأجل هذا العلم لا غير مع أن فيه تبيان كل شيء، فالنحوي تراه ليس له الا الإعراب وتكثير الأوجه المحتملة فيه وإن كانت بعيدة. وينقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافياته كالزجاج والواحدي في البسيط وأبي حيان في البحر والنهر. والإخباري ليس له شغل إلا القصص واستيفاؤها والإخبار عمن سلف سواء كانت صحيحة أو باطلة ومنهم الثعلبي، والفقيه يكاد يسرد فيه الفقه جميعاً وربما استطرد إلى إقامة ادلة الفروع الفقهية التي لا تعلق لها بالآية اصلاً والجواب عن الادلة للمخالفين كالقرطبي. وصاحب العلوم العقلية وخصوصاً الإمام الرازي قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وخرج من شيء إلى شي حتى يقضي الناظر عجباً، قال ابو حيان في البحر: جمع الإمام الرازي في تفسيره اشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير، ولذلك قال بعض العلماء: فيه كل شيء الا التفسير.

أما قدماء المفسرين فقد كانوا على طريقة مؤلفي عصرهم من إيراد الاقوال والاحاديث مسندة الى رواتها، منقولة بوجوه متعدّدة واقتصروا فيها على شرح المعاني وايراد الأحاديث الدالة على ذلك مع بيان الناسخ والمنسوخ واسباب النزول ومقتضيات الحال وما اشبه ذلك مما كان متداولاً في عصر الصحابة عن النبي ﷺ، ولم يعنوا بشرح اللغة ودقائق الإعراب ونكات البيان؛ لأن ملكة اللغة كانت في زمنهم لم تنحط إلى درجتها التي وصلت اليها بعدهم، بل كانت علوم اللسان يومئذ غير مدوّنة وكانت معرفتها الى السليقة والفطرة أقرب منها إلى التعلم.

ولم تكن هذه المباحث يومئذ معدودة في التفسير ، حتى إذا دوّنت الكتب وكثر المؤلفون وبَعُدَ عصر العربية الفصحى اصبح هذا البحث من اركان علم التفسير وعني به المحققون من المفسرين ، وظهر في العصر السادس الهجري كتاب الكشاف للعلامة الزمخشري جامعاً لغرائب الفنون من علوم اللسان ، شارحاً دقائق البيان ونكات البلاغة شرح خبير عليم فكان كتاباً ممتعاً في بابه.

ثم ظهر كتاب مجمع البيان للعلامة الطبرسي فكان غاية في الاتقان وحسن الترتيب والتبويب ، وجمع إلى البحث عن اللغة والإعراب بيان النظم وسبب النزول ، ثم فصل المعنى تفصيلاً لم يكن فيه اطناب ممل ولا اختصار مخل ؛ وهو بذلك من احسن كتب التفسير تنسيقاً وتأليفاً ومع ذلك فهو يورد الاقوال المختلفة غير متعرض لنقد أو اعتراض، بل تراه يسرد الأقوال ويترك الحكم فيها للمطالع ليشحذ ذهنه باختيار ما يراه صواباً و يتعود به من لم يتعود ملكة النقد والتمحيص»[١].

قال صديق حسن خان: «... فاعلم أن كتب التفاسير كثيرة ذكر منها ملا كاتب الجبلي في كشف الظنون ما يزيد على ثلثمائة تفسير مرتباً على حروف الهجاء ، وزدنا عليه في كتابنا الأكسير في أصول التفسير ، فمنها تفسير ابن أبي حاتم عبدالرحمن بن محمد الرازي الحافظ المتوفى سنة خمس وتسعين ومائتين.

وانتقاه الشيخ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة إحدى عشرة وتسعمائة في منجلد، ومنها تفسير ابن جرير أبي جعفر محمد الطبري المتوفى سنة عشرة وثلثمائة ، قال السيوطي في الاتقان : وكتابه أجل التفاسير وأعظمها فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض والإعراب والاستنباط فهو يفوق بذلك على تفاسير الأقدمين اهـ.

وقد قال النووي : أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبري ، وعن أبي حامد الاسفرايني أنه قال : لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيراً.

---

١. مقدمة مجمع البيان ج ١ ص ٦٥ ـ ٦٧.

ومنها: تفسير ابن كثير الإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر القرشي المتوفى سنة أربع وسبعين وسبعمائة تلميذ ابن تيمية الحراني رحمه الله تعالى، وهو كبير في عشرة مجلدات، فسر بالأحاديث والآثار مسندة عن أصحابها مع الكلام على ما يحتاج إليه جرحاً وتعديلاً.

ومنها: تفسير ابن المنذر وهو الإمام أبوبكر محمد بن ابراهيم النيسابوري المتوفى سنة ثمان عشرة وثلثمائة، ومنها: تفسير البخاري وهو ما ذكره في صحيحه وجعله كتاباً منه، وله التفسير الكبير غير هذا ذكره الفربري، ومنها تفسير النحاس وهو أبو جعفر أحمد بن محمد النحوي المصري المتوفى سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة قصد فيه الإعراب، لكن ذكر القراءات التي يحتاج أن يبين إعرابها والعلل التي فيها وما يحتاج فيه من المعاني، ومنها: تفسير الواحدي البسيط والوسيط والوجيز، وتسمى هذه الثلاثة الحاوي لجميع المعاني.

ومنها: تفسير المهدوي وهو أبو العباس أحمد بن عمار التميمي المتوفى بعد الثلاثين وأربعمائة.

ثم من المفسرين من اقتصر في تفسيره على مجرد الرواية وقنع برفع هذه الراية كجلال الدين السيوطي في الدر المنثور وغيره في غيره من المسطور، ومنهم: من اكتفى بمجرد الدراية وجرد نظره إلى مقتضى اللغة العربية بصحيح العناية وهم الأكثرون، ومنهم: من جمع بين الأمرين، وسلك المسلكين، وقليل ما هم وقليل من عبادي الشكور.

ومن أحسن التفاسير جمعاً بين الرواية والدراية فيما علمت تفسير الإمام الحافظ القاضي محمد بن علي بن محمد الشوكاني اليمني المتوفى سنة خمسين ومائتين وألف الهجرية، وهو تفسير كبير بالقول في مجلدات أربعة»[1].

١. فتح البيان ج ١ ص ١٩ ـ ٢٠.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

اقول : إنَّ تفسير الميزان للعلاّمة الطباطبائي (ره) من أحسن كتب التفسير وافضلها تنسيقاً وتأليفاً عند الإمامية ، ولذا نقدم تعريفاً مجملاً له .

يقع تفسير الميزان في ثمانية آلاف واحدى واربعين صفحة ، وقد طبع مراراً كما ترجم مرتين الى اللغة الفارسية ، وقد دُوِّن الجزء الاول من الميزان قبل عام ١٣٧٥ هـ ، وقد فرغ المفسر من كتابة الجزء الأخير منه في الثالث والعشرين من شهر رمضان المبارك سنة ١٣٩٢ هـ[١] .

وبالنسبة للمنهج : وأما المنهج التفسيري له فقد تقدم ذكره في بحث أحسن طرق التفسير من كلامه قدس سره[٢] .

وأما بالنسبة للمنهج العام لهذا التفسير هو كما يلي :

١ ـ توزيع آيات السورة المراد تفسيرها على مقاطع قرآنية ، إمّا لأنّها ينتظمها سياق واحد ، او لأنّها تعالج غرضاً من أغراض السورة ، وقد يكون المقطع آية واحدة او بضع آيات ولربما يربو على عشر آيات أو أكثر ، وأما السور القصار فقد تناول أغلبها مرة واحدة .

٢ ـ في بداية تفسير كل سورة دأب المفسر على أن يضع بين يديه مفادها الاساسي الذي عالجته ، والأغراض التي تعرضت لها آياتها ، ولإهتمام المفسر باستقلالية السور في مضامينها ومقاصدها فهو يرى : أنَّ لكل سورة نوعاً من وحدة الترابط والتكامل لا يوجد بين أبعاض من سورة ولا بين سورة وسورة ، وعليه فالأغراض والمقاصد المحصلة من السور مختلفة ، وأنَّ كل واحدة منها مسوقة لبيان معنىً خاص وغرضٍ محصل ، وفي الوقت نفسه يشير المفسر للأغراض المتعددة في السورة والتي تنطوي تحت الغرض العام لها .

٣ ـ ينبه العلامة الطباطبائي (ره) في بداية تفسيره للسورة على مكي الآيات ومدنيّها ، وقد يتعرض احياناً لمناقشة ما ورد من أقوال في هذا الشأن ، ولربما يردُّ بعضها

---

١ . أنظر : الميزان ج ٢٠ ص ٣٩٨.

٢ . أنظر ص ٥٢٤ من الكتاب الحاضر .

لمخالفتها السياق العام للآيات.

٤ ـ يشرح في الآية معاني المفردات المقتضية بياناً لغوياً، بالقدر الذي يعين على بيان المعنى وكشف المقصود، معتمداً في ذلك على كتب اللغة والتفسير دون ان يستطرد في استقصاء أقوال أهل اللغة.

والشعر عنده لا يرقى أن يكون حجة لاثبات حقائق دينية، إلاّ أنه يستشهد بالشعر أحياناً لتأييد استعمال لغوي في الآية، كما يستشهد بقول عمرو بن كلثوم في سورة النساء [١].

٥ ـ يعرض العلامة الطباطبائي من الاعراب القدر الذي يعين على فهم الآية ويزيل غموضها، ولم يستطرد في استعراض الأقوال واستكثار الوجوه النحوية في الآية.

٦ ـ ولربما يقدم صورة بلاغية او أكثر في الآية لإسهامها في بيان نكتة او فائدة، كأسلوب الالتفات والتنكير والحذف والاستعارة وغير ذلك.

٧ ـ ثم يبدأ بالنظر في الآية على مبدأ السياق الذي استخدمه المفسر في بيان المعنى هذا بعد أن يتأمل في الروايات المأثورة، يؤيدنا في ذلك أنه في البحث الروائي بعد نقل الرواية يقول: « والرواية تشير الى ما تقدم » ـ « وفي الرواية تأييد ما قدمناه في التفسير ... » [٢]. وغير ذلك.

ومن العجيب أنّه في البحث عن ترتيب الآيات والسور توقيفيّ هو ام لا؟ استدل على عدم التوقيف [٣]، ومع هذا يتمسك بالسياق وهو في صفحات الميزان، ولعلّه يعتقد مع عدم التوقيف في ترتيب الآيات، يمكن التمسك بالسياق وهو من اعجاز القرآن وهو بعيد.

---

١. أنظر: الميزان ج ٥ ص ١٥٤. ٢. الميزان ج ٨ ص ١٦.

٣. يقول (قدس سره): .... إنّ ترتيب السور انما هو من الصحابة في الجمع الاول والثاني، ومن الدليل عليه ما تقدم من الروايات من وضع عثمان الأنفال وبراءة بين الأعراف ويونس وقد كانتا في الجمع الاول متأخرتين .... والروايات ـ كما ترى ـ صريحة في دلالتها على أن الآيات كانت مرتّبة عند النبي ﷺ بحسب ترتيب النزول، فكانت المكيّات في السورة المكيّة والمدنيّات في سورة مدنية، اللهم إلاّ أن يفرض سورة نزل بعضها بمكة وبعضها بالمدينة، ولا يتحقق هذا الفرض إلاّ في سورة واحدة. ولازم ذلك أن يكون ما نشاهده من اختلاف مواضع الآيات مستنداً الى اجتهاد من الصحابة .... انظر: في ترتيب السور والآيات ج ١ ص من الكتاب الحاضر، والميزان ج ١٢ ص ١٢٦ ـ ١٣٢.

٨ ـ الى جانب الأخذ بالسياق استعان المفسر بآيات الكتاب العزيز في تفسير بعضها للبعض الآخر ، وهي قاعدته الرئيسية في التفسير ، ومن خلال هذين المبدأين استطاع المفسر أن يقف على معاني الآيات مؤيداً إياها بالمأثور عن النبي ﷺ وائمة اهل البيت عليهم السلام .

٩ ـ يُكثر المفسر من ذكر آراء المفسرين فيفيد من بعضها ، ويتعرض لبعضها الآخر بالمناقشة والتحليل ، حتى أن تحرره في الرأى دعاه احياناً الى مخالفة جمهور المفسرين ، كما أن له إثارات كلامية وفلسفية تعرض فيها لأقوال السابقين مفنداً تارة ومؤيداً أخرى ، ومن ذلك موقفه في العقائد من بعض المقولات الفلسفية . ومن مظاهر تمسكه بالنظر العقلي والجدل العلمي وتصدّيه للآراء ، استخدامه لأسلوب (فإن قُلتَ : قُلتُ) وهو شايع في تفسيره ، وقد يعبّر عن هذه الصيغة احياناً بالمجهول كقوله : (فان قيل : قيل لهم) . وحين يريد المفسر إثبات أمر ما في الآية او استنباط شيء منها لا يدّعي القطع دائماً كقوله : والله أعلم . وقوله : يمكن أن يكون المراد كذا ... والسبب في ذلك شدة احتياطه في الدين .

١٠ ـ وكثيراً ما يعلق المفسر على الروايات التي يوردها في أبحاثه الروائية بعد كلمة أقول ، فمرةً يضعّف وأخرى يوجّه ، ولربما يستعين بقسم منها في بيان المعنى كأسباب النزول وغيرها ، وقد يدفع توهماً ظاهراً بين الروايات والآيات .

١١ ـ وربما بسط الكلام في أبحاث عقلية وعلمية وفلسفية واجتماعية وتاريخية ، لتأكيد وتأييد صحة ما ذهب اليه من معنى في البيانات .

١٢ ـ وقد وقف الطباطبائي (ره) عند بعض المفاهيم والمواضيع فأولاها عناية كبيرة ، وأفرغ لها أبحاثاً قرآنية لتعيين معناها وتحديد مدلولها في القرآن الكريم ، كما في كلامه عن عصمة الأنبياء والأئمة عليهم السلام ، وأيضاً بسط الكلام في جملة أمور استدعتها مستطلبات العصر ، وأفرد لها أبحاثاً مستقلة كتوسّعه في الكلام عن المرأة ومعالجات القرآن الكريم لشؤونها ومكانتها في المجتمع .

١٣ ـ وربما بسط الكلام في أبحاث علوم القرآن بشكل واسع وقد نقل الأقوال المتعددة فيها وناقشها واستدل على رأيه بالبرهان ، وفي هذا المشروع جُمعت كلُّ آرائه

القيمة في علوم القرآن التي كتبها في مجلدات تفسير الميزان.

وأما مصادره.

إعتمد المفسر على كتب التفسير - قديمها وحديثها - فتعرض لما فيها من آراء مستعيناً ببعض منها في بيان معاني الآيات ومتعرضاً لبعضها الآخر بالنقد والتحليل، والى جانب ذلك إعتمد عليها في بيان معاني المفردات كما شاع ذلك في اعتماده على مجمع البيان، والمفردات للراغب وغيره، وسأنبه على بعض هذه الجوانب التي أفادها المفسر من هذه المصادر.

١ - مجمع البيان: وهو من أفخر كتب التفسير وأعظمها لدى الإمامية الاثنى عشرية بعد تفسير التبيان للشيخ الطوسي (ره)، ومجمع البيان للإمام السعيد أبي على الفضل بن الحسن الطبرسي المشهدي، والمفسر استعان بوجهة نظره في استخلاص معاني الآيات والمفردات واستهدى بها مؤيداً لما يراه من معنى وقد علق عليه، وقد يستعين بقوله دون تعقيب عليه، وسكوته عنه بهذا الشكل يبعث على التأييد والاستعانة به في جلاء المعنى، وهذا واضح في كثير من صفحات تفسير الميزان، وأيضاً نقل العلامة (ره) عن مجمع البيان عدداً كبيراً من الروايات الواردة عن الرسول ﷺ وأئمة اهل البيت عليهم السلام والصحابة والتابعين فيما يتعلق ببيان معاني الآيات.

٢ - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل لابي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري. ت. ٥٣٨ هـ.

وقد استعان العلامة الطباطبائي (ره) بالكشاف في بيان معنى في آية أو إفادة من صورة بلاغية أو حالة إعرابية، كما أنه نقل عن الكشاف مرويات قليلة جداً فيما لو قورنت بالجوانب المتقدمة.

وربما ذكر العلامة (ره) قولاً للزمخشري ثم علق عليه. وفي الجوانب المتعددة تعرض لمناقشته وردَّ بعض أقواله وربما لم يرجح قولاً منه [1].

٤ - مفاتيح الغيب لفخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن على الرازي

---

١. أنظر: الميزان ج ٢ ص ٢١٧ في قوله تعالى: ﴿ والصبح اذا تنفّس ﴾.

ت. ٦٠٦.

نقل العلامة (ره) من اقوال وآراء الرازى وتعرض لاكثرها بالنقد والتحليل وربما ردّ كثيراً من اقواله إن لم نقل جميع ما ذكره من آراء للرازى. لأنه من الجبرية.

٣ـ انوار التنزيل واسرار التأويل للبيضاوى ناصر الدين عبدالله بن عمر بن محمد بن على.

اعتمد المفسر عليه فى بيان معانى بعض المفردات كما نقل عنه بعض المرويات، إلاّ أنه على وجه العموم لا يشكل اثراً كبيراً بالنسبة الى المصادر التفسيرية الاخرى لضآلة ما اعتمد عليه، وقلّما تعرض لأقواله بالنقد. لأنَّ تفسير البيضاوى هو تحرير للكشاف.

٥ ـ روح المعانى لشهاب الدين السيد محمود افندى البغدادى الآلوسى.

إن وجه اعتماد الطباطبائى على هذا التفسير يشبه الى حد كبير طبيعة اعتماده على التفسير الكبير للرازى، اضافة الى ما نقله عن تفسير الآلوسى من مأثور عن النبى ﷺ، وقد تعرض لأكثر ما نقله من اقوال الآلوسى وآرائه بالنقد والمناقشة دون ان يكتفى بذكرها.

٦ ـ تفسير المنار: أفاد الطباطبائى من أقوال وآراء السيد محمد عبده وتلميذه رشيد رضا ثم ما انفك أن تعرض لأكثر ما اورده منها فى الميزان بالمناقشة والنقد.

٧ـ الجواهر فى تفسير القرآن للشيخ طنطاوى جوهرى.

نقل عنه بعض الاخبار حول الاناجيل الاربعة، وكذلك جزءاً من أخبار ذى القرنين ودول اليمن وغيرها، ولعدم رغبة المفسر فى تحميل الآيات القرآنية ما استجد من نظريات علمية ـ كما هو مشهور فى تفسير الجواهر ـ فإنه لم يعول على اقوال الشيخ جوهرى فى الاغلب الاعم بينما تعرض له بالنقد والمناقشة.

وأما اعتماده على التفاسير بالمأثور:

١ ـ العياشى الذى اعتمد عليه العلاّمة (ره) فى موارد كثيرة فى تفسير الميزان، واكتفينا بتعريفه على كلام العلاّمة الطباطبائى (قدس سره) فى مقدمة موجزة بشأن تفسير العياشى المطبوع فى سنة ١٣٨٠. وقال فيه: «إنَّ من أحسن ما ورثناه من ذلك

كتاب التفسير المنسوب الى شيخنا العياشي رحمه الله ، وهو الكتاب القيم الذى يقدمه النشر [١] اليوم الى القراء الكرام.

فهو لعمرى أحسن كتاب أُلّف قديماً فى بابه ، وأوثق ما ورثناه من قدماء مشايخنا من كتب التفسير بالمأثور.

وأما الكتاب : فقد تلقاه علماء هذا الشأن منذ أُلّف الى يومنا هذا ـ ما يقرب من أحد عشر قرناً ـ بالقبول من غير أن يذكر بقدح او يغمض [٢] فيه بطرف.

وأما مؤلفه : فهو الشيخ الجليل ابو النصر محمد بن المسعود بن محمد بن العياش التميمى الكوفي السمرقندى من أعيان علماء الشيعة ، وأساطين الحديث والتفسير بالرواية ممن عاش فى أواخر القرن الثالث من الهجرة النبوية.

وقد أجمع كل من جاء بعدهمن أهل العلم على جلالة قدره وعلوّ منزلته وسعة فضله ، وأطراه علماء الرجال متسالمين على أنه ثقة عين صدوق فى حديثه من مشايخ الرواية ، يروى عنه أعيان المحدثين كشيخنا الكشى صاحب الرجال وهو من تلامذته ، وشيخنا جعفر بن محمد بن المسعوذ العياشى وهو ولده » [٣].

٢ ـ تفسير على بن ابراهيم القمى :

إن هذا التفسير منسوب اليه من غير أن يكون من تأليفه ، وإنما هو تلفيق من إملاءاته على تلميذه أبى الفضل العباس بن محمد العلوى مع قسط وافر من تفسير أبى الجارود ، ضمّه اليها ابو الفضل وأكمله بروايات من عنده ، كما وضع له مقدمة واورد فيها مختصراً من روايات منسوبة الى اميرالمؤمنين عليه السلام فى صنوف آى القرآن ، وقد فصّلها وشرحها صاحب التفسير المنسوب الى النعمانى.

فقد أخذ ابو الفضل العلوى عن شيخه القمى ما رواه بإسناده الى الامام الباقر عليه السلام ـ وأكمله بما رواه هو عن سائر مشايخه تتميماً للفائدة.

فجاء هذا التفسير مزيجاً من روايات القمى وروايات أبى الجارود وروايات غيرهما

---

١. والصحيح : الذى يقدم للنشر اليوم. ٢. والصحيح : يغمز.

٣. مقدمة تفسير العياشى ج ١ ص ٦.

مما رواه أبو الفضل نفسه .

إذن فهذا التفسير بهذا الشكل ، هو تأليف أبى الفضل العلوى ، وإنما نسبه الى شيخه القمى لأنه الاصل والاكثر حظاً فى روايات هذا التفسير .

قال العلاّمة آغا بزرگ الطهرانى : وهذا التصرف وقع منه من أوائل سورة آل عمران حتى نهاية القرآن [١] .

ومع هذا عبّر فى مقدمته على تفسير القمى : « هذا الأثر النفيس والسفر الخالد المأثور عن الامامين الهمامين أبى جعفر محمد بن على الباقر عليه السلام ـ من طريق أبى الجارود ، وأبى عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام من طريق على بن ابراهيم القمى رضوان الله عليهما » [٢] .

وإن كان القائل فى قوله : « حدثنى ... » فى مبتدأ التفسير ، وأيضاً أبو الفضل العباس العلوى الذى يحدّث عن شيخه القمى مجهولين . لكن مما يرفع غبار الريب عن اعتبار الراوي ركون الأصحاب الى هذا الكتاب وعملهم به بلا إرتياب .

وبالجملة : إنّه تفسير معتبر بركون الأصحاب إليه ولكنه نظير سائر الكتب لا يخلو من الغث والسمين .

ولذا اعتمد العلامة الطباطبائى (ره) عليه فى تفسير الميزان . وربما يناقش فيه ، وربما بعد نقل الرواية منه يقول : الرواية وإن كانت عن أبى الجارود وهو مطعون غير أن القوم قبلوا ما رواه عن أبى جعفر عليه السلام فى حال استقامته قبل انحرافه عنه [٣] ، وقد يقال : هو تفسير بالنتيجة أو : وهو من قبيل ذكر بعض المصاديق ....

٣ ـ جامع البيان فى تفسير القرآن : لأبى جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الآملى الطبرى ، نقل عنه اقوالاً للصحابة والتابعين وروايات فى اسباب النزول .

٤ ـ الدر المنثور فى التفسير بالمأثور : للسيوطى جلال الدين عبدالرحمن بن أبى بكر . ت ٩١٠ هـ. نقل عنه أحاديث للرسول ... صلى الله عليه وآله قولاً للصحابة والتابعين وروايات فى

١ . الذريعة ج ٤ ص ٣٠٢.

٢ . مقدمة على تفسير القمى ج ١ ص ٦ و ٧ طبع دار الكتاب للطباعة والنشر ـ قم .

٣ . الميزان ج ٨ ص ٩٥.

أسباب النزول .

واما اعتماده على كتب اللغة .

١ ـ المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ت ٥٠٢ هـ.

الذي أهتم بالجانب اللغوي لغريب القرآن وأضفى على المفردات الغريبة معاني قرآنية من خلال ورودها في القرآن الكريم . وقد رتّب الأصفهاني كتابه على الحروف الهجائية ثم أدرج تحتها ما ورد من مفردات غريبة في القرآن .

أما وجه اعتماد العلاّمة الطباطبائي على هذه (المفردات) فقد كان واضحاً وواسعاً في بيان معاني المفردات .

وقد فاقت مفردات الراغب كل مصدر اعتمده المفسر بشأن مفردات القرآن الكريم وحتى مجمع البيان الذي مر التعريف به .

٢ ـ الصحاح لاسماعيل بن حماد الجوهري ت . ٣٩٦هـ.

٣ ـ لسان العرب لابن منظور المصري ، ت ٧٣٥هـ.

٤ ـ المصباح المنير لاحمد بن محمد بن علي المقري الفيوض ، ت ٧٧٠هـ.

٥ ـ القاموس المحيط لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، ت ٨١٧هـ.

٦ ـ المزهر في علوم اللغة للسيوطي .

هذه أهم مصادره في تفسير الميزان ، كما أنّه اعتمد ونقل عن أكثر من مائة من المصادر الأخرى ، نظير بحارالأنوار ، جامع الجوامع ، التهذيب ، الخصال ، الصافي ، تفسير نور الثقلين ، والبرهان وغيره .... وليس هنا مجال في هذا المختصر لذكر غيرها .

ـ الى هنا انتهى المجلد الثالث من كتاب علوم القرآن عند المفسّرين ، وفيه أبحاث حول المحكم والمتشابه والتفسير والمفسّرون . والحمدلله أولاً وآخراً وصلى الله على محمد سيد المرسلين وأهل بيته الطاهرين المكرمين ولعنة الله على أعدائهم أجمعين الى يوم الدين .

مركز الثقافة والمعارف القرآنية

فهرس المواضيع

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفهرس الاجمالي للمجلد الثالث

ـ مقدّمة الكتاب.................. ٧
ـ المحكم والمتشابه ٩
بيان فى المحكم والمتشابه...... ١١
إنّ للقرآن ظهراً وبطناً ٧٧
حكمةوجودالمتشابهفيالقرآن ١١٣
عالمون بتأويل المتشابه ١١٧
مصاديق المحكم والمتشابه في القرآن...... ١٤٧
ـ التفسير والمفسرون............. ١٦٧
معنى التفسير ومبادئه ١٦٩
معنى التأويل.................. ١٨٧
الفرق بين التفسير والتأويل ٢٠٣
الفرق بين الترجمة والتفسير والتأويل...... ٢١٥
هل القرآن يترجم ؟ ٢١٧
فضل علم التفسير ٢٢١
الحاجة الى التفسير ٢٢٩
هل يجوز التفسير ام لا ؟....... ٢٣٧
معنى التفسير بالرأي ٢٤٩
اقسام التفسير ٣٠٥
فيما يحتاج اليه المفسر ٣١٩
الاختلاف فى التفسير واسبابه .. ٣٥٩
فوائد اسباب النزول واقسامها .. ٣٦٩
قصص القرآن وسر تكريرها ... ٣٨٥
فوائد قصص القرآن ٣٨٥
سر تكرير القصص في القرآن....... ٣٩٣
الاسرائيليات................. ٤٠٣
اسباب تدخل الاسرائيليات في التفاسير .. ٤٠٣
اقسام الاسرائيليات وحكمها ٤٠٤
حكم الاستشهاد بالاسرائيليات......... ٤٠٩
نموذج من الاكاذيب في التفاسير....... ٤١٧
أثر الاخبار الاسرائيلية في التفسير ٤١٨
طبقات المفسرين ٤٢٣
احسن طُرق التفسير ٤٨٥
اهم كتب التفسير ٥٧٥
فهرس المواضيع ٥٨٩

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

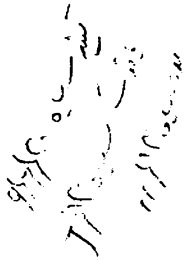

الفهرس التفصيلي للمجلد الثالث

- مقدّمة الكتاب.................. ٧

المحكم والمتشابه

- بيان في المحكم والمتشابه ١١
كلام العياشي.................. ١١
كلام الطوسي.................. ١١
كلام الراغب.................. ١١
كلام ابن تيمية ١٣
كلام الجنابذي.................. ٤٥
كلام النهاوندي.................. ٥٥
كلام الطباطبائي.................. ٥٦
كلام المدرسي.................. ٥٧
- إنّ للقرآن ظهراً وبطناً.................. ٧٥
كلام هود بن مُحَكم ٧٧
كلام العياشي ٧٧
كلام الطوسي.................. ٧٨
كلام ابن تيمية ٧٩
كلام النيشابوري.................. ٨٥
كلام الفيض الكاشاني ٨٥
كلام البحراني ٨٨
كلام الآلوسي.................. ٨٩
كلام صديق حسن خان ٩١
كلام التفتازاني.................. ٩١
كلام الجنابذي.................. ٩٢
كلام القاسمي.................. ٩٢
كلام الشاطبي.................. ٩٢
كلام النهاوندي ٩٩
كلام الطباطبائي ١٠١
كلام الصادقي ١٠٤
كلام البازوري.................. ١٠٧
كلام الشيرازي ١٠٩
كلام المدرسي ١١١
- حكمة وجود المتشابه في القرآن... ١١٣
كلام الطوسي.................. ١١٣

كلام الراغب ١١٤
كلام النهاوندي........ ١١٥
كلام الطباطبائي ١١٧
- عالمون بتأويل المتشابه........ ١٢٥
كلام العياشي........ ١٢٥
كلام هود بن مُحَكم........ ١٢٨
كلام الراغب ١٢٨
كلام البحراني ١٣٠
كلام النهاوندي........ ١٣١
كلام النووي........ ١٣٢
كلام الطباطبائي ١٣٥
كلام البازوري ١٤٦
- مصاديق المحكم والمتشابه في القرآن .. ١٤٧
كلام القمي ١٤٧
كلام ابن تيمية........ ١٤٨
كلام النهاوندي........ ١٥٥
كلام الخفاجي........ ١٦٢
كلام الزحيلي ١٦٣

التفسير والمفسرون

- معنى التفسير ومبادئه ١٦٩
كلام ابي حيان........ ١٦٩
كلام الآلوسي ١٧٠
كلام صديق حسن خان........ ١٧٠
كلام ابن عربي ١٧١
كلام عبدالقادر ١٧٢
كلام ابن عاشور ١٧٢
كلام مغنية ١٧٤
كلام السيد مصطفى الخميني... ١٧٤
كلام ابي حيان ١٧٤
كلام الطباطبائي ١٧٦
كلام المحققين ١٧٦
كلام الزركشي ١٧٦
كلام المحققين ١٧٧
كلام ابي حيان ١٧٧
كلام الزركشي ١٧٨
كلام السيوطي ١٧٨
كلام المحققين ١٧٨
كلام الراغب........ ١٧٩
كلام الفيروزآبادي........ ١٧٩
كلام ابي شهبة ١٧٩
كلام ابي حيان ١٧٩
كلام الزركشي ١٨٠
كلام احمد رضا ١٨٠
كلام الشيرازي ١٨٢
كلام ابن عاشور ١٨٢
كلام عبدالقادر ١٨٥
- معنى التأويل........ ١٨٧

كلام ابن تيمية.............. ١٨٧
كلام محمد بن جرير الطبري ١٨٨
كلام الآلوسي ١٩١
كلام الجنابذي ١٩٢
كلام عبدالقادر ١٩٢
كلام المحققين ١٩٣
كلام الزرقاني.................. ١٩٣
كلام الفيروزآبادي................ ١٩٣
كلام عبدالسلام ١٩٥
كلام خالد عبدالرحمن ١٩٥
كلام الجرجاني ١٩٥
كلام احمد رضا ١٩٦
كلام الطباطبائي ١٩٦
- الفرق بين التفسير والتأويل . ٢٠٣
كلام ابن تيمية.............. ٢٠٣
كلام الثوري.................. ٢٠٥
كلام الراغب ٢٠٦
كلام الطبرسي.............. ٢٠٩
كلام ابي العباس المبرد............ ٢٠٩
كلام ابن الجوزي.............. ٢١٠
كلام صديق حسن خان......... ٢١٠
كلام البغدادي.............. ٢١١
كلام ابن جزي ٢١١
كلام الآلوسي ٢١١
كلام ابو عبيدة ٢١١
كلام الراغب................... ٢١١
كلام النهاوندي.............. ٢١٢
كلام ابن عاشور ٢١٢
كلام عبدالسلام............. ٢١٣
كلام المحققين.............. ٢١٤
كلام ابي عبيد القاسم بن سلام....... ٢١٤
كلام الراغب.................. ٢١٤
كلام ابي طالب الثعالبي.......... ٢١٤
كلام الماتريدي.................. ٢١٤
كلام محمد حسين الذهبي.......... ٢١٥
كلام الزركشي.................. ٢١٥
- الفرق بين الترجمة والتفسير والتأويل ٢١٥
كلام الصادقي.............. ٢١٥
- هل القرآن يترجم ؟ ٢١٧
كلام ابن تيمية.............. ٢١٧
كلام القاسمي ٢١٩
كلام ابن جزري ٢١٩
كلام الزحيلي.............. ٢١٩
- فضل علم التفسير ٢٢١
كلام الراغب ٢٢١
كلام ابن عطية.............. ٢٢٢
كلام ابن الجوزي.............. ٢٢٢
كلام القرطبي ٢٢٢

كلام مجاهد ٢٢٣
كلام الحسن ٢٢٣
كلام الشعبي ٢٢٣
كلام عكرمة ٢٢٣
كلام ابن عبدالبر ٢٢٣
كلام ابن عباس ٢٢٣
كلام اياس بن معاوية ٢٢٣
كلام ابي حيان ٢٢٣
كلام الحسن ٢٢٤
كلام ابن عباس ٢٢٤
كلام مجاهد ٢٢٤
كلام الثعالبي ٢٢٤
كلام الشعبي ٢٢٤
كلام علي بن ابي طالب عليه السلام ٢٢٤
كلام اياس بن معاوية ٢٢٤
كلام ابن عباس ٢٢٥
كلام مجاهد ٢٢٥
كلام الحسن ٢٢٥
كلام الآلوسي ٢٢٥
كلام صديق حسن خان ٢٢٥
كلام القرطبي ٢٢٦
كلام الشوكاني ٢٢٦
كلام مجاهد ٢٢٦
كلام الشعبي ٢٢٦
كلام عكرمة ٢٢٦
كلام ابن عباس ٢٢٧
كلام اياس بن معاوية ٢٢٧
كلام احمد رضا ٢٢٧
ـ الحاجة الى التفسير ٢٢٩
كلام الآلوسي ٢٢٩
كلام عبدالقادر ٢٢٩
كلام المحققين ٢٣٠
كلام السيوطي ٢٣١
كلام احمد رضا ٢٣٢
ـ هل يجوز التفسير أم لا ؟ ٢٣٧
كلام الطبري ٢٣٧
كلام الماوردي ٢٤٣
كلام الطوسي ٢٤٥
كلام ابن جزي ٢٤٥
كلام ابن كثير ٢٤٦
كلام الجنابذي ٢٤٦
كلام عبدالسلام ٢٤٧
كلام المدرسي ٢٤٧
ـ معنى التفسير بالرأي ٢٤٩
كلام هود بن مُحَكم ٢٤٩
كلام الطبري ٢٤٩
كلام العياشي ٢٥١
كلام الطوسي ٢٥٢

كلام البغوي ٢٥٤
كلام ابن تيمية........................ ٢٥٦
كلام ابن جرير........................ ٢٥٨
كلام ابي عبيد........................ ٢٥٩
كلام القرطبي ٢٦٠
كلام ابن عطية ٢٦٠
كلام ابي بكر محمد بن القاسم ٢٦٠
كلام ابن عطية ٢٦١
كلام البغدادي........................ ٢٦٢
كلام ابي حيان........................ ٢٦٣
كلام الثعالبي........................ ٢٦٤
كلام الفيض الكاشاني.................. ٢٦٥
كلام البحراني ٢٦٨
كلام الآلوسي ٢٧١
كلام صديق حسن خان.................. ٢٧٣
كلام البغوي........................ ٢٧٣
كلام الجنابذي ٢٧٤
كلام القاسمي ٢٧٥
كلام الشاطبي........................ ٢٧٥
كلام ابن عاشور ٢٧٩
كلام الطباطبائي ٢٨٦
كلام الشيرازي ٣٠٠
كلام الصادقي ٣٠٠
كلام المدرسي ٣٠٠
- اقسام التفسير ٣٠٥
كلام المحققين........................ ٣٠٥
كلام رشيد رضا ٣٠٦
كلام عبدالقادر ٣٠٧
كلام المحققين........................ ٣٠٧
كلام الطبري ٣٠٨
كلام الماوردي........................ ٣١٠
كلام المحققين........................ ٣١٢
كلام الطبري........................ ٣١٢
كلام صديق حسن خان.................. ٣١٣
كلام الجنابذي ٣١٤
كلام المحققين ٣١٦
كلام احمد رضا ٣١٦
- فيما يحتاج اليه المفسّر.................. ٣١٩
كلام هود بن مُحَكم.................. ٣١٩
كلام الراغب ٣١٩
كلام ابن جزي ٣٢٢
كلام ابي حيان........................ ٣٢٥
كلام الجنابذي ٣٢٩
كلام القاسمي ٣٢٩
كلام الشاطبي........................ ٣٢٩
كلام رشيد رضا ٣٣٠
كلام عبدالقادر ٣٣٣
كلام الآلوسي........................ ٣٣٥

كلام ابن عاشور ٣٣٦
كلام السكاكي ٣٣٨
كلام السيد الجرجاني ٣٣٩
كلام الشيخ عبدالقاهر ٣٤٥
كلام الآلوسي ٣٤٧
كلام الطوسي ٣٤٧
كلام النهاوندي ٣٤٨
كلام مغنية ٣٥٢
كلام المحققين ٣٥٣
كلام القيسي ٣٥٣
كلام المدرسي ٣٥٣
ـ الاختلاف في التفسير واسبابه ٣٥٤
كلام ابن تيمية ٣٥٩
كلام ابن جزي ٣٦٥
كلام المحققين ٣٦٦
ـ فوائد اسباب النزول واقسامها ٣٦٩
كلام ابن تيمية ٣٦٩
كلام القاسمي ٣٧٠
كلام ابن تيمية ٣٧٠
كلام الزركشي ٣٧٣
كلام الشاطبي ٣٧٣
كلام الحسن ٣٧٥
كلام ابن سيرين ٣٧٥
كلام ولي الله الدهلوي ٣٧٥
كلام عبدالقادر ٣٧٧
كلام ابن عاشور ٣٧٨
كلام الزحيلي ٣٨٣
كلام الصادقي ٣٨٤
ـ في قصص القرآن وسرّ تكريرها ... ٣٨٥
فوائد قصص القرآن ٣٨٥
كلام القاسمي ٣٨٥
كلام ابي العباس احمد بن زروق ٣٨٦
كلام ولي الله الدهلوي ٣٨٦
كلام ابن عاشور ٣٨٧
سرّ تكرير القصص في القرآن ... ٣٩٣
كلام الطوسي ٣٩٣
كلام ابن جزي ٣٩٥
كلام القاسمي ٣٩٥
كلام ابن تيمية ٣٩٨
كلام ابن عاشور ٣٩٩
ـ الاسرائيليات ٤٠٣
اسباب تدخل الاسرائيليات في التفاسير ٤٠٣
كلام القاسمي ٤٠٣
اقسام الاسرائيليات وحكمها ... ٤٠٤
كلام ابن تيمية ٤٠٤
كلام العياشي ٤٠٥
كلام البحراني ٤٠٦

كلام النهاوندي............٤٠٧
حكم الاستشهادبالاسرائيليات..٤٠٩
كلام ابن عربي ٤٠٩
كلام القاسمي ٤٠٩
كلام احمد بن حنبل ٤١٠
كلام الحافظ الذهبي ٤١١
كلام السيوطي ٤١١
كلام ابن كثير ٤١٢
كلام الذهبي ٤١٢
كلام ابن حزم ٤١٢
كلام البقاعي ٤١٣
كلام الماوردي ٤١٣
كلام الشافعي ٤١٤
كلام ابي الفضل بن حجر............٤١٦
نموذج من الاكاذيب في التفاسير.٤١٧
كلام البلاغي ٤١٧
أثر الاخبار الاسرائيلية في التفسير ٤١٨
كلام خالد عبدالرحمن ٤١٨
كلام المحققين ٤١٩
كلام الذهبي ٤٢٠
ـ طبقات المفسرين............٤٢٣
كلام هود بن مُحَكم............٤٢٣
كلام الطبري ٤٢٤
كلام ابن عطية............٤٢٦
كلام ابن تيمية............٤٢٨
كلام القرطبي ٤٣٠
كلام ابن عطية ٤٣٠
كلام ابي بكر الانباري............٤٣٠
كلام عامر بن واثلة ٤٣١
كلام المنهال بن عمرو ٤٣١
كلام ابن عطية ٤٣٢
كلام ابن كثير............٤٣٢
كلام ابن جرير............٤٣٢
كلام ابي حيان............٤٣٤
كلام ابن جزي ٤٣٤
كلام الفيض الكاشاني ٤٣٦
كلام البحراني............٤٤٠
كلام صديق حسن خان ٤٤٤
كلام الجنابذي ٤٤٦
كلام القاسمي ٤٤٧
كلام اليماني............٤٤٧
كلام المراغي ٤٤٨
كلام ابن عاشور ٤٥٣
كلام الشيرازي ٤٥٥
كلام عبدالسلام ٤٥٥
كلام المحققين............٤٦٢
كلام السيوطي............٤٦٢
كلام الخفاجي............٤٧١

كلام المحققين ٤٧٢
كلام احمد رضا ٤٨٠
- احسن طُرقِ التفسير ٤٨٥
كلام ابن تيمية ٤٨٥
كلام الشافعي ٤٨٥
كلام شعبة بن الحجاج ٤٨٨
كلام البلاغي ٤٨٨
كلام القرطبي ٤٩٢
كلام ابن جزي ٤٩٢
كلام صديق حسن خان ٤٩٣
كلام السيوطي ٤٩٣
كلام القاسمي ٤٩٧
كلام الماوردي ٥٠٠
كلام ابي حيان ٥٠١
كلام الشاطبي ٥٠١
كلام عبدالقادر ٥١٤
كلام محمد امين ٥١٥
كلام ابن عاشور ٥٢٩
كلام الطباطبائي ٥٣٤
كلام الصادقي ٥٤٣
كلام المحققين ٥٥٤
كلام الزركشي ٥٥٤
كلام الحاكم ٥٥٧
كلام ابي شهبة ٥٥٧
كلام المحققين ٥٦٠
كلام المحققين ٥٦٣
كلام عبدالسلام ٥٦٣
- اهم كتب التفسير ٥٧٥
كلام ابن تيمية ٥٧٥
كلام احمد رضا ٥٧٧
كلام صديق حسن خان ٥٧٩
كلام السيوطي ٥٧٩
كلام النووي ٥٧٩
كلام المحقق في تفسير الميزان . ٥٨١
فهرس المواضيع ٥٨٩

چکیده

علوم قرآنی یکی از دانش‌های پایه‌ای در تفسیر قرآن و راه‌یابی به ساحت کلام الهی است. در این‌باره بحث‌های گوناگونی از سوی دانشوران اسلامی ـ به ویژه مفسران قرآن کریم ـ صورت گرفته، اما مطالب آنان به صورت پراکنده در مقدمه‌های تفسیر یا در ضمن مباحث تفسیری بیان شده است. جمع‌آوری آنان اینک در اثر حاضر به کوشش جمعی از پژوهشگران مرکز فرهنگ و معارف قرآن، به شکل منطقی و منظم در سه جلد سامان یافته است.

مؤسسه بوستان کتاب

مؤسسه بوستان کتاب
(مرکز چاپ و نشر دفتر تبلیغات اسلامی حوزهٔ علمیهٔ قم)
پرافتخارترین ناشر برگزیدهٔ کشور
نشانی دفتر مرکزی: ایران، قم، اول خیابان شهدا، نبش کوچهٔ ۱۷، ص پ: ۹۱۷
تلفن: ۹۸۲۵۱۷۷۴۲۱۵۵+، فاکس: ۹۸۲۵۱۷۷۴۲۱۵۴+، پخش: ۹۸۲۵۱۷۷۴۳۴۲۶+

علوم القرآن عند المفسرين

جلد سوم

مرکز فرهنگ و معارف قرآن

بوستان کتاب

۱۳۸۶

Abstract

Qur'ānic sciences are one of the fundamental groups of knowledge that are instrumental in the exegesis of the Glorious Qur'ān and hence, highly influential in understanding the Word of God and the Divine Revelation. Although a great deal of discussion has been conducted by the Muslim scholars, and in particular the commentators of the Glorious Qur'ān, on Qur'ānic sciences throughout past centuries, such discussions, mostly in the form of written materials, are often randomly placed in introductions to Qur'ānic interpretations or included in between the lines of exegetical texts and articles.

This work prepared in three volumes and made possible through efforts by the researchers of Markaz-e Farhang va Ma'āref-e Ghor'ān, has embarked on a logical and categorical compilation of a large amount of material related to Qur'ānic sciences that have been included in Qur'ānic commentaries since early times.

The Publisher

Būstān-e Ketāb Publishers

Frequently selected as the top publishing company in Irān, Būstān-e Ketāb Publishers is the publishing and printing house of the Islāmic Propagation Office of Howzeh-ye Elmīyeh-ye Ghom, Islāmic Republic of Irān.
P.O. Box: 37185-917
Telephone: +98 251 774 2155
Fax: +98 251 774 2154
E-mail: info@bustaneketab.com
Web-site: www.bustaneketab.com

‘Ulūm-u l-Ghur’ān ‘ind al-Mufassirīn

Qur'ānic Sciences and Exegetists

Volume 3

Markaz-u th-Thighāfa(h)t-i va l-Ma'ārif-i l-Ghur'āniyyah

Būstān-e Ketāb Publishers
1386/2007